جامعـــــة دمـشـــــق
كلية الآداب والعلوم الإنسـانية
قـــســـــــم التـــاريـــخ

# الأيوبيون ومملكة القدس اللاتينية الثانية

## (٥٨٧-٦٥٨هـ/ ١١٩١-١٢٦٠)

أطروحة أُعدت لنيل درجة الدكتوراه في تاريخ العرب والإسلام

إعداد الطالب:

**فراس نجيب عبد الرحمن**

إشراف:

**أ.د. سهيل زكار**

دمشق ١٤٤٠هـ/ ٢٠١٨م

# إهداء

إلى مَنْ فارقنا جسداً وللازال يعيش معنا روحاً

إلى من غرس فينا حب العلم والمعرفة

إلى من أعطانا كل ما طلبناه بلا مقابلٍ وكان مُحَفِّزاً في كلِّ سُبل الخير

إلى مَن غرس بذور العلم فينا ولم يشاهد نتاج غراسه

إلى مَن تَعِبَ لنرتاح وسَهِرَ لننام وتجشَّمَ عناء العيش لنَنْعَمَ نحن

إلى الذي كان يدفعني قُدُماً نحو التعلم ونيل أعلى الدرجات

**أبي**، رحمه الله وأحسن مثواه.

إلى منابع العطاء والحنان والمحبة في كل زمان ومكان

إلى تلك الدعوات الصالحات آناء الليل وأطراف النهار

إلى التي أثمرت دعواتها في بحثي هذا

إلى مَن تقفُ الإنسانيةُ عاجزةً أمام فضائلها

**أمي**، أطال الله عمرها فيما يحب ويرضى

# بطاقة شكر وتقدير وعرفاناً بالجميل

بعد شكر الله عز وجل وحمده على توفيقه لي لإتمام هذا البحث وخروجه إلى النور أتقدم بالشكر والتقدير لكل من له فضل عليَّ في إنجاز هذا العمل، ولاسيما الأستاذ الدكتور سهيل زكار الذي غرس فينا حب العلم والمعرفة القائمين على التدقيق والتمحيص منذ وطِئت أقدامنا أرض هذه الجامعة، وكان مثالاً للمعلم والأب والأخ والصديق، ورعى هذ البحث، وكان يبادرني بالسؤال عنه كما لو أنه يصنعه هو.

أزجي إليه وافر الشكر والمحبة على تلك الآراء السديدة والملاحظات الدقيقة التي أغنت هذا البحث وصوبت ما فيه من أخطاء.

والشكر موصول لجميع من قدَّم لي العون سواءً بالتوجيه أم التشجيع، أم المساعدة التي كان أبسطها وأهمها الأُمنيات والدعوات الطيبة والكلمات القليلة الجميلة.

## دلالة الرموز المستخدمة في البحث:

| | |
|---|---|
| ص | صفحة |
| ج | جزء |
| ق | قسم |
| مج | مجلد |
| تح | تحقيق |
| تر | ترجمة |
| ط | طبعة |
| / | للفصل بين رقم كل من الجزء والقسم والصفحة |
| ت | توفِّيّ |
| م | ميلادي |
| هـ | هجري |
| " " | وضعت بينها كل جملة أو نص منقولة حرفياً |

كما أنه لم يتم استخدام مصطلح: مصدر سابق أو مرجع سابق في الهوامش، أو ما شابه ذلك.. لوضوح القصد ولتجنب إثقال الحواشي بما لا فائدة منه.

# فهرس المحتويات


| الموضوع | الصفحة |
|---|---|
| **المقدمة** | ١ |
| **دراسة المصادر** | ٨ |
| **الفصل الأول**<br>**تأسيس مملكة القدس اللاتينية الثانية عام ٥٨٧هـ/ ١١٩١م واتخاذها عكا عاصمة لها بشكلٍ مؤقتٍ بدل القدس** | ٢٦ |
| **المبحث الأول: جغرافيا عكا** | ٢٦ |
| أولاً: أهمية الموقع الجغرافي | ٢٦ |
| ثانياً: التسمية وتطورها | ٣٣ |
| **المبحث الثاني: لمحة تاريخية عن عكا قبل اتخاذها عاصمة لمملكة القدس اللاتينية الثانية** | ٣٥ |
| أولاً: عكا قبل الاجتياح الصليبي لبلاد الشام | ٣٥ |
| ثانياً: تاريخ عكا منذ الاجتياح الصليبي لبلاد الشام حتى اتخاذهم لها عاصمة مؤقتة | ٣٧ |
| **المبحث الثالث: العناصر التي أدت دوراً هاماً في تأسيس مملكة القدس اللاتينية الثانية عام ٥٨٧هـ/١١٩١م** | ٤٢ |
| أولاً: دور مدينة صور | ٤٢ |
| ثانياً: دور المركيس كونراد Conrand | ٥٣ |
| ثالثاً: دور الملك غي (كي) دي لوزنيان Guy De Lusignan | ٦١ |
| رابعاً: دور الحملة الثالثة | ٦٦ |
| **المبحث الرابع: الحصار الصليبي لعكا، والمقاومة الإسلامية بين عامي ٥٨٥-٥٨٧هـ/ ١١٨٩-١١٩١م حتى سقوطها** | ٧١ |
| أولاً: بداية الحصار الفرنجي لعكا عام ٥٨٥هـ/ ١١٨٩م | ٧١ |
| ثانياً: المعركة الكبرى حول عكا ٥٨٥هـ/ ١١٨٩م | ٧٤ |
| ثالثاً: الإمدادات والمساعدات الغربية للفرنج المحاصرين عكا | ٨٠ |
| رابعاً: وقائع وأحداث مهمة بين الطرفين قبل سقوط عكا | ٨٤ |
| ١- وقعة الرمل في صفر ٥٨٦هـ/ آذار ١١٩٠م | ٨٤ |
| ٢- الوقعة العادلية ٢٠ جمادى الآخر ٥٨٦هـ/ أواخر تموز ١١٩٠م | ٨٥ |
| ٣- التطورات الميدانية حول عكا بعد موقعة العادلية ودخول الإمدادات إليها | ٨٦ |
| ٤- تبديل حامية عكا | ٨٨ |
| خامساً: المجاعة والمصاعب التي لحقت بالفرنج حول عكا في شتاء ٥٨٦هـ/ ١١٩٠م | ٩٠ |
| سادساً: وصول ملكي فرنسا وإنكلترا إلى المعسكر الفرنجي حول عكا وتغيُّر مجرى المعارك حولها | ٩٢ |
| سابعاً: استسلام عكا ودخول الفرنج إليها | ٩٥ |
| **الفصل الثاني**<br>**النزاع على وراثة العرش في مملكة القدس اللاتينية الثانية ٥٨٧-٦٩٠هـ/ ١١٩١-١٢٩١م** | ١٠٣ |
| **المبحث الأول: الصراع على العرش في بداية تأسيس المملكة** | ١٠٤ |
| **المبحث الثاني: الصراع على العرش في مرحلة توحيد التاج مع قبرص (٥٩٥-٦٠٢هـ/١١٩٨-١٢٠٥م)** | ١١٩ |
| **المبحث الثالث: الصراع على عرش المملكة منذ انفصال التاج عن قبرص حتى تسلم فردريك هوهنشتاوفن (فردريك الثاني) عرش المملكة (٦٠٢-٦٢٢ هـ / ١٢٠٥- ١٢٢٥م)** | ١٢٣ |
| **المبحث الرابع :الصراع على عرش مملكة القدس اللاتينية الثانية في عهد أسرة آل هوهنشتاوفن (٦٢٢-٦٦٧هـ/ ١٢٢٥-١٢٦٨م)** | ١٢٩ |

| | |
|---|---|
| أولاً: منذ زواج الإمبراطور فردريك بوريثة عرش المملكة عام ٦٢٢هـ/ ١٢٢٥م حتى رحيله عن عكا عام ٦٢٦هـ/١٢٢٩م. | ١٢٩ |
| ثانياً: بعد رحيل فردريك عن عكا عام ١٢٢٩م حتى قدوم لويس التاسع إليها عام ٦٤٨هـ/ ١٢٥٠م | ١٣٢ |
| ثالثاً: أثناء وجود الملك الفرنسي لويس التاسع في المملكة ٦٤٨- ٦٥٢ هـ/ ١٢٥٠- ١٢٥٤م | ١٣٦ |
| رابعاً: النزاع على عرش المملكة في عهد كونرادين هوهنشتاوفن ٦٥٢- ٦٦٧هـ/ ١٢٥٤- ١٢٦٨ م | ١٣٩ |
| **المبحث الخامس : الصراع على عرش مملكة القدس اللاتينية الثانية في عهد آل لوزجنان (٦٦٧- ٦٩٠هـ/ ١٢٦٨- ١٢٩١م)** | ١٤٨ |
| أولاً: عودة عرش مملكة القدس إلى آل لوزجنان | ١٤٨ |
| ثانياً: النزاع على العرش في عهد هيو الأنطاكي ٦٦٨-٦٨٣هـ/ ١٢٦٩- ١٢٨٤م | ١٥١ |
| ثالثاً: النزاع على العرش في عهد خلفاء هيو الأنطاكي منذ وفاته عام ٦٨٣هـ/ ١٢٨٤م حتى سقوط المملكة عام ٦٩٠هـ/ ١٢٩١م | ١٥٦ |
| **الفصل الثالث**<br>**النظام السياسي والعناصر السكانية في مملكة القدس اللاتينية الثانية** | ١٦٢ |
| **المبحث الأول: النظام السياسي** | ١٦٢ |
| المحكمة العليا Haute Cour في عكا | ١٧٤ |
| **المبحث الثاني: العناصر السكانية في مملكة القدس اللاتينية الثانية** | ١٧٧ |
| العنصر الفرنسي | ١٧٨ |
| العنصر الإيطالي | ١٧٩ |
| العنصر الإنكليزي | ١٨١ |
| التنظيمات العسكرية الدينية في مملكة القدس اللاتينية الثانية | ١٨٣ |
| أ- تنظيم فرسان التيوتون | ١٨٦ |
| ب- تنظيم فرسان القديس لازوروس (لعازر) | ١٨٩ |
| ج- تنظيم القديس توما في عكا | ١٩٠ |
| **الفصل الرابع**<br>**العلاقات الأيوبية مع مملكة القدس اللاتينية الثانية منذ نشوء الأخيرة حتى قدوم الحملة الصليبية الخامسة (٥٨٧- ٦١٤ هـ/ ١١٩١-١٢١٧م)** | ١٩٥ |
| **المبحث الأول: العلاقات بين الجانبين منذ سقوط عكا بيد الصليبيين عام ٥٨٧هـ/ ١١٩١م حتى رحيل ريتشارد عنها ٥٨٨هـ/ ١١٩٢م (العلاقات العسكرية والدبلوماسية)** | ١٩٥ |
| أولاً: العلاقات العسكرية | ١٩٥ |
| معركة أرسوف | ١٩٧ |
| الاستيلاء على قلعة الداروم | ٢٠٨ |
| الهجوم الصليبي الثاني على القدس عام ٥٨٨هـ/ ١١٩٢م | ٢٠٩ |
| استيلاء الفرنج على قافلة مصرية كبيرة | ٢١٢ |
| ثانياً: العلاقات السياسية الدبلوماسية بين الجانبين(دبلوماسية صلاح الدين وريتشارد) | ٢١٨ |
| ١-أولى الاتصالات الدبلوماسية بين الطرفين والأسباب التي دعت إلى ذلك (مرحلة جس النبض) | ٢١٨ |
| ٢-مشروع المصاهرة السياسية | ٢٢٢ |
| ٣-صلاح الدين ما بين كونراد Conrand وريتشارد Richard | ٢٢٤ |
| ٤-المفاوضات بين الجانبين الإسلامي والصليبي بعد مقتل كونراد Conrand | ٢٣١ |
| ٥- صلح الرملة ٢١ شعبان ٥٨٨هـ/ ٢ أيلول ١١٩٢م | ٢٣٨ |
| شروط صلح الرملة | ٢٤١ |
| **المبحث الثاني: العلاقات الأيوبية مع مملكة القدس اللاتينية الثانية بعد صلاح الدين وريتشارد حتى توحيد التاج مع قبرص عام ٥٩٣هـ/ ١١٩٧م** | ٢٤٨ |
| أولاً: أوضاع مملكة القدس بعد رحيل ريتشارد عام ٥٨٨هـ/ ١١٩٢م | ٢٤٨ |

| | |
|---|---|
| ثانياً: أوضاع الأيوبيين الداخلية بعد وفاة صلاح الدين | ٢٥٢ |
| ثالثاً: العلاقات الأيوبية مع مملكة القدس اللاتينية الثانية منذ صلح الرملة حتى قدوم الحملة الألمانية عام ٥٩٣هـ/ ١١٩٧م، وانعكاسات هذه العلاقات على حرب الوراثة الأيوبية | ٢٥٤ |
| رابعاً: العلاقات الأيوبية مع مملكة القدس اللاتينية الثانية خلال الحملة الألمانية عام ٥٩٣هـ/ ١١٩٧م | ٢٥٨ |
| **المبحث الثالث: العلاقات الأيوبية مع مملكة القدس اللاتينية الثانية خلال مرحلة توحيد التاج مع قبرص (٥٩٣-٦٠٢هـ/ ١١٩٧-١٢٠٥م)** | ٢٧٢ |
| أولاً: هدنة عام ٥٩٤هـ/ ١١٩٨م | ٢٧٢ |
| ثانياً: انعكاسات حرب الوراثة على العلاقات الأيوبية الصليبية بعد توقيع هدنة ٥٩٤هـ/ ١١٩٨م | ٢٧٤ |
| ثالثاً: العلاقات الأيوبية الصليبية بعد هدنة عام ٥٩٤هـ/ ١١٩٨م وأثناء الحملة الرابعة | ٢٧٥ |
| رابعاً: هدنة عام ٦٠١هـ/ ١٢٠٤م | ٢٨١ |
| خامساً: العلاقات بين مملكة حماة الأيوبية ومملكة القدس اللاتينية الثانية خلال مرحلة توحيد التاج | ٢٨٣ |
| **المبحث الرابع: العلاقات الأيوبية مع مملكة القدس اللاتينية الثانية بعد انفصال تاج الأخيرة عن قبرص إلى ما قبل مجيء الحملة الخامسة (٦٠١-٦١٤هـ/ ١٢٠٥-١٢١٧م)**<br>وصاية يوحنا ابلين وجان دي بريين John de Briene على عرش عكا | ٢٨٩ |
| أولاً: العلاقات في ظل وصاية يوحنا ابلين ٦٠١-٦٠٧هـ/ ١٢٠٥-١٢١٠م | ٢٨٩ |
| ثانياً: العلاقات في ظل ووصاية جان دي بريينJohn de Briene (٦٠٧-٦١٤هـ/ ١٢١٠-١٢١٧م) معاهدة عام ٦٠٩هـ/ ١٢١٢م وبناء قلعة جبل الطور | ٢٩٣ |
| **الفصل الخامس**<br>**العلاقات الأيوبية مع مملكة القدس اللاتينية الثانية خلال الحملتين الصليبيتين الخامسة والسادسة، والدور الذي شغلته المملكة في هاتين الحملتين** | ٢٩٨ |
| **المبحث الأول: العلاقات أثناء الحملة الصليبية الخامسة (٦١٤-٦١٨هـ/ ١٢١٧-١٢٢١م)** | ٢٩٨ |
| أولاً: العلاقات في بلاد الشام قبل توجّه الحملة الخامسة إلى دمياط، ودور مملكة القدس في هذه الحملة | ٢٩٨ |
| ثانياً: العلاقات أثناء حصار دمياط | ٣٠٧ |
| ثالثاً: السياسة الأيوبية الجديدة تجاه الصليبيين أثناء الحملة الصليبية الخامسة | ٣١٥ |
| ١-السياسة الأيوبية العامة في بلاد الشام تجاه مملكة القدس اللاتينية الثانية (الخراب والدمار) | ٣١٥ |
| ٢-السياسة الخاصة للكامل الأيوبي أثناء حصار دمياط (٦١٥-٦١٦هـ/ ١٢١٨-١٢١٩م)، والموقف الصليبي منها (المواجهات والمساومات والتنازلات) | ٣٢٠ |
| رابعاً: العلاقات والأوضاع الأيوبية الصليبية عَقِبَ سقوط دمياط عام ٦١٦هـ/ ١٢١٩م | ٣٣٤ |
| خامساً: توقيع صلح عام ٦١٨هـ/١٢٢١م وهدوء الجبهة العسكرية بين الجانبين الأيوبي والصليبي | ٣٤٣ |
| سادساً: العلاقات السياسية والدبلوماسية بين الأيوبيين ومملكة القدس اللاتينية الثانية بعد اخفاق الحملة الخامسة ٦١٨هـ/ ١٢٢١م حتى قدوم السادسة عام ٦٢٦هـ/ ١٢٢٨م<br>(العلاقات والأوضاع داخل بلاد الشام وسياسة المساومات والتحالفات الخارجية) | ٣٤٧ |
| **المبحث الثاني: العلاقات الأيوبية مع مملكة القدس اللاتينية الثانية خلال الحملة الصليبية السادسة حتى قدوم السابعة (٦٢٦-٦٤٨هـ/ ١٢٢٨-١٢٥٠م) المساومات والتنازلات**<br>مرحلة وراثة ووصاية آل هوهنشتاوفن على عرش عكا | ٣٥٦ |
| أولاً: العلاقات بين فردريك والكامل قبل قدوم الأول على رأس الحملة السادسة | ٣٥٦ |
| ثانياً: المساومات والتنازلات بعد وصول فردريك إلى عكا | ٣٦٥ |
| ثالثاً: من التصعيد العسكري إلى التهدئة والصلح، وما بينهما من تحديات | ٣٦٧ |
| رابعاً: صلح يافا وشروطه ٢٢ ربيع الأول ٦٢٦ هـ/ ١٨ شباط ١٢٢٩م | ٣٧٥ |
| خامساً: دور الأشرف في تسليم القدس لفردريك | ٣٧٩ |
| **المبحث الثالث: تطور العلاقات الأيوبية مع مملكة القدس اللاتينية الثانية عقب توقيع صلح يافا عام ٦٢٦هـ/ ١٢٢٩م** | ٣٨٣ |
| أولاً - العلاقات بين الكامل وفردريك (التناغم السياسي والديني) | ٣٨٣ |
| ثانياً- علاقات فردريك مع عموم الأمراء الأيوبيين بعد مغادرته عكا في ٦ جمادى الآخر ٦٢٦هـ/ | ٣٩١ |

| | |
|---|---|
| أول أيار ١٢٢٩م إلى إمبراطورتيه في أوربا | |
| ثالثاً- العلاقات الأيوبية مع بقية عناصر مملكة القدس اللاتينية الثانية خلال مدة صلح يافا (٦٢٦-٦٣٦هـ/ ١٢٢٩-١٢٣٩م) | ٣٩٤ |
| أ- جمود الموقف وهدوء الجبهات | ٣٩٤ |
| ب- اعتداءات الاسبتارية على مملكة حماة | ٤٠٢ |
| ج- اعتداءات الداوية على مملكة حلب | ٤٠٤ |
| **الفصل السادس**<br>**العلاقات الأيوبية مع مملكة القدس اللاتينية الثانية منذ انتهاء صلح يافا في عام ٦٣٦هـ/ ١٢٣٩م حتى انهيار الأيوبيين عام ٦٥٦هـ/ ١٢٥٨م، والدور الذي شغلته المملكة في هذه المرحلة** | ٤٠٧ |
| **المبحث الأول : العلاقات بين الأيوبيين ومملكة القدس اللاتينية الثانية بعد انتهاء صلح يافا حتى مجيء الحملة الصليبية السابعة (٦٣٦- ٦٤٧هـ/ ١٢٣٩-١٢٤٩م)**<br>(التحرير الثاني والثالث للقدس، ومعارك غزة الأولى والثانية والثالثة) | ٤٠٧ |
| أولاً: أوضاع الأيوبيين والصليبيين عند انتهاء صلح يافا، ووصول الحملة الفرنسية بقيادة ثيوبولد الرابع | ٤٠٧ |
| ثانياً: معركة غزة الأولى في بداية ربيع الآخر ٦٣٧هـ/١٢ تشرين الثاني عام ١٢٣٩م | ٤١٢ |
| ثالثاً: إغارة الناصر داود على القدس عام ٦٣٧هـ/ ١٢٣٩م (التحرير الثاني للقدس) | ٤١٦ |
| رابعاً: التحالفات الجديدة والسباق إلى تقديم التنازلات وعقد الأحلاف الخارجية ضد الخصوم الداخليين (الداوية ودمشق ضد الاسبتارية والقاهرة)، ومعركة غزة الثانية عام٦٣٨هـ/١٢٤٠م | ٤١٨ |
| خامساً: العلاقات بين الأيوبيين ومملكة القدس اللاتينية الثانية أثناء وجود الحملة الصليبية الإنكليزية (حملة ريتشارد كورنوال) ٦٣٨هـ/ ١٢٤٠-١٢٤١م | ٤٢٧ |
| سادساً: التسليم الثاني للقدس ٦٤١هـ/ ١٢٤٣م (تقارب دمشق في علاقاتها مع مملكة القدس اللاتينية الثانية وتباعدها مع القاهرة) | ٤٢٩ |
| سابعاً: التحرير الثالث للقدس، ومعركة غزة الثالثة في جمادى الأولى سنة ٦٤٢هـ/ تشرين الأول ١٢٤٤م (غزة الكبرى أو حطين الثانية) | ٤٣٧ |
| ثامناً: تطور العلاقات الأيوبية مع مملكة القدس اللاتينية بعد معركة غزة ٦٤٢هـ/ ١٢٤٤م حتى قدوم الحملة الصليبية السابعة ٦٤٧هـ/ ١٢٤٩م | ٤٤٩ |
| **المبحث الثاني: العلاقات الأيوبية مع مملكة القدس اللاتينية الثانية خلال الحملة الصليبية السابعة ٦٤٧-٦٤٨هـ/ ١٢٤٩-١٢٥٠م** | ٤٥٤ |
| أولاً: العلاقات العسكرية | ٤٥٤ |
| ثانياً: المراسلات والعلاقات الدبلوماسية أثناء الحملة السابعة | ٤٦١ |
| ثالثاً: تجدد المفاوضات الدبلوماسية | ٤٦٧ |
| رابعاً: مفاوضات لويس توران شاه | ٤٦٩ |
| **المبحث الثالث: علاقات أيوبيي بلاد الشام مع مملكة القدس اللاتينية الثانية منذ إخفاق الحملة السابعة ٦٤٨هـ/ ١٢٥٠م حتى الانهيار النهائي للأيوبيين على يد المغول عام ٦٥٦هـ/ ١٢٥٨م** | ٤٧٩ |
| أ-أثناء وجود لويس في مملكة القدس | ٤٧٩ |
| ب- الانهيار الأيوبي | ٤٩٣ |
| **الخاتمة** | ٤٩٧ |
| **الملاحق** | ٥٠٤ |
| **قائمة المصادر والمراجع** | ٥١٦ |
| **Abstract** | i |

# مقدمة

الحمد لله مبدع الموجودات على اختلافها، ومفضّل بني آدم عليها جميعها، وأصلي وأسلم على خاتم رُسُلِه "محمد" وعلى آله وصحبه وسلم، وبعد:

كثيراً ما افتخر مؤرخو الحروب الصليبية اللاتينيون أثناء تدوينهم لأحداث تلك الحروب بالشجاعة والانضباط والحماسة الدينية المتَّقدة بين الصليبيين، وما حققوه من انجازات وانتصارات عظيمة من وجهة نظرهم. ولكن يمكن القول إن ذلك اقتصر على مؤلفات أوائل القرن الأول من تلك الحروب، أما رواياتهم ومؤلفاتهم عن أحداث القرن الثاني منها فقد افتقدت لذلك التفاؤل والافتخار، أو الحديث عن الانتصارات والانجازات الصليبية.

الحقيقة أنه في القرن الثاني من تلك الحروب أخذت تتضاءل الدوافع والحماسة الدينية الغربية للمشروع الصليبي، وحل محلها سعي دول من أوربا الغربية للسيادة على منطقة البحر الأبيض المتوسط، مما جعل المنافسة والعداء كبير بين تلك الدول، ومن ثم انصرافها عن المشروع الصليبي إلى ما سواه، أو تسخير ذلك المشروع لمصالحها الخاصة، كما حدث مع الحملة الرابعة.

وبكل وضوح تجلى - أثناء الحملة الصليبية الثالثة ٥٨٧هـ/١١٩١م - الصراع الأوربي من أجل الهيمنة الاقتصادية والسياسية على منطقة البحر الأبيض المتوسط، وبناءً على ذلك فإن الأراضي الساحلية والموانئ البحرية التي استردتها الحملة الصليبية الثالثة وعليها تأسست مملكة القدس اللاتينية الثانية كانت أهم بكثير - بالنسبة إلى قيادات الدول الأوربية- من مدينة القدس أو غيرها من المدن الداخلية المقدسة الواقعة بعيداً عن الساحل، ومسوغ ذلك أن امتلاك الشريط الساحلي كان يخدم في المقام الأول المصالح التجارية والاقتصادية لقيادات تلك الدول، ويُستثنى من ذلك وجهة نظر البابوية التي اختلفت قليلاً عن وجهة نظر القيادات السياسية لتلك الحروب.

ومهما يكن من أمر فإن معركة حطين الشهيرة عام ٥٨٣هـ/ ١١٨٧م وما تلاها من فتوحات عربية- إسلامية، كانت كفيلة بتدمير مملكة القدس اللاتينية الأولى بعد حوالي قرن من نشوئها، ومن ثم سيطرة العرب- المسلمين على جميع أملاك تلك المملكة باستثناء مدينة صور، وكانت تلك الأحداث سبباً مباشراً لقدوم الحملة الصليبية الثالثة سنة ٥٨٧هـ/ ١١٩١م، وبدورها كانت هذه الحملة كفيلة بإعادة إحياء تلك المملكة المنهارة، ولكن بعاصمة وصبغة وهيئة جديدة.

يمكن القول إن تلك الآونة والأحداث مثلت ذروة نشاط وفعالية الحروب الصليبية، إذ إن أوربا هَبَّتْ

بأجمعها عند سماع أخبار حطين وما تلاها، فتكونت بها أعظم حملة صليبية أتى على رأسها ثلاثة من كبار ملوك أوربا، وجرت أهم أحداثها ومعاركها حول عكا لمدة سنتين ونصف السنة (٥٨٥-٥٨٧هـ/ ١١٨٧-١١٩١م)، وربما يصح القول إن التاريخ لم يذكر أقسى وأشقى من تلك المعارك، ولم يجتمع لكلا الطرفين الإسلامي والصليبي من الجيوش أكثر من تلك التي اجتمعت لهم حول عكا، كما يمكن القول إنه لم تظهر بطولات وتضحيات على مدى تاريخ حصار المدن والصراع عليها كالتي أظهرها المسلمون في عكا، إذ إن ما تمثَّلَ بها من البطولات والانجازات الرائعة أذهلت أعداءهم آنذاك، وجعلتهم يتعجبون بها، ويظهرون احترامهم لهذه المقاومة والشجاعة الباسلة، حيث يقول صاحب رحلة ريتشارد - الذي كان مشاركاً في أعمال حصار عكا- متعجباً من شدة المقاومة داخلها: "ما الذي يمكننا قوله حول هذا الجنس من غير المؤمنين الذين دافعوا على هذه الشاكلة عن مدينتهم؟! إنهم ممن ينبغي الاعجاب بهم لشجاعتهم في الحرب، ولقد مثَّلوا شرف أمتهم جمعاء"[١].

ويمكن القول إنه على الرغم من أن الحملة الصليبية الثالثة تمكنت من إعادة إحياء مملكة القدس اللاتينية الثانية على شريط ساحلي ضيق امتد من صيدا في الشمال حتى يافا في الجنوب، إلا أن إخفاق هذه الحملة في تحقيق أهم وأعظم أهدافها وهو "استرداد القدس" مثَّل بداية الانحدار الصليبي، فقد ضعفت بعدها إيديولوجية الحروب الصليبية، وتناقص الحماس المسيحي الشعبي لها، وانشغل الأوروبيون بمشاكلهم ونزاعاتهم الداخلية أكثر من انشغالهم بالمشروع الصليبي، ومع ذلك فإن مملكتهم الجديدة "مملكة القدس اللاتينية الثانية" استمرت قرابة قرن من الزمن، ويمكن تسويغ ذلك بالأحداث والواقع المشابه لواقعهم على الصعيد الإسلامي. فالمرحلة التي تلت عهد صلاح الدين تميزت على الجانب العربي- الإسلامي بالرغبة في مهادنة الفرنج الصليبيين، وفي أحسن الأحوال تميزت باكتفاء المسلمين بردات الفعل، واتخاذ موقع الدفاع دون الهجوم، والرغبة في التصالح، وذلك بسبب ما غرقت به البلاد العربية الإسلامية من تمزق وتناحر بين أفراد البيت الأيوبي الذين لجأوا إلى إقامة أحلاف خارجية ضد اخوانهم في الداخل، بهدف الحفاظ على كرسي الحكم والصمود أمام من ينازعهم عليه.

وبناءً على أوضاع الطرفين (العربي- الإسلامي من جهة والصليبي من جهة ثانية) كان لا بدَّ من الدخول في علاقات سياسية ودبلوماسية وتفاهمات بينية تضمن لهم مرحلة - ولو مؤقتة- من الهدوء والاستقرار، لهذا ذهبوا بعيداً في علاقاتهم تلك، لدرجة أن الكامل الأيوبي قدّم لمعاصره الامبراطور الألماني مدينة القدس كاملةً في عام ٦٢٦هـ/١٢٢٩م على طبق من ذهب، وذلك من أجل تمتين العلاقات مع

---

[١] امبرويز: رحلة ريتشارد (حملة الملك ريتشارد إلى أراضي القدس المقدسة)، عن الموسوعة الشاملة في تاريخ الحروب الصليبية، تر: سهيل زكار، دار الفكر- دمشق، ١٩٩٨م، ج٣١، ص ٨٦.

بعضها بعضاً، وضمان استمرار كرسي الحكم له.

ويبدو أن بعض الباحثين لم يدرك هيكلية المملكة التي تشكلت في عكا بعد أن دمر صلاح الدين مملكتهم الأولى في القدس، وأن هذه المملكة الجديدة كانت مستقلة تماماً عن بقية كيانات الصلبيين، لا؛ بل كان لها أحياناً السيادة النظرية عليهم جميعاً.

في الحقيقة إن البحث في هذه الأطروحة هو دراسة جديدة متعمقة في تطور العلاقات الإسلامية الصليبية في القرن الثاني من تاريخ الحروب الصليبية، وهو بحث جديد في مضمونه، وطرق أبواب عدة لم تطرقها أي دراسة من قبل، فعلى الرغم من كثرة ووفرة تلك الدراسات التي تناولت العلاقات الأيوبية الصليبية إلا أنه ندر بينها مَن تخصص في دراسة علاقات الأيوبيين مع مملكة القدس اللاتينية الثانية، ولاسيما العلاقات الدبلوماسية منها، وانعكاس تلك العلاقات على الأوضاع الداخلية، أو انعكاسات تلك الأوضاع على العلاقات الخارجية، ويبقى في الحروب الصليبية الكثير من الجوانب التي تحتاج إلى توضيح وتعليل.

وهنا لا بدَّ من ذكر أن البحث خلال هذه الأطروحة لا يتعرض للحديث عن العلاقات والنزاعات الأيوبية الأيوبية في هذه المرحلة، إلا بما يخدم ويوضح موضوع العلاقات الأيوبية مع مملكة القدس اللاتينية الثانية، لأن موضوع العلاقات الأيوبية الأيوبية هو بحث واسع مستقل نال حقه من الدراسات المتخصصة.

ولا بدَّ أيضاً من توضيح جزء من عنوان هذه الأطروحة وهو "مملكة القدس اللاتينية الثانية"، ويقصد في هذا المصطلح دولة الاحتلال الصليبي التي تشكلت على أيدي صليبيي الحملة الثالثة عقب انهيار مملكتهم الأولى في القدس على يد صلاح الدين الأيوبي التي اتخذت من عكا عاصمة لها، واستمرت بالاحتفاظ بالتسمية القديمة "مملكة القدس" مع خروج القدس عن سيطرة المملكة الجديدة. ويمكن تعليل استخدامهم لكلمة "القدس" في تسمية مملكتهم الجديدة برفضهم لواقعهم ، وبرفضهم للاقرار بخروج مدينة القدس عن سلطتهم، ومن وجهة نظرهم أن عكا كانت بمثابة عاصمة مؤقتة لمملكتهم الجديدة وبديلاً مؤقتاً عن القدس التي لا بدَّ أنهم عائدون إليها وجالبون معهم لها المجد والمكانة التي كانت لها قبل حطين، ولا بدَّ أنهم سيتخذونها من جديد عاصمة لمملكتهم الجديدة، ولذلك أتت مملكتهم الجديدة تحت اسم "مملكة القدس اللاتينية الثانية".

كذلك لا بدَّ من ذكر أن البحث اقتصر على علاقات الأيوبيين مع صليبيي مملكة القدس اللاتينية الثانية، أي أنه لم يتطرق إلى تلك العلاقات الأيوبية التي كانت مع بقية الكيانات الصليبية الموجودة آنذاك، ولا بدَّ من توضيح أن البحث ليس بحاجة إلى الحديث عن جهود وفتوحات صلاح الدين إلا بالقدر الذي

يتعلق بجهوده ومحاولاته لمنع قيام وتشكيل مملكة القدس اللاتينية الثانية.

وكان مخططاً للبحث أن يسير في فصوله ومباحثه وفقاً لوراثة العرش في عكا ومن يتزعمها، إلا أن ذلك لم يتم لأن الصراع على عرش عكا كان - كما قيل- في وادٍ والعلاقات مع الأيوبيين في وادٍ آخر، باستثناء بعض المراحل الزمنية الوجيزة، كمرحلة وجود فردريك الثاني في مملكة القدس ٦٢٦هـ/ ١٢٢٩م، وعلى الرغم من وجوده وتبعية المملكة قانونياً له إلا أن الصليبيين بمعظمهم لم يلتزموا سياسته تجاه الأيوبيين، ذلك أنه كان محروم كنسياً.

بناءً على ذلك فإن الأطروحة قُسمت لفصول ستة، جُعل الأول منها للحديث عن تأسيس مملكة القدس اللاتينية الثانية عام ٥٨٧هـ/ ١١٩١م، والعناصر الأساسية التي ساهمت في ذلك، واتخاذها من عكا عاصمة كبديلٍ مؤقتٍ عن القدس، وذلك بعد حصار كبير لعكا ومعارك ضارية حولها، وتعد هذه المعارك الأكثر ضراوة في تاريخ الحروب الصليبية. ولا بد في بداية هذا الفصل من التعريف بجغرافية عكا، وأهمية الموقع، وأصل التسمية وتطورها.

وخصص الفصل الثاني لبحث النزاع على وراثة العرش في مملكة القدس اللاتينية الثانية منذ نشوئها حتى انهيارها، حيث كان لوراثة الحكم البحته التي اتُبعت منذ مملكة القدس الأولى أن آل الحكم إلى النساء، فتميزت وراثة العرش في مملكة القدس اللاتينية الثانية منذ بداية تأسيسها إلى نهايتها بتسلط النساء على هذا العرش، وانتقاله من خلال زواجهن من أسرة إلى أخرى، وبذلك تعددت الأسر الحاكمة في هذه المملكة مع أن نظام الحكم وراثي بحت، مما أدى إلى نزاعات وصراعات كثيرة حول الأحقية في وراثته

وقُصِرَ الفصل الثالث للحديث عن النظام السياسي المتبع في هذه المملكة الجديدة، وأهم ملامح الخلاف بينه وبين النظام الذي كان متبعاً في المملكة الأولى، وهنا تم بكل وضوح اظهار ضعف سلطة الملك أو الوصي على عرش عكا، كما تناول الفصل أهم العناصر السكانية التي كانت تقطن المملكة أو أخذت ترتادها.

وتناول الفصل الرابع العلاقات الأيوبية مع مملكة القدس اللاتينية الثانية منذ نشوء الأخيرة حتى قدوم الحملة الصليبية الخامسة عام ٦١٤هـ/ ١٢١٧م، وخلال هذه المرحلة تنوعت العلاقات بين العسكرية والسياسية، وبين الحرب والدبلوماسية، وحاول خلالها ريتشارد الاستيلاء على القدس مراراً إلا أنه أخفق في ذلك لعدة أسباب. وجرى في بداية هذه المرحلة تحقيق أول وأهم الاتصالات السياسية الدبلوماسية بين الفريقين المتصارعين التي انتهت بتوقيع صلح الرملة الشهير عام ٥٨٨هـ/ ١١٩٢م، وبعده غرقت الدولة الأيوبية بجملة من النزاعات الداخلية جعلتهم يسعون جاهدين إلى الحفاظ على مبادئ صلح الرملة.

وتضمن الفصلان الأخيران (الخامس والسادس) الحديث عن العلاقات الأيوبية مع مملكة القدس خلال الحملات الصليبية الخامسة والسادسة والسابعة، وما تخللها من أحداث مهمة وخطيرة، والدور الذي شغلته المملكة في تلك الحملات التي تجلى بها النزاع واضحاً بين البابوية والقيادات السياسية، وأثبتت تلك الحملات بشكل قاطع إخفاق البابوية في قيادتها العسكرية لأي حملة، وتمت الإشارة إلى دور الخوارزمية في أحداث تلك الآونة، وما شغلوه من دور مهم في تغيير مسار الأحداث آنذاك.

## اشكالية البحث

صدر العديد من الدراسات الحديثة والعميقة عن شخصية صلاح الدين وسياسته الحربية والعسكرية تجاه الصليبيين، وأعطت هذه الدراسات صورة أكثر وضوحاً عن مملكة القدس اللاتينية الأولى، إلا أن هذه الدراسات لم تُعْطِ الأهمية نفسها لخلفاء صلاح الدين وعلاقتهم مع المملكة الصليبية الوليدة آنذاك تحت اسم "مملكة القدس اللاتينية الثانية"، كما لم تُعْطِ صورة واضحة عن ظروف نشأة وتكوين تلك المملكة. حتى الآن، ومع كثرة الدراسات وتعددها، فإن العلاقات بين الطرفين يكتنفها الكثير من الغموض، ولا سيما العلاقات السياسية والدبلوماسية.

لهذا فإن هذه الدراسة تضع العديد من التساؤلات، وتحاول الإجابة عنها في مضمون البحث، وأهم هذه التساؤلات:

١- كيف تمكن الصليبيون من إعادة احياء مملكتهم بعد أن قضى عليها صلاح الدين عقب حطين ، ولم يبق لهم منها سوى مدينة صور.

٢- ما أهمية صور، وما دورها في إعادة الانتشار الصليبي بعد أن اضمحل على يد صلاح الدين، وما العوامل التي تفاعلت في صور وجعلت منها مقراً وقاعدة عسكرية تنطلق منها الجيوش الصليبية لإعادة تأسيس مملكتهم المنهارة، وإذا كانت لها كل تلك الأهمية، فلماذا لم يتخذوها عاصمة لهم، بل فضلوا عكا عليها.

٣- تكونت مملكة القدس اللاتينية الثانية على شريط ساحلي ضيق، وغرقت منذ البداية بصراعات سياسية واقتصادية، ونزاع كبير على وراثة العرش لم ينته إلا بنهايتها، وابتُليت في معظم تاريخها بغياب ملوكها عن عرشها في عكا، وإقامتهم في أوربا، وتكليف أوصياء أو نواب عنهم لإدارة الحكم في عكا، وهؤلاء النواب والأوصياء غرقوا بدورهم في جملة من النزاعات والصراعات ، وهنا يتساءل القارئ: كيف تمكنت هذه المملكة من الاستمرار مدة

قرن كامل من الزمن في وسط بيئة معادية لها؟!

هل اضطرت هذه المملكة للاعتماد على أوربا، ومن ثم تدخل الأخيرة في شؤونها، وإذا كان ذلك فإلى أي مدى كان ذلك التدخل؟

٤- ما هي أهم ملامح السياسة التي اتبعها الأيوبيون في تعاملهم مع تلك المملكة الصليبية الجديدة، وما مدى اتساق هذه السياسة مع سياسة الأيوبيين تجاه المملكة الأولى

٥- ما هي الأسباب الحقيقية وراء جعل الأيوبيين بعد صلاح الدين يسارعون إلى إقامة علاقات ود وصداقة مع الصليبيين، لدرجة أنهم ذهبوا بعيداً في ذلك إلى حد تشكيل أحلاف عسكرية معهم ضد بعضهم بعضاً، وذلك على الرغم من بروز شخصيات أيوبية سياسية وعسكرية لا تقل نشاطاً عن صلاح الدين.

٦- هل انهمك الأيوبيون في حلبة الصراع الداخلي بشكل كامل، وانصرفوا عن مواجهة الفرنج وعمدوا إلى مداراتهم وتخلوا عن روح الجهاد، وإذا كان ذلك فكيف تمكن الأيوبيون من هزيمة وتدمير حملات صليبية كبيرة كالخامسة والسادسة على الرغم من مشاكلهم الداخلية؟

## صعوبات البحث

كان التردد كبيراً عند الشروع في كتابة مسودة هذا البحث، وذلك لعلمي أنني لا أقدم على عمل سهل وواضح، فالبحث لم يكن صعباً من ناحية توفر المادة العلمية والوصول إلى المعلومات والأحداث الجارية آنذاك، فالمصادر كثيرة، والمراجع أكثر، وتوفر للبحث الكثير منها، وإنما أتت الصعوبة من اختلاف الآراء وتباعد الروايات وتناقضها، وضبابيتها أحياناً، ومن هنا كان على البحث الإحاطة بها جميعها، وذلك ليس بالعمل السهل، ويحتاج إلى الكثير من الوقت كي يتسنى انتقاء أحداثها وترتيبها وتعليلها بما يناسبها من حقائق وأحداث غير واضحة أو ظاهرة في تلك المصادر.

فعلى سبيل المثال حصار عكا وسقوطها عام ٥٨٧هـ/ ١١٩١م، كثيراً ما تتضارب حوله الروايات التاريخية، سواءً اللاتينية منها أم العربية- الإسلامية، وكلٌ تكلم عنها من وجهة نظره الخاصة، ومن منظاره الذي وفَّرته له بيئته والأجواء المحيطة به، وبالتالي كان هناك خلط كبير في معاركها ، أو حذف بعض أحداثها، ومن ثم أتت رواياتهم غير مترابطة أو متناسقة.

لذا توجب قبل الشروع في كتابة مسودة هذه الأطروحة التأني والبحث مطولاً في مختلف تلك الأبحاث

والروايات، ومقارنتها، وتعليلها؛ لإظهار حقائقها وترتيبها بشكل مفصل.

أيضاً كان من الصعوبات التي واجهت البحث معالجة قضية صور، وهي المدينة الوحيدة الصامدة أمام المسلمين من بين جميع مدن مملكة القدس الصليبية الأولى، وقد أخفق المسلمون بقيادة صلاح الدين مراراً في فتحها، ومع أهمية البحث في هذه القضية، وحساسيتها، ودقتها، إلا أن جميع الروايات التاريخية – سواءً في المصادر أم المراجع– لم تفصل في ذلك الحدث، وغالباً ما ذكرت هذه الروايات محاولات صلاح الدين الثلاثة المتعاقبة لتحريرها على أنها محاولة واحدة، والصعوبة نفسها كانت في معارك غزة – الأولى والثانية والثالثة– التي خلطت بها المصادر والمراجع وذكرتها على أنها معركة واحدة، هي غزة الكبرى أو حطين الثانية. ولكن مع الوقت، والبحث، والتأمل، والمثابرة، لا يصعب شيءٌ، وتَتَذَلّلَ كل الصُعوبات والعقبات.

ومع إقراري بالعجز والقصور أمام جهود الآخرين بيد أني قدَّمت كلّ ما بوسعي من جهد ومكابدة وصبر وتحمُّل للمشاق وجلد ومثابرة في العمل طيلة أعوام أربعة لإكمال هذه الأطروحة، ولكن يأبى الله الكمال لغيره، فله أسدي خالص الشكر والمِنَّة، وأحمده وأشكره، فهو وليُّ التَّوفيق والهداية.

ولستُ أنهي تقديمي هذا دون أن أُسدي الشكر والامتنان للأستاذ الدكتور سهيل زَكَّار الذي أكرمني وشرفني بالإشراف على هذه الأطروحة، فناله ما نالني منها من تعب ونَصَب، وفتح لي بيته ومكتبته العامرة التي تضم روائع التراث والنصوص والأُصول العِتاق الجِياد، فأبقاه الله مفزعاً يلوذ به طلبة العلم، وأطال بقاءَهُ، وجعل الحق أَمامهُ وإمامهُ، ووصل بالسعادة أيامه.

والشكر موصول لكل من قدَّم لي العون والنصح والمشورة في هذا البحث، ولكل من كان له أثر طيب مبارك فيه، وأخصُّ بالذكر السادة أعضاء لجنة الحكم لتفضُّلهم بقبول الحكم على هذه الأطروحة، ولما بذلوه من جهد طيب مبارك مشكور في قراءتها على كثرة مشاغلهم، وغير شك أني مفيد من ملاحظاتهم وسديد آرائهم التي ستقوم ما اعوج من هذا البحث وتصوب ما فرط مني، فلهم أزجي وافر الشكر والمحبة؛.

والله أسألُ أن يتقبّل عملي هذا، ويجعله خالصاً لوجهه الكريم، وينفعنا به.

**فراس عبد الرحمن**

تموز ٢٠١٨م

# دراسة المصادر

إن دراسة أي موضوع في اختصاص الحروب الصليبية يحتاج لأنواع واتجاهات عدة من المصادر والمراجع، وتكون الحاجة أشد عندما يكون موضوع البحث يتناول طرفاً من العلاقات بين الصليبيين والعرب- المسلمين آنذاك، وهنا يمكن تقسيم مصادر الحروب الصليبية حسب اللغة أو حسب الترتيب الجغرافي.

من حيث المبدأ هناك **المصادر الصليبية** التي شملت اللاتينية ومن ثم الفرنسية القديمة، ثم المصادر الإغريقية البيزنطية، ويمكن القول عن الفرنسية القديمة إنها عامية اشتقت عن اللاتينية وتطورت في عكا، وهنا لابدَّ من التنويه إنه لا يوجد مصدر لاتيني أو فرنسي قديم يمثل وجهة نظر جميع الصليبيين، أو يغطي جميع الأحداث، هذا وإن شكل صعوبة للبحث لكن أفاد في بعض الجوانب في المساعدة على الوصول إلى أقرب النقاط إلى الحقيقة، وهنا لابدَّ من الاشارة إلى الجهد العظيم الذي قدمه الأستاذ الدكتور سهيل زكار في موسوعته الشاملة عن الحروب الصليبية، إذ إنه ضَمَّنها ترجمة معظم وأهم تلك المصادر والمراجع، وهنا يجب الإقرار أنه لم يكن للبحث أن يطَّلع على ذلك القدر من هذه المصادر لولا الموسوعة الشاملة في تاريخ الحروب الصليبية، وليس بعيداً عن الحقيقة إذ قلنا إن البحث في هذه الأطروحة ما كان ليتم ويخرج إلى النور لولا تلك الموسوعة التي حوت تلك المصادر التي ستأتي الدراسة على ذكرها مفصلاً.

ويجب ذكر إن هذه المصادر اللاتينية مع أن كثيراً ما يتم المبالغة فيها وتضخيم الأحداث وتهويلها وتزييف الحقائق لجعل القضية الصليبية قضية حق وواجب ديني عليهم، إلا إنه تبقى لها أيضاً أهمية خاصة ومهمة في تقديم أحداث وتفاصيل على الجانب الصليبي لم ترد أبداً في المصادر العربية – الإسلامية أو غيرها من المصادر الشرقية، بالإضافة إلى أن بعض كُتابها كانوا مشاركين فعليين أو مشاهدين لأحداث تلك الحروب والمعارك.

أما **بالنسبة للمصادر الشرقية**، فهناك اللغة العربية والسريانية والأرمنية، والأخيرتين مسيحيتان ولها توجهاتها، ومع ذلك تمت الافادة منهما في البحث. أما بالنسبة للمصادر التي كُتبت بالعربية، والتي يُطلق عليها اسم **المصادر العربية – الإسلامية**، فهي تقف على رأس تلك المصادر أجمع، ولا مندوحة عنها أثناء البحث؛ بل هي الأهم والأكثر واقعية ومصداقية من غيرها، وعليها يستند العمود الفقري للبحث، وتميزت هذه المصادر بممارسة الرقابة الذاتية، وعدم تناول الحكام، بل اطراؤهم ومديحهم، ولكن يمكن القول إنه كان لها مواقفها بالنسبة للصراعات الأيوبية الأيوبية، وللصراعات مع الصليبيين، وكثيراً ما كان بعض مؤرخيها يُسوغ أعمال الحكام من الأيوبيين، وعلى سبيل المثال ما فعله ابن أبي الدم في الدفاع عن

تسليم السلطان الكامل القدس للإمبراطور الألماني فردريك الثاني.

بالإضافة للمصادر أيضاً هناك عدد من المراجع العربية – الإسلامية المهمة التي بحثت في العصر نفسه، وعلى الرغم من قصور بعض هذه الأبحاث وعدم وصولها للمستوى المطلوب، إلا أنه يجب الاعتراف أن بعضها وصل لدرجة عالية من الرقي العلمي والفكري لدرجة لا يمكن بها أبداً الاستغناء عن تلك الكتابات والأبحاث.

وأيضاً الكتب التاريخية التي اهتمت بالتراجم دون الأحداث فلا بدَّ من العودة إليها عند ترجمة الأدباء والشعراء والمُحَدِّثين ورجال السلطة والإدارة وغيرهم، وإلى جانب هذه الكتب التاريخية لا بدَّ من المعاجم الجغرافية واللغوية والأدبية، وشيء من المصادر الدينية.

وعلى هذا الأساس تمَّت العودة إلى مجموعة كبيرة من المصادر التي يمكن تصنيفها إلى شامية ومصرية بدرجة أولى من حيث المكان، وهنا دراسة لبعضها، إلا أنه يجب التنويه إلى أنه لم يتم اعتماد التصنيف الجغرافي لها أثناء هذه الدراسة، وإنما أتت حسب أهميتها بالنسبة إلى البحث.

يأتي على رأس **المصادر التاريخية العربية – الإسلامية** التي اعتَمَدَتْ عليها هذه الدراسة: كتابا **"مرآة الزمان"** و **"ومفرج الكروب"**، وهما كتابان مهمان جداً في هذه الدراسة، وتأتي أهميتهما من معاصرة صاحبيهما لمعظم الأحداث التي بحثتها هذه الأطروحة.

فكتاب "مرآة الزمان في تاريخ الأعيان" هو للمؤرخ الواعظ العلامة يوسف قِزْأوغلي[٢] بن الأمير حسام الدين عبد الله بن فيروز، البغدادي ثم الدمشقي، يكنى أبا المظفر، ويلقب بشمس الدين، كان والده مملوكاً للوزير عون الدين بن هبيرة المتوفي سنة ٥٦٦هـ/١١٧١م، ثم أعتقه وتزوج من ابنة أبي الفرج ابن الجوزي سنة ٥٧٢هـ/١١٧٦م، فأنجبت له يوسف في حوالي سنة ٥٨١هـ/ ١١٨٥م. يبدو أن والده توفي في مرحلة مبكرة من عمره، فنشأ في بغداد في كنف جده أبي الفرج عبد الرحمن بن الجوزي المتوفي سنة ٥٩٧هـ/١٢٠٠م الذي تكفَّل برعايته وتعليمه، فنُسب الولد إلى جده لا إلى والده، وغلب عليه لقب "سبط ابن الجوزي".

---

[٢] قزأوغلي: هي كلمة تركية مركبة من كلمتين: "قز" وتعني بنت، و"أوغلي" وتعني ابن، فيكون مجمل معنى الكلمة "ابن البنت"، وعلى الأغلب كلمة قزأوغلي هي لقب له. انظر: ابن العماد الحنبلي، عبد الحي بن أحمد، ت١٠٨٩هـ: شذرات الذهب في أخبار من ذهب، تح: محمود الأرناؤوط، دار ابن كثير، دمشق وبيروت، ط١، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م، ج٧، حاشية ص٤٦٠. الزركلي، خير الدين بن محمود: الأعلام، دار العلم للملايين، ط١٥، ٢٠٠٢م، ج٨، حاشية ص٢٤٦.

أخذ يوسف عن جده الفقه والحديث والوعظ العذب والذوق التاريخي، وبعد وفاة جده وأمه ترك بغداد ورحل إلى دمشق في سنة ٦٠٠هـ/١٢٠٤م وهناك حظي بمكانة رفيعة بين علمائها وعند ملوكها، وأقبل الناس على مجالس وعظه وأحبوه، ونشأت له علاقات طيبة مع حكام بني أيوب، فألفهم وألفوه، وأخذ يدعو للجهاد ضد الصليبيين تحت لوائهم، ثم انقلب على أولاد العادل الأيوبي (الأشرف والكامل) بعد تفريطهم بالقدس لصالح الصليبيين، وأفتى بشرعية قتالهما دون أن يسوغ ولا بأي شكل تصرفهما، مما عرضه للتشرّد والتنقّل بين الكرك ودمشق والقدس ومصر وحماة، إلى أن توفي في دمشق سنة ٦٥٤هـ/١٢٥٦م[٣]، وانتهت حياته التي كانت زاخرة بالكثير من العطاءات والإبداعات والمؤلفات.

وترك سبط ابن الجوزي تصانيف عدة في فنون شتى، وما يهم البحث منها هو كتابه التاريخي **"مرآة الزمان في تاريخ الأعيان"**، الذي يعدُّ من أهم الموسوعات التاريخية وكتب التراجم في آنٍ واحد، وضعه في الشام بعد وفاة صلاح الدين الأيوبي، فاستوعب تواريخ الشام والعراق وغيرها، وفيه من العلم الجمّ والتعريف بعلماء وشعراء وكُتّاب ومشاهير عدّة. وقد وصفه اليونيني باختصار، فقال فيه: "هو بخطه، في سبعة وثلاثين مجلداً، جمع فيه أشياء مليحة جداً، وأودعه كثيراً من الأحاديث الشريفة النبوية- صلوات الله وسلامه على قائلها- وجملة من أخبار الصالحين، وقطعة كبيرة من الأشعار المستحسنة، وسلك في جمعه مسلكاً غريباً، وهو من أول الزمان إلى أوائل سنة أربع وخمسين وست مئة، وهي سنة وفاة المؤلِّف"[٤].

وسار سبط في كتابه "المرآة" على خطة جده ابن الجوزي في كتابه "المنتظم في تاريخ الملوك والأمم" من حيث عرض المواد الإخبارية وفق طريقة الحوليات، وقد امتدح المؤرخون هذا الكتاب، وأثنوا عليه، وأشادوا به[٥]، ولا أدل على أهميته ومكانته بين مصادر ذلك العصر وإعجاب المؤرخين به من ظهور

---

[٣] ترد ترجمته في مصادر عدة، منها: اليونيني، موسى بن محمد: ذيل مرآة الزمان، تح: سالم كرنكوي، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، ط٢، ١٩٩٢م، ج١، ص٣٩-٤٣. ابن العماد: شذرات الذهب،ج٧، ص٤٦٠-٤٦١. اللكنوي، محمد عبد الحي الهندي، ت١٣٠٤هـ: الفوائد البهية في تراجم الحنفية، إشراف: أحمد الزعبي، دار الأرقم بن أبي الأرقم، بيروت، ط١، ١٩٩٨م، ص٣٨١. وأيضاً: العزاوي، عباس: الذيل على مرآة الزمان، مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق، مطبعة الترقي، ١٩٤٧م، مج: ٢٢، ص٣٧١. الهموندي، حنان جليل محمد: في مقدمة تحقيقها لقطعة من "مرآة الزمان" لسبط ابن الجوزي، الدار الوطنية- بغداد، ١٩٩٠م، ص٢٤-٤١.

[٤] ذيل مرآة الزمان: كرنكوي: ج١، ج٤١.

[٥] ذيل مرآة الزمان: كرنكوي: ج١، ص٤١-٤٢. ابن حجر العسقلاني: لسان الميزان، تح: دائرة المعارف النظامية- الهند، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات- بيروت، ط٢، ١٣٩٠هـ/١٩٧١م، ج٦، ص ٣٢٨. الموسوعة الشاملة: ٦/١٥-٧. العزاوي: مجلة المجمع العربي: مج٢٢، ص٣٧١-٣٧٧. روزنثال، فرانز: علم التاريخ عند المسلمين، تر: صالح أحمد العلي، مؤسسة الرسالة- بيروت، ط٢، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م، ص٦٧٢.

اختصارات وذيول عدة له. وخلال البحث واعداد هذه الأطروحة تم الاعتماد عليه بشكل كبير، وبشكل خاص على الجزء الثاني والعشرون منه، من طبعة مؤسسة الرسالة، حيث يحوي معظم المادة العلمية للأطروحة، وتم تدقيق كثير من الحوادث عليه والاعتماد عليه وترجيح رأيه عند اختلاف المصادر على حادثة معينة.

أما المصدر الثاني الذي يليه في الأهمية "**مفرج الكروب في أخبار بني أيوب**"، هو لجمال الدين أبي عبدالله محمد بن واصل الحموي، ولد في مدينة حماة عام ٦٠٤هـ/ ١٢٠٨م، وأصبح مدرساً بها، ثم استدعي إلى القاهرة، سنة ٦٥٩هـ/ ١٢٦٠م، وأُرسل بمهمة إلى صقلية، وبعد عودته عُين قاضياً للقضاة، إلى أن توفي سنة ٦٩٧هـ/ ١٢٩٧م، كسب خلالها معرفة شخصية بكل ملوك بلاد الشام ومصر آنذاك، ومن خلال عمره المديد يتضح أنه عاصر مملكة القدس اللاتينية الثانية في معظمها مع مَن عاصرها من الملوك الأيوبيين، فكان شاهد عيان أو مشاركاً لمعظم الأحداث آنذاك، وقد وضع كتابه "مفرج الكروب في أخبار بني أيوب" الذي يتضح من عنوانه أنه خُصص للحديث عن دولة الأيوبيين وسياساتهم وعلاقاتهم، فكان كتاباً حولياً ضخماً فيه المعلومات مفصلة كل التفصيل، وجاءت معلوماته كافية ووافية عن بني أيوب منذ قيام دولتهم حتى نهايتها، ومعظم الأحداث التي كان شاهد عيان لها، وقد امتاز هذا المصدر بغزارة معلوماته وسعتها وغناها، وله من الأهمية الشيء الكثير كون ابن واصل كان من المقربين للسلطة الحاكمة – سواء أيوبيين أم مماليك– فحصل على كثير من المعلومات الدقيقة والسرية ذات الأهمية الخاصة في العصر الأيوبي، ولاسيما الأحداث السياسية منها، وعلاقة الأيوبيين مع الصليبيين، ولأهمية ومكانة ابن واصل في عصره وأهمية ما دونه في كتابه مفرج الكروب فقد اعتمد عليه كل المؤرخين الذين أتوا من بعده، وأرخوا للدولة الأيوبية، وعلى هذا فإن الافادة كانت كبيرة منه على مدار البحث وفي فصوله جميعاً.

وعلى نمط "مفرج الكروب" كانت قطعة "**أخبار الأيوبيين" من تاريخ المسلمين** لجرجس ابن العميد، المعروف بالمكين، أو الشيخ المكين، هو مؤرّخ من كُتاب النصارى السريان، ولد سنة ٦٠٢هـ/ ١٢٠٥م في القاهرة، ونشأ في دمشق، ويعود في أصله إلى تكريت العراق، وليَ الكتابة في ديوان الجيش في مصر، ونظم كتابه المذكور على شكل حوليات اختصت بذكر أخبار الأيوبيين والصليبيين ومسيحيي المنطقة بدءاً من سنة ولادته، وكانت الفائدة منه كبيرة كونه معاصراً للحدث.

ومن أغزر الكتابات التاريخية في العصر الأيوبي تلك التي تركها **العماد الأصفهاني**، فهو محمد بن محمد بن حامد الأصفهاني، ولد في أصفهان، عام ٥١٨هـ/ ١١٢٥م، وتوفي في دمشق عام ٥٩٧هـ/ ١٢٠١م، انحدر من أسرة مشهورة رفيعة المكانة، واسعة الثقافة، ونشأ وترعرع في أصفهان، ثم هاجر إلى بغداد في عام ٥٤٩هـ/ ١١٥٤م، وتولى بعض الأعمال الإدارية فيها إلى أن أصبحت له مكانة مرموقة بها،

إلا أنه عانى من تقلبات السلطة بها، فرحل إلى دمشق لمعرفته الوثيقة بنجم الدين أيوب وغيره من شخصيات الدولة الزنكية، وفي سنة ٥٦٣هـ/ ١١٦٧م تسلم ديوان الإنشاء في دمشق، واستمر إلى ما بعد وفاة نور الدين محمود حيث ثبته صلاح الدين في وظيفته تلك، واستمر مرافقاً له وقريباً منه حتى وفاة الأخير، مما أتاح للعماد مشاهدة الأحداث والوقائع عن كثب والاطلاع على حقائق ومجريات الأحداث بأدق التفاصيل.

وتميز العماد الكاتب بخصوبة الإنتاج في ميداني الأدب والتاريخ، فترك مؤلفات وكتابات عدة، كان أهمها بالنسبة إلى البحث كتابي "**الفتح القسي في الفتح القدسي**"، وكتاب "**البرق الشامي**"، وترجع أهمية هذين الكتابين إلى أهمية العماد ومكانته في الدولة الأيوبية آنذاك، وكون العماد من أشد المقربين للسلطان صلاح الدين، وأكثر المطلعين على مراسلاته ووثائقه ونواياه. وقد تمت الإفادة من كتاباته في المبحث الرابع من الفصل الأول، والمبحث الأول من الفصل الرابع، حيث قدَّم تفاصيل مهمة ودقيقة عن حصار الفرنج لعكا، ومن ثم سقوطها بيدهم ، وما تبع ذلك من علاقات عسكرية وسياسية انتهت بتوقيع صلح الرملة عام ٥٨٨هـ/ ١١٩٢م. ويمكن القول إنه لم يكن من السهل التعامل مع كتاب العماد نظراً لصعوبة لغته، فقد تغيبت المعاني وتبددت أخبار الوقائع داخل صيغ السجع الممل، مما جعل هذه الكتابات صعبة الفهم، قليلة التحصيل، ولكن لايمكن الاستغناء عنها لِما تحتويه من أخبار ووثائق مهمة.

وفي المواضع نفسها التي تمت الإفادة منها بالكتابين سالفي الذكر تمت الإفادة من كتاب سيرة صلاح الدين لابن شداد "**النوادر السلطانية**"، فابن شداد هو بهاء الدين يوسف ين رافع بن تميم، ولد في الموصل سنة ٥٣٩هـ/ ١١٤٥م، وتنقل بينها وبين بغداد طلباً للعلم، وكانت بداية علاقته بصلاح الدين منذ حروب الأخير مع الموصل، ثم توطدت العلاقة بينهما بعد معركة حطين، فأسند إليه وظيفة قاضي العسكر، وأصبح بمثابة وزير لدى صلاح الدين، ورافقه في أغلب معاركه ضد الصليبيين، وبعد صلاح الدين استقر في حلب عند الظاهر غازي بن صلاح الدين، وشغل دوراً مهماً في تقريب وجهات النظر بين الفرقاء الأيوبيين. وكان أهم انتاجاته العلمية كتابه "**النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية**"، الذي يُعدُّ سيرة تاريخية لشخصية صلاح الدين الأيوبي، ركز فيه بشكل أساسي حول جهاد صلاح الدين وجهوده الحثيثة لتحرير البلاد من الصليبيين، كما ضمَّنه كثير من الأحداث والوقائع التاريخية المهمة، بالإضافة إلى الأوضاع الاجتماعية والإدارية على الجانبين الإسلامي والصليبي، والعلاقات السياسية والعسكرية آنذاك، واتصفت معلوماته بالدقة والأمانة العلمية، لِذلك عُدَّ من أوثق المصادر العربية-الإسلامية، وكانت الإفادة منه كبيرة في بعض أجزاء البحث.

وكالمؤرخين سالفي الذكر كان أبو شامة في كتابه "الروضتين في أخبار الدولتين، ، حيث وردت

لديه عدة أحداث مهمة بالنسبة إلى البحث.

ولا يستطيع الباحث في العصر الأيوبي تجاوز كتاب "**المختصر في أخبار البشر**" فهو من الكُتب ذات الأهمية الخاصة، والفريدة من نوعها، إذ إن مؤلِّفه من ملوك بني أيوب، لذلك جاءت كتاباته مغايرة- نوعاً ما- عن بقية الكتابات الأخرى. فهو الملك المؤيد صاحب حماة أبو الفداء إسماعيل بن علي ابن محمود بن محمد بن عمر بن شاهنشاه بن أيوب، ولد في دمشق سنة ٦٧٢هـ /١٢٧٣م، ونشأ بها، وقرأ التاريخ والأدب وأصول الدين، واطلع على كتب كثيرة في الفلسفة والطب، وعلم الهيئة، وتولّى المُلك في حماة واستمر به حتى توفيّ سنة ٧٣٢هـ/١٣٣١م، ولشهرته نُسِبت المدينة إليه، "مدينة أبي الفداء".

وتأتي بعد تلك الكتابات المتقدم ذكرها **كِتابات المقريزي**، تقي الدين أحمد بن علي بن عبد القادر (٧٦٦-٨٤٥هـ/١٣٦٥-١٤٤١م)، الذي يرجع أصله إلى حارة المقارزة في بعلبك، لِذا عُرف بالمقريزي نسبةً إليها، انتقل والده إلى القاهرة التي كانت مولد المقريزي، وبها قضى نحبه بعد أن تولّى عدة وظائف علمية ودينية وسياسية، وبعد عدَّة رحلات أمضاها متنقِّلاً بين الكتب والمصادر العلمية.

عُرف المقريزي بغزارة إنتاجه العلمي، واهتمامه الواضح بتاريخ مصر السياسي والاجتماعي وأحوال شعبها، لدرجة رأى فيها بعضهم أنه كان مجسِّداً لفكرة القومية. ومهما يكن من أمر فإن المقريزي اختار مصر وجعل منها موئلاً لإنتاجه العلمي ونشاطه التاريخي، فأتى بمادة تَفَرَّدَ بها عن غيره، جعلت جميع من أرَّخ بعده يعتمد على كتاباته، وما يهم في هذا الصدد المادة التي أوردها ضمن مؤلفاته عن أحداث القرن الثاني من الحروب الصليبية، والتي سدَّ فيها شيئاً من الثغرة في تاريخ مملكة القدس اللاتينية الثانية. لذلك تمَّ اعتماد ثلاثة من كتبه:

- **السلوك لمعرفة دول الملوك**: كانت الإفادة منه كبيرة أثناء العمل في كافة فصول الأطروحة، إذ إنه ضمَّنه تفصيلات مهمة لم ترد عند غيره.
- **المقفى الكبير**: تمَّت الإفادة منه لدى ترجمة بعض الأعلام.
- **المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار**: وهو أَثر فريد في نوعه، طريف في موضوعه، غزير في مادته، وتمت الإفادة منه في ضبط وتعريف بعض الأماكن الواردة في البحث.

وإلى جانب كتابات المقريزي- وبمستوى الأهمية نفسها- كانت **كِتابات ابن تغري بردي**، أبي المحاسن جمال الدين يوسف الذي ولد وتوفي في القاهرة (٨١٢-٨٧٤هـ/١٤٠٩-١٤٧٠م)، كان أباه رومي الجنس، مملوكاً للظاهر برقوق وتنقَّل في المناصب لديه حتى تولّى أتابكية العسكر، وتوفي في مرحلة

مبكرة من حياة ابنه، فنشأ يوسف في حجر زوج أخته هاجر- قاضي القضاة جلال الدين البلقيني، المتوفي سنة ٨٢٤هـ/ ١٤٢١م، وإليه يعود الفضل في توجّه يوسف نحو الدراسات الأدبية والدينية. وحظي يوسف بعناية السلاطين والأمراء لأنه من الأمراء والعلماء الذين عرفوا باسم "أولاد الناس"، وأصبح مقرَّباً من البلاط السلطاني، ونال صفة الزعامة بين المؤرخين بعد وفاة المقريزي والعيني، كما أنه كان عارفاً باللغة التركية، فكل ذلك جعله يطّلع على دقائق الأمور وتفاصيلها السياسية والعسكرية، فوضع عدة مؤلفات في التاريخ، كان أهمها بالنسبة إلى البحث:

- **النجوم الزاهرة في تاريخ مصر والقاهرة:** ويُعدُّ هذا السفر ثمرة جهوده وختامها، ويختصُّ بتاريخ مصر منذ الفتح الإسلامي لها حتى سنة ٨٧٢هـ/١٤٦٧م. وقد عُوِّلَ عليه كثيراً أثناء تدقيق بعض الأحداث المعالجة في الأطروحة، لأنه أتى بأحداث وتفاصيل دقيقة ساعدت كثيراً على ضبط الخلل.
- **المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي:** أول آثاره الضخمة، ويعد معجم تراجم كبير، وضعه كذيل أو تكملة لكتاب الصفدي "الوافي بالوفيات"، بدأهُ بالترجمة لأعلام المسلمين منذ بداية دولة المماليك حتى منتصف القرن الثامن الهجري، وكانت الاستفادة منه كبيرة في التعرف على بعض الشخصيات.

ولا تقل **كِتابات الذهبي** أهمية عن كتابات ابن تغري بردي، فهو مؤرخ الإسلام شمس الدين محمد ابن أحمد بن عثمان بن قايماز، ولد في دمشق وتوفي بها سنة ٧٤٨هـ/١٣٤٧م، وضع تصانيف كثيرة قاربت المئة مصنَّفاً. تميز بأسلوبه النقدي الجميل الذي أصبح جزءاً من مفهومه التاريخي، فهو لم يقبل جميع آراء النُّقاد السابقين، ولم يقبل بكل أقوالهم، مع احترامه الشديد للثقات منهم ومدحه لهم، ولهذا ردَّ آراء كثير من النُّقاد وأبطلها بنقد متين وأسلوب علمي متزن، ويأتي في مقدمة كتبه كتاب "**تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام**"، الذين ترك أثراً واضحاً في كل خطوات البحث، لأهميته وغزارة مادته، وكثرة نقوله عن الثقات، وهو لم يخرج به عن الإطار الحولي المعتاد، إلا أنه ذكر أحداث كل عشر سنوات على حده، ثم عاد ليترجم لوفيات هذه السنوات، وبعد كتاب تاريخ الإسلام- في الأهمية والضخامة- يأتي كتابه "**سِيَر أعلام النبلاء**"، ومع أنه كتاب تراجم جعله تلخيصاً واختصاراً لكتابه السالف؛ إلا أنه تضمَّن كثيراً من الروايات والأحداث التاريخية المهمة، وكثيراً من التراجم التي لم ترد في كتابه الأول، وبرع فيه بنقد الرجال- جرحاً وتعديلاً- وإصدار أحكامه عليهم، كما أن للكتاب أهمية خاصة لدى دراسة أحوال المجتمع الإسلامي، لذلك تم الاعتماد عليه في ترجمة بعض الشخصيات الواردة في البحث.

وكان هناك كتاب "**البداية والنهاية**" لابن كثير، إسماعيل بن عمر، البصري الدمشقي، المتوفي سنة ٧٧٤هـ/١٣٧٢م، كان غزير العلم، واسع الاطلاع، إماماً في التفسير والحديث والتاريخ، وكتابه موسوعي على درجة عالية من الأهمية. وأيضاً كتاب " **الكامل في التاريخ**" الذي يبدو أنه أخذ نصيباً كبيراً من اسمه، وهو لابن الأثير، عز الدين أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد، ت ٦٣٠هـ/ ١٢٣٢م، وقد تميز هذا الكتاب بشمول النظرة وعمق التفكير والموازنة بين الأحداث، وقد تمت الإفادة من هذين الكتابين العظيمين على مدار البحث.

أما فيما يتعلّق **بكُتب التراجم** التي اعتُمدت في البحث فكانت كثيرة متنوعة، فبالإضافة إلى الكتب التي تقدم ذكرها، يوجد **كِتابات صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي**، المتوفي سنة ٧٦٤هـ/١٣٦٣م، وأصله من صفد في فلسطين، درس في دمشق، وتولّى عدة وظائف إدارية، ووضع زهاء ٢٠٠ مصنف، وأُولع في كتابة التراجم فبرع فيها، ووضع عدة مؤلفات بها، كان أهمها بالنسبة إلى البحث "**الوافي بالوفيات**"، وهو من أجلِّ كتبه وأوفاها، والكتاب مرتَّب ترتيباً ألف بائياً، وكذلك كتابه "**أعيان العصر وأعوان النصر**"، و"**نكت الهميان في نكت العميان**"، و" **تحفة ذوى الألباب فيمن حكم دمشق من الخلفاء والملوك والنواب**". وقد تم الاعتماد على هذه الكتب خلال العمل ولا سيما فيما يتعلق بالتراجم، فقد ترّجم لكثير من الشخصيات التي وردت في البحث.

ومِنَ **الكتب الموسوعية** التي تمَّ الاعتماد عليها كتاب "**نهاية الأرب في فنون الأدب**"، وهو لشهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويري (٦٦٠-٧٣٣هـ/١٢٦٢-١٣٣٢م)، نسبةً إلى نويرة وهي قرية من قرى بني سويف بمصر، ولد ونشأ بقوص، ودَرَسَ بالقاهرة، واشتغل بنسخ الكتب واشتهر بخطه الجميل، وتقلَّب في عدة وظائف إدارية ومالية، وأحياناً عسكرية، ثمَّ نبذَ الوظائف ليتفرَّغ للعلم، فأخرج موسوعته الشهيرة التي جمعت طائفة هائلة من المواد والمعارف الأدبية والتاريخية التي ربما لم تُجمع في كتاب آخر من قبله ولا بعده. وما يهم البحث من هذه الموسوعة هو الفن الخامس منها الذي يعدّ قوامها، ويتحدَّث به عن تاريخ البشرية منذ البداية حتى سنة ٧٣١هـ/١٣٣٠م. وقد اعتُمد عليه كثيراً في تدقيق ومقارنة بعض الأحداث. ويضاف إلى نهاية الأرب موسوعة **مسالك الأبصار في ممالك الأمصار** لابن فضل الله العمري، المتوفي سنة ٧٤٩هـ/١٣٤٨م، وهو أحد رجال السلطة آنذاك، قدَّم في موسوعته عدة معارف وفنون، فبالإضافة إلى الأحداث التاريخية المهمة التي قدَّمها، اعتمد عليه بشكل كبير في بقيّة الجوانب ولا سيما المعلومات الجغرافية الكثيرة.

وموسوعة "**صبح الأعشى في صناعة الإنشا**" لأبي العباس أحمد بن علي القلقشندي، المتوفي سنة ٨٢١هـ/ ١٤١٨م. ومع اعتماده بشكل كبير على كتاب "التعريف بالمصطلح الشريف" لابن فضل الله

العمري إلا أنه يبقى أهم موسوعة في أدب الإنشاء ومراسلات الملوك، وذا أهميّة عظيمة لا بدّ منه عند الحديث أو التعريف بالمناصب والأعمال الإدارية عند الأيوبيين، بالإضافة إلى ما قدَّمه من معلومات اقتصادية وسياسية وتعريف لمعظم الألفاظ الغريبة في ذلك العصر.

ومن المجازفة وسم هذه الموسوعات الثلاث- سالفة الذكر- بأنها كُتب عادية؛ لأنها في الواقع موسوعات ضخمة ومدهشة ولا تدل أسماؤها على حقيقة محتوياتها، ومن المجازفة وصف مؤلفيها باسم كتّاب أو أدباء، فهم في الواقع من أكابر العلماء الموسوعيين، امتازوا بالتمكن والتوسع، واستطاعوا بكثير من الجد والجهد أن يجمعوا أشتات المعرفة ويودعوها في مؤلفاتهم.

ويلي المصادر العربية- الإسلامية **المصادر الأجنبية واللاتينية**، وهنا يمكن القول إن الأخيرة لا تقل أهمية عن الأولى عند البحث في ميدان الحروب الصليبية، وربما تفوق عليها عند البحث في تشكيل مملكة القدس اللاتينية الثانية، والنظام الداخلي للصليبيين. وأيضاً تمتاز المصادر اللاتينية عن العربية بأن كثير منها أُوقِفَت على أحداث الحروب الصليبية وتخصصت بها، على عكس المصادر العربية التي عالجت أحداث تلك الحروب في إطار التاريخ الإسلامي العام، دون التخصص بأي من مراحلها.

ويؤخذ على تلك المصادر اللاتينية أنها كُتبت في غالبيتها من قبل أشخاص صليبيين أو معادين للعرب- المسلمين، ومناصرين لقضيتهم الصليبية، فمثَّلت هذه الكتابات وجهة النظر الصليبية، ومن ثم أتت تلك الكتابات متلونة بلون معادي للعرب – المسلمين، ولكن بدرجات متفاوت حسب انتماءات وميول كل كاتب منها (دينية أو كنسية أو إقليمية أو حزبية).

أيضاً كانت هناك الكثير من الكتابات التي أتى أصحابها الأوربيون إلى فلسطين بغرض الحج، فدونوا أخبار رحلاتهم وملاحظاتهم ومشاهداتهم. وهنا لا بدّ من الإشارة إلى أن تلك الرحلات لم تقتصر على عصر الحروب الصليبية فقط، وإنما سبقته أو لحقته، بمعنى أن الأوربيين استمروا في حجهم إلى القدس حتى بعد انهيار مملكة القدس اللاتينية الثانية، وتحرير المماليك لعكا عام ٦٩٠هـ/ ١٢٩١م، حيث تساهل المسلمون كثيراً في السماح للحجاج المسيحيين بالقدوم إلى القدس وسواها، وقدمت الأديرة في القدس الخدمات للحجاج، وكانت هناك ترتيبات مرعية بين السلطات الإسلامية والقائمين على الأديرة، وعلى العموم توفر الأمن، ولم يهدد أحد سلامة الحجاج، لانعدام التعصب بين صفوف المسلمين.

وعلى العموم ساعدت كتابات هؤلاء الحجاج على التعرف على كثير من المدن والأماكن والكنائس والتقسيمات الإدارية والحياة الاجتماعية سواءً في مملكة القدس اللاتينية الثانية أو غيرها، وكان على رأس تلك الكتابات والرحلات تلك التي للراهب الدومينيكاني فيلكس فابري بين عامي ١٤٨٠-١٤٨٣م،

وهي أوسع كتب الرحلات الأوربية قاطبة، ترجمها الأستاذ الدكتور سهيل زكار في موسوعته الشاملة، وأتت في أربع مجلدات (٤٠ — ٤٣).

**ففيليكس فابري** كان عالما دينياً وراهباً ألمانياً معتداً بألمانيته، ومتعصباً لها، أكثر من اعتداده بالانتماء إلى رهبنة الدومينيكان، ولد في سويسرا في مدينة زيوريخ عام ١٤٤١م، وتوفي في ألمانيا في مدينة أولم، عام ١٥٠٢م، وقد قام برحلتين إلى فلسطين بغرض الحج، وترك وصفاً حيوياً ومفصلاً لرحلاته إلى فلسطين،كانت أولاهما قصيرة جرت في عام ٨٨٤هـ/ ١٤٨٠م، والثانية كانت طويلة استغرقت عام ٨٨٧هـ/ ١٤٨٣م، عرَّج فيها على غزة، ومنها إلى سيناء حيث كان من الطبيعي أن يزور دير القديسة كاثرين الذي كان بمثابة قبلة جميع الرحالة والحجاج الأوروبيين في العصور الوسطى، ومن هناك تابع مسيرته لزيارة القاهرة و الإسكندرية خلال شهري أيلول وتشرين الأول ١٤٨٣م.

ومع أن رحلاته تمت في أواخر العصر المملوكي إلا أنه قدم مادة مهمة جداً عن العصر الصليبي، وتناول العديد من المظاهر الدينية والاجتماعية للمسلمين في مصر، وأولى اهتماماً خاصاً بالشعائر الدينية للمسلمين، فضلاً عن الاهتمام بالمساجد ودور علماء الدين. وقد أودع في كتابه مشاهداته، مع ما قرأه وسمعه. ورحلته مهمة جداً، حيث إنها جاءت قبل انتهاء العصور الوسطى في أوربا بعقد من الزمن، وتمت في أواخر العصر المملوكي، وقبيل استيلاء العثمانيين على البلاد العربية بحوالي الربع قرن من الزمن.

إن الجزء الأول من كتابه أشبه ما يكون بالمذكرات اليومية التي ربما دعته إليها ظروف رحلته، والوعد الذي قطعه على نفسه للرهبان من جماعة الدومنيكان، وما لاقاه من متاعب ومشاق أثناء الرحلة. وتميزت كتابات فابري بوصف كل ما يقابله ويشاهده في القدس أثناء تجواله، ويغرق في التفاصيل، وسرد القصص عنها، مشيراً إلى وجود العرب المسلمين، والمسيحيين الشرقيين، وقليل من اليهود، وهذا يدل على روح التسامح، والإخوة في القدس أثناء حكم المماليك.

في حين أن الأجزاء الأخرى من رحلته قدم بها مادة تاريخية مهمة وغنية عن الحروب الصليبية برمتها، لدرجة أن الباحث لا يمكنه الاستغناء عنها، وقد استفاد البحث منها كثيراً في جميع فصول الأطروحة، باستثناء الفصل الثالث منها.

وأيضاً من الرحلات المهمة التي تمت الاستفادة منها رحلة لودولف فون سوخم، كان لودولف قسيساً في أبرشية كنيسة سوخم، في أسقفية بادربورن، استغرقت رحلته إلى الأراضي المقدسة مدة خمس سنوات (٧٣٦-٧٤١هـ/ ١٣٣٦-١٣٤١م)، صاحب خلالها الملوك والأمراء والمقدمين والنبلاء والأعيان، وقدم مادة تاريخية مهمة.

وكذلك **رحلة أرنول** عام ٦١٧هـ/١٢٢٠م، **ورحلة** الألماني **بورتشارد** راهب دير جبل صهيون، عام ٦٢٩هـ/ ١٢٣٢م، الذي زار خلالها مصر وبلاد الشام وما عرف باسم أرمينيا، ويُذكر أنه أمضى مدة عشر سنوات في دير جبل صهيون في القدس، ولم يعد إلى أوربا حتى تقدمت به السن كثيراً. وعُدَّ بورتشارد أعظم الحجاج في جميع العصور الوسطى وأشهرهم، وقدم مادة علمية وتاريخية تنم عن ذكائه وتعلمه، وشدة استيعابه وحبه للمعرفة، وتصل أهمية رحلته لدرجة أن الجغرافيين اعتمدوا عليه في استقاء المعلومات حول التقسيم الجغرافي لفلسطين وسورية وغيرها من المناطق.

ويضاف إلى ذلك رحلات أخرى وجدت مدونة دون أن يتم التعرف على روادها والأشخاص الذين قاموا بها، وقد جمعها الأستاذ الدكتور سهيل زكار وترجمها في الجزء التاسع والثلاثين من الموسوعة الشاملة، وهي على درجة عالية من الأهمية.

ويأتي على رأس الكتابات التاريخية اللاتينية المهمة كتابا **"ورود التاريخ"**، و**"التاريخ الكبير"**، المكملان لبعضهما زمنياً.

فالأول كتب من قبل روجر أوف ويندوفر Wendover، والمعلومات قليلة عن هذه الشخصية، وما يُعرف عنه أنه من أهالي بلدة ويندوفر في بكنهام شير، تدرج في المناصب الرهبانية حتى أصبح قائد جوقة المرتلين في دير القديس ألبان، ثم إلى مرتبة رئيس الرهبان في بلفوير Belvoir، وذلك أثناء حكم الملك جون – أخو ريتشارد قلب الأسد– ثم عزل عن منصبه بعد ارتقاء هنري الثالث للعرش، وعاد إلى دير القديس ألبان إلى أن توفي عام ٦٣٤هـ/ ١٢٣٧م.

أما بالنسبة إلى كتابه **"ورود التاريخ"** ، فهو من أهم النصوص التاريخية اللاتينية على الإطلاق، وهو بالغ الأهمية، وفيه مادة مفيدة جداً، استقاها روجر من مؤرخين أوربيين غربيين وشرقيين بيزنطيين، ويؤرخ بشكل خاص لتاريخ بريطانيا وفرنسا منذ بدء الخليقة حتى سنة ٦٣٢هـ/ ١٢٣٥م، إلا أنه ضم مادة مهمة عن الحروب الصليبية، وما يهم منه بالنسبة إلى البحث هو ما يتعلق بهذه الحروب، ولاسيما القرن الثاني منها، لذا كانت الفائدة منه كبيرة في جميع فصول البحث باستثناء الأخير منها.

أما الثاني الموسوم بـ **"التاريخ الكبير"**، فقد كُتب من قبل متى الباريسي، ولاشك أن "الباريسي" نسبة إلى باريس، حيث نشأ أو تعلم بها، ثم أصبح من رهبان دير القديس ألبان، ويبدو أنه لم يسع لنيل المراتب الرهبانية، مع امتلاكه المؤهلات لذلك، وكان عالي الثقافة، وصرف اهتمامه كله نحو التاريخ وتدوينه، وأعاد تنقيح وتصحيح واكمال ما دونه.

بدأ كتابه حيث انتهى كتاب "ورود التاريخ"، فأرّخ لأحداث عام ١٢٣٥م، وأوصل كتابه حتى أحداث سنة ١٢٧٣م، فكان بشكل أو بآخر تكملة لكتاب "ورود التاريخ"، وعلى الرغم من أنه كسالفه خُصص لتأريخ أحداث إنكلترا وفرنسا، إلا أنه ضم مادة تاريخية مهمة عن الأحداث والحروب الصليبية في المشرق، وكانت الإفادة منه واضحة في الفصل الأخير من الأطروحة.

وكتاب "**المنتقى من مختصر تاريخ القدس**"، وهو للكاهن جاك دي فتري الذي ولد في فرنسا في مدينة فتري عام ٥٧٦هـ/ ١١٨٠م، وأصبح في سنة ٦٠٦هـ/١٢١٠م كاهناً شماساً لأرجنتويل Argenteuil، ثم تدرج في المناصب الكهنوتية، ثم تولى نيابة البابوية في فرنسا وألمانيا، وما لبث أن أصبح واحداً من الرجال البارزين بشهادة معاصريه بدليل تأثيره في الحركة الصليبية في القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي، لدرجة تم تشبيه جهوده بجهود بطرس الناسك في القرن السالف، حيث إن جاك دي فتري أوقف حياته على العمل من أجل استرداد الضريح المقدس، ولذلك تم تعيينه أسقفاً لمدينة عكا في عام ١٢١٧م، ورافق الجيش الصليبي لاحتلال دمياط في الحملة الخامسة، وأسهم بالأعمال العسكرية فيها، واهتم بتحويل أطفال المسلمين إلى المسيحية وتعميدهم، وفيما بعد أصبح كاردينالاً وأسقفاً للقدس، ثم تولى بطريركية القدس، وتوفي في روما عام ١٢٤٠م، ووضع جل أفكاره وجهوده وسيرته في كتابه "المنتقى من مختصر تاريخ القدس"، وقد قدم به مادة تاريخية مهمة عن مملكة القدس اللاتينية الثانية، لوجوده بها، ولسماعه ذكريات الصليبيين، وشعوره بالانحطاط والمستوى الوضيع الذي وصلوا إليه أثناء عصره، فأجاد في عرض مشاعر عدم الثقة والكراهية التي استحوذت على الصليبيين المحليين تجاه الصليبيين الحمقى الجدد الذين جلبتهم حملات الحجاج المتوالية، فحفظ في كتابه نعوت الشتم التي وسم بها كل طرف الطرف الآخر، وامتاز تاريخه بشكل عام بعدم العمق، وفقدانه روح التحليل والنقد التاريخي. يضاف إلى ذلك أنه كتب تاريخه في الغرب، وقد تقدمت به السن، فوضع مؤلفاً ضخماً، إلا أنه ضاع جزء كبير منه، وما يتوفر منه هو أجزاء مبتورة، إلا أنها ذات أهمية وثائقية تاريخية بالغة، إذ إن ما ضاع منه يعتمد على تلفيقات أسفار العهد القديم، وتمت الاستفادة منها في الفصول الأربعة الأولى من الأطروحة، ولا سيما الفصل الثاني عند الحديث عن النزاع على وراثة العرش في مملكة القدس اللاتينية الثانية.

ومن أجمل الكتابات اللاتينية كتاب "**أعمال القبارصة- الجزء الثالث**" المنسوب إلى الفارس الداوي جيرارد أف مونتريل الذي كان مشاركاً فعلياً في المعارك من جهة الصليبيين، وقدَّم تفصيلاً واضحاً لمجريات الأحداث، وربما يعدُّ المصدر الأول لتحرير المسلمين عكا ودخولهم إليها سنة ٦٩٠هـ، إذ إنه وَصف تلك الخطوات بكل دقة ووضوح، بالإضافة إلى أنه أعطى صورة واضحة لوجهة نظر الصليبيين لمجريات الأحداث في المنطقة، كما أنه المصدر اللاتيني الأكثر أهمية فيما يتعلق بالسنوات الأخيرة للصليبيين

في المشرق. وقد اعتُمد عليه بشكل واضح وأساسي في الفصل الثاني من البحث عند الحديث عن النزاعات والخلافات على وراثة العرش في مملكة القدس اللاتينية الثانية، ولاسيما في عهد أسرة آل هوهنشتاوفن (٦٢٢-٦٦٧هـ/ ١٢٢٥-١٢٦٨م)، وما يليها.

وبالإضافة إلى تلك الكتب التاريخية العامة، فقد ظهرت آنذاك كتب عدة تخصصت في الحديث عن حملة معينة، وغالباً ما كان مدونوها من المشاركين وشاهدين أعيان لأحداث تلك الحملات، والمثال على ذلك هنا أربعة كتب مهمة، أولها "**الحملة الثالثة**" أو "**صليبية ريتشارد قلب الأسد**" أو "**رحلة ريتشارد**"، وهو كتاب شِعر يؤرخ لأحداث الحملة الصليبية الثالثة بكل أحداثها وتفاصيلها، كان مجهول المؤلف، ثم تم التوصل إلى أن الذي أرَّخ لهذه الحملة هو شاعر جوال، نورماندي الأصل، اسمه امبرويز Ambroise، رافق الملك ريتشارد وذهب معه في الحملة الصليبية الثالثة، وهو أفضل مصدر حول الحملة الصليبية الثالثة، تم الاعتماد عليه كثيراً في الفصل الأول عند الحديث عن تشكيل مملكة القدس اللاتينية الثانية، وفي الفصل الرابع عند الحديث عن العلاقات بين الطرفين (الإسلامي والصليبي) أثناء الحملة الثالثة، كما أنه قدّم شرحاً وافياً للنزاعات الداخلية واختلاف وجهات النظر داخل الأوساط الصليبية تجاه العلاقات مع المسلمين.

والكتاب الثاني كان بعنوان "**الاستيلاء على دمياط**"، وهو يؤرخ لأحداث الحملة الصليبية الخامسة، وقد وضعه أولفر أوف بادربورن، وهو من رجال اللاهوت، ينتمي إلى احدى الأسر النبيلة في بادربورن الألمانية، تميز بثقافته وفهمه منذ مرحلة شبابه، تم تكليفه من قبل البابا للتبشير بالحملة الصليبية الخامسة في مقاطعة كولون Cologne، فأدى المهمة بكل نجاح، وحضر مجمع اللاتيران الكنسي بصفته ممثلاً عن أسقفية كولون، ووصل إلى عكا في آب ١٢١٧م، وشارك عملياً في الحملة الخامسة، ودوَّن أحداثها بكل دقة وتفصيل ضمن كتابه " الاستيلاء على دمياط"، وتشير كتاباته تلك إلى أنه كان انساناً متيقظاً وقادراً على الوصف التصويري، ويبدو أن الجزء الأكبر من كتابه قد كتب أثناء الحملة الصليبية وبعدها مباشرة، أي فيما بين عامي ١٢١٧-١٢٢٢م، ويبدو أنه لم يذخر جهداً لتضمين عمله جميع المعلومات والأحداث الضرورية، وقد تم الاعتماد عليه بشكل كبير في الفصل الخامس عند الحديث على العلاقات بين الطرفين (العربي - الإسلامي والصليبي) أثناء الحملة الخامسة. وبالإضافة إلى كتاب "الاستيلاء على دمياط" هناك أعمال وكتب أخرى مهمة له، وهي: كتاب "وصف الأرض المقدسة"، و"تاريخ القدس ومجريات حوادثها المختلفة"، و"تاريخ حكام الأرض المقدسة"، بالإضافة إلى رسائل عدة كتبها بيده.

والكتاب الرابع هو "**حروب فردريك الثاني ضد الايبليين في سورية وقبرص**"، وهو من تأليف

ووضع فيليب دي نوفار، وهو شاعر ومؤرخ، ولد في حوالي سنة ١١٩٥م في مدينة نوفار في لومباردي الايطالية، ومضى إلى الشرق في سن مبكرة من عمره، وكان شاهد عيان لحصار الفرنج لدمياط، وأخذ علم القانون عن القانوني الشهير رالف صاحب طبرية، وتنقل بين مدن مملكة القدس اللاتينية الثانية، ثم استقر بقبرص، وتزوج بها في حوالي ١٢٢٦م، ونال سمعة جيدة في محكمتها، وفي عام ١٢٢٩م وقع في مواجهة شديدة مع وكلاء الإمبراطور فردريك، ورفض أداء القسم لهم، وانضم إلى جانب الابيليين في صراعهم مع الإمبراطور فردريك الثاني، وفيما بعد داعت شهرته كمحامي استئناف في المحكمة العليا في عكا.

ترك فيليب عدة كتابات ومؤلفات، وما هو هام منها كتابه سالف الذكر الذي هو ترجمة لسيرة واحد من كبار الإقطاعيين، هو جون دي ابلين صاحب بيروت العجوز، وتضمن الكتاب مادة تاريخية عن أحداث الحملة الصليبية السادسة وما تلاها من نزاعات في مملكة القدس اللاتينية الثانية، ويؤخذ عليه أنه لم يمتلك فلسفة معمقة للتاريخ، فجاءت كتاباته على شكل روايات وحكايات منحازة، وتتعلق قيمة الكتاب وأهميته بسمته أنه رواية واحد من الغولف Guelph السوريين، ولأنه يحتوي على رواية صحيحة حول الأحداث التي وقعت، يضاف إلى ذلك أنه يعطي صورة عن موقف فيليب ضد الحزب الإمبراطوري في الشرق، بالإضافة إلى أنه حوى مادة غنية عن قوانين مملكة القدس ونظامها السياسي الذي تم معالجته في الفصل الثالث من الأطروحة.

والرابع هو كتاب "**حياة القديس لويس**"، وتكمن أهمية هذا الكتاب من أن مُؤَلِّفَهُ كان أحد فرسان الحملة الصليبية السابعة، وشاهد عيان لها، وبه أورد تفاصيل ونصوصاً دقيقة عن الأحداث والمعاهدات والاتفاقيات بين الصليبيين والمسلمين، أثناء الحملة السابعة، فكان جين صاحب جوانفيل هو أفضل من أرَّخ للحملة السابعة ولوقائعها بتفصيل موثق، وذلك ضمن كتابه الذي خُصِّصَ للحديث عن أعمال وبطولات القديس لويس، وكانت الإفادة من الكتاب كبيرة في الفصل السادس من الأطروحة أثناء الحديث عن العلاقات بين الطرفين خلال هذه الحملة.

وبالإضافة إلى الكتب التاريخية سالفة الذكر تمَّ الاعتماد على عدد كبير من **الكتب والمعاجم الجغرافية**، تأتي في مقدمتها **كتابات ياقوت الحموي**، وهو أبو عبد الله شهاب الدين (٥٧٥-٦٢٦هـ/ ١١٧٩-١٢٢٩م)، يتحدر من أصل رومي، ويرجح أنه يوناني، أُسر في صِغره، وابتاعه في بغداد أحد تجار حماة ، واسمه عسكر الحموي، فنُسب إليه ولقِّب بالحموي، صَحِب سيده في عدة رحلات تجارية، ثم أصبح يسافر لوحده براً وبحراً بما لدى سيده من بضائع، فتنقل بين الخليج العربي وبلاد الشام ومصر، ثم أعتقه سيده، وتوفي سنة ٦٠٧هـ/١٢١٠م، فأصبح سيداً لنفسه، واستمر في حركته التجارية والعلمية شرقاً وغرباً،

وزار كثيراً من بلدان العالم الإسلامي، وأهمها في مسيرته العلمية "مرو"، إذ إنه استفاد كثيراً من خزائن الكتب الموجودة فيها، وانتهى به المطاف في حلب، وتوفيّ بإحدى خاناتها، ولشدة ما عاناه من تشتت وفقر في حياته كان بخيلاً في العلم، ولا يحب أن يطّلع أحد على ما جمعه من مادة علمية، وقد اعترف هو بذلك، وأهم مؤلفاته:

- **معجم البلدان:** جمع فيه أسماء كثير من الأماكن والجبال والأودية والأنهار وغيرها، وجمع معظم مادته العلمية في مرو مستفيداً من خزائنها العلمية، كما استفاد في جمع مادته مما أُلِّف قبله في هذا المجال وأضاف عليها، فأتى به بمادة فريد من نوعها، ورتّبه على حروف المعجم، وضبط الأسماء بدقة، وأعطى نبذة عن تاريخها. وقد تمَّ الاعتماد على الكتاب في ضبط الأماكن، والتعريف بها.
- **معجم الأدباء:** هو معجم تراجم، لم يُعتمد عليه كثيراً في البحث.

وكمعجم البلدان كان كتاب "**مراصد الإطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع**" لعبد المؤمن بن عبد الحق بن شمائل القطيعي البغدادي، المتوفي سنة ٧٣٩هـ/١٣٣٨م. ومع أنه يُعدّ مختصراً لمعجم البلدان إلا أنه لابدَّ منه أثناء البحث، وكذلك "**رحلة ابن جبير**" لمحمد بن أحمد بن جبير الأندلسي (ت٦١٤هـ/ ١٢١٧م)، وتحتل هذه الرحلة مكانة رفيعة بين سائر الرحلات، إذ جاءت حافلة بالتجارب والمشاهدات الشخصية لكثير من الأماكن. بالإضافة إلى عدد من الكتب والمعاجم الجغرافية التي كان لابد منها خلال البحث، ويضيق المجال عن دراستها هنا.

وإلى جانب المعاجم الجغرافية كانت الحاجة إلى **المعاجم اللغوية**، لتبسيط وفهم بعض العبارات أو الكلمات، ويأتي على رأس هذه المعاجم "**لسان العرب**" لابن منظور الإفريقي محمد بن مكرم، (ت٧١١هـ/١٣١١م)، وهو من أشهر وأهم معاجم اللغة العربية. وكتابا "**المحكم والمحيط الأعظم**" و"**المخصص**" لعلي بن إسماعيل بن سيده المرسي (ت٤٥٨هـ/١٠٩٢م)، وهما من كنوز اللغة العربية. وأيضاً كتب "**القاموس المحيط**"، و"**تهذيب اللغة**"، و"**مختار الصحاح**"، وغيرها..

وفي نهاية دراسة المصادر لا بدَّ من الإشارة إلى أن عدداً من المراجع المهمة التي كان لها حضور قوي خلال البحث، بجميع فصوله، وهي "**الموسوعة الشاملة في تاريخ الحروب الصليبية**" للأستاذ الدكتور سهيل زكار والتي يبدو أنها أخذت نصيباً وافراً من اسمها، وأيضاً كتاب "**تاريخ الحروب الصليبية**" لستيفن رنسيمان، ولاسيما الجزء الثالث منه، و كتاب "**الحركة الصليبية**" لسعيد عبد الفتاح عاشور. وغيرها من المراجع المهمة التي تم إثباتها في نهاية الأطروحة.

**الفصل الأول ..... ٢٦**

تأسيس مملكة القدس اللاتينية الثانية عام ٥٨٧هـ/ ١١٩١م واتخاذها عكا عاصمة لها بشكلٍ مؤقتٍ بدل القدس .....٢٦

**المبحث الأول: جغرافيا عكا ..... ٢٦**

أولاً: أهمية الموقع الجغرافي .....٢٦

ثانياً: التسمية وتطورها .....٣٣

**المبحث الثاني: لمحة تاريخية عن عكا قبل اتخاذها عاصمة لمملكة القدس اللاتينية الثانية ..... ٣٥**

*أولاً: عكا قبل الاجتياح الصليبي لبلاد الشام* .....٣٥

ثانياً: تاريخ عكا منذ الاجتياح الصليبي لبلاد الشام حتى اتخاذهم لها عاصمة مؤقتة ٣٧

**المبحث الثالث: العناصر التي أدت دوراً هاماً في تأسيس مملكة القدس اللاتينية الثانية عام ٥٨٧هـ/١١٩١م ..... ٤٢**

أولاً: دور مدينة صور.....٤٢

ثانياً: دور المركيس كونرادConrand .....٥٣

ثالثاً: دور الملك غي (كي) دي لوزنيان Guy De Lusignan .....٦١

رابعاً: دور الحملة الثالثة.....٦٦

**المبحث الرابع: الحصار الصليبي لعكا، والمقاومة الإسلامية بين عامي ٥٨٥-٥٨٧هـ/ ١١٨٩-١١٩١م حتى سقوطها ..... ٧١**

أولاً: بداية الحصار الفرنجي لعكا عام ٥٨٥هـ/ ١١٨٩م.....٧١

ثانياً: المعركة الكبرى حول عكا ٥٨٥هـ/ ١١٨٩م.....٧٤

ثالثاً: الإمدادات والمساعدات الغربية للفرنج المحاصرين عكا: .....٨٠

رابعاً: وقعائع وأحداث مهمة بين الطرفين قبل سقوط عكا. .....٨٤

١- وقعة الرمل في صفر ٥٨٦هـ/ آذار ١١٩٠م .....٨٤

٢- الوقعة العادلية ٢٠ جمادى الآخر ٥٨٦هـ/ أواخر تموز ١١٩٠م.....٨٥

٣- التطورات الميدانية حول عكا بعد موقعة العادلية ودخول الإمدادات إليها .٨٦

٤- تبديل حامية عكا: .....٨٨
خامساً: المجاعة والمصاعب التي لحقت بالفرنج حول عكا في شتاء ٥٨٦هـ/ ١١٩٠م .. ٩٠
سادساً: وصول ملكي فرنسا وإنكلترا إلى المعسكر الفرنجي حول عكا وتغيُّر مجرى المعارك حولها.....٩٢
سابعاً: استسلام عكا ودخول الفرنج إليها .....٩٥

## الفصل الأول

# تأسيس مملكة القدس اللاتينية الثانية عام ٥٨٧هـ/ ١١٩١م واتخاذها عكا عاصمة لها بشكلٍ مؤقتٍ بدل القدس

## المبحث الأول: جغرافيا عكا

### أولاً: أهمية الموقع الجغرافي

قبل البحث عن تأسيس مملكة عكا اللاتينية وتاريخها (مملكة القدس اللاتينية الثانية) لابد من دراسة عامة لأهمية عكا الجغرافية والتاريخية، فالإطار التاريخي لأي مدينة أو دولة أو منطقة، لا ينسلخ عن الإطار الجغرافي لها، والصراعات والحروب قديما أو حديثا ناجمة في معظمها عن أسس اقتصادية جغرافية.

وقد شكّلت عكا طيلة عصر سيطرت الصليبيين – كما سماها ابن جبير– "قاعدة مدن الإفرنج بالشام"[١]، ومكانتها هذه لم تأت عبثاً، ولم تكن بعيدةً عن أهميتها الجغرافية، فهي من أقدم مدن العالم التي تمتلك صفات وميزات جغرافية استقطبت التجمعات البشرية منذ فجر التاريخ.

وتقع عكا على خط عرض ٣٢,٥٥ شمالاً، وعلى خط طول ٣٥,٠٤ شرقاً[٢]. وتقع على الطرف الشمالي لأهم خلجان البحر المتوسط في ساحله الشرقي، وقد أخذ هذا الخليج اسمه منها وسمي بـ"خليج عكا"، وإلى الشمال من عكا يقع رأس الناقورة على بعد ٢١كم، وفي جنوبها جبل الكِرْمل وساحل البحر المتوسط الذي يمتدّ ليلفها من جهتها الغربية أيضاً، وفي شرقها نهايات جبل الجليل ومستنقعات نهر النعامين[٣]، وهكذا تحيط المياه بعكا من جهتي الغرب والجنوب، وتتصل باليابسة من الجهة الشرقية والشمالية، ويقع الميناء في جهتها الجنوبية.

---

[١] ابن جبير، محمد بن أحمد الكناني: رحلة ابن جبير، دار مكتبة الهلال، بيروت، ص٢٥٢.

[٢] علي، ياسر أحمد: شَعَب وحاميتها، المنظمة الفلسطينية لحق العودة، بيروت، ط١، ٢٠٠٧م، ص٢٣.

[٣] الموسوعة الفلسطينية: هيئة الموسوعة الفلسطينية، دمشق، ط١، ١٩٨٤م، مج٣، ص٢٩٠. سلامة: عكا، ١٣. للاستزادة أنظر: مجلة البحوث الإسلامية، الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد، العدد ٨٨، ١٤٣٠هـ/ ٢٠٠٩م، الأمكنة، ص٦٩٧.

بيروت
صيدا
صور
عكا
حيفا
حطين
طبريه
قيسريه
البحر
المتوسط
نابلس
ارسوف
يافا
القدس
عسقلان
بيت لحم
البحر
الميت
غزه
دير البلح
الخليل
الكرك
دمشق
سينا
مصر

١

٢

---

[١] https://www.google.com/url?sa=i&source=images&cd

[٢] https://www.google.com/url?sa=i&source=images&cd

وجاء موقعها على لسان صخري ممتداً في البحر المتوسط قرابة ٦٤٠ متراً باتجاه الغرب، وشكل هذا اللسان خليجاً مهماً وكبيراً في جنوبه سمي باسم المدينة "خليج عكا"، ويحيط بعكا سهل خصب كذلك يعرف باسمها "سهل عكا"، وتكثر فيه زراعة الحبوب والحمضيات والفواكة والنخيل ومختلف أنواع الخضار ومزارع الكروم التي تعد المصدر الأساسي لصناعة الخمور والنبيذ الذي كان يعد العنصر المهم في المائدة الصليبية.[١]

وتروي سهل عكا عدة أودية صغيرة تجعله خصباً، وأهم هذه الأودية من الشمال إلى الجنوب: وادي كركرة، ووادي القرن، ووادي بيت جن، ووادي البُقيعة، ووادي قلعة القرين (مونتفورت)، ووادي الصعاليك، وعيون الكابري، ووادي المفشوخ، ووادي مجنونة، ووادي غَميْة، ونهر النعامين، ونهر المقطع[٢].

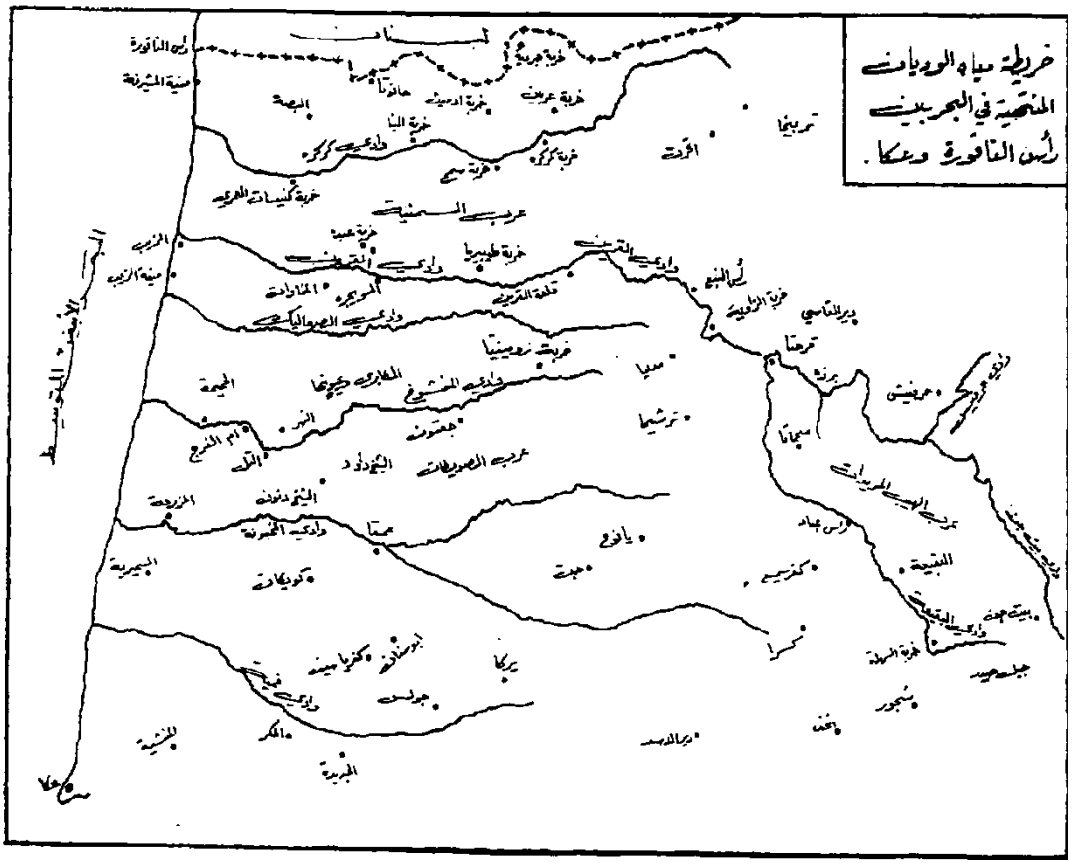


---

[١] الماضي، مروان: قصة مدينة عكا، منظمة التحرير الفلسطينية، ص١١. الدباغ، مصطفى مراد: الدباغ: بلادنا فلسطين، دار الهدى، كفر قرع، ١٩٩١م، ج٧، ق٢، ص١٦٢-١٦٣. للاستزادة أنظر:

زيادة، نقولا: رواد الشرق العربي في العصور الوسطى، دار لبنان للطباعة- بيروت، ط٢، ١٩٨٦، ص١٩٢. رحيل، محمد فوزي: نهاية الصليبيين، عين للدراسات، ط١، ٢٠٠٩م ص٨٥-٨٩

[٢] للمزيد عن هذه الأودية راجع: الدباغ: بلادنا فلسطين، ج٧، ق٢، ص١٦٦-١٧٢. كذلك سلامة: عكا، ص١٥.

ولاشك أن كثرة هذه الأنهار ساهم في زيادة خصوبة التربة لما تحمله هذه الأنهار من رسوبات ومواد عضوية وطمي وغيرها، كما أنه ساعد على إنشاء مشاريع للري عليها، ومن ثم غناها بالمحاصيل الزراعية

أما ساحل عكا فهو صخري مرتفع بشكل عام، وفي شمالها يتداخل الرمل مع الصخر في آنٍ واحد، أما في جنوب المدينة فتغيب الجدران الصخرية، ويتوغل البحر في الرمال مشكلاً خليج عكا ذا الشاطئ الرملي[١]. ويلي الشاطئ سهل ساحلي يحيط بعكا يصل إلى عمق ١٦كم باتجاه الداخل، ويضيق كلما اتجهنا شمالاً، ويتميز بتربته الغنية بالمواد العضوية المتفسخة؛ لتكونه من رسوبات عميقة من النموذج الطيني المشوب بالرمال، وغالباً ما تغمره مياه الأمطار والفيضانات، وأحياناً تتشكل بعض المستنقعات في الأطراف الشرقية لمدينة عكا، ولا سيما قرب مصب نهر النعامين. وبناءً على ذلك فإن تنوّع سهول عكا أدى إلى كثرة الزراعات فيها وتعددها وتنوعها، ففي جنوبها انتشرت أشجار النخيل فوق الكثبان الرملية، وفي شرقيها حيث تتسع السهول تسود زراعة الخضار والفواكه والحبوب، أما في شمالها فتنتشر البساتين والحدائق الغناء[٢].

مما تقدم يظهر أن موقع عكا وحصانتها وغناها أعطاها بعداً وأهمية استراتيجية قديما وحديثا، كما جعلها مركزا تجارياً كبيراً أدى إلى احتكاكها الحضاري مع سكان العالم من خلال انفتاحها الجغرافي على العالم الخارجي. وجعلتها هذه الأهمية عرضة لأطماع الدول المتتابعة عبر التاريخ، و" صار امتلاك عكا ضرورياً لكل فاتح يريد امتلاك القطر"[٣] .

وبرزت أهمية عكا التجارية أكثر من ذلك في عصر الحروب الصليبية؛ إذ شغلت موقعاً تجارياً ممتازاً على ساحل البحر المتوسط بين صور في الشمال وحيفا في الجنوب، وأحياناً صارت منفذ دمشق على البحر وموئل تجار اليمن، كما كانت نهاية لطرق التجارة العالمية من آسيا الوسطى إلى سواحل البحر

---

[١] للمزيد انظر: الدباغ: بلادنا فلسطين: ج٧، ق٢، ص١٦٢. سلامة: عكا، ص١٣.

[٢] دي فيتري، جاك: المنتقى من مختصر تاريخ القدس، تر: سهيل زكار، عن الموسوعة الشاملة، ج٣٣، ص ١٣٤. سلامة: عكا، ص١٤.

[٣] كرد علي، محمد بن عبد الرزاق: خطط الشام، مكتبة النوري، دمشق، ط٣، ١٩٨٣م، ج٤، ص٢٤٤. وللاستزادة انظر: الحِميري، محمد بن عبدالله بن عبد المنعم: الروض المعطار في خبر الأقطار، تح: إحسان عباس، مؤسسة ناصر للثقافة، بيروت، ط٢، ١٩٨٠م، ص٤١٠-٤١١.

المتوسط، وأصبح الحجاج والتجار من الغرب الأوربي يؤثرون النزول في مينائها ومن ثم العودة من خلاله بعد إنهاء حجهم إلى القدس، وذلك لقربها من القدس[١]، وهو أمر مهم لم يتوفر لباقي المدن الساحلية، على الرغم من صعوبة الرسو في مينائها وخطورته أثناء هبوب الرياح من الجنوب، واضطرار بعض السفن للرسو في ميناء حيفا الذي يبعد عنه حوالي ١٥كم. كما أن طبيعة ميناء عكا وقدرته الاستيعابية – ثمانين سفينة – على استقبال السفن أعطاها بعداً استراتيجياً آخر، فالميناء تمتع بالحماية الطبيعية من الشمال والجنوب والشرق مما ضمن رسواً آمناً للسفن وريحاً مناسبة للتجارة[٢]. وهذا ما قصده ابن جبير عندما قال عن عكا إنها : "مجمع السفن والرفاق، وملتقى تجار المسلمين والنصارى من كل الآفاق"[٣].

ومع توفر كل المقومات اللازمة للزراعة وتطورها في عكا وغنى أراضيها؛ إلا أنها شهدت تراجعاً ملحوظاً في القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي لَما كانت عكا عاصمة لمملكة القدس اللاتينية الثانية، ويقدم محمد فوزي رحيل دراسة مستفيضة عن الزراعة في عكا يَخلُص في نهايتها إلى أن: "الاقتصاد الزراعي في القرن الثالث عشر شهد تراجعاً حاداً"، وأن ذلك التراجع كان سبباً من أسباب الضعف الصليبي وانهيارهم[٤].

**مناخياً:**

تخضع عكا لمناخ فلسطين الذي يخضع لمناخ إقليم البحر المتوسط، ومن هنا يسودها فصلان واضحان: الشتاء الممطر، والصيف الجاف.

---

[١] عن تفاصيل رحلة الحج من عكا إلى القدس انظر: أرنول، رحلة أرنول إلى الأرض المقدسة عام ١٢٢٠م، تر: سهيل زكار، عن الموسوعة الشاملة، ج٣٩، ص ١١٨-١٢٠.

(٢) ثيوديرك: وصف ثيوديرك للأماكن المقدسة عام ١١٧٢م، تر: سهيل زكار، عن الموسوعة الشاملة، ٣٥، ص٣٦١. Theoderich, Description of the Holy places, p. 60. للاستزادة أنظر: رحيل: نهاية الصليبيين، ص١١٢-١١٣. كرد علي: خطط الشام، ج٤، ص٢٤٤-٢٤٥.

(٣) ابن جبير: رحلة ابن جبير، ص٢٥٢.

[٤] انظر: رحيل: نهاية الصليبيين، ص٨٤-١٠٣.

يمتد الأول عادةً بين شهري تشرين الثاني وأوائل نيسان، وأحياناً يتعدى هذه المدة – تقديماً أو تأخيراً–، وغالباً تكون أمطارها بسبب هبوب الرياح العكسية – الجنوبية الغربية– القادمة من صحارى إفريقيا، ولاشك أنها رياح جافة، ولكن بمرورها فوق البحر المتوسط تترطب وتحمل بخاراً كثيفاً تلقيه مطراً عند اصطدامها بسواحل الشام وجباله، وتقدر كمية هطول الأمطار بحوالي ٦٠٠مم تقريباً، وأشد ما يكون المطر في شهري كانون الأول والثاني[١].

وتتعرض عكا كغيرها من أجزاء فلسطين لرياح الخماسين أو الشلوق، وهي رياح شرقية مزعجة تتصف بارتفاع الحرارة والجفاف، وغالباً ما تهب في أشهر الربيع والخريف، وتتعرض أحياناً لرياح شمالية باردة وجافة[٢].

وبشكل عام يمكن وصف مناخ عكا بأنه معتدل دافئ وماطر شتاءً؛ لتعرضها للمؤثرات البحرية، وحار جاف صيفاً. ويستثنى من ذلك المرتفعات الجبلية المحيطة بها؛ لأنها تتعرض للبرد الشديد والتجمد[٣].

---

[١] الموسوعة الفلسطينية، مج٣، ص٢٩١. الدباغ: بلادنا فلسطين: ج١، ق١، ص٣٧.

[٢] الدباغ: بلادنا فلسطين: ج١، ق١، ص٣٧.

[٣] للاستزادة انظر: رحيل: نهاية الصليبيين: ص٨٤.

## ثانياً: التسمية وتطورها

عكا من أقدم مدن العالم، تعود في تسميتها إلى عكَّ التي هي قبيلة عربية اختُلف في نسبتها، ومعظم قبائل عكَّ وبطونها هي في اليمن، وهي قبائل عدنانية – على رأي أكثر النسابين [١].

وأصل كلمة عكا هي عكو، تعني "الرمل الحار"، وفي اللغة تعني "الحر الشديد"،[٢] وهذا هو المرجح.

وعبر تاريخها حملت عكا أسماء عدة، فقد سماها المصريون عكا AKA أو عك AK، وفي رسائل تل العمارنة وردت باسم عكا، وحين خضعت للآشوريين سموها عكو، ووردت في الأدبيات الكنعانية باسم عكو AKKO، ونقلها العبريون بالاسم نفسه، ووردت في النصوص اللاتينية باسم عكي ACCE، وفي النصوص اليونانية باسم عكي AKE، وفي العصرين الكلاسيكي والبيزنطي حملت اسم بتولمياس PTOLEMIAS أو بتوليمايس PTOLEMAIS، أو بتلومي PTLOMI، ويسوغ جاك دي فيتري هذه التسمية بأن أخوين كانا قد أسسا عكا، أولهما بتلومي والآخر عكون، ومن ثم حملت المدينة اسميهما.[٣]

ولَمّا خضعت للعرب المسلمين في القرن السابع الميلادي أعادوا لها الاسم الكنعاني القديم "عكا" مع تحريف بسيط، واستمر هذا الاسم حتى عصر الحروب الصليبية حيث أطلقوا عليها اسم عكون ACCON، أو ACCHON، أو ACKON، كما أطلقوا عليها أسماء أخرى كـ ACRE وACRI، ولما أنشأ الصهاينة كيانهم في فلسطين عام ١٩٤٨م أطلقوا عليها اسم عكو AKKO(٤).

---

[١] الطبري، محمد بن جرير: تاريخ الطبري، المعروف ب تاريخ الرسل والملوك، دار التراث، بيروت، ط٢، ١٣٨٧هـ، ج٢، ص ٢٧٠. علي، جواد: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، دار الساقي، ط٤، ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م، ج٢، ص٤١، ج٨، ص٩٥، ٩٧. ويرد فيه أن قبائل عَكَّ: هي القسم الآخر الشهير من أقسام قبائل عدنان، تقع أرضها جنوب أرض معد، ويذكر أن معد وعكّ ابنان لعدنان، ومن النسابين من يجعل عك ابناً للديث بن عدنان، أي أنه حفيد عدنان. وأمام هجوم بختنصر لمنطقتهم انتقل العكيون إلى اليمن وانتشروا بين تهامة اليمن وجُدّة.. للاستزادة أنظر: المعارف، ج١، ص٦٣.

[٢] شعب، ص٢٣. المعارف، ج١، ص٦٣. مجلة البحوث الإسلامية، عد٨٨، الأمكنة، ص٦٩٧.

[٣] دي فتري: المنتقى، عن الموسوعة، ج٣٣، ص ١٣٤. للاستزادة أنظر: سلامة: عكا، ص١١ .

[٤] علي: شعب، ص٢٣، سلامة: عكا، ص١١.

يتضح مما تقدم أن مدينة عكا احتفظت بتسميتها الكنعانية القديمة، وإن طرأ عليها بعض التغيير في اللفظ إلا أنه كان تغييراً مؤقتاً، وأن اشتقاق الاسم جاء من طبيعة الموقع، وأن نسبتها إلى قبيلة مجرد أسطورة.

# المبحث الثاني: لمحة تاريخية عن عكا قبل اتخاذها عاصمة لمملكة القدس اللاتينية الثانية

## *أولاً: عكا قبل الاجتياح الصليبي لبلاد الشام*

تعد عكا من المدن القديمة تاريخياً في المنطقة العربية، تعرضت عبر تاريخها – كغيرها من مدن المنطقة– لأدوار من الرفعة والازدهار والرخاء، ولأدوار أخرى من السلب والنهب والدمار والقتل الجماعي، مما عرّض سكانها للتناقص أو عدم التزايد بسبب حركات الهجرة والنزوح التي تسبق أو تتبع عمليات القتل والإجرام، وهذا يظهر جلياً عند التمعن بعدد سكان عكا علماً أنه بلغ خمس آلاف نسمة منذ منتصف الألف الثاني قبل الميلاد[١].

جرى تأسيس عكا مع العديد من القرى والبلدات التابعة لها في الألف الثالثة قبل الميلاد على يد احدى القبائل الكنعانية العربية وهم "الجِرْجاشِيون"، وجعلت هذه القبائل منها مركزاً تجارياً مهماً. واشتهرت كثيراً باستخراج الصباغ الأرجواني غالي الثمن آنذاك[٢].

وأول ذكر صريح لعكا ورد بين المدن التي افتتحها الملك المصري تحتمس الثالث بعد انتصاره في معركة مجدو ١٤٧٩ق م[٣]، وتكرر ذكرها في العصور المصرية القديمة، وبرزت أهميتها وتمتعت باستقلال وحكم ذاتي في منتصف القرن الرابع عشر قبل الميلاد[٤].

ولما اجتاحت الإمبراطورية الأخمينية بلاد الشام في القرن السادس قبل الميلاد جعلت من عكا مركزاً مهماً لأعمالها الحربية ضد مصر[٥]. واستمرت عكا تحت سلطة الأخمينيين إلى أن اجتاح المنطقة الإسكندر المقدوني في عام ٣٣٣ ق.م، فخضعت له وللبطالمة وللسلوقيين من بعده، وازدادت أهميتها وغدت من قواعد حكمهم الرئيسية في عهد بطلموس الثاني (٢٨٥– ٢٤٧ق م)، وأصبح اسمها بتولمايس

---

[١] سلامة، جلال حسني: عكا في أثناء الحملة الفرنجية– الصليبية الثالثة، رسالة أعدت لنيل درجة الماجستير بإشراف مصطفى الحياري، الجامعة الأردنية، ١٩٩٣م، ص٢٣، نقلاً عن تقرير لجنة الآثار الألمانية العربية، تموز، ١٩٨٣م.

[٢] الموسوعة الفلسطينية: مج٣، ص٢٩١. الدباغ: بلادنا فلسطين: ج٧، ق٢، ص١٨١.

[٣] سلامة: عكا، ص٢٢. الموسوعة الفلسطينية: مج٣، ص٢٩١.

[٤] سلامة: عكا، ص٢٢.

[٥] الموسوعة الفلسطينية: مج ٣، ص٢٩١. جونزا، أرنولد هيومارتن: مدن بلاد الشام حين كانت ولاية رومانية، تر: إحسان عباس، دار الشروق للنشر، عَمان، ط١، ١٩٨٧م، ص١٥.

PTOLEMAIS [١].

ثم خضعت عكا – كونها جزءاً من سورية الطبيعية– للحكم الروماني على يد القائد بومبي منذ عام ٦٤ ق م، ومن ثم للحكم البيزنطي، ويبدو أنها كانت خلال الحكم الروماني من ضمن المدن التي تمتعت بالاستقلال الداخلي، وكان لها دور بارز على مسرح الأحداث[٢]، واستمرت كذلك حتى فتحها المسلمون ضمن فتوحات بلاد الشام عام ١٦هـ/ ٦٣٧م على يد القائد شرحبيل بن حسنة، وفي عهد معاوية بن أبي سفيان أصبحت عكا الدار الأولى في صناعة السفن، والميناء العسكري الأهم في المنطقة، وأنشأوا فيها داراً لصناعة السفن، ومن مينائها بدأ المسلمون عملياتهم البحرية، منذ عهد معاوية بن أبي سفيان، وتمكن الأسطول الذي انطلق منها من فتح قبرص[٣].

وطارت شهرتها في العالم العربي والإسلامي لأهميتها العسكرية والجغرافية والزراعية، ولما تميزت به من غابات الزيتون وكروم العنب والعديد من المزارع، ولا سيما مزارع قصب السكر، كما اشتهرت بصناعة الأصبغة. وإلى جانب ذلك شغلت عكا مرتبة عالية في الحركات التجارية، حيث إنها كانت ميناء سورية الجنوبي، وحوران ودمشق تُصدّر عن طريقها الحبوب والمنسوجات إلى الخارج، وتدفق التجار عليها من كل جانب سعياً وراء تجارتهم وجعلوها مقراً لمتابعة نشاطاتهم[٤].

واستمرت عكا عربية إسلامية خالصة خلال خضوعها لحكم الطولونيين والإخشيديين ثم الفاطميين[٥]، إلى أن جاء الصليبيون إلى المنطقة في نهاية القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي فكان أن تصدت لهم كغيرها من مدن بلاد الشام، وأخفقوا في احتلالها عدة مرات إلى أن تمكنوا منها سنة ٤٩٧هـ/١١٠٤م، وغدت الميناء الرئيسي لمملكة القدس اللاتينية الأولى، ودخلت عكا في طور جديد وخطير لم ينتهِ إلّا على يد سلطان المماليك الأشرف خليل بن قلاوون في عام ٦٩٠هـ/ ١٢٩١م، وهذا يقود إلى الحديث عن وضع عكا خلال عصر سيطرت الصليبيين.

---

[١] الموسوعة الفلسطينية: مج٣، ص٢٩١. سلامة: عكا، ص٢٥

[٢] جونزا: مدن بلاد الشام، ص٦٠.

[٣] البَلَاذُري، أحمد بن يحيى بن جابر بن داود: فتوح البلدان، دار ومكتبة الهلال، بيروت، ١٩٨٨م، ص١١٩-١٢١، ١٥٣. الموسوعة الفلسطينية، ج٣، ص٢٩٢.

[٤] البَلَاذُري: فتوح البلدان: ص١٢١. الدباغ: بلادنا فلسطين: ج٧، ق٢، ١٨٣. سلامة: عكا، ص٢٨-٢٩.

[٥] للمزيد عن عكا في العصور الإسلامية انظر: الدباغ: بلادنا فلسطين: ج٧، ق٢، ص١٩٣، ١٩٧.

## ثانياً: تاريخ عكا منذ الاجتياح الصليبي لبلاد الشام حتى اتخاذهم لها عاصمة مؤقتة

تمكن الصليبيون -بما ملكوه من قوة - في نهاية القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي من تأسيس أربعة كيانات (مملكة + إمارة + كونتيتان)، وعلى رأس هذه الكيانات مملكة القدس.

وقبل سقوط القدس في ١٨ شعبان ٤٩٢هـ/ ١٥ تموز ١٠٩٩م بيد الصليبيين كانوا قد شنّوا - وهم في طريقهم إلى القدس- هجوماً على عكا في أواخر جمادى الآخر سنة ٤٩٢هـ/ أيار ١٠٩٩م، إلا أنهم أخفقوا ولم يتمكنوا من احتلالها، وبعد سقوط القدس بأيديهم واتخاذهم من يافا مركزاً لشن غاراتهم على المدن الفلسطينية أسرعت عكا - كغيرها من المدن- إلى إعلان التبعية لهم مقابل أتاوة شهرية.

لكن ذلك لم يكن منتهى طموح الصليبيين، فعكا كانت هي الوحيدة التي تملك ميناءً كبيراً محصناً آمناً طيلة فصول السنة، وهو ضروري لأغراضهم التجارية والاستراتيجية والاستيطانية، ومن هذا الباب شرع ملك القدس بلدوين الأول في محاصرة عكا في سنة ٤٩٧هـ/١١٠٣م إلا أنه أخفق في احتلالها بسبب مقاومة أهلها وصمودهم، إضافة إلى تحصينات مدينتهم ومتانة أسوارها ودفاعاتها الخارجية، وكل ما تمكن منه بلدوين آنذاك هو تدمير محاصيلها وبساتينها[١].

وفي عام ٤٩٧هـ/١١٠٤م استغل بلدوين الأول فرصة وصول اسطول جنوي ضخم إلى حيفا فاستعان به، وأطبق حصاره على عكا، وشدد عليها الحصار من جهتي البر والبحر، واستبسلت الحامية الفاطمية الموجودة فيها ودافعت عنها بقيادة زَهر الدولة بَنَا الجُيُوشِي لمدة عشرين يوماً، وعندما يأس من النصر ومن وصول أي مساعدات أرسل يطلب الأمان لأهل عكا مقابل التسليم، فوافق بلدوين الأول، وتم ذلك في شعبان ٤٩٧هـ/ أيار ١١٠٤م، إلا أن الفرنج نكثوا بوعودهم ودخلوا المدينة بالسيف وسلبوا وقتلوا وذبحوا كعادتهم[٢].

---

[١] دي فتري: المنتقى، عن الموسوعة، ج٣٣، ص ١٣٠-١٣٤. الدباغ: بلادنا فلسطين، ج٧، ق٢، ص١٩٨. الشارتري، فوشيه: الاستيطان الصليبي في فلسطين- تاريخ الحملة إلى بيت المقدس، تر: قاسم عبده قاسم، دار الشروق، القاهرة، ط١، ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م، ص١٩١.

[٢] ابن القلانسي، حمزة بن أسد بن علي: تاريخ دمشق، تح: سهيل زكار، دار حسان للطباعة والنشر، دمشق، ط١، ١٩٨٣م، ص٢٢٤-٢٢٥، ٢٣٢. ابن الأثير، أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني (ت: ٦٣٠هـ): الكامل في التاريخ، تح: عمر عبد السلام التدمري، دار الكتب العلمية، بيروت،

ومع بعد عكا عن القدس – عاصمة المملكة– ما يقارب مئة ميل، إلا أنها غدت الميناء الأساسي الأكثر نشاطاً في الساحل الشامي، وازدادت الحركة التجارية بها، وغدت الميناء الأساسي الذي يجري منه شحن ما يرد من سلع دمشق وما حولها إلى الغرب، فغمرت البضائع أرصفة الميناء وتوافد على عكا عدد من التجار من شمال إفريقيا ليبتاعوا سلعهم من داخل البلاد، وقد تعجب ابن جبير في سنة ٥٨٠هـ/ ١١٨٤م عندما رافق قافلة سائرة من دمشق إلى عكا من الازدحام والحركة التجارية بها[١].

وذكر الرحالة الألماني ثيودرك THEODORICH الذي زارها عام ٥٦٧هـ/ ١١٧٢م أن جميع حجاج الغرب المسيحي يجتمعون في عكا بعد الانتهاء من الحج ليُحملوا منها إلى بلادهم[٢]. ويُجمع الرحالة الذين زاروها آنذاك أنها أصبحت مركزاً لتجمع الحجاج الأوربيين في الذهاب والإياب[٣]. ويلاحظ أنه لم يكن للفرنج دورٍ بارزٍ في هذه التجارة.

ويلاحظ أن عكا جذبت إليها "أغنى التجار تحت قبة السماء، وقد تجمّع هؤلاء واحتشدوا معاً هناك من جميع أمم الأرض"، "وجرت العادة بجلب كل شيء كان موجوداً في العالم، ونُظر إليه على أنه رائع أو غريب، وسيحتاج الأمر إلى وقت طويل للحديث عن الأمجاد الأخرى لعكا مع مفاتنها

---

ط١، ١٩٩٧م، ج٨، ص٤٩٥. الذهبي، شمس الدين محمد بن أحمد: تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، تح: عمر عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي، بيروت، ط٢، ١٩٩٣م، ج٣٤، ص٥٨. أبو الفداء، عماد الدين اسماعيل: المختصر في أخبار البشر، المطبعة الحسينية المصرية، ط١، ج٢، ص٢١٧. دي فتري: المنتقى، عن الموسوعة، ج٣٣، ص ١٣٤. رنسيمان، ستيفن: تاريخ الحروب الصليبية، تر: السيد الباز العريني، ط٣، ١٩٩٣م، ج٢، ص١٤٣-١٤٤. فوشيه: الاستيطان، ص١٩٢-١٩٣.

(١) رحلة ابن جبير، ص٢٤٤-٢٤٥. للاستزادة انظر: ابن تغري بردي، يوسف، ت٨٧٤هـ: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دار الكتب، مصر، ج٦، ص ٣٥. ابن شداد، بهاء الدين، يوسف بن رافع بن تميم: النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية= سيرة صلاح الدين، تح: جمال الدين الشيال، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط٢، ١٩٩٤م، ص١٢٩. الدباغ: بلادنا فلسطين، ج٧، ق٢، ص٢٠٠. شبارو، عصام محمد: السلاطين في المشرق العربي– معالم دورهم السياسي والحضاري، دار النهضة، بيروت، ١٩٩٤م، ص٢١١.

(٢) وصف ثيوديرك للأماكن المقدسة، عن الموسوعة، ج٣٥، ص٣٦١. زيادة، نقولا: رواد الشرق العربي في العصور الوسطى، ص١٤٠.

(٣) بالإضافة إلى الرحالة الألماني ثيوديرك أيضاً زارها الرحالة الكريتي فوكاس سنة ٥٨١هـ/ ١١٨٥م. انظر: الدباغ: بلادنا فلسطين، ج٧، ق٢، ص٢٠٣. كذلك انظر: ابن تغري بردي: النجوم، ج٦، ص ٣٥. زيادة: رواد الشرق العربي، ص١٤٠.

ومحاسنها"[١] . ويمكن القول: إنه برز من بين التجار تجار المدن الإيطالية بشكل خاص، وأصبحت كل جماعة من هؤلاء الوافدين إليها تشغل منطقة من عكا، ولها قنصليتها الخاصة بها، ومن ثم كانوا يستقرون في حيهم الخاص بهم، ويدار هذا الحي من قِبل ممثل هذه الجماعة أو الفئة[٢].

وتعاون تجار المدن الإيطالية مع صليبيي فلسطين لاتخاذها قاعدة لبناء الآلات الحربية المعدة لحصار المدن الأخرى التي نوى الصليبيون اخضاعها، وبها وضعوا خططهم الحربية وترتيباتهم العسكرية، ومن هنا يظهر أن عكا غدت أهم مراكز السيطرة على كل فلسطين، وفاقت في أهميتها القدس- عاصمة المملكة الأولى-[٣].

وازداد عدد سكان عكا بشكل ملحوظ قبل معركة حطين ٥٨٣هـ/١١٨٧م وقُدِّرَ بحوالي ٣٠-٤٠ ألف نسمة، إضافة إلى حوالي ألفي فارس وخيال، وحوالي ١٤ ألف راجل منهم الحجاج الإيطاليين[٤].

ويبدو أن صلاح الدين أدرك أهميتها وخطورتها فأخذ قبل حطين ٥٨٣هـ/ ١١٨٧م يهاجمها ويهاجم نواحيها ومروجها والسفن الراسية في مينائها[٥].

وبعد حطين ازدادت أهمية عكا لوقوعها على الطريق الواصل بين الشام ومصر، لهذا؛ ولأنها قاعدة بحرية مهمة للصليبيين كان لابدَّ من حرمانهم منها لقطع اتصالهم بالغرب الأوربي، وإحكام الحصار عليهم من جهة الساحل، مما يسهل تحرير المدن الداخلية، لهذا فما إن انتهت معركة حطين حتى تحرك صلاح الدين بجيشه نحوها، فملكها صلحاً في يوم الجمعة ٢جمادى الأولى ٥٨٣هـ/ ١٠ تموز ١١٨٧م، وأمَّن السكان على أنفسهم وأموالهم، وخيّرهم بين الإقامة والرحيل، وبالطبع اختاروا الرحيل عنها، وحملوا ما

---

[١] سوخم، لودولف فون: رحلة لودولف إلى الأرض المقدسة عام ١٣٥٠م، عن الموسوعة، ج٣٩، ص ٣٠٥.

[٢] سلامة: عكا، ص٢٩. للاستزادة انظر: ابن الأثير: الكامل، ج١٠، ص ٢٨. كرد علي: خطط الشام، ج٤، ص٢٤٤. ديورانت، ويليام جيمس: قصة الحضارة، تر: زكي نجيب وآخرون، دار الجيل، بيروت، ١٩٨٨م، ج١٥، ص٨٣.

[٣] فوشيه: الاستيطان الصليبي، ص١٠٦. سلامة: عكا، ص٢٩.

[٤] سلامة: عكا، ص٣١ .

[٥] راجع ابن الأثير: الكامل، ج١٠، ص ٢١. أبو شامة، شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل، المقدسي الدمشقي: عيون الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، تح: إبراهيم الزيبق، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٩٩٧م، ج٣، ص٤٥-٤٦. أبو الفداء: المختصر، ٣، ص٧١. الدباغ: بلادنا فلسطين، مج٧، ق٢، ص٢٠٣.

أمكنهم من أمتعتهم، ودخلها المسلمون وأطلقوا ما بها من أسرى وكانوا قرابة أربعة آلاف، وأخذ صلاح الدين في تنظيم أمورها وإصلاح وترميم ما هدم منها، وجعل بها حامية قوية موفورة المؤن[١]. وعمل على استمرار نشاطها الاقتصادي – تقدم ذكره– من خلال سعيه لإقناع التجار المسيحيين بالبقاء فيها، ومن خلال سماحه لتجار المدن الإيطالية بالاستمرار بأعمالهم بها، فعقد الاتفاقيات التجارية معهم[٢]، وربما كان هدف صلاح الدين في ذلك أبعد من الاقتصاد.

وظلت عكا تحت السيادة الإسلامية العربية إلى أن تمكن الصليبيون من دخولها سنة ٥٨٧هـ/ ١١٩١م وجعلوها عاصمة مؤقتة لمملكتهم بدلاً عن القدس. هذا يقود إلى البحث بحثاً مفصلاً عن الأسباب والظروف التي مكنت الفرنج من إعادة احتلالها وجعلها عاصمة لهم باسم "مملكة القدس اللاتينية الثانية".

---

[١] ابن الأثير: الكامل، ص ١٠، ص ٢٨. ابن شداد: النوادر السلطانية، ١، ص ٧٠، ١٢٩، ١٣٢، ١٥٨. أبو عيون الروضتين، ج٣، ص ٣٠٨.الذهبي: تاريخ الإسلام، ج٤١، ص٢٣. ابن تغري بردي: النجوم، ج٦، ص ٣٥. الحنبلي: شفاء القلوب، ص١٢٢-١٢٤. مجهول: ذيل تاريخ وليم، عن الموسوعة، ج٨، ص ٣٠٤-٣٠٥.

[٢] رنسيمان: تاريخ الحروب، ص ٢، ص ٥١٩. سلامة: عكا، ص٤٢، نقلاً عن ابن الفرات مج٤، ج١، ص٢٣١

(١)

(١) ويكيبيديا الموسوعة الحرة  http\swww.google.comsearchq

# المبحث الثالث: العناصر التي أدت دوراً هاماً في تأسيس مملكة القدس اللاتينية الثانية عام ٥٨٧هـ/١١٩١م

## أولاً: دور مدينة صور

ميناء مدينة صور حالياً

يبدو أن صور احتفظت بتسميتها الفينيقية (تور أو صور) على مر العصور، سواءً الإسلامية أو ما قبلها، وكذلك في عصر سيطرة الصليبيين أطلقوا عليها التسمية نفسها[1].

وأما دور مدينة صور ومكانتها في منتصف الحروب الصليبية فلا يمكن تجاهله، إذ مثّلت الركيزة الأساسية ونقطة البداية التي انطلق منها الصليبيون إلى إعادة إحياء مملكتهم المنهارة أمام ضربات المسلمين بقيادة صلاح الدين، وكي تتضح الصورة لا بد من لمحة جغرافية عن صور تثبت أهميتها وقوة مركزها.

تقع مدينة صور على الساحل الشامي إلى الشمال الشرقي من عكا بنحو ستة فراسخ، وهي كعكا حصينة جداً ومحاطة بالبحر من ثلاث جهات، ومن الجهة الرابعة محاطة بالأبراج العالية والأسوار

---

[1] دي فتري: المنتقى، عن الموسوعة الشاملة، ج٣٣، ص١٤٧.

المنيعة[١]، وتميزت عن عكا بإمكانية رسو السفن الكبيرة في مينائها- كما يتضح في الشكل أعلاه-[٢].

وذكر ابن جبير الذي زارها سنة ٥٨٠هـ/١١٨٤م أنها: "مدينة يضرب بها المثل في الحصانة، لا تلقى لطالبها بيد طاعة ولا استكانة"[٣].

كما تميّزت بكثرة المياه حولها التي برع أهلها في توزيعها على كل أجزاء السهل المحيط بمدينتهم، فتروى البساتين التي تنمو فيها الكروم وقصب السكر، وغيرها من المزروعات[٤].

وفي العودة إلى دور صور ومكانتها في بداية الحروب الصليبية يظهر أنها صمدت أمام الغزو الصليبي ما يقارب ربع قرن، وعانت الحصار بمختلف أنواعه من جهتي البر والبحر، وقاومت المجانيق والآلات الحربية، وقدمت الكثير من التضحيات والبطولات، ومع هذا الحصار الكبير الذي فرضه الصليبيون عليها تكراراً ومراراً إلا أنهم لم يتمكنوا من احتلالها حتى استسلمت لهم صلحاً في عام ٥١٨هـ/ ١١٢٤م، فدخلوها وأصبحت إحدى مدن الأراضي المقدسة في المملكة الصليبية الأولى[٥]، واستمرت كذلك حتى عام ٥٨٣هـ/ ١١٨٧م حيث حقق صلاح الدين انتصارات عظيمة على الصليبيين، وتمكن من تحرير معظم مناطق بلاد الشام من سيطرتهم، ولم يبق لهم من مجمل مملكة بيت المقدس سوى مدينة صور على الساحل الشامي وكذلك بالنسبة إلى إمارة أنطاكية لم يبقَ منها سوى مدينة أنطاكية نفسها مع ندرة من الحصون والأماكن التابعة لها، وكذلك بالنسبة إلى طرابلس.

لقد تهاوت مدنهم وقلاعهم بصورة مدهشة وغير مسبوقة أمام ضربات صلاح الدين الأيوبي، وبدا أن الصرح الصليبي صائرٌ إلى زوال أمام التفوق العسكري الساحق للقوات العربية - الإسلامية، فعمَّت

---

[١] الحموي، ياقوت بن عبد الله الرومي، ت٦٢٦هـ: معجم البلدان، دار صادر، بيروت، ط٢، ١٩٩٥م، ج٣، ص٤٣٣. ابن شمائل القطيعي، عبد المؤمن بن عبد الحق، ٧٣٩هـ: مراصد الإطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع، دار الجيل- بيروت، ط١، ١٤١٢هـ، ج٢، ص٨٥٦. ابن بطوطة، محمد بن عبدالله، ت ٧٧٩هـ: رحلة ابن بطوطة — تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، أكاديمية المملكة المغربية، الرباط، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٦م، ج١، ص٢٥٨. دي فتري: المنتقى، عن الموسوعة الشاملة، ج٣٣، ص١٤٦.

[٢] الحميري: الروض المعطار: ج١، ص٣٦٩. دي فتري: المنتقى، عن الموسوعة الشاملة، ج٣٣، ص١٤٦.

[٣] ابن جبير: رحلة ابن جبير: ص٢٥٠.

[٤] دي فتري: المنتقى، عن الموسوعة الشاملة، ج٣٣، ص١٤٦. زيادة: رواد الشرق العربي، ص١٩٢.

[٥] دي فتري: المنتقى، عن الموسوعة الشاملة، ٣٣، ص١٤٨-١٤٩. الذهبي: تاريخ الإسلام، ج٣٥، ص٢٣-٢٥، ٣٠، ٣٠٣. كرد علي: خطط الشام: ١، ص٢٧٥.

الفوضى بين الصليبيين وتملكهم الرعب الذي انتقل مع نداءاتهم واستصراخاتهم للغرب الأوربي.

هنا برزت صور كمدينة صليبية قوية تجمعت بها فلول القوات الصليبية والنخبة العسكرية الفارة أمام القوات الإسلامية، وأضحت صور الأمل الوحيد والملجأ الفرنجي الآمن الذي فرَّ إليه الفرنج – عسكريين ومدنيين– المنهزمين أمام القوات الإسلامية والذين شملهم العفو والأمان من قبل صلاح الدين، وقد عبر عن ذلك أبو شامة بقوله: "وكان كل من استأمن من الكفار يمضي إلى صور محمي الذمار، فصارت صور عشَّ غشهم ووكر مكرهم وملجأ طريدهم ومنجى شريدهم"[١].

وفي السياق نفسه قال ابن الأثير: "واجتمع بها من شياطين الفرنج وشجعانهم كُل صِنْديد، فاشتدت شوكتهم، وحَمِيت جَمْرَتُهم"[٢].

لقد عُقدت الآمال الصليبية على صور في إعادة إحياء المملكة المنهارة تحت ضربات المسلمين وبدأت تتوالى عليها نجدات الغرب الأوربي، كما تجمع بها عدد من التجار، ولا يخفى ما للقوة الاقتصادية من أثر في السياسة والحروب، وبذلك أصبحت صور تعجُّ بعشرات الآلاف من الصليبيين الفرنج[٣]، ويبدو أن صلاح الدين لم يلقِ لها بالاً إلا بعد أن أصبحت تشكل تهديداً جدياً وخطيراً لانتصاراته العسكرية، ولا سيما عندما تولى قيادتها المركيز كونراد دي مونتفرات Conrand Montferrat الذي سيأتي الحديث عن دوره.

في الحقيقة إن جميع المصادر والمراجع العربية بما فيها المعاصرة لصلاح الدين والتي شارك بعض مصنفيها بالفتوحات، وكذلك المصادر والمراجع اللاتينية جميعها لا تقدم معلومات وافية ومفصلة عن دور وتاريخ مدينة صور أثناء وبعد فتوحات صلاح الدين، ولا حتى عن محاولات صلاح الدين لفتحها. فجميع المصادر والمراجع تركز ؛ وربما تذكر فقط المحاولة الأخيرة التي قام بها صلاح الدين في رمضان عام ٥٨٣هـ/نهاية ١١٨٧م والتي انتهت بالإخفاق وفك الحصار عنها في ٢ ذي القعدة ٥٨٣هـ/ ١ كانون الثاني ١١٨٨م، وعلى هذا وقعت المراجع التي تعرضت لفتوحات صلاح الدين بالغموض نفسه الذي وقعت به المصادر، والجميع يذكر أو يركز فقط على المحاولة الأخيرة لفتح صور، وفي أحسن الأحوال تخلط هذه المصادر والمراجع بين أحداث محاولات صلاح الدين لفتح صور وتذكرها على أنها حدث

---

[١] أبو شامة: عيون الروضتين، ج٣، ص٣٢٤.

[٢] ابن الأثير: الكامل، ج١٠، ص٦١.

[٣] عثامنة، خليل: فلسطين في العهدين الأيوبي والمملوكي(١١٨٧-١٥١٦م)، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، بيروت، ط١، ٢٠٠٦م، ص١٠١.

واحد ومحاولة واحدة[١].

وكاد البحث يقع بالخطأ والغموض نفسه الذي وقعت به المصادر أو المراجع السالفة لولا الدراسة الدقيقة والمتأنية لكتابات أرنولد وكيل بيت المال آنذاك في تذييله على تاريخ وليم الصوري حيث وَضَحَ الشبه وزال اللبس.

والمصادر تذكر أن صلاح الدين تأخر في الهجوم على صور، إلا أن ذلك ينافي الواقع، فصلاح الدين أدرك خطورة صور منذ البداية حيث فرَّ إليها الناجون من الصليبيين في معركة حطين بقيادة قائد مؤخرة الجيش الفرنجي في حطين باليان دي ابلين Balian d'Ibelin[٢] ومعه ريموند الثالث صاحب

---

[١] انظر: جميع المصادر التي تحدثت عن فتح صور بما فيها: النوادر السلطانية والفتح القسي وعيون الروضتين والمختصر والكامل وتاريخ الإسلام وزبدة الحلب وتاريخ ابن خلدون، وشفاء القلوب: ص١٢٤١٢٨. وجاك دي فيتري في المنتقى من تاريخ القدس. وكذلك انظر: عثامنة: فلسطين، ص ١، ص١٣٧-١٣٨. وحومد، أسعد: تاريخ الجهاد لطرد الغُزاة الصليبيين، ط١، ٢٠٠٢م، ج٢، ص١٠٢. عاشور، فايد: الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين(في العصر الأيوبي)، دار الإعتصام، القاهرة، ط١، ص١٧٧-١٨٢. وكذلك رنسيمان: تاريخ الحروب، ص٢، ص٥١٨، ٥١٩، ٥٢٨، ٥٢٩، ج٣، ص٤٥، الذي تعرَّض لصور وفَصَّل بها قليلاً، إلا أنه وقع في أخطاء غيره.

[٢] ويسمى أيضاً باليان الإبيليني Balian of Ibelin وهو من أسرة ابيلين ذات المكانة الرفيعة في مملكتي القدس الفرنجيتين الأولى والثانية، وأيضاً لدى العرب والمسلمين، كان باليان أميراً لمدينة نابلس، ثم تولى الرملة وصياً على ابن أخيه الصغير، عندما ترك أخوه بلدوين المملكة وذهب إلى أنطاكية احتجاجاً على تولي غي لتاج المملكة، حيث رفض تقديم الولاء له. وأصبح باليان من الأمراء المحليين الأكثر نفوذاً في المملكة الأولى وله مكانة مرموقة وكلمة مسموعة فيها، وبالأخص بعد زواجه في عام ١١٧٧م من ماريا كومنينا – أرملة ملك القدس عموري-. وشغل دوراً كبيراً في رأب الصدع بين الملك غي وريموند –كونت طرابلس- وتوحيد الصفوف قبل معركة حطين التي تولى فيها قيادة مؤخرة الجيش، وبعد الهزيمة هرب إلى صور ومنها استأذن صلاح الدين للذهاب إلى القدس، فسمح له شريطة ألا يبقى بها سوى ليلة واحدة، وكعادة الفرنج نكث بوعده لأن البطريرك حلله منه، وتولى القدس وأصبح مسؤولاً عن تحصينها والدفاع عنها، وأرسل لصلاح الدين يعتذر منه ويشرح له سبب حنثه بيمينه، وأثناء فتح القدس شغل باليان الدور الأكبر في مفاوضات تسليم القدس مع صلاح الدين. راجع: مجهول: ذيل تاريخ وليم، عن الموسوعة، ج٨، ص٥٦، ٢٧٦، ٢٧٨، ٣١٥-٣٢٥. ابن الأثير: الكامل، ج١٠، ص٣٥-٣٦. ابن واصل، محمد بن سالم: ابن واصل: مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، تح: حسنين محمد ربيع، مطبعة دار الكتب، مصر، ١٩٧٧م، ج٢، ص٢١٣-٢١٤. العيني، بدر الدين محمود: عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان، عن الموسوعة الشاملة في تاريخ الحروب الصليبية، ج٢٤، ص٢٩٢. إديوري، بيترو: قبرص والحروب الصليبية، دار الملتقى، قبرص ولبنان، ط١، ١٩٩٧م، ص٥٩-٦٠. رنسيمان: تاريخ الحروب، ص ٢، ص ٤٠٨، ٤٨١، ٥١٠، ٥١٢، ٥١٥، ٥٢١-٥١٣.

طرابلس الذي أراد التحصن بها ومقاومة صلاح الدين[١].

لا شك أن صلاح الدين أدرك منذ البداية خطورة موقع صور لِما تجمَّع بها من القيادة والجنود، لذا قرر مهاجمتها، وكانت **المحاولة الأولى** لفتحها بعد فتح عكا مباشرة حيث توجّه إليها في ٢ جمادى الأولى ٥٨٣هـ/ ١٠ تموز ١١٨٧م، وما إن ألقى عليها الحصار حتى خرج إليه بالين دي ابلين وتوسل إليه لكي يؤمنه ويسمح له بالذهاب إلى القدس لكي يجلب امرأته، ومن ثم يذهب إلى طرابلس، فأجابه صلاح الدين إلى طلبه وأمَّنه وسمح له شريطة أن يقسم اليمين على الإنجيل بأنه لن يبقى في القدس سوى ليلة واحدة، وتم ذلك، إلا أن بالين – كعادة الصليبيين– نكث بيمينه بعد أن حلله منه بطريرك القدس[٢].

ولما عاد صلاح الدين إلى حصار صور وجدها "محمية بشكل ممتاز بالجنود والناس والفرسان"[٣] الذين كانوا قد فرّوا أمامه في حطين ووجدوا فيها ملاذاً آمناً لهم، فآثر ألا يطيل البقاء عليها فترك حصارها في شهر جمادى الأولى نفسه وتحرك نحو الشمال إلى صيدا وبيروت وجبلة واللاذقية وطرطوس وغيرها من هذه المناطق[٤] التي هي خارج موضوع البحث.

وهنا لا بدَّ من دراسة متأنية لموقف صلاح الدين هذا، فهو لم يركز في حصاره عليها طويلاً، ولم يصرَّ على فتحها، ويمكن تعليل ذلك بما يلي:

أ- فوجئ صلاح الدين بحصانتها ومتانة أسوارها– كما تقدم ذكره.

ب- تحقيق صلاح الدين لأهم أهدافه من حصارها، وهو إخراج بالين دي ابلين منها خشية أن يُعيد تنظيمها أو يستفحل أمره فيها، أو أن يتحالف من جديد مع ريموندRaymond

---

[١] ابن الأثير: الكامل، ج١٠، ص٣١. العماد الأصفهاني: الفتح القسي في الفتح القدسي، تح: سهيل زكار، الموسوعة الشاملة في تاريخ الحروب الصليبية، ج١٣، ص٧١. ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد: تاريخ ابن خلدون، المعروف بالمبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، تح: خليل شحادة، دار الفكر، بيروت، ١٩٨٨م، ج٥، ص٥٣٩. رنسيمان: تاريخ الحروب، ج٢، ص٥١٩-٥٢٠.

[٢] مجهول: ذيل تاريخ وليم، عن الموسوعة الشاملة: ٨، ص٣٠٥-٣٠٦.

[٣] المصدر السابق: ٨، ص ٣٠٥-٣٠٦.

[٤] المصدر السابق: ٨، ص ٣٠٦-٣٠٧. ابن الأثير: الكامل، ج١٠، ص٣١. ابن واصل: مفرج الكروب، ج٢، ص٢٠٦. رنسيمان: تاريخ الحروب، ج٣، ص٤٥. حومد: تاريخ الجهاد، ص٢، ص١٠٢.

صاحب طرابلس[١] ويكوّنان حلفاً قوياً ضده.

ت- ضمان صلاح الدين لضعف وتخبط القيادة العسكرية في صور بعد خروج بالين منها إلى القدس، فرار ريموند منها إلى طرابلس عندما علم باقترابه من صور[٢]، فأمِن السلطان جانبه وتأكَّد بذلك خلوها من القيادة القوية الحكيمة، ولاسيما أن معظم القادة الصليبيين سقط قتيلاً أو أسيراً بين يديه في حطين، فكانت صور في نظر صلاح الدين صائرة إلى التسليم إليه لا محال، فلا جدوى من إطالة الوقت عليها، ولا داعي لتحَمُّل خسائر بشرية وعسكرية في سبيلها.

كانت **المحاولة الثانية لفتح صور** بعد أن آلت تبعيتها - بعد خروج باليان الإبليني Balian of Ibelin منها- إلى رينو (رينالد Reynald) صاحب صيدا[٣]، وكان رينو قد فرَّ إليها بعد هروبه من صيدا التي استسلمت لصلاح الدين، وأثناء حصار الأخير لقلعة كوكب وصله رسول من رينو يعرض عليه تسليم مدينة صور، ويطلب منه إرسال شاراته وأعلامه لتوضع فوق القلعة، ولاشك أن صلاح الدين

---

[١] لم يطل الأمد بريموند بعد معركة حطين، وتوفي بنهاية العام نفسه، بعد أن أوصى بأن يخلفه في حكم طرابلس ريموند-الابن الأكبر لأمير أنطاكية بوهيموند الثالث- إلا أن الأخير كان بحاجة لابنه ريموند إلى جانبه في الدفاع عن امارته، فعمد إلى إرسال ابنه الآخر – بوهيموند الرابع- لحكم طرابلس والدفاع عنها، وبذلك انتهى حكم الأسرة البروفنسالية لطرابلس، وانتقل إلى البيت النورماني الذي يحكم أنطاكية. رنسيمان: تاريخ الحروب، ج٢، ص ٥٢٦-٥٢٧. عاشور، سعيد عبد الفتاح: الحركة الصليبية، مكتبة الأنجلو المصرية، ط٩، ٢٠١٠م، ج٢، ص ١٠٢-١٠٣.

[٢] العماد: الفتح القسي، عن الموسوعة، ج١٣، ص٧١

[٣] هو من أسرة جارنييه، له معرفة كبيرة باللغة والآداب العربية، ولا يوجد له ذكر واضح في المصادر العربية، التي تداخل فيها هذا الاسم مع رينالد شاتليون Renaud de Chatillon صاحب الكرك الذي أطلقت عليه المصادر العربية اسم "أرناط"، وكثيرا ما تخلط المصادر والمراجع بينهما فيرد فيها أحياناً عبارة "أرناط صاحب صيدا" وهذا خطأ. كان رينالد صاحب صيدا قد تولى في حطين قيادة مؤخرة الجيش الفرنجي مع باليان الإبيليني، وبعد الهزيمة هرب إلى صيدا التي هاجمها صلاح الدين بعد صور فوراً، واستسلمت له في ٢٩ تموز، فهرب رينالد إلى قلعته المنيعة في شقيف أرنون، ورفض تسليمها لصلاح الدين، واستمر في الحفاظ عليها عن طريق المراوغة والكذب إلى أن قبض عليه صلاح الدين وأنزل به العذاب إلى أن قبل بالتسليم في ربيع الأول ٥٨٦هـ/نيسان ١١٩٠م.

ابن الأثير: الكامل، ج١٠، ص٦٥-٦٧. ابن العديم، كمال الدين عمر بن أحمد بن أبي جرادة: زبدة الحلب من تاريخ حلب، تح: سهيل زكار، دار الكتاب العربي، دمشق والقاهرة، ط١، ١٩٩٧م، ص٤١٨-٤١٩. الذهبي: تاريخ الإسلام، ج٤١، ص٤٣. رنسيمان: تاريخ الحروب، ج٢، ص٥١٧، ٥٢٠.

تجاوب مع هذا الأمر وأرسل له ما طلبه[١]، إلا أن رينو تردد في رفع أعلام صلاح الدين فوق قلعة صور، وخاف من ردة الفعل الشعبي، فأرسل إلى صلاح الدين وهو على كوكب يعلمه بذلك ويطالبه بالحضور بنفسه ليتسلم المدينة، وعلى الفور لبى صلاح الدين النداء، وترك حصار قلعة كوكب وتوجه إلى صور، وفي هذه الأثناء وبالضبط في ١٤ تموز وصل كونراد مونتفراتConrand Montferrat إلى صور قادماً من القسطنطينية -كما سيأتي الحديث على تفصيله- واجتمعت الكلمة عليه فيها، وتسلَّم المدينة، وهرب رينو Reynald إلى طرابلس ومن ثم إلى قلعة شقيف أرنون، وبدأ كونراد بتحصين صور والاستعداد للدفاع عنها، ولما وصل صلاح الدين إليها فوجئ بهذه التغيرات السريعة التي لم يحسب لها حساباً، وأدرك أنه لا يمكنه دخولها بسهولة لَما يعلم عنها من قوة التحصين ومتانة الأسوار[٢]، فلجأ إلى **السياسة والدبلوماسية** لإقناع كونراد بالتسليم عن طريق الضغط عليه وتهديده بقتل والده "وليم William الثالث" الذي كان أسيراً لدى صلاح الدين، إلا أن هذه المحاولة أخفقت أمام تصلّب كونراد الذي ردَّ بكل برودة أعصاب على صلاح الدين بأن والده "شيخ طاعن بالسن، ولا قيمة له أبداً"[٣]، وأنه يفضل الذبح هو ووالده على أن يسلمه حجراً واحداً من صور. هنا أدرك صلاح الدين إخفاق الدبلوماسية والأسلوب السياسي مع كونراد، وأن صور لا يمكن فتحها بالسهولة التي تمت بها فتح المدن السالفة، وعليه أن يفرض عليها حصارا طويلاً حتى يتمكن منها، وذلك في الوقت الذي كان يعاني به من تدمير سفنه وضعف إمكانياته البحرية، وهنا آثر صلاح الدين رفع الحصار عنها مرة ثانية وتأجيل فتحها ومغادرتها باتجاه عسقلان والقدس[٤]، وهنا لا يمكن تعليل موقف صلاح الدين كسابقه بأنه قد

---

[١] لايوجد ذكر لرينو أنه تولى صور وراسل صلاح الدين لتسليمها سوى في ذيل تاريخ وليم الصوري، ولكن يوجد في المصادر العربية ما يؤيد ذلك، إذ إن هذه المصادر تذكر أن صلاح الدين عندما حاصر شقيف أرنون تذرع صاحبها رينو صاحب صيدا بأن أولاده وزوجته عند المركيس كونراد في صور، ويخشى عليهم منه، كما يرد في هذه المصادر أن أهل صور كانوا يراسلون صلاح الدين لتسليمها له قبل قدوم المركيس. أنظر ابن الأثير: الكامل، ج١٠، ص٣٢، ٦٥. ابن شداد: النوادر السلطانية، ص١٥٥. أبو شامة: عيون الروضتين، ج٤، ص٦٨.زبدة الحلب: ١، ص٦٨. عقد الجمان، عن الموسوعة، ج٢٤، ص٣١٨.

[٢] مجهول: ذيل تاريخ وليم، عن الموسوعة الشاملة، ٨، ص٣٠٦-٣٠٨، ٣٣٥. رنسيمان: تاريخ الحروب، ج٢، ص٥٢٨-٥٢٩.

[٣] مجهول: ذيل تاريخ وليم، عن الموسوعة، ج٨، ص٣١١-٣١٢. بردج، أنتوني: تاريخ الحروب الصليبية، تر: أحمد سبانو ونبيل الجيرودي، دار قتيبة- دمشق، ص٢٠٧. رستون، جيمس (الابن): مقاتلون في سبيل الله، تر: رضوان السيد، مكتبة العبيكان، ط١، ٢٠٠٢م، ص١١٤. الصلَّابي، علي: صلاح الدين وجهوده في القضاء على الدولة الفاطمية وتحرير بيت المقدس، دار المعرفة، بيروت، ط١، ٢٠٠٨م، ص٥٦٣-٥٦٤.

[٤] مجهول: ذيل تاريخ وليم، عن الموسوعة، ج٨، ص٣١١-٣١٢.

استهان بأمرها، ولم يكترث بها، أو أنها صائرة إليه لا محالة، فأسباب القوة والمنعة والصمود ظهرت جلية الآن، وأمام عينيه بما لا يمكن تجاهله، ويمكن تعليل سلوك صلاح الدين هذا بعدة أسباب:

أ- ضيق الوقت لدى صلاح الدين، فهو أتى مسرعاً من قلعة كوكب ليتسلم صور؛ لا ليفرض عليها حصاراً طويلاً، وقد عبَّر عن ذلك وزيره العماد الكاتب عندما قال: "وجاء إلى صور ناظراً إليها وعابراً عليها، غير مكترث بأمرها، ولا متحدث في حصرها"[١]؛ أي أنه لم يكن مستعداً لذلك، وكان يتوقع أن يكون رينو Reynald في استقباله لتسليمه صور، إلا أن رياح صور جرت بما لا تشتهي سفن صلاح الدين.

ب- إدراك صلاح الدين أن هناك مناطق أهم بكثير من صور يجب فتحها ومن ثم التفرغ لصور، وقد عبّر عن مثل ذلك ابن الأثير عندما قال: "كان أمرُ عسقلان والقدس أهم عنده من غيرهما لأسباب منها أنهما على طريق مصر، يقطعُ بينهما وبين الشام، وكان يختار أن تتصل الولايات له لِيَسْهُلَ خروج العسكر منها ودخولهم إليها، ولِما في فتح القدس من الذكر الجميل والصِّيت العظيم، إلى غير ذلك من الأَعْراض"[٢]، والناظر في عبارة ابن الأثير يجد مدى قوة الاستراتيجية والتكتيك العسكري لصلاح الدين، فالجيوب الصليبية التي بقيت خلف ظهره في الجنوب على طريق مصر والشام هي أهم وأخطر بكثير من صور.

ت- فوجئ صلاح الدين بالتحصينات والاستعدادات الكبيرة التي قام بها كونراد، بالإضافة إلى قوة تحصيناتها القديمة ومتانة أسوارها، بالإضافة إلى المقاومة الكبيرة التي أبداها أهل صور، ويُستَنتجُ هذا من قول العماد الكاتب عن صلاح الدين: "ولا معتقدٌ في تعقّدها، ولا متئد في توردها، وعلم أيضاً أنها ممتنعة وعن سومها مرتفعة"[٣].

ث- إخفاق الأسلوب السياسي والدبلوماسي مع كونراد، بسبب صلابته وحماسه للقتال.

ج- طبيعة صلاح الدين اللحوحة والعجولة، ورغبته في تحرير أكبر قدر ممكن من المناطق بأقصر وقت وبأقل خسائر، لذا آثر فتح المدن السهلة والمستسلمة قبل غيرها، ويؤخذ هذا من كلام العماد الكاتب عن صلاح الدين عندما انصرف عن صور، قال: "فعطف الأعنّة إلى ما هو منها

---

[١] العماد: الفتح القسي، عن الموسوعة، ج١٣، ص٧٣.

[٢] ابن الأثير: الكامل، ج١٠، ص٣٢.

[٣] العماد: الفتح القسي، عن الموسوعة، ج١٣، ص٧٣.

أهون"[١].

وهنا لا بدَّ من الإشارة إلى السياسة الكريمة المتسامحة التي اتبعها صلاح الدين في سياسته تجاه صور، فصلاح الدين شُهِر بروح التسامح والعفو عن عدوه، ومن هذا القبيل كان كلما فتح مدينة أعطى أهلها الصليبيين (مدنيين وعسكريين) الأمان وسمح لهم بالانسحاب حاملين معهم أموالهم وأولادهم ونسائهم وتجمعوا في صور[٢]، وزاد صلاح الدين في ذلك أنه أخَّر الهجوم عليها، حيث قال ابن الأثير : "فلو بدأ بها صلاح الدين قبل تِبْنينَ وغيرها لأخذها بغير مشقة"[٣]، ويمكن القول: إن صلاح الدين لم يكن جاداً في الهجوم على صور في كلا الهجومين السالفين وذلك لإدراكه صعوبة أمرها.

وكانت **محاولة صلاح الدين الثالثة** والأخيرة لفتح صور قد أتت بعد فتحه للقدس، وكان سبب توجهه إليها في هذه المرة أن المركيس كونراد قد استغلَّ انشغال قوات صلاح الدين في فتح القدس فقام بتحصين صور وتجهيزها للحصار الطويل، يضاف إلى ذلك أن نائب صلاح الدين في صيدا وبيروت المجاورتين لصور – وهو سيف الدين علي بن أحمد المشطوب– بدأ يرسل له الكتب محرضاً إياه على حصار صور وفتحها[٤]، وتجاوب صلاح الدين مع هذا وفي نفسه ما فيها من أمر صور ومخاطرها، وما إن انتهى من أمر القدس حتى يمم نحوها، واستدعى جيشه من مختلف الجهات، فاجتمع له جيش عظيم، ووصل إليها في ٩ رمضان سنة ٥٨٣هـ/ ١١تشرين الثاني سنة ١١٨٧م، وفي ٢٨ رمضان أحكم عليها الحصار من جهتي البر والبحر.

يبدو أن صلاح الدين قد لجأ – مرةً أخرى– إلى أسلوب الترغيب والترهيب والطرق الدبلوماسية والسياسية قبل العسكرية، فأعاد مراسلة المركيس كونراد– قبل إحكام الحصار عليها–، وذكَّره بأن أباه أسيراً لديه، كما ذكَّره بمصير المدن السالفة، ونصحه بالتسليم وأغراه بالمال، إلا أن كونراد رد بأنه "سيعمل ويبذل كل جهده من خير وشر، ولن يعيد له أبداً صور"، "وسيدافع عنها بعون الرب"[٥]، هنا أدرك

---

[١] العماد: الفتح القسي، عن الموسوعة، ج١٣، ص٧٣.

[٢] ابن الأثير: الكامل، ج١٠، ص٣٢، ٤٠، ٤١، ٦٩. ابن واصل: مفرج الكروب، ص ٢، ص ٢٠٨. عثامنة: فلسطين، ج١، ص١٠١.

[٣] ابن الأثير: الكامل، ج١٠، ص٣١.

[٤] العماد: الفتح القسي، عن الموسوعة، ج١٣، ص١٠٠.أبو شامة: عيون الروضتين، ج٣، ص٤١١-٤١٢. ابن واصل: مفرج الكروب، ج٢، ص٢٤٢-٢٤٣.

[٥] ذيل تاريخ وليم، عن الموسوعة، ج٨، ص٣٣١.

صلاح الدين أنه لا بديل عن الحل العسكري، فأحكم الحصار البري والبحري على صور في ٢٨ رمضان.

إلا أن صليبيي صور التفُّوا حول سيدهم كونراد وقاوموا مقاومة كبيرة وكبدوا القوات الإسلامية خسائر فادحة، وتلقى الأسطول الإسلامي ضربة كبيرة في البحر، وصمدت المدينة، وقدّم الجيش الإسلامي كثيراً من التضحيات والبطولات أمام صور، وفي النهاية اضطر صلاح الدين استجابةً لرأي أمرائه وأعوانه إلى فك الحصار عنها ومغادرتها إلى عكا في ٢ ذي القعدة سنة ٥٨٣هـ/ أول كانون الثاني ١١٨٨م[١].

كان هذا الإخفاق الإسلامي أمام صور سبباً في ازدياد حماس الفرنج ودفعهم وتشجيعهم على أخذ زمام المبادرة لقتال المسلمين، فكان أن انطلقوا من طرابلس باتجاه عكا، وفرضوا عليها حصاراً كبيراً -كما سيأتي الحديث على تفصيله.

وعلى الرغم من هذا فإن صلاح الدين استمر بالسماح للفرنج الحاصلين على أمانه بالذهاب إلى صور والانضمام إلى اخوانهم الفرنج فيها كالسماح لفرنجة حصني صفد وكوكب وغيرها بالذهاب إلى صور[٢].

لقد كان الإخفاق أمام صور أول إخفاق تتعرض له القوات الإسلامية بعد معركة حطين، فمثَّلت بذلك تحدياً كبيراً لهم، وأوجبت عليهم إعادة النظر في قوتهم العسكرية التي وصلت إلى ذروتها في حطين

أما على الجانب الفرنجي فإن هذا الإخفاق الإسلامي كان سبباً في استفحال أمرهم في صور، وازدياد معنوياتهم وإصرارهم على الصمود وإعادة تنظيم أنفسهم وحل الخلافات فيما بينهم، ومن ثم التقدم خارج صور لإعادة إحياء مملكتهم المفقودة "مملكة القدس"، وكانت البداية لهم في ٨ رجب

---

[١] دي فيتري: المنتقى، عن الموسوعة، ج٣٣، ص٢٣١-٢٣٢. مجهول: ذيل تاريخ وليم، عن الموسوعة، ج٨، ص٣٣١-٣٣٥. العماد: الفتح القسي، عن الموسوعة، ج١٣، ص١٠٠-١١١، ١٣٣. ابن شداد: النوادر السلطانية، ص١٣٦-١٣٨. أبو شامة: عيون الروضتين، ج٣، ص٤١١-٤١٣. ابن واصل: مفرج الكروب، ج٢، ص٢٤٢-٢٤٦. ابن العديم: زبدة الحلب: ص٤١٢. أبو الفداء: المختصر، ٣، ص٧٣. الذهبي: تاريخ الإسلام، ج٤١، ص٣٠. عقد الجمان، عن الموسوعة، ج٢٤، ص ٢٩٧-٢٩٨. تاريخ ابن خلدون، ج٥، ص٣٦٢. عثامنة: فلسطين، ج١، ص١٣٧-١٣٨.

[٢] ابن الأثير: الكامل، ج١٠، ص٦١. الذهبي: تاريخ الإسلام، ج٤١، ص٣٨. تاريخ ابن خلدون، ج٥، ص١٦٩، ٣٦٨. عثامنة: فلسطين، جص١٠٧.

٥٨٥هـ/ أواخر أغسطس ١١٨٩م حيث تقدموا براً وبحراً بمحاذاة الساحل نحو عكا وضربوا عليها الحصار إلى أن تمكنوا من احتلالها وجعلها عاصمة مؤقتة لمملكتهم الجديدة، وهذا ما سيأتي الحديث على تفصيله.

ويمكن القول: إن موقع صور ودورها في المقاومة والهجوم بدأ قبل تقدمهم نحو عكا، ففي رمضان سنة ٥٨٤هـ/ ١١٨٨م استغلوا انشغال صلاح الدين بحصار صفد وأرسلوا نجدة إلى إخوانهم بحصن كوكب[١]. وفي العام الذي يليه أيضاً استغلوا انشغال المسلمين بشقيف أرنون وزحفوا شمالاً للاستيلاء على صيدا، لكنها كانت محاولة مخفقة وانسحبوا بعد أن كبدوا المسلمين خسائر فادحة في الأرواح والعتاد[٢].

وتختلف الآراء و**الأسباب حول مسؤولية اخفاق المسلمين في حصارهم لصور** في هذه المرّة، فابن الأثير الذي عُرف بتحامله على صلاح الدين يضع كبير المسؤولية عليه، ويتهمه بالتفريط بها، ويرى أنه "لم يكن لأحد من ذنب في أمرها غير صلاح الدين"[٣]، وذلك بسبب روح التسامح والكرم الذي شُهر بها تجاه عدوه، حيث سمح للفرنج الحاصلين على الأمان بالذهاب إلى صور، كما تقدّم شرحه، ويؤيده أبو الفداء للسبب نفسه، ويضيف سبباً آخر لإخفاق المسلمين أمام صور هو وصول كونراد مونتفرات Conrand Montferra - الآتي ذكر دوره- إلى صور واجتماع كلمة الفرنج عليه وجهوده في توحيد قوة الصليبيين في صور[٤]. بالإضافة إلى النجدات الكبيرة التي وصلته من الغرب بناءً على طلبه لها[٥].

ويعود ابن الأثير ليذكر ما يؤيد قول أبي شامة بأن أمراء صلاح الدين هم الذين كانوا السبب في إخفاق الحصار، وهم الذين ملّو من الحصار وطالبوه بالانسحاب، وحثهم صلاح الدين على المتابعة؛ فرفضوا[٦]، ويوافقهم بذلك العماد الكاتب بقوله عن العسكر: "قد أَلِفَ تَيَسُر الفتح، وتسرع النجح،

---

[١] ابن واصل: مفرج الكروب، ج٢، ص٢٧٢-٢٧٣.

[٢] ابن الأثير: الكامل، ج١٠، ص٦٦-٦٧.

[٣] ابن الأثير: الكامل، ج١٠، ص٤٠.

[٤] أبو الفداء: المختصر: ٣، ص٧٢.

[٥] رنسيمان: تاريخ الحروب، ج٢، ص٥٢٩.

[٦] ابن الأثير: الكامل، ج١٠، ص٤١.أبو شامة: عيون الروضتين، ص ٣، ص٤١٣.

فصعب عليه حين صعب، وتبع هواه لما تعب"[١].

ويعلل ابن الأثير موقف أمرائه هذا بأنهم لاحظوا إفلاس الخزائن وبيوت الأموال، تزامن ذلك مع الحاجة الملحة لها لتمويل ومتابعة الحصار، فخشوا من لجوء صلاح الدين إلى الاستدانة منهم، وهم لم يكونوا على استعداد لأن يضحّوا بالأموال التي كسبوها مما نالوه من الغنائم والأسلاب[٢]، وقد بلغ من رفضهم الاستمرار في المعركة أن بعضهم بدأ يتسرب من الميدان دون علم صلاح الدين، وبعضهم الآخر توقف عن تشغيل آلات الحصار وتجّهيز المجانيق بالحجارة لقذفها على تحصينات المدينة[٣].

ويمكن أن يضاف إلى كل هذه الأسباب أسباباً أخرى ساهمت في إخفاق الحصار، كالحالة النفسية والتعب الذي لحق بالجنود، لكثرة المعارك التي خاضوها ضد الفرنج بشكل عام، ولطول أمر حصار صور، فكانوا بحاجة إلى شيء من الراحة، حيث يذكر ابن شداد أنهم: "ضرسوا من القتال وملازمة الحرب"[٤]، يضاف إلى ذلك إخفاق الحصار البحري الإسلامي لصور، وتلقي الأسطول الإسلامي ضربة كبيرة على يد الفرنج أبقت صور منفتحة على البحر تصِلُها المؤن والإمدادات الغربية بسهولة.

ويضيف ابن شداد والعماد الأصفهاني سبباً آخر يتعلق بالعوامل الطبيعية، وهو هجوم الشتاء بقسوته وشدة برده التي أعاقت الجنود عن متابعة القتال[٥].

## ثانياً: دور المركيس كونراد *Conrand* في تأسيس مملكة القدس اللاتينية الثانية عام ٥٨٧هـ/ ١١٩١م

لم تُعرف هذه الشخصية ولم تظهر على مسرح الأحداث كما لم يكن لها أي دور قبل صور؛ لأنه أتى حديثاً إلى المنطقة بعد حطين وبعد سقوط عكا، ومما لاشك فيه أن هذه الشخصية كان لها دور كبير في إعادة إحياء مملكة القدس اللاتينية في عكا، وقبل الحديث عن هذا الدور لا بُدَّ من التعرّف عليه ومعرفة الظروف التي قادته إلى المنطقة ومكنته من الظهور على مسرح الأحداث.

---

[١] العماد: الفتح القسي، عن الموسوعة، ج١٣، ص١٠٤.

[٢] ابن الأثير: الكامل، ج١٠، ص٤١.

[٣] لم يتسن للبحث الوقوع على هذا الخبر سوى عند عثامنة: فلسطين، جص١٠٤.

[٤] ابن شداد: النوادر السلطانية، ص١٣٣. للاستزادة انظر: العماد: الفتح القسي، عن الموسوعة، ج١٣، ص ١٣٣.

[٥] العماد: الفتح القسي، عن الموسوعة، ج١٣، ص ١٣٣.ابن شداد: النوادر السلطانية، ص١٣٨.

هو كونراد دي مونتفرات Conrand Montferrat، وتسميه المصادر العربية "المركيس" أو "المركيش"، وهو ابن المركيس بونيفيس وليم الثالث William III، الذي كان أغنى أمراء لومبارديا في شمال إيطاليا، ويمتُّ بصلة قرابة إلى امبراطور ألمانيا فردريك بارباروسا، وكذلك إلى ملك فرنسا لويس السابع. اختير ابنه الأكبر وليم السيف الطويل ليكون زوجاً لأخت الملك بلدوين الرابع، وهي سيبلا Sibylla بنت عموري، وتم الزواج في عام ٥٧١هـ/ ١١٧٦م، ونتيجةً لهذا الزواج مُنِحَ وليم كُونتِيَتَي يافا وعسقلان، ووضعت زوجته طفلاً سُمي بلدوين الخامس، وأصبح هذا الطفل الملك بعد وفاة خاله بلدوين الرابع، ونتيجةً لهذه المكانة الكبيرة التي حظي بها هذا الطفل ترك جده بونيفيس أراضيه وأملاكه في لومبارديا تحت وصاية ابنه كونراد مونتفرات Conrand Montferrat وحضر إلى فلسطين، فلقي الحفاوة والتكريم ومُنح إقطاعاً كبيراً في منطقة الجليل، وبعد أن نُصِّبَ الطفل بلدوين الخامس ملكاً على القدس قرر عمه كونراد مونتفرات ترك لومبارديا والقيام برحلة الحج إلى الأراضي المقدسة، وفي نفسه ما فيها من الطمع بثروات وجاه الشرق[١]، وعرَّج في طريقه على القسطنطينية وأطال الاقامة فيها لمشاركته في الصراعات على السلطة[٢]، فكان أن وقف إلى جانب الإمبراطور إسحاق الثاني (كيرساك أنجيليوس) وقتل معارضه ليفرناس، فلقي الحفاوة والتكريم من جانبه، وزوّجه من أخته كمكافأة له على قتل ليفرناس[٣].

هنا أصبح كونراد مهدداً بالقتل من قبل أنصار ليفرناس، كما بدأت الريبة بينه وبين الإمبراطور؛ لأن الأخير بدأ يخشى من قوته وطموحاته الشخصية، فقرر قلع عينه، وعلم كونراد ذلك عن طريق زوجته – أخت الإمبراطور–، فأعلن أنه يريد السفر مع فرسانه إلى القدس بقصد الحج، فاعترض الإمبراطور عليه، وبعد أخذ ورد سمح الإمبراطور لفرسانه فقط بالسفر وأن يبقى هو عند الإمبراطور، فوافق كونراد وأوصى فرسانه بالعودة إليه بعد الحج لحاجته إليهم، وعن طريق المكر والخداع الذي عُرف عنه تمكن من أن يستقل زورقاً ولحق بالسفينة التي تحمل فرسانه تنفيذاً لخطة كان قد وضعها مع فرسانه من قبل، وأبحرت السفينة باتجاه عكا حاملةً معها كل أمواله وأمتعته الكبيرة[٤].

في هذه الأثناء كانت الكارثة العظمى قد لحقت بالفرنج في معركة حطين، وانتهى صلاح الدين من اجراءات فتح عكا، ورتّب عليها ابنه الأفضل علي، وتوجه منها شمالاً إلى صور وصيدا وبيروت

---

[١] مجهول: ذيل تاريخ وليم، عن الموسوعة، ج٨، ص٢٦٣-٢٦٤. رنسيمان: تاريخ الحروب، ج٢، ص٤٦٩، ٥٠٤.

[٢] للمزيد عن هذه الصراعات وبشكل مفصّل انظر: ذيل تاريخ وليم، عن الموسوعة، ج٨، ص٢٦٥-٢٦٩.

[٣] تاريخ وليم، عن الموسوعة، ج٨، ص٢٦٩، ٣٠٨.

[٤] هذه الأحداث ترد بشكل مفصّل فقط في ذيل تاريخ وليم، عن الموسوعة، ج٨، ص٣٠٨-٣٠٩.

واللاذقية وغيرها. كل ذلك ولا علم لكونراد بما حدث، وبعد مضي ثلاثة أسابيع على معركة حطين وصل كونراد إلى ميناء عكا التي ظنَّ أنها للصليبيين، وكاد ينزل إلى شاطئها، إلا أنه استنكر واستغرب عدم إقامة الفرنج بها للمراسيم والطقوس المعتادة عندهم أثناء وصول سفينة فرنجية إلى الشرق، كقرع الناقوس وتسيير ناقة إلى السفينة، وإظهار الفرح والابتهاج، كما أنكر الزي الذي رأى به أهل عكا، وهو غير زي الفرنجة، صادف ذلك ركود رياح البحر وعدم قدرته على الحركة أو الابتعاد عن ميناء عكا[١].

ودون شك أن المسلمين في عكا لاحظوا رسو هذه السفينة في الميناء، ووصل الخبر إلى الأفضل علي بن صلاح الدين، فأرسل رسله إلى هذه السفينة للاطلاع على حقيقة أمرها، واستقبل كونراد الرسل بنفسه، وتمكن بما يملكه من مكر وذكاء من معرفة الحال التي وصلت إليه مملكة القدس الفرنجية الأولى، وأنه لم يبق للفرنج على الساحل من المدن المهمة سوى صور وعسقلان، هنا أدرك كونراد خطورة موقفه وأنه عليه الرحيل من ميناء عكا بأقرب وقت قبل أن يقع فريسة بأيدي المسلمين، إلا أن حركة السفن لم تساعده على ذلك لركود الريح، وتوجَّب عليه الانتظار حتى تهب الريح التي تمكنه من الإقلاع من الميناء، ومن جديد لجأ إلى المكر والخداع الذي شُهِر به، فتذرَّع للرسل أنه قدِم إلى عكا بقصد التجارة، ورد الرسل يطلب الأمان من متولي البلد والسماح له بالدخول إلى عكا بما معه من متاع ومال، وقد أجابه الأفضل إلى طلبه، فلجأ كونراد إلى المماطلة، وقال للرسل أنه لا يثق إلا بخط الأفضل ولا ينزل إلى بلده إلا بعهده، وترددت الرسل بينهما، وفي كل مرة كان كونراد يطلب شيئاً جديداً، واستمر ذلك حتى هبت ريح مناسبة فأقلعت سفينته نحو صور، وأدرك الأفضل الخدعة بعد فوات الأوان وحاولت شوانيه عبثاً اللحاق به، ولكن دون فائدة[٢].

---

[١] العماد: الفتح القسي، عن الموسوعة، ج١٣، ص٧١-٧٢. ابن الأثير: الكامل، ج١٠، ص٣١. أبو شامة: عيون الروضتين، ج٣، ص٣٢٤. ابن واصل: مفرج الكروب، ج٢، ص٢٠٨. أبو الفداء: المختصر: ٣، ص٧٢. ١٤٨. العليمي، عبد الرحمن بن محمد بن عبد الرحمن، ت٩٢٨هـ: الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل، تح: عدنان يونس عبد المجيد نباتة، مكتبة دنديس، عمان، ج١، ص٣٢٦. أمبرويز: أمبرويز: رحلة ريتشارد، عن الموسوعة، ج٣١، ص ٢٣. ذيل تاريخ وليم، عن الموسوعة، ج٨، ص٣١٠.

[٢] ابن الأثير: الكامل، ج١٠، ص٣٢. أبو شامة: عيون الروضتين، ج٣، ص٣٢٥. ابن واصل: مفرج الكروب، ج٢، ص٢٠٨. أبو الفداء: المختصر:٣، ص٧٢. العليمي: الأنس الجليل، ج١، ص٣٢٦. أمبرويز: رحلة ريتشارد= الحملة الصليبية الثالثة، عن الموسوعة الشاملة في تاريخ الحروب الصليبية، تر: سهيل زكار، دار الفكر، دمشق، ١٩٩٨م، ج٣١، ص ٢٣، وسيرد هذا المصدر باسم "رحلة ريتشارد". العلي، محمود سالم: الصراعات الصليبية الداخلية في مملكة القدس الثانية، رسالة غير منشورة أُعدت لنيل درجة الماجستير في تاريخ العرب والإسلام، بإشراف أ.د. سهيل

يبدو أن كونراد علم بذكائه ودهائه – عن طريق تردد الرسل– أن صور ما زالت بيد الفرنج وأغلب الناجين منهم قد فرّوا إليها، وتجمعت بها قوة فرنجية كبيرة، إضافة لِما شُهرت به من قوة وحصانة ومنعة؛ لذلك اختار التوجه إليها ورسا في مينائها في ٧ جمادى الأولى ٥٨٣هـ/ ١٤ تموز ١١٨٧م.

وكما تقدم؛ فإن صور قد آلت تبعيتها آنذاك إلى رينالد (رينو) Rinald صاحب صيدا وأخذ في مراسلة صلاح الدين ليُسلمها له، ودعاه للقدوم بنفسه كي يتسلمها، وذلك لِما آلت إليه حالها من الفوضى الناجمة عن الخليط غير المنسجم وغير المترابط، والذعر الذي أصاب الفرنج المتجمعين بها والفارين من أمام صلاح الدين، فلا قيادة بها ولا تنظيم ولا دفاع؛ بل صراع وتشرذم ونزاع، وشِيَع مختلفة متعارضة في أهوائها ومشاريعها.

في هذا الوقت الحاسم واللحظات المهمة وصل كونراد إلى شاطئ صور، ونظر الفرنج بها إليه على أنه "مبعوثاً من الله لإنقاذهم"[١].

قلعة صيدا

زكار، جامعة دمشق، ١٤٣٠هـ/ ٢٠٠٩م، ص٧٢.

[١] بردج: تاريخ الحروب الصليبية: ص٢٠٧. رستون: مقاتلون في سبيل الله، ص١١٤.

آثار قلعة صور ١

آثار قلعة صور ٢

وعلى عكس عكا فإن صور ابتهجت لوصوله واستقبلته استقبالاً حافلاً، وعلى الفور ذهب إليه أهلها ورجوه أن يلتحق بهم، ويأخذ على عاتقه أمر تنظيم الدفاع عن المدينة، وأظهروا له أنه في حال

رفضه لذلك ومغادرته لصور فإنهم سوف يسلمون المدينة لصلاح الدين، وعلى الفور وافق كونراد على ذلك، ولكن شَرَطَ عليهم "أن تكون المدينة بحوزتي، وتقسمون لي بأنه بعد وفاتي سيكون أولادي أسيادكم"[١].

ولأن أهالي صور وجدوا في كونراد الأمل الوحيد والمحاولة الأخيرة لإنقاذ مدينتهم وإعادة مجدهم المسلوب، ولأنهم كانوا يعلمون أن صلاح الدين في طريقه لتسلُّم المدينة قبلوا بشروطه وأقسموا له يمين الولاء والطاعة.

وعلى الفور استولى كونراد على المدينة والقلعة والأبراج، وبدأ ينفق أمواله الطائلة التي جلبها معه على أعمال الدفاع والتحصين والتنظيم الداخلي للمدينة ورفع الروح المعنوية للفرنج الذين بها[٢].

وكما تقدم ذكره – فإن صلاح الدين ترك حصار قلعة كوكب وتقدم مسرعاً لتسلُّم صور وفق ما تم ترتيبه مع رينو Reynald صاحب صيدا، إلا أن رينو هذا كان قد فرَّ من صور على أثر استيلاء كونراد عليها، ففوجئ صلاح الدين بذلك، ووجد أن صور محصنة قوية الاستحكامات لا ترام وصعبة المنال، وقد أخفق الأسلوب السياسي مع كونراد عندما هدده صلاح الدين بقتل والده الأسير؛ لذلك قرر صلاح الدين بالشهر نفسه – ربيع الثاني– ٥٨٣هـ/حزيران ١١٨٧م عدم متابعة حصار صور، والتوجّه إلى المناطق الأكثر أهمية منها في الجنوب[٣]. وربما أن تلك الخطوة كانت بهدف عزل صور عن محيطها، ومن ثم الانفراد بها.

وبغض النظر عن ظروف صلاح الدين؛ يمكن القول: إن كونراد كان السبب في صمود صور أمامه وفك حصاره عنها، وبفضل ما تمتع به الأخير من حنكة وذكاء علم أن انسحاب صلاح الدين ما هو إلا حركة استراتيجية مؤقتة، ولا بدَّ أنه عائد إليها لإلحاقها بغيرها من المدن المُفتَتَحة، لذلك باشر العمل

---

[١] مجهول: ذيل تاريخ وليم، عن الموسوعة، ج٨، ص٣١١. وهذه العبارة تتطابق تماماً مع ما تورده المصادر العربية حول هذا الموضوع، انظر: ابن الأثير: الكامل، ج١٠، ص٣٢. ابن واصل: مفرج الكروب، ج٢، ص٢٠٩. تاريخ ابن خلدون، ج٥، ص٣٦٠. حومد: تاريخ الجهاد، ص ٢، ص ١٠٣. وللاستزادة انظر: دي فتري: المنتقى، عن الموسوعة، ج٣٣، ص ٢٣٥. رستون: مقاتلون في سبيل الله، ص١١٤.

[٢] ذيل تاريخ وليم، عن الموسوعة، ج٨، ص٣١١. ابن الأثير: الكامل، ج١٠، ص٣٢. ابن واصل: مفرج الكروب، ج٢، ص٢٠٩. رستون: مقاتلون في سبيل الله، ص١١٤.

[٣] هذه الأحداث تقدم شرحها بشكل مفصل عند الحديث عن المحاولة الثانية لفتح صور، وتمّ ايضاح الأسباب التي كانت وراء عدم متابعة صلاح الدين لحصارها، مع تأكده من خطورتها واستفحال أمرها.

مستفيداً من ابتعاد صلاح الدين وجيشه عنها وانشغاله بفتح القدس، وبدأ كونراد بوضع خطة دفاع منظمة ومتينة في صور فاجتمع برؤساء الطوائف والشيع المتعارضة فيها وأصلح بينهم، وبدأ بترميم دفاعات المدينة وتحصيناتها وإصلاح أسوارها وتقوية استحكاماتها - كما تقدمت الإشارة إليه- وكانت صور بطبيعتها محصَّنة؛ لأنها محاطة بالبحر من ثلاث جهات، فعززها كونراد من الجهة الرابعة بخندق مُلأ بالمياه، وقد عبّر أبو شامة عن هذه الأعمال والخطط التي قام بها كونراد بجملة مختصرة حين قال: "والمركيس في أثناء ذلك يحفر الخندق ويحكمه، ويعقد الموثق ويبرمه، ويجمع المتفرق وينظمه"[١].

ولِعظم وسرعة الانتصارات التي حققها العرب- المسلمون - قبل وبعد حصار صور المخفق- أدرك كونراد أن الفرنج في الشرق لن يستطيعوا الثبات طويلاً في وجه المسلمين الذين ازدادوا جرأةً ونشاطاً، وأن الإمكانات الصليبية في الشرق لا تكفي للصمود في وجه المسلمين، فلا بدَّ من عون ومدد للفرنج يأتي من الغرب الأوربي لمؤازرتهم وتمكينهم من الصمود أمام المسلمين، بل لتمكينهم الانتقال من الدفاع إلى الهجوم، وعلى الفور بدأ بإرسال رسله إلى ملوك الغرب الأوربي وإلى البابا في روما يستصرخهم ويستعطفهم ويستعجلهم لإنقاذ الأرض المقدسة وتحريرها من أسر المسلمين قبل فوات الأوان[٢]. وعبَّر عن مثل ذلك أبو شامة عندما قال: "وأرسل رسله إلى الجزائر وذوي الجرائر يستعدي ويستدعي ويستودع ملة الصليب عباده، ويسترعي ويستثير ويستزير ويستنفر ويستنصر"[٣].

وقع اختيار كونراد على يوسياس رئيس أساقفة صور ليرسله إلى الغرب الأوربي على ظهر سفينة مطلية بالسواد، وكذلك أشرعتها، لتعبر عن الحالة التي وصل إليها الفرنج في الشرق. وقد حمل يوسياس معه صوراً ورسوماً تُظهر أن المسيح عليه السلام قد لحقته الاهانة من نبي المسلمين محمد ﷺ، فالمسيح جريح أمام محمد الذي يحمل سيفاً يقطر من دمه، والمسيح يستصرخ ويطلب النجدة. وأيضاً صوَّر قبر المسيح عليه السلام وعليه فارس مسلم راكب على حصانه بال الحصان على القبر [٤]، لقد كان لهذه الصور وقع عظيم

---

[١] أبو شامة: عيون الروضتين، ج٣، ص٣٢٥. للاستزادة أنظر: عقد الجمان، عن الموسوعة، ج٢٤، ص٢٩٧. ابن واصل: مفرج الكروب، ج٢، ص٢٠٩، ٢٢٣.

[٢] ويندوفر، روجر أوف، ت١٢٣٧م: ورود التاريخ، تر: سهيل زكار، الموسوعة الشاملة في تاريخ الحروب الصليبية، دار الفكر، ٢٠٠٠م، ج٤٤، ص٣٣٠-٣٣١.

[٣] أبو شامة: عيون الروضتين، ج٣، ص٣٢٥.

[٤] ابن الأثير: الكامل، ج١٠، ص ٦٩. أبو شامة: عيون الروضتين، ج٤، ص١٥١. ذيل تاريخ وليم، عن الموسوعة، ج٨، ص٣٣٨. باركر، أرنست: الحروب الصليبية، تر: السيد الباز العريني، دار النهضة العربي، بيروت، ط٢، ص٨٦. رستون: مقاتلون في سبيل الله، ص١٤٧. عاشور: الجهاد الإسلامي، ص١٨١.

في نفوس الغرب الأوربي، واستمر كونراد في استخدام جميع أنواع الحيل والكذب والخداع التي امتاز بها، ونجح كثيراً في هذه السياسة، وكان له الدور الأكبر في قدوم الحملة الفرنجية الثالثة؛ إذ يقول عنه أبو شامة: "كان من أعظمهم حيلة وأشدهم بأساً وهو الأصل في تهييج الجموع"، "فهاج بذلك خلائق لا يُحصي عددهم إلا الله تعالى"[١].

وبدأت تتوافد على كونراد في صور الرسل والإمدادات ونجدات الغرب الأوربي، وبرز كزعيم فرنجي قوي يعمل على إعادة ترتيب أسس المملكة المنهارة، وطارت شُهرته، ليس فقط بالغرب الأوربي؛ وإنما أيضاً في بلاد الشام وبين المسلمين، وكبُرت مكانته عندهم، فالعماد الكاتب يقول عنه: "من أكبر طواغيت الكفر وأغوى شياطينه وأضرى سراحينه، وأخبث ذئابه"، "وهو الطاغية الداهية"[٢].

ويصفه ابن الأثير بأنه: "من شياطين الإنس، حَسَن التدبير والحفظ وله شجاعة عظيمة"[٣].

وذكره ابن شداد بأنه :"رجلاً عظيماً ذا رأيٍ وبأسٍ شديد"[٤].

لقد غدت صور تحت قيادة كونراد تشكّل تهديداً جديّاً وخطيراً على انتصارات صلاح الدين الأيوبي بما لا يمكن تجاهله، ولا بدّ أن صلاح الدين أدرك الخطر، إلا أنه كان منشغلاً في فتح القدس، والذي شعر بخطر كونراد أكثر من صلاح الدين هو واليه على صيدا وبيروت المجاورتين لصور -سيف الدين علي بن أحمد المشطوب-، فقد بدأ يرسل له الكتاب تلو الآخر يحرّضه على إنهاء أمر صور[٥].

وكما سلف ذكره فإن صلاح الدين ما إن انتهى من أمر القدس حتى زحف بجيشه فوراً إلى صور، وأحكم عليها الحصار في ٢٨ من الشهر نفسه إلا أن مقاومة صور بقيادة كونراد كانت كبيرة جداً، وكبّدت الجيش الإسلامي خسائر كبيرة، وبعد اخفاق الأسلوب السياسي والدبلوماسي والعسكري مع كونراد قرر صلاح الدين مع حاشيته انهاء الحصار والانسحاب عنها إلى عكا.

أما على الجانب الفرنجي فبفضل صمود كونراد بدأ الزحف من صور باتجاه عكا لاحتلالها وإعادة تأسيس مملكتهم المنهارة؛ كما سيأتي الحديث مفصلاً.

---

[١] أبو شامة: عيون الروضتين، ج٤، ص١٥١.

[٢] العماد: الفتح القسي، عن الموسوعة، ج١٣، ص٧١.

[٣] ابن الأثير: الكامل، ج١٠، ص٣٢.

[٤] ابن شداد: النوادر السلطانية، ص١٥٦.

[٥] ابن واصل: مفرج الكروب، ج٢، ص٢٤٢. العليمي: الأنس الجليل، ج١، ص٣٤١.

## ثالثاً: دور الملك غي (كي) دي لوزنيان *Guy De Lusignan* في تأسيس مملكة القدس اللاتينية الثانية في عكا

ما كان لغي Guy أن يظهر على مسرح الأحداث أو أن يصبح ملكا لولا زواجه المحظوظ من سيبلا Sibylla بنت الملك عموري، وأخت الملك بلدوين الرابع المجذوم، فرقّاهُ هذا الزواج إلى درجة ملك.

فغي ينتسب إلى أسرة من صغار النبلاء في أكتيان من بواتو، وتعرّض للنفي منها بسبب اقترافه لجريمة قتل أحد النبلاء الورعين، وفي محاولة منه لتحويل اللعنة إلى فروسية حمل الصليب ومضى نحو الأراضي المقدسة، وتمكن بما يملكه من جرأة وطموح وقوة أن يغوي الأميرة المترملة سيبلا Sibylla أخت ملك القدس آنذاك، وأن يوقعها في حبه الذي صارعت أخاها الملك والكنيسة من أجله، وتزوجته في عام ٥٧٥هـ/ ١١٨٠م رغماً عن الجميع[١].

وتولدت كراهية شديدة بين الملك بلدوين المصاب بمرض الجذام وبين زوج أخته غي Guy الذي أصبح كونتاً ليافا وعسقلان، وحاول الملك بلدوين مراراً إقناع أخته -كونها سترثه في الحُكم- بالانفصال عن غي ولكن دون فائدة، لعلمه أن غي ليس مناسباً أبداً لأن يحكم في القدس، وعندما اشتد المرض بالملك بلدوين الرابع وضع المملكة تحت وصاية ريموند الثالث Raymond III صاحب طرابلس حتى يكبر ابن أخته سيبلا (بلدوين الخامس) من زوجها وليم William صاحب السيف الطويل، وعلى هذا أصبح ريموند مؤهلاً ليكون هو الملك في حال توفي الملك الصغير بلدوين الخامس[٢].

وبعد وفاة الملك المجذوم بلدوين الرابع بوقت وجيز لحقه ابن أُخته بلدوين الخامس، فحيكت المؤامرة من قبل جوسلين كونت الرها - هو ابن جوسلين الأول صاحب الرها، ويبدو أنه استمر في حمل اللقب على الرغم من عودة الرها إلى سلطة المسلمين- وأرناط Renaud de Chatillon صاحب الكرك، وتم تنصيب سيبلا وزوجها غي Guy ملكين على القدس في جمادى الآخر ٥٨٢هـ/ أيلول ١١٨٦م[٣].

---

[١] رستون: مقاتلون في سبيل الله، ص٤١-٤٢.

[٢] مجهول: ذيل تاريخ وليم، عن الموسوعة، ج٨، ص٢٥٦-٢٥٩.

[٣] مجهول: ذيل تاريخ وليم، عن الموسوعة، ج٨، ص٢٧٠-٢٧٣. ويندوفر: ورود التاريخ، ج١، عن الموسوعة، ج٤٤، ص ٣١٦-٣١٧. رستون: مقاتلون في سبيل الله، ص٤٢-٤٣.

واعترض على تعيين غي ملكاً عدة بارونات وقساوسة كان على رأسهم بلدوين دي ابلين صاحب الرملة آنذاك، وألقى خطاباً بالمعارضين في نابلس راهن به على ضياع المملكة على يد غي، ورفض تقديم الولاء له بالمطلق[١]، وفعلاً ضاعت المملكة في العام التالي بعد معركة حطين، وكان غي من جملة الأسرى بين يدي صلاح الدين، وعلى عكس معاملة البارونات المعارضين لغي فإنه تلقى معاملة طيبة وحسنة لدى صلاح الدين الذي اتبع معه سياسته الطيبة المعروفة عنه مع الأسرى، ووعده بأنه متى تم استسلام عسقلان فإنه سوف يطلق سراحه، وعلى الفور أرسل غي Guy لحامية عسقلان يأمرها بالتسليم؛ إلا أنها رفضت في البداية، وأصرت على المقاومة حتى اضطرت للتسليم في جمادى الآخر ٥٨٣هـ/ آب ١١٨٧م بسبب شدة هجمات المسلمين عليها[٢]، واستمر غي Guy في أسر صلاح الدين، وبدأت زوجته سيبلا Sibylla ترسل إلى صلاح الدين وتطلب منه إطلاق سراح زوجها إلى أن تم لها ذلك في سنة ٥٨٤هـ/١١٨٨م بعد أن اشترط عليه صلاح الدين "خلع نفسه من مُلكه والذهاب فوراً إلى المنفى فيما وراء البحار"[٣]، وأقسم غي اليمين ألّا يحمل السلاح ثانية ضد المسلمين إلى الأبد[٤]. وبدلاً من أن يبحر غي إلى فرنسا أبحر إلى جزيرة أرواد، ومنها عاد إلى طرابلس التي بها أنصاره الذين التفوا حول زوجته هناك، ولم يجد صعوبة ولا أي تردد في إيجاد رجل دين يحلله من اليمين والقَسَم الذي بذله لصلاح الدين[٥]، وعلى الفور أعاد غي Guy الصفة الرسمية لنفسه كملك، ولكن الآن بدون مملكة، لذا كان لزاماً عليه البدء مسرعاً في العمل على إعادة مملكته الضائعة للتخلص من الذنب والعار الذي لحق بشخصه من جراء ضياع أراضي المملكة أثناء حكمه، ولم يبق له من أراضي مملكته سوى مدينة صور التي حفظها كونراد مونتفرات Conrand Montferrat وأنقذها من السقوط بيد صلاح الدين -كما تقدم شرحه.

---

[١] ذيل تاريخ وليم، عن الموسوعة، ج٨، ص٢٧٣.

[٢] ابن الأثير: الكامل، ج١٠، ص٣٢-٣٣. ابن شداد: النوادر السلطانية، ص١٣٣. أبو شامة: عيون الروضتين، ج٣، ص٣٢٦-٣٢٧. فابري، فيلكس: جولات الراهب الدومينيكاني فيلكس فابري، تر: سهيل زكار، الموسوعة الشاملة في تاريخ الحروب الصليبية، ج٤٣، ص١١٤٨.

[٣] ويندوفر: ويندوفر: ورود التاريخ، عن الموسوعة، ج٤٤، ص٣٢٧. للاستزادة أنظر: أمبرويز: أمبرويز: رحلة ريتشارد، عن الموسوعة، ج٣١، ص٢٦.

[٤] ذيل تاريخ وليم، عن الموسوعة، ج٨، ص٣٤٤. ابن شداد: النوادر السلطانية، ص١٥٦. أمبرويز: أمبرويز: رحلة ريتشارد، عن الموسوعة، ج٣١، ص ٢٦.

[٥] الراهب الدومينيكاني، عن الموسوعة، ج٤٣، ص ١١٤٩. رنسيمان: تاريخ الحروب، ج٣، ص٤٩-٥٠. أنتوني بردج: ص٢٠٨. عاشور: الحركة الصليبية، ص٢، ص١٢٣. العلي: الصراعات الصليبية، ص٧٤-٧٥.

لم يجد غي Guy في طرابلس أنصاراً حقيقيين له لعداوته القديمة مع هذه الكونتية ولصراعه الكبير مع صاحبها المتوفى ريموند الثالث Raymond III؛ لذلك آثر زيارة أنطاكية؛ إلا أنه لم ينل بها المساعدة المرجوة لإعادة مملكته، وأثناء وجوده فيها وصلت إلى صور مجموعة من الفرنج مع عدد من الفرسان وعلى رأسهم أخيه جفري (غيوفري) دي لوزجنان الذي عُرف بالشجاعة والإقدام،[١] وفي صور علِم بما حلّ بأخيه ومملكته على يد صلاح الدين، فلحق بغي مع مجموعته إلى أنطاكية، فسرَّ به وتحسَّن موقفه، وعقدوا اجتماعاً، وبعد التشاور بين الملك غي وأخيه جفري ومقدم الداوية والبارونات التابعين له قرروا الرحيل إلى صور على أساس أنها المدينة الوحيدة الباقية من مملكة القدس واتخاذها مقراً للملك ريثما تتم استعادة المملكة المنهارة. وعندما وصلوا إلى أبواب صور طلب غي من كونراد الذي كان قد سيطر عليها أن يستقبله بها كملك، فرفض كونراد، ومَنَعَهُم من الدخول إلى صور، وادعى مُلكيتها وفقاً لاتفاق تم بينه وبين أهلها، وأنكر تبعيتها لغي كونه فقد المملكة، وادعى أنه نائب للملوك الذين هم وراء البحر، وقال له: "إنني نائب الملوك الذين وراء البحر، وما أذنوا لي في تسليمها إليك"[٢].

واستمر الملك غي Guy وزوجته سيبلا Sibylla أمام أبواب صور غير مسموح لهم بالدخول لها، وساء الموقف، وبرزت العداوة بين الزعيمين كونراد سيد صور الفعلي، وبين غي الذي ضعف موقفه وضاعت هيبته لعدم سيطرته على أي جزء من الأرض، وانقسم الفرنج في صور وخارجها **قسمين أو حزبين**، وشكل هذان الحزبان أساساً في استمرار الصراع الذي نَخَرَ في جسم مملكة عكا التي تأسست فيما بعد، ولا يُعْلَم في الحقيقة ما إذا كان صلاح الدين قد خطط لهذا الانقسام عندما أطلق سراح غي أم لا؟ ولكن الشيء المؤكد والواضح أن إطلاق سراحه كان بذرة الشقاق والخلاف بين الفرنج في الشرق.

وفي العودة **للحزبين**؛ إذ كان **الأول** في صف غي Guy بصفته الملك الحقيقي للمملكة المنهارة، ويعد صور جزءاً منها، وله الحق بها.

**والثاني**: مع كونراد، لما امتلكه هذا الرجل من صفات تؤهله للقيادة، ورأوا أنه الشخص الوحيد الذي تمكن من حماية صور، ومنعها من السقوط بيد المسلمين، وكونه هو الذي قاوم فكرة الاستسلام

---

[١] دي فتري: المنتقى، عن الموسوعة، ج٣٣، ص ٢٣٥.

[٢] ابن واصل: مفرج الكروب، ج٢، ص٢٨٤. للاستزادة أنظر: ابن شداد: النوادر السلطانية، ص١٥٦. المنتقى من تاريخ القدس، عن الموسوعة، ج٣٣، ص٢٣٥. ورود التاريخ ج١، عن الموسوعة، ج٤٤، ص٣٢٧. ذيل تاريخ وليم، عن الموسوعة، ج٨، ص٣٤٧-٣٤٨. العلي: الصراعات الصليبية، ص٧٦-٧٧.

التي كانت تسيطر على عقول الفرنج، وحوّل هذه الفكرة إلى دفاع ومقاومة[١].

أمام تصلُّب كونراد اضطر غي إلى التراجع خاسراً إلى طرابلس، ثم كرر العودة إلى صور مرة ثانية في صفر ٥٨٥هـ/ نيسان ١١٨٩م وعسكر أمام أسوارها، ومن جديد طلب من كونراد أن يتولى حكومة المدينة بصفته هو الملك، وتكرر عناد كونراد ورفضه لطلب غي، فاجتمع غي بأخيه جفري ومقدم الداوية وبقية البارونات الذين كانوا معه، وأكدوا له أنهم معه في أي قرار يتخذه، وأعلمه جفري بأن إمبراطور ألمانيا وملكي فرنسا وإنكلترا وعدد آخر من البارونات هم في طريقهم للوصول إلى ساحل بلاد الشام[٢]. كل ذلك عزز موقف غي وشجعه على اتخاذ خطوات جديدة، وزاد في موقفه قوة ما يلي:

في تلك الأثناء بدأت إمدادات قوية تصل لغي من الغرب الأوربي، وأخذ الحجاج الجدد ينضوون تحت سلطته، وصادف اختلاف البيازنة مع كونراد، فتركوا صور وانضموا إليه[٣]، ولا يُستبعد دور غي في هذا الخلاف لكسب البيازنة لجانبه، وأيضاً انضمت إليه العساكر الصقلية والداوية والإسبتارية بالإضافة إلى بارونات المملكة، ووصل إليه البنادقة متأخرين، وبهذا يكون قد تجمَّع لديه جيش كبير وصل تعداده عند ويندوفر إلى تسعة آلاف رجل[٤]، وعند غيره إلى ١٦ ألف رجل[٥]. ووصفهم ابن الأثير بقوله: "تَمَوَّجَ بعضهم في بعض، ومعهم الأموال العظيمة والبحر يمدهم بالأقوات والذخائر، والعُدَدِ والرجال من بلادهم، فضاقت عليهم صور وظاهرها"[٦].

لقد وصل غي Guy إلى قناعة بإخفاقه أمام صور، وأنه لن يُمكنه كونراد من حكمها، ولا فائدة من البقاء أمام أسوارها، وكان لزاماً عليه أن يجد مدينة يلجأ إليها ومنها ينطلق إلى إعادة بناء مملكته، وأيضاً كان لا بدَّ له من القيام بحركة تثير الانتباه إليه، وتُثبت أنه الزعيم الأقوى بين الفرنج، وأنه هو الملك الحريص على أراضي مملكته الضائعة.

---

(١) أنتوني بردج: ص٢٠٨. رنسيمان: تاريخ الحروب، ج٣، ص٤٩-٥٠. أبو سعيد، حامد غنيم: الجبهة الإسلامية في عصر الحروب الصليبية، دار الثقافة- -القاهرة، ص١٣٢.

(٢) ذيل تاريخ وليم، عن الموسوعة، ج٨، ص٣٤٨. رنسيمان: تاريخ الحروب، ج٣، ص٥١.

(٣) لويس، برنارد: الحشيشية (الإغتيال الطقوسي عند الإسماعيلية النزارية)، تر: سهيل زكار، دار قتيبة، دمشق وبيروت، ط١، ٢٠٠٤م، ص٣٤٤. وللمزيد عن هذا الخلاف بين البيازنة وكونراد راجع العلي: الصراعات الصليبية، ص٧٨-٧٩.

(٤) ورود التاريخ ج١، عن الموسوعة، ج٤٤، ص٣٢٧.

(٥) سلامة: عكا، ص٥٤، نقلاً عن:

Painter, S,A: History of Middle Ages, (1284-1500), Newyork, 1954, p214.

(٦) ابن الأثير: الكامل، ج١٠، ص٧٠.

وكانت قواته قد تقدمت باتجاه صيدا لحصارها واحتلالها أكثر من مرة ودارت معارك عنيفة بين الجانبين، إلا أن هذه المحاولات حظيت بالإخفاق، ورُدت على أيدي قوات اليزك[١] التابعة لصلاح الدين[٢]؛ لذلك اتخذوا قراراً في بداية رجب ٥٨٥هـ/ نهاية أغسطس ١١٨٩م بأمر المعسكر وأتباعه بالمسير جنوباً باتجاه عكا ملتزمين الطريق الساحلي لتجنب أخطار الداخل ومباغتات قوات المسلمين، بينما أقلعت سفن البيازنة والصقليين لمصاحبته أثناء السير، ووصلوا إليها في ٨ رجب/٢٨ آب[٣].

وقام غي Guy بهذه الحركة الفجائية على أمل أنه سيتمكن من الاستيلاء على عكا بعملية انقضاض سريعة، إلا أنه من جديد لقي الإخفاق الذي صاحبه منذ مرحلة متقدمة من مسيرته السياسية، فقد صمدت عكا أمامه وردت هجومه، وأصرّ غي على احتلالها فعسكر بالقرب من أسوارها على تل تيرون "تل الفخار أو تل المصلبين" الذي يقع إلى الشرق منها بمسافة ميل واحد، فالتفَّ عليه الجيش الإسلامي بقيادة صلاح الدين، وأصبح جيشهم بين فكي كماشة[٤].

ولم يُنقذ غي سوى زيادة الإمدادات التي كانت تصله من الغرب الأوربي، واكتمل حصار عكا،[٥] وفي النهاية تمكنت الجيوش الفرنجية من دخول عكا – طبعاً بعد حصار طويل ومقاومة شديدة ومعارك شرسة– وهذا ما سيأتي الحديث على تفصيله.

وفي النهاية يمكن القول: إن غي Guy بقراره الشجاع والمتسرِّع الذي حوّل به أنصاره من صور إلى عكا تمكن من تحويل الانحسار الفرنجي على يد صلاح الدين إلى مد، وبدأ بمرحلة مهمة من تاريخهم وهي مرحلة استعادة الأرض المقدسة وتأسيس مملكة عكا (مملكة القدس اللاتينية الثانية)، وهذا ما سيأتي الحديث على تفصيله. لقد حدث ذلك على يد غي على الرغم مما وصف به من الحماقة والتهور والتاريخ غير المشرّف، وإخفاقه في قيادة مملكة القدس الأولى وانهيارها في ظل قيادته، وعلى الرغم من المعارضة

---

[١] كلمة فارسية، تعني طلائع أو مقدمة الجيش. الذهبي: سير أعلام النبلاء، مؤسسة الرسالة، ط٣، ١٩٨٥م، ج١٨،ص٤١٥، حاشية رقم٤. للاستزادة أنظر: دُوزِي، رينهارت بيتر آن: تكملة المعاجم العربية، وزارة الثقافة والإعلام، العراق، ط١، ١٩٧٩-٢٠٠٠،ج١١، ١١٨.

[٢] ابن الأثير: الكامل، ج١٠، ص٦٦-٦٨. ابن شداد: النوادر السلطانية، ص١٥٦-١٥٧.

[٣] دي فتري: المنتقى، عن الموسوعة، ج٣٣، ص٢٣٥. ابن الأثير: الكامل، ج١٠، ص٧٠.رنسيمان: تاريخ الحروب، ج٣، ص٥٢. أنتوني بردج، ص٢٠٨.

[٤] مجهول: ذيل تاريخ وليم، عن الموسوعة، ج٨، ص٣٤٨-٣٤٩. دي فتري: المنتقى، عن الموسوعة، ج٣٣، ص ٢٣٥. أنتوني بردج: ص٢٠٨.

[٥] دي فتري: المنتقى، عن الموسوعة، ج٣٣، ص ٢٣٥-٢٣٦.

القوية لشخصه منذ البداية، وعدم القبول به في الأوساط الملكية، وعلى الرغم من تولي كونراد لقيادة الفرنج في صور – وهي آخر ما تبقى من مملكة القدس – وعدم اعترافه بملكية غي واسقاطه لصفة الملك عنه وكسبه لتأييد عدد من البارونات في المملكة ضد غي، ولعل هذا يشجع الرأي بأنه فعل ذلك بتنسيق مسبق مع قادة الحملة الثالثة، ولاسيما الإنكليز منهم.

## رابعاً: دور الحملة الثالثة في تأسيس مملكة القدس اللاتينية الثانية:

ليس الحديث هنا عن الحملة الثالثة وأسبابها وأحداثها فذلك مبحث يطول، ولكن الحديث هنا عن الدور الذي شغلته هذه الحملة في اعادة تأسيس مملكة القدس اللاتينية.

فالحملة الثالثة قدَّمت خدمات جلية للفرنج في المشرق العربي، فقد انطلقت جموع هذه الحملة إلى هناك منذ أن بدأت أخبار صلاح الدين ومعركة حطين تنهال على الغرب الأوربي، وكانت هذه الأخبار السيئة –بالنسبة إليهم– بمثابة الصاعقة؛ إذ انطلقوا من بلدانهم إلى الأراضي المقدسة دون التقيُّد بالقيادة الدينية وسيادة البابوية– كما هو معتاد عندهم.

وتميَّزت هذه الحملة عن سواها بخروجها عن الطابع الديني واتسامها بالطابع العلماني؛ لكونها قِيْدَت من قبل الملوك ذوي السلطة الزمنية في أوربا ودون التقيد تماماً بأوامر البابوية.

كما أن تسميتها بالحملة الصليبية الثالثة يجانب حقيقتها وواقعها، والأصح من ذلك تسميتها بصيغة الجمع، لأنها تكونت من عدة حملات وعدة جيوش، وأتت من عدة جهات وبقيادة عدة شخصيات على مستويات عدة، ولكل منهم هدفه الخاص.

والمصادر والمراجع العربية تصور هذه الحملة على أنها مخفقة وأنها عادت إلى أوربا دون أن تحقق أهدافها، في هذا الصدد يمكن القول إن هذه الحملة بالفعل لم تحقق كامل أهدافها ولا –على الأقل– أهم هذه الأهداف وهو اعادة احتلال القدس، ولكن يمكن القول إنها حققت انتصارات عدة على المستوى العسكري، وتمكنت من إعادة تأسيس مملكة القدس الأولى، وإن كان ذلك في عاصمة جديدة هي "عكا"، واستمرت هذه المملكة قائمة لمدة قرن كامل من الزمن، وإن كانت على شريط ساحلي ضيق امتد من صيدا حتى يافا.

ويُستنتج أهمية هذه الحملة وخطورتها من سياسة الهدم والتدمير التي اتبعها صلاح الدين في بعض المناطق التابعة له خشية سقوطها بيد هذه الحملة كتهديم أسوار اللاذقية، وجبلة، وطرطوس، وجبيل،

وبيروت، وغيرها[١]. وربما أن تلك السياسة كانت مؤشراً على ضعف الجبهة الإسلامية آنذاك والخشية التي انتابتها من قدوم تلك الجموع.

فأنباء حطين والفتوحات التي تلتها "هزت جميع ممالك الغرب"[٢]، إذ إن رُسل الفرنج أسرعت – منذ حطين– إلى غرب أوربا لتنقل نبأ الكارثة التي حلت بهم على أيدي المسلمين وتستغيث بقوة جديدة تنقذ صليبيي الشرق وتخلصهم من المشاق والهزائم التي يُلاقوها على يد المسلمين، وكانت وجهة هؤلاء الرسل البابوية بشكل خاص، وزعماء أوربا بشكل عام. وكان من أقوى الرسل آنذاك هو يوسياس رئيس أساقفة صور الذي أرسله حاكم صور (كونراد مونتفراتConrand Montferrat )، وقد تقدم الحديث عنه، ولكن يُختصر القول عنه: إنه كان له وقع كبير وأثر عظيم في تجييش العواطف والانفعالات في أوربا.

وقبل رسالة يوسياس وبعد معركة حطين بأيام قليلة وصلت رسالة إلى امبراطور ألمانيا فردريك الأول في نهاية ربيع الثاني ٥٨٥هـ/ ٧ تموز ١١٨٧م يُطلعونه فيها على هزيمتهم البشعة على يد المسلمين.

وكذلك رسالة تيريكوس Terricus في الشهر الذي يليه إلى البابا أوربان الثالث Urbane III بشكل خاص وإلى المسيحيين بشكل عام، ورسالة فيليب كونت فلاندر التي ذكر فيها أن صلاح الدين يحاصر صور بعد انتصاره عليهم في حطين[٣].

وأرسل الجنويون تقريراً إلى المجلس البابوي بهذا الشأن، وكذلك بطريرك أنطاكية كتب في رجب ٥٨٣هـ/ ايلول ١١٨٧م إلى ملك إنكلترا هنري الثاني يخبره بما يلاقيه الفرنج من مخاطر ومحن. وأيضاً توالت رسل الاستغاثة من قبل الإسبتارية والداوية والفرسان والرهبان الذين بقوا على قيد الحياة إلى إخوانهم في الغرب يروون لهم الأحداث الغريبة التي تمت، ويشرحون لهم وضع الفرنج في الشرق، ويطالبون بمزيد من المساعدات العاجلة[٤].

---

[١] دي فتري: المنتقى، عن الموسوعة، ج٣٣، ص٢٣٨.

[٢] الراهب الدومينيكاني، عن الموسوعة، ج٤٣، ص ١١٤٩.

[٣] ويندوفر: ورود التاريخ، ج١، عن الموسوعة، ج٤٤، ص٣٢٠. حمزة، عادل عبد الحفيظ: العلاقات السياسية بين الدولة الأيوبية والإمبراطورية الرومانية المقدسة زمن الحروب الصليبية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠١، ص١٣٠-١٣٢. رنسيمان: تاريخ الحروب، ج٣، ص٢٠.

[٤] ويندوفر: ورود التاريخ، عن الموسوعة، ج٤٤، ص٣١٢. رنسيمان: تاريخ الحروب، ج٣، ص٢١، ٢٣.

وبالفعل بدأت الروح الحماسية لحملة فرنجية جديدة تستشري في جميع أنحاء أوربا، وأصبحت فكرة الحملة إلى الشرق الإسلامي هي المسيطرة على جميع العقول في أوربا، وسادت فكرة بين المسيحيين فحواها أن الخروج بحملة صليبية جديدة هي الوسيلة الوحيدة لاسترجاع القدس إلى أحضان المسيحية[١].

وتوفرت لهذه الحملة قيادة سياسية وعسكرية لم تتوفر لِما قبلها، فقد كان على رأس قيادات هذه الحملة ثلاثة من أكبر ملوك أوربا وهم[٢]:

الإمبراطور الألماني فردريك بارباروسا (١١٥٢-١١٩٠م)

والملك الفرنسي فيليب أوغسطس (١١٨٠-١٢٢٣م)

والملك الإنكليزي ريتشارد قلب الأسد Richard the Lionheart (١١٨٩-١١٩٩م)

ويمكن القول إن هؤلاء الملوك الثلاثة بذلوا كل ما بوسعهم وسخروا كل إمكانات بلادهم لإنجاح هذه الحملة واسترداد بيت المقدس من المسلمين، إلا أنهم لم يتمكنوا من تحقيق معظم وأهم أهدافهم، ففردريك مات قبل أن يصل لبلاد الشام في ٦ جمادى الأولى ٥٨٦هـ/ ١٠ حزيران ١١٩٠م وهو يعبر النهر الأزرق في كليكيا[٣]، وفيليب لم يلبث طويلاً في المنطقة لدخوله في نزاعات حادة مع ريتشارد، كان على رأسها وراثة عرش عكا[٤]، والوحيد الذي قدم إنجازات حقيقية للحركة الصليبية آنذاك هو ملك إنكلترا ريتشارد قلب الأسد.[٥]

---

[١] ويندوفر: ورود التاريخ، عن الموسوعة، ج٤٤، ص٣٢٠-٣٢١. حمزة: العلاقات السياسية، ص١٣٢.

[٢] الراهب الدومينيكاني، عن الموسوعة، ج٤٣، ص ١١٤٩. عمران، محمود سعيد: تاريخ الحروب الصليبية (١٠٩٥-١٢٩١م)، دار المعرفة الجامعية، مصر، ٢٠٠٠م، ص١٤٨.

[٣] للمزيد عن حملة فردريك انظر: عمران: تاريخ الحروب الصليبية، ص١٤٨-١٥٠. حمزة: العلاقات السياسية، ص١٣٣. عطية، عزيز سوريال، الحروب الصليبية وتأثيرها على العلاقات بين الشرق والغرب، تر: فيليب صابر يوسف، دار الثقافة، القاهرة، ط٢، ص٦٨.

[٤] راجع: ويندوفر: ورود التاريخ، ج١، عن الموسوعة، ج٤٤، ص٣٧٣-٣٧٤. زابوروف، ميخائيل: الصليبيون في الشرق، تر: الياس شاهين، دار التقدم، موسكو، ١٩٨٦م، ص٢٠٦-٢٠٨.

[٥] للمزيد عن أحداث الحملة الثالثة وأسبابها وإنجازاتها راجع: علي، أحمد علي إسماعيل: تاريخ بلاد الشام (٤٦٣-٦٥٨هـ)، دمشق، ٢٠٠٠م، مج ٥، ص٥٧٧-٥٨٣. ماير، هانس ابرهارد: تاريخ الحروب الصليبية، تر: عماد الدين غانم، دار الهدى، دمشق وبيروت، ط١، ٢٠٠٩م، ص١٩١-٢٠٧.

وعلى العموم يمكن إيجاز الخدمات التي قدمتها هذه الحملة والدور الذي شغلته في إعادة تأسيس مملكة القدس بما يلي:

أ- كان للقوة العاجلة التي أرسلها ملك صقلية النورمندي وليم الثاني Willia إلى ساحل بلاد الشام في أواخر ربيع الثاني سنة ٥٨٤هـ/ حزيران ١١٨٨ الدور الأكبر في الابقاء على صور وطرابلس بيد الفرنج، إذ إنها وصلت إلى صور في الوقت الذي كان به صلاح الدين يحاصر طرابلس، فتمكنت هذه القوة من نجدة طرابلس، وإحباط حصار صلاح الدين لها[١]، وشارك أسطولها عملياً في الحصار الذي بدأه غي Guy على عكا منذ رجب سنة ٥٨٥هـ/١١٨٩[٢].

ب- قبل هذه الحملة كانت قبرص خارج ميدان الحروب الفرنجية لتبعيتها للإمبراطورية البيزنطية، واتخذت قبرص طيلة هذه المرحلة موقفاً عدائياً من الأوربيين والصليبيين، أما الآن - خلال الحملة الثالثة- فقد استولى عليها ملك إنكلترا ريتشارد قلب الأسد Richard the Lionheart وهو في طريقه إلى بلاد الشام عام ٥٨٧هـ/ ١١٩١م وأصبحت قبرص - دون أن يدرك ريتشار جميل صنعه- قاعدة مهمة وحيوية أتاحت الإمداد والتموين للفرنج في بلاد الشام، وغدت المركز الأساسي، والحصن المنيع الذي يعتمد عليه الفرنج في امداداتهم[٣]، ليس خلال الحملة الثالثة فحسب؛ وإنما طيلة الحروب الصليبية، حتى نهايتها. ووُضِعت هذه القاعدة في خدمة الفرنج في الوقت الذي ضعفت أو انعدمت به إمدادات الفرنج بالتموين والمؤن اللازمة من المناطق المجاورة بسبب إحكام الأيوبيين سيطرتهم على المنافذ في المنطقة، وعلى الرغم من اتخاذ قبرص - في بعض الأحيان- سياسة مستقلة تماماً عن مملكة القدس إلا أن ما تمتعت به من غنى وثروات طائلة عُدت رصيداً قوياً للصليبيين بشكل عام، يلجؤون إليه عند الضرورة.

---

(١) مجهول: ذيل تاريخ وليم، عن الموسوعة، ج٨، ص٣٤٣-٣٤٤. أبو سعيد: الجبهة الإسلامية، ص١٣٦.

(٢) رنسيمان: تاريخ الحروب، ج٣، ص٥٢.

(٣) للمزيد عن أحداث استيلاء ريتشارد على قبرص راجع: أمبرويز: رحلة ريتشارد، عن الموسوعة، ج٣١، ص ٥٢-٦٦. عبد القوي، زينب عبد المجيد: الإنكليز والحروب الصليبية من١١٨٩-١٢٩١م، عين للدراسات والبحوث، ط١، ١٩٩٦م، ص١٢٧-١٣٠. داوود، مها: دور قبرص في أحداث الحروب الصليبية من أواخر القرن ٦هـ/ ١٢م حتى أواخر القرن ٨هـ/١٤م، رسالة غير منشورة لنيل درجة الدكتوراه بإشراف وفاء جوني- جامعة دمشق، ٢٠٠٩-٢٠١٠م، ص٦٣-٧٤.

ت- اختصر احتلال قبرص من قبل ريتشارد المسافات أمام الفرنج، وسرّع في وصول الإمدادات من الغرب الأوربي إلى بلاد الشام، فأصبحت قبرص القاعدة والمخزن الكبير، وبدل أن تأتي الإمدادات والمساعدات الأوربية بواسطة أساطيل المدن التجارية الإيطالية عبر طريق طويل ومحفوف بالمخاطر أصبحت الآن تُرسل من قبرص فتصل إلى ساحل بلاد الشام خلال ٤٨ ساعة[١].

ث- كان لهذه الحملة الأثر الأكبر في إعادة تأسيس مملكة القدس اللاتينية في عاصمة جديدة هي "عكا" واستمرار هذه المملكة لمدة قرن من الزمن.

ج- تمكن ريتشارد من حل الخلاف حول وراثة عرش المملكة بين المتصارعين وإعادة تنظيم المملكة ككل.

ح- أصبحت جزيرة قبرص نقطة الانطلاق الرئيسية في الحملات الفرنجية التالية، وهذا ما يتضح من خلال تعقب سير الحملات الفرنجية الخامسة والسادسة والسابعة[٢].

خ- كان للخطوة التي اتبعها ريتشارد في بيع قبرص للداوية ومن ثم لغي لوزجنان -كما سيأتي شرحه- أهمية خاصة في وضع قبرص ضمن دائرة الحروب الفرنجية ومن ثم كان توحيد التاجين (تاجي قبرص وعكا)، فكان ذلك عامل دعم قوي لمملكة القدس اللاتينية الثانية الضعيفة.

---

[١] عبد القوي: الإنكليز والحروب الصليبية: ص١٣٠.

[٢] للمزيد عن دور قبرص في هذه الحملات راجع اديوري، بيترو: قبرص والحروب الصليبية، ص٦٩-٨٠. مها داوود: دور قبرص، ص ٧٤ وما يليها.

# المبحث الرابع: الحصار الصليبي لعكا، والمقاومة الإسلامية بين عامي ٥٨٥-٥٨٧هـ/ ١١٨٩-١١٩١م حتى سقوطها

## أولاً: بداية الحصار الفرنجي لعكا عام ٥٨٥هـ/ ١١٨٩م

كان الملك العتيق غي Guy - ويسمى أيضاً: كي وجوي وجاي- لوزجنان De Lusignan هو صاحب فكرة حصار عكا والاستيلاء عليها، وسلف الذكر أنه تجمعت لديه قوة لا بأس بها في طرابلس ثم في صور، وتكونت هذه القوة من البارونات والأسياد القديمين المحليين التابعين له أو لزوجته سيبلا، والبيازنة والصقليين ومجموعة من فرسان الإسبتارية والداوية، ولا يمكن تحديد بدقة حجم مشاركة البنادقة والجنوية في الهجوم على عكا، إلا أنه يمكن القول إن هذه المدن أسهمت بمجموعة من السفن الحربية، وذلك انطلاقاً من سياستهم التنافسية مع البيازنة، ويقدّر ابن شداد عدد الذين وصلوا إلى عكا آنذاك بألفي فارس وثلاثين ألف راجل[1]، في حين أن ويندوفر يُنقص العدد إلى تسعة آلاف رجل

[1] ابن شداد: النوادر السلطانية، ص١٦٤. وللاستزادة انظر: ابن الأثير: الكامل، ج١٠، ص ٦٩-٧٠. أبو شامة: عيون الروضتين، ج٤، ص ٧٩.

فقط[١].

وانطلق هذا التحالف في ٨ رجب ٥٨٥هـ/ ٢٣ آب ١١٨٩م من صور باتجاه عكا سالكاً الطريق الساحلي، وتصحبهم وفي محاذاتهم سفن البيازنة والأسطول الصقلي الذي كان يحمل المؤن والمعدات الحربية اللازمة ويقوم بحماية الإمدادات الأوربية القادمة لهم عبر البحر من خطر المراكب الإسلامية، وكان صلاح الدين آنذاك يُحكم الحصار على قلعة شقيف أرنون التي طال أمرها بسبب مراوغات صاحبها رينالدRinal ، سالف الذِكر، وعندما أنهت قوات اليزك أمرها لصلاح الدين لم يبد لها اهتماماً كبيراً لاعتقاده أن غي Guy لا يقصد عكا وإنما غايته تشتيت جيش المسلمين وتخفيف الضغط عن قلعة الشقيف، ولكن سرعان ما أكدت له اليزك الذين كانوا مكلفين بمراقبة تحركات هذا التحالف أن عكا هي هدف الحملة الأكيد، ففوجئ بهذا وترك قلعة الشقيف وتحرك مسرعاً إلى عكا، إلا أن قوات هذا التحالف الفرنجي كانت قد سبقته إليها وأحكمت الحصار عليها، واتخذوا تل الفخار (تورون Turon)، - ويسمى أيضاً تل المصلبين- المشرف على باب عكا من ناحية الشرق مركزاً لمعسكرهم.[٢]

وتذكر الروايات أنه لو تنبه المسلمون على خطر ذلك التحالف وحاصروه عند ممرات الإسكندرية أو عند النواقير لقضوا عليه قبل أن يستفحل أمره[٣].

ويذكر ابن الأثير أن صلاح الدين أراد مهاجمة الصليبيين وهم في الطريق قبل وصوله إلى عكا، إلا أن مجلسه الحربي عارض ذلك، واقترح أن يكون المصاف على عكا حيث يهاجمونهم من الخلف وحامية عكا من الأمام فيقع الفرنج بين فكي كماشة فيبيدونهم، واضطر صلاح الدين لقبول رأي مستشاريه لمرض ألمَّ به[٤].

---

[١] ويندوفر: ورود التاريخ، ج١، عن الموسوعة، ج٤٤، ص٣٢٧.

[٢] ابن الأثير: الكامل، ج١٠، ص٧٠-٧١. أبو شامة: عيون الروضتين، ج٤، ص٧٧-٧٩. ابن شداد: النوادر السلطانية، ص١٦٣. ابن أيبك الدواداري، أبي بكر بن عبد الله: كنز الدُّرر وجامع الغُرر، ج٧، الدر المطلوب في أخبار ملوك بني أيوب، تح: سعيد عاشور، القاهرة، ١٩٧٢م، ص٩٩. أمبرويز: رحلة ريتشارد، عن الموسوعة، ج٣١، ص ٢٦. ويندوفر: ورود التاريخ، ج١، عن الموسوعة، ج٤٤، ص ٣٢٧. Richard. The Latin Kingdom, vol, 1. P.188.

[٣] عاشور: الحركة الصليبية، ج٢، ص١٢٤.

[٤] ابن الأثير: الكامل، ج١٠، ص٧٠.

هنا يمكن القول إن صلاح الدين لم يفاجأ تمام المفاجأة بهذا التحالف ووجهته، إذ إنه كان يدرك أن عكا في أعين الفرنج منذ أن أخذها منهم بعد حطين؛ لأنها كانت تمثل ثاني مدن الفرنج بعد القدس في المملكة المنهارة، وربما أن صلاح الدين لم يستبعد قدوم قوة فرنجية إلى مرفأ عكا لتستولي عليها، وقد حدث هذا مع كونراد بشكل أو بآخر، ويلاحظ أن صلاح الدين منذ أن فتحها عمل على تحصينها بشكل جيد، وأسند قيادتها لابنه، وشحنها بالسلاح والعتاد والمؤن، وجعلها منيعة في وجه من يرومها، ونقل إليها الذخيرة والرجال والفرسان ممن كان يثق بهم وأوصاهم ووصاهم بها.[١]

وفي العودة إلى التحالف الفرنجي الذي وصل إلى أطراف عكا وفضَّل القيام بهجوم عاجل ومباغت لاحتلالها والسيطرة عليها، إلا أن هذا الهجوم أخفق للأسباب الآتية:

١- موقع عكا وحصانتها الطبيعية ومتانة أسوارها - تقدم شرح ذلك في الحديث عن جغرافية عكا- وكان لهذا أكبر الأثر في صمودها.

٢- اهتمام صلاح الدين بها منذ فتحها عام ٥٨٣هـ/١١٨٧م، وشحنها بالسلاح والعتاد والمؤن، وإدخال خيرة المقاتلين إليها كما تقدم ذكره.

٣- ضعف التحالف الفرنجي وسوء تنظيمه وقلة أعداده إذا ما قورن بقوة حامية عكا التي كانت منظمة تضم مجموعات كبيرة من العرب والبدو والأكراد، وحسب المصادر اللاتينية فإن أعداد حامية عكا كانت تفوق أعداد الفرنج الذين قدموا مع غي إلى عكا بعشرة أضعاف[٢]، وبالطبع هذه مبالغة من الفرنج لتعظيم الجيش الفرنجي وإبراز أفراده كأبطال.

٤- انسحاب الأسطول الذي أرسله ملك صقلية وليم الثاني لمساعدة الفرنج، وعودته إلى صقلية بسبب وفاة وليم وحصول خلافات ومنازعات على السلطة من بعده[٣].

٥- على الرغم من أن قوات صلاح الدين التي أتت إلى عكا لفرض حصار على الفرنج المحاصرين لها أتت على عجل، وكانت قليلة العدد إلا أنها تمكنت من إيقاف الإمدادات والمساعدات التي كانت تصل للفرنج، فكان لذلك دور كبير في زعزعة الجيش الفرنجي واثارة الذعر والرعب بين أفراده، والتراجع عن أسوار عكا[٤].

---

[١] مجهول: ذيل تاريخ وليم، عن الموسوعة، ج٨، ص٣٤٣.

[٢] ذيل تاريخ وليم، عن الموسوعة، ج٨، ص٣٤٩. دي فتري: المنتقى، عن الموسوعة، ج٣٣، ص٢٣٥-٢٣٦.

[٣] سلامة: عكا، ص٥٤.

[٤] تواريخ أسرة بلانتغنت، عن الموسوعة، ج٣٠، ص٢٢٥. مجهول: ذيل تاريخ وليم، عن الموسوعة، ج٨، ص٣٥١.

وعلى الرغم من إخفاق الهجوم الفرنجي على عكا إلا أن قوات صلاح الدين لم تجد سبيلا لداخلها، فضرب صلاح الدين خيمته بمرج عكا على تل كَيْسَانَ، وامتدت ميمنة جيشه إلى تل العِيَاضيَّة وميسرته إلى النهر الحلو (بيلوس)[١]، وأُنْزِلت الأثقال بصفُّورِيَّة، وسيَّر الكتب إلى الأطراف باستدعاء العساكر والجيوش، فأتته جموع كبيرة من كل نواحي دولته، ومن الموصل وديار بكر وسنجار وغيرها من بلاد الجزيرة.[٢]

وبعد أن تضايق المسلمون من إحكام سيطرة الفرنج على عكا، بدأ عسكر المسلمين الهجوم عليهم في يوم الجمعة ١ شعبان وضايقوهم مضايقة شديدة، واشتد القتال وكثُرت الوقعات، واستمر القتال من بعد صلاة الجمعة حتى الليل، وتجدد القتال في اليوم التالي، وحققت ميمنة الجيش الإسلامي بقيادة تقي الدين عمر- ابن أخ صلاح الدين- تقدماً كبيراً وانتصاراً عظيماً في جهة عكا الشمالية، وانفتح الطريق لداخل عكا من جهة الشمال، وكان صلاح الدين من جملة مَن دخل إليها، وتوقف القتال بعد ذلك اليوم لأخذ شيء من الراحة ولسقاية الدواب، واستغل ذلك صلاح الدين لإعادة تنظيم أمور الدفاع عن عكا، وأدخل إليها عسكراً جديداً وزاد في حاميتها، واستمر الهدوء حتى بدأ الفرنج هجوماً شرساً على عكا أيضاً في يوم الجمعة الثامن من شعبان، وبعد معارك عنيفة تمكن المسلمون من ردهم على أعقابهم بعد أن كبدوهم خسائر فادحة، وتوقف القتال واستمر الطريق مفتوحاً إلى عكا، وحافظ الفرنج على مواقعهم،[٣] واستمرت المناوشات بين الطرفين دون معركة حاسمة، وبدأ كلا الطرفين في حشد الجموع وتنظيم الجيوش والاستعداد للمعركة الفاصلة.

## ثانياً: المعركة الكبرى حول عكا ٥٨٥هـ/ ١١٨٩م

انتظم الجيش الإسلامي حول عكا منذ البداية في ثلاث أجنحة قلب وميمنة وميسرة، وتولى صلاح الدين قيادة القلب وأسند مقدمته إلى الفقيه عيسى الهكاري وجماعته، وفي أوائل ميمنة الجيش أو ما يسمى ميمنة القلب كان ولداه الأفضل علي والظافر خضر وعسكر الموصل وديار بكر وحسام الدين

---

[١] يقع هذا النهر إلى الشرق من عكا على بعد ميل، بالقرب من تل الفخار(تل تيرون). رنسيمان: تاريخ الحروب، ج٣، ص٥٤.

[٢] ابن الأثير: الكامل، ج١٠، ص٧١. أبو شامة: عيون الروضتين، ج٤، ص٧٩، ٨٤.

[٣] ابن شداد: النوادر السلطانية، ص١٦٥-١٦٨. أبو شامة: عيون الروضتين، ج٤، ص٧٩-٨١، ٨٤-٨٥. أبو الفداء: المختصر، ج٣، ص٧٧. ابن العديم: زبدة الحلب، ص٢، ص٥٨٨. وللاستزادة انظر: تواريخ أسرة بلانتغنت، عن الموسوعة، ج٣٠، ص٢٢٥.

عمر بن لاجين صاحب نابلس وعسكر سنجار، وأسند قيادة آخر ميمنة الجيش التي تشرف على البحر من جهة عكا الشمالية إلى ابن أخيه الملك المظفر تقي الدين عمر الذي قادها أفضل قيادة وكان له يد بيضاء في القتال.

وكانت أوائل الميسرة أو ما يسمى ميسرة القلب بقيادة سيف الدين علي بن المشطوب وعلي بن أحمد وهما من كبار الأمراء الأكراد، وأيضاً كان بها جماعة من الهكارية والمهرانية وعسكر سنجار وجماعة من المماليك، وفي أواخر ميسرة الجيش وجد كبار المماليك الأسدية الذين ضُرب بهم المثل آنذاك، أما طائفة اليزك فقد أقامت على تل العِياضية إلى الشرق من عكا[١].

وحسب المصادر اللاتينية فقد بلغ عدد الجيش العربي- الإسلامي مئة ألف من الفرسان فقط دون الرجال، أما عدد الجيش الفرنجي فقد بلغ أربعة آلاف فارس ومئة ألف راجل،[٢] وأما حسب المصادر العربية فقد بلغ الجيش الفرنجي أربعمئة ألف[٣]، ولا بد أن الرقمين الأخيرين مبالغاً بهما وأن العدد الحقيقي بين هذا وذاك.

وامتد الجيش الفرنجي في مقابلة الجيش الإسلامي، وأيضاً نظَّموه وقسَّموه إلى أربعة صفوف، جُعل الأول بقيادة الملك غي ومعه هيوج صاحب طبريا وفرسان الاسبتارية والداوية، والصف الثاني بقيادة المركيز كونراد – الذي انضم حديثاً للتحالف ضد عكا بناءً على طلب غي- ومعه رئيس أساقفة روان، وفي الصف الثالث البيازنة والألمان، وفي الصف الرابع أخو الملك جفري لوزجنان حيث بقي في المعسكر[٤].

وعند العودة إلى الجيش الإسلامي يمكن القول إنه على الرغم من كثرة الإمدادات والمساعدات التي كانت تصله من كل جهات الدولة إلا أنه يمكن القول: إن الجيش بقي مشتتاً بسبب اضطراره للقتال على عدة جبهات، فالعسكر المصري بقيادة العادل لم يكن قد وصل بعد إلى فلسطين، واضطر قسم منه للبقاء بثغري دمياط والإسكندرية وغيرهما خشية هجوم فرنجي مفاجئ.

---

[١] ابن شداد: النوادر السلطانية، ص١٧١-١٧٢. سلامة: عكا، ص٥٩.

[٢] تواريخ أسرة بلانتغنت، عن الموسوعة، ج٣٠، ص٢٢٥-٢٢٦.

[٣] ابن أيبك: الدر المطلوب، ص١٠٢.

[٤] تواريخ أسرة بلانتغنت، عن الموسوعة، ج٣٠، ص٢٢٥- ٢٢٦. ويندوفر: ورود التاريخ، ج١، عن الموسوعة، ج٤٤، ص ٣٥٤-٣٥٥.

وقسم آخر من جيش صلاح الدين بقي في محاذاة أنطاكية لحماية أعمال حلب من هجمات بوهموند صاحب أنطاكية، وقسم آخر بقي في حمص بمحاذاة طرابلس، وقسم آخر بقي مقابل صور لتأمين شر الفرنج بها.[١]

لقد أدرك الفرنج تماماً هذا الوضع الذي كان عليه الجيش الإسلامي، وربما عملوا على استغلال الوقت قبل وصول الجيش المصري بقيادة العادل، فأخذوا زمام المبادرة وبدأوا بهجومهم على جيش صلاح الدين في الساعة الثالثة ظهراً من يوم الأربعاء ٢١ شعبان ٥٨٥هـ/ ٤ تشرين الأول ١١٨٩م، وحققوا تقدماً كبيراً في بداية الهجوم عندما لجأ تقي الدين -الذي كان يتولى قيادة ميمنة الجيش الإسلامي- للخديعة، وهي فن الحرب، وعمل على استدراج الداوية وغيرهم من الذين كانوا يواجهونه في ميسرة الجيش الفرنجي حيث إنهم كثفوا غاراتهم على الجيش الإسلامي فعمل على استدراجهم بعيداً عن أصحابهم، إلّا أن تقي الدين لم يكن قد خطط مسبقاً لهذا العمل مع قائد القلب صلاح الدين الذي انطلت عليه الخدعة وظن أن ذلك ضعفاً من الميمنة فعمل على نجدتهم وأمر أطلابه بذلك، فأثّر ذلك سلباً على القلب والميمنة، حيث إن الفرنج الذين كانوا في مقابل قلب الجيش الإسلامي استغلوا انشغال القلب بمساندة الميمنة وهاجموه وأوقعوا فيه كثيراً من القتلى والجرحى وتكبد المسلمون خسائر فادحة، وتوغل الفرنج إلى خيمة صلاح الدين وقتلوا طشت داره، ولاذ المسلمون بالفرار إلى تل العياضية قرب طبرية حيث تبعهم الفرنج إلى هناك. [٢]

وثبتت ميسرة الجيش الإسلامي واستمرت في تماسكها، وأخذ صلاح الدين يطوف بين وحدات جيشه المتفرقة ويعمل على حماسهم وشحذ هممهم وحثهم على الجهاد، فبدأت فرق جيشه تعيد تنظيمها، وتم إنزال ضربة كبيرة بالفرنج العائدين من مطاردة المسلمين الفارين إلى تل العياضية.[٣]

وأما الفرنج الذين صعدوا التل ووصلوا إلى خيمة السلطان فلم يغنموا منها شيئاً، وكل ما خسره المسلمون على أيديهم ثلاثة أشخاص تم قتلهم، وعندما لاحظوا ثبات ميسرة المسلمين استشعروا الخطر

---

[١] ابن الأثير: الكامل، ج١٠، ص ٧٢.

[٢] ابن الأثير: الكامل، ج١٠، ص٧٣.ابن شداد: النوادر السلطانية، ص١٧٢-١٧٣. ابن واصل: مفرج الكروب، ج٢، ص٢٩٧-٢٩٦. ابن أيبك: الدر المطلوب، ص١٠١. مجهول: ذيل تاريخ وليم، عن الموسوعة، ج٨، ص ٣٥١-٣٥٣. رنسيمان: تاريخ الحروب، ج٣، ص٥٧.

[٣] ابن شداد: النوادر السلطانية، ص١٧٣. ابن واصل: مفرج الكروب، ج٢، ص٢٩٧. ابن أيبك: الدر المطلوب، ص١٠١. قلعجي، قدري: صلاح الدين الأيوبي، شركة المطبوعات- بيروت، ط١، ١٩٩٢م، ص٣٧٣-٣٧٤.

وانحدروا من على التل يطلبون عسكرهم، واجتهد الجنود المسلمون -الذي تمكن صلاح الدين من جمعهم حوله- في طلبهم والطرد ورائهم وقتلوا عدداً منهم، ولما وصل هؤلاء المنهزمون إلى جيشهم أحدثوا رعباً فيه وظنوا أن الهزيمة لحقت بهم فاشتدوا في الهرب والهزيمة[١]، وتحركت ميسرة الجيش الإسلامي عليهم، وعاد الملك المظفر مع الميمنة إلى ساحة القتال وتجمَّع جيش صلاح الدين وتكاثروا على الفرنج وألحقوا بهم الهزيمة، وتراجع الفرنج إلى معسكرهم الذي كان قد تعرض لهجوم مباغت من قبل حامية عكا[٢]، إلا أنه صمد بقيادة جفري دي لوزجنان واستقر الجيش الفرنجي وراء استحكامات عكا، لذا يذكر رنسيمان أنه لم يكن هذا النصر كاملاً؛ لأن الفرنج حافظوا على مواقعهم ولم يُطردوا منها، وتوقف القتال بعد العصر[٣].

كان عدد قتلى المسلمين ١٥٠ فقط حسب الرواية الإسلامية، و٥٠٠ حسب الرواية اللاتينية. أما عدد قتلى الفرنج بين ٧-١٠ آلاف قتيل حسب الروايات الإسلامية[٤]، وتعترف الروايات اللاتينية بكثرة عدد القتلى دون تحديد أرقام، فصاحب تواريخ أسرة بلانتغنت يذكر أنه قتل في هذه المعركة "عدد كبير جداً من رجالنا"[٥]، وأيضاً يذكر أرنولد صاحب ذيل تاريخ وليم أن قتلاهم "كانوا من الكثرة بمكان أن النهر فاض عدة أيام بدماء القتلى وجثثهم"[٦]، وكان من بين قتلى الفرنج كبار الفرسان كأندرو كونت برين Brenne الذي كان قد وصل إلى خيمة صلاح الدين، ومقدم الداوية، ونجا كونراد من الأسر بأعجوبة[٧].

وفي ٤ رمضان ٥٨٥هـ/ ١٥ تشرين الأول١١٨٩م أمر صلاح الدين جيشه **بالتراجع عن عكا**

---

[١] ابن شداد: النوادر السلطانية، ص١٧٣-١٧٤. ابن واصل: مفرج الكروب، ج٢، ص٢٩٨.

[٢] ابن شداد: النوادر السلطانية، ص١٧٤.

[٣] رنسيمان: تاريخ الحروب، ج٣، ص٥٧-٥٨.

[٤] ابن الأثير: الكامل، ج١٠، ص٧٤. ابن شداد: النوادر السلطانية، ص١٧٥. تواريخ أسرة بلانتغنت، تر: سهيل زكار، الموسوعة الشاملة في تاريخ الحروب الصليبية، دار الفكر، دمشق، ١٩٩٨م، ج٣٠، ص٢٢٦.

[٥] عن الموسوعة، ج٣٠، ص٢٢٦.

[٦] مجهول: ذيل تاريخ وليم الصوري (١١٨٤-١١٩٧)، تح: مرغريت روث مورغان، تر: سهيل زكار، عن الموسوعة الشاملة في تاريخ الحروب الصليبية، دار الفكر، دمشق، ١٩٩٣م، ج٨، ص٣٧١.

[٧] دي فتري: المنتقى، عن الموسوعة، ج٣٣، ص٢٣٦ . مجهول: ذيل تاريخ وليم، عن الموسوعة، ج٨، ص٣٥١-٣٥٣. رنسيمان: تاريخ الحروب، ج٣، ص٥٧.

**إلى الخَرُّوبَة** وأمر الحامية بعكا بحفظها واغلاق أبوابها والاحتياط[١]، وشرح لهم أسباب رحيله عنها، وعلى العموم **يمكن إجمال هذه الأسباب على النحو الآتي:**

١- كثرة القتلى من الفرنج وما تبع ذلك من فساد الهواء بسبب نتن روائح الجثث مما هدد الجيش الإسلامي بالمرض.

٢- إصابة صلاح الدين نتيجة ذلك بمرض القُولنج، وإجماع أمرائه وأطبائه على وجوب رحيله من المنطقة كي يشفى من مرضه.

٣- إصرار أمراء صلاح الدين على أن الرحيل عن عكا سيفتح الباب أمام الفرنج للهروب والتخلي عن حصارهم لعكا[٢].

٤- لعل صلاح الدين بتراجعه إلى الخَرُّوبَة رغب بالانتظار حتى تصله الإمدادات التي طلبها وكانت في طريقها إليه.[٣]

٥- لعل السبب الأهم في ذلك هو الانقسامات التي حدثت في الجيش الإسلامي بسبب الهزيمة التي لحقت به في بداية المعركة، حيث تشتت الجيش وتفرّق ووصلت هزيمة بعض أفراده إلى طبرية ودمشق، وعلى الرغم من أن صلاح الدين تمكن من إعادة ضبط بعض فرق جيشه وأعادها إلى المعركة، إلا أنه مما لا شك فيه أن انقسامات خطيرة بقيت داخل الجيش، فرغب صلاح الدين في الابتعاد قليلاً عن خطوط التماس مع الفرنج والتفرغ في الخروبة لإعادة تنظيم الجيش واصلاح الانقسامات التي حصلت بداخله.

يبدو أن كل هذه الأسباب لا تُعدُ مسوغاً كافياً للرحيل عن عكا، وسريعاً ما أثبتت هذه الخطوة إخفاقها، حيث إن الفرنج استغلوا ذلك أفضل استغلال، وأحكموا حصار عكا، وقطعوا طريق الإمداد الوحيد إليها من جهة الشمال، وأحاطوها من البحر إلى البحر، وشرعوا في حفر خندق حولها واستخدموا التراب في جعله متاريس حولهم يتحصنون في داخلها، وبنوا ثلاثة أبراج أحاطت بعكا[٤]. ويضيق الحديث هنا عن الآلات والأسلحة المستخدمة من كلا الجانبين، ويمكن اختصار القول: إن الفرنج برعوا في ابتكار آلات وطرق جديدة ساعدتهم كثيراً في إحكام الحصار وهدم الأسوار، وتمكنوا من إلحاق الأذى والمضايقة

---

[١] العماد: الفتح القسي، عن الموسوعة، ج١٣، ص٢٢١.

[٢] العماد: الفتح القسي، عن الموسوعة، ج١٣، ص ٢٢٢.

[٣] ابن الأثير: الكامل، ج١٠، ص ٧٥.

[٤] العماد: الفتح القسي، عن الموسوعة، ج١٣، ص ٢٢١. ابن الأثير: الكامل، ج١٠، ص٧٥. رحلة ريتشارد، عن الموسوعة، ج٣١، ص٢٨.

الشديدة بعكا وبمن في داخلها إلى أن بدأت تدب المجاعة بها[١]، ولم يستطع صلاح الدين الرد عليهم بهجوم كبير لشدة المرض الذي ألمَّ به، ورفض إرسال الجيش للقتال دون أن يكون معهم.[٢]

ولا شك أن هذه النتائج الناجمة عن انسحاب القوات الإسلامية إلى الخَرُّوبَة تثبت بشكل واضح إخفاق هذه الخطوة، وقد أجمع المؤرخون والعسكريون آنذاك على أنه لو بقي الجيش الإسلامي في مكانه، ولم ينسحب إلى الخروبة لكان الحال أفضل بكثير[٣]. ويمكن القول إنه لم تنقطع الاتصالات تماماً بين صلاح الدين وحامية عكا، إذ إنه كان يرسل لها وتصله منها المعلومات عن طريق العوامين والحمام الزاجل[٤].

وفي منتصف رمضان ٥٨٥هـ/ ٣٠ تشرين الأول ١١٨٩ م استطاع أسطول مصري مكون من خمسين سفينة أن يلحق ضرراً كبيراً بأسطول الفرنج، وشق طريقه من بينهم ووصل سالماً في معظمه إلى عكا حاملاً معه المؤن والذخائر والجنود[٥]، وفي ٢٦ كانون الأول من العام نفسه استطاع أسطول مصري ضخم الاتصال بميناء عكا أيضاً، وبالطبع ساعدت هذه المؤن والامدادات التي وصلت عكا على تقوية الروح المعنوية بها وتسكين النفوس، فزادوا من ضغطهم على الجيش الفرنجي المحاصر لها[٦].

على الرغم من المواجهات الخفيفة بين الطرفين إلا أنه يمكن القول إنه قد هدأت الجبهة بينهما طيلة شتاء ٥٨٥هـ/ ١١٨٩-١١٩٠م وشطراً من الربيع الذي يليه، وقضي الشتاء والربيع دون أن يشتبك كلا الطرفين في قتال خطير أو معركة فاصلة، وعلى عكس القتال فقد ظهرت في هذه المرحلة الاتصالات السلمية بين فرسان كلا الطرفين، وتعجب بعض المؤرخين منها.[٧]

---

[١] للمزيد راجع: العماد: الفتح القسي، عن الموسوعة، ج١٣، ص ٢٢٣-٢٢٤. سلامة: عكا، ص٦١-٦٣.

[٢] العماد: الفتح القسي، عن الموسوعة، ج١٣، ص ٢٢١. ابن الأثير: الكامل، ج١٠، ص٧٥.

[٣] ابن أيبك: الدر المطلوب، ص١٠٣. وللاستزادة انظر: العماد: الفتح القسي، عن الموسوعة، ج١٣، ص ٢٢٢.

[٤] ابن الأثير: الكامل، ج١٠، ص ٧٩، ٨٧، ٩٥. عاشور، سعيد: نظم الحكم والإدارة في عصر الأيوبيين والمماليك، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط١، ١٩٨٧م، ص٢٧٣.

[٥] أمبرويز: رحلة ريتشارد، عن الموسوعة، ج٣١، ص٢٩. العماد: الفتح القسي، عن الموسوعة، ج١٣، ص ٢٢٤. ابن الأثير: الكامل، ج١٠، ص٧٦. عاشور: الجهاد الإسلامي: ص١٩٤.

[٦] ابن الأثير: الكامل، ج١٠، ص٧٦. الذهبي: تاريخ الإسلام، ج٤١، ص٤٧. رنسيمان: تاريخ الحروب، ج٣، ص٥٩.

[٧] ابن شداد: النوادر السلطانية، ص١٦٩-١٧٠. أبو شامة: عيون الروضتين، ج٤، ص ٨٢-٨٣.

هذه الحالة أدت إلى اطالة أمد الحرب واتخاذها طابع حرب الخنادق، فحامية عكا احتمت خلف أسوار المدينة، والفرنج المحاصرون لها اختبأوا في خنادقهم التي حفروها حول عكا، في حين كان صلاح الدين يقضي الشتاء في الخروبة يرقب الموقف عن كثب وينتظر الفرصة السانحة له، دون أن يستطيع الوصول إلى عكا، إلا أنه كان يطمئن على حاميتها بين الفينة والأخرى عن طريق العوامين في البحر وبواسطة الرسائل التي ترسل مع الحمام الزاجل كما سلف ذكره.

وعلى الرغم من هدوء جبهات القتال -نوعاً ما- في هذه المدة إلا أن مجاعة كبيرة ونقصاً حاداً في المواد التموينية لحق بكلا الطرفين، وتداعت الأمور الصحية وتفشت الأمراض، وفي هذا الصدد يقول صاحب المنتقى من تاريخ القدس واصفاً حال الفرنج المحاصرين لعكا في هذه المرحلة: "وتحتاج المسألة إلى وقت طويل للحديث عن المآسي والمصاعب والمخاطر والخسائر التي عانوا منها قبل قدوم ملكي فرنسا وإنكلترا"[١].

ويمكن القول إنه في هذه المدة تكامل وصول الإمدادات لكلا الطرفين من عدة جهات، وبدأ يستعد كل منهما لمرحلة مقبلة، وهنا لا بدّ من إلقاء نظرة على المساعدات والإمدادات الغربية التي بدأت تصل للصليبيين.

## ثالثاً: الإمدادات والمساعدات الغربية للفرنج المحاصرين عكا:

سلفت الإشارة إلى أن الإمدادات الغربية قد بدأت تنطلق من الغرب الأوربي إلى بلاد الشام منذ أن وصلتهم أنباء حطين وسقوط القدس، وكانت في البداية على شكل مساعدات عاجلة كالأسطول الذي بعثه حاكم صقلية وليم الثاني إلى فلسطين والذي يقل حوالي ٣٠٠ فارس، وما إن أحكم الفرنج بقيادة غي حصارهم لعكا منذ منتصف رجب ٥٨٥هـ/ أوائل أيلول ١١٨٩م حتى بدأت الإمدادات الغربية تتوافد بكثرة على الجيش الفرنجي المحاصر لها.

وقد عبَّر ابن أيبك الدواداري عن كثرة الإمدادات والمساعدات التي انطلقت من أوربا لمساندة الفرنج حول عكا، فقال: "فإن بلاد الروم خرجت عن بكرة أبيها من سائر قلاعها ومدنها وحصونها"[٢]. وكذلك قال أبو شامة: "وكانوا في عدد الرمل ومدد النمل، وهم كل يوم في ازدياد، والبحر يمُدهم

---

[١] عن الموسوعة، ج٣٣، ص٢٣٦.

[٢] ابن أيبك: الدر المطلوب: ص٩٩.

بالأمداد"[١].

فبعد الأسطول الصقلي وصل أسطول ضخم للدانيين والفريزيين بلغ عدده على حد قول ويندوفر ١٢ ألف جندي وفارس[٢]، واشتهر هذا الأسطول بمهارة بحارته وأدوا دوراً مهماً في حصار عكا من جهة البحر، ولاسيما بعد انسحاب الأسطول الصقلي وعودته إلى صقلية، وكان لهم دور كبير في تغيير موازين المعركة.

وبالشهر نفسه أيضاً وصلت سفن من إيطاليا تحمل وحدة من العساكر الفلمنكية والفرنسية بقيادة الفارس جيمس أوفرين Auvergne وكونتات بار وبريين ودريه وفيليب أسقف بوفيه، وكذلك وصل في شهر شعبان/ نهاية أيلول جماعة من الألمان بقيادة لاندجراف لويس سيد ثورنجيا الذي آثر السير إلى الأرض المقدسة دون انتظار الإمبراطور فردريك بربروسا، وقَدِم معه جماعة من المحاربين الإيطاليين[٣]، وجماعة من الأمراء السكسون، وكذلك وصل من فرنسا عدد من البارونات منهم كونت أوف بار، وكونت أوف بريين (أندرو)، وأغلبهم نزل في صور ثم توجه إلى عكا.[٤]

وأثناء مرور لويس سيد ثورنجيا بصور استطاع إقناع كونراد مونتفرات Conrand Montferrat بالانضمام إلى جيش الفرنج المحاصرين لعكا دون الالتزام بالخضوع لقيادة غي لوزجنان[٥]، وتذكر بعض الروايات أن كونراد قَبِلَ القدوم إلى عكا تلبيةً لطلب النجدة الذي أرسله له الملك غي Guy بسبب سوء وضع المعسكر الفرنجي المحاصر لعكا بعد قدوم قوات صلاح الدين[٦].

ولإصلاح ما تعرّض له الجيش الفرنجي من متاعب جرى اتفاق بين الملك غي وكونراد صاحب صور يقضي بأن يكون لكونراد بيروت وصيدا بعد استردادهما من المسلمين إضافةً إلى صور، مقابل أن

---

(١) أبو شامة: عيون الروضتين، ج٤، ص٨٥.

(٢) ويندوفر: ورود التاريخ، ج١، عن الموسوعة، ج٤٤، ص٣٢٨.

(٣) ويندوفر: ورود التاريخ، ج١، عن الموسوعة: ٤٤، ص٣٢٨. دي فتري: المنتقى، عن الموسوعة، ج٣٣، ص٢٣٥. رنسيمان: تاريخ الحروب، ج٣، ص٥٥-٥٦. زاباروف، ميخائيل: الصليبيون في الشرق، تر: الياس شاهين، دار التقدم- موسكو، ١٩٨٦م، ص٢٠٨.

(٤) مجهول: ذيل تاريخ وليم، عن الموسوعة، ج٨، ص٣٥١. سلامة: عكا ص٥٥ نقلاً عن:
Zoe, Oldenburg. The Crusades. P446.

(٥) حمزة: العلاقات السياسية، ص١٧١. رنسيمان: تاريخ الحروب، ج٣، ص٥٦.

(٦) تواريخ أسرة بلانتغنت، عن الموسوعة، ج٣٠، ص٢٢٥.

يعترف بغي ملكاً، واستقر الصلح بينهما على هذا الحال، وغادر كونراد المعسكر في صفر ٥٨٦هـ/ آذار عام ١١٩٠م إلى صور لجلب المؤن والأسلحة وعاد بنهاية الشهر إلى عكا، وعندما اقتربت سفنه منها اعترضت طريقها سفن الأسطول الإسلامي الذي أقلع من ميناء عكا، ودارت معركة حامية بينهما واستخدمت السفن الإسلامية النار الإغريقية؛ إلا أنها أخفقت بمحاولتها هذه وتمكنت سفن كونراد من الرسو في البر وأنزلت ما جلبته معها من سلع ومواد استخدمها الفرنج في تشييد الأبراج الخشبية.[١]

وفي سياق الإمدادات الغربية للفرنج المحاصرين لعكا، فقد استمرت هذه الامدادات دون انقطاع، ففي جمادى الآخرة سنة ٥٨٦هـ/ تموز سنة ١١٩٠م وصل إلى ميدان المعارك حول عكا عدد من كبار النبلاء ورجال الكنيسة الفرنسيين والبرجنديين بقيادة هنري تروي كونت شمبانيا Henry de Troyes, Count de Champagne، ويرد اسمه في المصادر الإسلامية ب (كندهنري)، وكان معه ١٠ آلاف راجل، وعلى الفور حظي بمكانة خاصة بين الفرنج المحاصرين لعكا، وتولى قيادة عمليات الحصار؛[٢] لما تمتع به من صلة قرابة مع ملكي إنكلترا وفرنسا، فأمه هي ابنة اليانور وتعد أختاً غير شقيقة لكل من ملكي إنكلترا وفرنسا، وعلى هذا كان لوصوله دور في رفع الروح المعنوية للفرنج المحاصرين لعكا؛ إذ إنهم عدوا وصوله مقدمة لوصول ملكي إنكلترا وفرنسا، كما أنه كان قائداً عسكرياً ممتازاً، وأدى ذلك إلى تغيير ميزان القوى لصالح الفرنج[٣].

وفي ٦ رمضان ٥٨٦هـ/ ٨ تشرين الأول ١١٩٠م وصلت إلى عكا بقايا الحملة الألمانية بقيادة فردريك السوابي الذي تولى قيادتها بعد وفاة أبيه في منطقة طرسوس وهو في طريقه إلى فلسطين حيث تشرذم جيشه بعده وأصبح ضعيفاً لا عِبَرَ له بعد أن ظن المسلمون آنذاك عندما سمعوا بهذه الحملة العظيمة أنه لا مُقام لهم في بلاد الشام- على حد قول ابن الأثير[٤].

ليس الحديث هنا عن الحملة الألمانية، ولكن ما يهم هنا أن بقايا هذه الحملة التي وصلت إلى عكا

---

[١] رنسيمان: تاريخ الحروب، ج٣، ص٦٠.

[٢] كان قائد عمليات الحصار قبله جيمس أفسنيز سيد ثورنجيا وقد انتابه مرض حمى الملاريا؛ لذلك اتخذ من وصول الكندهري ذريعة للعودة إلى أوربا، ومات وهو في طريق العودة إلى وطنه، وقد اتهمه بعض المؤرخين بأنه كان على علاقة مع المسلمين. انظر: رنسيمان: تاريخ الحروب، ج٣، ص٦٢، عن: Ralph of Diceto, II, PP. 82-83.

[٣] ابن واصل: مفرج الكروب، ج٢، ص٣٢٨. رنسيمان: تاريخ الحروب، ج٣، ص٦٢. أبو سعيد: الجبهة الإسلامية، ص ١٣٩.

[٤] ابن الأثير: الكامل، ج١٠، ص٨٣.

بقيادة فردريك السوابي لم يتجاوز عددهم ألف رجل، وعلى الفور شاركوا إخوانهم الفرنج في حصار عكا، إلا أنه لم يكن لهم قبول في الأوساط الفرنجية حول عكا، ولم يلبث أن توفي فردريك السوابي في ٢٢ ذي الحجة ٥٨٦هـ/ ٢٠ كانون الثاني ١١٩١م، وأُسر ابن أخيه على يد المسلمين وانضوى ما بقي من جنوده تحت قيادة كونراد مونتفراتConrand Montferrat .[١]

وبالشهر نفسه الذي وصلت به أشلاء الحملة الألمانية أيضاً وصلت وحدة إنكليزية تجاه صور ومن ثم سارت نحو عكا، وأخذت دورها في العمليات الحربية، وكان على رأس هذه الوحدة بلدوين رئيس أساقفة كنتربري.[٢]

كذلك وصلت بعض النساء الفرنجيات بنية المشاركة في العمل الصليبي والقتال حول عكا، وأسر المسلمون عدداً منهن، كما كانت مهمة بعضهن الترويح عن الجنود الصليبيين لقضاء وطرهم معهن،[٣] أما العجائز منهن التي لم تسطع المشاركة في العمليات القتالية فقد قُمْنَ بدور التحريض والحث على القتال، وقد أكد صلاح الدين بكل وضوح مشاركة النساء الفرنجيات في رسالته التي أرسلها إلى الخليفة العباسي في بغداد آنذاك الناصر لدين الله.[٤]

وفي النهاية يمكن القول إن هذه الوحدات والجيوش التي وصلت إلى فلسطين كانت على مستوى لا بأس به من القوة والحماس والشجاعة؛ إلا أنها كانت عبارة عن مجرد مساعدات عاجلة أرسلتها أوربا إلى فلسطين، لم تأخذ أي صفة رسمية، بل غلب عليها الطابع الشعبي والديني، ولم تكن هذه المساعدات منظمة كما يجب أو تحمل هدفاً أو خطة واحدة، وإنما كانت متعددة الأهداف والاتجاهات، وغير قادرة على لم شمل الفرنجيين المبعثر منذ حطين. ولكن يمكن القول إن هذه المساعدات العاجلة كانت مقدمة لحملات أوربا المنظمة ذات الصفة الرسمية، حيث وصل في عام ٥٨٧هـ/ ١١٩١م ملكا إنكلترا وفرنسا

---

[١] للمزيد عن هذه الحملة بعد وفاة فردريك وتولي ابنه السوابي لها؛ راجع: مجهول: ذيل تاريخ وليم، عن الموسوعة، ج٨، ص٣٦٢-٣٦٣. ابن العديم: زبدة الحلب، ج٢، ص٥٩١-٥٩٢. حمزة: العلاقات السياسية، ص١٧٠-١٧٨. أبو سعيد: الجبهة الإسلامية: ص١٤١-١٤٦.

[٢] ويندوفر: ورود التاريخ، ج١، عن الموسوعة، ج٤٤، ص ٣٦٢. رنسيمان: تاريخ الحروب، ج٣، ص٦٣. أبو سعيد: الجبهة الإسلامية: ص١٤٠.

[٣] ابن كثير، إسماعيل بن عمر، ت ٧٧٤هـ: البداية والنهاية، تح: علي شيري، ط إحياء التراث العربي، ط١، ١٩٨٨م، ج١٢، ص٤٠٨-٤٠٩. وللاستزادة انظر: ابن الأثير: الكامل، ج١٠، ص ٦٩.

[٤] أبو شامة: عيون الروضتين، ج٤، ص١٥٧-١٥٨. ابن واصل: مفرج الكروب، ج٢، ص٣٣٢-٣٣٣. الذهبي: تاريخ الإسلام، ج٤١، ص٥٨.

كلٌ في حملة مستقلة عن الأخرى تمكنتا من لم شمل الفرنج – ولو لمدة مؤقتة– وشكلتا ضغطاً كبيراً على المدافعين عن عكا، فما كان بوسع حامية عكا سوى الاستسلام لهذه القوات الكبيرة العَدد والعُدد، وهذا ما سيأتي الحديث على تفصيله.

## رابعاً: وقائع وأحداث مهمة بين الطرفين قبل سقوط عكا.

### ١– وقعة الرمل في صفر ٥٨٦هـ/ آذار ١١٩٠م

تكامل وصول الإمدادات لكلا الطرفين في فصل الربيع، وأصبحا يستعدان لخوض معركة فاصلة، وعلى الرغم من الإمدادات التي وصلت لحامية عكا إلا أنها لم تغير كثيراً في سير المعارك، فالفرنج استمروا في المحافظة على مركزهم ونشاطهم وتفوقهم البحري، واستغلوا مرض صلاح الدين وقلة عدد قوّات الحراسة والمراقبة التابعة له حول عكا وخرجوا عصراً في صفر ٥٨٦هـ/ آذار ١١٩٠م إلى قوّات اليزكية، وكانت متموضعة على الرمل في ساحل البحر، واشتد القتال بين الطرفين، وقُتل منهما جمعٌ كبير، واستمروا إلى أن حل الظلام فتوقف القتال وعاد الفرنج إلى خنادقهم.[١]

ولا شك أن ذلك الحادث وما تقدمه من إجراءات فرنجية ألحق الضرر بعكا وتحصيناتها ضايق كثيراً حاميتها التي أرسلت سباحاً إلى صلاح الدين يعلمه بذلك، وكان لذلك تأثير كبير في نفسه، واتخذ قراره بالتقدم من الخَرُوبة باتجاه عكا وعسكر على تل كَيسان في ربيع الأول ٥٨٦هـ/ نيسان ١١٩٠م وبدأ بعملياته العسكرية المتواصلة مع الفرنج لتخفيف الضغط عن أهل عكا[٢].

ويمكن القول إن الذي ساعده على اتخاذ هذا القرار تكامُل قدوم العساكر والنجدات الإسلامية إليه، وليس الموضع هنا للبحث بهذه النجدات والمساعدات التي وصلته فذلك مبحث يطول، ولكن يمكن القول إنه اجتمعت لديه قوة لا بأس بها يأتي على رأسها أخوه العادل قائداً للجيش المصري وعسكر حماة وسنجار والجزيرة والموصل وأربل، ومساعدات من الخليفة العباسي وغيرهم .[٣]

---

[١] ابن الأثير: الكامل، ج١٠، ص ٧٨. ابن واصل: مفرج الكروب، ج٢، ص٣١١-٣١٢. الجهاد الإسلامي: ص١٩٤. قلعجي: ص٣٧٤-٣٧٥.

[٢] ابن الأثير: الكامل، ج١٠، ص ٧٨-٧٩. عاشور: الجهاد الإسلامي: ص١٩٤.

[٣] ابن الأثير: الكامل، ج١٠، ص ٨٠. ابن شداد: النوادر السلطانية، ص١٦٤-١٦٥.

وفي ٢٠ ربيع الأول زحف الفرنج على عكا ونصبوا عليها ثلاثة أبراج من الخشب مبتكرة حديثاً ومصممة ضد النار وضد التأثر بها، بلغ طول البرج ٦٠ ذراعاً، مقسماً لخمسة طوابق مملوءة بالرجال، وكان ذلك يعدُّ تفوقاً كبيراً في الآلة العسكرية للفرنج، وشرع الفرنج في طم خندق عكا وكادوا أن يأخذوها عنوة وقهراً، إلا أن اقتراب الجيش الإسلامي من عكا ومناوشته للفرنج أدى إلى تشتتهم وانقسامهم إلى قسمين، الأول يقاتل هذا الجيش، والآخر يقاتل حامية عكا، وكان من الطبيعي أن يؤدي اقتراب قوات صلاح الدين من عكا إلى ارتفاع معنويات الحامية بها فأخذوا بزمام المبادرة في الهجوم على الفرنج ونجح أحدهم[١] - بعد عدة محاولات مخفقة- في ابتكار طريقة جديدة لحرق الأبراج التي برع الفرنج في ابتكارها وبنائها على عكا على أساس أنها محمية تما ماً من الحرق، وبطريقة مذهلة وغير متوقعة تم إحراق هذه الأبراج في ظهر يوم الإثنين ٢٢ ربيع الأول سنة ٥٨٦هـ، ولم يستطع أحد من رجال الفرنج الذين كانوا في البرج من النجاة واحترق جميعهم، في حين هرب مَن في البرج الثاني والثالث قبل وصول النار إليهم، وكان لذلك الحادث وقع سلبي كبير على الفرنج[٢]، في حين ضج المسلمون "بالتكبير والتهليل"[٣].

## ٢- الوقعة العادلية ٢٠ جمادى الآخر ٥٨٦هـ/ أواخر تموز ١١٩٠م

كان لحادثة حرق الأبراج وقع عظيم في نفوس الفرنج، فأخذوا ينتظرون الفرصة السانحة لهم للانتقام من المسلمين، وما إن شعروا بضعف ميمنة جيشهم بسبب من سار منها شمالاً لمضايقة الحملة الألمانية القادمة باتجاه عكا ولكي يكونوا في مواجهة هذه الحملة ويترقبوا خط سيرها، استغل الفرنج هذا وشنوا هجوماً مفاجئاً وكبيراً على ميمنة القوات الإسلامية في ٢٠ جمادى الثاني ٥٨٦هـ/ أواخر تموز ١١٩٠م وحققوا انتصاراً وتقدماً كبيراً حتى وصلوا إلى خيمة العادل قائد الميمنة بشكل خاطف ودخلوا المخيم وانشغلوا بسلب ونهب الغنائم، فاستغل العادل ذلك وانتظر حتى توغلهم في مخيمه وأمر الجيش

---

[١] هو شاب من أهل دمشق يقال له علي بن عريف النحاسين. ابن واصل: مفرج الكروب، ج٢، ص٣١٦.

[٢] ابن الأثير: الكامل، ج١٠، ص ٧٨-٨٠. ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر: البداية والنهاية، دار الفكر، ١٩٨٦م، ج١٢، ص٣٣٥. ابن أيبك: الدر المطلوب، ص١٠٤. البرغوثي وطوطح، عمر الصالح وخليل: تاريخ فلسطين، مكتبة الثقافة الدينية، مصر، ص١٧٧. وللمزيد راجع عاشور: الجهاد الإسلامي: ص١٩٥-١٩٦. حومد: تاريخ الجهاد، ص ٢، ص١٣٣-١٣٤.

[٣] ابن واصل: مفرج الكروب، ج٢، ص٣١٦. ابن كثير: البداية والنهاية، ١٢، ص٣٣٥.

بالانقضاض عليهم وألحقوا بهم هزيمة كبيرة، وعاد الفرنج هاربين إلى معسكرهم، والمسلمون في أعقابهم يقتلون ويأسرون، ولم تستغرق هذه المعركة سوى ساعات قليلة، وأيضاً تشجعت حامية عكا بهذا النصر وهاجمت خيام الجيش الفرنجي وجرت "مقتلة عظيمة"[١]، وقدّر عدد قتلى الفرنج في هذا اليوم بين ٥-١٠ آلاف قتيل في حين لم يقتل من المسلمين سوى عشرة أشخاص[٢].

يبدو أنه كان لهذه الوقعة دور كبير في تثبيط همم الفرنج وكسر معنوياتهم، فأرسلوا في طلب الصلح من صلاح الدين، وربما كان ذلك للخداع والمماطلة ولكسب الوقت ريثما تصل حملة الملك الفرنسي هنري الثاني التي أصبحت أصداؤها قريبة.[٣]

ويبدو أنه كان لدى صلاح الدين ما يشغله عن متابعة هذا النصر، ولو أنه تابع تقدمه لتمكن من اختراق صفوفهم وتشتيتهم، حيث يذكر ابن واصل "فلو أن السلطان عاودهم القتال فيه مرة بعد أخرى لاستأصلهم وأطفأ جمرتهم"[٤].

## ٣- التطورات الميدانية حول عكا بعد موقعة العادلية ودخول الإمدادات إليها

تقدم الحديث بأنه وصل في شهر جمادى الآخر٥٨٦هـ/١١٩٠م تموز إلى ميدان المعارك حول عكا عدد من كبار النبلاء ورجال الكنيسة الفرنسيين والبرجنديين بقيادة هنري تروي كونت شمبانيا Henry de Troyes, Count de Champagne، ومعه ١٠ آلاف راجل، "ومعه من الأموال والذخائر والميرة والأسلحة والرجال عدد عظيم"[٥]، وعلى الفور حظي هذا الرجل بمكانة خاصة بين الفرنج المحاصرين لعكا، وتولى قيادة عمليات الحصار، وكان لوصوله دور في رفع الروح المعنوية للفرنج المحاصرين لعكا فقوي جانبهم وتصلَّبت شوكتهم به وارتفعت معنوياتهم، وانتقل زمام المبادرة إليهم وأخذوا يستعدون للهجوم على المعسكر الإسلامي، فآثر صلاح الدين ومجلسه الحربي الابتعاد عن خطوط المواجهة معهم إلى الخَروبة وذلك في ٢٧ ربيع الآخر ٥٨٦هـ/ أول آب ١١٩٠م، وكان ذلك من أجل

---

[١] ابن واصل: مفرج الكروب، ج٢، ص٢٢٦-٢٢٧. النويري، أحمد بن عبد الوهاب: نهاية الأرب في فنون الأدب، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، ط١، ١٤٢٣هـ، ج٢٨، ص٤٢٦. عاشور: الجهاد الإسلامي: ص٢٠٠-٢٠١. حومد: تاريخ الجهاد، ج٢، ص١٣٢.

[٢] أبو شامة: عيون الروضتين، ج٤، ص١٤٥. ابن واصل: مفرج الكروب، ج٢، ص٢٢٧.

[٣] أبو شامة: عيون الروضتين، ج٤، ص١٤٦-١٤٧.

[٤] ابن واصل: مفرج الكروب، ج٢، ص٣٢٨.

[٥] ابن شداد: النوادر السلطانية، ص٢٠١.

توسيع الحلقة عليهم ولإجبارهم على الابتعاد عن معسكرهم وخيمهم في حال فكروا بالهجوم على الجيش الإسلامي فتكون الكرة عليهم،[١] بالإضافة إلى نتن المكان والروائح والأمراض الناجمة عن جيف القتلى.[٢]

وعلى أثر وصول الكندهري بدأ الفرنج بمضايقة أهل عكا واجتهدوا في نصب المنجنيقات المتطورة عليها، وتجددت بسالة وشجاعة حامية عكا، وتقدم أفرادها إلى معسكر الفرنج وسيطروا على بعض خيامه، وتمكنوا من احراق منجنيقات الفرنج وقتلوا وأسروا كثيراً منهم.[٣]

وفي هذه الأثناء تمكن صاحب بيروت – بتوجيه من صلاح الدين– من إدخال بطسة كبيرة بزي الفرنج تحمل كثيراً من المؤونة والزاد إلى أهل عكا ونجح بذلك، وفي ١٤ شعبان ٥٨٦هـ/ تمكنت ثلاث بطس قادمة من الإسكندرية من الدخول إلى عكا وإنزال المؤونة والزاد ومستلزمات الحصار لها، تم ذلك بعد أن اشتبكت هذه البطس مع أسطول الفرنج في قتال شديد وبالوقت نفسه ضغط عليهم صلاح الدين وشاغلهم من جهة البر ريثما حطت هذه البطس الثلاث في الميناء، فسعد بها أهل عكا واستبشروا خيراً وقويت شوكتهم، واستعادوا همتهم في القتال[٤]، إلا أن هذه المواد والإمدادات التي وصلتهم لم تكن تغني كثيراً مقارنة مع كثرة الإمدادات التي وصلت للفرنج حول عكا.

وفي ٦ رمضان ٥٨٦هـ/ تشرين الأول ١١٩٠م وصل إلى عكا فردريك السوابي – سالف الذكر– وعلى الفور بدأ بأعمال القتال ضد المسلمين وخرج إلى يزكية صلاح الدين وقاتلهم إلا أنه كانت الدائرة عليه وعلى جنوده وقتل وجرح منهم الكثير وعادوا إلى المعسكر الفرنجي، وبه كان لهم دور كبير في استحداث آلات عظيمة ذات تأثير فعال في الحصار وهدم الأسوار (دبابة– سّفّودا– الكبش..)، وشاركت هذه الآلات عملياً في حصار عكا، وضايقوا حاميتها، فهاجمتهم الحامية وحققت نصراً عظيماً

---

[١] ابن شداد: النوادر السلطانية، ص٢٠١. أبو شامة: عيون الروضتين، ج٤، ص١٤٨. عاشور: الجهاد الإسلامي: ٢٠٣.

[٢] ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، ج٥، ص٣٧٥.

[٣] ابن شداد: النوادر السلطانية، ص٢٠٥. النويري: نهاية الأرب، ٢٨، ص ٤٢٧.

[٤] ابن شداد: النوادر السلطانية، ص٢٠٩-٢١٠. أبو شامة: عيون الروضتين، ج٤، ص١٥٣-١٥٥. ابن واصل: مفرج الكروب، ج٢، ص٣٣١-٣٣٢. ابن العديم: زبدة الحلب، ج٢، ص٥٩٤-٥٩٥. تاريخ ابن خلدون، ج٥، ص٣٧٣.

عليهم وأحرقت وحطمت أغلب آلات حصارهم.[١]

واستمر الفرنج في نشاطهم ووصلتهم إمدادات جديدة وتكاثر جمعهم، وفي ١١ شوال/ تشرين الثاني خرجوا من خنادقهم ومعسكرهم بأعداد كبيرة للهجوم على معسكر المسلمين، واستشعر صلاح الدين بخطرهم فأمر معسكره بالرحيل من الخروبة إلى قيمون (شفرعم) على بعد ثلاثة فراسخ من عكا، وتزامن ذلك مع عودة الكتائب التي أرسلها صلاح الدين إلى الشمال لمضايقة الحملة الألمانية وتأمين المنطقة، وعبّأ صلاح الدين جيشه تعبئة القتال واستعد لذلك، واشتبكت طلائع الجيش مع الفرنج، هنا شعر الفرنج بخطورة موقفهم وتسرُّع خطوتهم هذه، فقرروا العودة إلى معسكرهم دون الاشتباك في معركة فاصلة مع المسلمين، واستغل ذلك الجيش الإسلامي ونصب لهم كميناً محكماً في ٢٣ شوال أوقعوا به ٤٠٠ فارس من الفرنج وأسروهم جميعاً وجيء بهم إلى صلاح الدين فأطعمهم وكساهم ونقلهم إلى دمشق.[٢]

## ٤- تبديل حامية عكا:

لقد ساءت أحوال المعسكر الفرنجي بعد الضربة التي تلقاها في شهر شوال/ تشرين الثاني وبسبب قدوم الشتاء وعدم وصول سفن الامداد إليه،[٣] وأكثر من ذلك ساءت أحوال حامية عكا التي بدأت ترسل لصلاح الدين بالشكوى والضجر "من طول المقام بها ومعاناة التعب والسهر وملازمة القتال ليلاً ونهاراً"[٤]، وزاد وضعها سوءً عند اخفاق محاولة صلاح الدين في ٢ ذي الحجة ٥٨٦هـ ادخال سبع بطس لعكا، وذلك بسبب هيجان البحر وتحطمها على الصخر، وكانت هذه البطس محملة بالكثير من الذخائر والمؤن والمعدات التي تكفي عكا مدة سنة كاملة[٥]، واستمرت محاولات صلاح الدين لإدخال المؤونة والمساعدات لها، واستغل هيجان البحر وانشغال شواني الفرنج به لتبديل حامية عكا وكلف أخاه العادل أن يشرف على ذلك فانتقل بعسكره إلى شاطئ البحر عند حيفا وهو الموضع الذي تحمل منه

---

[١] ابن واصل: مفرج الكروب، ج٢، ص٣٣٠. النويري: نهاية الأرب، ٢٨، ص ٤٢٨-٤٢٩.

[٢] ابن واصل: مفرج الكروب، ج٢، ص٣٤٤. ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، ج٥، ص٣٧٥-٣٧٦. قلعجي: ص٣٧٧.

[٣] ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، ج٥، ص٣٧٦.

[٤] ابن شداد: النوادر السلطانية، ص٢٣١. أبو شامة: عيون الروضتين، ج٤، ص٢٣٢. عاشور: الحركة الصليبية، ج٢، ص١٢٩.

[٥] ابن شداد: النوادر السلطانية، ص٢٣١-٢٣٢. أبو شامة: عيون الروضتين، ج٤، ص٢٣٢-٢٣٣.

السفن فتدخل إلى عكا أو العكس، وأخذ العادل يحث الناس على الدخول إلى عكا لحمايتها وذلك في ١٦ محرم ٥٨٧هـ/ منتصف شباط ١١٩١م.

كان على رأس الذين دخلوا وعُين مقدماً على جند عكا الأمير سيف الدين علي بن المشطوب، وعلى رأس الذين خرجوا منها مقدمها الأمير حسام الدين أبو الهيجاء، بالإضافة إلى عدد من الأمراء والأعيان في كلا الجانبين – الداخل والخارج–، ويمكن القول إنه خرج منها حوالي ٦٠ أميراً في حين لم يدخلها سوى ٢٠ أميراً[١]، وكان الذين دخلوها شبه مكرهين على ذلك، حيث يذكر أبو شامة "فإن كل مَن عُيِّن للدخول كَرِهَهُ وصار يتوسل في أن يُعفى ويبذل في نفسه الفِداء"[٢]، واستمروا على هذا الحال والتباطؤ إلى أن انحسر الشتاء وعادت مراكب الفرنج إلى سواحل عكا وأحكمت عليها الحصار قبل أن يكتمل ادخال الرجال والأموال والإمداد إليها[٣]، لذا لم تنجح عملية التبديل هذه تماماً ولم تكتمل بشكل نهائي **للأسباب الآتية:**

١- الظروف الصعبة التي تمت بها عملية التبديل هذه – وقد سلف شرحها.

٢- تواني صلاح الذين وإسناد المهمة إلى نوابه الذين وثق بهم، فأهملوها ولم يجندوا الرجال ولم يرسلوهم إلى عكا كما يجب.

٣- الدور السلبي الذي اتُّهم به بعض المسيحيين الذين كانوا على خزانة المال، حيث إنهم عملوا على عرقلة تطوع المجاهدين الذين يريدون الالتحاق بالجيش الإسلامي فكانوا "إذا جاءهم جماعة قد جُنِّدوا تَعَنَّتُوهم[٤] بأنواع شتى، تارةً بإقامة مَعرِفةٍ وتارةً بغير ذلك، فتفرَّق بهذا السبب خلق كثير"[٥].

٤- الانقسام داخل حاشية صلاح الدين حول عملية التبديل، حيث أشار عليه جماعة منهم بألا يوافق على عملية تبديل حامية عكا لأنهم جربوا وتدربوا وعرفوا طُرق قتال الفرنج، وأشاروا عليه

---

[١] ابن الأثير: الكامل، ج١٠، ص٨٧. عاشور: الحركة الصليبية، ج٢، ص١٢٩. قلعجي: ص٣٨١-٣٨٢.

[٢] أبو شامة: عيون الروضتين، ج٤، ص٢٣٤-٢٣٥.

[٣] أبو شامة: عيون الروضتين، ج٤، ص٢٣٤.

[٤] تعنتوهم: بمعنى أثقلوا كاهلهم.

[٥] ابن الأثير: الكامل، ج١٠، ص٨٧.

أن يستعيض عن ذلك بإرسال النفقات الواسعة والذخائر والأدوات الكثيرة للحامية ويأمرهم بالبقاء فيها، إلا أن صلاح الدين أصر على عملية التبديل.[١]

يرى بعض المؤرخين أن هذه العملية (عملية التبديل) كانت خطأً فادحاً ارتكبه صلاح الدين، وأثّرت سلباً على المقاومة في عكا وأضعفتها، ومن ثم أدت إلى سقوطها بيد الفرنج بعد برهة من الزمن.

ويمكن القول إن الأنفس المدبرة التي دخلت مكرهة إلى عكا لم تنفع المقاومة ؛ بل على العكس أَضرّت بها كثيراً، وذلك لِما أثَّرت به نفسياً في مَن بقي في عكا مثابراً على القتال أو على من دخل وهو مصراً عليه، فأصبحت الأنفس كلها مدبرة تشعر بالإكراه والخوف من المُقام في عكا، وهذه حالة طبيعية، فمَن يرافق شخصاً – سواءً في حرب أم في غير ذلك– يشعر بالطمأنينة والأمان لا بدّ أن يأخذ منه شيئاً من ذلك، ومَن يرافق العكس أي شخص يشعر بالخوف والتردد والادبار لا بدَّ أنه يأخذ منه شيئاً من ذلك، وكان هذا حال حامية عكا بعد عملية التبديل.

ربما كان باستطاعة الفرنج الاستيلاء على عكا في تلك المرحلة بسهولة لولا أنهم كانوا منقسمين ومختلفين، بالإضافة إلى ما كان يعانيه معسكرهم من ظروف صعبة ونقص حاد في المواد والحاجيات، وهنا لا بدَّ من الانتقال للحديث عن هذه المجاعة والظروف الصعبة التي لحقت بالمعسكر الفرنجي حول عكا في شتاء ٥٨٦هـ/ ١١٩٠م.

## خامساً: المجاعة والمصاعب التي لحقت بالفرنج حول عكا في شتاء ٥٨٦هـ/ ١١٩٠م

ازدادت أوضاع المعسكر الفرنجي سوءاً خلال شتاء سنة ٥٨٦هـ/ ١١٩٠م بسبب الخلافات التي تجددت بين الملك الفرنجي غي دي لوزجنان Guy De Lusignan والماركيز كونراد دي مونتفرات Conrand Montferrat على عرش المملكة، وكان ذلك عقب وفاة الملكة سيبلا في معسكر الفرنج أمام أسوار عكا، حيث فقد غي بذلك حقه في المُلك وأصبح العرش محل صراع بينهما، وازداد الخلاف والشقاق بين الفرنج على أثر طلاق إيزابيل وريثة المُلك من زوجها همفري، وزواجها من كونراد – سيأتي الحديث على ذلك– تزامن ذلك مع وفاة قائد بقايا الحملة الألمانية فردريك دي سوابيا مع

[١] ابن الأثير: الكامل، ج١٠، ص٨٧.

أعداد كبيرة من رجاله، وغيره من النبلاء بسبب شدة الجوع والبرد الذي ترافق مع الغلاء وارتفاع الأسعار وفقدان المواد الغذائية[١].

واستفحلت المجاعة في صفوف الفرنج المحاصرين لعكا بسبب هبوب العواصف وعدم استقرار الأمواج البحرية مما أوقف حركة السفن وأخّر وصول الزاد والمؤن والمواد الغذائية إليهم.[٢] وساهم كونراد في منع وصول سفن الأقوات والأمداد للفرنج حول عكا من خلال احتجازه للسفن في صور ومنعها عن الوصول إلى عكا، ولا شك أن سياسة كونراد هذه أتت وفقاً لمخططه في إضعاف مركز غي والضغط عليه لتلبية مصالحه وحاجاته في عكا، وساهم في تصاعد الأزمة والمجاعة سياسة تجار المدن الإيطالية في احتكار السلع والمواد الغذائية.[٣]

كل ذلك أدى إلى ازدياد حالة الفرنج سوءاً وتفاقم المجاعة لدرجة أنهم أكلوا الأعشاب ولحوم الخيول والميتة، وبالطبع أدى ذلك إلى وقوعهم بالأمراض الكثيرة ووفاة أعداد كبيرة منهم، وجميع هذه المشاكل والمصاعب انعكست سلباً على العلاقة فيما بينهم وتقاذفوا التهم، وأخذ كل فريق يلقي بلائمة ما وصلوا إليه من إخفاق على الآخر، ولا شك أن الشكوى بدأت من الطبقة الفقيرة التي كادت تسحق خلال هذه المجاعة وعلى رأسهم الجنود الذين بدأوا يصرحون بالشكوى وتوجيه النقد للسادة وكبار القادة، وتصاعد الخلاف بين الجنود والسيرجاندية من جهة والفرسان من جهة أخرى، واعتقد الطرف الأول بأنه لا حاجة للفرسان ولا قيمة لهم في المعركة مع المسلمين[٤].

ذلك يشير بشكل أو بآخر إلى أن طبقة الفرسان كانت تنعم بالأقوات والمواد على حساب طبقة الجنود والسيرجاندية التي كادت أن تُسحق في هذه المجاعة، لهذا تصاعد الخلاف والتنافس بين الطبقتين، واستغل صلاح الدين هذا الوضع أفضل استغلال واستفرد بالجنود والسيرجاندية وألحق بهم هزيمة نكراء لدرجة أن قتلاهم "كانوا من الكثرة بمكان أن النهر فاض عدة أيام بدماء القتلى وجثثهم"[٥]، كانت هذه الهزيمة التي ألحقها بهم صلاح الدين في الوقت الذي كانوا يعانون به من المصاعب والمتاعب ذات تأثير

---

[١] مجهول: ذيل تاريخ وليم، عن الموسوعة، ج٨، ص٣٦٩. ويندوفر: ورود التاريخ، ج١، عن الموسوعة، ج٤٤، ص٣٦٧-٣٦٨، ٣٧١.

[٢] ويندوفر: ورود التاريخ، ج١، عن الموسوعة، ج٤٤، ص ٣٦٥-٣٦٦. سلامة: عكا، ص٦٧.

[٣] زابوروف: الصليبيون: ص٢٠٩-٢١٠. سلامة: عكا، ص٦٧.

[٤] مجهول: ذيل تاريخ وليم، عن الموسوعة، ج٨، ص٣٧٠.

[٥] مجهول: ذيل تاريخ وليم، عن الموسوعة، ج٨، ص٣٧١.

كبير في الفرنج، فساءت أحوالهم كثيراً حيث إن صاحب ذيل تاريخ وليم يلخص الحال بقوله: "إن الضيق في معسكر المسيحيين كان في ذلك العام شديداً فوق حد الوصف"[١].

واستمر وضعهم على هذا الحال إلى نهاية فصل الشتاء حيث هدأت العواصف وساد الهدوء مياه البحار، ومن جديد بدأت تصلهم السفن المحملة بالمواد الغذائية والمعونات والإمدادات، وأهم من ذلك أنه بدأت تصل أنباء تخطر بقدوم ملكي فرنسا وإنكلترا.[٢]

## سادساً: وصول ملكي فرنسا وإنكلترا إلى المعسكر الفرنجي حول عكا وتغيُّر مجرى المعارك حولها.

مع انتهاء الشتاء وقسوته وقدوم فصل الربيع وهدوء أمواج البحر بدأت تتوافد الإمدادات والمساعدات العسكرية والمراكب القادمة من الغرب الأوربي إلى عكا، وكان أعظم من وصل إلى قبالة عكا آنذاك ملك فرنسا فيليب أوغسطس في ١٢ ربيع الأول ٥٨٧هـ/ ٢٠ نيسان ١١٩١م، وأدى وصوله إلى ارتفاع الروح المعنوية لدى الفرنج وتغير موازين القوى بين المعسكرين، ففيليب كان أكبر ملك ينظم للمعسكر الفرنجي حول عكا، إضافة لِما معه من قوة كبيرة شكلت دعماً قوياً للفرنج الذين أظهروا الفرح والسرور لقدومه، في حين ارتاب المسلمون وبدأوا يعدون العدة لمرحلة جديدة لا شك أنها أصعب من ذي قبل، وتزامن ذلك مع سوء موقف المسلمين أمام عكا وداخلها وضجر العساكر من كثرة القتال.[٣]

وعلى الفور بدأ فيليب أوغسطس أعماله القتالية ضد عكا دون أن ينتظر وصول شريكه ملك إنكلترا، وتم نصب سبعة مجانيق حول عكا وزحف الفرنج عليها في يوم الخميس ٤ جمادى الأولى ٥٨٧هـ/ حزيران ١١٩١م وضايقوها أشد مضايقة، وعملوا على ردم الخندق حولها، ولم يجدوا شيئاً لردمه سوى ما يموت منهم ومن دوابهم، وبرعوا في صنع الدبابات والكباش والأبرجة، إلا أن مقاومة حامية عكا كانت أشد من ذلك، حيث إنها تمكنت من حرق أدواتهم وآلاتهم، ويبرر صاحب ذيل تاريخ وليم بأن فيليب كان بإمكانه دخول عكا واحتلالها آنذاك إلا أنه آثر انتظار وصول ملك إنكلترا ريتشارد ليشاطره الفرح في الاستيلاء عليها، إلا أنه ينافي كلامه في السياق نفسه عندما يتحدث عن استعدادات وجهود فيليب الحثيثة لدخول عكا فيقول: "لكن تصدى لهم المسلمون بكل قوة ومنعوهم من الدخول"، كما

---

[١] عن الموسوعة، ج٨، ص٣٧١.

[٢] ابن واصل: مفرج الكروب، ج٢، ص٣٢٨. سلامة: عكا: ص٦٨.

[٣] أبو شامة: عيون الروضتين، ج٤، ص٢٤٢-٢٤٣. عاشور: الحركة الصليبية، ج٢، ص١٣١.

يتحدث عن عدد من قتلى الفرنج آنذاك.[١] ونظرة بسيطة للعلاقة بين الملكين قبل القدوم إلى عكا وبعد سقوطها بيدهم تظهر زيف ادعاء صاحب ذيل تاريخ وليم بأن فيليب آثر انتظار ملك إنكلترا ليشاطره الفرح، فدون شك أن كل منهما (ملكي إنكلترا وفرنسا) كانت لديه الرغبة الجامحة في استبعاد الطرف الآخر والاستئثار بشرف احتلال عكا.

ويمكن القول إنه استمرت الهجمة الشرسة على عكا والمقاومة الضارية من قبل حاميتها إلى أن وصل ملك إنكلترا ريتشارد قلب الأسدRichard the Lionheart .

وعمل صلاح الدين جاهداً على تخفيف الضغط عن عكا فتقدم من منطقة شفا عمرو (شفرعم) إلى مقربة منهم وناوشهم واشتبك معهم، وأمر صاحب بيروت بتجهيز ما عنده من المراكب والشواني إلى مرسى عكا – أيضاً لمشاغلة الفرنج وتخفيف الضغط عن عكا- وحقق صاحب بيروت الأمير أسامة نجاحاً في ذلك، وتمكنت مراكبه من الاستيلاء على خمسة مراكب كان قد أرسلها ريتشارد ملك إنكلترا ووصلت قبله إلى عكا، وكانت محملة بكثير من المال والأقوات والقوات والمتاع، فغنمها المسلمون بكاملها[٢]، إلا أن ذلك لم يغير شيئاً من وضع عكا؛ إذ استمر الفرنج في إحكام حصارهم عليها ومضايقتها، ووصلتهم في هذه الظروف إلى شواطئ عكا في ١٣ جمادى الأولى ٥٨٧هـ/ حزيران ١١٩١م خمس وعشرون سفينة، وكان على رأسها الملك الإنكليزي ريتشارد قلب الأسد Richard the Lionheart، وكان سبب تأخر وصول ريتشارد هذه المدة هو مروره على قبرص وإخضاعه لها، وفرض سيطرة الفرنج عليها، وبذلك قدَّم خدمة جلية للفرنج بشكل عام ولمملكة عكا التي كانت في المخاض بشكل خاص، وقد تقدم الحديث عن ذلك. وليس الحديث هنا للتفصيل عن حملة ريتشارد وأسباب تأخر وصولها فذلك مبحث يطول، وما يهم البحث هو شخصية ريتشارد حيث وصفه ابن الأثير بأنه "رجل زمانه شجاعةً ومكراً، وجلداً وصبراً، وبلي المسلمون منه بالداهية التي لا مثيل لها"[٣]، وقد سُرَّ الفرنج لوصوله واستُقبل استقبالاً حافلاً من قبل قادتهم بمن فيهم الملك فيليب الذي خفَّ إلى الشاطئ لاستقباله عند نزوله.[٤] وكان غي قد ذهب إلى قبرص لاستقبال ريتشارد، فمثَّل ذلك انقسام المعسكر الصليبي إلى فرنسي فيه كونراد، وانكليزي فيه غي.

---

[١] مجهول: ذيل تاريخ وليم، عن الموسوعة، ج٨، ص٣٧٧-٣٧٩.للاستزادة أنظر: النويري: نهاية الأرب، ج٢٨، ص ٤٣٠-٤٣١.

[٢]ابن الأثير: الكامل، ج١٠، ص٩٤.ابن شداد: النوادر السلطانية، ص٢٣٩. تاريخ ابن خلدون، ج٥، ص٣٧٧.

[٣] ابن الأثير: الكامل، ج١٠، ص٩٥.

[٤] مجهول: ذيل تاريخ وليم، عن الموسوعة، ج٨، ص٣٩٣. أمبرويز: رحلة ريتشارد، عن الموسوعة، ج٣١، ص٧٢.

كان صلاح الدين قد وصلته أخبار ريتشارد ووصوله إلى المنطقة فأمر حاكم بيروت بتجهيز سفينة كبيرة تحمل الإمدادات والأسلحة والآلات إلى عكا، وفيها من الرجال المقاتلين حوالي ٦٥٠ رجلاً إلا أن سفن ريتشارد اعترضتها في البحر قبل أن تصل عكا واشتبكت هذه السفينة بمفردها مع أربعين سفينة من سفن ريتشارد فأغرقت إحداها وقتلت عدداً من الفرنج، وأبرَزَ من عليها مقاومة وشجاعة عنيدة باعتراف المصادر اللاتينية ومنهم أمبرويز، واستمروا في مقاومتهم إلى أن يئسوا من الخلاص من الفرنج ففضلوا إغراق السفينة والاستشهاد جميعهم غرقاً على أن يقعوا أسرى بيد الفرنج فيغتنموا السفينة وما بها من متاع، وبذلك خسرت عكا أشد ما كانت بحاجة إليه، حيث يقول صاحب رحلة ريتشارد "ولو أن هذه السفينة وصلت سالمة أثناء حصار عكا لما تمكن المسيحيون مطلقاً من الاستيلاء على المدينة"[١].

وساءت أحوال عكا أكثر من ذي قبل، إلا أن حاميتها استمرت في أعمالها البطولية في حين استبشر الفرنج بذلك وسرَ ريتشارد لإغراق السفينة الإسلامية، ووصل إلى المعسكر الفرنجي حول عكا في جمادى الأولى ٥٨٧هـ/ ٨ حزيران ١١٩١م وبصحبته خمس وعشرون سفينة.[٢]

وعلى الرغم من تفوق المعسكر الفرنجي على حامية عكا منذ البداية بما يملكه من الآلات والمعدات إلا أن وصول ريتشارد بعث في هذا المعسكر روحاً جديدة وعادت الثقة والآمال الكبيرة للجنود المحاصرين لعكا، وتجاهل ريتشارد الصراع والعداوة التي بينه وبين الملك الفرنسي، وتم توحيد الصفوف وبدأوا من جديد بتضييق الحصار على عكا، ولم تتوقف مقالعهم عن قذفها بالحجارة، وكان لهذه المقالع تأثيرها السيء في عكا وأسوارها ومَن بداخلها[٣].

وعلى الرغم من قدوم الملك الفرنسي ومشاركته في حصار عكا والهيبة والوقار التي حازها بالإضافة إلى وجود عدد من القادة والأمراء الفرنج داخل المعسكر الفرنجي قبل وصول فيليب وريتشارد ؛ إلا أنه يمكن القول إن ريتشارد كان هو القائد العسكري والسياسي الذي كان يفتقده معسكرهم وهو رجل الساعة الذي كانوا بحاجة إليه، حيث شحذ الهمم وأعاد الثقة إلى الجنود الفرنج وبدأ يحثهم على بذل

---

[١] أمبرويز: رحلة ريتشارد، عن الموسوعة، ج٣١، ص٦٨-٧١. للاستزادة أنظر: ابن واصل: مفرج الكروب، ج٢، ص٣٥١. رنسيمان: تاريخ الحروب، ج٣، ص٩٥-٩٦. عاشور: الجهاد الإسلامي: ص٢١٥. ويندوفر: ورود التاريخ، ج١، عن الموسوعة، ج٤٤، ص٣٧١-٣٧٢. كذلك انظر: أمبرويز في كتابه صليبية ريتشارد، تر: سهيل زكار، عن الموسوعة الشاملة، ج٣٢، ص٤٨-١٦٦. حيث قدم وصفاً دقيقاً لعتاد وحمولة هذه السفينة، والمقاومة العظيمة التي أبدتها.

[٢] أمبرويز: رحلة ريتشارد، عن الموسوعة، ج٣١، ص٧٢. ويندوفر: ورود التاريخ، ج١، عن الموسوعة، ج٤٤، ص٣٧٢.

[٣] تواريخ أسرة بلانتغنت، عن الموسوعة، ج٣٠، ص٢٤٠. رنسيمان: تاريخ الحروب، ج٣، ص٩٧.

قصارى جهدهم لتحقيق هدفهم وهو احتلال عكا، وإضافة إلى ذلك فإنه بدأ فوراً بنشاط سياسي لم يقدم عليه أحد ممن سبقوه إلى عكا، وأرسل إلى صلاح الدين طالباً الاجتماع به على أمل التوصل معه لتسوية سلمية تحقق لهم أهدافهم وأهمها إعادة احتلال القدس، وبين تردد صلاح الدين ومكر ريتشارد وقع ملكا إنكلترا وفرنسا (ريتشارد وفيليب) في المرض، وكان مرضاً شديداً على الأول، مما أوقف المراسلات دون أن تقف أعمال الحصار والمناوشات لعكا.[١]

وظهرت براعة ريتشارد بشكل أكبر أثناء مرضه، وذلك عندما عمد إلى "تفتير العزمات وتضيع الوقت على المسلمين"[٢]، حيث بدأ يراسل صلاح الدين من جديد وبلهجة أقل حدة طالباً منه فاكهة وثلجاً ودجاجاً لحاجته لهم أثناء مرضه؛ فلبى صلاح الدين طلبه دون أن تنطلي عليه الحيلة، ولم يستطع المسلمون استغلال الموقف لسوء أوضاع عكا مع استمرار المناوشات بين الطرفين.

وعلى الرغم من الجهود التي بذلها ريتشارد لتوحيد صفوف الفرنج إلا أنه يمكن القول إن الصراع على وراثة العرش قد استمر بين كونراد سيد صور والملك العتيق غي، ويمكن القول إنه مع وصول ريتشارد تأجج الصراع أكثر من ذي قبل كما سيأتي الحديث عليه، وبالجملة يمكن القول: إنه مع تفوق المعسكر الفرنجي إلا أنه لم يكن أحسن حالاً من المعسكر الإسلامي وحال حامية عكا التي بدأت أيضاً تبدر منها بوادر الضعف والاستسلام بعد أن أنهكها الحصار وكُثرة القتال.

## سابعاً: استسلام عكا ودخول الفرنج إليها

### يوم الجمعة ١٧جمادى الآخر ٥٨٧هـ/ ١٢ تموز ١١٩١م

كَثُر زحف دبابات وكباش الفرنج على عكا ورمي المنجنيقات لها، واشتدت مضايقتها، وأُحكم حصارها، وردم الفرنج الخندق المحيط بها، وتمكنوا من نقب سورها وحشوه وأحرقوه،[٣] ولم تفلح كل

---

[١] أمبرويز: رحلة ريتشارد، عن الموسوعة، ج٣١، ص٧٤. رنسيمان: تاريخ الحروب، ج٣، ص٩٧.

[٢] ابن واصل: مفرج الكروب، ج٢، ص٣٥٨.

[٣] للمزيد عن ذلك انظر: أمبرويز: رحلة ريتشارد، عن الموسوعة، ج٣١، ص٧٨-٨٥. حيث يستفيض في الحديث عن محاولات الفرنج الأخيرة العديدة وجهودهم الحثيثة لدخول عكا، وعن استنزاف أهل عكا لكل قواهم في سبيل منعهم وحماية مدينتهم من السقوط بيد الفرنج، وما دار أثناء ذلك من معارك شرسة ومناوشات عابرة بين الطرفين. ولم يستطع صاحب رحلة ريتشارد أن يخفي احترامه واستغرابه من هذه الشجاعة والبسالة في المقاومة التي أبداها أهل عكا، ومما ذكره عنهم: "لم يكن هناك مقاتلين أشجع منهم بين أي جنس على الأرض، وتثير ذكريات أعمالهم على الفور في نفوسنا الاحترام والإعجاب". ص٨٤.

الهجمات التي شنها الجيش الإسلامي على المعسكر الفرنجي لانقاد عكا، كما أخفقت المحاولات العديدة لشق الطريق إليها أو تخفيف الضغط عنها. وعظُم استبسال حاميتها في الدفاع عنها، وسَطروا بطولات لا مثيل لها شهد لها التاريخ، ودمروا كثيراً من آلات الفرنج ومعداتهم على الرغم من قلة عددهم مقابل عدد الفرنج المتناوبين على حصارهم، وفي النهاية وصلوا بعد بطولات عديدة وتضحيات نادرة إلى مرحلة من التعب واليأس أرسلوا فيها إلى صلاح الدين في ٧ جمادى الآخرة/ ٢ تموز يقولون: "إنا قد بلغ منا العجز إلى غاية ما بعدها إلا التسليم، ونحن في الغد إن لم تعملوا معنا شيئاً نطلب الأمان ونسلم البلد ونشتري مجرد رقابنا"[١]. وقد صُدم صلاح الدين لسماعه مثل هذه الرسالة ولتيقنه ما وصل إليه رجال حامية عكا من التعب واليأس، ولم يكن بوسعه سوى الرد عليهم بالوعود البراقة والعمل جاهداً على تقديم المساعدة العاجلة، إلا أنه في الحقيقة كان من الصعب عليه اثارة الجيش وشحذ هممه بهذه السهولة والسرعة، وأخفق هجومه عليهم في ١٠ جمادى الآخر / ٥ تموز ١١٩١م.[٢]

في الحقيقة إن حامية عكا لم تنتظر رد صلاح الدين على رسالتها واتخذت قراراً بوقف القتال وخرج سيف الدين علي المشطوب – قائد حامية عكا– بنفسه للقاء الملك الفرنسي فيليب والاتفاق معه على شروط التسليم، واشترط المشطوب عليه الأمان واطلاق سراح مَن بعكا مقابل التسليم[٣]، إلا أن فيليب أغسطس تشدد أمام عروض المشطوب ولم يرض بما قدمه له من تنازلات، وكان من جملة رده على المشطوب قوله: "أنتم أيضاً مماليكي وعبيدي فأرى فيكم رأيي"، فكان رد المشطوب بالتهديد بالقتال حتى النهاية وعدم التسليم، وعاد إلى عكا وأخذ يستحث الناس على الجهاد ويشحذ هممهم.[٤] وبشكل أو بآخر فإن ذلك يدل على تفوق مركز الفرنج وقوة جانبهم. ولا بدّ أن أنباء تشدد فيليب في شروطه مع المشطوب تسربت إلى أهل عكا، ودون أن تتسرب هذه الأنباء فإن عودة المشطوب إلى عكا واعلانه استئناف القتال والجهاد حتى الشهادة فيه دلالة واضحة على اخفاق المفاوضات وتعنت الطرف الفرنجي وتفوقه.

هنا دخل الوهن والضعف إلى قلوب أهل عكا وحاميتها، وظهر التخاذل واضحاً فيها بهرب جماعة

---

[١] ابن شداد:النوادر السلطانية،ص٢٥٢. أبوشامة: عيون الروضتين، ج٤،ص٢٥٥.ابن واصل: مفرج الكروب، ج٢، ص٣٥٦.

[٢] سبط ابن الجوزي، يوسف بن قِزأوغلي: مرآة الزمان في تواريخ الأعيان، مؤسسة الرسالة، ط١، ٢٠١٣م، ج٢١، ص٣٨٥. رنسيمان: تاريخ الحروب، ج٣، ص١٠٠.

[٣] أبو شامة: عيون الروضتين، ج٤، ص٢٥٦. ابن الأثير: الكامل، ج١٠، ص٩٥. صلاح الدين وجهوده: ص٦٠٨.

[٤] ابن شداد: النوادر السلطانية، ٢٥٤. كذلك انظر: قلعجي: ص٣٩٤.

من المقاتلين منها وعلى رأسهم ثلاثة من الأمراء[١]، إذ إنهم ما إن سمعوا بهذه الأخبار حتى ركبوا شيناً صغيراً وهربوا ليلاً من عكا، وكان من الطبيعي أن يكون لهم تأثير سلبي كبير في نفوس حامية عكا في مثل تلك الظروف الحرجة، وعلى الرغم من ذلك فإن أهل عكا جددوا شجاعتهم وتبايعوا على القتال حتى الموت، وأرسلوا إلى صلاح الدين يعلمونه بذلك، ووصلته كتبهم في يوم الأحد ١٢ جمادى الآخر فكان لذلك وقع جيد في المعسكر الإسلامي.[٢]

وصلت أيضاً صلاح الدين كتب من الفرنج تطالبه بتسليم عكا، فقبل بذلك مقابل شروط اشترطها عليهم منها اطلاق سراح أهل عكا جميعهم مقابل أن يسلمهم صليب الصلبوت الذي استولى عليه في حطين، وأن يطلق سراح خمسمئة أسير من أسراهم إلا أن الفرنج لم يقبلوا بذلك.[٣]

وضح هنا بما لا يقبل الشك أن حامية عكا وأهلها أصبحوا شبه أسرى بيد الفرنج، ولم تَعد الأولوية لإنقاذ عكا وصمودها بوجه الفرنج؛ بل أصبح التفكير منصباً على كيفية إخراج حاميتها وأهلها بسلام. ولما أخفقت المفاوضات مع الجانب الفرنجي وضع صلاح الدين خطة لإنقاذهم من أن يقعوا في الأسر تقضي بأن يخرج جميع من بعكا دفعة واحدة وأن يسيروا بمحاذاة البحر ويحملوا على الفرنج حملة واحدة، وفي المقابل يتقدم جيش صلاح الدين إلى تلك الجهة ويضغطوا على الفرنج ويقاتلوهم إلى أن يفتح بذلك طريق لخروجهم، وقد حُددت ليلة الجمعة العاشر من جمادى الآخر لتنفيذ الاتفاق، إلا أن أهل عكا انشغلوا بما حذرهم منه صلاح الدين وهو استصحاب أملاكهم ونفائسهم، ومضت الليلة المتفق عليها دون تنفيذ هذه الخطة، وأخفقت محاولة صلاح الدين لإنقاذهم.[٤]

وفي الصباح ضغط الفرنج على عكا وأرسل من بها إلى صلاح الدين الإشارات الدالة على شدة الضيق والخطر الملح عليهم، فحمل الجيش الإسلامي على جيش الفرنج من جميع الجهات لإشغال الفرنج وتخفيف الضغط، إلا أن الفرنج أدركوا تلك الغاية وضاعفوا جهودهم للاستيلاء على عكا، وقد أدركت حامية عكا وعلى رأسها سيف الدين المشطوب أن صلاح الدين وجيشه غير قادرين على نفعهم بشيء،

---

[١] هؤلاء الأمراء هم: عز الدين أرسل الأسدي وحسام الدين تمرتاش بن عز الدين جاولي، وسنقر الوشاقي الأسدي. للمزيد راجع: ابن الأثير: الكامل، ج١٠، ص٩٥-٩٦. ابن شداد: النوادر السلطانية، ص٢٥٤.

[٢] ابن شداد: النوادر السلطانية، ص٢٥٦. ابن واصل: مفرج الكروب، ج٢، ص٣٥٩.

[٣] ابن الأثير: الكامل، ج١٠، ص ٩٦. حومد: تاريخ الجهاد، ج٢، ص ١٣٩.

[٤] ابن الأثير: الكامل، ج١٠، ص٩٦. ابن واصل: مفرج الكروب، ج٢، ص٣٥٨. حومد: تاريخ الجهاد، ج٢، ص١٣٩.

فخرج إلى الفرنج وقرر معهم تسليم عكا وفق شروط هي: استسلام عكا بشكل كامل بما فيها من الآلات والعدد والمراكب، ومنح الأمان لجميع من بها، والسماح لهم بالخروج منها حاملين ذراريهم ونساءهم وأموالهم وذخائرهم، وذلك مقابل:[١]

أ- يدفع المسلمون ٢٠٠ ألف دينار للفرنج، و١٤٠٠٠ دينار للمركيز كونراد Conrand Montferrat ولأصحابه كونه واسطة بين الطرفين.

ب- إطلاق سراح ١٥٠٠ أسير من الفرنج لا على التعيين، إضافة إلى ١٠٠ فارس معينين يتم تحديدهم من قبل الفرنج.

ت- إعادة صليب الصلبوت.

ث- تحدد مدة شهرين لتحصيل الأموال والأسرى.

وفي يوم الجمعة ١٧ جمادى الآخر ٥٨٧هـ / ١٢ تموز ١١٩١م أرسلت حامية عكا أحد العوامين ليخبر صلاح الدين بما تم الاتفاق عليه - باعتباره المسؤول عن تنفيذ نصوص الاتفاق- فجزع صلاح الدين لهذه الأخبار السيئة، وبينما كان يُعد إجابة لمنع حامية عكا من تنفيذ الاتفاقية، وينكر عليهم الخضوع لهذه الشروط شهد في ظهيرة ذلك اليوم نفسه ألوية الفرنج ترفرف على أبراج مدينة عكا،[٢] فكان لذلك الأمر وقع عظيم على الجانب الإسلامي حيث "خشي الناس بغتة عظيمة وحيرة شديدة ووقع في العسكر الصياح والعويل والبكاء والنحيب"[٣]، وما كان لصلاح الدين إلا التسليم بالأمر الواقع والاعتراف بهذه الاتفاقية والعمل على تنفيذها لإنقاذ حامية عكا من قبضة الفرنج، وتسليماً بالأمر الواقع أمر جيشه بالابتعاد عن عكا إلى شفرعم، في حين بقي هو مع جماعة قليلة في مكانهم قرب عكا، أي أنه تخلى عن أي اشتباك معهم وامتنع عن ذلك لخلو الفائدة، ودون شك أن ذلك كان في سبيل حماية حامية عكا وأهلها واستخلاصهم سالمين من أيدي الفرنج. وعلى الفور بدأ صلاح الدين بالعمل على تنفيذ شروط الاتفاقية واستقبل ممثلين عن الفرنج لتفقد أسراهم في دمشق، وأرسل ليتأكد منهم ويطلع

---

[١] ابن الأثير: الكامل، ج١٠، ص ٩٧. ابن شداد: النوادر السلطانية، ص٢٥٧-٢٥٨. ابن واصل: مفرج الكروب، ج٢، ص٣٥٩-٣٦٠. حومد: تاريخ الجهاد، ج٢، ص١٣٩-١٤٠. للاستزادة أنظر: الراهب الدومينيكاني، عن الموسوعة، ج٤٣، ص ١١٥٠. مجهول: ذيل تاريخ وليم، عن الموسوعة، ج٨، ص٣٩٦. أنتوني بردج: ص٢١١.

[٢] ابن شداد: النوادر السلطانية، ص٢٥٨. سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان، ج٢١، ص ٣٨٥-٣٨٦. ابن واصل: مفرج الكروب، ج٢، ص٣٦٠. ابن أيبك: الدر المطلوب، ص١٠٧. أنتوني بردج: ص٢١١. رنسيمان: تاريخ الحروب، ج٣، ص١٠١.

[٣] ابن شداد: النوادر السلطانية، ص٢٥٨. للاستزادة أنظر: ابن أيبك: الدر المطلوب، ص١٠٧.

على شروط الاتفاقية والمهلة المحددة لتنفيذها وتسليم الأموال.[١]

وبدأ صلاح الدين بالعمل على جمع المبلغ المطلوب لدفعه للفرنج، وقد عُرف عنه أنه لم يكن يكنز مالاً، لذلك فإن الأمر لم يكن سهلاً بالنسبة إليه، وعندما جمع مئة ألف دينار وبعد المشاورة مع قادة الجيش قرروا ألّا يدفعوا هذا المال للفرنج إلا بعد أن يحلفوا مرة أخرى على أنهم سيطلقون سراح أسرى عكا واشترطوا ضمان الداوية لذلك، فردَّ الداوية "لا نحلف ولا نضمن، لأننا نخاف غدر من عندنا"[٢].

ومن جديد ظهر تعنت الفرنج وإنكارهم لوعودهم وتملصهم منها، حيث أعلنوا أن لهم الخيار فيمن عندهم من أسرى المسلمين بعد أن يسلمهم صلاح الدين المال والأسرى والصليب، هنا تأكد لصلاح الدين ما كان يخشاه وهو غدرهم، فأصرّ على حلفانهم وضمان الداوية لذلك وإطلاق سراح الأسرى المسلمين مقابل رهن يدفعه على باقي المال، وأصروا بدورهم على عدم الحلفان والضمان وعلى استلام المال والصليب والأسرى، ومن ثم يطلقون سراح ما يشاؤون من الأسرى ويتركون عندهم ما يشاؤون إلى حين يصلهم باقي المال المتفق عليه، وهنا تيقّن المسلمون من سوء نوايا الفرنج ونيتهم بالغدر.[٣]

لا يُعتقد أن الفرنج شكَكُوا بنوايا صلاح الدين أو أنه لن يدفع لهم باقي المال، فهو عرض عليهم رهناً مقابل ذلك، وأهم من ذلك على الإطلاق ما شُهر به من وفاء العهد والالتزام به، كما أن سياسته المتسامحة معهم بعد حطين تدل بما لا يقبل الشك على ذلك، ولكن يبدوا أنهم لم يتقبلوا فكرة خروج أهل عكا من بين أيديهم سالمين ولاسيما حامية عكا التي سطرت بطولات عدة وحققت انتصارات رائعة عليهم وكبدتهم خسائر فادحة طيلة ثلاثة أعوام، فكيف تسمح لهم أخلاق الفرنج بالسلامة بعد أن وقعوا بين أيديهم؟!.

وانسياقاً وراء ميولهم الانتقامية والدموية -وبشكل خاص ميول ملك إنكلترا ريتشارد- أحضر الفرنج أسرى عكا وهم حوالي ألفين وخمسمئة مسلم وأخرجوهم إلى ساحة في ظاهر عكا، وأوثقوهم بالحبال، وحملوا عليهم حملة الرجل الواحد وقتلوهم صبراً وضرباً بالسيف على مرأى من إخوانهم المسلمين، فما كان من المسلمين إلا أن هاجموا الفرنج محاولين الاختراق إلى مسرح أحداث الإعدام، وكان الفرنج مستعدين لذلك فارسهم وراجلهم، وجرت موقعة عظيمة بين الطرفين استمرت إلى الليل، ولم يحقق الهجوم الإسلامي هدفه وتمت المذبحة

---

[١] ابن شداد: النوادر السلطانية، ص٢٥٩. ابن واصل: مفرج الكروب، ج٢، ص٣٦٠.

[٢] يبدوا أنه تم اختيار الداوية من بين طوائف الفرنج لأنهم عُرفوا بتدينهم، يرون الوفاء ويرفضون الحنث بالأيمان . ابن الأثير: الكامل، ج١٠، ص٩٧. حومد: تاريخ الجهاد، ج٢، ص١٤١.

[٣] ابن الأثير: الكامل، ج١٠، ص ٩٧. سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان، ٢١، ص ٣٨٦. ابن واصل: مفرج الكروب، ج٢، ص٣٦٤. الجهاد الإسلامي: ص٢٢١.

في ٢٧ رجب ٥٨٧هـ/ ٢٠ آب ١١٩١م، وفي الصباح كشف المسلمون عن الشهداء ودفنوهم وعرفوا مَن عرفوه منهم، واحتفظ الفرنج بالأمراء والمقدمين المعروفين ومن يلزمهم للعمل في عمائرهم[١]. وإمعاناً في الهمجية والدموية من قِبل ريتشارد – زعيم الصليبية آنذاك- كان قد أقدم على طهي لحوم القتلى وأكلها، وأمر جنوده بذلك[٢]. وبذلك يكون ريتشارد – كما ذكر الأستاذ الدكتور سهيل زكار-: قد "أضاف إلى السجل الدموي لتاريخ الصليبيين في الشرق صفحة مخزية جديدة"[٣].

لقد كان وقع هذه الحادثة كبيراً على الجانب الإسلامي، فقد صُدم صلاح الدين بتصرف ريتشارد هذا ولطم رأسه ونتف لحيته وبكى بكاءً شديداً، إلا أنه مع شدة غضبه هذه فقد استطاع الاحتفاظ بحُسن الخلق الذي شُهر به والبعد عن الانتقام ورباطة الجأش، حيث إنه قد جيء بأسرى الفرنج من دمشق لمبادلتهم بأسرى المسلمين، فأمر بإعادتهم سالمين إلى دمشق[٤] دون أن يحذو حذوة ريتشارد، وفي ذلك صورة واضحة للشرخ الكبير بين الأخلاق العربية – الإسلامية والفرنجية آنذاك. كما أن ذلك دلالة غريبة على سمو الأخلاق والتعايش السلمي التي اتصف بها صلاح الدين، ودلالة على رفضه لروح التطاحن والتقاتل بين الشعوب، وصدق به وصف الأستاذ الدكتور سهيل زكار بأنه كان "رجل تحرير ولم يكن رجل عدوان"[٥].

وبذلك فإن فقدان عكا يُعد – بالنسبة إلى المسلمين آنذاك- خسارة جغرافية وسياسية وعسكرية واقتصادية واستراتيجية، وعلى العموم يمكن اجمال **أسباب سقوطها بيد الفرنج** بما يلي:

١- النجدات الأوربية الكبيرة التي وصلت للصليبيين المحاصرين لعكا، وعلى رأسها الحملة الصليبية الثالثة التي قادها أكبر ثلاثة ملوك في أوربا، وفي ذلك من الدعم المعنوي ما يكفي لإسقاط عكا، وبعد هؤلاء الملوك الثلاثة أيضاً استمر وصول قوات أوربية جديدة إلى المعسكر الصليبي حول عكا، وتكاثروا حولها حتى بلغ عددهم – حسب بعض التقديرات – ربع مليون جندي صليبي، وبالطبع هو عدداً مبالغاً به.

٢- الهجوم المفاجئ للملك غي على عكا، وتأخر وصول القوات العربية- الإسلامية إليها لما بعد إحكام الصليبيين الحصار عليها.

---

[١] سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان، ج٢١، ص ٣٨٦. ابن واصل: مفرج الكروب، ج٣، ص٣٦٤. ابن أيبك: الدر المطلوب، ص١٠٨. زكار: الموسوعة، ج٣، ص٣٩٤. الراهب الدومينيكاني، عن الموسوعة، ج٤٣، ص ١١٥٠. الجهاد الإسلامي: ص٢٢١. حومد: تاريخ الجهاد، ج٢، ص١٤١. أنتوني بردج: ص٢١٣. علي، أحمد علي اسماعيل: تاريخ بلاد الشام (٤٦٣-٦٥٨هـ)، دمشق، ٢٠٠٠م، مج٥، ص ٥٨٦.

[٢] الموسوعة: ج٣، ص٣٩٤.

[٣] الموسوعة: ج٣، ص٤٠٠.

[٤] سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان، ج٢١، ص ٣٨٦. قلعجي: ص٣٩٦.

[٥] الموسوعة، ج٣، ص٣٩٩.

٣- إخفاق القوات العربية الإسلامية في اقتحام صور بسبب قوتها ومنعتها وصمود صليبيوها، ومن ثم اتخاذها قاعدة صليبية كبير للهجوم على عكا.

٤- الدور الإيجابي الذي شغله كل من الملك غي والمركيز كونراد.

٥- اعتماد جيش صلاح الدين على النظام الإقطاعي وما تبع ذلك من سلبيات أدت إلى تسرب الضجر والملل إلى صفوف المعسكر العربي - الإسلامي.

٦- طول مدة العمليات الحربية حول عكا التي استمرت قرابة عامين، وعدم وصول نجدات مادية أو معنوية كافية من عاصمة الخلافة العباسة آنذاك، أدى ذلك إلى فقدان الروح المعنوية لدى أمراء صلاح الدين.

٧- ضعف المؤسسة المالية في جيش صلاح الدين، إذ عُرف عنه أنه لم يول اهتماماً كافياً بالإدارة المالية، ولم يدّخر المال ليوم الحاجة، ويُفَسَّر بذل المال الذي عرف عنه بظروف الجهاد التي اقتضت ذلك، فقد انفق مال مصر في استعادة بلاد الشام ممن نكثوا بنور الدين زنكي بعد وفاته، وانفق مال الشام في فتح الجزيرة، وانفق مال الجميع في مقاومة الاستيطان الصليبي في الساحل الشامي.

٨- التفوق البحري الصليبي على القوة البحرية العربية - الإسلامية أدى إلى إحكام الحصار البحري الصليبي على عكا، ومن ثم بقاء البحر مفتوحاً أمام الأوربيين لإرسال المساعدات والمؤن والرجال للصليبيين المحاصرين لعكا، في حين أصبح المسلمون داخل عكا محاصرين من كل الجوانب، وأخفقت البحرية العربية - الإسلامية عدة مرات في كسر الحصار عنها.

٩- استخدام الصليبيون العديد من الأسلحة والمعدات الحربية المتطورة والمخصصة للحصار والتحصين وهدم الأسوار، وقد عبَّر عنها صلاح الدين بشكل واضح في رسالته إلى الخليفة العباسي، إذ جاء فيها: "وقاتلوا مرة بالأبرجة، وأخرى بالمنجنيقات، ورادفة بالدبابات، وتابعة بالكباش، وآونة باللوالب، ويوماً بالنقب، وليلاً بالسرابات، وطوراً بطم الخنادق، وآناً بنصب السلالم"[1].

---

[1] أبو شامة: عيون الروضتين، ج٤، ص٢٥٢.

## الفصل الثاني

النزاع على وراثة العرش في مملكة القدس اللاتينية الثانية ..... ١٠٣
٥٨٧-٦٩٠هـ/ ١١٩١-١٢٩١م..... ١٠٣
المبحث الأول.....
الصراع على العرش في بداية تأسيس المملكة ..... ١٠٤
المبحث الثاني .....
الصراع على العرش في مرحلة توحيد التاج مع قبرص (٥٩٥-٦٠٢ هـ/ ١١٩٨ - ١٢٠٥م) ..... ١١٩
المبحث الثالث .....
الصراع على عرش المملكة منذ انفصال التاج عن قبرص حتى تسلم فردريك هوهنشتاوفن (فردريك الثاني) عرش المملكة (٦٠٢-٦٢٢ هـ / ١٢٠٥- ١٢٢٥م) ..... ١٢٣
المبحث الرابع .....
الصراع على عرش مملكة القدس اللاتينية الثانية في عهد أسرة آل هوهنشتاوفن (٦٢٢-٦٦٧هـ/ ١٢٢٥-١٢٦٨م) ..... ١٢٩
أولاً: منذ زواج الإمبراطور فردريك بوريثة عرش المملكة عام ٦٢٢هـ/ ١٢٢٥م حتى رحيله عن عكا عام ٦٢٦هـ/١٢٢٩م. ..... ١٢٩
ثانياً: بعد رحيل فردريك عن عكا عام ١٢٢٩م حتى قدوم لويس التاسع إليها عام ٦٤٨هـ/ ١٢٥٠م. ..... ١٣٢
ثالثاً: أثناء وجود الملك الفرنسي لويس التاسع في المملكة ٦٤٨- ٦٥٢ هـ/ ١٢٥٠- ١٢٥٤م ..... ١٣٦
رابعاً: النزاع على عرش المملكة في عهد كونرادين هوهنشتاوفن ٦٥٢- ٦٦٧هـ/ ١٢٥٤- ١٢٦٨ م..... ١٣٩
المبحث الخامس ..... ١٤٨
الصراع على عرش مملكة القدس اللاتينية الثانية في عهد آل لوزجنان (٦٦٧-٦٩٠هـ/ ١٢٦٨- ١٢٩١م) ..... ١٤٨
أولاً: عودة عرش مملكة القدس إلى آل لوزجنان..... ١٤٨
ثانياً: النزاع على العرش في عهد هيو الأنطاكي ٦٦٨-٦٨٣هـ/ ١٢٦٩- ١٢٨٤م..... ١٥١
ثالثاً: النزاع على العرش في عهد خلفاء هيو الأنطاكي منذ وفاته عام ٦٨٣هـ/ ١٢٨٤م حتى سقوط المملكة عام ٦٩٠هـ/ ١٢٩١م ..... ١٥٦

# الفصل الثاني

# النزاع على وراثة العرش في مملكة القدس اللاتينية الثانية

# ٥٨٧-٦٩٠هـ/ ١١٩١-١٢٩١م

كان لوراثة الحكم البحتة التي اتُبعت منذ مملكة القدس الأولى أن آل الحكم إلى النساء، وتميزت وراثة العرش في مملكة القدس اللاتينية الثانية منذ بداية تأسيسها إلى نهايتها بتسلط النساء على هذا العرش وانتقاله من خلال زيجاتهن من أسرة إلى أخرى، وبذلك تعددت الأسر الحاكمة في هذه المملكة على الرغم من أن نظام الحكم وراثياً بحتاً، مما أدى إلى نزاعات وصراعات كثيرة حول الأحقية في وراثة العرش. وفيما يلي تفصيلاً دقيقاً لذلك الصراع والنزاع على وراثة العرش.

# المبحث الأول

## الصراع على العرش في بداية تأسيس المملكة

دخل الصليبيون منتصرين إلى عكا في ١٧ جمادى الآخرة ٥٨٧هـ / ١٢ تموز ١١٩١م، وعقب ذلك تصاعدت المشاحنات والمشاجرات والنزاعات بين بعضهم بعضاً، وتصاعدت حول الأسبقية وحول من ينبغي أن يعيش هناك، وتحزَّبوا أحزاباً وجماعات.

ويمكن القول إن هذا النزاع والصراع بين الصليبيين على عرش المملكة بدأ قبل أن تولد هذه المملكة وقبل احتلالهم لعكا، واشترك به قادة الفرنج، وزعامات الطوائف الدينية (الاسبتارية والداوية والتيوتون)، وتجار المدن الإيطالية (بيزا وجنوة والبندقية)، وتمحور ذلك النزاع حول الامتيازات والممتلكات التي سوف يفوز بها كل طرف إذا ما تم الاستيلاء على عكا.

وكانت أبرز أحزاب النزاع التي ظهرت في عكا آنذاك هي أقدمها نزاعاً على الملك والمجد، وهما حزبي المركيز كونراد مونتفرات، والملك العتيق غي لوزجنان، وتجدد هذا النزاع وظهر جلياً في عكا آنذاك، وكان من شأنه أن يُعمّق العداء المتأصِّل بين الفرنسيين والإنكليز أكثر مما هو عليه.

فمنذ أن وصل الملك الفرنسي فيليب في عام٥٨٧هـ/ ١١٩١م إلى المعسكر الصليبي المحاصر لعكا انضم بشكل واضح إلى حزب كونراد مونتفرات، وأخذ يسعى جاهداً إلى الإطاحة بغي لوزجنان عن عرش مملكة القدس الثانية، وإحلال كونراد محله[1]، ووصلت الشكوى والتذمر من سياسته تلك إلى ملك الإنكليز ريتشارد قبل أن يصل إلى عكا، حيث قدِم إليه وهو في قبرص كل من غي لوزجنان، وأخيه جيفري، وبوهيموند الثالث كونت أنطاكية، وريموند الثالث كونت طرابلس، وهيمفري كونت تورون Turon ومقدم الاسبتارية، وعدد من النبلاء والفرسان، وكان من أبرز أسباب قدومهم إلى قبرص

[1] راجع ويندوفر: ورود التاريخ، ج١، عن الموسوعة، ج٤٤، ص٣٧٣-٣٧٤.

طلب مساندة ريتشارد ضد ما أسموه "المناورات السياسية للملك الفرنسي"، ثم انضم إلى حزب كونراد بارونات بيت المقدس المحليون وفرسانها الناقمون على غي، وجماعة فرسان الداوية.[١]

وانضم أيضاً ريتشارد كملك إنكليزي إلى حزب قريبه غي لوزجنان، ودعم ادعاءاته، وانضم إلى هذا الحزب كل من الكونت هنري دي شمبانيا Henry of Champagne -ابن أخت ريتشارد- ، والبيازنة وجماعة الفرسان الاسبتارية[٢]. ووقف البنادقة على الحياد رافضين تأييد أي من الجانبين (الفرنسي والإنكليزي)، ويبدو أن ذلك كان بسبب رغبتهم في المحافظة على امتيازاتهم ومصالحهم التجارية في عكا والمنطقة وعدم تأثّرها بتلك النزاعات، مفضّلين شغل دور الوسيط بين مختلف الأطراف الصليبية المتنازعة[٣].

وبعد احتلال الفرنج لعكا ظهر حزب جديد ثالث، تمثَّل في دوق النمسا الذي عُدَّ أكبر شخصية ألمانية في المنطقة آنذاك، وكان من وجهة نظره -كونه ممثلاً لإمبراطور ألمانيا- أن له الحق في أن يكون متساوياً في الحقوق مع الملكين الفرنسي والإنكليزي، فرفع رايته في عكا إلى جانب راية ريتشارد، فرُفض سلوكه هذا بشكل كبير من قِبل الجنود الإنكليز، ورموها له بشكل غير لائق في خندق المدينة، عند الأسوار، وداسوها بالأقدام، فكان ذلك بالنسبة إلى دوق النمسا إهانة كبيرة لن ينساها أو يغفرها لهم، وعلى إثرها قرر العودة إلى ألمانيا.[٤]

وبالنسبة إلى التجار الفرنج الذين كانت لهم ممتلكات في عكا قبل تحريرها على يد صلاح الدين سنة ٥٨٣هـ/١١٨٧م فيمكن القول إنهم شكَّلوا حزباً آخر، وأخذوا يعملون الآن كل ما بوسعهم لإعادة

---

[١] امبرويز: رحلة ريتشارد، عن الموسوعة، ج٣١، ص ٦١-٦٢، ٦٤. عبد القوي: الإنكليز والحروب الصليبية: ص١٣٠. باركر: الحروب، ص٩٠. مها داوود: دور قبرص، ص٦٦-٦٧.

[٢] ويندوفر: ورود التاريخ، ج١، عن الموسوعة، ج٤٤، ص٣٧٣-٣٧٤. باركر: الحروب، ص٩٠. سلامة: عكا، ص٧٥. للاستزادة أنظر: زاباروف: الصليبيون في الشرق، ص٢٠٩. أنتوني بردج: ص٢١٢. غروسيه: ملحمة الحروب الصليبية، ص٢٢٦.

[٣] سلامة: عكا، ص٧٥.

[٤] مجهول: ذيل تاريخ وليم، عن الموسوعة، ج٨، ص٤٥١. عبد القوي: الإنكليز والحروب الصليبية، ص١٣٣. أنتوني بردج، ص٢١٢. سلامة: عكا، ص٧٥. قلعجي: صلاح الدين، ص٤٠٢.

ممتلكاتهم القديمة في عكا من جديد، وذلك على حساب القادمين الجدد، وعلى أساس أنهم قاتلوا جنباً إلى جنب أثناء حصار عكا.[١]

يمكن القول إنه بعد دخول الفرنج منتصرين إلى عكا في عام ٥٨٧هـ/١١٩١م احتدم الصراع على عرش المملكة الوليدة "مملكة القدس اللاتينية الثانية" بين حزبي كونراد وغي، وهنا لا بدّ من العودة إلى الخلف وبسط الحديث قليلاً عن شرعية الحكم ووراثته المتنازع عليها.

ففي رمضان ٥٨٦هـ/ تشرين الأول ١١٩٠م توفّيت الملكة سيبّلا في المعسكر الصليبي المحاصر لعكا، وكانت هي الوريثة الشرعية لعرش مملكة القدس، وقد تقدم الحديث عن ظروف زواج غي لوزجنان منها، ومشاركته الشرعية في الحكم، وتوليه عرش مملكة القدس اللاتينية الأولى، بصفته زوجاً للملكة، وذلك منذ عصر المملكة الأولى المنهارة. أما الآن وقد توفيت زوجته الملكة سيبّلا دون أن تنجب له ولداً فقدْ فَقَدَ حقه في وراثة عرش المملكة المفقودة، وانتقلت الأحقية في العرش إلى شقيقتها الصغرى إيزابيل (اليزابيث أو ايسابل)، وهي الوريث الوحيد من أسرة ملوك القدس الحقيقيين.[٢]

وكانت إيزابيل متزوجة من همفري – وتسميه بعض المصادر هونفروا أو أونفروا– دي تورون، وهو حاكم تبنين، وهو من الفرنج الذين وُلِدوا في الشرق، وقد كان شاباً بهي الطلعة مثقفاً وواسع الاطلاع ويتقن اللغة العربية؛ إلا أنه لم يكن لديه –كما قيل– طموح أو أي رغبة في الملك، كما أنه لم يمتلك صفات القيادة والرئاسة، وقد ثَبُت ذلك في مملكة القدس اللاتينية الأولى المنهارة، حيث رفض في عام ٥٨٢هـ/ ١١٨٦م عرض البارونات – المعارضين لغي– عليه بأن يصبح ملكاً، ووضع نفسه تحت تصرف غي وزوجته سيبلا، وبعد وفاة الأخيرة آلت وراثة العرش إليه كونه زوجاً لأختها إيزابيل، وتزامن ذلك مع حاجة الفرنج الملحة لرجل قوي الشكيمة ولديه من الخبرة والقدرة ما يساعد على إعادة تأسيس المملكة، فقرر البارونات المعارضون لغي Guy طلاق إيزابيل من زوجها هنفروا وتزويجها من كونراد مونتفرات، فرفضت إيزابيل ذلك في البداية، كونها مغرمةٌ بزوجها الشاب الوسيم، ولكنها اضطرت في

---

[١] أنتوني بردج، ص٢١٢.

[٢] الراهب الدومينيكاني، عن الموسوعة، ج٤٣، ص ١١٥٠. غروسيه: ملحمة الحروب الصليبية، ص٢٢١. رحيل: نهاية الصليبيين، ص٤٢-٤٣.

النهاية للموافقة تحت ضغط البارونات وتحت ضغط أمها الملكة الأم ماري كومنين (زوجة عموري)، التي سعت جاهدة لإقناع ابنتها بذلك. [١]

كان مسوّغ الطلاق وإلغاء الزواج بينهما هو أن إيزابيل تزوجت بغير ارادتها من همفري، كونها كانت صغيرة السن آنذاك، في الثامنة من عمرها، واحتج همفري على ذلك، إلا أن النصر كان لحُجة الأقوى، وتمّ زواجها من كونراد، واعترض على ذلك غي وأتباعه، ولم يعترفوا بشرعية كونراد، ولا بشرعية زواجه من إيزابيل [٢]. وحظيت تلك المعارضة بتأييد وعطف ريتشارد قلب الأسد Richard the Lionheart، ولم يكن ذلك بقليل، فريتشارد أصبح -بعد رحيل الملك الفرنسي فيليب- لا ينافسه أحد في عكا، وكلمته شبه مسموعة لدى الجميع - بحكم القوة والبطش[٣]. ويبدو أنه على أثر ذلك قرر كونراد ترك عكا ومغادرتها إلى صور مصطحباً معه عروسه (الملكة إيزابيل)، وجلس بها يترقب سير الأحداث في المملكة الوليدة، وربما كانت خطوته تلك بسبب وثوقه من محبة أهل صور والدعم الشعبي له، وإطاعتهم له أكثر من الملك ريتشارد. ولم يعد كونراد إلى الجيش الصليبي - الذي سار آنذاك إلى عسقلان- على الرغم من الحاجة إليه، وعلى الرغم من تهديدات ريتشارد له بمصادرة ممتلكاته وذلك في نهاية سنة ٥٨٧هـ / بداية ١١٩٢م[٤].

يمكن تسويغ عدم قيام ريتشارد بأي عمل حاسم ضد كونراد أن الأخير تمكن من حكم صور بكل قوة وفرض نفسه بها، ولحاجة الأول إلى المساعدات والإمدادات التي كانت تأتي من صور إلى الصليبيين في عكا، وكون صور غدت المركز الرئيسي آنذاك، ولا بدَّ أنه ذاع صيتها في العالم الأوربي، وعلى هذا فلابدّ أن ريتشارد لم يرغب في الدخول في مواجهة مع كونراد، ومنذ الآن بدأ يتجلى الانقسام الصليبي إلى حزبين، انكليزي وفرنسي.

---

[١] دي فتري: المنتقى، عن الموسوعة، ج٣٣، ص ٢٣٧. مجهول: ذيل تاريخ وليم، عن الموسوعة، ج٨، ص٣٧١. الراهب الدومينيكاني، عن الموسوعة، ج٤٣، ص ١١٥١-١١٥٢. غروسيه: ملحمة الحروب الصليبية، ص٢٢١-٢٢٢. رنسيمان: تاريخ الحروب، ج٣، ص٦٤-٦٥. رحيل: نهاية الصليبيين، حاشية ٢، ص٤٢.

[٢] الراهب الدومينيكاني، عن الموسوعة، ج٤٣، ص ١١٥١-١١٥٢. غروسيه: ملحمة الحروب الصليبية، ص٢٢٣.

[٣] رنسيمان: تاريخ الحروب، ج٣، ص١٠٥. عاشور: الحركة الصليبية، ج٢، ص١٤٥.

[٤] رنسيمان: تاريخ الحروب، ج٣، ص١٢١. حومد: تاريخ الجهاد، ج٢، ص١٥٦.

ومن صور أخذ كونراد يجري اتصالات مع صلاح الدين أبدى من خلالها رغبته في التفاوض والتفاهم معه، وأبدى خلال ذلك مرونة في المفاوضات، وقدّم العديد من التنازلات[١]، لدرجة أن بعض المراجع اللاتينية تذكر أن كونراد أبدى استعداده لخوض القتال إلى جانب صلاح الدين ضد إخوانه حلفاء الأمس، مقابل اعتراف الأخير للأول بحق حكم المدن الفلسطينية[٢]، ويبدو أن غاية كونراد من ذلك كانت هي الالتفاف على انتصارات ريتشارد، وتحويل مجرى المفاوضات التي كان يجريها ريتشارد مع صلاح الدين – الآتي ذكرها– لصالحه، وأن يجعل من نفسه محوراً لتلك المفاوضات، ومن ثم الحصول على امتيازات من صلاح الدين تعلي من شأنه في الأوساط الصليبية، وتوجه أنظار الصليبيين وآمالهم إليه، وهكذا ينفرد في قيادة مملكة القدس اللاتينية الثانية – حديثة الولادة.

وبالنسبة إلى الحزبين القديمين فقد استمرت الصراعات بينهما إلى أن شملت رعايا المدن الإيطالية في الشام، وكان الجنوية ضمن حزب كونراد منذ أن نقلته سفنهم من القسطنطينية إلى الشام، في حين انضم البيازنة لحزب غي لوزجنان، وتطورت تلك النزاعات، وانتهت إلى سفك الدماء والقتال المتبادل بين الطرفين، وباتت عكا كلها في حالة فوضى، تزامن ذلك مع الخلاف داخل الجيش الصليبي وهو في قيسارية –كما سيأتي تفصيله–، وانشقاق الفرنسيين عنه وقدومهم إلى عكا بقيادة دوق بيرغندي، وانحازوا بها إلى الجنويين، وقدموا لهم العون، وكاد دوق بيرغندي يقع قتيلاً في تلك الاشتباكات، وحبك الجنوية مؤامرة في محرم ٥٨٨هـ/ شباط ١١٩٢م للاستيلاء على عكا وتسليمها إلى كونراد، وعلى الفور قَدِم كونراد إلى عكا بناءً على طلبهم، إلا أن الجنوية أخفقوا بذلك بسبب مقاومة البيازنة الذين ساندهم ريتشارد، اضطر كونراد إلى العودة إلى صور عندما علم بقرب وصول ريتشارد إلى عكا، وتبعه دوق بيرغندي ومعه الفرنسيون، وتمكن ريتشارد من تهدئة الأوضاع في عكا وتحقيق الصلح بين البيازنة والجنويين.[٣]

وفي تلك الأثناء وصلت أخبار سيئة إلى ريتشارد قادمةً من مملكته في أوربا تؤكد له ثورة أخيه حنا ضده، ورغبته في الاستيلاء على العرش، وقيامه بطرد كل من أنابه ريتشارد في إنكلترا، فكان لزاماً على

---

[١] ابن شداد: النوادر السلطانية، ص ٣١٠. ابن واصل: مفرج الكروب، ج٢، ص٣٧٢. رنسيمان: تاريخ الحروب، ج٣، ص١١٦-١١٧، ١٢٢-١٢٣، حومد: تاريخ الجهاد، ج٢، ص١٥٦.

[٢] زاباروف: الصليبيون في الشرق، ص٢٠٩.

[٣] أمبرويز: رحلة ريتشارد، عن الموسوعة، ج٣١، ص١٤٥-١٤٦. عاشور: الحركة الصليبية، ج٢، ص١٤٦.

ريتشارد إنهاء النزاع بين حزبي كونراد وغي على عرش مملكة القدس اللاتينية الثانية "عرش عكا" وترتيب أمورها، وجعلها تابعة – أو على الأقل حليفةً– له.[١]

لذلك آثر ريتشارد عقد مؤتمر عامٍ يضم النبلاء والأمراء والفرسان الصليبيين والقادة العسكريين لحل مشكلة النزاع على وراثة العرش في المملكة الوليدة، وتم عقد ذلك المؤتمر في عسقلان في ٢٥ ربيع الأول ٥٨٨هـ/ ١٦ نيسان ١١٩٢م، وبإجماع شبه تام تم اختيار كونراد ملكاً لعرش مملكة القدس اللاتينية الثانية؛ لما تميز به من صفات وميزات سياسية وعسكرية، وحُسن الطالع، وكونه الأكثر جدارة ونباهة وفراسة، كل ذلك جعله يتفوق على خصمه غي الذي رافقه الشؤم وسوء الطالع منذ توليه لعرش المملكة الأولى عام ٥٨٢هـ/١١٨٦م[٢].

وأمام استمرار تواتر الأخبار السيئة إلى ريتشارد من داخل مملكته، وزاد على ذلك اعتداءات ملك فرنسا على أملاكه هناك [٣]، وجد نفسه مضطراً للعودة إلى الغرب الأوربي لإنقاذ مملكته التي توشك على الضياع، وذلك في الوقت التي تأكد به لريتشارد أنه لا أحد في المملكة الوليدة يرغب بأن يكون غي ملكاً عليه، وعلى هذا لم يكن أمام ريتشارد سوى الإذعان مرغماً لإرادة الجميع والقبول بكونراد ملكاً في عكا[٤]، وعلى الفور قام ريتشارد بإرسال بعض الرجال من ذوي المناصب العالية إلى صور بحراً لنقل تلك الأخبار الطيّبة بالنسبة إلى كونراد، وشرح هؤلاء السفراء للأخير كيف تم انتخابه ملكاً بالإجماع، وموافقة الملك الإنكليزي ريتشارد على ذلك، وأنه اختير ليكون ملكاً في عكا – ملكاً لعرش

---

[١] أمبرويز: رحلة ريتشارد، عن الموسوعة، ج٣١، ص١٤٩-١٥٠. عاشور: الحركة الصليبية، ج٢، ص١٤٦.

[٢] أمبرويز: رحلة ريتشارد، عن الموسوعة، ج٣١، ص١٥١. عاشور: الحركة الصليبية، ج٢، ص١٤٧. عبد القوي: الإنكليز والحروب الصليبية، ص١٣٢.

[٣] بعد احتلال الصليبيون لعكا بأقل من شهر كان قد أعلن الملك الفرنسي فيليب عن رغبته بالعودة إلى أوروبا، وما لبث أن أبحر في ١٠ رجب ٥٨٨هـ/٢ آب ١١٩١ م من صور إلى برانديزي في ايطاليا ومنها إلى فرنسا تاركاً نحو عشرة الاف فارس في فلسطين، بالإضافة إلى فرقة من المشاة تحت قيادة دوق بورغونيا (هوغ الثالثHugues III ).
غروسيه: ملحمة الحروب الصليبية، ص ٢٢٦. زاباروف: الصليبيون في الشرق: ص ٢٠٩ – ٢١٠. ويمكن القول أنه برحيل فيليب أوغست خسرت المملكة الناشئة أحد أهم ركائزها، وآلت السياسة فيها إلى ريتشارد الذي افتقد الحكمة والروح السياسية دون إنكار مهارته العسكرية.

[٤] أمبرويز: رحلة ريتشارد، عن الموسوعة، ج٣١، ص١٥٠.

مملكة القدس اللاتينية الثانية- إذا ما أراد ذلك، وبالطبع قابل كونراد هذا الخبر بالسرور والقبول والاستعداد للتتويج، وعمّت الفرحة أرجاء صور.[١]

ولكن ماذا عن موقف غي من سير تلك الأحداث؟

وماذا عن التحالف القائم بين غي Guy وريتشارد قلب الأسد Richard the Lionheart ؟

لا بدّ أن غي اعترض على ذلك ووجه الملامة إلى حليفه ريتشارد، فاضطر ريتشارد لاسترضائه بمنحه عرش قبرص كبديل عن عرشه المسلوب، وتفصيل ذلك أن ريتشارد بعد أن استولى على جزيرة قبرص قد وجد عبئاً ثقيلاً في ادارتها، فاضطر لبيعها للداوية بمئة ألف بيزنت، وأيضاً الداوية لم يلبثوا أن وجدوا عبئاً ثقيلاً في إدارتها، وصعوبة كبيرةً في الاحتفاظ بها للمستقبل، وليس البحث هنا لمعالجة تلك القضية[٢]، وما يهم البحث هنا أن الداوية تراجعوا عن شرائها واستردوا المال من ريتشارد، فرحّب ريتشارد بذلك ووجدها فرصة مناسبة لاسترضاء غي وجبر كبريائه المكسور، وتعويضه عن عرش عكا الذي كان يرنو إليه.

ويبدو أن غي لم يكن لديه خيار أفضل من ذلك، فقبل بشرائها مقابل تنازله عن حقه في عرش مملكة القدس اللاتينية الثانية، وبذلك تمكن ريتشارد من حل الخلاف المستحكم بين الزعيمين (كونراد وغي) بشأن عرش مملكة القدس اللاتينية الثانية، وبدأ غي بحكم قبرص منذ ذلك العام ٥٨٨هـ/ ١١٩٢م، واستمرت أسرته -آل لوزجنان- من بعده تتوارث حكمها قرابة ثلاثة قرون حتى ٨٧٦هـ/ ١٤٧٢م.[٣]

---

[١] أمبرويز: رحلة ريتشارد، عن الموسوعة، ج٣١، ص١٥١-١٥٢. رحيل: نهاية الصليبيين، ص٤٣.

[٢] عن تفاصيلها راجع، مها داوود، دور قبرص، ص٧٠-٧١.

[٣] أمبرويز: رحلة ريتشارد، عن الموسوعة، ج٣١، ص١٦١. الراهب الدومينيكاني، عن الموسوعة، ج٤٣، ص ١١٥٣. عتمان، أحمد: تاريخ قبرص، القاهرة، ١٩٩٧م، ص١٤٨-١٤٩ . إديوري، بيترو: قبرص والحروب الصليبية، دار الملتقى للطباعة والنشر، قبرص، ليماسول، ط١، ١٩٩٧م، ص٤٧. الإنكليز والحروب الصليبية، ص١٣١-١٣٢، نقلاً عن Geoffery de Vinsauf, pp.284.

كان ذلك الحل لأزمة النزاع على عرش عكا مؤقتاً؛ لأن كونراد ما لبث أن تعرّض للاغتيال في يوم الإثنين ١٢ ربيع الآخر ٥٨٨هـ/ ٢٨ نيسان ١١٩٢م على يد اثنين من فرقة الحشيشية، وسقط قتيلاً في صور، وذلك قبل أن يتوَّج ملكاً في عكا،[١] وهنا لا بدّ من بسط الحديث قليلاً عن اغتيال كونراد، ومن هي الجهة التي تقف خلف ذلك؟.

ومن المستفيد الأكبر؟

وكيف سارت الأحداث بعد ذلك؟

فالفرنسيون على الفور اتهموا ريتشارد وغي بالوقوف وراء عملية الاغتيال تلك بالاتفاق مع الحشيشيه كونهما المستفيدين الكبيرين من ذلك، وأن غي لم ينس بعد الإهانة التي وجهها له كونراد عندما جاء ومعه الملكة سيبلا من طرابلس، ووقفا أمام صور فمنعهما كونراد من دخولها.[٢] إلا أنه لا توجد أدلة واقعية تثبت هذا الاتهام أو تنفيه، ولا يُستبعد أن يكون ذلك الاتهام بسبب دافع الصراع والعداء المستحكم بين الطرفين (الفرنسي والإنكليزي) الذي لم يخف على أحد. كما أن أمبرويز يورد في كتابه الحملة الصليبية الثالثة ما يُظهر أن القاتلان كانا في خدمة المركيز كونراد منذ مدة طويلة، وأن أحدهما قد اعترف بأنهما أُرسلا من قِبل شيخ الجبل لتنفيذ هذه المهمة "منذ زمن طويل مضى"[٣]، أي منذ قبل قدوم ريتشارد إلى المنطقة، وفي ذلك براءة للأخير.

وهناك ما ينفي تلك البراءة، أو يحط من قيمتها، فنتائج الاغتيال أتت في صالح ريتشارد قولاً واحداً. وعلى هذا فلا يُستبعد ضلوعه في مثل ذلك، فكونراد كان على اتصال مع صلاح الدين بهدف توقيع صلح بينهما، وعلى هذا فهو خائن وكافر بالنسبة إلى المعسكر الصليبي الذي يتزعمه ريتشارد آنذاك، بالإضافة إلى أن محاولات كونراد لتوقيع صلح مع صلاح الدين شكلت عقبة أمام ريتشارد، وأضعفت موقفه التفاوضي مع صلاح الدين، وقد حاول ريتشارد مراراً ثني كونراد عن ذلك، إلا أنه لم

---

[١] أمبرويز: رحلة ريتشارد، عن الموسوعة، ج٣١، ص١٥٢. ابن واصل: مفرج الكروب، ج٢، ص٣٨١-٣٨٢.
وللمزيد عن اغتيال كونراد وأسباب نزاعه مع الحشيشيه راجع: مجهول: ذيل تاريخ وليم، عن الموسوعة، ج٨، ص٢٢١-٢٢٤. برنارد: الحشيشية، ص٣٤٠-٣٤٢، ٣٤٥. سالم: الصراعات الصليبية، ص١٥٥

[٢] أمبرويز: رحلة ريتشارد، عن الموسوعة، ج٣١، ص ١٥٤. برنارد: الحشيشية، ص ٣٤٢، ٣٤٤.

[٣] عن الموسوعة، ج٣١، ص ١٥٢. للاستزادة أنظر:دي فتري: المنتقى، عن الموسوعة، ج٣٣، ص٢٤٣.

يفلح، وعلى هذا فلا يُستبعد أن يكون ريتشارد قد دفع الأموال لشيخ الجبل – زعيم الحشيشيه – للتخلّص من كونراد. يضاف إلى ذلك أن الراهب الدومينيكاني يذكر أن الاتفاق بين غي وريتشارد – السالف ذكره– تضمن تنازل غي عن عرش القدس لشخص ريتشارد مقابل تنازل الأخير عن عرش قبرص لغي، وبذلك أصبح ريتشارد ملكاً على القدس وعلى إنكلترا، ووضع تاجين على رأسه،[١] ومن ثم أصبح كل من كونراد وريتشارد منافسين لبعضهما على عرش القدس، ولا يخفى أحقية الأول بذلك، وبالتالي لا يُستبعد أن يكون ريتشارد سعى جاهداً إلى التخلص من كونراد.

وعلى الرغم من اعتراف زعيم الحشيشية راشد الدين سنان – في رسالته التي أرسلها إلى ليوبولد دوق النمسا–[٢] صراحةً بقيام فرقته بعملية الاغتيال دون أن تقبض أي أَجر أو أي أُجرة من ريتشارد مقابل ذلك العمل، وحاول جاهداً في هذه الرسالة تبرئة الأخير من ذلك العمل، إلا أن ذلك بحذ ذاته يدعو الباحث للتساؤل عن سبب دفاع سنان باشا الشديد عن ريتشارد وتبرئته من تلك التهمة التي أُلصقت به. في حين أن من مصلحته أن تدب الفتنة بين الصليبيين. وهذا يقود للتقرير بأن ريتشارد هو الذي أوحى لسنان ليُرسل تلك الرسالة إلى ليوبولد.

وهناك عدد من المصادر والمراجع تكيل التهمة بذلك لصلاح الدين، وذلك جائزٌ ولا يُستبعد أبداً، فالصليبيون كانوا أعداء محتلين للمنطقة، وصلاح الدين أشهر سيفه علناً ضدهم، إلا أن ما يدحض هذا الرأي هو أن نتائج اغتيال كونراد لم تكن في صالح المسلمين، وكما يُقال: "العبرة في الخواتيم"، فكونراد شكل حزباً معارضاً قوياً لريتشارد، وكان بقاؤه حياً يضمن عدم وحدة الصليبيين في المملكة الوليدة حديثاً "مملكة القدس اللاتينية الثانية". يضاف إلى ذلك أن كونراد كان على استعداد للعمل مع المسلمين ضد ريتشارد، وقد ورد في المصادر الإسلامية المعاصرة لتلك الأحداث ما يؤيد ذلك الاتجاه، وما يُعبر عن عدم ارتياح السياسيين المسلمين آنذاك لاغتيال كونراد، فالعماد الأصفهاني يذكر: "ولم يعجبنا قتل المركيس في هذه الحالة، وإن كان من طواغيت الضلالة، لأنه كان عدو ملك الإنكلتير، ومنازعه على الملك والسرير، ومنافسه في القليل والكثير"، "وكلما سمع ملك الانكلتير أن رسول المركيس

---

[١] الراهب الدومينيكاني، عن الموسوعة، ج٤٣، ص ١١٥٣.

[٢] لمراجعة نص تلك الرسالة انظر: زكار، في الملاحق التي ألحقها بكتاب الحشيشية، ص ٣٤٥. زكار: الموسوعة، ج٣٠، ص ٢٦٦.

عند السلطان مال إلى المراسلة بالاستكانة والإذعان"[١]، وفي هذا الحديث للعماد الأصفهاني دلالة واضحة على إدراك المسلمين آنذاك لضرورة بقاء كونراد حياً كنِدٍّ قوي لريتشارد، وضمانة كبيرة لمنع وحدة الصف الفرنجي تحت قيادة ريتشارد، وعلى هذا فلا يمكن أن يكون صلاح الدين قد أقدم على مثل ذلك العمل وقتل كونراد.

وفي العودة إلى وراثة الحكم المتنازع عليها في المملكة الوليدة، فما إن توفي كونراد وخلا عرش المملكة اجتمع الفرنسيون الذين كانوا يعيشون في خيم خارج مدينة صور – وبلغ تعدادهم حوالي عشرة آلاف – وأرسلوا إلى أرملة المركيز كونراد (الملكة إيزابيل) يطالبونها بأن تضع المدينة في عهدتهم بدون تأخير، إلا أنها رفضت وأصرت على تسليمها لريتشارد تنفيذاً لوصية زوجها المتوفى كونراد، مما أدى إلى سخط الفرنسيين عليها، وفي هذه الأوضاع قَدِم الكونت هنري الشمباني Henry of Champagne من عكا ودخل إلى صور.[٢]

لا بدَّ أن الأصوات قد تعالت في صور آنذاك للبحث عن زوج جديد مناسب للملكة إيزابيل – كما جرت العادة–، فبرز هنري على أنه المرشح الأفضل لهذا المنصب، فهو سليل أسرة عريقة في الملك وذو مكانة مرموقة بين النبلاء، وكان حفيداً لملك فرنسا لويس السابع من جهة أمه ماريا الشمبانية، وكان هنري قد ولد في شمبانيا عام ٥٦٢هـ/١١٦٦م، وتولى منصب الكونت بها عام ٥٧٧هـ/١١٨١م، واستمر حتى عام ٥٩٤هـ/ ١١٩٧م، وجاء إلى الشرق عام ٥٨٦هـ/١١٩٠م مع عمه ملك فرنسا فيليب أغسطس.[٣]

وعلى حد قول صاحب الحملة الثالثة أنه صادف وفاة كونراد مع قدوم هنري إلى صور، فاختاره الناس بها ليكون زوجاً لإيزابيل، وليتقبل تاج المُلك، وقد وافق هنري على ذلك بشرط استشارة خاله ريتشارد، وجرى إرسال مبعوثين من صور إلى الأخير وهو في سهول عسقلان ليعلموه بانتخاب هنري

---

[١] النوادر السلطانية، عن الموسوعة، ج١٥، ص٢٢٢. للاستزادة أنظر: الأصفهاني، العماد الكاتب، الفتح القسي، عن الموسوعة، ج١٣، ص٤٠١. الروضتين، عن الموسوعة، ج١٩، ص٣٦٣.

[٢] أمبرويز: رحلة ريتشارد، عن الموسوعة، ج٣١، ص١٥٥. الفتح القسي، عن الموسوعة، ج١٣، ص٤٠١.

[٣] مجهول: ذيل تاريخ وليم، عن الموسوعة، ج٨، ص٤٢٤. رحيل: نهاية الصليبيين: ص٤٥.

وتملكه صور وعكا، وأخطروه أن هنري لن يغامر بقبول التاج والمملكة إلا بموافقته ونصيحته، وبالطبع سُرَّ ريتشارد وابتهج لانتخاب ابن اخته ملكاً للملكة الوليدة[١].

كان هنري متردداً، أو متظاهراً بالتردد من الزواج بإيزابيل، إلا أنه وافق على ذلك بناء على تشجيع ريتشارد ووعده له بالمساندة والمساعدة، إذ إنه وعده بعد عودته لإنكلترا سوف يجهز جيشاً ويكون هو -أي ريتشارد- على رأسه يُساعده في اعادة السيطرة على جميع أرجاء المملكة الأولى، ليس ذلك فحسب، بل تكون مهمة هذا الجيش "احتلال بلدان أخرى أيضاً"[٢].

ويضاف إلى ذلك تأييد غالبية الشعب في صور وحبهم لهنري، إذ إنهم "أقسموا له متعهدين أنهم سيجعلون ذويه - أي أبنائه- سادة القدس وملوكها"[٣].

وهنا يتبادر إلى الأذهان السؤال الآتي:

ما مدى مصداقية هذه المفارقة التي جعلت هنري يصل إلى صور في اليوم الذي قتل فيه كونراد ؟

وما مدى مصداقية تلك الصدفة نفسها التي جعلت ريتشارد أيضاً يصل إلى عكا في الوقت الذي قتل فيه كونراد؟ وفي الوقت الذي ذهب فيه هنري إلى صور؟ إذ إن صاحب ذيل تاريخ وليم يذكر أنه ما إن وصل ريتشارد إلى عكا عائداً من يافا حتى سمع بأخبار مقتل المركيز كونراد.[٤]

ولماذا أتى هنري إلى صور في ذلك الوقت ؟! ولماذا كان وصوله إليها مفاجئاً ؟

أليس من الضروري وجود موعد وتخطيط مسبق بين هنري وقيادة صور لمثل تلك الزيارة ؟ أم أن هنري كان- قبل ذلك- شخصية مغمورة وغير معتبرة، وبالتالي لا داعي لتلك المواعيد والتخطيطات المسبقة لزياراته؟

---

[١] أمبرويز: رحلة ريتشارد، عن الموسوعة، ج٣١، ص١٥٥- ١٥٨.١١٧

[٢] مجهول: ذيل تاريخ وليم، عن الموسوعة ٨، ص٤٢٤-٤٢٥. للاستزادة أنظر: برنارد: الحشيشية، ص ٣٤٤.

[٣] مجهول: ذيل تاريخ وليم، عن الموسوعة ٨، ص٤٢٥، ٤٢٨. للاستزادة أنظر: برنارد: الحشيشية، ص ٣٤٤.
رنسيمان: تاريخ الحروب، ج٣، ص١٢٧.

[٤] مجهول: ذيل تاريخ وليم، عن الموسوعة، ج٨، ص٤٢٤.

حقيقةً أن هنري كان من الأمراء البارزين في المملكة الوليدة وفي جيش ريتشارد أيضاً، وبالتالي لا بدَّ من مسوغ رسمي لزيارته إلى صور، ولا تأتي المصادر على مثل ذلك، علماً أن صور بقيادة كونراد اتخذت موقف العداء من ريتشارد، وكان هنري من الأمراء المقربين من ريتشارد، كونه ابن أخته، وبالتالي فلا بدَّ أن صور اتخذت الموقف نفسه تجاهه، وهذا يعزز ضرورة وجود مسوغ رسمي وموعد مسبق مع قيادة صور لتلك الزيارة، وإلا فإن زيارة هنري لصور كانت مقصودة في ذلك الوقت بالتحديد، وهذا يُعزز فكرة اشتراك هنري ومن ورائه ريتشارد بالمؤامرة التي أودت بحياة كونراد، وجعلت هنري ملكاً محله، كما أن سير الأحداث التالية يعزز ذلك.

وفي العودة إلى زواج هنري من إيزابيل فقد تم ذلك في الأسبوع نفسه الذي توفي فيه زوجها كونراد، وذلك في ٢١ ربيع الآخر ٥٨٨هـ/٥ أيار ١١٩٢م في مدينة صور، وسط أُبهة ملكية وزواج مهيب، احتُفل به في الكنيسة بحضور رجال الدين والعلمانيين[١]، ويستفيض صاحب كتاب الحملة الصليبية الثالثة في ذكر الفرح والسرور والاحتفالات التي عمت عكا عند عودة هنري إليها قادماً من صور. وهنا يمكن القول بأن هنري Henry of Champagne حاز على رضى وموافقة الطرفين الفرنسي والإنكليزي كونه يمت بصلة القرابة لكلا الملكين[٢].

وعلى الرغم من ذلك فإن الجو السياسي الداخلي لم يصف لهنري إذ إنه تعرض لمنافسة الملك القديم غي، إذ إن الأخير عادت إليه هواجس وأحلام عرش مملكة القدس الثانية، ووجد أن الفرصة سانحة له بمقتل كونراد، وحاول تنصيب نفسه ملكاً عليها، وفي سبيل ذلك طلب المساعدة من صلاح الدين، إلا أن الأخير لم يلتفت لذلك[٣]، ربما لِما خَبِره عنه من نكثه للعهود والمواثيق، وأولها كانت معه

---

[١] أمبرويز: رحلة ريتشارد، عن الموسوعة، ج٣١، ص١٦٠-١٦١. برنارد: الحشيشية، ص٣٤٣-٣٤٤.
وتروي المصادر العربية أن هنري دي شامبين Henry of Champagn دخل بالملكة إيزابيل بالليلة نفسها التي قتل فيها زوجها كونراد، وأنها كانت حاملاً من الأخير. انظر: العماد: الفتح القسي، عن الموسوعة، ج١٣، ص٤٠١. ابن واصل: مفرج الكروب، ج٢، ص٣٨٢. عاشور: الحركة الصليبية، ٢، ص١٤٨ حاشية رقم١. ومع غرابة الرواية الإسلامية، إلا أنها تبدو قريبة جداً من الواقع، إذ أن صاحب ذيل تاريخ وليم يذكر ما يؤيده، فيقول: إن "اغتيال المركيز وقع يوم الثلاثاء، وفي يوم الخميس تزوجت إيزابيل من الكونت"، عن الموسوعة، ج٨، ص٤٢٥. للاستزادة أنظر: برنارد: الحشيشية، ص٣٤٣-٣٤٤.

[٢] أمبرويز: رحلة ريتشارد، عن الموسوعة، ج٣١، ص١٦٠-١٦١. رنسيمان: تاريخ الحروب، ج٣، ص١٢٧-١٢٨.

[٣] رحيل: نهاية الصليبيين، ص٤٤.

عندما أطلق سراحه في سنة ٥٨٤هـ/١١٨٨م على ألّا يحمل السلاح ثانية ضد المسلمين إلى الأبد – كما تقدم شرحه عند الحديث عن دور غي في تأسيس المملكة.

بالإضافة إلى ذلك فإن غي تحالف مع البيازنة الذين كانوا قد وقعوا في خلاف مع المركيز كونراد بسبب أموال استدانها منهم ولم يعيدها لهم، والآن بعد تولي هنري دي شامبين وتعاطفه مع الجنويين حاول البيازنة القيام بانقلاب عليه واستدعاء غي للسيطرة على صور، إلا أنه فُضح أمرهم وأخفقوا في مؤامرتهم تلك، وبعد سفر ريتشارد علم هنري بتلك المؤامرة في جمادى الأولى عام٥٨٩هـ/ أيار ١١٩٣م، وألقى القبض على مدبريها، وأمر بتخفيض عدد جالية البيازنة في صور إلى ثلاثين شخصاً فقط.[١] ولا تقدم المصادر تفاصيل أكثر عن ذلك.

ولكن هل يُعقل أن مؤامرة موجهة ضد هنري حصلت وأخفقت في صور دون أن يعلم هو بها لمدة عام كامل؟! وإن صح ذلك؛ فمَن الذي أحبط تلك المؤامرة؟

وإذا كان هنري قد علم بها منذ آنذاك، فلماذا لم يلقِ آنذاك القبض على مدبريها ؟!

لماذا لم يُنزل بمدبري تلك المؤامرة عقاباً قاسياً منذ آنذاك؟ أو منذ أن عَلِم بتلك المؤامرة بعد عام؟! إذ إن منتهى العقاب الذي أنزله بهم – كما يذكر صاحب ذيل تاريخ وليم– كان طردهم من صور، "وهددهم أنه إذا وجد أحداً من زعمائهم في بلاده فسيمسك به من رقبته، ويلقي به في السجن"[٢]، وكان ذلك الطرد لهم بعد أن ظهر تعسفهم وسوء تصرفهم في صور وكُثرة الشكاية ضدهم.

في الحقيقة أن المصادر والمراجع لا تُسعف في الإجابة عن تلك الأسئلة، ولكن يمكن القول إن البيازنة كانوا مدعومين من قبل غي، وقاموا بتلك المؤامرة لصالحه، وغي كان على علاقة جيدة بريتشارد، لا؛ بل إن الأخير يشعر بالتقصير تجاه الأول؛ لأنه خذله في دعم حقوقه في عرش المملكة الوليدة، ووافق من قبل أن يتولى كونراد عرشها، وعلى هذا فإن ريتشارد لم يسمح لهنري بالقيام بعمل تعسفي تجاه البيازنة، فتجاهل هنري عن محض سياسة قوية تلك المؤامرة، وترك لريتشارد مهمة إخمادها.

---

[١] مجهول: ذيل تاريخ وليم، عن الموسوعة، ج٨، ص٤٥٣– ٤٥٥. رنسيمان: تاريخ الحروب، ج٣، ص١٥٧.

[٢] عن الموسوعة، ج٨، ص٤٥٣.

ويمكن تسويغ سلوك هنري تجاه البيازنة بالمكانة والسطوة الكبيرة التي كانت لهم في جميع أرجاء المملكة الوليدة، إذ إن صاحب ذيل تاريخ وليم يذكر: "وكان في تلك الآونة للبيازنة سلطة كبيرة في سورية"[١]، وعلى هذا فضل هنري تجاهل تلك المؤامرة وعدم الدخول في مواجهة مباشرة معهم.

وفي العودة إلى سياسة هنري الداخلية يظهر أنه عمل جاهداً على إقامة حكومة شعبية، اعتمد خلالها على مستشارين قديرين،[٢] وساعده على ذلك وقوف العديد من البارونات إلى جانبه، وكذلك ريتشارد قلب الأسدRichard the Lionheart الذي عمل على إعلاء شأنه وتعظيم سلطته، حيث منحه على الفور حصن الدارون الذي تم الاستيلاء عليه حديثاً[٣].

ويمكن القول إن هنري أثبت جدارة عالية في قيادة المملكة وإدارة شؤونها بكل حزم وذكاء، وانتعشت المملكة في عهده نوعا ما، لِما صادفها من هدوء الجبهة مع المسلمين، لانشغالهم بوفاة صلاح الدين والصراع على الحكم بين ورثته.

وبالمجمل يمكن القول إن هنري لم تكن سلطته مطلقة، وإنما كانت هناك عدة أمور قيدتها منها :

١- عدم تتويجه ملكاً في عكا لأسباب عديدة أهمها الموقف السلبي للكنيسة والبطريرك منه بعد وفاة هرقل.
٢- المنافسة على الحكم والتحريض الشديد ضده الذي لقيه من قبل غي لوزجنان ومن ورائه البيازنة؛ إذ يذكر الراهب الدومينيكاني أنه بعد مغادرة ريتشارد مملكة القدس استأنف غي حمل لقب ملك القدس: "قائلاً إن عاصمة مملكته قد انتقلت من القدس إلى قبرص"[٤].
٣- الصراعات الداخلية وفقدان الأمن والاستقرار الذي كانت تعاني منه المملكة الوليدة.

وعن عدم تتويج هنري ملكاً في عكا فيبدو أن نبلاء المملكة تأخروا في ذلك عن قصد على الرغم من حاجة المملكة إلى ذلك، بسبب تأكدهم من عدم جدارته لتولي هذا المنصب، ولرغبته الشخصية بألّا يتوّج سوى في القدس التي ينوي السيطرة عليها، وكذلك صاحب المنتقى من مختصر تاريخ القدس

---

[١] عن الموسوعة، ج٨، ص٤٥٣.
[٢] سميث، جوناثان رايلي: الإسبتارية، تر: صبحي الجابي، مركز الدراسات العسكرية، دمشق،١٩٨٤، ص ٩٩.
[٣] أمبرويز: رحلة ريتشارد، عن الموسوعة، ج٣١، ص١٦٧
[٤] الراهب الدومينيكاني، عن الموسوعة، ج٤٣، ص ١١٥٣.

يذكر أن هنري رفض أن يتوّج ملكاً؛ لأنه كان متشوقاً للعودة إلى الوطن الأم،[١] لكن يبدو أن ذلك كان منافياً للواقع، فهنري لم يتوج ليس رغبة منه، وإنما لأسباب داخلية عديدة تمثلت بانقلاب الرأي العام ضده، وعدم وجود رغبة في الاعتراف به، والموقف السلبي للكنيسة والبطريرك منه[٢]، حيث إنه وقع في خلاف مع الكنيسة، ويبدو أن سبب هذا الخلاف هو زواجه غير المشروع من إيزابيل، فالمصادر العربية تجعل هذا الزواج باليوم نفسه الذي توفي فيه زوجها كونراد، وفي أحسن الأحوال فالمصادر اللاتينية لا تجعل المدة أكثر من أسبوع – كما سلف ذكره – وفي الحالتين لا يمكن لرجال الدين – ولو في الظاهر فقط– أن يوافقوا أو يباركوا هذا الزواج، وربما كان ذلك سبباً قويا في تأخر تتويجه ملكا في عكا. وربما أن السبب الأكبر والأهم هو سياسة المسالمة والدبلوماسية التي تحلى بها ولاسيما تجاه فرقة الحشيشيه وصلاح الدين كما سيأتي الحديث على ذكره.

وما لبث هنري Henry of Champagne أن سقط قتيلاً من إحدى نوافذ قصره في ٢٦ شوال ٥٩٣ هـ /١٠ أيلول ١١٩٧ م، عندما كان يشاهد عرضاً لإحدى الفرق العسكرية المؤيدة له في المدينة التي ينوي إرسالها للدفاع عن يافا، إذ تراجع للوراء دون الانتباه للنافذة، وقد لجأ القزم المرافق له (ايكارلات) إلى التشبث بثيابه للحيلولة دون سقوطه، مما أدى لسقوطه فوقه؛ لضخامة جثة هنري، وتَحَطَمَ رأس الأخير، وقُتلا معاً، ودفن هنري في كنيسة الصليب المقدس في عكا.[٣]

وبموته خلا عرش مملكة القدس اللاتينية الثانية من جديد، واختل نظام الحكم والوراثة بها، لأن عرشها كان قد أُعد ليكون وراثياً بين أبنائه، ولم يكن آنذاك قد أنجب سوى ابنة صغيرة لا يمكنها الحكم.

---

[١] عن الموسوعة، ج٣٣، ص٢٤٤

[٢] العلي: الصراعات، ص ١٦٢-١٦٣.

[٣] مجهول: ذيل تاريخ وليم، عن الموسوعة، ج٨، ص ٥٠٧-٥٠٨.

## المبحث الثاني

## الصراع على العرش في مرحلة توحيد التاج مع قبرص

## (٥٩٥-٦٠٢ هـ/ ١١٩٨ - ١٢٠٥م)

وصفت الروايات التاريخية اللاتينية مدى تأثر الملكة إيزابيل والحزن الشديد الذي أبدته إثر وفاة زوجها هنري، "فغدت كالمجنونة تشدُّ في شعرها وتخدش وجهها، حتى إذا رأت جثَّة زوجها محمولة في طلعة القصر ارتمت على جسده الساكن، وأخذت تغمره بالقبلات والدموع، فقد كان مشهداً يثير الشفقة".[١]

وكما حدث عند وفاة زوجها السالف (كونراد) أيضاً الآن لم يكن هناك لدى الملكة إيزابيل مُتسع للبكاء والنواح على هنري، إذ إن الحرب أطلت برأسها وبدأت تلوح في الأفق، ذلك أنه في نهاية حكم هنري أتت الحملة الألمانية إلى عكا في عام ٥٩٣هـ/ ١١٩٧م، ولم يكن مرغوباً بها في أوساط مملكة القدس التي عانت الأذى من ممارسات الألمان، وساء الموقف وتعكر الجو السياسي مع المسلمين، وانتهى الصلح السائد بينهما، كما سيأتي الحديث على ذكره وتفصيله.

وكالعادة أسرع بارونات المملكة لحل مشكلة العرش، ولم يكن لدى إيزابيل من الأولاد من يناسبه الحكم، فابنتها الكبرى من كونراد لم تكن قد تجاوزت الخامسة من عمرها، وبناءً على ذلك توجَّب عليهم الاسراع في إيجاد زوج جديد (رابع) للملكة إيزابيل ليتولى على الفور قيادة الصليبيين في مملكة القدس، ويتولى الدفاع عن هذه المملكة ضد الخطر العربي- الإسلامي الذي سيطر حديثاً على يافا،[٢] وعلى الفور اقترح هيو سيد طبرية أخاه رالف ليكون زوجاً للملكة، والمعروف أن أسرته "بيت فولكنبرج سانت اومر" كانت تُعد من أشهر البيوت الملكية في مملكة القدس، غير أنها لم تَعُد أسرة ثرية لسيطرة المسلمين على أملاكها في الجليل، ولم يكن رالف إلا من الأبناء الصغار في هذه الأسرة، وزاد احساس

---

[١] غروسيه: ملحمة الحروب الصليبية، ص٢٤٢. للاستزادة أنظر: رنسيمان: تاريخ الحروب، ج٣، ص١٧٣.

[٢] مجهول: ذيل تاريخ وليم، عن الموسوعة، ج٨، ص٥١٧. دي فتري: المنتقى، عن الموسوعة، ج٣٣، ص٢٤٤. رنسيمان: تاريخ الحروب، ج٣، ص ١٧٣.

الناس بأن رالف في أشد الحاجة إلى المال والجاه،[١] ولاسيما أن الطوائف الدينية العسكرية – وبشكل خاص الداوية والاسبتارية– لم يرضوا به لفُقره وحاجته إلى المال.[٢]

واشتد النقاش والجدل حول اختيار زوج لإيزابيل، وفي هذه الأثناء – وبعد أن سقطت يافا بيد المسلمين – وصل إلى عكا كونراد رئيس أساقفة ماينز، كنائب عن الإمبراطور الألماني، ليتولى قيادة الحملة الألمانية، وتوفر لكونراد سلطة ضخمة سيأتي ذكرها عند الحديث عن الحملة الألمانية.

وما إن اقترح كونراد بذل عرش مملكة القدس إلى ملك قبرص عموري (ويدعى أموري، وأحياناً أملريك Amalric )، حيث كانا على علاقة طيبة، حتى لقي ذلك الاقتراح تأييداً من الجميع، ودَعَّمَ ذلك رضى الإمبراطور الألماني عن قبرص بشكل عام، ولم يعترض على عموري سوى البطريرك أيمار الراهب.[٣]

ويبدو أن ذلك كان اختياراً موفقاً لصيانة المملكة وحفظها في ظل تأزم الموقف مع العرب– المسلمين، فعموريAmalric كان وريث شقيقه في قبرص الملك غي لوزجنان المتوفي في ربيع الآخر ٥٩٠هـ/ نيسان ١١٩٤م، إلا أنه كان مختلفاً تماماً عن سلفه، وعلى تناقض في الشخصية معه، إذ إن عموري أثبت أنه سياسي حذر وحاسم في الوقت عينه، ويتصرف بقسوة عند الضرورة، غير عابئ بتأثير ذلك على شعبيته في سبيل مصلحة بلاده، وكان يعرف جيداً كيف يفرض ارادته على الجميع، وبالمجمل فإن غروسيه يرى أنه لم يكن هناك قائد أفضل منه في تلك الظروف العصيبة التي كان يكابدها الفرنج في ذلك الحين.[٤]

لقد كان عموري مُؤَيَداً بقوة من قبل الإمبراطور الألماني هنري السادس، ويدين له بتاج قبرص، وأضحى شبه تابع له، وكان الأخير قد رفع – بناءً على طلب الأول– سيادته إلى مرتبة ملك، وتسلّم التاج القبرصي في شوال ٥٩٣هـ/ ١١٩٧م.[٥]

---

[١] مجهول: ذيل تاريخ وليم، عن الموسوعة، ج٨، ص٥١٧. رنسيمان: تاريخ الحروب، ج٣، ص١٧٣.

[٢] مجهول: ذيل تاريخ وليم، عن الموسوعة، ج٨، ص٥١٧.

[٣] مجهول: ذيل تاريخ وليم، عن الموسوعة، ج٨، ص٥١٧. رنسيمان: تاريخ الحروب، ج٣، ص١٧٤.

[٤] غروسيه، ملحمة الحروب الصليبية، ص٢٤٢. للاستزادة أنظر:ابن الأثير: الكامل، ج١٠، ص ١٤٧

[٥] مجهول: ذيل تاريخ وليم، عن الموسوعة، ج٨، ص٤٩٨. غروسيه، ملحمة الحروب الصليبية، ص٢٤٢.

ومن هنا فإن الإمبراطور الألماني الذي كان يسعى جاهداً للسيطرة على القدس لابدّ أنه دعم بقوة عموري ليتولى عرش عكا، ولا بدّ أن الإمبراطور كان يخطط من وراء ذلك للسيادة والسيطرة على مملكة القدس اللاتينية الثانية.

وتردد عموري في البداية في قبول عرش عكا، ولم يقدم إليها إلا في بداية سنة ٥٩٥هـ/ نهاية ١١٩٨م، وغداة وصوله تزوّج من الملكة إيزابيل، ولم تمض بضعة أيام حتى قام البطريرك بتتويجهما ملكين على مملكة القدس اللاتينية الثانية[١]، وبذلك اتحد عرشي القدس وقبرص، واستمر ذلك سبع سنوات؛ أي حتى توفي عموري لوزجنان في سنة ٦٠٢هـ/١٢٠٥م.

وجدير بالذكر هنا موقف الملكة إيزابيل التي لم تتجاوز السادسة والعشرين من عمرها، وقد حتم عليها قدرها ومركزها بأن تتزوج للمرة الرابعة خلال هذه المرحلة الوجيزة من عمرها، دون أن تبدي أي ممانعة لقدرها، وعلى الرغم من معاناتها وحزنها الشديد على وفاة زوجها هنري، إلا أنها ما برحت تستجيب لمطالب المملكة في الاقتران تباعاً بقادة حرب يختارهم لها بارونات المملكة؛ لإضفاء الشرعية الملكية عليهم كونها الوريثة الوحيدة لسلالة القدس الملكية.

وفي العودة إلى سياسة عموري في ظل اتحاد التاجين (تاج القدس وتاج قبرص) تحت سلطته، ومن ورائه الإمبراطور الألماني الذي كان يسعى جاهداً من وراء تنصيب عموري للسيطرة على مملكة القدس اللاتينية الثانية. إلا أن عموري اتخذ سياسة منفردة، وتصرف كحاكم مستقل، غير مرتبط بأي قيود خارجية، وأعلن منذ البداية أن المملكتين سوف تكون لهما ادارتان منفصلتان، وأنه لن تنفق أموال قبرص من أجل الدفاع عن بيت المقدس، وأقرّ حق وراثة الحكم في مملكة القدس، كما أقرّ بفضل زوجته إيزابيل على وضعه –كونه أصبح ملكاً في عكا– ولم يعدُّ نفسه سوى وصي على عرش هذه المملكة، ولبنات زوجته الأحقية في وراثة العرش.[٢]

وبذلك يمكن القول إن عموري فوَّت الفرصة على الإمبراطور الألماني، وكذلك على البابا اللذين كانا يسعيان إلى السيطرة من خلاله على مملكة القدس اللاتينية الثانية، وأثبت عموري أنه حاكم

---

[١] مجهول: ذيل تاريخ وليم، عن الموسوعة، ج٨، ص٥١٧. دي فتري: المنتقى، عن الموسوعة، ج٣٣، ص٢٤٤.
رنسيمان: تاريخ الحروب، ج٣، ص١٧٤.

[٢] رنسيمان: تاريخ الحروب، ج٣، ص١٧٥.

ونشيط، وتمكن من إقناع المحكمة العليا بأن تشركه في مراجعة الدستور حتى يتم تحديد الحقوق الملكية بشكل صريح، كما أثبت للبارونات قوة شخصيته ومركزه وفرض عليهم طاعته واستشارته بكل شيء.[١]

[١] رنسيمان: تاريخ الحروب، ج٣، ص١٧٦.

## المبحث الثالث

## الصراع على عرش المملكة منذ انفصال التاج عن قبرص حتى تسلم فردريك هوهنشتاوفن (فردريك الثاني) عرش المملكة (٦٠٢-٦٢٢ هـ / ١٢٠٥- ١٢٢٥م)

استمرت وحدة التاج القبرصي مع مملكة القدس لمدة سبع سنوات حتى وفاة عموري سنة ٦٠٢هـ/ ١٢٠٥م، وبوفاته انفصل التاجان عن بعضهما، ولم يكن لحاكم قبرص الجديد أدنى حق في المطالبة بعرش مملكة القدس، وبذلك عاد المُلك إلى الملكة إيزابيل التي لم تعمر طويلاً بعد زوجها عموري، كما أنها لم تكن مضطرة للزواج من جديد إذ إنه أصبح لديها ابنة لا بأس بها من العمر وكانت قد أنجبتها من زوجها الثاني كونراد مونتفرات، وتحمل اسم "ماري"، وبلغت من العمر الثالثة عشر، فنُصّبت كملكة لعكا تحت وصاية يوحنا الأول ابلين John I of Ibelin سيد بيروت، وكان هذا الأخير من أسرة ابلين الشهيرة، التي تأسست على يد باريزان (باليان الكبير كونت يافا والرملة)، وزادت شهرت ابلين بزواجه عام ٥٧٢هـ/١١٧٧م من ماريا كومنينا -أرملة ملك القدس عموري، أي والدة الملكة ايزابيل-، وتولى حكم بيروت بين عامي ٥٩٣-٦٣٣هـ/ ١١٩٧-١٢٣٦م، وعرف بيوحنا ابلين الكبير -أو العجوز- تمييزاً له عن غيره من أسرته الذين كانوا يحملون الاسم نفسه، وقد اختير عام ٦٠٢هـ / ١٢٠٥م من قبل المحكمة العليا في عكا ليتولى منصب الوصاية على عرش مملكة القدس اللاتينية الثانية، واستمر يوحنا حتى بلوغ ماري سن الرشد في عام ٦٠٧ هـ / ١٢١٠م.[١]

وليس واضحاً ما إذا كانت الملكة إيزابيل قد رشحت يوحنا لهذا المنصب قبل وفاتها، أم أن البارونات قد اختاروه لذلك، وتوضح فيما بعد أنه المرشح الأفضل حظاً على أساس أنه أكبر أخ غير شقيق لإيزابيل؛ لذلك فهو أقرب الذكور للملكة الطفلة ماري، بالإضافة أنه مَلَكَ أكبر إقطاع في المملكة، ويعدّ الزعيم الذي يقبله جميع البارونات[٢].

وقبل بلوغ ماري سن الرشد تنافس نبلاء الشرق اللاتيني على الزواج منها، وكادت تقع بينهم حرب أهلية لهذا السبب، مما دفع نبلاء المملكة إلى عقد مؤتمر لحل تلك المعضلة، وبه قرروا التوجه نحو

---

[١] رحيل: نهاية الصليبيين، ص ٤٥. وللمزيد عن يوحنا ابلين الكبير انظر: إديوري: قبرص والحروب الصليبية، ص٥٩-٦٠.

[٢] رنسيمان: تاريخ الحروب، ج٣، ص ١٩١.

الغرب الأوربي للبحث عن زوج للملكة الشابة، فرشّح لهم الملك الفرنسي فيليب أغسطس أحد أمرائه المغمورين " جان دي بريين John of Breinne"، وكان رجلاً مسناً بلغ الستين من العمر، وبالفعل قدِم إلى عكا وتزوج بها في ربيع الأول ٦٠٧ هـ / أيلول ١٢١٠ م، وتُوِّج في صور في الشهر نفسه[١].

وعلى الفور باشر دي بريين مقاليد الحكم، ووقع صلحاً مع المسلمين، إلا أن زوجته الملكة ماري توفيت بعد سنتين من الحزن على شبابها الضائع، وساء موقف حنا دي بريين الذي تقلد الحكم بصفته زوجاً للمتوفية، أما الآن – وبعد وفاتها– فلم تعد له صفة شرعية وفقاً للقواعد والأصول الإقطاعية المعمول بها في المملكة، ومن جديد تعرض عرش المملكة للحرمان من الملك الجدير بها، ولكن لم يطل النقاش كثيراً داخل الأوساط الملكية في المملكة – ذلك أن ماري كانت قد أنجبت من زوجها الكهل خلال مدة زواجها القصيرة ابنة وأسمتها "يولاند"– وتم الاتفاق على أن يكون دي بريين وصياً على عرش المملكة بصفته وصياً على ابنته يولاند حتى تبلغ سن الرشد، وعلى الفور بدأ دي بريين العمل على تدعيم موقف الصليبيين أمام المسلمين[٢].

ويبدو أن جان دي بريين John of Breinne – على الرغم من توليه الوصاية على ابنته– بقي ملكاً خفيف الصلاحيات، ومشكوكاً بشرعيته حسب القوانين الاقطاعية للملكة، وقد سبب له ذلك الوضع الكثير من المتاعب داخل المملكة، ولاسيما أثناء الحملة الصليبية الخامسة (٦١٤-٦١٨هـ/ ١٢١٧-١٢٢١م).

ويبدو أنه حاول جاهداً آنذاك الظهور بمظهر الملك والقائد والسيد الأعلى لجموع الحملة الصليبية الخامسة التي تجمعت في عكا ثم قامت ببعض العمليات العسكرية ضد المسلمين في بلاد الشام سنة ٦١٤هـ / ١٢١٧م –كما سيأتي شرحه– ونجح نوعاً ما آنذاك، إلا أنه أخفق في الظهور بذلك المظهر عندما هاجمت الحملة الخامسة مصر (٦١٥-٦١٨ هـ / ١٢١٨-١٢٢١ م)، حيث إن البابا هونوريوس

---

[١] دي فتري: المنتقى، عن الموسوعة، ج٣٣، ص ٢٤٦. سميث، جوناثان ريلي: فرسان القديس يوحنا في القدس وقبرص، تر: سهيل زكار، الموسوعة الشاملة، دمشق، ٢٠٠٨م، ج٥٢، ص١١٩ . عاشور: الحركة الصليبية، ج٢، ص ١٩٧-٢٠٠. رحيل: نهاية الصليبيين: ص ٤٥

[٢] عاشور: الحركة الصليبية، ج٢، ص ٢٠١. رحيل: نهاية الصليبيين ، ص٤٥.

الثالث عين مندوباً من قبله لقيادة الحملة هو "بيلاجيوس"، وبذلك انقسم الصليبيون وتنازعوا على قيادة الحملة كما سيأتي شرحه في الفصل السادس عند الحديث عن الحملة الخامسة.

وهنا يمكن القول إن جان دي بريين لم ينازعه أحد على عرش مملكة القدس خلال الحملة الصليبية الخامسة، واقتصر النزاع فيما بينهم على قيادة الحملة في مصر.

وبعد إخفاق الحملة الخامسة عام ٦١٨هـ / ١٢٢١ م قرر الملك جان دي بريين السفر إلى أوربا لمقابلة البابا هونوريوس الثالث وبعض ملوك أوربا للتداول معهم حول مستقبل مملكة القدس الثانية، وللبحث عن زوج مناسب لابنته الملكة الصغيرة إيزابيل (يولاند) التي كان وصياً عليها[١].

وبالفعل أبحر من ميناء عكا في سنة ٦١٩هـ/ ١٢٢٢م وبرفقته المندوب البابوي بيلاجيوس تاركاً المملكة تحت حكم نائبه يودس أوف منتبليارد،[٢] والتقى بالبابا غريغوري التاسع في روما إذ أن هونوريوس كان قد توفي، وكان النزاع قد تطور بين غريغوري والإمبراطور الألماني فردريك، فعمل جان على تسوية الخلاف وتحقيق المصالحة بينهما، وبعد النقاش حول أوضاع الصليبيين في مملكة القدس اللاتينية الثانية وأسباب إخفاق الحملة الصليبية الخامسة والعمل على إعداد حملة صليبية جديدة طرق المجتمعون لدى البابا مسألة وراثة العرش في مملكة القدس وضرورة إيجاد زوج مناسب للأميرة الشابة يولاند بنت جان دي بريين وماري.[٣]

وعلى الفور اقترح مقدم جماعة الفرسان التيوتون ( هرمان فون سالزا) الذي كان موجوداً آنذاك في الاجتماع أن الإمبراطور الألماني فردريك الثاني – الذي صادف وفاة زوجته كونستانس منذ مدة وجيزة– هو الشخص المناسب للأميرة يولاند، ورأى المجتمعون أن تلك الزيجة تعدُّ صفقة سياسية مناسبة جداً

---

[١] الراهب الدومينيكاني، عن الموسوعة، ج٤٣، ص ١١٦٦. ويندوفر: ورود التاريخ، ج٢، ص٧٨٨-٧٨٩، عن الموسوعة، ج٤٥، ص٧٨٨-٧٨٩. عمران: تاريخ الحروب الصليبية، ص ٢٧٧.

[٢] دي نافار، فيليب: حروب فردريك الثاني ضد الإيبلينيين في سورية وقبرص، تر: سهيل زكار، الموسوعة الشاملة في تاريخ الحروب الصليبية، دار الفكر، دمشق، ج٣٥، ص٣٤. رنسيمان: تاريخ الحروب، ج٣، ص ٣٠٩.

[٣] الراهب الدومينيكاني، عن الموسوعة، ج٤٣، ص ١١٦٦. عمران: تاريخ الحروب الصليبية، ص ٢٧٨.

لمملكة القدس؛ لأنها ستجعل فردريك يسرع في تنفيذ وعده للبابا في قيادة الحملة الصليبية المرتقبة إلى بلاد الشام.[١]

ويبدو بأن الملك جان ندم على طرق باب زواج ابنته، فتحفظ على هذا المشروع خشيةً على وضعه كوصيٍ على عرش مملكة القدس، فطمأنه مقدم جماعة التيوتون بأنه سوف يظل وصياً على عرشها محتفظاً بالتاج طيلة حياته، فوافق على ذلك.[٢]

وتحاول بعض الروايات أن تبدي ترحيب الملك الفرنسي بذلك المشروع ( مشروع زواج فردريك بيولاند)، وعدم معارضته لشخص فردريك، وفي الوقت نفسه لا تخفي تلك الروايات الاستقبال الفاتر الذي تم لجان دي بريين في باريس، إذ إنه أسرع إليها ليخبر ملكها فيليب أغسطس Philippe Auguste بما تم الاتفاق عليه في روما، إلا أنه وجده قد توفي. وهنا لابدّ من ذكر العلاقة الوطيدة بين الرجلين، وأن فيليب هو الذي رشح جان دي بريين لمنصب الملك في عكا –كما تقدم ذكره– ولا بدَّ أن فيليب وخليفته لويس أدركا بأن هذا المشروع يعني زوال الهيمنة الفرنسية على مملكة القدس لصالح الهيمنة الألمانية المدعومة من البابوية، ونظرا إلى الموضوع بأن سورية الفرنجية التي هي – بالنسبة اليهما– أرض فرنسية عرقاً وحضارةً ستفقد تلك السمة المألوفة بزواج وريثة المُلك من فردريك.

بقي جان في أوربا إلى أن تصل يولاند Yoland ويتم تزويجها من فردريك، وبالفعل وصلت في شعبان ٦٢٢هـ/ آب ١٢٢٥م إلى عكا بعثة مكونة من أربع عشرة سفينة على رأسهم كونت مالطا ( هنري )، وجيمس رئيس أساقفة كابوا (باتي) الذي أوكله فردريك مهمة خطوبة وتزويج الملكة يولاند من الإمبراطور فردريك، وتم عقد القران في كنيسة الصليب المقدس في عكا –من دون حضور فردريك–، ثم توّجت يولاند كملكة على القدس في صور وكانت في الرابعة عشر من عمرها، وقام بمراسم التتويج

---

[١] الراهب الدومينيكاني، عن الموسوعة، ج٤٣، ص ١١٦٦. عمران: تاريخ الحروب الصليبية، ص ٢٧٨. رنسيمان: تاريخ الحروب، ج٣، ص ٣١٠.

[٢] دي نافار: حروب فردريك، عن الموسوعة، ج٣٥، ص ٣٤. عمران: تاريخ الحروب الصليبية، ص ٢٧٨. رنسيمان: تاريخ الحروب، ج٣، ص ٣١٠.

بطريرك مملكة القدس (راؤل أوف مير ينكورت)، وحضر الحفل حشد كبير من أمراء المملكة وباروناتها، واستمرت احتفالات التتويج والأعياد في صور مدة نصف شهر[١].

ثم أبحرت البعثة ومعها الملكة يولاند- ويرافقها حرس شرف من كبار شخصيات وبارونات مملكة القدس وعلى رأسهم نائب الملك في عكا- إلى قبرص، ثم إلى برنديزي في صقلية ووصلتها في تشرين الأول، حيث كان هناك في انتظارها أبوها والإمبراطور فردريك، وتم عقد قران جديد بينهما في ٩ تشرين الثاني، وتم الاحتفال بذلك في كاتدرائية المدينة[٢].

ولم يستغرق الأمر طويلاً حتى تصاعد الصراع على عرش مملكة القدس وظهر جلياً بينهما، إذ إن فردريك أخبر حميَّه جان دي بريينJohn of Breinne أنه بتتويج يولاند في صور ومن ثم زواجها، قد انتهت بشكل آلي نيابته عنها، وأنه لم يَعد وصياً على عرش مملكة القدس، وغادر فردريك برنديزي مع زوجته دون أن يخبر جان دي بريين بذلك، فلحق بهما وأخبره برغبته في البقاء في الوصاية على عرش مملكة القدس حتى تبلغ ابنته سن السادسة عشر - سن الرشد- أي أن يبقى وصياً عل العرش لمدة عامين آخرين، أي إلى عام ٦٢٤هـ/ ١٢٢٧م، ويبدو أن جان ذكَّر فردريك بشروط الزواج السالفة التي تم الاتفاق عليها، التي تضمنت احتفاظ الأول بتاجه طيلة حياته، إلا أن الأخير أصرَّ على موقفه، وأخبره بأنه لم يَعِدهُ بمثل ذلك، ولم يكن بينهما اتفاق مكتوب، لِذا ليس للملك جان أي حق شرعي في العرش، هنا أدرك جان بأنه استُبعد من الوصاية، وتأكد له ذلك عندما قام جنود فردريك بسلبه المال الذي كان قد منحه إيّاه الملك الفرنسي فيليب أغسطس قبل وفاته، وكوْن جان كان قد تسلم عرش القدس من خلال زواجه من الملكة ماري والدة يولاند؛ لِذا لم يكن بوسعه المناورة كثيراً أو إبداء مقاومة شديدة لفردريك، وازداد موقفه ضعفاً عندما أعلن البارونات السوريون - الذين قدِموا مع الملكة يولاند إلى إيطاليا- تأييدهم لفردريك، واعترفوا به ملكاً عليهم، وعلى الفور قام فردريك بإرسال أسقف ملفي Melfi إلى مملكة القدس ليضمن الحصول على ولاء باروناتها[٣].

---

[١] دي نافار: حروب فردريك، عن الموسوعة، ج٣٥، ص ٣٣.

[٢] دي نافار: حروب فردريك، عن الموسوعة، ج٣٥، ص٣٤.

[٣] دي نافار: حروب فردريك، عن الموسوعة، ج٣٥، ص ٣٤. عمران: تاريخ الحروب الصليبية ص ٢٨٠. غروسيه: ملحمة الحروب، ص ٢٥٩.

عندها لجأ جان إلى البابا ليقتص له من فردريك، إلا أنه لم يكن بوسع البابا سوى رفض الاعتراف بفردريك ملكاً على القدس، واستمر في اضفاء ذلك اللقب على جان دي بريين، وأرضاه بأن عيّنه حاكماً على إحدى الولايات البابوية "ولاية توسكانيا"، ولم يمكث بها طويلاً حيث ذهب إلى القسطنطينية ليكون بها وصياً على صهره الإمبراطور بلدوين الثاني، واستمر في الوصاية حتى وفاته سنة ٦٣٤هـ /١٢٣٧م[١].

[١] دي نافار: حروب فردريك، عن الموسوعة، ج٣٥، ص ٣٥. عمران: تاريخ الحروب الصليبية ص ٢٨٠-٢٨١. رنسيمان: تاريخ الحروب: ٣، ص٣١٤.

# المبحث الرابع

# الصراع على عرش مملكة القدس اللاتينية الثانية في عهد أسرة آل هوهنشتاوفن (٦٢٢-٦٦٧هـ/ ١٢٢٥-١٢٦٨م)

## أولاً: منذ زواج الإمبراطور فردريك بوريثة عرش المملكة عام ٦٢٢هـ/ ١٢٢٥م حتى رحيله عن عكا عام ٦٢٦هـ/١٢٢٩م.

بزواج فردريك سنة ٦٢٢هـ/ ١٢٢٥م من يولاند بنت ماري بنت إيزابيل أصبح فردريك السيد الأعلى لمملكة القدس اللاتينية الثانية دون منازع، ودون أن يحضر إليها، إذ إن الزواج تم في صقلية – كما تقدم ذكره– على الرغم من اشتراط البابا أن يكون الزواج في الشام نفسها، إلا أن فردريك – كعادته– لم يكن عند حُسن ظن البابا[١].

وفي عام ١٢٢٧م أرسل إلى بيت المقدس نائباً عنه هو كونت أسيرا Acerra "توماس اكوينو" بديلاً عن يودس (أودو) أوف مونتبليارد – الذي كان قد عينه بها الملك جان دي بريين– وأظهر توماس من الحماس والنشاط ما أثار ريبة بارونات المملكة.[٢]

ويمكن القول إنه بتولي فردريك عرش عكا تشعَّبت المعضلة واستفحل داء وراثة العرش بها، ففردريك هو إمبراطور إمبراطورية كبيرة كانت غارقة في صراعات عديدة مع جيرانها الأوربيين، ولا شك أن فردريك كان يصرف كامل طاقاته في سبيل إنقاذ إمبراطوريته الأوربية دون أن يلقي كبير انتباه لمملكته التي ورثها في الشرق، فأسند قيادتها لسلسلة متعاقبة من النواب والوكلاء، ومن هنا فإن مملكة القدس قد أُهمل أمرها في هذه المرحلة، وغرقت في مشاكلها، ولا بدّ أنه انتقل إليها –بشكل أو بآخر– الصراع بين

---

[١] عاشور: الحركة الصليبية، ج٢، ص ٢٣٦.

[٢] دي نافار: حروب فردريك، عن الموسوعة، ج٣٥، ص ٣٥. رنسيمان: تاريخ الحروب، ج٣، ص٣١٩.

الإمبراطور من جهة والبابوية والغرب الأوربي من جهة أخرى، وبدأ فيها صراع خفي حيناً وواضح أحياناً أخرى، وانقسمت المملكة بين مؤيد ومعارض لهذا أو ذاك.[١]

ولم تعمّر يولاند سوى ثلاث سنوات بعد زواجها من فردريك، وتوفيت في أول أيار ١٢٢٨م بعد أن أنجبت في ٢٥ نيسان كونراد الذي ورث عنها عرش المملكة، وانتزع اللقب من والده، وغدا هو الملك الشرعي لمملكة القدس، وغدا والده فردريك وكيلاً ووصياً عليه حتى بلغ سن الرشد عام ٦٤١هـ/ ١٢٤٣م[٢].

ومنذ عام ٦٤١هـ/ ١٢٤٣م –حيث بلغ كونراد سن الرشد – وحتى عام ٦٦٦هـ/ ١٢٦٨م كانت المحكمة العليا للمملكة تمارس السلطة على بيت المقدس، وتعمل بالاتفاق مع ممثلي ومؤسسات أخرى في المملكة، كما كانت تقوم أحياناً باختيار بعض الأعضاء الجدد في الحكومة من الصليبيين الزائرين.[٣]

وبسبب غياب كونراد في الغرب الأوربي وُضعت مملكة القدس تحت وصاية أليس Alice ملكة قبرص حتى يصل كونراد ويتولى الحكم بنفسه،[٤] وكانت أليس هي ابنة للملكة الراحلة إيزابيل بنت عموري من زوجها هنري الشامباني، تزوجها هيو بن عموري لوزجنان، ثم أصبحت سيدة قبرص الأولى ووصيةً على ابنها هنري الذي لم يتجاوز من العمر ثمانية أشهر عند وفاة زوجها هيو عام ٦١٥هـ/ ١٢١٨م،[٥] وعلى هذا فإن أليس هي خالة يولاند بنت ماري التي تزوجت من فردريك وأنجبت له كونراد.

كانت أليس قد طالبت في عام ٦٢٧هـ/ ١٢٢٩م المحكمة العليا في عكا بحقها في الوصاية على عرش المملكة بحكم القرابة، وكونها الوريث الشرعي بعد كونراد والأكثر قرابة لأمه المتوفاة –خالتها– مستغلةً غياب كونراد وأبيه فردريك في الغرب، ومضي أكثر من سنة ويوم – وهي المهلة القانونية

---

[١] مارشال، كريستوفر: فن الحرب وشؤونه في عصر الحروب الصليبية، تر: سهيل زكار، عن الموسوعة، ج٥٢، ص٥٦-٥٩.

[٢] دي نافار: حروب فردريك، عن الموسوعة، ج٣٥، ص٣٨.

[٣] سميث: الاسبتارية، ص١٠٥. سميث: فرسان القديس يوحنا، عن الموسوعة، ج٥٢، ص١١٧.

[٤] رحيل: نهاية الصليبيين، ص٤٥.

[٥] دي نافار: حروب فردريك، عن الموسوعة، ج٣٥، ص٣٩. رنسيمان: تاريخ الحروب، ج٣، ص١٥٨.

المسموحة لوريث العرش الجديد، وسيأتي توضيح ذلك في فصل النظام السياسي- دون أن يحضر كونراد إلى عكا لاستلام ميراثه في الحكم، وانشغاله هناك عن عرش المملكة، إلا أن هذا الطلب في البداية قوبل بالرفض لصغر سن كونراد وصيرورة الأمر إلى والده فردريك[١]. ولكن بعد أن بلغ كونراد سن الرشد في عام ٦٤١هـ/ ١٢٤٣م تغيَّر الحال، وتوجَّب عليه الحضور بنفسه إلى عكا لتولي الحكم فيها كما سيأتي شرحه.

وربما كان من أسباب رفض طلب أليس في البداية الخلاف الذي حدث مع أبناء عمومتها الإبلينيين لزواجها من بوهيموند الخامس صاحب أنطاكية، وبعد فسخ الزواج - بسبب قرابة الدم-[٢] تصالحت معهم، وتزوجت - بموافقتهم- من رالف كونت سواسون، وذلك سنة /١٢٤٠م، وكان الأخير شاباً فرنسياً لم يتجاوز من العمر نصف سنها.[٣]

وفي العودة إلى سياسة فردريك فإنه لم يقنع في الوصاية على عرش المملكة، وركب رأسه العناد بأن عمل على تتويج نفسه ملكاً عليها بعد أن أخذته العزة بدخوله للقدس الشريف والاستيلاء عليه - شكلاً لا فعلاً- بموجب اتفاقية يافا التي وقعها مع الكامل الأيوبي عام ٦٢٦هـ/١٢٢٩م، كما سيأتي تفصيله، وشق طريقه إلى القدس، وأتى كنيسة القيامة بها، وطلب من رجال الكنيسة أن يتوّجوه ملكاً بها، فرفضوا ذلك كونه محروم كنسياً، فما كان منه إلا أن أخذ التاج بنفسه ووضعه على رأسه معلناً أنه تلقى مُلكه وسلطانه من الإله مباشرة، دون أن يُلقي أي انتباه لقوانين مملكة القدس، وغير عابئ بآراء نبلائها، ومغتصباً لحق ابنه كونراد في وراثة عرشها.[٤]

وبهذا العمل دخل في نزاع كبير مع رجال الدين والنبلاء في المملكة، إلا أنه لم يكن متفرغاً لهذا الصراع، وكان مضطراً إلى العودة إلى إمبراطوريته في ألمانيا وصقلية لمعالجة مشاكلها، ولحمايتها من اعتداءات الجيوش البابوية عليها،[٥] فغادر عكا في ٦ جمادى الآخر ٦٢٦هـ /أول أيار ١٢٢٩م تاركاً

---

[١] دي نافار: حروب فردريك، عن الموسوعة، ج٣٥، ص ٥٠.

[٢] زكار، الموسوعة، ٣٥، ص ٢٣٧.

[٣] رنسيمان: تاريخ الحروب، ج٣، ص٣٨٦. وللمزيد من التفاصيل راجع، مها داوود: دور قبرص، ص٩٣.

[٤] عاشور: الحركة الصليبية، ج٢، ص ٢٥٢.

[٥] عن صراعات فردريك مع البابوية في أوربا، راجع التاريخ الكبير، ج٢، عن الموسوعة، ج٤٧، ص ٨٠٣ وما يليها.

المملكة في جملة من الصراعات الداخلية، فازدادت أوضاعها سوءاً وبؤساً، ودخلت في نزاع مرير لم ينته إلا بسقوطها على يد المماليك عام ٦٩٠هـ/ ١٢٩١م.

## ثانياً: بعد رحيل فردريك عن عكا عام ٦٢٦هـ/ ١٢٢٩م حتى قدوم لويس التاسع إليها عام ٦٤٨هـ/ ١٢٥٠م.

بعد رحيل فردريك عن مملكة القدس الثانية أرسل له أمراؤها سفارة في نهاية سنة ١٢٢٩م طالبين منه أن يرسل لهم ابنه كونراد ليكون ملكاً على مملكة القدس اللاتينية الثانية بوصفه الممثل والوريث الشرعي الوحيد للسلالة الملكية، وقد لقيت هذه السفارة ترحيباً من فردريك وأعطاهم من طرف اللسان حلاوة، إلا أنه لم ينفذ ما وعدهم به وهو إرسال ابنه كونراد بأقرب وقت ممكن، وبدلاً عنه أرسل لهم أحد قادته العسكريين "فيلانجيري" على رأس حملة عسكرية كمندوب عنه في عكا، ولم يكن للأخير قبولاً بين نبلاء المملكة وزعمائها الذين شكّلوا مجلساً بلدياً لحكم عكا، واختاروا صاحب بيروت حنا دي ابلين رئيساً له، ويمكن القول إن سلطة فلانجيري اقتصرت على صور – التي اتخذها مقراً له– وعلى مدينة بيت المقدس التي تَبِعت له مباشرة.[١] وليس البحث هنا للحديث عن النظام السياسي في عكا آنذاك، فذلك مبحث مستقل سيأتي الحديث عليه، والمهم هنا أن فردريك أخفق في إخضاع أمراء المملكة اللاتينية بالقوة، فعمد لعزل فلانجيري وعين بدلاً عنه أحد الأمراء المحليين هو "فيليب دي موجاستيل Maugastel" الذي لجأ إلى الوسائل الدبلوماسية[٢].

أما عن المجلس البلدي فقد تطور في عام ١٢٣٢م إلى قومون برآسة حنا دي ابلين John of Ibelin الذي تولى حكم العاصمة عكا[٣]، وقد أصبحت المحكمة العليا هي صاحبة القرار في اختيار الوصي على عرش المملكة.[٤]

---

[١] دي نافار: حروب فردريك، عن الموسوعة، ج٣٥، ص ٥٠-٥١. عاشور، الحركة الصليبية، ج٢، ص ٢٥٦.

[٢] دي نافار: حروب فردريك، عن الموسوعة، ج٣٥، ص ٥٧.

[٣] عاشور، الحركة الصليبية، ج٢، ص ٢٥٨.

[٤] براور، يوشع: الاستيطان الصليبي في فلسطين، تر: عبد الحافظ البنا، عين للدراسات، ط١، ٢٠٠١م، ص١٤٣. رحيل: نهاية الصليبيين، ص٤٦. للاستزادة أنظر: غروسيه، رنيه: موجز تاريخ الحروب الصليبية، تر: أحمد إيبش، هيئة أبو ظبي للسياحة، دار الكتب الوطنية، ط١، ٢٠١٤م، ص٨٤.

وفي ١٥ نسيان ١٢٤٣م بلغ كونراد هوهنشتاوفن بن فردريك ويولاند سن الرشد – الخامسة عشر من عمره– وبذلك لم يعد لوالده حق الوصاية عليه، وأصبح من واجبه الحضور إلى عكا ليتولى مقاليد الحكم في مملكة القدس اللاتينية الثانية، إلا أنه لم يكن لديه الرغبة في ذلك؛ بسبب المشاكل التي كان يتعرض لها والده فردريك في أوربا، وعِوضاً عن قدومه إليها فضّل إرسال نائب عنه هو "توماس أكيرا"، هنا رأى بارونات المملكة أنه من الواجب عليهم أن يرشحوا الوريث التالي الذي في متناول أيديهم ليكون وصياً على المملكة، وكان هذا الوريث هو خالة أم كونراد، ملكة قبرص "أليس" التي ما فتئت في المطالبة بذلك[١]، وبناءً على ذلك دعا باليان دي إبلين – سيد بيروت بين عامي ١٢٣٦-١٢٤٧م – وفيليب مونتفورت –سيد تورون– إلى عقد مجلس في عكا في نهاية عام ٦٤٠هـ/ ٥ حزيران ١٢٤٣م وعقد المجلس بحضور جميع البارونات المحليين وممثل عن الكنيسة، ورئيس أساقفة صور وأساقفة المملكة، ومقدم الداوية، وموظفين أُرسلوا من قبل القومون، ورئيسي جاليتي الجنويين والبنادقة، وأثناء الاجتماع تولى فيليب نوفارا شرح الوضع القانوني لعرش مملكة القدس اللاتينية الثانية، ورأى أنه لا ينبغي بذل الولاء للملك كونراد ما لم يحضر ليتلقاه بنفسه، وعلى هذا يجب أن يُعهد بالوصاية على عرش المملكة إلى أليس وزوجها ريثما يأتي كونراد، كون أليس الأكثر شرعية وأحقية في العرش من أي إنسان كان موجوداً في المملكة.[٢]

ويبدو أن الذي اعترض على ذلك هو سيد قيسارية القسطلان يودس مونتبليارد فقط، ورأى أنه يجبب أن يُطلب رسمياً إلى كونراد القدوم لزيارة مملكته وإلّا سوف تُقبل خالته ملكة، وأضاف أنه يجب عدم اتخاذ أي قرار إلا بعد أن يصل رده على ذلك، إلا أن الإبلينيين وغيرهم رفضوا ذلك[٣]، وحلف المجلس "البرلمان" يمين الولاء لأليس وزوجها رالف كونت سواسون، ولكن مع احترام حقوق كونراد، وكذلك أقسمت الملكة أليس وزوجها –وفقاً للعادات– بين يدي رئيس أساقفة صور والبارونات،

---

[١] دي نافار: حروب فردريك، عن الموسوعة، ج٣٥، ص ٦٥. روايات معاصرة حول الاعتراف بالملكة أليس وبالاستيلاء على صور– رواية جون دي ابلين صاحب يافا حول "الوثائق المتعلقة بالوصول إلى وكالة المملكة ونيابتها"، عن الموسوعة، ج٣٥، ص ٢٢٢-٢٢٣.

[٢] روايات معاصرة حول الاعتراف بالملكة أليس وبالاستيلاء على صور (رواية الوكيل البندقي جورجيو مرسيليو)، عن الموسوعة، ج٣٥، ص٢١٨– ٢١٩، ٢٢٣.. رنسيمان: تاريخ الحروب، ج٣، ص٣٨٦.

[٣] روايات معاصرة حول الاعتراف بالملكة أليس، عن الموسوعة، ج٣٥، ص٢٢٣. رنسيمان: تاريخ الحروب، ج٣، ٣٨٦.

وتعهدت بالمحافظة على عادات المملكة فيما يتعلق بالبارونات والفرسان وعامة الشعب، والمحافظة على أوضاع الكنيسة ورجال الدين، ولسوف ترعى امتيازات الأفراد وتحافظ عليها، وسترعى "المعاهدة والامتيازات مع دوج البندقية وكومونة البنادقة"[١].

واستمرت في الوصاية على عرش عكا حتى وفاتها في عام ٦٤٤ هـ/ ١٢٤٦م، ويبدو أن أليس أنابت عنها في مملكة القدس رئيس قومون عكا "حنا دي ابلينJohn of Ibelin "، وبذلك أصبح الأخير حاكم العاصمة ونائباً للمملكة، واستمر حتى وفاته في عام ١٢٤٧م، حيث تولى النيابة بعده أخوه صاحب أرسوف "جون أوف ابلين"[٢].

وعن موقف فردريك من تلك الأحداث فإنه قد عهد بحكم صور إلى لوثير -أخ فلانجيري-، وبعد أن أنهى المجلس سالف الذكر اجتماعاته في عكا وعهد بالوصاية على عرش المملكة لأليس وزوجها أصدر على الفور بالشهر نفسه ذي الحجة ٦٤٠هـ/حزيران ١٢٤٣م أمراً إلى لوثير يأمره بتسليم مدينة صور إلى الوصيين، ولما رفض لوثير زحف إلى صور كل من باليان إبلين ومعه فيليب دي نوفار وفيليب مونتفورت، تساندهم قوات من البنادقة والجنويين، وأيدهم سكان المدينة الذين كانوا قد سئموا حكم فيلانجيري، وتمكن الحلفاء من دخولها بعد ثلاثة أيام من الزحف عليها، وتم احتلال مركز الاسبتارية والتيوتون فيها[٣]، وصمدت قلعة المدينة التي لجأ إليها لوثير مدة شهر، ولم تسقط إلا بعد أن وقع فيلانجيري أسيراً في قبضة أعدائه الذين هددوا بشنقه مالم تذعن الحامية، فاضطر لوثير لقبول التسليم مقابل سلامته وسلامة أخيه وحاشيتهما وأمتعتهما، ويبدو أن أليس قدمت إلى صور لتسلمها، وبذلك

---

[١] روايات معاصرة حول الاعتراف بالملكة أليس، عن الموسوعة، ج٣٥، ص ٢٢٠، للاستزادة أنظر ص ٢١٩، ٢٢٣-٢٢٤.

[٢] الفارس الداوي: أعمال القبارصة، ص٢٦.

[٣] روايات معاصرة حول الاعتراف بالملكة أليس، عن الموسوعة، ج٣٥، ص٢٢٠-٢٢١. للاستزادة أنظر، داوود، مها: دور قبرص في أحداث الحروب الصليبية من أواخر القرن ٦هـ/ ١٢م حتى أواخر ٨هـ/ ١٤م، أطروحة غير منشورة أعدت لنيل درجة الدكتوراه بإشراف أ.د. وفاء جوني، جامعة دمشق، ٢٠٠٩-٢٠١٠م، ص١٠١.

انتقل حكم صور إليها بصفة رسمية، وأصبحت جميع مملكة القدس اللاتينية الثانية تدين بالولاء للوصية أليس وزوجها رالف.[١]

ويبدو أنه كان قد وقع خلاف بين المنتصرين حول تبعية صور، وأصرَّ رالف على تبعيتها له معترضاً بذلك على مطالب فيليب مونتفورت سيد تبنين القريبة من صور، ولم يكتف البارونات بعدم مساندة رالف في المواجهة مع فيليب، لا بل أعلنوا أنهم سوف يحتفظون بالمدينة في ذمتهم حتى يطمئنوا إلى من تكون له، هنا أدرك رالف أن سلطته في المملكة لم تكن إلا اسمية، وشعر بالمهانة والامتعاض؛ لذا قرر ترك الوصاية على المملكة ومغادرتها إلى فرنسا، أما الملكة أليس فقد استمرت في الوصاية على عرشها حتى وفاتها عام ٦٤٥هـ/ ١٢٤٦م.[٢]

وبعد أن توفيت أليس آلت الوصاية على عرش مملكة القدس إلى ولدها الملك هنري Henry الذي استمر في وصايته تلك وهو متغيب في قبرص حتى وفاته في ١٠ ذي القعدة ٦٥٠هـ/ ١٨ كانون الثاني ١٢٥٣م، وتبع أليس في العام التالي نائبها في عكا باليان أف ابلين – صاحب بيروت بين عامي ٦٣٣-٦٤٥هـ/ ١٢٣٦-١٢٤٧م- فأناب هنري عنه في عكا لإدارة المملكة يوحنا ابلين John of Ibelin صاحب أرسوف – أخ باليان- وأصبح يوحنا كفيل المملكة منذ عام ٦٤٦هـ/١٢٤٨م[٣]، واستمر حتى وفاته في أواخر عام ٦٥٦هـ/ ١٢٥٨م، وفي بداية العام الذي يليه تم تعيين الفرنسي السير غيوفري أوف سيرين في عكا كنائب وكفيل للمملكة.[٤]

وقد اعترضت على وصاية هنري على مملكة القدس أخت غير شقيقة لأليس، هي "ميليسند" أميرة أنطاكية، واحتجت بأن هنري ليس لديه من الصفات ما يؤهله لذلك المنصب، وليس بإمكانه فرض سلطته في المملكة، إلا أنه لم يكن لدعواها هذه أي تأثير قانوني على هنري.[٥]

---

[١] روايات معاصرة حول الاعتراف بالملكة أليس، عن الموسوعة، ج٣٥، ص ٢٢١. كريستوفر، فن الحرب في الشرق اللاتيني، عن الموسوعة، ج٥٢، ص ٥٩. رنسيمان: تاريخ الحروب، ج٣، ص٣٨٨. داوود: دور قبرص، ص١٠١.

[٢] روايات معاصرة حول الاعتراف بالملكة أليس، عن الموسوعة، ج٣٥، ص٢٢٥. دي نافار، حروب فردريك، عن الموسوعة، ج٣٥، ص ٢٠٩.

[٣] الفارس الداوي: أعمال القبارصة، ص٢٦. رحيل: نهاية الصليبيين، ص٤٦-٤٧.

[٤] الفارس الداوي: أعمال القبارصة، ص٤١.

[٥] رنسيمان: تاريخ الحروب، ج٣، ص ٤٠٠-٤٠١.

## ثالثاً: أثناء وجود الملك الفرنسي لويس التاسع في المملكة ٦٤٨- ٦٥٢ هـ/ ١٢٥٠-١٢٥٤م[١]

بعد إخفاق الحملة السابعة في مصر، وافتكاك الملك الفرنسي لويس التاسع من أسر المماليك – كما سيأتي تفصيله- قَدِمَ إلى عكا في منتصف صفر ٦٤٨هـ/ منتصف أيار ١٢٥٠م، وكانت آنذاك مملكة القدس في وصاية ملك قبرص هنري وكفالة يوحنا دي ابلين – كما سلف ذكره- فلجأ نبلاء وبارونات المملكة إلى الاعتراف بسلطة لويس التاسع كحاكماً فعلياً على المملكة، وذلك على الرغم من وجود كونراد على قيد الحياة في ألمانيا وهو صاحب الحق الشرعي والقانوني في عرش المملكة، ولم يعارض ذلك كفيل المملكة يوحنا، وسلَّم زمام الحكم بشكل نهائي إلى الملك لويس.[٢]

ويمكن تعليل موقف النبلاء والبارونات ذاك بسوء أوضاع المملكة بعد اخفاق الحملة السابعة على مصر بقيادة لويس، وما لحق المملكة من خسائر كبيرة في الأرواح والعتاد، بالإضافة إلى قيام دولة جديدة في مصر غير مأمونة الجانب، فكان لا بدّ لعكا من شخصية قوية تنال رضى الجميع، وتجتمع الكلمة عليها وتنهي صراعات المملكة[٣].

كان لا بدّ لعكا من شخصية قوية تجمع شمل المملكة وتؤمنها من شر الانقسام وتطفئ نار الفتنة المعتادة الوقوع في عكا لأسباب عدة، سواء سياسية أم اقتصادية تجارية.

ويضاف إلى ذلك أن لويس لم يمثل خطراً على نفوذ مراكز القوى في مملكة عكا على المدى الطويل، إذ إنه لم يطالب بعرش المملكة، ولم يظهر أنه سعى لسلب كونراد بن فردريك حقه بها.

---

[١] هناك أطروحة دكتوراه بهذا المعنى، ولكن أهداف هذه الفقرة تختلف عن تلك الأطروحة، التي هي: الدكيفي، خالد: لويس التاسع والنشاط الفرنسي الصليبي من معركة المنصورة حتى وفاته (٦٤٨-٦٦٩هـ/ ١٢٥٠-١٢٧٠م)، أطروحة أعدت لنيل درجة الدكتوراه في تاريخ العرب والإسلام، بإشراف أ.د. وفاء جوني، قسم التاريخ، جامعة دمشق ٢٠١١م.

[٢] رنسيمان: تاريخ الحروب، ج٣، ص ٤٧٣-٤٧٤. زيادة، محمد مصطفى: حملة لويس التاسع على مصر وهزيمته في المنصورة، المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية، ط١، ٢٠٠٠م، ص٢٤٤.

[٣] رحيل: نهاية الصليبيين: ص٤٨.

ويمكن القول إن نبلاء المملكة في عكا قد اطمأنوا إلى أن اقامة لويس عندهم لن تطول بسبب المشاكل المتفاقمة في مملكته الغربية، ورسائل أمه المتكررة التي تحثه على العودة مسرعاً إلى فرنسا.[١]

ولا توجد تفاصيل أكثر عن الوضع القانوني للملك لويس في عكا، وما رُتب له بها، إلا أنه يتضح آنذاك أنه تقرر الاعتراف بلويس سيداً وملكاً أثناء غياب كونراد، فسعى لويس جاهداً -ربما بدافع ديني- إلى توطيد أركان المملكة وإعادة ترميم سمعته بها دون أن ينكر أحقية وسلطة كونراد فيها بصفته الملك الشرعي.

ويمكن تعليل سياسة نبلاء المملكة تلك تجاه لويس بعجزهم عن انتهاج سياسة معارضة له، وذلك للتأييد الكبير له من قبل البابا، يضاف إلى ذلك حُسن المعاملة من قبل لويس لهم، وتقربه إليهم منذ وصوله إلى ساحل عكا قادماً من مصر، ولاسيما تجاه آل ابلين، حيث إنه منح يوحنا ابلين - سيد أرسوف ونائب الوصي على عرش المملكة وكفيلها آنذاك- اقطاع يافا، كما منح فيليب مونتفورت Philip of Montfort إقطاع صور- وكان هذا الأخير صهراً للأسرة الابيلينية، وهو ابن جاي مونتفورت، وأمه هيلفيس أبلين، وكان شديد الولاء لأخواله، وشارك مشاركة فعالة في الأحداث السياسية والعسكرية لمملكة القدس الثانية، واغتالوه الحشيشيه في عام ٦٦٩هـ/ ١٢٧٠م-[٢] وكذلك أحسن لويس إلى عموم نبلاء المملكة.[٣]

يضاف إلى ذلك أن نبلاء وبارونات المملكة - وعلى رأسهم حنا كونت يافا- شكّلوا حزباً معادياً لحزب البارونات الفرنسيين الذين نادوا بضرورة عودة لويس إلى فرنسا، في حين أصر بارونات الحزب الأول على ضرورة بقاء لويس في المملكة لمدة سنة واحدة على الأقل، ريثما تسترجع مملكتهم شيئاً من قوتها السابقة ذلك أن معظم قواها العسكرية قد دمّرت في معارك مصر.[٤]

---

[١] رحيل: نهاية الصليبيين: ص٤٨.

[٢] رحيل: نهاية الصليبيين: ص٤٩.

[٣] رحيل: نهاية الصليبيين: ص٤٩.

[٤] جوانفيل، جين: حياة القديس لويس، تر: سهيل زكار، الموسوعة الشاملة في تاريخ الحروب الصليبية، ج٣٦، ص١٥٦-١٥٨. زيادة، حملة الملك لويس، ص٢٤٠-٢٤١. يوسف، جوزيف نسيم: العدوان الصليبي على بلاد الشام (هزيمة لويس التاسع في الأراضي المقدسة)، دار الكتب الجامعية، ط٣، ١٩٧١م، ص ١٠٧-١٠٨

ويبدو أن لويس قد انساق وراء رغبات هؤلاء البارونات المحليين مغامراً بمصير مملكته الفرنسية وذلك مقابل أن يضمن بقاء مملكة القدس، فإثر إصرار البارونات الفرنسيين وإلحاحهم عليه بضرورة سفره إلى فرنسا لإنقاذ مملكته هناك من الأخطار المحدقة بها، ردَّ لويس عليهم في إحدى الاجتماعات قائلاً: "انني إذا ما غادرت فإن هذه البلاد سوف تضيع، لأن جميع الرجال الموجودين الآن في عكا سوف يلحقون بي، وما من أحد سيجرؤ على البقاء، حيث الناس قلة"[١]، وأوضح لهم أنه لا يستطيع أن يترك دولة بيت المقدس تفنى مهما كلفه البقاء بقربها من تضحية أو ثمن.

ويُحسب للويس الجهود الكبيرة التي بذلها في تدعيم وتوطيد أركان المملكة سواءً على الصعيد السياسي الدبلوماسي أم على الصعيد العسكري كتدعيم دفاعات المدن في المملكة، أم على صعيد حل مشاكل الكيانات الصليبية الأخرى.[٢]

ويمكن القول إنه لكل تلك الأسباب أصبح لويس التاسع ملكاً غير متوج في عكا، واستمرت علاقاته الطيبة مع فردريك الثاني، إذ تذكر المصادر والمراجع أنه أثناء وقوع لويس في الأسر في مصر عام ٦٤٨هـ/١٢٥٠م أرسل فردريك ليشفع له عند توران شاه سلطان مصر آنذاك.[٣]

وقبل أن يرحل لويس التاسع عن عكا توفي الوصي على عرشها هنري ملك قبرص في ذي القعدة ٦٥٠هـ/ ١٨ كانون الثاني ١٢٥٣م، وانتقلت وراثة الحكم إلى ابنه الصغير هيو الثاني Hugh II الذي لم يتجاوز من العمر بضعة أشهر، وحكم قبرص بين عامي ( ٦٥٠-٦٦٥هـ/ ١٢٥٣-١٢٦٧م)، وبسبب صغر سنه في البداية تولت الوصاية عليه أمه بيليسانس – زوجة هنري وبنت بوهيموند الخامس صاحب أنطاكية المتوفي عام ١٢٥٢م- ولأن هيو ورث عن أبيه الوصاية على عرش مملكة القدس اللاتينية الثانية فقد طالبت بيليسانس بالوصاية الاسمية على عرش المملكة كونها وصية على الوصي، مما

---

[١] جوانفيل، حياة لويس، عن الموسوعة، ج٣٦، ص ١٥٦.

[٢] رحيل: نهاية الصليبيين: ص٤٩. نقلاً عن ريشار، تكوين مملكة بيت المقدس، ص١٧٣. عبد الوهاب، حسن: تاريخ قيسارية الشام في العصر الإسلامي، الإسكندرية، ١٩٩٠م، ص١٩٥.

[٣] زيادة، حملة الملك لويس، ص٢٤٤. (لم يتسنى للبحث الوقوع على هذا الخبر عند سواه)

عقَّد أمور الوصاية والوراثة، وفي الوقت الذي أقرت به المحكمة العليا في قبرص وضع الجزيرة تحت وصايتها اشترط بارونات مملكة القدس قدوم بيليسانس إلى عكا لتتولى الوصاية على المملكة.[١]

ولم يقف الأمر عند ذلك؛ إذ رفض القانونيون في مملكة القدس أن يحلفوا لبيليسانس يمين الطاعة حتى تصل بنفسها إلى عكا، ويمكن القول إن الذي تولى القيادة الفعلية في كل هذه المرحلة هو الملك لويس التاسع، واستمرّ طوال مدة بقائه في عكا حتى رحيله عنها عام ٦٥٢هـ/ ١٢٥٤م –كما يتضح ذلك في الفصل السادس من هذه الأطروحة–[٢]. ويستنتج من ذلك أن الوصاية على عرش المملكة والصراع القانوني عليها لم تكن سوى بشكل شكلي وروتيني لا قيمة له على أرض الواقع، مما يؤكد ويدعم قاعدة الحكم للأقوى.

## رابعاً: النزاع على عرش المملكة في عهد كونرادين هوهنشتاوفن ٦٥٢– ٦٦٧هـ/ ١٢٥٤– ١٢٦٨م

بعد رحيل لويس التاسع عن عكا تم الاعتراف ببليسانس وصيةً على عرش مملكة القدس اللاتينية الثانية، إلا أن بليسانس كانت منشغلة في مشاكل قبرص، وفي توطيد مركز ابنها – الملك الصغير– فيها، لذا لم يتسنَّ لها القدوم إلى عكا آنذاك، فأنابت عنها فيها يوحنا ابلين –سيد أرسوف– ثم اضطرت إلى استدعائه إلى قبرص في عام ٦٥٢هـ/ ١٢٥٤م؛ لعجزها عن إدارة شؤون قبرص بنفسها، فترك منصب نائب الملك في عكا بيد يوحنا ابلين– هو سيد يافا، وابن فيليب أخ يوحنا ابلين الكبير سيد بيروت، ولد عام ٦١٣هـ/ ١٢١٦م، وتوفي عام ٦٦٥هـ/ ١٢٦٦م، حاز إقطاع مدينة يافا من قبل هنري ملك قبرص أثناء وصايته على عكا–[٣]، ورُتِب لمعاونة يوحنا ابلين في إدارة المملكة جيفري سارجنيس، وهو نبيل فرنسي، تولى عدة مناصب ادارية كان أعلاها نائب الملك في عام ١٢٥٩، وتوفي في عام

---

[١] رنسيمان: تاريخ الحروب، ج٣، ص٤٧٩–٤٨٠. رحيل: نهاية الصليبيين: ص٥٠.

[٢] للاستزادة أنظر: رنسيمان: تاريخ الحروب، ج٣، ص٤٨٠.

[٣] رحيل: نهاية الصليبيين، ص٥٢، حاشية رقم ١. وللمزيد عن أوضاع قبرص آنذاك راجع رسالة داوود، مها، دور قبرص في الحروب الصليبية.

٦٦٨هـ/١٢٦٩م، وكان قد أسند إليه لويس التاسع قبل مغادرته عكا القوة الفرنسية التي تركها لتساند المملكة.[١]

وهنا لا بدّ من الإشارة إلى أن سارجنيس الذي وثقت به الملكة بليسانس كان غريباً عن فرنج الشرق، أي أنه لم يكن لديه من القوة والمكانة التي تؤهله للأمر والنهي، مما زاد في أوضاع المملكة سوءاً وتفاقماً بسبب احتدام الصراع الداخلي فيها.[٢]

في ظل هذه الأوضاع والنزاعات والخصومات على وراثة ووصاية عرش عكا توفي الملك الشرعي لمملكة القدس اللاتينية الثانية كونراد هوهنشتاوفن بن فردريك والملكة الشرعية يولاند، وذلك في ألمانيا عام ٦٥٢هـ/ ١٢٥٤م بعيداً عن تلك النزاعات والخصومات سالفة الذكر، وبوفاته انتقل عرش المملكة -بحكم الوراثة - إلى ابنه الصغير كونرادين، وكانت أم الأخير ابنة دوق النمسا أعظم شخصيات ألمانيا آنذاك.[٣]

واستمر يوحنا سيد يافا متولياً لمنصب نائب الملك في عكا دون أن يمتلك الصفات التي تؤهله لذلك حتى عودة يوحنا سيد أرسوف- من قبرص- لمنصبه في عام ٦٥٤هـ هـ/١٢٥٦م، فأتاح الأخير المجال لمعاونة كونستابل المملكة جيفري سارجنيس له، وأخذ الأخير يتصرف وفق ما تقتضي مصالح فرنسا ومصالحه الخاصة، فخرق اتفاقاً كان قد عقده نائب الملك يوحنا -سيد يافا- مع المماليك عام ٦٥٢هـ/ ١٢٥٤م، مما صعّد الموقف مع المماليك في الوقت الذي كانت فيه القيادة في عكا وقبرص تميل إلى التهدئة معهم بسبب الحاجة الملحة لذلك، فاضطر يوحنا سيد أرسوف للعودة من قبرص إلى عكا ليتولى نيابة الملك فيها للمرة الثانية، وذلك في عام ٦٥٤هـ/ ١٢٥٦م[٤]، إلا أنه لم يستطع رأب الصدع،

---

[١] رحيل: نهاية الصليبيين، ص٥١، حاشية رقم ١.

[٢] رنسيمان: تاريخ الحروب، ج٣، ص ٤٨٩.

[٣] الفارس الداوي: أعمال القبارصة، ص٢٣. ماير: الحروب الصليبية، ص ٣٩١. رحيل: نهاية الصليبيين: ص٥١. علي، سهير محمد مليجي: المرأة الصليبية في بلاد الشام (١٠٩٨-١٢٦٨م)، بحث أُعد لنيل درجة الدكتوراه في الآداب، بإشراف: علية الجنزوري، جامعة عين شمس، كلية البنات، ٢٠٠٢م، ص١٢٢.

[٤] رحيل: نهاية الصليبيين: ص٥٢. ابراهيم سعيد: يافا، ص٢٥٠.

وتعقدت المشاكل في عكا، وتفاقمت بها الصراعات والخلافات الداخلية، وغرقت في حرب أهلية سُميت بحرب القديس سابا وليس الموضع هنا للبحث في تلك الحرب[١].

وبسبب تأزم الموقف وسوء الأوضاع في عكا اضطرت الملكة بليسانس إلى القدوم إليها في محاولة منها لإنهاء الحرب الداخلية ولإثبات سلطتها وحقها في الوصاية على عكا، فقدمت إليها عام ٦٥٦هـ/ ١٢٥٨م بصحبة طفلها الملك هيو الذي لم يتجاوز الخامسة من عمره، وبصحبة أخيها بوهموند السادس أمير أنطاكية الذي اصطحبته معها بعد نزولها عنده في طرابلس وهي في طريقها إلى عكا، ولما انعقدت المحكمة العليا طلب إليها بوهموند السادس الاعتراف بحق ملك قبرص هيو الثاني في الوصاية على عرش عكا، وتأدية يمين الولاء له كوصي على عرش المملكة، ولأمه وصية عليه حتى يبلغ سن الرشد أو يعود الملك الغائب كونرادين، فأقرّت المحكمة حقوقهما بذلك مع احترام حق الملك الشرعي كونرادين.[٢]

وبدلاً من أن يسهم ذلك في تهدئة النزاعات والصراعات في المملكة من خلال احتدام أطراف النزاع فيها إلى الوصي على عرشها الموجود بين ظهرانيهم وإسناد مهمة إنهاء حرب القديس سابا إليه؛ إلا أن شيئاً من ذلك لم يكن، وكان الأمر معاكساً تماماً، حيث زاد وجود الوصي وأمه الطين بلة، فالإسبتارية والجنوية وفيليب مونتفورت رفضوا قرار المحكمة العليا بتأدية يمين الولاء والطاعة للملك وأمه كأوصياء على عرش المملكة، واشترطوا حضور الملك الغائب كونرادين، ومن المفارقة أنهم كانوا قبل ذلك أعداء ألداء لفردريك الثاني، وبالطبع كان هذا شرطاً تعجيزياً بسبب استحالة حضور كونرادين في الوقت الذي كانت به الحاجة ملحة لشغل منصب الملك والاحتكام إليه لفض النزاع في المملكة، فاعترفت الغالبية بحق الملكة بليسانس وابنها هيو، وقدّموا لها يمين الولاء والطاعة.[٣]

وترتب على ذلك أن أصبحت الملكة بليسانس وابنها هيو ضمن أحد طرفي حرب القديس سابا، مما عقّد الموقف، ويمكن القول إنه بسبب عجز بليسانس عن اتخاذ أي إجراء لتهدئة النزاعات في عكا

---

[١] عن تلك الحرب راجع، الفارس الداوي: أعمال القبارصة، ص٢٩-٤١.

[٢] رنسيمان: تاريخ الحروب، ج٣، ص٤٩٠.

[٣] رنسيمان: تاريخ الحروب، ج٣، ص٤٩١.

قررت ترك عكا والعودة إلى قبرص تاركةً يوحنا سيد أرسوف نائباً عنها في عكا، وأوصته باستخدام الشدة والصرامة في التعامل مع المتمردين.[١]

وما لبث أن توفي يوحنا ابلينJohn of Ibelin سيد أرسوف في ٦٥٦هـ/ أواخر سنة ١٢٥٨م، فعهدت بليسانس في بداية العام التالي بأمر النيابة بدلاً عنه إلى قائد القوة الفرنسية في عكا جيفري سارجنيس (غيوفري اوف سيرين)، وتميز هذا بأنه رجل قضاء قوي جداً، نفّذَ الأحكام والقوانين في المملكة بكل قوة وصرامة.[٢]

ويمكن القول إنه بهذه المرحلة ساء موقف المملكة كثيراً على الصعيد الخارجي بسبب الضغط المغولي وتهديدهم لأطرافها[٣]، وتضاربت سياسات المملكة آنذاك سواءً تجاه المسلمين أم تجاه المغول، بسبب ضعف سياسة جفري سارجنيس دون أن تتخذ الملكة القبرصية بليسانس والوصية على عرش عكا أي إجراء من شأنه تحسين موقف المملكة أمام أعدائها، وظهر جلياً أن بليسانس لم يكن يهمها من مملكة عكا سوى الشكل القانوني والصفة الرسمية لها، وأن يُنادى بها كوصية على المملكتين.[٤]

واستمرت أحوال المملكة على هذا الحال إلى أن توفيت الملكة القبرصية الوصية على عرش مملكة القدس "بليسانس" في ٦٦٠هـ/ أيلول ١٢٦١م، فازدادت أوضاع المملكة سوءاً، إذ شغر عرشها من جديد، وفَقَدَ جفري سارجنيس شرعيته وانهارت حكومته في ١٢٦٣م كونه نائباً وممثلاً للوصية على عرش المملكة، ومن جديد احتاج الأمر لتعيين وصي على قبرص وعكا، كون الملك الصغير هيو الثاني لم يتجاوز الثامنة من عمره، وبذلك فتح من جديد باب الصراع على عرش المملكة، ومن الغرابة أن محور هذا الصراع كان في قبرص، وغدت عكا وكأنها تابعة لها، وانحصر الصراع في النهاية ضمن الأسرة الحاكمة في قبرص، حيث كان لهنري المتوفي -زوج بليسانس- أختين، الكبرى تدعى "ماريا، والصغرى "إيزابيل"، وتزوجت ماريا من والتر بريين، وتوفيت في مرحلة مبكرة من عمرها بعد أن خلفت له ولداً اسمه هيو، أما إيزابيل فقد تزوجت من هنري الأنطاكي - شقيق أمير أنطاكية بوهموند الخامس- وأنجبت

---

[١] الفارس الداوي: أعمال القبارصة، ص٣٢-٣٣.رنسيمان: تاريخ الحروب، ج٣، ص٤٩١. رحيل: نهاية الصليبيين، نقلاً عن: Asssises de Jerusalem, tome II, par Benugonot, Paris, 1843, p. 401.

[٢] الفارس الداوي: أعمال القبارصة، ص٣٦، ٤١.

[٣] انظر: الفارس الداوي: أعمال القبارصة، ص٤٣-٤٤.

[٤] رحيل: نهاية الصليبيين، ص٥٤-٥٦.

منه ولداً اسمه هيو أيضاً، وكان هيو الأنطاكي أكبر سناً من هيو البريوني، وعندما توفيت الوصية بليسانس عام ٦٦٠هـ/١٢٦١م طالبت إيزابيل بالوصاية على ابن أخيها هيو الثاني بن هنري، ومن ثم الوصاية على عرش مملكة القدس اللاتينية الثانية على الرغم من أحقية هيو البريوني بالوصاية كون أمه ماريا أكبر من أختها إيزابيل، وله الحق في الوراثة طبقاً للقوانين السائدة في الشرق اللاتيني آنذاك، ولكن لم يشأ البريوني أن ينافس خالته إيزابيل في هذا المنصب احتراماً لها وكونه تربى عندها.[١]

ورداً على طلب إيزابيل في الوصاية على عرش قبرص ومملكة القدس أتى الرد الأول من المحكمة العليا في قبرص بالرفض على دعواها لنفسها، ومُنحت أحقية الوصاية لابنها هيو الأنطاكي، وحجة المحكمة العليا آنذاك هو أفضلية الرجال على النساء في هذه الوظيفة، وكون هيو الأنطاكي أكبر الأمراء الذين يجري فيهم الدم الملكي آنذاك، لذا تقرر تعيينه وصياً على الملك هيو الثاني وعلى عرش مملكة قبرص.[٢]

أما الرد الثاني فكان من قبل المحكمة العليا في عكا التي رفضت الاعتراف بوصاية إيزابيل على العرش حتى تمثل بنفسها أمام هيئة المحكمة وتطالب بحقها في الوصاية، ولم تحضر إيزابيل إلى عكا حتى ربيع عام ٦٦٢هـ/ ١٢٦٣م، وبذلك تهيأت للمحكمة العليا في عكا برهة من الزمن لإمعان النظر في أمر الوصاية على عرش المملكة، وعندما طالبت إيزابيل بحق الوصاية أقرت المحكمة لها ذلك، وتم الاعتراف بها وصية على عرش مملكة القدس اللاتينية الثانية.[٣]

وبذلك يكون منصب الوصي على عرش مملكة القدس قد خلا لمدة عامين، منذ وفاة بليسانس عام ٦٦٠هـ/ ١٢٦١م حتى تعيين إيزابيل في ٦٦٢هـ/ ١٢٦٣م، واستمرت المملكة بدون وصي على العرش كما أنها بدون ملك –لغيابه عنه– ولكن يبدو أن الذي تولى القيادة في هذه المرحلة هو جفري سارجنيس، الذي استمر خلال هذين العامين في منصبه كنائب للوصي في عكا، ولكن بشكل غير قانوني لانعدام وجود وصي على عرش المملكة، وكون التي أنابته عنها في هذا المنصب – وهي

---

[١] رنسيمان: تاريخ الحروب، ج٣، ص٣٩٧.

[٢] رنسيمان: تاريخ الحروب، ج٣، ص٣٩٧. نهاية الصليبيين: ص٥٧. نقلاً عن سهير المليجي، المرأة الصليبية، ص١٢٣.

[٣] رنسيمان: تاريخ الحروب، ج٣، ص٤٩٧. رحيل: نهاية الصليبيين، ص٥٧.

بليسانس- قد توفيت، أما الآن بعد إقرار حق إيزابيل في الوصاية فقد استقال سارجنيس من منصب نيابة الوصي، وكون إيزابيل لا تنوي الاقامة في عكا فإنها أنابت عنها في عكا زوجها هنري الأنطاكي، ويممت نحو قبرص تاركة له شؤون عكا والمملكة.[١]

ويمكن القول إنه على الرغم من اعتراف المحكمة بها كوصية إلا أنه لم يحلف النبلاء لها يمين الولاء، لِما راودهم من شكوك حولها، ولعدم نيتها الإقامة في عكا.[٢]

وما لبثت أن توفيت إيزابيل عقب عودتها إلى قبرص في عام ٦٦٣هـ/ ١٢٦٤م، ومن جديد شغر منصب الوصي على عرش عكا، وبدأ صراع عنيف غير مسبوق على منصب الوصاية بين ابنها "هيو الأنطاكي" وابن أختها ماري "هيو البريوني"، ورفعا قضيتهما إلى المحكمة العليا في عكا، واحتج البريوني بأنه ابن البنت الكبرى، وله الحق في الوراثة والوصاية على عرش المملكة، وذلك حسب القوانين الفرنسية المعمول بها في المملكة. في حين احتج الأنطاكي بأنه الوريث الشرعي لآخر من تولى الوصاية، وأن البريوني ليس له الحق في الوراثة كون أمه ماري قد توفيت، وأخوها الملك هنري لا يزال على قيد الحياة، لذلك فهي لا ترثه، ولا يمكن أن ينتقل حق الوراثة لأبنائها.[٣]

لم تكن تلك المنازعة على الحكم سهلة الحل بالنسبة إلى المحكمة العليا في عكا، فهي سابقة ولم تتعرض لمثلها المحكمة العليا التي استمرت في اجتماعاتها عدة أيام متوالية لحل تلك المنازعة والصراع على العرش، وفي النهاية قررت المحكمة العليا فض النزاع لصالح هيو الأنطاكي على الرغم من أحقية البريوني في ذلك، وتم تعيين الأول في منصب الوصي على عرش مملكة القدس اللاتينية الثانية إلى حين عودة الملك الشرعي كونراد هوهنشتاوفن، وقدم له نبلاء المملكة يمين الولاء والطاعة الذي لم يقدموه لأمه من قبل، وكذلك فعل ممثلوا القوميونات الإيطالية ومقدما الاسبتارية والداوية وممثلوا الجاليات الأجنبية في عكا.[٤]

---

[١] رنسيمان: تاريخ الحروب، ج٣، ص٤٩٧. رحيل: نهاية الصليبيين، ص٥٧.

[٢] رنسيمان: تاريخ الحروب، ج٣، ص ٤٩٧-٤٩٨. رحيل: نهاية الصليبيين: ص٥٨.

[٣] رنسيمان: تاريخ الحروب، ج٣، ص ٤٩٨. رحيل: نهاية الصليبيين، ص٥٨.

[٤] رنسيمان: تاريخ الحروب، ج٣، ص٤٩٨.

وهنا يمكن إيراد مجموعة من الأسباب التي كانت وراء اختيار هيو الأنطاكي واستبعاد البريوني، وهي:

١- تأزم الأوضاع الدولية والظروف المحيطة بالصليبيين ككل، حيث علا نجم المماليك وأعلن سلطانهم الجديد "بيبرس" توجيه سياسته العسكرية لاقتلاع الوجود الصليبي من بلاد الشام.

٢- عدم التفاهم مع المغول بسبب تكبرهم وتجبرهم وإصرارهم على تبعية الصليبيين لهم، والخوف المتزايد من انتصاراتهم المتكررة، ولاسيما بعد أن احتلوا نابلس وغزة عام ٦٥٨هـ/ ١٢٦٠م، وأصبحوا بذلك محيطين بمملكة القدس، وأخذوا يهددون أطرافها، واجتاحوا مدينة صيدا وخربوها.

٣- سوء الأوضاع الداخلية والصراعات الحزبية لمملكة عكا جعلتها في حاجة ملحة إلى ملك أو وصي على العرش تكون لديه القدرة على لَمِّ شعثها وتفرقها، ويمكنه التصدي للخطرين الإسلامي والمغولي.

٤- ما امتلكه الأنطاكي من امتيازات وقدرات ميزته عن ابن خالته البريوني، فالأول كان وصياً على مملكة قبرص وبيده مقدراتها وبإمكانه تسخيرها لصالح مملكة القدس، بينما أن الثاني لم يمتلك أي قدرات تمكنه من مساعدة المملكة في تجاوز محنتها وعقباتها، بل قد يكون عبئاً عليها.[١]

ويمكن القول إنه لهذه الأسباب مجتمعة تم اختيار هيو الأنطاكي ليكون وصياً على عرش عكا، وتم تقديم يمين الولاء والطاعة له، وساد المملكة جو من الوفاق، وإن كان ظاهرياً، لِما شُهر به هيو الأنطاكي من النشاط إذ إنه بخلاف من سبقه لم يعين نائباً عنه في عكا، وظل يتنقل بينها وبين قبرص، وأثناء غيابه في قبرص كان يعهد بحكومة عكا إلى جيفري سارجنيس الذي أصبح صنجيلاً للمملكة مرة أخرى.[٢]

وما لبث أن توفي ملك قبرص الشرعي هيو الثاني في ربيع الأول عام ٦٦٦هـ/ كانون الأول ١٢٦٧م، وذلك في مرحلة مبكرة من عمره، حيث لم يتجاوز الرابعة عشر من عمره، ودون أن يترك وريثاً له، فورثه الوصي هيو الأنطاكي بحكم القرابة، وعُرض الأمر على المحكمة العليا في قبرص وتقرر تنصيبه

---

[١] رحيل: نهاية الصليبيين، ص٥٩.

[٢] رنسيمان: تاريخ الحروب، ج٣، ص٤٩٨.

في منصب الملك خلفاً لقريبه هيو الثاني تحت اسم هيو الثالث، وهنا انتعشت آمال مملكة القدس بما سيلحقها من معونة وقوة يأتي بها الوصي على عرشها ملك قبرص الجديد، إلا أن شيئاً من ذلك لم يحصل بسبب معارضة نبلاء قبرص لأي مساعدة عسكرية لمملكة القدس[١]، وبقي عرش عكا يعاني الضعف والشتات -كما سيأتي توضيحه عند الحديث عن النظام السياسي بها.

وفي ظل هذه الأحداث والنزاعات تم إعدام الملك الشرعي لمملكة القدس اللاتينية الثانية الغائب عنها كونرادين هوهنشتاوفن في نابولي بناءً على أوامر شارل أنجو Charles of Anjiou - وهذا الأخير هو ابن ملك فرنسا لويس الثامن، ولد عام ٦٢٥هـ/ ١٢٢٧م، وتولى مقاطعة أنجو في فرنسا عام ١٢٤٧م، وشارك أخيه لويس التاسع في حملته على مصر، ثم نُصب ملكاً على صقلية عام ٦٦١هـ/ ١٢٦٢م،وفي عام ٦٧٦هـ/ ١٢٧٧م اشترى وراثة عرش مملكة القدس الثانية من ماري الأنطاكية، وحصل على لقب ملك القدس[٢]، وسيأتي الحديث على تفصيل ذلك، وتم إعدام كونرادين في يوم الإثنين العشرون من صفر ٦٦٧هـ/ ٢٩ تشرين الأول ١٢٦٨م.[٣]ويذكر صاحب أعمال القبارصة أنه عندما وصلت أخبار موته وانتصار شارل عليه "عَمِلَ شعب عكا احتفالاً عظيماً، وأوقدوا نيران الأفراح التي استمرت عدة أيام، وكانوا يحتفلون بموت الذي كان ينبغي أن يكون سيدهم، ولكن الاحتفال لم يكن فيه أي شماتة، بل جاء لتهدئة الكنيسة المقدسة، ومن أجل الملك شارل الذي كان المدافع عن الكنيسة المقدسة ورئيساً لها، وكان هناك سبب آخر هو أن الرب أرادهم أن يظهروا بهذا موافقتهم على حرمان ورثة الإمبراطور وولديه -كونراد ومانفرد- اللذين كانا مضطهدين للكنيسة المقدسة أثناء حياتيهما، واللذين ماتا وهما محرومان كنسياً"[٤].

وبوفاة كونرادين انتهى حكم آل هوهنشتاوفن لمملكة القدس اللاتينية الثانية للأبد، وخلا عرش المملكة من جديد، وأصبحت بدون ملك، كما أنها أصبحت بدون وصي، إذ إن هيو الثالث الذي كان

---

[١] رنسيمان: تاريخ الحروب، ج٣، ص ٥٦١-٥٦٢. رحيل: نهاية الصليبيين: ص٥٩-٦٠. عن عاشور، سعيد: قبرص، ص٤٧.

[٢] رحيل: نهاية الصليبيين، ص٦٢. عمران، محمود سعيد: شارل كونت أنجوبين- القسطنطينية وتونس والقدس، مجلة المؤرخ العربي، عد ٦، مج١، آذار ١٩٩٨م، ص١٦٩-١٩٦.

[٣] للمزيد عن صراع كونرادين مع شارل أنجو انظر: الفارس الداوي: أعمال القبارصة، ص٧٣-٧٥.

[٤] الفارس الداوي: أعمال القبارصة، ص٧٥-٧٦.

وصياً عليها سقطت وصايته فور موت الملك الشرعي كونرادين، وغرقت المملكة في طور جديد من الصراعات على وراثة العرش بشكل أكثر حدة وتعقيداً من قبل.

ويمكن القول إنه خلال مدة حكم آل هوهنشتاوفن لمملكة القدس اللاتينية الثانية (٦٢٢-٦٦٧هـ/ ١٢٢٥-١٢٦٨م )كانت المملكة تابعة للإمبراطورية الرومانية المقدسة قانونياً لا فعلياً، وعانت مملكة القدس خلال هذه المرحلة التي دامت قرابة ثلاثٍ وأربعين سنة من سوء التنظيم والإدارة وعدم رعاية شؤونها؛ بسبب غياب الملوك وانشغالهم في ممتلكاتهم الأوربية، وقيام أوصياء نيابةً عنهم في عكا، ودون شك أن سلطة الوصي لم تكن كسلطة الملك؛ لذا برز النبلاء والمتنفذون في عكا، وعلا شأنهم على حساب الوصي وحقوق الملك والعرش.

ويستغرب الباحث كيف أن الأمراء والبارونات المحليين كانوا يُسلِّمون ويقبلون بأمر الوصاية والنيابة عليهم لأشخاص غريبين وجديدين على المملكة!.

ويتساءل الباحث عن حقيقة تلك العقلية والسياسة التي أُدير بها عرش الحكم في المملكة طوال تلك المرحلة؟

حيث لوحظ تأخر أو عدم وصول الأوصياء إلى عكا، وعدم إقامتهم بها، وتعيينهم لنواب عنهم، وغياب الملك عن مملكته خلال كل تلك المرحلة، وكثيراً ما خلا عرش عكا من الملك أو الوصي وأحياناً نائب الوصي في آن واحد، ومضت سنوات والمملكة تفتقد لأحدهم.

ومن أهم ما ابتُليت به المملكة آنذاك هو قصر مدة وعُمر الأوصياء الذين تعاقبوا على عرشها، وكذلك الحال كان مع النواب.

ومن المشاكل السياسية والقانونية التي واجهتها المملكة عدم أداء النبلاء يمين الولاء لبعض الأوصياء أو النواب على الرغم من اعتراف المحكمة العليا بهم، مما أدى إلى ضعف سلطة الحاكم وزيادة التمردات عليه، ومن ثم ازدياد أوضاع المملكة سوءاً.

# المبحث الخامس

# الصراع على عرش مملكة القدس اللاتينية الثانية في عهد آل لوزجنان (٦٦٧-٦٩٠هـ/ ١٢٦٨- ١٢٩١م)

## أولاً: عودة عرش مملكة القدس إلى آل لوزجنان

انتهى بوفاة كونرادين عام ٦٦٧هـ/ ١٢٦٨م حكم آل هوهنشتاوفن، ومعهم انتهى حكم الفرع الأكبر من الأسرة الحاكمة لمملكة القدس الذي انحدر من الملكة ماري، وبدأ الصراع على عرشها لصالح فرع آخر وأسرة أخرى هم آل لوزجنان حكام قبرص، وهنا لا بدَّ من العودة قليلاً من أجل التذكير بشرعية الحكم ووراثته ولتوضيح الصراع وأحقية الفرع الآخر من الأسرة الحاكمة.

بدايةً، يمكن القول إن حكم آل لوزجنان لعكا قبل سنة ٦٦٧هـ/ ١٢٦٨ م كان بحكم الوصاية على عرشها، لا مُلكاً لها، يُستثنى من ذلك مدة زواج ملك قبرص عموري من ملكة القدس آنذاك "إيزابيل" -توحيد التاج- واستمر ذلك سبع سنوات ١١٩٨-١٢٠٥م، وبعدها كانوا أوصياء على عرش عكا حتى عاد لهم المُلك بعد انتهاء حكم آل هوهنشتاوفن.

إذ إن وراثة الأخيرين لحكم مملكة القدس في عام ٦٢٢هـ/ ١٢٢٥م كان حصيلة زواج فردريك من يولاند بنت ماري وجان دي بريين كما تقدم شرحه. وماري هي ابنة الملكة الأم إيزابيل من زوجها الثاني كونراد مونتفرات، وإيزابيل هي ابنة ملك القدس عموري الأول البويوني، وأمها ماريا كومنينا.

أما **الفرع الآخر** فقد انحدر من أليس، وهي أخت غير شقيقة لماري، فهي بنت إيزابيل من زوجها هنري الشمباني Henry of Champagne ، تزوجت ملك قبرص هيو لوزجنان عام ٦٠٥هـ/ ١٢٠٨م، وتولت الوصاية على ابنها هنري الأول منذ عام ٦١٥هـ/ ١٢١٨م، وأصبحت ملكة قبرص، ثم تولت الوصاية على عرش مملكة القدس الثانية عام ٦٤١هـ/ ١٢٤٣م، واستمرت حتى وفاتها عام ٦٤٥هـ/١٢٤٧م؛ لأنها آنذاك الأكثر قرابة من بقية المرشحين لذلك المنصب من ملك القدس كونراد حفيد أختها ماري كما تقدم شرحه.

ومن أليس هذه الجدر فرع الأسرة الحاكمة في قبرص، فبعد وفاتها عام ٦٤٥هـ/١٢٤٧م حكم قبرص وتولى الوصاية على عكا ابنها هنري الأول لوزجنان، واستمر حتى وفاته عام ٦٥١هـ/١٢٥٣م، فورثه في الحكم ابنه هيو الثاني، واستمر حتى عام ٦٦٥هـ/١٢٦٧ حيث توفي دون أن يترك وريثاً للحكم، فعينت المحكمة العليا في قبرص ابن عمته "هيو الأنطاكي" خلفاً له، وهذا الأخير هو ابن هنري الأنطاكي من زوجته إيزابيل أخت ملك قبرص هنري الأول، والأخيران من أولاد أليس بنت الملكة الأم إيزابيل .

وأصبح هيو الأنطاكي ملكاً على قبرص ووصياً على مملكة القدس اللاتينية الثانية باسم هيو الثالث كما تقدم شرحه.

وفي العام التالي؛ أي عام ٦٦٧هـ/١٢٦٨ تم إعدام كونرادين الملك الشرعي لمملكة القدس اللاتينية الثانية، فتقدم الوصي على عرشها بطلب إلى المحكمة العليا في عكا لتنصيبه ملكاً على المملكة بشكل رسمي، وحجته بذلك أنه حفيد أليس بنت الملكة إيزابيل، وبهذه القرابة للملك الراحل يُعدُّ هيو أقرب المرشحين للمنصب.[١]

ضمن هيو الأنطاكي عدم منافسة ابن خالته ماري "هيو البريوني"؛ لانتصاره عليه في قضية الوصاية على عرش المملكتين منذ العام الماضي كما تقدم ذكره، إلا أنه كان هناك منافس آخر لم يحسب له هيو حساباً على الإطلاق، تمثل في العانس المسنة ماريا الأنطاكية بنت ميليسند وبوهموند الرابع الأنطاكي، وميليسند هي بنت الملكة الأم إيزابيل من زوجها الرابع عموري لوزجنان، وبذلك تكون ماريا الأنطاكية أكثر قرابةً للملك الراحل كونرادين من هيو الأنطاكي، وتسبقه في النسب للملكة الأم إيزابيل الأولى بنت عموري. وادعت الأنطاكية بأن رجال القانون كانوا قد وقعوا في خطأ قانوني، حيث كان من المفترض لأمها ميليسند أن تخلف أختها أليس في الوصاية على عرش عكا منذ أن توفيت الأخيرة عام ٦٤٥هـ/ ١٢٤٧م، وعلى هذا الأساس مثلت ماريا أمام المحكمة العليا في عكا وطالبت بالعرش لنفسها.[٢]

---

[١] الفارس الداوي: أعمال القبارصة، ص٧٧. اديوري، قبرص والحروب الصليبية، ص٨٤. نهاية الصليبين ص٦٢-٦٣. عن Hill, A History of Cyprus, p.161.

[٢] الفارس الداوي: أعمال القبارصة، ص٧٧. رحيل: نهاية الصليبيين، ص٦٣.

وتتضارب الروايات حول سن ماري الأنطاكية آنذاك، فيجعلها بعضهم في الأربعين [١]، وبعضهم في الخمسين، والبعض الآخر في الثامنة والستين، ولكن الرقم الأخير مستحيل، وغير ممكن، فزواج جدها عموري (أملريك Amalric) من جدتها الملكة إيزابيل كان في عام ١١٩٨م، أي قبل سبعين عاماً تماماً، وعلى هذا فلا يمكن أن يكون عمر الأنطاكية قد تجاوز الخمسين آنذاك، غير أن المؤكد الذي تُجمع عليه جميع الروايات هو عنوستها وعدم صلاحيتها للزواج والإنجاب[٢].

ورد هيو الأنطاكي على دعواها بأن جدته أليس سلف الاعتراف بها وصيةً على عرش المملكة من قِبل المحكمة العليا كونها الوريثة الشرعية آنذاك، وورثها ابنها هنري -ملك قبرص- من بعدها، ومن ثم انتقلت الوراثة لابنه هيو الثاني، ومن ثم لهيو الأنطاكي كونه حفيد أليس.[٣]

ولم يكن قرار المحكمة العليا في عكا آنذاك كغيره من القرارات السالفة الصادرة بحق الأوصياء، حيث كان الملك الشرعي على قيد الحياة (ملوك آل هوهنشتاوفن)، ومتفق عليه بحكم الوراثة، أما الآن فقد كان صراعاً على التاج والمُلك؛ إذ توفي كونرادين ولا وريث له، وقرار المحكمة الآن سيؤدي إلى انتقال التاج من أسرة لصالح أسرة أخرى، وبعد مداولات عدة داخل المحكمة العليا أصدرت قرارها لصالح هيو الأنطاكي، وذلك لعدة أسباب:

أ- وقوف رجال القانون في المملكة إلى جانب هيو لتبرئة أنفسهم من الخطأ الذي اتهمتهم به ماريا، ولشرعنة قرارهم العام السالف عند فض النزاع بين هيو الأنطاكي وهيو البريوني، ولجعله قانوناً ثابتاً لا يجوز نقضه، ولاسيما أن البابوية لم تعترض من قبل على تعيينه وصياً على عرش مملكة القدس اللاتينية الثانية.[٤]

ب- كون هيو الأنطاكي رجلاً وأكثر شباباً وصلاحيةً للحكم من ماريا المرأة العانس، وكان من المعتاد في الشرق اللاتيني تفضيل الرجل على المرأة في الحكم، وكون ماري عانساً فإن توليها

---

[١] الفارس الداوي: أعمال القبارصة، ص٧٧.

(٢) رحيل: نهاية الصليبيين ص٦٣.

[٣] رنسيمان: تاريخ الحروب، ج٣، ص ٥٦٢-٥٦٣. رحيل: نهاية الصليبيين، ص٦٣.

[٤] رنسيمان: تاريخ الحروب، ج٣، ص٥٦٣.

العرش سيكون حلاً مؤقتاً للمشكلة؛ إذ لا يمكن البحث عن زوج مناسب لها يقوم بأعباء الحكم كما حدث مع وريثات المملكة من قبل.[١]

ت- الخبرة السياسية التي كسبها هيو الأنطاكي خلال توليه الوصاية على المملكتين، وكونه آنذاك ملكاً على قبرص، لذا يُعدُّ الأقرب من مملكة القدس والأكثر خبرة بشؤونها السياسية من ماري التي لم يكن لها أي تجربة سالفة بذلك.

ث- سوء أوضاع مملكة القدس والحاجة الملحة إلى المساعدات، ولا بدّ أن نبلاؤها أملوا خيراً من ملك قبرص هيو في أن يستخدم مواردها لمساعدة مملكتهم.[٢]

ج- تأثير آل إبلين في المحكمة العليا؛ إذ إنهم حرصوا على تنصيب هيو ملك قبرص ملكاً على عكا لارتباطهم الوثيق به ولمصالحهم الخاصة في قبرص.[٣]

واستناداً إلى ما تقدم عُين هيو الثالث (الأنطاكي) خلفاً لكونرادين هوهنشتاوفن، وتم تتويجه في صور بيد أسقف اللد نيابة عن بطريرك المملكة، وذلك في ١٩ محرم ٦٦٨ هـ/ ٢٤ ايلول ١٢٦٩م[٤]، وأصبح هيو ملكاً لمملكة القدس اللاتينية الثانية، وغدت أسرة لوزجنان تتوارث عرش المملكة من بعده.

## ثانياً: النزاع على العرش في عهد هيو الأنطاكي ٦٦٨-٦٨٣هـ/ ١٢٦٩- ١٢٨٤م

سبق القول إن هيو قد جلس على عرش عكا – على خلاف مَن تقدم عليه- وعمل على إدارة شؤونها بنفسه، وسعى جاهداً إلى إعادة ترتيب أمورها، وتسوية النزاعات بها، إلا أنه أخفق في محاولته من أجل إقامة حكم قوي ومباشر بها، كما سيأتي الحديث على تفصيله في فصل النظام السياسي.

وأخفق أيضاً في إصلاح حال الفرنج، وإزالة ما بين الجماعات والهيئات الدينية من تنافس وخلاف، وأخذت المعارضة الداخلية لشخصه ولسياسته الداخلية تزداد حدة، ولاسيما معارضة الداوية

---

[١] رنسيمان: تاريخ الحروب، ج٣، ص ٥٦٣. رحيل: نهاية الصليبيين، ص٦٤، عن Hill, A History of Cyprus, vol. II, p.162.

[٢] رحيل: نهاية الصليبيين، ٦٣-٦٤.

[٣] رحيل: نهاية الصليبيين ص٦٤.

[٤] رنسيمان: تاريخ الحروب، ج٣، ص٥٦٤.

الذين تمردوا عليه بقوة، وفي النهاية أعيته الحيلة وضاق هيو بهم ذرعاً، ويبدو أنه أدرك أن الصليبيين لن يستقم حالهم، فنفض يده من مملكة القدس وغادرها فجأةً، فرحل من عكا إلى صور ومنها إلى قبرص، وذلك عام ٦٧٧ هـ/١٢٧٨م، وتخلى عن السيادة بها تاركاً إياها بدون حكومة، ولم يقبل بتعيين نائب عنه في عكا إلا بعد وساطات عدة.[١]

وأرسل هيو معتذراً إلى البابا بأنه كان غير قادر على حكم البلاد مدة أطول من ذلك بسبب السلوك العدائي فيها ضده، ولاسيما من قبل الداوية، والاسبتارية، ويعلل صاحب أعمال القبارصة سلوك هيو هذا بعدم رغبته في المواجهة مع نائب شارل أنجو الذي كان في طريقه إلى عكا[٢]، وهذا مبحث آخر له تشعبات عدة.

فمنذ البداية لم تسلم ماري الأنطاكية بقرار المحكمة العليا، وأيدها الداوية في ذلك، ولجأت في يوم تتويج الملك المنتخب -بهدف تعكير صفو الاحتفال بالتتويج- إلى بطريرك المملكة وليم أجني Wiliam Agni الذي تولى هذا المنصب بين عامي (٦٦١-٦٦٩هـ/ ١٢٦٢-١٢٧٠م)، واحتجت لديه على قرار المحكمة، فتعاطف معها البطريرك في البداية إلا أنه لم يستطع إفادتها بشيء، وذلك لتأييد معظم عناصر المملكة لهيو الثالث.[٣]

هنا آثرت ماري رفع قضيتها إلى البابا، وسافرت إلى إيطاليا بهذا الخصوص، إلا أنها وجدت البابا كلمنت الرابع قد توفي قبل وصولها إليه في عام ٦٦٩هـ/ ١٢٧٠م، فاضطرت للانتظار هناك للعام المقبل ريثما يتم انتخاب بابا جديد، وبالفعل تم انتخاب جريجوري العاشر، واستمر في منصب البابوية حتى عام ٦٧٥هـ/ ١٢٧٦م، وكان ينتسب إلى أسرة عريقة من بيزا، عُرف بتأييده للمشروع الصليبي، وشارك في حملة ادوارد الإنكليزي على فلسطين[٤]. وتعاطف هذا البابا مع ماري الأنطاكية في دعواها، وسمح لها أن ترفع قضيتها إلى مجمع ليون الثاني المزمع عقده في ٦٧٣هـ/ ١٢٧٤م، وحضر المجمع ممثلون عن مملكة القدس واحتجوا بأن المحكمة العليا في مملكتهم وحدها لها الحق في تقرير مصير عرش المملكة ووراثة

---

[١] عاشور: الحركة الصليبية، ج٢، ص٣٦٧. رنسيمان: تاريخ الحروب، ج٣، ص ٥٨٩-٥٩٠.

[٢] الفارس الداوي: أعمال القبارصة، ٩٤.

[٣] الفارس الداوي: أعمال القبارصة، ص٧٧-٧٨. رحيل: نهاية الصليبيين ص٦٤. عن Hamilton: The Latin Church, pp272-276.

[٤] رحيل: نهاية الصليبيين، ص٦٥.

الحكم فيها، وأنه لا يحق لأي سلطة أخرى أن تتدخل في هذا الموضوع، لذا تقرر في المجمع اسقاط دعوى ماري.[١]

لم تقبل ماري بقرار مجمع ليون، وتابعت الدفاع عن قضيتها، وتآمرت مع البابا للالتفاف على قرار المجمع، وقررت معه بيع حقوقها في وراثة عرش بيت المقدس بشكل كامل إلى ملك صقلية "شارل أنجو" مقابل مبلغ نقدي من المال بلغ ألف جنيه ذهبي ومعاش سنوي يبلغ أربع آلاف ليرة تورينيه، وتمت الصفقة في ٦٧٦هـ/ آذار ١٢٧٧م بحضور مجمع من الكرادلة وأعضاء المحكمة البابوية، وسارع شارل لتلقيب نفسه بملك القدس،[٢] بغض النظر عن شرعية تلك الصفة، فذلك مبحث منفرد سيأتي الحديث عليه في النظام السياسي في المملكة.

ويمكن تعليل موقف البابا هذا برغبته في الانتقام من مملكة القدس التي تمردت عليه في مجمع ليون الثاني، وربما أنه أراد استغلال الموقف لحل مشاكله في أوربا على حساب الشرق اللاتيني، فسعى إلى تحويل أطماع شارل أنجو في الإمبراطورية البيزنطية إلى الشرق اللاتيني؛ من أجل نجاح المفاوضات التي بدأها البابا مع الإمبراطورية البيزنطية لتوحيد الكنائس، ويمكن تعليل موقف البابا بتيقنه من إخفاق هيو الأنطاكي من ضبط الأمور في مملكة القدس، ولاسيما بعد رحيله عنها إلى قبرص هرباً من مشاكلها في عام٦٧٧هـ/ ١٢٧٨م.

والمهم أن شارل أنجو دخل بقوة إلى دائرة الصراع على وراثة العرش في مملكة القدس اللاتينية الثانية، وبدأت مرحلة جديدة من الصراع على العرش، حيث أصبح هناك شخصين يدعي كل منهما أنه ملك للمملكة، ولكل منهما حجته التي تُثبت حقه في ذلك.

وامعاناً في الصراع على العرش والوراثة، فإن شارل أنجو رغب في إثبات حقوقه الملكية في عكا مستغلاً غياب ملكها في قبرص، ونظراً لتعذر حضوره إليها بنفسه في تلك الآونة عمد إلى إرسال نائب عنه هو روجر سان سفرينو Roger of Sanseverino على رأس أسطول صغير، حاملاً معه العقود وصكوك البيع التي وقعها شارل أنجو مع ماري الأنطاكية، بحضور البابا ومباركته لها، وأدى وصوله

---

[١] الفارس الداوي: أعمال القبارصة، ص٧٨، ٨٥.

[٢] الفارس الداوي: أعمال القبارصة، ص٨٥.

إلى عكا في ربيع الآخر ٦٧٧هـ/ايلول ١٢٧٨م إلى مزيد من الخلاف والانشقاق والتشرذم في المملكة التي كانت تعاني ضغوطات عدة.[١]

وعلى الفور ظهر في مملكة القدس **حزبان** متعارضان في قضية الصراع على العرش، تمثل **الأول** بالداوية والبنادقة الذين وقفوا إلى جانب شارل أنجو ومندوبه سفرينو، وذلك بسبب حقد الداوية القديم على الملك الهارب "هيو الأنطاكي"، بالإضافة إلى صلة القرابة بين مقدم الداوية وشارل أنجو، ومقدم الداوية آنذاك هو وليم بيجي، تولى بين عامي ٦٧١-٦٩٠هـ/ ١٢٧٣-١٢٩١م، وقبل ذلك تولى عدداً من المناصب الإدارية[٢]، أما بالنسبة إلى البنادقة فقد ربطتهم بشارل أنجو مصالح واسعة.

وتمثل **الحزب الثاني** بالاسبتارية ونبلاء المملكة بما فيهم البطريرك، وتمسكوا بحقوق هيو الثالث بالعرش، وكانوا قد دافعوا عنه منذ نزاعه مع ماري الأنطاكية، وفي مجمع ليون الثاني عام ٦٧٣هـ/ ١٢٧٤م.[٣]

ومنذ وصول روجر طالب بتسلم قلعة عكا، فاستبدت الحيرة بباليان ابلين - نائب الملك هيو بها- إذ لم تكن لديه تعليمات من سيده بهذا الأمر، وكان واضح أن الداوية والبنادقة مستعدين لدعم روجر عسكرياً، ويبدو أن البطريرك ونبلاء المملكة ضعف مركزهم، في حين أن الاسبتارية لم يكونوا مستعدين لخوض في حرب دفاعاً عن ملك غائب عنهم. وبعد مفاوضات باليان مع مقدم الداوية وبطريرك بيت المقدس، وحقناً للدماء، قبل بتسليم القلعة لروجر الذي سارع برفع أعلام شارل أنجو عليها.[٤] ونادى به ملكاً على بيت المقدس وصقلية، وأمر جميع بارونات المملكة وعناصرها أن يحلفوا يمين الولاء لشارل أنجو ملكاً على بيت المقدس، وله نائب عنه، وهدد كل من يرفض الانصياع للأمر بالطرد من إقطاعه، وفي ظل غياب هيو وعدم تجاوبه مع القضية بالمستوى المطلوب لم يجد النبلاء

---

[١] الفارس الداوي: أعمال القبارصة، ص٩٤. سميث: فرسان القديس يوحنا، عن الموسوعة، ج٥٢، ص ١٢٨.
رنسيمان: تاريخ الحروب، ج٣، ص ٥٩١. عاشور: الحركة: ج٢، ص ٣٦٨.

[٢] رحيل: نهاية الصليبيين: ص٧١. عن The Templar of Tyre, passim; Letter of John de Villiers, pp. 301-302.

[٣] رحيل: نهاية الصليبيين: ص٧٠.

[٤] الفارس الداوي: أعمال القبارصة، ص٩٤. رنسيمان: تاريخ الحروب، ج٣، ص٥٩١.

وأعضاء المحكمة العليا بُداً من حلف اليمين لشارل كونت أنجو ملكاً،[١] فقوي مركز روجر كنائبٍ عن شارل أنجو، وعمل على توطيد مركزه بشكل أكبر عندما عين طائفة من الفرنسيين من بلاط شارل أنجو ليكونوا كبار الموظفين في المملكة، كالصنجيل والكندسطبل والمارشال.[٢]

وعلى الرغم من كل هذه الإجراءات فإن سلطة روجر لم تستقر في المملكة، فهو وإن حصل على أيمان الولاء والطاعة إلا أنها كانت تحت الضغط والترهيب، ولم يحظ بتأييد حقيقي من قبل الجميع، وإنما بقيت بعض عناصر المملكة تَكِنُ له روحَ العداء وتحيك المؤامرات ضده، يضاف إلى ذلك أن الملك هيو الثالث قرر استعادة عرشه في عكا معتمداً على وجود حزب مناوئ لروجر، ولا بدَّ أن هذا الحزب سيسانده في مطالبه، فقصد صور على رأس قوة كبيرة ونزل بها عام ٦٧٨هـ/ ١٢٧٩م ومعه عدد كبير من الخيالة والرجالة، فتصدى له الداوية بزعامة وليم بيجي الذي منع أحد نبلاء عكا أو مقدمي التنظيمات الدينية أن يقدموا له العون، باستثناء جون مونتفورت سيد صور الذي بقي على ولائه لهيو الثالث، وبقي بها أربعة شهور دون أن يتمكن من إنجاز أي شيء في سبيل استعادة عرشه في عكا، واضطر إلى العودة إلى قبرص بسبب انتهاء مدة خدمة القوات القبرصية خارج أراضيها – حسب القانون القبرصي آنذاك– وانتقم من الداوية بأن دمر مقرهم في عاصمته ليماسول، وصادر جميع ممتلكاتهم في مملكة قبرص.[٣]

وكرر هيو العودة إلى صور في عام ٦٨٢هـ/ ١٢٨٣م مستغلاً ثورة صقلية ضد شارل أنجو، وضعف سلطة الأخير في مملكة القدس، إلا أن القوات القبرصية لم تكن عند حُسن ظنه، إذ تركته وحيداً في صور بعد انقضاء مدة الشهور الأربعة، وعادت إلى قبرص، وكذلك نبلاء عكا لم يقدموا له المساعدة

---

[١] رنسيمان: تاريخ الحروب، ج٣، ص ٥٩١-٥٩٢. رحيل: نهاية الصليبيين، ص٧٠-٧١. عن Hill, A History of Cyprus, vol. II, p.173.

[٢] رنسيمان: تاريخ الحروب، ج٣، ص٥٩٢.

[٣] الفارس الداوي: أعمال القبارصة، ص٩٥. رنسيمان: تاريخ الحروب، ج٣، ص ٦٦٥-٦٦٧. رحيل: نهاية الصليبيين، ص٧١-٧٤.

المرجوة، واستمر في صور، وبذل قصارى جهده لاستعادة عرشه المسلوب في عكا، إلا أن المنية عاجلته في العام التالي ٦٨٣هـ/ آذار ١٢٨٤م، وانتقلت وراثة العرش والمملكة إلى أبنائه من بعده.[١]

ويذكر صاحب أعمال القبارصة أن وفاته تُعدُّ خسارة كبيرة للمسيحية، وذلك لفهمه العظيم وفضائله، ووصفه بالبهاء والنبل.[٢]

أما عن الملك الآخر لمملكة القدس وهو شارل أنجو المقيم بعيداً عنها في صقلية فقد حدثت هناك ثورة كبيرة ضده لسوء سياسته، وأنهت هذه الثورة سيطرته على صقلية في نهاية ٦٨٠هـ/ مساء ٣٠ آذار ١٢٨٢م، وعرفت بمذبحة العشاء الصقلية؛ لكثرة قتلى الفرنسيين في الجزيرة، وليس البحث هنا بصدد التفصيل في هذه الثورة، وما يهم أن شارل أنجو تناسى مملكة القدس، وكتب لنائبه في عكا روجر سفرينو يستدعيه إلى إيطاليا، ولبى سفرينو ذلك مسرعاً مع قواته بعد أن عهد بوظيفته – نائب الملك– إلى صنجيله[٣] أود بوليشيان.[٤]

واستدعاء شارل أنجو لنائبه روجر دليل على أنه نفض يده من مملكة القدس، ولم يعد مهتماً بأمورها، كما أنه لم يكن مستعداً لإرسال جيش لها يوطد سلطته بها، على الأقل في ظل أوضاعه المتردية وانشغاله في مشاكله في أوربا.

## ثالثاً: النزاع على العرش في عهد خلفاء هيو الأنطاكي منذ وفاته عام ٦٨٣هـ/ ١٢٨٤م حتى سقوط المملكة عام ٦٩٠هـ/ ١٢٩١م

بعد مذبحة العشاء الصقلية واستدعاء شارل أنجو لنائبه في مملكة القدس أخذت الأوضاع السياسية فيها تميل إلى صالح أسرة آل لوزجنان، حيث ورث العرش بعد هيو الثالث ابنه الأكبر جون

---

[١] الفارس الداوي: أعمال القبارصة، ص١٠٣، ١٠٦. رحيل: نهاية الصليبيين، ص٧١-٧٤. عاشور: الحركة الصليبية، ج٢، ص ٣٦٨.

[٢] الفارس الداوي: أعمال القبارصة، ص١٠٦.

[٣] الصنجيل هو القهرمان، وهو كبير الموظفين في القصر الملكي، يشرف على المراسيم والاحتفالات، وعلى حجاب المملكة، وعلى جباية الضياع الملكية، ويشارك في المحكمة العليا، ويرأسها في حال غياب الملك. انظر: رحيل: نهاية الصليبيين، ص٧٣. الاستيطان الصليبي، ص١٢٥، ١٢٩.

[٤] رنسيمان: تاريخ الحروب، ج٣، ص ٦٦٣-٦٦٤. رحيل: نهاية الصليبيين، ص٧٣-٧٤.

(يوحنا) الذي تم تتويجه في نيقوسيا ملكاً على قبرص في نهاية شباط ٦٨٣هـ/ ١١ أيار ١٢٨٤، ثم قَدِمَ إلى صور، وتم تتويجه ملكاً على مملكة القدس اللاتينية الثانية، إلا أن سلطته الفعلية في مملكة القدس لم تتعد صور وبيروت اللتين بهما حلفاء والده القدماء، ولم تطل مدة إقامته بها، حيث عاد إلى قبرص، وتوفي فيها في بداية آذار ٦٨٤هـ/ ١٠ أيار ١٢٨٥م، فورث الحكم من بعده أخوه هنري الثاني Henry IIالذي لم يتجاوز الرابعة عشر من عمره، وتم تتويجه ملكاً في قبرص في العام نفسه،[١] إلا أنه لم يغامر بالذهاب إلى عرشه الثاني في عكا فوراً، ولم يتجاسر على ذلك، وانتظر حتى العام المقبل حيث تمت المصالحة بينه وبين الداوية، إذ إنه أرسل إلى مقدمهم في عكا رسولاً وتم توقيع معاهدة بينهما، ويروي صاحب أعمال القبارصة أنه كتب هذه المعاهدة بيده.[٢]

تزامن ذلك مع ازدياد أوضاع المملكة سوءاً، وازدياد الضغط عليها من قبل المماليك الذين بدا خطرهم واضحاً على العاصمة عكا، ولاسيما بعد سيطرتهم على أكبر قلاع الاسبتارية في الشرق الفرنجي، وهو حصن المرقب، وذلك سنة ٦٨٤هـ/ ١٢٨٥م؛ لذلك تمت دعوة هنري الثاني بشكل رسمي من قبل نبلاء عكا من أجل القدوم إليها، وتزامن ذلك مع وفاة الملك الآخر لمملكة القدس شارل أنجو – ملك صقلية– وانهماك ابنه ووريثه في الحكم "شارل الثاني"، وانشغاله في الحرب في صقلية بشكل أعماه عن الشرق الفرنجي وعرشه هناك.[٣]

ويمكن القول إنه لم يعترض على قدوم هنري الثانيHenry II إلى عكا سوى اودو بوليشيان –نائب شارل الثاني بها– ولم يساند أودو سوى الكتيبة الفرنسية الموجودة في عكا آنذاك.[٤]

وفي ٩ ربيع الآخر ٦٨٥هـ/ ٤ حزيران ١٢٨٦م وصل هنري إلى عكا، واستُقبل من قبل قومون عكا "بتشريف عظيم، وببهجة كبيرة، واستقبلته مسيرة من الناس جميعاً، وجلبته إلى الكنيسة الأم"[٥]،

---

[١] الفارس الداوي: أعمال القبارصة، ص١٠٦-١٠٧. رنسيمان: تاريخ الحروب، ج٣، ص ٦٦٧. رحيل: نهاية الصليبيين: ص٧٥-٧٦.

[٢] الفارس الداوي: أعمال القبارصة، ص١٠٨.

[٣] الفارس الداوي: أعمال القبارصة، ص١٠٦-١٠٧. رنسيمان: تاريخ الحروب، ج٣، ص ٦٦٩. رحيل: نهاية الصليبيين، ص٧٦.

[٤] الفارس الداوي: أعمال القبارصة، ص١٠٩. رنسيمان: تاريخ الحروب، ج٣، ص ٦٦٩.

[٥] الفارس الداوي: أعمال القبارصة، ص١٠٨-١٠٩.

ولكن تغيَّب مقدمي الطوائف الدينية عن استقباله، والتزموا الحياد بحجة كونهم رجال دين، وعندما أعلن أنه يريد الاقامة في قلعة عكا كغيره من الملوك الذين سبقوه، اعترض على ذلك اودو، ورفض تسليم القلعة له، وشحنها بالعساكر والرجال الفرنسيين، وكادت أن تقع الحرب بينهما، إلا أن وساطة مقدمي الطوائف الدينية أدت إلى تخلي أودو عن القلعة وتسليمها لهنري في نهاية الشهر نفسه،[١] وكان ذلك يعني بشكل أو بآخر تخلي حكام صقلية عن مملكة القدس وضعف سيطرتهم عليها، ورجحان كفة آل لوزجنان بها.

وفي منتصف جمادى الأولى ٦٨٥هـ/ آب ١٢٨٦م تم تتويج هنري في صور ملكاً على مملكة القدس الثانية من قبل رئيس الأساقفة نيابةً عن البطريرك، وتم الاحتفال بذلك رسمياً لمدة أسبوعين في عكا، "وكانت هذه الاحتفالات هي الأجمل بين ما شاهده أي واحد منذ مئة عام"[٢]، ولم يطل الأمر كثيراً حتى فوجئ المحتفلون بأن من احتفلوا لأجله مصابٌ بالصرع، وأصيبوا بخيبة الأمل بعد أن توسموا به خيراً، وقبل أن تظهر عليه آثار الصرع؛ لصغر سنه، وبعام التتويج نفسه ترك عكا وعاد إلى قبرص بناءً على نصيحة أخواله فيليب وبلدوين ابلين اللذين أدركا عدم صلاحيته للحكم، ومن جديد –وبعد غياب ليس طويل– عادت الوصاية والنيابة على عرش عكا لآل ابلين؛ إذ إن هنري عين خاله بلدوين نائباً عنه في عكا، وحظي الأخير بكامل الاحترام والتقدير في المملكة،[٣] وأمل الناس به خيراً واستبشروا فيه، إلا أن المملكة كانت تعيش صحوة الموت آنذاك، إذ إن المماليك أحكموا القبضة عليها آنذاك، ولم يبق منها سوى العاصمة عكا، وعندما أحكم سلطان المماليك الأشرف خليل بن قلاوون الحصار عليها قدم إليها الملك هنري على رأس قوة لا بأس بها، ووصلها في ٤ جمادى الأولى ٦٩٠هـ/ ٤ أيار ١٢٩١م، إلا أنه أخفق في التوصل إلى تفاهم سلمي أو عقد صلح مع الأشرف خليل بن قلاوون، لهذا؛ وبسبب انحلال أمر الصليبيين فيها واختلاف كلمتهم عاد الملك هنري إلى قبرص مع جميع قواته وفرسانه، ومعه أخوه

---

[١] الفارس الداوي: أعمال القبارصة، ص١٠٩. رنسيمان: تاريخ الحروب، ج٣، ص ٦٧٠-٦٧١. رحيل: نهاية الصليبيين، ص٧٦-٧٧. عن حسن عبد الوهاب: تاريخ جماعة الفرسان التيوتون، دار المعرفة الجامعية، الاسكندرية، ١٩٨٩م، ص٣٢٦.

[٢] الفارس الداوي: أعمال القبارصة، ص١١٠.

[٣] الفارس الداوي: أعمال القبارصة، ص١١٠. رنسيمان: تاريخ الحروب، ج٣، ص ٧٠٢-٧٠٥. عاشور: الحركة، ج٢، ص ٣٨٥-٣٨٦.

عموري الذي كان ينوب عنه في عكا منذ عام ٦٨٨هـ/ ١٢٨٩م،[١] تاركاً مملكته إلى مصيرها المحتوم، حيث سقطت في العام نفسه بيد سلطان المماليك الأشرف خليل بن قلاوون.

وفي نهاية الصراع على وراثة العرش في مملكة القدس اللاتينية الثانية، يمكن القول بأن المملكة لم تتمتع بسلطة ملكية قوية، وعانت صراعاً مريراً على وراثة العرش فيها، وازداد هذا الصراع حدة في نهاية عمر المملكة، وبشكل خاص في عهد هيو الأنطاكي وأولاده من بعده.

فمنذ نهايات حكم آل هوهنشتاوفن وبدايات حكم آل لوزجنان كَثُرت الاضطرابات والادعاءات حول مسألة وراثة عرش المملكة وأحقية حمل لقب "ملك القدس"، وغدا هذا اللقب متنازعاً من قبل عدة ملوك على رأسهم أباطرة ألمانيا، وملوك إنكلترا، وملوك فرنسا الذين تفاخروا بحمل هذا اللقب "ملك القدس"، وذلك واضح مع لويس التاسع وشارل كونت أنجو كما سلف شرحه، ويذكر الراهب الدومينيكاني أن شارل امتلك هذا الحق -الادعاء بأنه ملك القدس- مضاعفاً ثلاث مرات، الأولى أنه كان ملكاً لصقلية التي كانت مُلكاً لملك القدس الإمبراطور فردريك وابنه وحفيده من بعده، والثانية لتنازل ماري الأنطاكية له عن هذا اللقب-كما سلف شرحه مفصلاً، والثالثة لتتويج البابا له، وذلك عندما قام مانفرد وكونرادين "بمضايقة دول الكنيسة وتهديدها، استدعى البابا كليمنت الرابع شارل، أخا القديس لويس، وطلب منه المساعدة ضد مانفرد وكونرادين، والغبلينيين، وبعدما هزمهما شارل، وقتلهما معاً، دخل إلى روما منتصراً، ونودي به ملكاً على صقلية والقدس من قبل البابا كليمنت في كنيسة القديس يوحنا في اللاتيران"، ومن بعده استمر ملوك صقلية بحمل هذا اللقب، في الوقت الذي حمله ملوك فرنسا أيضاً[٢].

---

[١] للمزيد عن أحداث فتح الأشرف خليل بن قلاوون لعكا، راجع اليونيني، موسى بن محمد: ذيل مرآة الزمان، تح: فراس عبد الرحمن، رسالة غير منشورة أُعدت لنيل درجة الماجستير في تاريخ العرب والإسلام، بإشراف أ. د. سهيل زكار، جامعة دمشق، ٢٠١٣، ص٢٦٠-٢٦٤. للاستزادة أنظر: الفارس الداوي: أعمال القبارصة، ص١٣٠-١٥٧. وفيه يقدم وصفاً دقيقاً وجميلاً لأحداث فتح عكا.

[٢] الراهب الدومينيكاني، عن الموسوعة، ج٤٣، ص ١١٧٥- ١١٧٦.

وأيضاً حمل هذا اللقب ملوك قبرص، وملوك إسبانيا، وإضافة إليهم كان دوق سوابيا يحمل هذا اللقب، وسوغوا أحقيتهم بذلك اللقب بصلة قرابتهم من مانفرد وكونرادين ملكي القدس الشرعيين.[١]

وظهر واضحاً أن المملكة ابتُليت بقصر عمر كل من كان يتولى عرشها أو يتولى الوصاية عليه، فكثير من حكامها وملوكها لم تكن سلطتهم وحكمهم بها يتجاوز السنة أو السنتين، وكأن القدر حكم عليها أن تعيش بدون ملك، فعانت فراغاً سياسياً كبيراً نتيجة ذلك، ونتيجة لعدم وجود حكامها على أراضيها، وانما حلَّ محلهم نواب أو أوصياء على العرش، وكثيراً ما نشب النزاع والصراع حول مَن له حق الوصاية على الملك الصغير السن الذي ربما لم يتجاوز الرابعة أو الخامسة من العمر.

وبلغ الفراغ السياسي حداً أن الوصي على عرش المملكة لم يستقر بها، وإنما عيّن نائباً عنه في عكا، مما أتاح المجال للمتنفذين بها، وأدى إلى صعود أو ازدياد مركز القوى السياسية والدينية بها على حساب سلطة الملك وهيبة العرش.

ولا شك أن هذه القوى استغلت الفراغ السياسي وضعف سلطة الملك، فتنافست فيما بينها على المكاسب والمراتب التي أتاحها لهم غياب الملك، فتحولت هذه القوى إلى دول مستقلة داخل المملكة، وبالطبع كان لذلك آثار سلبية على الوضع الأمني والسياسي والعسكري والاقتصادي في المملكة. وهكذا تحولت إلى لقمة سهلة المنال أمام شهوات وطموحات سلاطين المماليك للمجد والشهرة، وبالتالي بدأوا بتناولها منذ معركة المنصورة عام ٦٤٨هـ/ ١٢٥٠ م، وانتهوا إلى السيطرة على العاصمة عكا عام ٦٩٠هـ/ ١٢٩١م.

---

[١] الراهب الدومينيكاني، عن الموسوعة، ج٤٣، ص١١٧٤- ١١٧٥.

## الفصل الثالث

النظام السياسي والعناصر السكانية في مملكة القدس اللاتينية الثانية ..... ١٦٢
المبحث الأول: النظام السياسي. ..... ١٦٢
المحكمة العليا Haute Cour في عكا ..... ١٧٤
المبحث الثاني ..... ١٧٧
العناصر السكانية في مملكة القدس اللاتينية الثانية ..... ١٧٧
العنصر الفرنسي ..... ١٧٨
ويلي العنصر الفرنسي أهميةً في مملكة القدس اللاتينية الثانية العنصر الإيطالي ..... ١٧٩
يلي العنصرين الفرنسي والإيطالي في مملكة القدس اللاتينية الثانية من حيث العدد والأهمية العنصر الإنكليزي١٨١
التنظيمات العسكرية الدينية في مملكة القدس اللاتينية الثانية ..... ١٨٣
أ- تنظيم فرسان التيوتون: ..... ١٨٦
ب- تنظيم فرسان القديس لازوروس (لعازر) ..... ١٨٩
ج- تنظيم القديس توما في عكا: ..... ١٩٠

# الفصل الثالث

# النظام السياسي والعناصر السكانية في مملكة القدس اللاتينية الثانية

## المبحث الأول: النظام السياسي.

كان المصدر الأساسي للنظام السياسي المعمول به في مملكة القدس اللاتينية الأولى هو القوانين والأعراف السائدة في فرنسا، فمنذ البداية اتخذت هذه المملكة السمة والطابع الفرنسي، ويُسوَّغ ذلك أن غالبية عناصرها فرنسيين، إذ إن الحملات في غالبيتها —سواءً على صعيد الجنود أم القيادة – كانت فرنسية بشكل أساسي؛ لذا سادت في الشرق الفرنجي القوانين والأعراف الفرنسية.[١]

وكان اعتلاء العرش في مملكة القدس اللاتينية الأولى يتذبذب بين الانتخاب تارةً والوراثة تارةً أخرى، واعتادت هذه المملكة على أن يكون الملك هو السيد الأعلى في المملكة، وبيده الأمر والنهي والقول الفصل في أي قضية، كما مثّل الملك السيد الإقطاعي الأعلى فيها، ومن شأنه تنظيم وقيادة الحملات العسكرية المهمة وتوقيع المعاهدات، وعليه تأمين مرتبات الجند والفرسان في الجيش مقابل التبعية له وفق النظام الإقطاعي في أوربا آنذاك.[٢]

وعلى خطا ونظام المملكة الأولى سارت مملكة القدس اللاتينية الثانية، واتخذت الطابع والأعراف والتقاليد نفسها، فحق الوراثة في الحكم كان لصالح الابن أو البنت الأكبر، ويُفضَّل الرجال على النساء، وفي حال انتقال وراثة الحكم إلى أبناء البنات، فإن أبناء البنت الكبرى لهم الأسبقية وإن كانوا أصغر سناً من أبناء البنت الصغرى[٣]. ويمكن القول إن ذلك طُبق إلى حدٍ ما، وكثيراً ما كانت هناك تجاوزات اقتضتها مصلحة المملكة، فؤُخذ آنذاك بعين التقدير صلة القرابة بآخر من تولى منصب العرش أو الوصاية عليه، وأحياناً كانت هي العامل الحاسم في ذلك، وهذه التجاوزات تجلت واضحةً في انتصار هيو الأنطاكي في مزاعمه أثناء نزاعه مع ابن خالته هيو البريوني، وحكمت المحكمة العليا آنذاك لصالح الأنطاكي، كما تقدم تفصيله.

---

[١] براور: الاستيطان الصليبي، ص٨٦. رنسيمان: تاريخ الحروب، ج٣، ص٤٩٨.

[٢] للمزيد عن صلاحيات الملك في المملكة الأولى، راجع: براور: الاستيطان الصليبي، ص٨٨-٩٠، ١٢٣-١٢٥.

[٣] رنسيمان: تاريخ الحروب، ج٣، ص ٤٩٨.

يمكن القول إن نظام الحكم في مملكة القدس اللاتينية الثانية تميز بالنظام الوراثي البحت؛ لذلك تَنَقَّل الحكم عن طريق وراثة النساء له وزيجاتهن المتعددة من أسرة لأخرى حسب زوج الملكة الجديد على النحو الذي فُصِّل في الفصل المتقدم. ويبدو أن قوانين المملكة تماشت مع ذلك، وقبلت بوصول التاج عن طريق الزواج إلى شخص جديد من خارج الأسرة، لا؛ بل خففت على الملك الجديد عناء مباشرة الحكم وواجباته، ومنحته مدة سنة ويوم كمهلة قانونية كي يأتي خلالها إلى عرشه في عكا ويباشر الحكم بها، وفي حال تأخره عن هذه المدة يسقط حقه في الوراثة[١].

كان تتويج ملوك المملكة الأولى يتم في العاصمة "القدس"[٢]، في حين أن تتويج الملوك في المملكة الثانية تمَّ في صور التي عُدت آنذاك ثاني أهم مدينة في المملكة بعد العاصمة عكا - وربما أن السبب في ذلك هو وجود صخرة مقدسة في خارج صور، رُوي أن يسوع المسيح وقف عليها-، وما يهم أن كاتدرائية صور غدت هي الموضع التقليدي الذي تُوّج فيه جميع ملوك مملكة القدس اللاتينية الثانية، ويستثنى من ذلك مرة واحدة عام ٦٢٦هـ/ ١٢٢٩م حيث تَوَّج الإمبراطور فردريك نفسه ملكاً في القدس في مذبح كنيسة الضريح المقدس، وارتدى بنفسه التاج الملكي فوق رأسه[٣]. في حين أن الذي يقوم بمراسيم التتويج للملوك في صور هو رئيس أساقفتها نيابةً عن بطريرك المملكة[٤]، وجرت العادة على أنه عندما يقوم البطريرك أو نائبه بتتويج ملك القدس بتاج من ذهب ويمسحه يغدو ملكاً،[٥] وكانت هذه المراسم تتم بصمت في مدينة صور، بينما يجري الاحتفال الرسمي لهذه المناسبة في مدينة عكا عاصمة المملكة.[٦]

ويلي مراسم التتويج قَسَمُ الولاء والتبعية الإقطاعية الذي يجب على النبلاء تقديمه إلى الملك، وفيه يعلن كل نبيل أنه أصبح تابعاً للملك مقابل تثبيته في ملكيته الإقطاعية، وكذلك الأمر واجب تجاه

---

[١] دي نافار: حروب فردريك، عن الموسوعة، ج٣٥، ص٣٥، ٥٠.

[٢] عن مراسم التتويج في المملكة الأولى انظر: براور: الاستيطان الصليبي، ١٢٥-١٢٦.

[٣] الراهب الدومينيكاني، عن الموسوعة، ج٤٣، ص ١١٦٧.

[٤] براور: الاستيطان الصليبي، ص١٢٨.

[٥] مجهول: ذيل تاريخ وليم، عن الموسوعة، ج٨، ص ٤٨٠.

[٦] براور: الاستيطان الصليبي، ص١٢٨.

الوصي على العرش، ومن يُقصِّر عن ذلك قد يتعرض لعقوبة الحرمان من أملاكه الإقطاعية.[١] كما يتوجب على الملك عند تنصيبه أداء قَسَم أمام المحكمة العليا يُلزمه احترام الامتيازات والحصانات الإقطاعية، ولم يكن في وسعه تشريع القوانين أو منح الإقطاعيات من تلقاء نفسه دون الحصول على الموافقة المسبقة من المحكمة العليا.[٢]

وكانت تلك الحقوق والواجبات مأخوذة من عدة قوانين أو أعراف سادت في المملكة الثانية، أشهرها:[٣]

- ميثاق فيليب دي نوفار، وهو ميثاق في القانون الإقطاعي، كتب قبل عام ١٢٥٣م.
- كتاب جان دي ابلين كونت يافا، وقد كُتب نحو عام ١٢٥٣م، كنسخة مطورة عن ميثاق دي نوفار.
- وجد في المملكة بين عامي ١٢٢٩-١٢٤٤م "كتاب الملك"، و"كتاب مؤتمرات البورجوازيين".

ويمكن القول إن أيمان الولاء والتبعية التي كان يقدمها النبلاء للملك لم تكن سوى صورة شكلية وتقليد لما كان عليه الأمر في المملكة الأولى، إذ إن التاج الملكي فَقَدَ الكثير من هيبته في المملكة الثانية، وأخذت سلطة الملك تضمحل باستمرار، وبعد طرد أعوان ونواب الإمبراطور الألماني فردريك الثاني في عام ١٢٣٢م بدا وكأن النظام الملكي قد أُلغي، وأصبحت المحكمة العليا -التي تزعمتها أسرة ابلين أسياد بيروت وأرسوف ويافا- هي الحاكم الحقيقي للمملكة، وغدت المملكة أشبه بجمهورية إقطاعية تتألف من اتحاد عدة إقطاعات.[٤]

وشيئاً فشيئاً فَقَدَ ملوك المملكة الثانية صلاحياتهم وامتيازاتهم، وكان منها فِقْدَانُ حق منح الامتيازات للكومونات التجارية الإيطالية، وعقد المعاهدات مع أبناء تلك الكومونات، كما أنهم فقدوا حق الانفراد في عقد المعاهدات مع القوى الأجنبية، وأصبح الذي يقوم بتلك المهام هم كبار السادة

---

[١] براور: الاستيطان الصليبي، ص١٢٩.

[٢] غروسيه: موجز تاريخ الحروب الصليبية، ص٨٤.

[٣] غروسيه: موجز تاريخ الحروب الصليبية، ص٨٥.

[٤] غروسيه: موجز تاريخ الحروب الصليبية، ص٨٤.

الإقطاعيين وسادة المدن دون الرجوع إلى الملك، ولم يستطع ملوك المملكة المتغيبون أو نوابهم في عكا وضع حد لهذا النوع من اغتصاب السلطة، واستمر هذا حتى سقوط المملكة في عام ٦٩٠هـ/١٢٩١م.[١]

وثمة دليل آخر على ضعف السلطة الملكية، وتنامي النزعة الاستقلالية في المملكة هو ظهور دور ضرب العملات والمسكوكات التابعة للبارونات بعد أن كانت حكراً على الحكومة الملكية في مملكة القدس الأولى[٢].

ويمكن القول إن أول ضربة لهيبة المَلك والسلطة الملكية في مملكة القدس اللاتينية الثانية كانت قبل ولادتها وعلى أيدي قائدي الحملة الصليبية الثالثة ملكي فرنسا وإنكلترا – فيليب وريتشارد– لأنهما اتفقا على اقتسام الأراضي الإسلامية التي سيتم احتلالها، وتكرر ما يشبه هذا الاتفاق في الحملة الخامسة التي تقدمت إلى دمياط، حين أعلن النائب البابوي آنذاك أن الأراضي التي سيتم احتلالها في مصر لن تخضع لسلطة المملكة اللاتينية.[٣]

حقيقة أن تحجيم سلطة ملوك القدس في المملكة الثانية وسحب الصلاحيات منهم بدأت مبكرة منذ عهد هنري الشامباني الذي انتُخب خليفةً لكونرادConrand ، فقد سُحبت منه أحقية تعيين بطريرك القدس، وذلك عندما مات في عهده هرقل بطريرك القدس آنذاك، اجتمع رهبان القبر المقدس وانتخبوا بطريركاً جديداً دون استشارة الكونت هنري أو العودة إليه، مما أغضبه، واحتج عليهم بأنه "جرت العادة من قبل عندما يموت بطريرك القدس يقوم الرهبان في الضريح المقدس بانتخاب اثنين، ويرفعون اسميهما للكونت ليقوم باختيار واحد منهما فيكون بطريركاً للقدس"[٤]، وتفاقمت الخلافات بين الكونت والرهبان، وألقى بهم في السجن، مما أحدث ضجة وفضيحة كبيرة في المملكة آنذاك، واضطر إلى إطلاق سراح الرهبان، فذهبوا إلى روما لتقديم شكواهم للبابا الذي غضب كثيراً من تصرف هنري، وقرر

---

[١] براور: الاستيطان الصليبي، ص١٦٧.

[٢] براور: الاستيطان الصليبي، ص١٦٨.

[٣] براور: الاستيطان الصليبي، ص١٣٥.

[٤] مجهول: ذيل تاريخ وليم، عن الموسوعة، ج٨، ص٤٥٦.

إلغاء دور ملك القدس في انتخاب البطريرك، وقرر أن يكون ذلك من حق الرهبان وحدهم.[١] ولا شك أن ذلك كان تشريعاً جديداً صادراً عن البابوية لا يمكن تجاهله وأصبح سارياً في مملكة القدس.

ويبدو أن غياب الملوك الشرعيين عن عاصمتهم عكا أتاح المجال لسريان مثل ذلك القرار، كما أتاح المجال للمتنفذين في المملكة، وكبُرت سلطة الأشخاص وأصبحت ظاهرة للعيان، ولاسيما سلطة بارونات المحكمة العليا الذين أخذوا يفسرون القانون على هواهم، ويناوئون الأوصياء على المُلك، ويتخذون من حقوق الملك حجةً لهم لتقييد سلطة الأوصياء وتوسيع صلاحياتهم الفردية، وربما أحياناً عملوا على سن قوانين تخدم مصالحهم الشخصية، مما أضعف هيبة الملك والأوصياء على العرش، وسارع في ضياع هيبة العرش، ولا بدّ أن ذلك أدى إلى ضعف القبضة الأمنية، وربما أدى إلى الانفلات الأمني، وتزامن ذلك مع الضغوط الخارجية على المملكة من قبل الأيوبيين ومن ثم المماليك.

ويمكن القول عن النظام السياسي أثناء توحيد التاج والوحدة مع قبرص إن كل من المملكتين بقيت منفصلة عن المملكة الأخرى، ولها سياستها المستقلة ونظامها السياسي الخاص بها وإن كانا متقاربين، فعندما نُصِّب هيو الأنطاكي ملكاً على عرش قبرص عام ٦٦٧هـ/ ١٢٦٨م كان آنذاك وصياً على عرش عكا أيضاً، ومن ثم أصبح ملكاً عليها كما تقدم ذكره، وأراد هيو أن يستغل منصبه في قبرص ويقبض على زمام الأمور فيها ويسعى من خلال ذلك جاهداً إلى حلِّ بعض المشاكل والأزمات التي كانت تعاني منها مملكة القدس اللاتينية الثانية، كونه وصياً على عرشها، وتقع عليه مسؤولية حماية أمنها الذي بدأ يهدده -بشكل كبير وواضح- سلطان المماليك بيبرس، وهنا أراد أن يخرج بقوة عسكرية من قبرص لمساندة عكا، فلقي معارضة شديدة من نبلاء قبرص، واحتجوا عليه بأنهم قدَّموا له يمين الولاء والطاعة داخل قبرص فقط، وأنهم غير ملزمين بذلك خارج حدود الأخيرة.[٢] وهنا يظهر جلياً أن قبرص قد تخلّت عن دورها كخط دفاع ثانٍ عن مملكة القدس، ذلك الدور الذي أدته بنجاح منذ اخضاعها لسلطة الصليبيين على يد ريتشارد عام ٥٨٧هـ/ ١١٩١م حتى ذلك الحين، بل يمكن القول إن قبرص بدأت تشغل دوراً سلبياً تجاه مملكة القدس؛ لأنها جذبت سكان ونبلاء عكا إليها، الأمر الذي أسهم في الخلخلة السكانية والترتيبات الأمنية في عكا؛ إذ أصبحت قبرص ملجأً لكل فار منها، مع العلم أن نبلاء

---

[١] مجهول: ذيل تاريخ وليم، عن الموسوعة، ج٨، ص٤٥٦.

[٢] رنسيمان: تاريخ الحروب، ج٣، ص٥٦١-٥٦٢.

قبرص هم في الأصل من النبلاء الصليبيين الذين انتقلوا إليها من بلاد الشام بعد أن آل الحكم بها لأسرة لوزجنان De Lusignan.[١]

وهنا يبدو وبكل وضوح أن قدوم هؤلاء النبلاء الصليبيين إلى قبرص ما هو إلا طمع في زيادة أملاكهم، أو نوع من التعويض عما فقدوه جراء فتوحات صلاح الدين، وكان مَثَلهم الأكبر في ذلك ملكهم غي لوزجنان Guy De Lusignan، الذي عُوّض بقبرص عن القدس التي خسرها أمام المسلمين، ويبدو أن هؤلاء النبلاء الصليبيين قد تخلوا عن القضية الصليبية بالكلية، وبدأوا ينظرون شَزَراً وريبةً إلى ممتلكات الصليبيين في الساحل الشامي التي باتت مهددة بالزوال بين عشية وضحاها من جرّاء ضغط المماليك عليها في الوقت الذي وفّرت لهم قبرص الأمن والاستقرار.[٢]

وهذا يعزز فكرة ضعف السلطة السياسية ونظامها في مملكة القدس اللاتينية الثانية، ويبدو أن نبلاء عكا رحبوا بهذا الضعف الذي عاشته مملكتهم جرّاء غياب الملوك عنها، وأنهم فضلوا وجود وصي على العرش في عكا بدلاً من الملك، فتكون مهمته حماية المملكة دون أن يتمكن من فرض سلطته عليهم.

فعندما فاز هيو الثالث (الأنطاكي) في عام ٦٦٨هـ/ ١٢٦٩م بنزاعه الطويل مع الوريثة الشرعية للعرش ماري الأنطاكية – بفضل مساندة المحكمة العليا والنبلاء والهيئات العسكرية والدينية في عكا باستثناء الداوية – جلس على عرش المملكة، وأخذ يدير الأمور بنفسه وبشكل مباشر دون أن يعتمد على وصي أو نائب له كما اعتادت عليه المملكة، وامتلك روحاً مفعمةً بالنشاط والأمل في اعادة المجد للمملكة، إلا أنه لم يحصل على المساعدة المرجوة ممن ساندوه في الوصول إلى الحكم، وأخفقت محاولته في توطيد مركزه كملك واعادة الهيبة إلى الحكم والعرش.[٣]

ومسوغ ذلك أن نبلاء عكا وزعمائها والهيئات العسكرية والدينية وكومون عكا والكومونات الإيطالية بها وغيرهم قد تعودوا على غياب الملك عن عرشه وعاصمته، ولطالما نادوا بحقوق الملك الغائب

---

[١] رحيل: رحيل: نهاية الصليبيين: ٦٠.

[٢] رحيل: رحيل: نهاية الصليبيين: ص٦٠-٦١. نقلاً عن سعيد عاشور: قبرص، ص٣٥.

[٣] رنسيمان: تاريخ الحروب، ج٣، ص ٥٦٥-٥٦٦، ٥٨٩-٥٩٠.

ووجوب احترام حقوقه رغبة منهم في تحجيم صلاحيات الوصي على المملكة، واستمر ذلك طيلة أربعين عاماً، منذ رحيل فردريك عن عكا، أما الآن فيبدو أنهم أصبحوا فجأة أمام واقع لم يألفوه، ورفضوا الانصياع للملك هيو الثالث الذي لم يكن له سلطة قوية عليهم بفرض أنه غريب عنهم، وهم مَن رَقَّاهُ لمنصب الملك، فمن غير الممكن أن يتمرد عليهم بهذه السرعة والسهولة، وهنا "بدت عكا وكأنها عدد كبير من الكيانات، كل يدير شؤونه بنفسه بمعزل عن الآخرين، ولا شأن له - أي الملك- بمصالحهم حتى لو كان الأمر يناقض مصالح المملكة العليا"[١].

وفي النهاية أخفق هيو في إصلاح حال الفرنج وإزالة ما بين الجماعات والهيئات الدينية من تنافس وخلافات، ولم يستطع إجبار نبلاء المملكة على الخضوع لسلطته، وتعاظمت مشاكله بها، وأعيته الحيلة، وأدرك أن الصليبيين لن يستقيم لهم حال، فنفض يده من المملكة، وانسحب فجأةً إلى صور عام ٦٧٧هـ/ ١٢٧٨م، دون أن يعين نائباً عنه يرعى شؤون المملكة، وأصر على عدم التعيين، ثم قَبِلَ بذلك بعد وساطات عدة، وعيّن باليان ابلين -ابن يوحنا سيد أرسوف- ليكون نائباً عنه، ومن ثم انسحب عائداً إلى قبرص.[٢]

بعد ذلك تمكن روجر سان سرجينو الذي أرسله شارل أنجو ليكون نائباً عنه في مملكة القدس- كما تقدم ذكره، وتمكن من دخول قلعة عكا وتوطيد مركزه بها عام ٦٧٦هـ/ ١٢٧٧م، ومن ثم طلب من بطريرك المملكة وجميع باروناتها وأعضاء المحكمة العليا أن يؤدوا يمين الولاء له ولسيده شارل أنجو، إلا أنهم ترددوا في ذلك، لا حباً في الملك هيو الغائب، بل كراهيةً لإقرار انتقال العرش دون أن يصدر قرار من المحكمة العليا بذلك، ولإسباغ نوع من الشرعية على يمينهم لروجر أرسلوا إلى هيو الثالث في قبرص كي يُحِلَّهم من اليمين الذي أدوه إليه، إلا أنه لم يجبهم إلى ذلك، وعلى الرغم من هذا فقد أدوا يمين الولاء دون أن يصدر قرار من المحكمة العليا.[٣]

---

[١] رحيل: نهاية الصليبيين: ص٦٨.

[٢] رنسيمان: تاريخ الحروب، ج٣، ص ٥٩٠-٥٩١. عاشور: الحركة الصليبية، ج٢، ص ٣٦٧. رحيل: نهاية الصليبيين، ص٦٦-٦٧.

[٣] رنسيمان: تاريخ الحروب، ج٣، ص ٥٩٢.

وهنا يظهر واضحاً أن مركز الأخيرة أخذ ينهار في ظل حكم روجر سرجينو، وضَعُفَ دَوْرُها في إقرار انتقال وراثة العرش لشخص آخر، وبدا أن قرار البابا والقوة العسكرية هي التي غلبت الآن، وعينت حاكماً وارثاً لعرش المملكة، وتم تجاهل حقوق الملك الشرعي هيو الثالث الموجود في قبرص .

وفي العودة إلى النزاع على وراثة عرش المملكة بين ماري الأنطاكية وهيو الأنطاكي في مجمع ليون الثاني عام ٦٧٠هـ/ ١٢٧١م كما تقدم كانت الأولى مُؤَيَدة ومدعومة من قبل البابوية، والأخير كان مؤيَداً من قبل المحكمة العليا، وفُضَّ النزاع لصالح الأخير، وأعلن وفدُ عكا في مجمع ليون الثاني أن مسألة توريث الحكم في مملكة القدس هي فقط من اختصاص المحكمة العليا بها، ولا يحق لأي سلطة أخرى أن تتدخل في ذلك، مشيرين بشكل أو بآخر إلى أن لا يحق للبابوية التدخل في موضوع وراثة العرش في المملكة.

وكان ذلك تطوراً جديداً في النظام السياسي للمملكة، وتصدياً واضحاً لتدخل البابوية فيها، وذلك ما لم تقبله البابوية، فكيف لمملكة عكا المتداعية أن تقف في وجه البابوية وهي مَن أخضعت عروش الغرب وتحكمت في ملوكه؟ بل هي الراعي الأول للمشروع الصليبي، وبالتالي لم تكن مملكتا القدس الأولى والثانية لولا البابوية.

وهنا عمل البابا جريجوري العاشر- الذي كان على عرش البابوية آنذاك (٦٧٠-٦٧٥هـ/ ١٢٧١-١٢٧٦م) – على كبح شوكة وتمرد مملكة القدس ونظامها عليه، وآثر الانتقام منها بشارل أنجو الفرنسي ملك صقلية ووريث آل هوهنشتاوفن بها؛ إذ عمل على تحويل بأسه وانتقامه وأطماعه في الإمبراطوية البيزنطية إلى مملكة القدس اللاتينية الثانية.

وكما تقدم، فقد عرض البابا على ماري بيع حقوقها في عرش القدس لشارل أنجو، وتمت الصفقة عام ٦٧٦هـ/ ١٢٧٧م، وسارع شارل أنجو إلى تلقيب نفسه بملك بيت المقدس، وتعقّد الموقف، وساء النظام السياسي في المملكة، وعارض قانونيوا المملكة هذا الاجراء من قبل البابا، إلا أن الأخير أعلن أنه الحامي لمملكة القدس، وأن رأيه قانون لا يجوز لأحد أن يخالفه أو يطعن به.[1]

---

[1] الفارس الداوي: أعمال القبارصة، ص٨٥. رحيل: نهاية الصليبيين: ص٦٦. عن ريشار: تكوين مملكة بيت المقدس: ص٧٨. رنسيمان: تاريخ الحروب، ج٣، ص ٥٦٣-٥٦٤.

وفي ذلك محاولة من قبل البابا لإثبات سلطته البابوية الفعلية على الصليبيين في الشرق، وإلزامهم بالعودة إليه في كل صغيرة وكبيرة في شؤون المملكة بالقدر نفسه الذي يعودون به إليه عند الحاجة إلى المساعدات ضد المسلمين.

وفي نهاية الصراع بين ماري الأنطاكية وهيو الأنطاكي ودخول شارل أنجو بقوة على خط الصراع يمكن ملاحظة علو شأن المحكمة العليا في عكا، وأنها غَدت صاحبة الحق والكلمة المسموعة في تنصيب الملك وتوريث العرش، وهذا يُعدُّ نكسة في النظام السياسي لمملكة القدس؛ إذ أصبح لنبلائها الكلمة العليا والمسموعة في مسألة الحكم وتوريث العرش، بعد أن كان انتخابياً في المملكة الأولى ويخضع للملكية الإقطاعية في بداية المملكة الثانية.

وعقب رحيل فردريك عن المملكة عام ٦٢٦هـ/١٢٢٩م حدث نوع من تطور النظام السياسي بها، ذلك أن أمراء المملكة رفضوا الاعتراف بالقائد العسكري فلانجيري كمندوباً عن فردريك، وأسسوا أول مجلس بلدي لحكم عكا، وتطور هذا المجلس إلى كومون في سنة ٦٢٩هـ/ ١٢٣٢م برئاسة عدو الإمبراطور حنا دي ابلين Henna d'Ibelin حاكم بيروت بين عامي ٥٩٣-٦٣٣هـ/ ١١٩٧-١٢٣٦م، -الذي قاد المعارضة ضد الإمبراطور في المملكة-، وتولى الأخير حكم عكا بالإضافة إلى بيروت، في حين أن بيت المقدس حكمها مندوب عن الإمبراطور، واستمرت بقية المدن الصليبية في المملكة مستقلة عن نفوذ الإمبراطور فردريك.[١]

حاول الإمبراطور عبثاً إرضاء أمراء المملكة، فعزل نائبه فلانجيري الذي تلطخت سمعته في المملكة، وأحلَّ محله أحد الأمراء المحليين هو فيليب دي موجاستيل، إلا أنهم رفضوا ذلك؛ لأن موجاستيل كان من أنصار سلفه الأشداء.[٢]

---

[١] للمزيد عن الصراعات والنزاعات في هذه المرحلة راجع دي نافار: حروب فردريك، عن الموسوعة، ج٣٥، ص ٥٠-٥٧. سميث: فرسان القديس يوحنا، عن الموسوعة، ج٥٢، ص ١١٩-١٢٠. عاشور: الحركة الصليبية، ج٢، ص ٢٥٨.

[٢] دي نافار: حروب فردريك، عن الموسوعة، ج٣٥، ص ٥٧.

وبسبب تصاعد الخلاف بين أمراء وبارونات المملكة من جانب وفردريك وابنه –الملك الشرعي– من جانب آخر، فُسِحَ المجال لتدخل البابا وإثبات سلطته على صليبيي المملكة بعد أن كانوا قد تجاهلوه في عدة خطوات ماضية.

ففي هذه الآونة تم الاتفاق بين البابا والإمبراطور، وتم الاعتراف بالانتصارات التي حققها الأخير في بلاد الشام؛ لذا كتب البابا في جمادى الآخر ٦٣٣هـ/ شباط ١٢٣٦م إلى أمراء مملكة القدس يخبرهم بأن فردريك له الحق الكامل في الاشراف على شؤون الصليبيين، كونه وصياً على ابنه كونراد Conrand صاحب الحق الشرعي في تاج المملكة، وأن أمراء المملكة أساؤوا التصرف إزاء حكامهم، ولكن عفا الله عما مضى، وأن البابا يرى العفو عن جميع أمراء الشام ما عدا آل ابلين الذين يجب محاكمتهم أمام محكمة عليا، وبالنسبة إلى كومون عكا فينبغي حله فوراً.[١]

يضاف إلى ذلك أن السلطة في مملكة القدس أديرت في هذه المرحلة من قبل سلسلة متعاقبة من نواب الملوك أو ولاتهم، مما أدى إلى العديد من الخلافات القانونية والقضائية التي انتهت بحرب أهلية كبيرة داخل المملكة، وقاتل البارونات المحليون بقيادة الأسرة الابيلينية[٢] ضد عساكر فردريك الثاني وحلفائه من أجل السيطرة على المنطقة، واستمر الصراع بين عامي ٦٢٥-٦٣٩هـ/ ١٢٢٨-١٢٤٢م، وتميز بشدته وعنفه في هذه المرحلة.[٣]

ويبدو أن أمراء المملكة الذين تجرأوا على إعلان التمرد والعصيان على الإمبراطور والوصي على عرش عكا، أيضاً تجرأوا الآن على عصيان البابا، فرفضوا عرضه ووساطته، واستمر الوضع متوتراً في المملكة على ما هو عليه، وتكررت مساعي البابا لحل مشاكل مملكة القدس، واقترح توحيدها مع مملكة

---

[١] دي نافار: حروب فردريك، عن الموسوعة، ج٣٥، ص ٥٩-٦٠.

[٢] الأسرة الابيلينية هم أسياد بيروت وأرسوف ويافا، وهناك خلاف حول أصول الأسرة الابيلينية، وللمزيد عن هذه الأسرة راجع، براور: إديوري: قبرص والحروب الصليبية، ص٥٩-٦٠. براور: الاستيطان الصليبي، ص٩٥. غروسيه: موجز تاريخ الحروب الصليبية، ص٨٤.

[٣] مارشال، كريستوفر: فن الحرب وشؤونه في عصر الحروب الصليبية، عن الموسوعة الشاملة، ج٥٢، ص٥٦-٥٨. للاستزادة أنظر: سميث: الاسبتارية، ص١٠٥.

قبرص، وتكرر عناد أمراء وبارونات المملكة وأصروا على التمسك بكونراد الرابع Conrand IIII بن فردريك بوصفه الوريث الشرعي الوحيد لمملكتهم.[١]

ويُلاحظ أن أمراء وبارونات المملكة قد خرجوا عن النظام المألوف في وراثة ووصاية العرش لأكثر من مرة وفقاً لمصالح المملكة والضغوط المترتبة عليها:

**فالمرة الأولى** كانت بعد أن أخفق لويس التاسع في حملته على مصر، ولجأ إلى عكا عاصمة مملكة القدس اللاتينية الثانية التي كانت تحت وصاية هنري ملك قبرص، وكان الأخير قد أناب عنه يوحنا ابلين Yohenna d'Ibelin سيد أرسوف، وعلى الرغم من أن كونراد بن فردريك –صاحب الحق الشرعي في عرش مملكة القدس– كان على قيد الحياة، فإن نبلاء المملكة اعترفوا بسلطة لويس في المملكة كونها أمراً واقعاً[٢]، وربما كان وراء سياستهم هذه عدة دوافع:

**الأول**: تردي قوة المملكة بشكل خطير بعد إخفاق حملة لويس التاسع على مصر، وما تكبدته المملكة من خسائر بشرية كبيرة سواءً جنودها الذين قتلوا في المعارك أو الذين وقعوا في أسر المسلمين مما أفقدها أهم عوامل دعمها وقوتها؛ لذا كانت الحاجة ملحة للويس ومن تبقّى معه من جنود ناجين من معارك مصر.

**الثاني**: تغيّر الأوضاع الدولية المحيطة بمملكة القدس، ولاسيما أوضاع مصر التي بدأ يعلو بها نجم المماليك بعد تحطيمهم لحملة لويس، وأخذوا يهددون أطراف مملكة عكا، فكان لا بدّ من شخصية قوية تجمع شمل المملكة وتوحد كلمتها، وتؤمنها من شر الانقسام، وتطفئ نار الفتنة المعتادة الوقوع في المملكة.

**الثالث**: أن لويس لم يمثل خطراً على مراكز القوى في المملكة على المدى الطويل، ذلك أن إقامته لن تطول بها لتكرر وصول الرسائل إليه من والدته تحثه بها على الرجوع إلى فرنسا بسبب المشاكل

---

[١] عاشور: الحركة الصليبية، ج٢، ص٢٥٩.

[٢] رحيل: نهاية الصليبيين: ص٤٨.

المتفاقمة بها، كما أن لويس لم يطالب بعرش المملكة، ولم يسعَ إلى سلب كونراد بن فردريك حقوقه في الملك.[١]

الدافع **الرابع**: هو الجهود الكبيرة التي بذلها لويس لدعم موقف المملكة سواءً على الصعيد العسكري أم السياسي أو الدبلوماسي[٢].

وعلى العموم يمكن القول إن وجود لويس التاسع في عكا أحدث نوعاً من الاستقرار النسبي في المملكة، وساعد على توطيد النظام السياسي بها، وساعدت سلطته وهيبته التي تمتع بها على إعادة الهيبة والقوة إلى عرش القدس، وانحصرت الصراعات بين الجاليات الإيطالية مرحلياً، وحدَّ وجود لويس من نفوذ التنظيمات الدينية، وتوحّد الجميع تحت سلطته، وإن كان توحيداً في مرحلة معينة. [٣]

**المرة الثانية**: كان في تغليب دعوى هيو الأنطاكي على دعوى هيو البريوني في الوصاية على عرشي قبرص وعكا في عام ٦٦٣هـ/ ١٢٦٤م، على الرغم من أحقية الأخير في ذلك- كما تقدم شرحه في الحديث عن النزاع على وراثة العرش في المملكة.

**المرة الثالثة**: تمثلت في تغليب دعوى هيو الأنطاكي على دعوى ماريا الأنطاكية في وراثة عرش المملكة عام ٦٦٨هـ/ ١٢٦٩م، على الرغم من أحقية الأخيرة بذلك كما تقدم شرحه في الفصل السالف.

ومن خلال تلك الإجراءات التي قامت بها المحكمة العليا لفض النزاعات حول وراثة العرش يظهر جلياً أنه أصبح لها الكلمة الأولى والأخيرة في قضايا توريث العرش في المملكة، وهذا يقود إلى بسط الحديث عنها:

---

[١] راجع جوانفيل: حياة لويس، عن الموسوعة، ج٣٦، ص ١٥١-٢٢١. للاستزادة أنظر: أطروحة الدكيفي: لويس التاسع، ص ٧٠ وما يليها. رحيل: نهاية الصليبيين، ص٤٨.

[٢] للمزيد راجع كتاب كندي، هيوج: القلاع الصليبية، تر: سهيل زكار، كتاب لم يُنشر بعد، ضمن الموسوعة الشاملة، ج٥٢، ص ١٨٢-١٨٨. رحيل: نهاية الصليبيين، ص٤٩. عن ريشار: تكوين مملكة بيت المقدس، ص١٧٣. وعن حسن عبد الوهاب: تاريخ قيسارية الشام في العصر الإسلامي، الاسكندرية، ١٩٩٠م، ص١٩٥. للاستزادة أنظر: أطروحة الدكيفي: لويس التاسع، ص ١٠٦-١٥٠.

[٣] رحيل: نهاية الصليبيين، ص٥٠.

## المحكمة العليا Haute Cour في عكا

كانت تُعرف باللاتينية باسم المحكمة العامة، وبالفرنسية المحلية عُرفت باسم البرلمان، بيد أن الرسائل والكتب القانونية هي فقط التي تشير إلى هذه المحكمة باسم المحكمة العليا Haute Cour .

وكانت عضوية هذه المحكمة في المملكة الأولى تقتصر على السادة الإقطاعيين، ونادراً ما شملت أعضاء غير إقطاعيين، وبها كان الملك يجتمع مع أعضائها.[١] ومن الناحية القانونية كان حضور الأخير إلى جانب ثلاثة من كبار السادة الإقطاعيين يشكل نصاباً قانونياً كافياً لعقد جلسة المحكمة.[٢]

وأهم اختصاصات هذه المحكمة الإشراف على الأعمال التجارية، وحق الفصل في القضايا الجنائية والمدنية في المملكة، والقضايا المتعلقة بتحويل ملكية الإقطاعات بما فيه البيع والشراء والآجار،[٣] وكان اصدارها لحكم قضائي بمثابة تشريع وقانون.[٤]

واستمرت هذه المحكمة على ذلك الحال خلال المملكة الأولى مع بعض التطورات والتعديلات الخفيفة، واستمرت مقراً لاجتماع الملك وكبار أتباعه الإقطاعيين للتشاور فيما بينهم، وللملك القول الفصل فيها.[٥]

إلا أنه تباينت واختلفت هذه **المحكمة خلال مملكة القدس اللاتينية الثانية** عما كانت عليه في الأولى، فاختلف مركزها وقوة مركز أعضائها فيها، وعلا شأنها، وضعفت هيبة السلطة الملكية فيها، مما أدى إلى ازدياد هيبة وصلاحيات هذه المحكمة على حساب صلاحيات الملك الذي تحجَّمت سلطته بها، وأصبح مضطراً للعمل ضمن القوانين الإقطاعية المعمول بها في المملكة، ومع غياب الملك عن عرشه أصبح للمحكمة السلطة الحقيقية في المملكة، فسيَّرت الأمور، ونظرت في المعاهدات ونصَّبت الوصي على العرش، واستمر حال المحكمة العليا في العلو والمكانة الرفيعة حتى عام ٦٢٠هـ/ ١٢٢٣م، حيث

---

[١] براور: الاستيطان الصليبي، ص١٤١.

[٢] براور: الاستيطان الصليبي، ص١٤٢، ١٤٨.

[٣] براور: الاستيطان الصليبي، ص١٤٨.

[٤] براور: الاستيطان الصليبي، ص١٤٩.

[٥] للمزيد راجع براور: الاستيطان الصليبي، ص١٤٢، ١٤٥.

أدت الحركة الثورية في المملكة المعارضة للإمبراطور الألماني فردريك الثاني التي قادها كبار النبلاء من أسرة ابلين إلى خلق مؤسسة جديدة حلّت محل المحكمة العليا، وقامت بمهامها لمدة اثني عشر عاماً، وعُرفت هذه المؤسسة الجديدة باسم حكومة أو برلمان أو "كومون" عكا، وكانت بمثابة مكان لاجتماع سادة البارونات والضياع الصليبية الذين كانوا يمثلون مجتمع مملكة القدس الثانية، وسعت حكومة عكا جاهدةً لضمان المؤازرة والتأييد الشعبي لها، إلا أنها لم تستمر طويلاً، وأصابها الإعياء والنَصَب، وتلاشت بعد انتهاء خطر فردريك الثاني، وبدأت المحكمة العليا تستعيد صلاحياتها ومكانتها السالفة، وبدأ ينضم إليها في منتصف القرن الثالث عشر أبناء الكومونات الإيطالية وكبار البرجوازية، ومقدمو الهيئات الدينية العسكرية، ومع نهاية القرن الثالث عشر أصبحت هذه المحكمة مكاناً لاجتماع مختلف عناصر القوى في المجتمع، وأصبحت جمعية تشريعية تضم كل أصحاب النفوذ الحقيقي في المملكة، وأصبحت تعقد جلساتها بحضور كبار الأساقفة ومقدمي الهيئات الدينية العسكرية والبرجوازيين.[١]

ومنذ عام ٦٤١هـ/ ١٢٤٣م –حيث بلغ الملك كونراد Conrand III سن الرشد آنذاك- وحتى عام ٦٦٦هـ/ ١٢٦٨م كانت المحكمة العليا تمارس السلطة الحقيقية في مملكة القدس الثانية، وتعمل بالاتفاق مع ممثلي مؤسسات أخرى في المملكة، كما كانت تقوم أحياناً باختيار بعض الأعضاء الجدد في الحكومة من الصليبيين الزائرين،[٢] وبلغت المحكمة حداً من النفوذ والقوة أنها أصبحت هي من يَفْصِلُ في توريث العرش واختيار الملك الشرعي دون الرجوع إلى البابا – أحياناً- كما تم عام ٦٦٨هـ/ ١٢٦٩م حيث اختارت هيو الثالث الأنطاكي ملكاً على عرش عكا على الرغم من أحقية منافسه هيو البريوني، وكذلك الأمر في فض النزاع على وراثة العرش أيضاً بين هيو الثالث وماريا الأنطاكية كما تقدم ذكره.

ويلاحظ في نهايات مملكة القدس اللاتينية الثانية أن المحكمة العليا في عكا هي التي قامت بفض كل المنازعات داخلها، ولاسيما النزاع على وراثة العرش سالف الذكر، منساقةً وراء مصالح مملكة القدس اللاتينية الثانية وما يحيط بها من مخاطر، ومن خلال تلك الإجراءات التي قامت بها المحكمة يظهر جلياً

---

[١] براور: الاستيطان الصليبي، ص١٣٠.

[٢] براور: الاستيطان الصليبي، ص١٠٥.

أنها أصبحت الفيصل في قضايا توريث العرش، وأصبح من حقها سن القوانين التي تخدم مصلحة المملكة وإن خالفت العرف الإقطاعي المتبع الذي يستمد جذوره من النظام الإقطاعي الفرنسي.[١]

[١] رحيل: نهاية الصليبيين، ص ٥٩.

## المبحث الثاني

## العناصر السكانية في مملكة القدس اللاتينية الثانية

كان الأكثرُ غرابةً وتبايناً من تبدل النظام السياسي في مملكة القدس والخلافات على وراثة عرشها والوصاية عليها موضوع العناصر السكانية فيها، فأقل ما يمكن وصف المملكة في هذا الخصوص بأنها فقدت التجانس السكاني، وتمثلت بها الفسيفساء السكانية بكل معنى الكلمة.

فالمجتمع الصليبي في مملكة القدس لم يكن متجانساً من الناحية العرقية، وتكوّن من عناصر شتى اتخذت من عكا ومدن الساحل التابعة لها مستقراً ومقاماً بعد انهيار المملكة الأولى على يد صلاح الدين، فبعد الانسحابات التي أجراها الصليبيون من مدنهم الكثيرة المهزومة أمام الضغط العربي – الإسلامي بعد حطين، وبعد الحصول على الأمان من صلاح الدين تجمعوا في مدن محدودة ضيقة النطاق، ثم توزعوا فيما بعد على المدن القليلة العدد التي أعادوا السيطرة عليها بعد عام ٥٨٧هـ/١١٩١م، وأصبحت تابعة لمملكة القدس اللاتينية الثانية.

فقد تَجَمَّعَ في هذه المدن الهيئاتُ الدينية والجاليات الإيطالية والإنكليزية والألمانية ورؤساء الأسقفيات القديمة منذ عهد المملكة الأولى بالإضافة إلى عامة الصليبيين وسفهائهم، وقد عبَّر جاك دي فيتري عن هذه الظاهرة أبلغ تعبير عندما قال: " الأرض مكتظة بالسكان من مختلف الأعراق، ومختلف الألسن والأمم"[1].

فمنذ أن سقطت عكا بيدهم عام ٥٨٧هـ/ ١١٩١م دخلتها جموع الفرنج، وكان على رأسهم ملكا فرنسا وإنكلترا، ثم تبعتهم جماعات الفرسان الدينية، وكذلك جاليات المدن التجارية الإيطالية، ولا بدَّ من بسط الحديث عن هذه العناصر السكانية التي استقرت في مملكة عكا، والبداية مع أهم هذه العناصر وأكثرها وجوداً في المملكة، وهي:

---

[1] دي فتري: المنتقى، عن الموسوعة، ج٣٣، ص ١٨٦. للاستزادة أنظر: رحيل: نهاية الصليبيين، ص١٧٥-١٧٦. لطيفة البوعنين: الحياة الاقتصادية، ص١٢٩، ١٣١. مؤنس، محمد: الحروب الصليبية، قضايا السياسة والعقيدة والمياه، القاهرة، ٢٠٠١م، ص٤٤.

**العنصر الفرنسي** الذي طغى على الحملات الصليبية منذ البداية، وأثبت وجوده بقوة منذ الحملة الصليبية الأولى، فاصطبغ المجتمع الصليبي في بلاد الشام بالصبغة الفرنسية لغوياً وثقافياً وقانونياً واقتصادياً ومعمارياً، وحرص ملوك فرنسا على استمرار الهيمنة الفرنسية على الحركة الصليبية.[١]

وانطلاقاً من هذا المبدأ شارك الملك الفرنسي فيليب أغسطس في الحملة الثالثة التي تمكنت من اعادة إحياء مملكة القدس على شريط ساحلي ضيق عاصمته عكا، وفور سقوط عكا بيدهم دخلها الملك الفرنسي مع جموع الصليبيين، وأقام مع جماعته في قلعة المدينة، وأصبحت مركزاً خاصاً للفرنسيين.[٢]

وعندما رحل فيليب أغسطس ترك بها حامية فرنسية كبيرة، ولم تنقطع الصلة بينه وبين المملكة الصليبية في فلسطين، وغدت كبرى الأسر الإقطاعية بها من أصول فرنسية، وعلى رأسها أسرة أبلين – سالفة الذكر-[٣] التي جمعت بين السيطرة على الجهاز الإداري في مملكتي قبرص ومملكة القدس حتى انهيار الأخيرة على يد المماليك وسقوط عاصمتها عكا بيدهم عام ٦٩٠هـ/١٢٩١م.[٤]

واستمر تدفق الفرنسيين بما فيهم النبلاء على مملكة القدس اللاتينية الثانية طيلة القرن الثالث عشر ككونت نيفرز Nevers، والكونت نانتيل Nanteuil، وجان دي بريين الذي أصبح ملكاً عليها، والملك الفرنسي لويس التاسع بعد اخفاق حملته على مصر عام ٦٤٨هـ/١٢٥٠م، وأقام بها لمدة ثلاث سنوات، وبذل أخوه شارل أنجو جهوداً كبيرة للحصول على لقب بيت المقدس من ماري الأنطاكية عام ٦٧٦هـ/ ١٢٧٧م، ودخل في نزاعات كبيرة لهذا الغرض كما تقدم شرحه.

ولما رحل لويس عن عكا كان قد قام بتنظيمها بشكل جيد، وترك بها حامية فرنسية كبيرة على رأسها جيفري سارجنيس Geoffery of Sargines للمساهمة في الدفاع عن المملكة، وكانت هذه

---

[١] للاستزادة أنظر: الحويري، محمود: الأوضاع الحضارية في بلاد الشام (عصر الحروب الصليبية)، دار المعارف، القاهرة، ١٩٧٩م، ص٥٠-٥١.

[٢] سلامة: عكا، ٨١.

[٣] هناك خلاف حول أصول الأسرة الابيلينية، وللمزيد عن هذه الأسرة راجع، إديوري: قبرص والحروب الصليبية، ص٥٩-٦٠. براور: الاستيطان الصليبي، ص٩٥.

[٤] رحيل: نهاية الصليبيين: ص١٧٧.

الحامية تتلقى معاشاتها من خزينة ملك فرنسا بشكل مباشر، وكان الملك الفرنسي يشرف بنفسه على تعيين قائد هذه الحامية التي استمرت في المملكة حتى انهيارها عام ٦٩٠هـ/ ١٢٩١م، وشغلت خلال هذه المرحلة دوراً مهماً في الدفاع عن المملكة، وأدت العديد من الوظائف العسكرية فيها.[١]

ويلي العنصر الفرنسي أهميةً في مملكة القدس اللاتينية الثانية **العنصر الإيطالي** كالبنادقة والجنوية والبيازنة والأمالفيين، وهذا العنصر مثَّل البرجوازية التجارية آنذاك وكانت لهم السيادة البحرية، وسعوا جاهدين إلى العودة إلى أحيائهم ومراكزهم التجارية في عكا؛ لذا شاركوا بكل قوة في حصارها واحتلالها عام ٥٨٧هـ/١١٩١م، وبعد ذلك توافدوا بكثرة على أراضي المملكة، ولاسيما في النصف الثاني من عمر المملكة، أي منذ عام ٦٥٢هـ/ ١٢٥٤م- عام مغادرة لويس لها- حتى سقوطها عام ٦٩٠هـ/ ١٢٩١م، حيث غرقت عكا في هذه المرحلة في سلسلة من الحروب الداخلية، وتطلب الأمر استقدام أعداد من المقاتلين الإيطاليين الجدد للمحافظة على مراكزهم التجارية الساحلية فيها.[٢]

وشكلت الكومونات الإيطالية مجموعات سياسية جديدة ذات أهمية في المملكة، وتمتعت هذه الكومونات بالحكم الذاتي، وكان أبناؤها يُعدون من كبار السادة الإقطاعيين الشرعيين ذوي المكانة الرفيعة في المملكة، والفضل الأكبر في ذلك يعود لقوتهم البحرية والعسكرية بالإضافة لما ملكوه من ثروة مادية كبيرة حصيلة التجارة الواسعة التي امتهنوها؛ لذا فإن أهميتهم لم تقدر بعددهم بقدر ما تقدَّر بمكانتهم وقوتهم.[٣]

ومنذ البداية استقر **البنادقة** في حيهم القديم على امتداد الشاطئ الذي يقع خارج ميناء عكا، وأكثروا فيه الأسواق والتحصينات، ثم انتشروا في شتى مدن المملكة، وفي عام ٦٢١هـ/ ١٢٢٤م امتلكوا ثلث مدينة صور، وثلث عائدات القرى المحيطة بها، واتسع وجود البنادقة في أرجاء المملكة، وزادت أهميتهم بها لدرجة أنهم أصبحوا يمثلون القوة الثانية في المملكة بعد فرق الفرسان الرهبان، وتمكنوا بعد

---

[١] فن الحرب وشؤونه، عن الموسوعة، ج٥٢، ص ٣٨، ١١٦. رحيل: نهاية الصليبيين، ص١٧٧. مجهول: تتمة كتاب وليم الصوري، ص١٤٩. سميث، جوناثان رايلي: تاريخ الحروب الصليبية، تر: قاسم عبده قاسم، المركز القومي للترجمة، القاهرة، ط١، ٢٠٠٩م، ج٢، ص٩٧. جوزيف نسيم: العدوان الصليبي، ص٣٤٨.

[٢] الحويري: الأوضاع الحضارية، ص ٥٢. رحيل: نهاية الصليبيين، ص١٧٨.

[٣] براور: الاستيطان الصليبي، ص١٤٤. سلامة: عكا، ص٨٣.

انتصارهم في حرب القديس سابا عام ٦٥٧هـ/ ١٢٥٨م من الحصول على اعتراف من السلطات الدينية في المملكة بإشراف كنيسة سان مارك (مرقص – التابعة لكومون البندقية في عكا – على بقية الكنائس التابعة لهم في بقية المناطق، وذلك على حساب نفوذ أسقف عكا.[١]

واستقر **البيازنة** في ناحية الشرق من عكا، وعلى الفور أعادوا تعمير حيهم الخاص بها، وافتتحوا فيه فندقاً ومخازن تجارية وحمامات ومنازلاً ومخبزاً خاصاً بهم،[٢] وعندما وقعوا في خلاف مع هنري الشامبني أصدر قراراً بحقهم يقضي بالسماح فقط لثلاثين عائلة بالإقامة في مدينة عكا،[٣] وكانت لهم أحياء وامتيازات في كل من يافا وأرسوف وقيسارية وصور وبيروت.[٤]

وإلى الشمال من البيازنة استقر **الجنوية** شرق حدود جماعة فرسان الداوية، وأقاموا مراكزهم التجارية،[٥] وكان لهم في المملكة الأولى ثلث عكا وضواحيها، بالإضافة إلى ثلث ايرادات جماركها، وذلك وفقاً للمعاهدة التي عقدوها عام ٤٩٤هـ/ ١١٠١م مع ملك القدس آنذاك بلدوين، والتي قضت بحصولهم على الثلث من كل مدينة أو قلعة أو موضع يأخذه الفرنج من المسلمين بمساعدة الجنوية، بالإضافة إلى ثلث الأسرى والأموال والغنائم،[٦] وكان حي الجنوية في مدينة عكا أكبر الأحياء وأقدمها، يضاف إلى ذلك أحياؤهم وامتيازاتهم الكبيرة التي كانت لهم منذ المملكة الأولى في كل من يافا وقيسارية وأرسوف وبيروت وصيدا وفق الاتفاقية السالفة.[٧] وخلال القرن الثالث عشر استقر عدد من العائلات الجنوية الشهيرة ذات الأصول النبيلة الراقية في أرجاء المملكة.[٨]

---

[١] رحيل: نهاية الصليبيين، ص١٧٨-١٧٩. سلامة عكا، ص٨٣. هايد: تاريخ التجارة، ٢، ص١٣٦-١٣٧. عفاف صبرة: علاقة البندقية بمصر، ص٢٢٣-٢٢٤.

[٢] سلامة: عكا، ص٨٣.

[٣] براور: الاستيطان الصليبي، ص١١٧.

[٤] رحيل: نهاية الصليبيين، ص١٧٩-١٨٠. عن هايد: تاريخ التجارة، ١، ص ١٦٢-١٦٣. علي السيد: المجتمع المسيحي، ص٢٥.

[٥] سلامة: عكا، ٨٣.

[٦] الصوري، وليم: الحروب الصليبية، تر: حسن حبشي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٢م، ج٢، ص٢١٧.

[٧] راجع وليم الصوري: ص٢١٧-٢٢٢. رحيل: نهاية الصليبيين، ١٨٠.

[٨] براور: الاستيطان الصليبي، ص١١٦.

ومما تقدم يظهر توزع الجاليات الإيطالية بشكل واسع في جميع مدن مملكة القدس اللاتينية الثانية، وحازوا أملاكاً كبيرة في جميع مدنها، ويبدو أن جاليات هذه المدن أصبح لها ثقل كبير في جميع أرجاء المملكة أكثر من ذي قبل في المملكة الأولى، وذلك تساوقاً مع ما قدموه من خدمات ومساعدات كبيرة ساهمت في احتلال وإعادة تأسيس المملكة، وعلى الفور أعادت كل جالية بسط سيطرتها على الأملاك القديمة التي كانت لها في جميع مدن المملكة الأولى، ومن جديد حصلوا على امتيازات واسعة في شتى المدن التي وجدوا فيها، واحتكروا التجارة الخارجية للمملكة، بل زادت صلاحياتهم إلى أن سيطروا على النواحي القضائية وشؤون الحياة الخاصة بجالياتهم، وأصبح لهم شبه حكم ذاتي في أحيائهم منذ عصر المملكة الأولى، وتطور ذلك في عهد المملكة الثانية إلى أن أصبحوا دولاً مستقلة داخل المملكة.[١] ولا شك أنه قد تجمع حول هذه الجاليات الإيطالية الثلاث الكبيرة عدد كبير من الإيطاليين من بقية المناطق، ومثال على ذلك تجار تسكانيا الذين تطلعوا للحصول على الامتيازات التي تمتع بها البيازنة، وأعلنوا أنهم بيازنة، فحصلوا على اعتراف القنصل البيزاوي، وعندئذٍ أصبحت لهم امتيازات البيازنة نفسها.[٢]

وعن انشغال العنصر الإيطالي بالتجارة والاقتصاد وإهمالهم للمشروع الصليبي، يقول صاحب تاريخ القدس: "سوف يكونون مرعبين جداً بالنسبة للمسلمين لو أنهم توقفوا عن غيرتهم وجشعهم، ولم يستمروا في القتال والخصام فيما بين بعضهم بعضاً، ولكن بما أنهم ينشبون القتال أحدهم ضد الآخر وليس ضد الكفار الخونة، ويهتمون أكثر بالتجارة والسلع من الاهتمام والانزعاج من أجل المسيح، فإن هؤلاء الذين كان آباؤهم الشجعان والمولعين بالحرب مرعبين جداً للكفار، قد جعلوا الآن من أنفسهم سبباً للبهجة ولانعدام الخوف"[٣].

يلي العنصرين الفرنسي والإيطالي في مملكة القدس اللاتينية الثانية من حيث العدد والأهمية **العنصر الإنكليزي**، فمنذ دخول الفرنج عكا عام ٥٨٧هـ/ ١١٩١م أقام الملك الإنكليزي ريتشارد في

---

[١] براور: الاستيطان الصليبي، ص١١٢. رحيل: نهاية الصليبيين، ص١٨١. عن عفاف صبرة، علاقة البندقية بمصر، ص٢١٩-٢٢٦.

[٢] براور: الاستيطان الصليبي، ص ١١٨.

[٣] دي فتري: المنتقى، عن الموسوعة، ج٣٣، ص ١٩٦.

الشمال الشرقي لمدينة عكا، على التل المعروف بمونت ميزارت Mont Musart، وأصبحت منطقتهم هذه تعرف فيما بعد بالربع الإنكليزي، إلا أن أعدادهم كانت أقل بكثير من أعداد الفرنسيين، وذلك منذ عهد المملكة الأولى، بالإضافة إلى أن أعداد الانكليز المشاركين في الحملات الصليبية لم تقارن من حيث الكثرة بأعداد الفرنسيين أبداً.[١]

وفي المملكة الثانية كان للإنكليز دور كبير في إعادة إحيائها بفضل الجيش الكبير الذي قاده ريتشارد قلب الأسد Richard the Lionheart، إلا أن جُلَّهم قُتل في المعارك أو رَحَلَ عائداً إلى انكلترا مع الملك ريتشارد، ولم يبق من الإنكليز في حيهم في عكا سوى التجار الذين شاركوا بقوة في المنافسات التجارية، إلا أن استمرار وجود الربع الإنكليزي في عكا ساعد على استمرار توافد الزائرين الإنكليز إلى المملكة.[٢]

ومع استمرار تدفق الحملات الصليبية الانكليزية إلى الشرق لقي الربع الإنكليزي الدعم المستمر منها، كحملة ثيبالد كونت شامبني عام ٦٣٧هـ/ ١٢٣٩م، وحملة ريتشارد كورنوال ٦٣٨هـ/ ١٢٤٠م الآتي ذكرهما[٣]، ويمكن القول إن الوجود الانكليزي في المملكة الثانية كان أكبر من الوجود في الأولى، وذلك بفضل النشاط الإنكليزي الصليبي القوي في عصر المملكة الثانية.

---

[١] رحيل: نهاية الصليبيين، ص١٨٣. وللمزيد انظر: الانكليز والحروب الصليبية، ص١٤٥-٢٠١.

[٢] أمبرويز: رحلة ريتشارد، عن الموسوعة، ج٣١، ص ٢١٦-٢١٧. مجهول: ذيل تاريخ وليم، عن الموسوعة، ج٨، ص ٤٤٨-٤٤٩.

[٣] وللمزيد عن هاتين الحملتين، راجع الإنكليز والحروب الصليبية، ص١٥٠ ومايليها. رنسيمان: تاريخ الحروب، ج٣، ص ٥٧٣.وللاستزادة أنظر:

Painter (Sidney), The Crusade of Theobald of Champagne and Richard of Cornwall, 1239-1241, in Setton, A history of the Crusades, vol. II, PP.463-486.

## التنظيمات العسكرية الدينية في مملكة القدس اللاتينية الثانية

كانت عناصر التنظيمات العسكرية الدينية ممن دخل عكا فور سقوطها بيد الصليبيين عام ٥٨٧هـ/١١٩١م كجماعة الاسبتارية والداوية والتيوتون، وطائفة القديس يوحنا، ورهبان طائفة القديس توماس، وفرسان طائفة القديس لعازر، وغيرهم، وعلى الفور استولت كل من هذه الجماعات على مواقعها القديمة في المدينة، وجعلوا مقار قياداتهم بها.[١]

كانت عناصر الرهبانيات الدينية من العناصر المهمة التي استقرت في أنحاء المملكة، وشغلت دوراً كبيراً فيها، وقد مثّل انهيار المملكة الأولى بعد حطين ونشوء المملكة الثانية واتخاذها عكا عاصمةً لها انعطافاً كبيراً في دور المنظمات العسكرية والدينية، بالإضافة إلى أن المملكة الثانية شهدت ولادة منظمات جديدة لم تكن موجودة في عهد المملكة الأولى، وأتاح تدهور السلطة الملكية في المملكة الجديدة المجال للنظم الرهبانية العسكرية أن تتابع سياستها الخاصة في جميع أنحاء فلسطين وبلاد الشام، وأصبح لهم سياسات خاصة بهم تميزوا بها.[٢]

لقد شغلت الرهبانيات الدينية العسكرية دوراً مهماً وكبيراً في الاستيلاء على عكا وتأسيس المملكة الجديدة، وشكلوا قسماً مهماً من جيش ريتشارد طوال حملته على بلاد الشام، وتحملوا الأعباء الثقيلة التي ترتبت على المعارك الكبيرة التي خاضها ريتشارد مع المسلمين بعد سقوط عكا بيدهم، ولاسيما منظمتي الاسبتارية والداوية التي اتضح استعدادهما للخدمة في ظل قيادة ريتشارد على الرغم من أنه كان يترفع عنهم بصفته قائد وملك كبير، إلا أنه لم يتمكن من الاستغناء عن مشورتهم،[٣] واعترف بذلك صراحة في الخطاب الذي ألقاه في المجلس الأخير الذي عقدوه في صيف عام ٥٨٨هـ/١١٩٢م لمناقشة الاستيلاء على بيت المقدس، وقال مشيراً إليهم: "بأنه هو والصليبيين الجدد يجب أن يعتمدوا كغرباء

---

[١] لودولف: رحلة لودولف، عن الموسوعة، ج٣٩، ص٣٠٥. سميث، جوناثان رايلي: الاسبتارية، تر: صبحي الجابي، مركز الدراسات العسكرية، دمشق، ١٩٨٤، ص٩٤، ٩٨.

[٢] سميث، الاسبتارية، ص٩٨.

[٣] سميث: الاسبتارية، ص١٢٠-١٢٢. وانظر: صاحب كتاب الحملة الثالثة، عن الموسوعة، ج٣١، ص ١٠٣،حيث يلقي الثناء على فرسان هاتين المنظمتين لما قدموه من خدمات عسكرية للفرنج أثناء الزحف نحو يافا وقيسارية وأرسوف.

على مشورة أولئك الذين عرفوا البلد ولديهم ممتلكات فيها ويرغبون في استعادتها"[١]، كما أن لودولف يذكر عن مقدمي هذه الطوائف أنهم "قاتلوا هم وأتباعهم ليل نهار ضد المسلمين"[٢].

وليس البحث هنا للحديث عن تاريخ هذين التنظيمين وإنما لإلقاء الضوء على استقرار هذين التنظيمين في المملكة والدور الذي شغلاه بها.

ومثلت هذه المنظمات الدينية العسكرية بالنسبة إلى حملة ريتشارد هيئة استشارية عسكرية لِما امتلكوه من خبرة طويلة مع المسلمين والصليبيين، ولم يغادر ريتشارد المنطقة إلا بإذنهم ومشورتهم.[٣]

كما أن البابا اعتمد عليهم بشكل كبير لمعرفة أحوال المملكة والبلاد المقدسة من خلال التقارير الرسمية والدورية التي كانت تصله منهم، كما تم الاعتماد على هذه المنظمات في توزيع الإعانات المالية الواردة إلى الفرنج في بلاد الشام والأرض المقدسة،[٤] واستمرت هذه الرهبانيات خاضعة للبابا -من الناحية النظرية- طيلة حياة المملكة.[٥]

وبعد رحيل ريتشارد عن مملكة القدس علت سطوتهم ونفوذهم وتدخلوا في شؤون المملكة، وبكل كبيرة وصغيرة، وكان مقدمو هذه التنظيمات مسؤولين بشكل كبير عن تنصيب عموري لوزجنان ملكاً على عرش عكا وزوجاً لايزابيلا بعد وفاة زوجها هنري الشامبني عام ٥٩٤هـ/ ١١٩٨م. وبعد وفاة عموري ثم إزابيل كان لمقدمي الطوائف دور كبير في المجلس الذي قرر بأن ماريا بنت إيزابيل من زوجها كونراد هي الوريثة الشرعية للمملكة،[٦] وعهدوا لها بالحكم والوصاية عليها لجون ابلين، كما تقدم شرحه في فصل الصراع على وراثة العرش.

وازدادت أهمية هذه المنظمات بعد رحيل ريتشارد، وأصبحت قادرة على تولي السلطة الملكية في عكا لامتلاكهم موارد مالية دولية من حصيلة أملاكهم في أوربا وغيرها، وعلى ما يبدو أنهم استخدموا

---

[١] سميث: الاسبتارية، ص١٢٤.

[٢] عن الموسوعة، ج٣٩، ص ٣٠٥.

[٣] سميث، الاسبتارية، ص١٢٥.

[٤] سميث، الاسبتارية، ١٢٧.

[٥] سميث: تاريخ الحروب الصليبية، ج٢، ص٤٩.

[٦] سميث الاسبتارية، ص١٢٧.

هذه الممتلكات بشكل رئيسي لتمويل أعمالهم العسكرية في الشرق، ولبناء العديد من القلاع العسكرية في مملكة عكا، ومثّلت هذه القلاع نقاطاً عسكرية متقدمة للدفاع عن المملكة ولحماية أمنها وحدودها مع المسلمين، كالقلعتين اللتين بناهما الداوية بمساعدة فرسان التيوتون، الأولى في عثليث بين عامي ٦١٤-٦١٥هـ/ ١٢١٧-١٢١٨م، والثانية في صفد[١] عام ٦٣٧هـ/ ١٢٤٠م، واستمرت هذه القلعة الأخيرة مصدر قوة للمملكة إلى أن استولى عليها المسلمون عام ٦٦٤هـ/ ١٢٦٦م، وكذلك شيدوا العديد من الحصون والقلاع الداخلية، وعندما بدأ الضغط الإسلامي على أطراف المملكة كانت تلك الهيئات في مقدمة المدافعين عن المملكة لحماية قلاعهم الحدودية.[٢]

وكان الداوية والاسبتارية هما التنظيمان الوحيدان اللذان حازا ممتلكات مهمة في جميع مناطق الغرب الاوربي، لذلك شغلا دوراً قيادياً في الدفاع عن الأرض المقدسة؛ لأنهما استطاعا أن يعوّلا كثيراً، وبشكل منتظم على موارد الدخل في جميع أجزاء العالم المسيحي الغربي، وذلك بخلاف الحكام والنبلاء في الشرق اللاتيني الذين كان عليهم أن يعتمدوا أساساً على الدخل المحلي، ويضاف إلى ذلك أن الهبات العديدة من قبل طبقات المجتمع العلماني شكلت الممول الأكبر لهذه التنظيمات الدينية العسكرية بشكل عام.[٣]

وهنا يظهر واضحاً أن نشأة هذه التنظيمات والهيئات الدينية العسكرية لم يكن بسعي أو مساندة من قبل المملكة أو الكنيسة أو أي مؤسسة كبرى، ولكن على العكس تماماً، إذ إن هذه التنظيمات كان لها دور كبير في تأسيس وتدعيم مركز مملكة القدس اللاتينية الثانية، وربما وقع على عاتق هذه التنظيمات بناء مؤسسات الدولة المنهارة التي بدأ بناؤها من جديد، مما استنزف قواها وطاقاتها، ساعد ذلك على بروز سلطة هذه التنظيمات، وأصبحت في بعض الأحيان تمثل قوة تهديد لسلطة الدولة والكنيسة في مملكة القدس اللاتينية، ذلك أن هذه التنظيمات كانت في حالة خصام وشقاق مع رجال الدين المحليين،

---

[١] تقع على الساحل اللبناني الفلسطيني، وتشرف على الطريق بين دمشق وعكا. معجم البلدان، ج٣، ص ٤١٢. الصغير، أجفان: القلاع في فترة الحروب الصليبية ودورها عند المسلمين في بلاد الشام، رسالة ماجستير غير منشورة، بإشراف أ.د. سهيل زكار، جامعة دمشق، ١٩٩٥م، ص١٤٢.

[٢] فن الحرب وشؤونه في عصر الحروب الصليبية، عن الموسوعة، ج٥٢، ص ٨٤، ٩٦-٩٧. القلاع، عن الموسوعة، ج٥٢، ١٨٦-١٨٨، ٢٧٣-٢٨٥. براور: الاستيطان الصليبي، ص٣١٥-٣١٦، ٣٣١.

[٣] سميث، تاريخ الحروب: ج٢، ص٣٣.

كما أنها لم تكن ضمن مؤسسات الدولة، وتمتعت بعطف وحماية البابوية كالامتياز البابوي لهم بإعفائهم من دفع ضريبة العشور على أراضيهم الزراعية، كما أن اعتمادهم المباشر على كنيسة روما في القضايا الدينية جنبهم غضب وعقوبات الكنيسة والأساقفة المحليين؛ إذ كثيراً ما اصطدمت مصالح هذه التنظيمات مع مصالح الكنيسة ورجال الدين المحليين[١].

ويمكن القول إنه منذ بداية تأسيس مملكة القدس اللاتينية الثانية أصبحت هذه التنظيمات والهيئات تمثل قوة اقتصادية مهمة، وأهم منها دعامة عسكرية كبيرة للمملكة الناشئة، إذ إن هذه الهيئات أصبحت تمثل حصناً قوياً لتدعيم السيادة الصليبية في منطقة الشرق العربي.

لقد كان في عاصمة المملكة – عكا- ثلاثة أحياء كبيرة منغلقة على نفسها، ويفصل بينها أسوار، وتتبع للهيئات الدينية العسكرية الكبيرة (الاسبتارية والداوية والتيوتون)، وشكلت هذه الأحياء مدناً مكتفية ذاتياً، وسكان هذه الأحياء من أفراد تلك الهيئات أو ممن ينتمون إلى هذه الهيئات بشكل غير مباشر، ولم يُسمح لغيرهم أن يقطن هذه الأحياء الخاصة بهم، وكان لهذه الهيئات محاكمها الخاصة لإقامة العدالة بين سكان هذه الأحياء، وإضافة إلى ذلك تمتعت هذه الهيئات بسيادة القضاء في ممتلكاتها الريفية.[٢]

ولا بدّ هنا من ذكر بعض التنظيمات التي كانت مغمورة أثناء المملكة الأولى، وظهرت بوضوح خلال الثانية، وغدا لها دور فعال فيها:

**أ- تنظيم فرسان التيوتون:**

ليس البحث هنا للتفصيل في هذه الجماعة ونشأتها وتطورها وأدوارها، فذلك مبحث مستقل يضيق عليه الموضع هنا، ولا سيما أن هناك دراسة خاصة تتعلق بهذه الجماعة، وهي دراسة حسن عبد الوهاب حسنين، بعنوان: "تاريخ جماعة الفرسان التيوتون في الأراضي المقدسة"، وبهذه الدراسة قدم

---

[١] للمزيد انظر: براور: الاستيطان الصليبي، ص ٣١١-٣١٢.

[٢] براور: الاستيطان الصليبي، ص٣٢٤-٣٢٥.

تفاصيل دقيقة وجميلة عن هذه الجماعة[١]. ويقتصر البحث هنا على ما يفيد توضيح العناصر السكانية في عكا.

ترجع أصول هذا التنظيم إلى مشفى القديسة مريم الذي تأسس في القدس عام ٥٢١هـ/ ١١٢٧ لصالح الألمان، وكان هذا المشفى يتمتع بنوع من الاستقلال الذاتي في عهد المملكة الأولى. [٢] وأثناء حصار عكا الذي استمر قرابة عامين ونصف، وبسبب كثرة أعداد الجرحى الصليبيين الذين أصيبوا في تلك المعارك، وبسبب كثرة المرضى ونتيجةً للجوع والمناخ السيء، وبموافقة من غي؛ لكل ذلك أسس بعض التجار الألمان مشفىً ميدانياً من أجل استخدامات الصليبيين الألمان، وكان في البداية عبارة عن بناء بسيط من أخشاب السفن المحطمة تحميها أقمشة الأشرعة من الشمس والمطر، ويقع خارج عكا من جهة الشرق، بين تورون (تل الفخار) ونهر النعامين، وشيئاً فشيئاً تحول إليه الرهبان الألمان الذين طُردوا من القدس، وربطوا أنفسهم بهذا المشفى، وكرسوا حياتهم به لفعل الخير، وبعد احتلالهم لعكا نقلوا مركزهم إليها، وتدريجياً طعَّموا أعمالهم الخيرية بأغراض عسكرية إلى أن تحولوا إلى تنظيم عسكري في ربيع الآخر ٥٩٤هـ/ آذار ١١٩٨م تحت عنوان "فرسان التيوتون لمشفى القديسة مريم المقدسة"، وذلك على شاكلة منظمتي الاسبتارية والداوية اللتين كانتا موجودتين منذ عهد المملكة الأولى، وبمساعي من فردريك السوابي تم الاعتراف به رسمياً من قبل البابوية، واقتصرت عضوية تنظيم فرسان التيوتون على العنصر الألماني فقط،.[٣]

ويبدو أن تنظيم الاسبتارية قدم يد العون والمساعدة لتنظيم التيوتون الجديد، ولا شك أن الأخير رحب بها؛ لأنه يبحث عن مثل تلك المساعدة، وتبنوا أحكامهم وممارساتهم،[٤] كما يبدو أن هذا التنظيم قد لقي دعماً من الإمبراطور الألماني فردريك الأول ثم من كونراد مونتفرات Conrand

---

[١] راجع الكتاب طبعة دار المعرفة الجامعية، الاسكندرية، ١٩٨٩م.

[٢] للمزيد راجع تاريخ جماعة الفرسان التيوتون، ص٦٣-٨٠.

[٣] كنغ، إ.ج: رهبان تحت السلاح، عن الموسوعة، ج٣٣، ص٢٥١-٢٥٢. دي فتري: المنتقى، عن الموسوعة الشاملة، ج٣٣، ص ١٨٤-١٨٥. حمزة العلاقات السياسية بين الدولة الأيوبية والإمبراطورية، ص٢٢١. تاريخ جماعة الفرسان التيوتون، ص٩٤-٩٩، ١٠٤، ١٢٥.

[٤] دي فتري: المنتقى، من خلال الموسوعة الشاملة، ج٣٣، ص ١٨٤-١٨٥. براور: الاستيطان الصليبي، ص٣٢٧.

Montferrat، ولم تلبث هذه الطائفة أن ظفرت بكثير من الأراضي والضياع الخصبة في ألمانيا بالإضافة إلى بعض القلاع في سورية.[١]

وكذلك تلقوا الدعم من غي لوزجنان Guy De Lusignan ومنحهم امتيازات كثيرة جعلوا منها أساساً شرعياً لحيهم في عكا،[٢] وحصلوا على أملاك واسعة من الأراضي الزراعية في عكا، منها أربعة كاريوكات[٣] كانت جماعة فرسان الاسبتارية قد منحتها لهم، ثم امتلكوا أحد أبراج المدينة وحديقة صغيرة أنشأوا فيها مشفىً وكنيسة خاصة بهم.[٤]

وازدادت أعداد الفرسان الألمان التابعين لهذه المنظمة بسرعة كبيرة في المملكة الثانية، واستطاعوا بفضل دعم الإمبراطور الألماني فردريك الثاني وبوهيموند الرابع صاحب أنطاكية وطرابلس تأسيس قلعة مونتفورت (القرين) عام ٦٢٦هـ/ ١٢٢٧م، وهي من أكبر قلاعهم في الساحل الشامي، وأصبحت المركز الإداري لهم،[٥] ثم توسعت أملاكهم داخل مملكة عكا وخارجها، مما دفعهم إلى استقدام المزيد من الفرسان الألمان الجدد، وأصبح هذا التنظيم يشكل الأداة الفولاذية للتوسع الألماني، وشارك عناصره بقوة في جميع الفعاليات والحروب والحملات العسكرية التي خاضتها مملكة القدس اللاتينية الثانية.[٦]

وزادت أهمية هذا التنظيم في عهد الإمبراطور فردريك الثاني الذي أجزل لهم العطاء، وجعل مقدمهم أميراً كبيراً في إمبراطوريته، وزادت أهميتهم وقوتهم لدرجة أن بعض حكام أوربا الشرقية قد استنجد بهم وطلب مساعدتهم، كالملك الهنغاري آندرو الثاني حيث طلب مساعدتهم عام ١٢١١م ضد

---

[١] كندي: القلاع الصليبية، عن الموسوعة الشاملة، ج٥٢، ص ص١٩٥. حمزة العلاقات السياسية، ص٢٢١-٢٢٢.

[٢] رحيل: نهاية الصليبيين، ص١٨٦.

[٣] هي مساحة من الأرض الزراعية، ولها نوعان، الأولى هي الكاريوكات الرسمية، وتعادل ثلاثمئة وخمسين دونماً، وهي خاصة بأملاك الدولة. أما الأخرى فهي غير الرسمية، وهي عبارة عن قطعة صغيرة من الأرض تعادل أربعة دونمات. سلامة: عكا، ص١٥٥ حاشية رقم ٩٩. للاستزادة أنظر: سعيد عبدالله البيشاوي: الممتلكات الكنسية في مملكة بيت المقدس الصليبية "١٠٩٩-١٢٩١م/ ٤٩٢-٦٩٠هـ"، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ١٩٩٠م، ص٤٦٧-٤٦٨.

[٤] كندي: القلاع، عن الموسوعة، ج٥٢ ، ص ١٩٥-١٩٦. سلامة: عكا، ٨٢.

[٥] كندي: القلاع، عن الموسوعة، ج٥٢ ، ص ١٩٥-١٩٦.

[٦] رهبان تحت السلاح، عن الموسوعة، ج٣٣، ص٢٥٢-٢٥٣.حمزة: العلاقات السياسية، ص٢٢٢-٢٢٣. حسن عبد الوهاب: تاريخ جماعة فرسان التيوتون، ص١٠٦-١١١، ١٣٠-١٣٤، ١٧٥، ١٨٨، ٣١١، ٣٥٧.

جيرانه الوثنيين. وبلغت قوة هذا التنظيم عام ٦٥٨هـ/١٢٦٠م درجةً أصبحوا يحكمون بها كل ما يعرف بشرقي بروسيا (النمسا) وغربها، وأخذت اهتماماتهم في مناطق البلطيق تحتل المقام الأول وتفضّله على عملهم الأساسي في سورية إلى أن تمكنوا من تأسيس دولة الفرسان التيوتون على شاطئ البلطيق التي عُرفت فيما بعد بـ"بروسيا".[١]

وعلى الرغم من ذلك استمر فرسان التيوتون بنشاطهم في الأراضي المقدسة حتى عام ٦٦٩هـ/ ١٢٧١م حيث تمكن المماليك بقيادة سلطانهم بيبرس من الاستيلاء على قلعتهم الأساسية في مملكة القدس، فخمدت سطوتهم قليلاً إلا أنهم استمروا في الدفاع عن مملكة القدس ضد المسلمين حتى سقوطها عام ٦٩٠هـ/ ١٢٩١م، وبالغ بعضهم في تقدير عددهم آنذاك فأوصله إلى خمسة آلاف فارس،[٢] وبعد سقوط عكا جرى نقل مقر ديرهم إلى البندقية.[٣]

وفي النهاية يمكن القول إن هيئة فرسان التيوتون كانت أفقر وأصغر الهيئات الدينية العسكرية في مملكة القدس اللاتينية الثانية مقارنةً مع الاسبتارية والداوية، ولم يكن لها دور مهم في تاريخ هذه المملكة، وتجنبت الانهماك في كثير من السياسات المحلية لها، ولم تتدخل في الشؤون الاستراتيجية في الشرق العربي ولا في المكائد الارستقراطية.[٤]

### ب- تنظيم فرسان القديس لازوروس (لعازر)

هو تنظيم قديم جداً، وُجِدَ في القدس للعناية بالمجذومين منذ العقد الثاني للقرن الثاني عشر[٥]، ثم تحول إلى رهبنة دينية نظامية، وأصبح لهذا التنظيم امتداد في فرنسا منذ عام ١١٥٤م، وبعد سقوط عكا بيد الصليبيين عام ٥٨٧هـ/ ١١٩١م انتقل مركز هذا التنظيم إليها، وأصبح مقره بالقرب من البحر، عند

---

[١] رهبان تحت السلاح، عن الموسوعة، ج٣٣، ص٢٥٢-٢٥٣. حمزة: العلاقات السياسية، ص٢٢٣. براور: الاستيطان الصليبي، ص٣٢٩-٣٣١.

[٢] تاريخ جماعة الفرسان التيوتون، ص ٢٩٠-٣١٩. رحيل: نهاية الصليبيين، ص١٨٦-١٨٧.

[٣] رهبان تحت السلاح، عن الموسوعة، ج٣٣، ص ٢٥٣. تاريخ جماعة الفرسان التيوتون، ص ٣٣٢-٣٣٥.

[٤] براور: الاستيطان الصليبي، ص٣٣٣.

[٥] براور: الاستيطان الصليبي، ص ٣٣٣-٣٣٤.

القمة الشمالية لمدينة عكا،[١] وامتلكوا بها برجاً عُرف باسم "برج القديس لازاروس" في ضاحية مونتموزارو الشمالية، وقد أُسندت إليهم مهمة الدفاع عن هذا البرج.[٢]

وقد قيل إن مقدم هذه الهيئة كان مجذوماً كبقية رفاقه في السلاح، وقد اشتركوا مع بقية فرسان الهيئات الدينية العسكرية في معركة غزة عام ٦٤٢هـ/ ١٢٤٤م الآتي ذكرها، وقُتِلَ عدد كبير منهم، وتكبدوا خسائر فادحة في الأرواح.

وفي سنة ١٢٥٣ نقل مقدم التنظيم مركز قيادة الرهبانية من عكا إلى فرنسا،[٣] ويبدو أن هذه الخطوة أتت بعد تعرضهم لخطر الدمار والإبادة الجماعية على يد المسلمين لولا وساطة الملك لويس التاسع، وذلك عقب قيامهم بغزوة مخفقة ضد المسلمين في العام نفسه.[٤]

### ج- تنظيم القديس توما في عكا:

لم يكن هذا التنظيم موجوداً في المملكة الأولى، وإنما تأسس في عكا أثناء الحملة الصليبية الثالثة، وكان هذا التنظيم إنكليزياً محضاً، قام به أحد الكهنة الإنكليز اسمه وليم، وكان شماساً في كاتدرائية القديس بولص، حيث إنه أثناء رحلته إلى القدس قد قطع عهداً على نفسه ببناء بيعة ومقبرة في عكا من أجل الصليبيين الإنكليز الذين قتلوا أثناء حصار عكا، وجعلها على اسم القديس توماس أكون رئيس أساقفة كانتربري، وتوافد كثير من الصليبيين من مختلف الجهات للصلاة في تلك البيعة، ونتيجة لتعاون مجموعة من الإنكليز معه شكلوا تنظيماً دينياً، وأصبح وليم مقدمه، وكانت أهدافهم الأساسية تأمين طقوس دفن مسيحية للموتى الصليبيين الذين قتلوا في المعارك، والدفاع عن العقيدة المسيحية.[٥]

وأصبح هذا التنظيم على علاقة قوية مع تنظيم الداوية، ولم يكن عدد الفرسان فيه كبيراً، كما أنه كان دائماً فقيراً على الرغم من امتلاكه بعض الأملاك خارج المملكة، مثل ايرلندا ومدلكس وغيرها،

---

[١] كنغ، رهبان تحت السلاح، عن الموسوعة، ج٣٣، ص ٢٥٠. براور: الاستيطان الصليبي، ص ٣٣٤-٣٣٥.

[٢] براور: الاستيطان الصليبي، ص٣٣٤.

[٣] كنغ، رهبان تحت السلاح، عن الموسوعة، ج٣٣، ص ٢٥٠.

[٤] براور: الاستيطان الصليبي، ص٣٣٥.

[٥] ويندوفر: ورود التاريخ، ج١، عن الموسوعة، ج٤٤، ص ٣٥٥. كنغ: رهبان تحت السلاح، عن الموسوعة، ج٣٣، ص ٢٥٤.

وأسهم فرسان هذا التنظيم في الدفاع عن عكا، وبعد سقوط الأخيرة بيد المماليك نقلوا مركزهم إلى نيقوسيا في قبرص.[١]

إضافة إلى تلك الهيئات وجدت أيضاً **هيئات دينية عسكرية أقل شهرة** من تلك، كـ "فرسان القديس لورانس Lawrence" التي ظهرت في أواخر حياة مملكة القدس الثانية، وهي عبارة عن هيئة خاصة من الفرسان الجنويين، وكانت جنوا تعد القديس لورانس حامياً لها، وفي هذه الحالة يُفترض أن الدوافع اللغوية وشبه القومية لقيام مثل هذه الهيئات يشبه دوافع قيام تنظيم فرسان التيوتون، وتنظيم القديس توما، وتنظيم القديس جيمس الإسباني، وغيرها.[٢]

هذه هي أهم العناصر السكانية التي وجدت في مملكة القدس اللاتينية الثانية التي كان لها ثِقَلُها السياسي أو الاقتصادي أو الديني، إلا أن ذلك – بالمطلق- لا يعني عدم وجود غير تلك العناصر التي ذُكرت، فقد تنوعت الأعراق والأجناس في مملكة القدس بشكل خاص، وخلال الحروب الصليبية بشكل عام، (كالأرمن، والجورجيين، والسريان، والعرب، المحليين، واليهود...)، ولكن يبدو أنه لم يكن لهم ثقلهم ودورهم المهم في المملكة، وإنما كانوا عناصر مهمشة.[٣]

لا شك أن الظروف السياسية والعسكرية شغلت دوراً مهماً في ظهور أحد العناصر على مسرح الأحداث على حساب الآخر، كما ساهمت هذه الظروف في قدوم عناصر أوربية جديدة، وانسحاب أخرى من المملكة، ولا يخفى ما لهذا من آثار سلبية في البنية الديموغرافية للمملكة، ومن ثم كانت سبباً آخر من أسباب سقوطها وزوالها.

إلا أن غاستون بوتول يعارض ذلك السبب ويلقي المسؤولية في سقوط المملكة على غياب القانون والتشريعات وسلطة الدولة القوية، فيقول: "إن التشريعات الجيدة تتيح لقوميات – هي من جهة

---

[١] كنغ: رهبان تحت السلاح، عن الموسوعة، ج٣٣، ص ٢٥٥.

[٢] براور: الاستيطان الصليبي، ص٣٣٥.

[٣] للمزيد عن هذه العناصر راجع: دي فتري: المنتقى، عن الموسوعة، ج٣٣، ص ١٩٧-٢١٦.

أخرى وفي كل مكان متنافسة أو عدوة- أن تتعايش بسلام"، ويعطي مثالاً على ذلك في العصر الحديث حال سويسرا.[١]

وعلى العموم يمكن اختصار القول إن مملكة القدس اللاتينية الثانية فَقَدَتْ منذ البداية التجانس والوحدة السكانية، وعاشت الاقتتال والانقسام الداخلي الحقيقي في ظل غياب التشريعات وسلطة الدولة القوية، مما ساعد على تحطيم أطرافها كُلٌ على حده، ومن ثم القضاء عليها عام ٦٩٠هـ/ ١٢٩١م على يد المماليك بقيادة سلطانهم الأشرف خليل بن قلاوون.

[١] بوتول، غاستون: معاهدات السلام عبر التاريخ، تر: جورج أبو كسم، الأبجدية للنشر، دمشق، ط١، ١٩٩٦، ص٦١.

# الفصل الرابع

**العلاقات الأيوبية مع مملكة القدس اللاتينية الثانية منذ نشوء الأخيرة حتى قدوم الحملة الصليبية الخامسة (٥٨٧- ٦١٤ هـ/ ١١٩١-١٢١٧م) ..... ١٩٥**

**المبحث الأول ..... ١٩٥**

**العلاقات بين الجانبين منذ سقوط عكا بيد الصليبيين عام ٥٨٧هـ/ ١١٩١م حتى رحيل ريتشارد عنها ٥٨٨هـ/ ١١٩٢م (العلاقات العسكرية والدبلوماسية) ..... ١٩٥**

**أولاً: العلاقات العسكرية ..... ١٩٥**

**معركة أرسوف ..... ١٩٧**

**الاستيلاء على قلعة الداروم ..... ٢٠٨**

**الهجوم الصليبي الثاني على القدس عام ٥٨٨هـ/ ١١٩٢م ..... ٢٠٩**

**استيلاء الفرنج على قافلة مصرية كبيرة: ..... ٢١٢**

**ثانياً: العلاقات السياسية الدبلوماسية بين الجانبين ..... ٢١٨**

**(دبلوماسية صلاح الدين وريتشارد) ..... ٢١٨**

**1- أولى الاتصالات الدبلوماسية بين الطرفين والأسباب التي دعت إلى ذلك ..... ٢١٨**

**(مرحلة جس النبض) ..... ٢١٨**

**٢- مشروع المصاهرة السياسية: ..... ٢٢٢**

**٣- صلاح الدين ما بين كونراد Conrand وريتشارد Richard ..... ٢٢٤**

**٤- المفاوضات بين الجانبين الإسلامي والصليبي بعد مقتل كونراد Conrand ..... ٢٣٢**

**٥- صلح الرملة ٢١ شعبان ٥٨٨هـ/ ٢ أيلول ١١٩٢م ..... ٢٣٩**

**شروط صلح الرملة ..... ٢٤٢**

**المبحث الثاني ..... ٢٤٩**

**العلاقات الأيوبية مع مملكة القدس اللاتينية الثانية بعد صلاح الدين وريتشارد حتى توحيد التاج مع قبرص عام ٥٩٣هـ/ ١١٩٧م ..... ٢٤٩**

**أولاً: أوضاع مملكة القدس بعد رحيل ريتشارد عام ٥٨٨هـ/ ١١٩٢م ..... ٢٤٩**

**ثانياً: أوضاع الأيوبيين الداخلية بعد وفاة صلاح الدين ..... ٢٥٣**

**ثالثاً: العلاقات الأيوبية مع مملكة القدس اللاتينية الثانية منذ صلح الرملة حتى قدوم الحملة الألمانية عام ٥٩٣هـ/ ١١٩٧م، وانعكاسات هذه العلاقات على حرب الوراثة الأيوبية عقب وفاة صلاح الدين ..... ٢٥٥**

**رابعاً: العلاقات الأيوبية مع مملكة القدس اللاتينية الثانية خلال الحملة الألمانية عام ٥٩٣هـ/ ١١٩٧م ..... ٢٥٩**

**المبحث الثالث ..... ٢٧٣**

**العلاقات الأيوبية مع مملكة القدس اللاتينية الثانية خلال مرحلة توحيد التاج مع قبرص (٥٩٣-٦٠٢هـ/ ١١٩٧-١٢٠٥م) ..... ٢٧٣**

**أولاً: هدنة عام ٥٩٤هـ/ ١١٩٨م ..... ٢٧٣**

**ثانياً: انعكاسات حرب الوراثة على العلاقات الأيوبية الصليبية بعد توقيع هدنة ٥٩٤هـ/ ١١٩٨م ..... ٢٧٥**

**ثالثاً: العلاقات الأيوبية الصليبية بعد هدنة عام ٥٩٤هـ/ ١١٩٨م وأثناء الحملة الرابعة ..... ٢٧٦**

**رابعاً: هدنة عام ٦٠١هـ/ ١٢٠٤م ..... ٢٨٢**

**خامساً: العلاقات بين مملكة حماة الأيوبية ومملكة القدس اللاتينية الثانية خلال مرحلة توحيد التاج ..... ٢٨٤**

**المبحث الرابع ..... ٢٩٠**

**العلاقات الأيوبية مع مملكة القدس اللاتينية الثانية بعد انفصال تاج الأخيرة عن قبرص إلى ما قبل مجيء الحملة الخامسة (٦٠١-٦١٤هـ/ ١٢٠٥-١٢١٧م) ..... ٢٩٠**

**وصاية يوحنا ابلين وجان دي بريين John de Briene على عرش عكا ..... ٢٩٠**

**أولاً: العلاقات في ظل وصاية يوحنا ابلين ٦٠١-٦٠٧هـ/ ١٢٠٥-١٢١٠م ..... ٢٩٠**

**ثانياً: العلاقات في ظل ووصاية جان دي بريينJohn de Briene (٦٠٧-٦١٤هـ/ ١٢١٠-١٢١٧م) ..... ٢٩٤**

**معاهدة عام ٦٠٩هـ/ ١٢١٢م وبناء قلعة جبل الطور ..... ٢٩٤**

# الفصل الرابع

# العلاقات الأيوبية مع مملكة القدس اللاتينية الثانية منذ نشوء الأخيرة حتى قدوم الحملة الصليبية الخامسة (٥٨٧- ٦١٤ هـ/ ١١٩١-١٢١٧م)

## المبحث الأول

## العلاقات بين الجانبين منذ سقوط عكا بيد الصليبيين عام ٥٨٧هـ/ ١١٩١م حتى رحيل ريتشارد عنها ٥٨٨هـ/ ١١٩٢م (العلاقات العسكرية والدبلوماسية)

### أولاً: العلاقات العسكرية

احتدمت العلاقات العسكرية بين الجبهتين العربية- الإسلامية من جانب والصليبية من جانب آخر قبل سقوط عكا، وغلب عليها تفوق الجبهة الأولى بقيادة صلاح الدين الأيوبي؛ فلا تخفى الانتصارات التي حققها المسلمون خلال معركة حطين عام ٥٨٣هـ/ ١١٨٧م وبعدها.

إلا أن قدوم جحافل الحملة الصليبية الثالثة بقيادة ثلاثة من كبار ملوك أوربا غيّر الموقف قليلاً، وأصبح هناك نوعٌ من التوازن العسكري بين الجبهتين، تمثَّل في اقتصار المعارك حول عكا فقط، ولمدة عامين (٥٨٥-٥٨٧هـ/ ١١٨٩-١١٩١م)، وبعد سقوط الأخيرة بيد الصليبيين بدأ التوسع الصليبي في الساحل بقيادة الملك الإنكليزي ريتشارد قلب الأسد Richard the Lionheart الذي ما إن شَفَى غليله من عكا وحاميتها بإعدام أكثر من ٢٥٠٠ أسير منهم معبراً عن نشوة النصر التي كان بها - وقد تقدم الحديث عن ذلك-، وما إن رتَّب أمورها وحلّ مشكلة الصراع على عرشها حتى يَمَّمَ نحو الجنوب باتجاه مدينة عسقلان، وذلك في بداية شعبان ٥٨٧هـ/ أواخر آب ١١٩١م، وسلك الجيش الصليبي الطريق الساحلي، بالقرب من الشاطئ الذي تسير يليه سفنهم بإزائهم بهدف التموين والحماية. وفي الطريق تعقبتهم قوات المسلمين متبعين خطواتهم بقيادة الأفضل بن صلاح الدين، وألحت طلائع

المسلمين عليهم بالقتال والرمي بالسهام محاولين انتهاز الفرصة للانقضاض على من يتخلف منهم عن الجيش، فقتلوا وأسروا وجرحوا العديد منهم، وأوقعوا بمؤخرة الجيش الفرنجي ضربة كبيرة عندما عبر هذا الجيش إحدى الممرات الجبلية الضيقة، ويستفيض صاحب كتاب الحملة الثالثة[١] في الحديث عن ضغط المسلمين عليهم والخسائر الكبيرة التي تكبدوها آنذاك. وعندما وصل الفرنج إلى حيفا وجدوها فارغة، فدخلوها دون قتال، ونزل الجيش الإسلامي بقيادة صلاح الدين بالقرب من حيفا بـ "القيمون".[٢]

وفي بداية شعبان ٥٨٧هـ/ أواخر آب ١١٩١م سار جيش الصليبيين من حيفا باتجاه قيسارية "والمسلمون يُسايرونهم ويتخطفون منهم من قدروا عليه"[٣]، وكان صلاح الدين قد سبقهم إليها ليستطلع المنطقة، ويتفقد أرضها، وليدبر أمور المصاف معهم، ويختار الأرض المناسبة للمعركة الحاسمة، وكان الخيار الأفضل بالنسبة إليه هو الإقامة في منطقة ما بين حيفا وقيسارية، إلا أنه عدل عن ذلك بعد استشارة مجلسه الحربي، وسار في الرابع من شعبان باتجاه قيسارية.[٤]

وفي الطريق إلى قيسارية اقترب الجيشان من بعضهما، ولاصقهم المسلمون وقاتلوهم أشد قتال، وأوقعوا فيهم خسائر كبيرة، ولكن دون أن يدخل الطرفان في معركة فاصلة، ووصل الفرنج إلى قيسارية في يوم الجمعة ٦ شعبان فوجدوها خالية مُخرَّبة، ولم يمكث الفرنج فيها كثيراً حيث تابعوا زحفهم في الثامن من شعبان نحو أرسوف، وأيضاً تبعهم المسلمون إليها، وجرت مناوشات كبيرة بين الجانبين على طول المسافة، ونزل كلاهما على نهر القصب بالقرب من أرسوف، ثم رأى صلاح الدين دخول الجيش شعراء أرسوف ونزل قرية تعرف بدير الراهب، وأخذ يبحث عن الموضع المناسب للمعركة الفاصلة مع الفرنج.[٥]

---

[١] مجهول، وهو أحد الفرنجة البحرية الوافدين بركاب ريتشارد. انظر: الموسوعة، ج٣١، ص٥.

[٢] أمبرويز: رحلة ريتشارد، عن الموسوعة، ج٣١، ص٩٩-١٠٢. ابن الأثير: الكامل، ج١٠، ص٩٨. ابن شداد: النوادر السلطانية، عن الموسوعة، ج١٥، ص١٩٠-١٩١. غروسيه: ملحمة الحروب الصليبية، ص٢٢٧. حومد، تاريخ الجهاد، ج٢، ص١٤٣. عاشور: الجهاد الإسلامي، ص٢٢٣-٢٢٤.

[٣] الكامل، ج١٠، ص٩٩.

[٤] الكامل، ج١٠، ص٩٩. ابن شداد: النوادر السلطانية، عن الموسوعة، ج١٥، ص١٩٢-١٩٤. عاشور: الجهاد الإسلامي، ص٢٢٤.

[٥] ابن شداد: النوادر السلطانية، عن الموسوعة، ج١٥، ص١٩٦-١٩٨. ابن واصل: مفرج الكروب، ج٢، ص٣٩٧. امبرويز: رحلة ريتشارد، عن الموسوعة، ج٣١، ص١٠٦. زكار: الموسوعة، ج٣، ص٣٩٥.

## معركة أرسوف

يبدو أن صلاح الدين حاول مراراً – قبل الوصول إلى أرسوف– أن يستدرج الفرنج إلى الداخل قليلاً كي يبعدهم عن أسطولهم الذي يسير بمحاذاتهم، وكي يحرمهم من الإمدادات والتموين الذي كان يوفرها لهم هذا الأسطول، ولكن ريتشارد الذي تمتع بعبقرية عسكرية لم يكن ليقع بهذا الفخ. وأيضاً صلاح الدين خشي أن تكون وجهة الجيش الصليبي هي عسقلان التي كانت تمثل عقدة التواصل والمعبر المهم بين مصر والشام، ولهذا الأمر ماله من الأهمية السياسية والعسكرية والاستراتيجية، وعلى هذا يكون ريتشارد قلب الأسد Richard the Lionheart أول الفرنج الذين أدركوا دور مصر في إخفاق حروبهم، وأنها هي رأس الأفعى بالنسبة إليهم، وأنه لا بد من قطعها، وعلى هذا بدا سير ريتشارد سريعاً نحوها متجاهلاً هدفه الأساسي وهو القدس.

على كل حال يبدو أن صلاح الدين أدرك ذلك، فأسرع قبل الجيش الفرنجي ليختار الموضع المناسب لحسم الأمر معهم، وكان أن وقع الاختيار على منطقة شمال أرسوف حيث يتسع السهل لاستخدام الفرسان، وتكثر الغابات يليه، ولا يبعد سوى ميلين عن البحر.

وبعد إخفاق الاجتماع الذي عُقد آنذاك بين العادل وريتشارد تحركت قوات الفرنج باتجاه أرسوف وأقاموا في موضع يعرف باسم "البركة" على نهر الفالق[1] قريباً من شاطئ البحر، حيث وصلوا إليه منذ يوم الخميس، وبدأ كلا الجيشين بالتعبئة والانتظام والاستعداد للاشتباك في المعركة، وفي فجر يوم السبت ١٤ شعبان٥٨٧هـ/ ٧ أيلول ١١٩١م تحرك الجيش الفرنجي حتى قارب شعراء أرسوف وبساتينها، فعمل صلاح الدين على دفع بعض الأطلاب لمضايقتهم، وعدم تمكينهم من النزول في الموضع الذي يريدون، وزاد المسلمون في الضغط عليهم خلال موجات متتالية من تلك الأطلاب التي تقوم بإطلاق السهام على الفرنج ثم تنسحب مسرعة لتفسح المجال لموجة أخرى، وبذلك أحدثوا خللاً واضطراباً في الصفوف الأمامية للجيش الصليبي، ثم تقدمت فرسان الجيش العربي– الإسلامي وشنوا هجوماً كبيراً عليهم، فحققوا تقدماً كبيراً وضغطوا بشدة عليهم، وكادت تقع الهزيمة في صفوف الفرنج الصليبيين، إلا أن سوء

---

[1] هو من أنهار فلسطين الصغيرة، ويسمى أحياناً بنهر القصب أو نهر أرسوف، يبلغ طوله حوالي ١٢.٥ كم، يبدأ من قرب قرية مسكة، وينتهي في المتوسط. انظر: بلادنا فلسطين، ج١، ق١، ص٣٥-٣٦.

التنظيم والعلاقة بين صلاح الدين وقادة جيشه، مقابل صمود ريتشارد وخطته العسكرية غيَّر سير المعركة وجعلها في صالح الأخير، وهزمت قوات الجيش العربي- الإسلامي بقيادة صلاح الدين وتفرق شملها.[١]

ويعترف صاحب كتاب الحملة الثالثة الذي كان مرافقاً لريتشارد ومتعصباً للصليب والحروب المستعرة في سبيله بأن المسلمين كانوا "أشداء في حملتهم وأرعبوا رجالنا إلى درجة عالية"[٢]، وأنه في تلك المعركة تمنى كل مَن كان في الجيش الصليبي أنه لو أنهى حجه وعاد إلى بلاده، لما لاقوه من خوف وكرب في بداية المعركة، وأن فرقة الإسبتارية كادت أن تُسحق، وأنهم أرسلوا إلى ريتشارد يخبروه بأنهم غير قادرين على الصمود أمام حملة المسلمين الشديدة،[٣] فحثهم ريتشارد على الصمود والثبات وأمرهم بعدم الهجوم على المسلمين حتى تظهر علامات الضعف على هجمات الفرسان المسلمين، وبدورهم حثوه على اتخاذ قرار بالهجوم المضاد على المسلمين، وبالفعل اتخذ الفرنج قراراً - بعد أن أعادوا تجميع الجيش وتنظيم الصفوف، وبعد أن نفد صبر الإسبتارية- بالهجوم على المسلمين، وكان هجوماً شرساً تداعت أمامه صفوف المسلمين، وحققوا نصراً كبيراً عليهم، وانحاز المسلمون إلى غابات أرسوف، ولم يتابع الفرنج نصرهم أو اللحاق بهم خشية أن يكون المسلمون قد أعدوا لهم كميناً في الغابة، فتراجعوا إلى جدران أرسوف من جهة الجنوب.[٤]

في اليوم التالي عمل صلاح الدين على تجميع قوى الجيش العربي- الإسلامي وتوحيد صفوفه والاستعداد للقاء آخر مع الصليبيين، وبالفعل استعد الجيش للقتال، ودق الكؤوس وسار الجيش باتجاه

---

[١] أمبرويز: رحلة ريتشارد، عن الموسوعة، ج٣١، ص١٠٩-١١٤. ابن شداد: النوادر السلطانية، عن الموسوعة، ج١٥، ص١٩٨-٢٠٠. ابن واصل: مفرج الكروب، ج٢، ص٣٦٧-٣٦٨. زكار: الموسوعة، ٣، ص٣٩٥. حومد: تاريخ الجهاد، ج٢، ص١٤٤-١٤٥. رستون: مقاتلون في سبيل الله، ص٣١٦-٣١٩.

[٢] أمبرويز: رحلة ريتشارد، عن الموسوعة، ج٣١، ص١٢٢.

[٣] ابن شداد: النوادر السلطانية، عن الموسوعة، ج١٥، ص١٩٩-٢٠١. غروسيه: ملحمة الحروب الصليبية: ص٢٢٩-٢٣٠. رنسيمان: تاريخ الحروب، ج٣، ص١١٠-١١١. حومد: تاريخ الجهاد، ج١٤٤-١٤٥. رستون: مقاتلون في سبيل الله، ص٣١٨.

وللمزيد عن تفاصيل المعركة راجع أمبرويز: رحلة ريتشارد، عن الموسوعة، ج٣١، ص١١٣-١٢٤، حيث يقدم وصفاً دقيقاً وشاملاً لأحداث المعركة؛ إلا أن فيه مبالغة وتعصب كبير للصليبيين.

[٤] ابن شداد: النوادر السلطانية، عن الموسوعة، ج١٥، ص٢٠٠-٢٠١. أمبرويز: رحلة ريتشارد، عن الموسوعة، ج٣١، ص١١٣-١٢٤. للاستزادة أنظر: غروسيه: ملحمة الحروب الصليبية، ص٢٢٩-٢٣٠. رنسيمان: تاريخ الحروب، ج٢، ص١١٠-١١١. حومد: تاريخ الجهاد، ج٢، ص١٤٤-١٤٥.

جيش الصليبيين حتى وصل قرب أرسوف، وصفَّ الأطلاب استعداداً للقتال، إلا أن ريتشارد رفض المواجهة ولم يخرج لقتال المسلمين لما نالهم بالأمس القريب من التعب والجراح، ولم يكن لدى صلاح الدين من القوة ما يكفي لحمله على القتال، واستمر الجيش الإسلامي قبالتهم طيلة النهار ثم عاد إلى منزلتهم التي كانوا فيها.[١]

وفي اليوم التالي في ١٦ شعبان سار الجيش الإسلامي بقيادة صلاح الدين باتجاه الفرنج فوجدوهم قد رحلوا جنوباً باتجاه يافا، فتعقبوهم وناوشوهم كي يحملوهم على القتال، واستمر الجيش الصليبي في سيره حتى نزل على نهر العوجاء، فكانوا هم في أسفله والمعسكر الإسلامي في أعلاه، هنا آثر صلاح الدين الابتعاد قليلاً عن تخوم العدو، فتراجع الجيش الإسلامي إلى معسكره، وفي اليوم التالي رحل إلى الرملة التي تقع على الطريق بين يافا والقدس، فنزل بها في ١٩ شعبان، وعقد مجلساً حربياً لتقرير الخطوة التالية، ومنها تابع إلى تُبْنى ثم إلى عسقلان.[٢]

ومن الكتابات الدقيقة للعماد الأصفهاني الذي كان موجوداً آنذاك في الجيش الإسلامي يظهر مدى تأثر صلاح الدين وحزنه جراء الهزيمة في هذه المعركة، والآثار الكبيرة التي خلفتها هذه المعركة في الجيش الإسلامي.[٣]

أما بالنسبة إلى الجيش الصليبي بقيادة ريتشارد فقد عسكر في بستان للزيتون على طريق بلدة يافا خارج المدينة؛ لأنهم وجدوها مدمرة خالية من السكان ولا يمكن الإقامة بها، وعلى الفور بدأوا بإعادة إعمارها وتحصينها وبناء أبراجها.[٤]

وفي التعقيب على معركة أرسوف يمكن القول: إن الخسائر كانت قليلة نوعاً ما في كلا الجانبين، كما يمكن القول: إن معركة أرسوف لم تكن فاصلة، كما لم تكن نصراً عسكرياً حاسماً للصليبيين في

---

[١] ابن شداد: النوادر السلطانية، عن الموسوعة، ج١٥، ص٢٠١-٢٠٢. رنسيمان: تاريخ الحروب، ج٢، ص١١٢.

[٢] ابن شداد: النوادر السلطانية، عن الموسوعة، ج١٥، ص٢٠٠-٢٠٢. ابن واصل: مفرج الكروب، ج٢، ص٢٩٩. زكار: الموسوعة، ج٣، ص٣٩٥. عاشور: الجهاد الإسلامي: ص٢٢٤.

[٣] ابن شداد: النوادر السلطانية، عن الموسوعة، ج١٥، ص٢٠١.

[٤] أمبرويز: رحلة ريتشارد، عن الموسوعة، ج٣١، ص١٢٦. ابن شداد: النوادر السلطانية، عن الموسوعة، ج١٥، ص٢٠٢. عاشور: الجهاد الإسلامي، ص٢٢٤.

حين أنها كانت نصراً معنوياً كبيراً لهم، ذلك أنها كانت أول معركة مكشوفة بعد حطين، ومنحتهم الثقة بقدراتهم العسكرية، ولاحت لديهم بوارق الأمل في استرداد بيت المقدس، حيث علت صيحات عدة بين صفوفهم تنادي بالمسير إلى بيت المقدس وتحريرها من المسلمين.[١]

وكما يدعي أمبرويز، إن جنود الفرنج لم يعد يهابون أو يخافون جنود المسلمين كما كانوا عليه من قبل، وأن الملك ريتشارد تجرأ بعد دخولهم إلى يافا على ارسال سفارة لصلاح الدين يطلب فيها "استسلام مملكة سورية مع كل ما هو عائد إليها حسبما كانت أيام الملك المجذوم، وطالب أيضاً بتسلم الجزية من مصر"[٢].

ويمكن القول: إن مرحلة التوازن العسكري الإسلامي الصليبي التي تمثلت في مرحلة حصار عكا واحتلالها قد انهارت في أرسوف، وبدأ التفوق العسكري الصليبي، وظهر هذا واضحاً في طبيعة المقاومة الإسلامية التي اتخذت سياسة تخريب المدن التي من الممكن أن تكون عرضة للقوات الصليبية الزاحفة تحت قيادة ريتشارد، وتخلي القوات الإسلامية عن مدن الساحل واتجاهها نحو الداخل، وما إن أتت نهاية عام ٥٨٧هـ/ ١١٩١م حتى كان المسلمون قد تخلوا عن المدن الساحلية من عكا شمالاً حتى عسقلان جنوباً – كما سيأتي الحديث على شرحه.

ويبدو أن كلا الطرفين لم يكن مستعداً للمرحلة التي تلي أرسوف، فكلاهما عقد مجلساً حربياً وكانت لديه خيارات عدة.

**فالجانب العربي– الإسلامي** عقد مجلساً حربياً في الرملة، وكانت لديه خيار إفراغ عسقلان وتخريبها والتفرغ للدفاع عن القدس، أو التحصُّن بها والدفاع عنها، وبذلك يتوجب على الجيش الإسلامي أن يكون مستعداً لخوض معركتين في آن واحد، في القدس وفي عسقلان، إذ إن خطر الصليبيين على القدس أصبح واضحاً، ولا يمكن على الجانب الإسلامي تجاهل ذلك.

وكان رأي أمراء صلاح الدين أن يافا التي نزل بها الفرنج تتوسط القدس وعسقلان، ولا يمكن حفظ المدينتين معاً، والأَوْلَى حفظ الأُولى، ورأوا إفراغ الأخيرة وتخريبها تجنباً لسيناريو عكا، واحتجوا أن

---

[١] أمبرويز: رحلة ريتشارد، عن الموسوعة، ج٣١، ص١٢٧. رنسيمان: تاريخ الحروب، ج٣، ص١١٢.

[٢] أمبرويز: رحلة ريتشارد، عن الموسوعة، ج٣١، ص١٣٢.

تحصُّن المسلمين بعكا، ومن ثم سقوطها بيد الصليبيين قوّى جانبهم لِما غنموه بها من أسلحة وذخائر وأموال، وبالمقابل كان ذلك ضعفاً للجانب الإسلامي لِما خسروه بها، إلا أن صلاح الدين عارض هذا الرأي وحثَّ الناس والأمراء على التحصُّن بعسقلان والدفاع عنها، إلا أنهم رفضوا دخولها، وردوا عليه بقسوة "إن أردت حفظها فادخل أنت معنا أو بعض أولادك الكبار، وإلا فما يدخلها منا أحد لئلا يصيبنا ما أصاب أهل عكا"[١]، وحزن صلاح الدين لهذا الرد القاسي الذي سمعه، ودون شك أن صلاح الدين كان قادراً على تنفيذ رأيه، ولكن يبدو أنه استشعر برغبة الجميع في إفراغها وخرابها فتجاهل هذا التمرد عليه، وانساق وراء رغباتهم لخطورة الموقف وحساسيته، وبكامل الأسى والحسرة أشرف صلاح الدين بنفسه على تخريب عسقلان في ١٩ شعبان ٥٨٧هـ/ ١٢ ايلول ١١٩١م، وألقيت حجارتها في البحر، وعُفي أثرها لكيلا يبقى للصليبيين مطمع بها.[٢]

**وعلى الجانب الصليبي** عقدوا مجلساً حربياً، وتركزت نقاشاتهم حول التقدم نحو عسقلان لإنقاذها من التخريب أو نحو القدس؟، وعُرضت آراء كثيرة ومواقف عدة كان أولها يرى انقاذ عسقلان من تخريب المسلمين كونها قاعدةً وممراً للمسيحيين القادمين للحج، وحجتهم في ذلك أن المسلمين لن يتجرأوا على مقابلتهم في ساحة المعركة، وكان يتزعم هذا الرأي الملك ريتشارد قلب الأسد Richard the Lionheart ودوق بيرغندي، وغيرهم.

أما الفرنسيون الذين هم في جيش ريتشارد فقد عارضوا موقف الملك ورأوا ضرورة دخول يافا وإعادة بنائها وتحصينها، وحجتهم أنها تؤمّن طريقاً أقصر بالنسبة إلى الحجاج وهي أسهل للذهاب إلى القدس، وهللت الحشود وأيدت هذا الرأي، وعلى الفور شرعوا في إعادة بناء أبراج يافا وتعزيل خندقها، ومكثوا بها مدة سبع أسابيع.[٣]

---

[١] ابن الأثير: الكامل، ج١٠، ص٩٩. ابن شداد: النوادر السلطانية، عن الموسوعة، ج١٥، ص٢٠٢-٢٠٣. ابن واصل: مفرج الكروب، ج٢، ص٣٦٩. رستون: مقاتلون في سبيل الله، ص٣٢٦.

[٢] ابن الأثير: الكامل، ج١٠، ص١٠٠. ابن شداد: النوادر السلطانية، عن الموسوعة، ج١٥، ص٢٠٣-٢٠٤. أبو شامة: الروضتين، عن الموسوعة، ج١٩، ص٣٤٩-٣٥١. ابن واصل: مفرج الكروب، ج٢، ص٣٦٩. حومد: تاريخ الجهاد، ج٢، ص١٤٦.

[٣] أمبرويز: رحلة ريتشارد، عن الموسوعة، ج٣١، ص١٢٧-١٢٨. رستون: مقاتلون في سبيل الله، ص٣٣١-٣٣٢.

لم يكن ريتشارد مستعداً للمغامرة والسير وراء آراء الفرنسيين في داخل البلاد إلى بيت المقدس ما لم يكن لديه قاعدة قوية على الساحل، بالإضافة إلى سوء أوضاع مملكته في أوربا، لذا آثر الحذر والتمهل في قراره، وكان لديه عدة خيارات، فهو إن أسرع إلى القدس أدرك ما عليه حاميتها من ضعف وتخبط، ولكن يجب عليه أن يتذكر أن جيش المسلمين مع أنه لقي الهزيمة في أرسوف إلا أنه لم يتفكك، واستمر في انتظامه وقوته، واستمر مصدر خوف ورعب للصليبيين، ولهذا فإن هجوم ريتشارد نحو القدس سيفتح المجال لجيش المسلمين لقطع طريق الاتصال بين الجيش الصليبي وإمداداته على ساحل البحر، وبذلك يُعرّض انتصاراته وجميع المكاسب التي حققها للخطر الإسلامي، بل ربما تذهب كلها هباءً منثوراً في حال المغامرة والهجوم على القدس، لذا آثر ريتشارد التمهل والحذر حتى يتأكد من مناعة يافا وقدرتها على الصمود أمام المسلمين، ومن ثم يشرع في مغامرته الخطيرة باتجاه القدس، إلا أن ذلك التمهل والإرجاء أتاحا الفرصة للجانب الإسلامي لاتخاذ القرار المناسب وللانتهاء من تخريب عسقلان ولتدعيم وسائل الدفاع عن القدس.[١]

وهنا رغب ريتشارد في تحصيل بعض المكاسب للجانب الصليبي عن طريق المفاوضات السياسية والدبلوماسية، وبالفعل دخل الجانبان في مفاوضات لإنهاء حالة الحرب، إلا أنها أخفقت لتباين وجهات النظر بين الطرفين، ولرفض صلاح الدين كل محاولات ريتشارد في تحقيق أي مكاسب صليبية دون إراقة دماء، وسيأتي الحديث على تفصيل تلك المفاوضات.

وبعد إخفاق هذه المفاوضات وعودة صلاح الدين من عسقلان إلى الرملة في يوم الأربعاء ٣ رمضان حدثت بعض المناوشات بين الجانبين، ويبدو أن صلاح الدين أدرك من خلالها قوة الجانب الصليبي وضرورة خراب اللد والرملة، فأمر بذلك، وقام بزيارة سريعة للقدس ليتفقد أمنها واستحكاماتها وتحصينها، وليجمع السلاح والذخائر والمؤن فيها استعداداً لمعركة قادمة إليها، ومن ثم عاد في ٨ رمضان ٥٨٧هـ/ إلى المخيم الإسلامي قرب الرملة المخربة، ووقعت عدة اشتباكات بين الطرفين كاد ريتشارد أن يقع أسيراً بيد المسلمين في إحداها.[٢]

---

[١] رنسيمان: تاريخ الحروب، ج٣، ص١١٣. أبو سعيد، الجبهة الإسلامية، ص١٦٠.

[٢] ابن شداد: النوادر السلطانية، عن الموسوعة، ج١٥، ص٢٠٥-٢٠٦. أبو شامة:الروضتين، عن الموسوعة، ج١٩، ص٣٥٢. ابن واصل: مفرج الكروب، ج٢، ص٣٧٠-٣٧١. حومد: تاريخ الجهاد، ج٢، ص١٤٧.

وبعدها رحل الجيش الإسلامي إلى النطرون الواقعة في منتصف الطريق بين القدس ويافا، وأقام معسكره بها، ثم أمر صلاح الدين بهدم حصنها وخرابها، ولما علم صلاح الدين بتقدم الجيش الصليبي باتجاه الرملة عاد إليها، ونظم الجيش في ميمنة وقلب وميسرة استعداداً للقتال، وجرت عدة اشتباكات ووقعات بين الجانبين في ٨ شوال، كان أهمها في ناحية يازور، وكان النصر فيها للمسلمين، وتكررت الاشتباكات بين الطرفين[١]، ووصلت رسل ريتشارد إلى العادل وهو في اللد في محاولة منه لتحقيق بعض المكاسب دون اراقة دماء من جيشه، إلا أنه أخفق في هذه المحاولة كسابقتها- كما سيأتي الحديث على ذكره.

وفي ٢٣ شهر ذي القعدة ٥٨٧هـ/ بداية تشرين الثاني ١١٩١م ترك صلاح الدين الرملة باتجاه مدينة القدس وفي نيته المقام فيها، لدخول الشتاء، وسرح قسماً كبيراً من جيشه لأخذ قسط من الراحة، ثم شرع في تحصين المدينة وعمارة أسوارها وحفر خنادقها.[٢]

وما إن رحلت القوات الإسلامية عن الرملة حتى تقدمت إليها قوات الصليبيين بقيادة ريتشارد، واستولوا عليها، وأقام الفرنج بها ستة أسابيع منتظرين الفرصة المناسبة للتقدم نحو القدس، وتقدموا نحو النطرون، فألحق بهم المسلمون ضربة كبيرة، وأخذوا حوالي ٥٠ أسيراً، وغنموا الكثير من الخيول التي تركها الفرنج عندما تسلقوا الجبال، وتكررت هجمات المسلمين على معاقل الفرنج الأمامية،[٣] وتكررت خسائرهم ومعاناتهم باعتراف أمبرويز، حيث قال: "ماكانوا ليسمحوا لنا ولا بقليل من الاستقرار، بل هاجمونا باستمرار بجروخهم ونشابهم"[٤].

على الرغم من هذه الخسائر التي لحقت بالصليبيين وعلى الرغم من الأمطار الكثيرة آنذاك والرياح العاصفة والأوضاع الجوية السيئة وما كابدوه من شدة البرد والتعب إلا أنهم استمروا في نشاطهم في

---

[١] ابن شداد: النواد ر السلطانية، عن الموسوعة، ج١٥، ص٢٠٦-٢٠٨. أبو شامة: الروضتين، عن الموسوعة، ج١٩، ص٣٥٣. ابن واصل: مفرج الكروب، ج٢، ص٣٧٣-٣٧٤. حومد: تاريخ الجهاد، ج٢، ص١٤٨.

[٢] ابن واصل: مفرج الكروب، ج٢، ص٣٧٥. رنسيمان: تاريخ الحروب، ج٣، ص١١٨.

[٣] ابن واصل: مفرج الكروب، ج٢، ص٢٧٥. رنسيمان: تاريخ الحروب، ج٣، ص١١٨.

[٤] أمبرويز: رحلة ريتشارد، عن الموسوعة، ج٣١، ص١٣٥.

المنطقة، ففي ٣ كانون الثاني ١١٩٢م وصلوا إلى حصن بيت نوبة الذي لم يبتعد عن القدس سوى اثني عشر ميلاً مما زاد حماس المعسكر الصليبي وتشجعوا للهجوم على القدس.[١]

أخذ ريتشارد يدرس أوضاع منطقة القدس بهدف التقدم والاستيلاء على المدينة، وعندما سمع آراء أمرائه البلديون[٢] ولاسيما أمراء الإسبتارية والداوية في وصف القدس وتحصينها، وإمكانية أن يقع جيش الفرنج بين فكي كماشة، صلاح الدين من جهة الداخل والجيش الإسلامي الآخر القادم من الجبال ومن مصر من الخارج، وبعد الدراسة المعمقة للمنطقة وأحوالها وأحوال الصليبيين فيها توصل إلى نتيجة مفادها أن "هذه المدينة لا يمكن حصرها مادام صلاح الدين حياً".[٣]

وبعد تردد دام خمسة أيام أمر جيشه بالانسحاب نحو الرملة، وذلك للأسباب الآتية:

١- سياسة التحصين والدفاع الكبيرة التي اتخذها صلاح الدين في مدينة القدس؛ إذ إنه قسَّم أسوارها بين الأمراء وكلّف كل واحد منهم بتحصين وحفظ ما أوكل إليه، كما أنه اتبع سياسة الأرض المحروقة خارج مدينة القدس لحرمان الصليبيين من الاستفادة من أي شيء قد يساعدهم على متابعة الحصار والتقدم، كإفساد مياه الشرب وردم الآبار والصهاريج.

٢- الأحوال الجوية والمناخية السيئة، والبرد والثلج وعواصف الرياح التي تعرض لها الصليبيون آنذاك، والتلال الموحلة آنذاك التي تفصل بين الجيش الصليبي والقدس، مما شكل عقبة كبيرة أمام سير الجيش.[٤]

٣- توزع جيش صلاح الدين على عدة محاور وعدة نقاط لايمكن حصرها من قبل الجيش الصليبي، فصلاح الدين أقام في القدس لتقوية استحكاماتها، ومثَّل سياسة الدفاع عنها، ووزع بعض الأطلاب والسرايا على التلال خارج المدينة، بالإضافة إلى أن العسكر المصري كان في طريقه إلى المنطقة لنجدة القدس والدفاع عنها، وهذا الأمر عرّض جيش الصليبيين للوقوع بين فكي

---

[١] أمبرويز: رحلة ريتشارد، عن الموسوعة، ج٣١، ص١٣٧. رنسيمان: تاريخ الحروب، ج٣، ص١١٩.

[٢] المقصود بهم هم الأمراء الذين ولدوا وتربوا في المنطقة.

[٣] رنسيمان: تاريخ الحروب، ج٣، ص١١٩. حومد: تاريخ الجهاد، ج٢، ص١٤٩-١٥٠.

[٤] أمبرويز: رحلة ريتشارد، عن الموسوعة، ج٣١، ص١٣٨-١٣٩.

كماشة في حال قرر التقدم نحو القدس وحصارها، وهذه القضية أدركها الصليبيون البلديون الذين كانوا مع ريتشارد، وأهمهم الداوية والإسبتارية، فنصحوه بعدم الوقوع بهذا المأزق.[١]

٤- قضية الاحتفاظ بالقدس في حال تم الاستيلاء عليها، فالذي وضح لريتشارد أن جيشه أصابه الإنهاك وبدأ يعاني قلة الميرة والعتاد، وأن الصليبيين الوافدين لا بدّ أنهم سوف يعودون إلى أوطانهم في أوربا بعد أن يؤدوا فريضة الحج، وسيكون هو على رأس هؤلاء العائدين بسبب سوء أوضاع مملكته هناك، وبالتالي فإن العساكر المحلية ليست بالعدد الكافي للصمود أمام قوات المسلمين التي ما زالت متحدة تحت قيادة صلاح الدين، وظهر هذا واضحاً على لسان أمبرويز فيما بعد، عندما تحدث عن احتمالات رحيل ريتشارد عن الأراضي المقدسة، فقال: "إذا ما أرغم الملك ريتشارد على العودة إلى الوطن، ربما ما من إنسان سوف يبقى في الأرض المقدسة...، ومما لا شك فيه سوف يستولي الترك على البلاد كلها بشكل أبدي"[٢].

لقد طال النقاش بين الفرنج بين مؤيد ومعارض للهجوم على القدس أو الانسحاب إلى الرملة، وفي النهاية اجتمع المجلس الاستشاري للجيش الصليبي بالإضافة لبعض البلديين وبعض عناصر الإسبتارية والداوية، وقرروا الانسحاب إلى الرملة ومن ثم إلى عسقلان لإعادة بنائها وتحصينها، وذلك بغرض قطع المواصلات والمراسلات بين القاهرة والقدس.[٣]

لقد انسحب الجيش الصليبي بالشهر نفسه تاركاً القدس باتجاه الرملة، وقد استبد الغضب بين عناصره، وتهاوت روحه المعنوية أثناء اجتيازه الأراضي الموحلة في طريق العودة، وبرزت في أوساطه بعض الشقاقات والخلافات، وانسحب الفرنسيون من الجيش ولجأ بعضهم إلى يافا، في حين لجأ قسم آخر إلى حصن الجيب التحتاني تحت قيادة دوق برجنديا، وقسم آخر ذهب إلى عكا، ولاذ بعضهم الآخر بكونرادConrand في صور، هنا أدرك ريتشارد ضرورة توجه الجيش إلى عسقلان لإثارة النشاط لدى عناصره، ولتقوية الروح المعنوية بين أفراده، وعانى هذا الجيش وهو في طريقه إلى عسقلان أشد المعاناة من

---

[١] أمبرويز: رحلة ريتشارد، عن الموسوعة، ج٣١، ص١٣٧. رنسيمان: تاريخ الحروب، ج٣، ص١١٩.

[٢] أمبرويز: رحلة ريتشارد، عن الموسوعة، ج٣١، ص١٣٧، ١٥٠. رنسيمان: تاريخ الحروب، ج٣، ص١١٩.

[٣] أبو شامة: الروضتين، عن الموسوعة، ج١٩، ص٣٦٢. أمبرويز: رحلة ريتشارد، عن الموسوعة، ج٣١، ص١٣٧-١٣٨. رنسيمان: تاريخ الحروب، ج٣، ص١١٩.

الإنهاك والبرد والأمطار والفيضانات والطرق الموحلة، وموت بعض الدواب وتلف المؤن، وخيّم اليأس على الجنود خوفاً على حياتهم، لدرجة أن أمبرويز يقول: "وكأن السماوات كلها قد تآمرت على تدميرنا"[١].

وفي النهاية وصل الجيش إلى عسقلان في ٢٠ كانون الثاني ١١٩٢م، وكانوا يأملون أن يجدوا بها الراحة والأمان والسلوان عوضاً عما لاقوه في طريقهم إليها، إلا أنهم وجدوها مدمرة بمعنى الكلمة، وتوجّب عليهم إعادة إصلاح وبناء ما دمره المسلمون بها قبل انسحابهم منها.

وبها شعر ريتشارد بضرورة لَمِّ شمل الصليبيين المتفرقين، فبعث برسائل إلى الفرنسيين قائلاً لهم: "من المرغوب فيه أن يكون الجيش مع بعضه مجتمعاً أثناء العمل؛ لأن التمزق سوف يُضعفنا ويُعرضنا لحملات أعدائنا"[٢]. ويبدو أن جهود ريتشارد أثمرت في اقناع الفرنسيين في اللحاق به في عسقلان، وبدأ الجميع بإعادة بنائها، إلا أن وحدتهم لم تطل، وغادر قسم من الفرنسيين إلى عكا بقيادة دوق بيرغندي، وانخفضت معنويات الجيش الصليبي لفقدانه جزءاً لا بأس به من قوته المتمثلة بالفرنسيين.[٣]

على الرغم من ذلك فإن نشاط ريتشارد قد استمر في عسقلان، وجعل منها أمنع وأحصن قلعة على الساحل الفلسطيني، واستمر ريتشارد وجوده بها مدة أربعة أشهر، ويمكن القول: إنه ساد الهدوء على الجبهات طيلة هذه المدة باستثناء بعض المناوشات غير الحاسمة، ويبدو أن صلاح الدين لم يعمد لاستغلال الشقاق بين الصليبيين لشن هجمات عليهم، وإنما عمد إلى التريث والانتظار، واستغل ذلك ليوفر الراحة والهدوء لجيشه، بالإضافة إلى انتظاره وصول الأمداد من الموصل والجزيرة،[٤] وربما كان ذلك رغبةً من صلاح الدين في اذكاء نار الخلاف بينهم وإعطاء الموضوع وقته الذي يستحقه، وهنا يتبادر إلى الأذهان اطلاق صلاح الدين سراح غيGuy ، وما نجم عن ذلك من شقاق كبير وخلاف فيما بينهم.

---

[١] أمبرويز: رحلة ريتشارد، عن الموسوعة، ج٣١، ص١٤٠.

[٢] أمبرويز: رحلة ريتشارد، عن الموسوعة، ج٣١، ص١٤٢.

[٣] أبو شامة: الروضتين، عن الموسوعة، ج١٩، ص٣٧١. أمبرويز: رحلة ريتشارد، عن الموسوعة، ج٣١، ص١٣٩-١٤٤. زكار: الموسوعة، ج٣، ص٣٩٥. رنسيمان: تاريخ الحروب، ج٣، ص١٢٠.

[٤] أمبرويز: رحلة ريتشارد، عن الموسوعة، ج٣١، ص١٤١-١٤٤. رنسيمان: تاريخ الحروب، ج٣، ص١٢٠-١٢١. حومد: تاريخ الجهاد، ج٢، ص١٥٩.

على العموم يمكن القول إن إعادة بناء عسقلان مثَّلَ تحدياً كبيراً لوحدة مصر والشام، ونقطة تهديد خطيرة على طرق المواصلات الإسلامية بين مصر والشام، وذلك لأهمية موقع عسقلان.

## الاستيلاء على قلعة الداروم

أجرى ريتشارد من عسقلان اتصالات عدة مع العادل بشأن الصلح، وقام العادل بزيارة ريتشارد في معسكره هناك، وذلك في ٢٠ آذار ١١٩١م، وحدث بهذه الزيارة تقارب في وجهات النظر، إلا أنه لم يتم الصلح بينهما- كما سيأتي الحديث على تفصيله.

وفي هذه المرحلة حلَّ ريتشارد قسماً كبيراً من مشاكل مملكة القدس اللاتينية الثانية، فقد تخلّص من كونرادConrand ، وتم تعيين ابن أخته هنري دي شامبين Henry of Champagne حاكماً للملكة، وتخلص من مطالب غي بأن عوضه بقبرص بدلاً من مملكة القدس كما تقدم الحديث على ذكره، وبعد أن سمع ريتشارد بحصول تمرد على صلاح الدين في اقليم الجزيرة، إذ توفي تقي الدين عمر بن أخ صلاح الدين، وتولى ابنه المنصور وأعلن العصيان وعدم الطاعة لصلاح الدين،[١] فاستغل ذلك ريتشارد، وقام بهجوم مفاجئ على آخر حصن لصلاح الدين على الساحل الفلسطيني، وهو حصن الداروم الذي يبعد عن عسقلان حوالي عشرين ميلاً، وفي ٩ جمادى الأولى ٥٨٨هـ/ ٢٣أيار ١١٩٢ م استولى الصليبيون على حصن الداروم عنوة وخربوه.[٢] وقتلوا وأسروا من استطاعوا من أهله وحاميته، إذ يذكر رنسيمان أن: "ريتشارد لم يتعلم شيئاً من مروءة صلاح الدين؛ إذ لقيت جماعة كبيرة من رجال الحامية مصرعها بحد السيف، بينما جرى تعليق آخرين على شرفات الحصن، وفرض على غيرهم الأسر المؤبد"[٣].

---

[١] للمزيد راجع: ابن شداد: النوادر السلطانية، عن الموسوعة، ج١٥، ص٢٢٦. أبو شامة: الروضتين، عن الموسوعة، ج١٩، ص٣٥٨.

[٢] العماد: الفتح القسي، عن الموسوعة، ج١٣، ص٤٠٣. أبو شامة: الروضتين، عن الموسوعة، ج١٩، ص٣٦٤. ابن شداد: النوادر السلطانية، عن الموسوعة، ج١٥، ص٢٢٩. أمبرويز: رحلة ريتشارد، عن الموسوعة، ج٣١، ص١٦٣-١٦٦. تواريخ أسرة بلانتغنت، عن الموسوعة، ج٣٠، ص٢٥٠.

[٣] رنسيمان: تاريخ الحروب، ج٣، ص١٢٢. للاستزادة أنظر: أمبرويز: رحلة ريتشارد، عن الموسوعة، ج٣١، ص١٦٦.

وبعد الاستيلاء على الداروم – قرية أم الفحم حالياً– ومنحها للكونت هنري سار جيش الفرنج إلى حصن مجدل يابا فخرج إليهم المسلمون فيه واقتتلوا وأخفق الفرنج في احتلاله وعادوا إلى معسكرهم.[١]

## الهجوم الصليبي الثاني على القدس عام ٥٨٨هـ/ ١١٩٢م

قبل أن يستولي ريتشارد على حصن الداروم أرسل إلى الحاكم الجديد في عكا هنري دي شامبين Henry of Champagne وإلى الفرنسيين يحثهم على اللحاق بمعسكره في عسقلان للمشاركة في الهجوم على حصن الداروم، إلا أن الإنكليز بشكل عام رفضوا انتظار وصول الفرنسيين ليتفردوا بشرف الاستيلاء على هذا الحصن وليحرموا الفرنسيين من هذا المجد العظيم – على حد قول أمبرويز.[٢]

لقد تزامن وصول الفرنسيين مع حاكم عكا الجديد الكونت هنري إلى المعسكر الصليبي مع الاستيلاء على حصن الداروم، مما أدى إلى ارتفاع الروح المعنوية للجيش الصليبي بشكل عام، وتعالت به الأصوات التي تطالب بالهجوم المباشر على مدينة القدس للاستيلاء عليها، وكان هذا مطلب الفرنسيين له منذ البداية، وكان الإخفاق في السيطرة على القدس في العام المنصرم أهم أسباب الانشقاق بين الفرنسيين والإنكليز آنذاك.

كانت هذه المطالب تقضُّ مضجع ريتشارد وتجعله بين خيارين كلاهما مُرٌّ، فالاستيلاء على القدس يحتاج إلى الكثير من الوقت، والإخفاق في الهجوم عليها يحتاج إلى ضرورة بقاء ريتشارد في المنطقة لوقت أطول بكثير، وهذا أمر مُستبعد بسبب سوء الأنباء التي تصل إلى ريتشارد من مملكته في الغرب وتضطره للعودة إلى هناك بأقرب وقت.

ومن جهة أخرى كان هناك ما يشجع ريتشارد على تنفيذ مطالب قادة معسكره، ولاسيما مطالب الفرنسيين، فحصن الداروم تم الاستيلاء عليه بسهولة، وصلاح الدين كان قد سرَّح معظم جيشه بسبب حلول الشتاء، وبقي هو مع قواته الخاصة فقط مرابطاً في القدس.

---

[١] ابن شداد: النوادر السلطانية، عن الموسوعة، ج١٥، ص٢٢٩.

[٢] أمبرويز: رحلة ريتشارد، عن الموسوعة، ج٣١، ص١٥٩، ١٦٦.

وفي النهاية اتخذ الصليبيون قراراً بالإجماع بالهجوم على القدس، وعلى هذا الأساس انطلق جيشهم من عسقلان في ٢٣ جمادى الأولى ٥٨٨/ ٧ حزيران ١١٩٢م باتجاه القدس للسيطرة عليها، فساروا إلى تل الصافية ثم إلى النطرون، وخلال أربعة أيام وصل هذا الجيش إلى بيت نوبة على بعد مرحلة من القدس، وتوقف بها مدة شهر كاملٍ في انتظار وصول الدواب والمؤن، وفي انتظار عودة الكونت هنري دي شامبين الذي أُرسل إلى عكا لجلب من بها من الصليبيين المتخلفين عن القتال، ومتحينين الفرصة المناسبة للانقضاض على المسلمين في القدس، وخلال هذه المدة حدثت العديد من المناوشات والاشتباكات غير الحاسمة.[١]

وعلى الجانب العربي- الإسلامي فإن صلاح الدين كان مترقباً بكامل الحذر حركة المعسكر الصليبي منذ الاستيلاء على الداروم، ورابه نشاط الصليبيين وحركتهم تلك، فأرسل الرسل إلى سائر العساكر الإسلامية في الأطراف يدعوهم للحضور إليه، أو إرسال المعدات العسكرية،[٢] وعندما تيقَّن صلاح الدين من قصد الصليبيين للقدس تحصَّن بها، وعمد إلى سياسته الأولى بها وحولها، وهي سياسة الأرض المحروقة ودمار وإعطاب كل ما حول القدس كان من الممكن أن يستفيد منه الفرنج، حيث أفسد المياه في ظاهرها وخرَّب الصهاريج، وردم الآبار بحيث لم يُبْقِ حول القدس ماء يشرب أصلاً.[٣] وقد كان لسياسة ردم الآبار هذه وتخريب صهاريج المياه دورها الإيجابي في إخفاق الحصار، إذ إن ريتشارد عندما تناقش مع الفرنسيين المؤيدين لمتابعة الحصار والتقدم نحو القدس ردّ عليهم قائلاً: "إن هذا الموضع قد أُفسدت مياهه، ولم يبق حوله ماء أصلاً، فمن أين نشرب؟!".[٤]

---

[١] أمبرويز: رحلة ريتشارد، عن الموسوعة، ج٣١، ص١٧١. الفتح القسي، عن الموسوعة، ج١٣، ص٤٠٣-٤٠٤. ابن شداد: النوادر السلطانية، عن الموسوعة، ج١٥، ص٢٣١. أبو شامة: الروضتين، عن الموسوعة، ج١٩، ص٣٦٤. رنسيمان: تاريخ الحروب، ج٣، ص١٣٠. حومد: تاريخ الجهاد، ج٢، ص١٥٩. رستون: مقاتلون في سبيل الله، ص٣٩٠-٣٩١.

[٢] ابن شداد: النوادر السلطانية، عن الموسوعة، ج١٥، ص٢٣٠. أبو شامة: الروضتين، عن الموسوعة، ج١٩، ص٣٦٨.

[٣] أبو شامة:الروضتين، عن الموسوعة، ج١٩، ص٣٦٨. ابن شداد: النوادر السلطانية، عن الموسوعة، ج١٥، ص٢٣٥. رستون: مقاتلون في سبيل الله، ص٣٩٠-٣٩٢.

[٤] أبو شامة: الروضتين، عن الموسوعة، ج١٩، ص٣٦٨، ٣٧١.

وكذلك قسَّم صلاح الدين أسوار القدس على الأمراء لحمايتها من أي هجوم، وكلَّف كل واحد منهم بتحصين وحفظ ما أوكل إليه، وأمر قوة اليزك[١] بقطع طريق الإمداد بين الجيش الصليبي ويافا، فتمكنت هذه القوات في ١٧ حزيران من إلحاق ضربة كبيرة بقافلة صليبية قرب الرملة قادمة من يافا تحمل ميرة ومؤونة للمعسكر الصليبي، وأسروا عدداً منهم، ووصل هؤلاء الأسرى إلى القدس في ٢٩ جمادى الأولى مما رفع معنويات المسلمين بها، فازداد تهديد اليزك والأعراب لطريق إمداد الجيش الصليبي، وتمكنوا من قطع طريق الإمداد عليهم.[٢]

على الرغم من هذه الانتصارات الطفيفة التي حققتها بعض فرق المسلمين إلا أن الوضع السيء الذي وصل إليه المسلمون في القدس لم يكن ليخفى على أحد، فقد تعكّر صفوهم واضطربت أوضاعهم، ويظهر ذلك من خلال كتابات أبي شامة، إذ يذكر أن بعض الأمراء في الجيش عارضوا فكرة التحصّن في القدس خشية تكرار سيناريو عكا فتذهب العباد والبلاد كلها، وأن صلاح الدين أمضى إحدى لياليه دون أن ينام قط، وذلك لِعِظم الموقف الذي أصبحوا فيه، وبسبب الخطر الوشيك على القدس.[٣]

أما على الجانب الصليبي فقد شكلت الانتصارات الطفيفة التي حققتها بعض فرق المسلمين عليهم ضربة كبيرة لمعنويات الجيش الصليبي، ومن جديد اجتمع ريتشارد في بيت نوبة مع قادة جيشه للتشاور والبحث عن الخطوة الأمثل، فكانت الخيارات إما التقدم إلى القدس وإما التراجع باتجاه مصر للسيطرة عليها، وأصر الفرنسيون على موقفهم القديم بضرورة الزحف السريع إلى القدس، ولم يجرؤ ريتشارد على معارضتهم بهذه الخطوة التي قَدِمَ الجميع من أجلها، إلا أنه كان راغباً جداً بعودة الجيش

---

[١] كلمة فارسية، تعني طلائع أو مقدمة الجيش. الذهبي: سير أعلام النبلاء، مؤسسة الرسالة، ط٣، ١٩٨٥م، ج١٨، ص٤١٥، حاشية رقم ٤. للاستزادة أنظر: دُوزِي، رينهارت بيتر آن: تكملة المعاجم العربية، وزارة الثقافة والإعلام، العراق، ط١، من ١٩٧٩-٢٠٠٠، ج١١، ١١٨.

[٢] ابن شداد: النوادر السلطانية، عن الموسوعة، ج١٥، ص٢٣٢. أمبرويز: رحلة ريتشارد، عن الموسوعة، ج٣١، ص١٧٣. عاشور: الحركة الصليبية، ج٢، ص١٥٠.

[٣] أبو شامة: الروضتين، عن الموسوعة، ج١٩، ص٣٦٩-٣٧٠. ابن شداد: النوادر السلطانية، عن الموسوعة، ج١٥، ص١٣٧. كذلك الموسوعة، ٣، ص٣٩٦.

الصليبي إلى الساحل، بل يبدو أنه كان راغباً أكثر من ذلك في تخفيف حدة التوتر مع المسلمين تمهيداً لعقد الصلح الذي كان يسعى إليه، وربما كان قد قَرَّره في ذهنه.

لم يكن باستطاعة ريتشارد سوى تذكير المجتمعين بخطورة الهجوم على القدس، وما يؤدي إليه ذلك من الابتعاد بهم عن شاطئ البحر، مما سيعرضهم لخطورة قطع المؤن والإمدادات عنهم من قبل المسلمين الذين قد يسيطرون على سهول الرملة، وبذلك يتعرض المعسكر الصليبي لخطر الحصار، والوقوع بين فكي كماشة المسلمين، كما أشاد ريتشارد بأسوار القدس واستدارتها وعظمتها وقلة المياه حولها بسبب افسادها من قبل المسلمين، مقابل ضعف إمكانات الجيش الصليبي وقلة تجهيزاته، وعدم قدرته على حصارها، وسوء المناخ، وصرّح للحضور بأنه لا يستطيع أن يتحمل مسؤولية عمل يُلام عليه بعد ذلك، ثم أحال الفصل في هذه القضية للبلديين وللداوية والإسبتارية كونهم أكثر خبرة بمداخل البلاد ومخارجها.[1]

من خلال ذلك يظهر أن ريتشارد تكلم حقاً إلا أنه أراد به باطلاً، إذ إنه سعى لتهويل الأمر على أصحابه سعياً لصرفهم عنه، ومن ثم التمهيد للصلح مع المسلمين، ومن ثم عودته لمملكته في أوربا.

ويمكن أيضاً تسويغ موقف ريتشارد هذا بما شُهِرَ به من البراعة العسكرية، إذ يبدو أنه لم يرغب بمغامرة عسكرية كي يرضي الحماس الانفعالي لدى عساكره، ولا سيما لدى الفرنسيين منهم، وذلك دون أن يخدم هدفاً عسكرياً محققاً، ولهذا رفض أن يصدر أوامره بالتقدم نحو القدس.

## استيلاء الفرنج على قافلة مصرية كبيرة:

فيما كان هذا التردد واختلاف الآراء يخيم على المعسكر الصليبي حمل جواسيس ريتشارد له خبراً بأن قافلة إسلامية كبيرة تابعة لصلاح الدين تقترب منهم، وكانت هذه القافلة قادمة من مصر، وتشق طريقها في الصحراء نحو الشمال قاصدةً القدس، وحث هؤلاء الجواسيس سيدهم ريتشارد على الإسراع

---

[1] أمبرويز: رحلة ريتشارد، عن الموسوعة، ج٣١، ص١٧٥-١٧٦. أبو شامة:الروضتين، عن الموسوعة، ج١٩، ص٣٧١. رنسيمان: تاريخ الحروب، ج٣، ص١٣١.

في اغتنام الوقت والانقضاض على هذه القافلة، وعندما طلب ريتشارد المساعدة من الفرنسيين لبوا النداء مباشرةً ناسين قدسهم المقدس لأجل ثلث غنائم هذه القافلة.[١]

وبالليلة ذاتها انطلق ريتشارد ومعه دوق بورغونيا حتى وصلوا إلى تخوم عسقلان، ونما لريتشارد أن القافلة توقفت للراحة عند نبع الخويلفة في صحراء النقب على بعد نحو ٢٠ كم عنهم، فسار حتى وصل لقربها فوجدها آمنة مطمئنة قد نام ناسها وحراسها، وبضائعهم ملقاة على الأرض من حولهم على الرغم من تحذيرات صلاح الدين لحراس هذه القافلة بأخذ الحيطة والحذر من مغبة انقضاض ريتشارد عليهم، وقبل فجر يوم الثلاثاء الواقع في ١١ جمادى الآخر/٢٣ حزيران أعطى ريتشارد أوامره بالهجوم عليهم، فأحدث بهم رعباً كبيراً، وكانت فرقة المماليك المكلفة بالحراسة أول الهاربين على الرغم من أنها حاولت الكرة عليهم ولكن دون فائدة.[٢] وغنم الفرنج القافلة بأكملها، وأخذوا من رجالها ما يقارب خمسمئة أسير، وغنموا حوالي ثلاثة آلاف جمل وحوالي ألف من الخيل، بالإضافة لِما بها من السلع والمؤن والأموال والذهب والحرير والبهارات والآلات الحربية الشيء الكثير،[٣] لدرجة أن العماد الكاتب يقول بها "فأخذ الكفار جمالاً لا تُعد، وأحمالاً لا تحد، وكانت هذه نكبة عظيمة"[٤]. ويستفيض أمبرويز في ذكر هذه الغنائم فيقول: "لم يؤخذ مثلها من قبل في وقت واحد في أي مما تقدم من المعارك"[٥].

---

[١] أمبرويز: رحلة ريتشارد، عن الموسوعة، ج٣١، ص١٧٩. أنتوني بردج، ص٢١٩-٢٢٠.

[٢] العماد: الفتح القسي، عن الموسوعة، ج١٣، ص٤٠٤-٤٠٥. ابن شداد: النوادر السلطانية، عن الموسوعة، ج١٥، ص٢٣٣-٢٣٤. أبو شامة: الروضتين، عن الموسوعة، ج١٩، ص٣٦٤، ٣٦٧. ابن واصل: مفرج الكروب، ج٢، ص٣٨٤. مجهول: ذيل تاريخ وليم، عن الموسوعة، ج٨، ص٤٣٥. ابن العبري، أبو الفرج جمال الدين: تاريخ الزمان، تح: إسحاق أرملة، دار المشرق، بيروت، ١٩٩١م، ص٢٢٣. أمبرويز: رحلة ريتشارد، عن الموسوعة، ج٣١، ص١٨١-١٨٣. أنتوني بردج، ص٢٢٠. غروسيه، ص٢٣٢.

[٣] ابن شداد: النوادر السلطانية، عن الموسوعة، ج١٥، ص٢٣٣. أبو شامة:الروضتين، عن الموسوعة، ج١٩، ص٣٦٧-٣٦٨. ابن واصل: مفرج الكروب، ج٢، ص٣٨٤. أنتوني بردج، ص٢٢٠. غروسيه، ص٢٣٢. قلعجي، ص٤١٨.

[٤] العماد: الفتح القسي، عن الموسوعة، ج١٣، ص٤٠٥.

[٥] أمبرويز: رحلة ريتشارد، عن الموسوعة، ج٣١، ص١٨٣-١٨٤.

وبعد هذه الوقعة عاد ريتشارد إلى معسكره في بيت نوبة في ١٦ جمادى الآخر،[١] ولا شك أن هذه الحادثة أدت إلى رفع الروح المعنوية لدى الصليبيين وعم الفرح والابتهاج، وقوي عزمهم - بما حصلوا عليه من غنائم- على قصد القدس من جديد، فتقدم جيشهم بنشوة النصر إلى قُلونِية التي لا تبعد عن القدس سوى فرسخين (ثمانية كيلومترات) إلى الشمال الغربي منها، فاشتدت المناوشات والاشتباكات، وكثرت الهجمات الإسلامية عليهم.[٢]

وفي حين أن المتحمسين في المعسكر الصليبي كانوا ينتظرون بلهفة أوامر التقدم نحو القدس وصدرت الأوامر لهم من قبل ريتشارد في٢١ جمادى الآخر ٥٨٨هـ/ ٤ تموز ١١٩٢م بالتراجع عنها باتجاه الساحل، وبالتحديد إلى يافا، وتم ذلك على الرغم من معارضة الفرنسيين لذلك، وعلى الرغم من التهم والشتائم التي وجهوها لريتشارد، مما أدى إلى خيبة الأمل والانشقاق داخل المعسكر الصليبي.[٣]

هنا يرد السؤال: ماهي الأسباب الحقيقية وراء هذا الانسحاب؟

هل الأسباب والمسوغات التي قدمها أمبرويز على لسان ريتشارد كافية لسحب الجيش وعدم متابعة الحصار؟

هل كان هناك اتفاق سري مع صلاح الدين، أو مع أخيه العادل؟

هل نظر ريتشارد لتحصينات القدس وإجراءات الدفاع عنها على أنها صعبة الاختراق؟

ما مدى حضور مملكته في أوربا وتأثيرها في سير الأحداث في فلسطين؟

بدايةً يمكن القول: إن المعوقات وإجراءات التحصين التي قام بها صلاح الدين في القدس وما حولها لا بدَّ أنها لم تكن مفاجئة لريتشارد، إذ تعرّض معسكره لمثل ذلك في حملته الأولى على القدس في

---

[١] ابن شداد: النوادر السلطانية، عن الموسوعة، ج١٥، ص٢٣٥. أبو شامة: الروضتين، عن الموسوعة، ج١٩، ص٣٦٧-٣٦٨.

[٢] العماد: الفتح القسي، عن الموسوعة، ج١٣، ص٤٠٣- ٤٠٤. ابن واصل: مفرج الكروب، ج٢، ص٣٨٣. أمبرويز: رحلة ريتشارد، عن الموسوعة، ج٣١، ص١٨٧. عاشور: الحركة الصليبية، ج٢، ص١٤٩.

[٣] رنسيمان: تاريخ الحروب، ج٣، ص١٣٢-١٣٣.

بداية العام الحالي، ولا بدّ أن الصليبيين حسبوا حساباً وتجهزوا لمثل ذلك، وفي هذه المرة كانت معنويات المعسكر الإسلامي أضعف بكثير من تلك.

ويمكن القول إن من بين الأسباب الحقيقية وراء إخفاق الحصار وانسحاب الصليبيين بعيداً عن القدس هو الصراع الخفي بين الإنكليز والفرنسيين سواءً داخل المعسكر الصليبي أم خارجه، ومن هنا برزت مشكلة الحفاظ على القدس في حال تمت السيطرة عليها، ويبدو أنها مثّلت العقبة الأكبر في مخيلة ريتشارد، فهو ينوي مغادرة الأراضي المقدسة إلى مملكته في أوربا، ولا شك أن جميع أو معظم الحجاج الإنكليز سيتبعونه في ذلك، قابل ذلك رغبة شديدة من الفرنسيين في السيطرة على القدس، ومن ثم سيكون شرف السيطرة على القدس وحكمها لصالح الأخيرين، وبذلك تذهب كل جهود ريتشارد الذي يمثل الإنكليز في إحياء المملكة خدمةً للفرنسيين وإعلاءً لشأنهم، ومن الممكن أن تعود لهم السلطة الفعلية في المملكة الجديدة -مملكة القدس اللاتينية الثانية - بعد أن قُضِي عليها بمقتل كونراد عام ٥٨٨هـ/ ١١٩٢م.

وعند احسان الظن بريتشارد يمكن تسويغ انسحابه عن القدس بضعف العزيمة لديه، وفقدانه للإقدام والرغبة الصادقة في خوض معركة كبرى قد تستغرق سنتين أو ثلاث على شاكلة المعركة حول عكا التي لم تكن بعيدة عن الأذهان، التي استنزفت المعدات والأموال والرجال، لهذا فإن ريتشارد وقع في حيرة بين أمرين، أَيَزُجُّ المعسكر الصليبي في هذه المعركة القاسية، وقد يضطر لمغادرتهم إلى أوربا فيلحقه العار بذلك، أم يخوض المعركة ويستمر في قيادتها إلى النهاية، وبالتالي قد يضطر للتضحية بمملكته في الغرب الأوربي، وكلا الخيارين كان مرٌّ بالنسبة إليه.

وقد يكون من بين الأسباب الخفية التي أدت إلى انسحاب ريتشارد هو الاتصالات والمفاوضات بينه وبين صلاح الدين، فعلى الرغم من إجماع المصادر على نزاهة صلاح الدين وحُسن سياسته وحرصه على سلامة بلاد المسلمين، إلا أن للسياسة كواليسها الخاصة، فقد يكون انسحاب ريتشارد جاء وفقاً لاتفاق سري مع صلاح الدين.

ومهما يكن من أمر هذا أو ذاك فإن ريتشارد في النهاية حسم أمره بعدم متابعة الحصار، وأصدر أوامره للجيش بالانسحاب نحو يافا والساحل، وذلك في ٢١ جمادى الآخر ٥٨٨هـ/ ٣ تموز ١١٩٢م،

وفي نيته الاستيلاء على بيروت ومن ثم السفر إلى مملكته في أوربا، ولا بدَّ أنه كان ينوي إعادة إحياء المفاوضات مع صلاح الدين، إلا أنها أيضاً لم تكلل بالنجاح في هذه المرة على الرغم من تقارب وجهات النظر والتقدم الذي حصل فيها، وكانت عسقلان هي الحجر العثرة في هذه المفاوضات- كما سيأتي الحديث.

ولا بدّ أنه كان لانسحاب القوات الصليبية باتجاه الساحل أثره الإيجابي في المعسكر الإسلامي داخل القدس، فعمّتهم الفرحة، وشُحِذَت هممهم من جديد، وتشجعوا على مطاردة الصليبيين، فخرج الجيش العربي- الإسلامي في ١٥ رجب ٥٨٨/ ٢٧ تموز ١١٩٢م من القدس باتجاه يافا بغرض السيطرة عليها، ووصلها باليوم نفسه، وشرع على الفور بحصارها ومهاجمتها، وبعد ثلاثة أيام تمكن الجيش الإسلامي من دخولها بعد مقاومة عنيفة من قبل الصليبيين، ثم اضطرت حامية قلعتها للاستسلام مقابل البقاء على حياتهم، إلا أن الاتفاق لم ينفّذ بكامله بسبب أن صلاح الدين وجّه نصيحته لرجال الحامية بأن يلزموا قلعتهم خوفاً على حياتهم ريثما يضبط عساكره ويُعيد الأمن إلى نصابه في المدينة.[1] وخلال هذه المدة القصيرة تغير مجرى الأحداث وانعكست نتيجة المعركة سلباً على المسلمين، فأثناء ذلك كان ريتشارد في عكا، وقد أعدَّ سفنه لمغادرة الشرق، وحصل على موافقة ومباركة الإسبتارية والداوية، وفجأة وصلته رسل يافا تخبره بالوضع الحاصل بها، وتحثه على الإسراع لإنقاذ القلعة من السقوط بيد صلاح الدين، وعلى الفور أرسل إليها جيشه براً، واتخذ هو طريق البحر مسرعاً على رأس خمسين سفينة، يسانده البيازنة والجنويون، وما كاد يصل إلى شواطئ يافا حتى عدلت حاميتها عن الاتفاق المبرم مع صلاح الدين، واستأنفت المقاومة من جديد.

---

[1] أمبرويز: رحلة ريتشارد، عن الموسوعة، ج٣١، ص١٨٩-١٩١. ابن شداد: النوادر السلطانية، عن الموسوعة، ج٢٤٤-٢٤٧. أبو شامة: الروضتين، عن الموسوعة، ج١٩، ص٣٧٣-٣٧٥. رنسيمان: تاريخ الحروب، ج٣، ص١٣٤. قلعجي، ص٤٢١. حومد: تاريخ الجهاد، ج٢،ص١٦٥.

وما إن نزل ريتشارد على شاطئ يافا وتأكد من عدم سقوط قلعتها حتى شنَّ هجوماً عنيفاً ومباغتاً على المسلمين الذين انفرط عقدهم بها وتفرقوا في شوارعها، فأُخذوا على حين غُرّة، وأمر صلاح الدين جيشه بالانسحاب إلى يازور على بعد خمسة أميال منها.[١]

وبعد إخفاق المفاوضات التي تلت يافا أعاد صلاح الدين تجميع قوى جيشه، وشن هجوماً في ٢٣ رجب ٥٨٨هـ/ ٤ آب ١١٩٢ م على المعسكر الفرنجي خارج يافا الذي لم تبلغ عدد خيامه سوى عشر خيم تقريباً، إلا أن صلاح الدين لم يحقق نجاحاً في هذا الهجوم بسبب الخلاف الذي دب بين صفوف جيشه، وعدم إطاعة أطلاب الجيش له بالهجوم على المعسكر الصليبي، وربما كان السبب في ذلك هو غيظهم على السلطان من اتفاق يافا –سالف الذكر– الذي فوَّت عليهم الغنيمة، وما جرى بعده من أحداث. وفي النتيجة أخفق هذا الهجوم، وتراجع صلاح الدين إلى يازور، ثم سار إلى النطرون ونزل بها، ثم دخل القدس يتفقد أحوالها.[٢]

وكانت تلك الأحداث هي خاتمة العلاقات العسكرية بين الطرفين في هذه المرحلة، حيث تم بعدها توقيع صلح الرملة بينهما في ٥٨٨هـ/ ١١٩٢م، وسادت بعدها مرحلة من الهدوء والاستقرار – وسيأتي الحديث عنها.

---

[١] أمبرويز: رحلة ريتشارد، عن الموسوعة، ج٣١، ص١٩٢-١٩٧. العماد: الفتح القسي، عن الموسوعة، ج٢٣، ص٤١١. ابن شداد: النوادر السلطانية، عن الموسوعة، ج٢٤٨-٢٥١. أبو شامة:الروضتين، عن الموسوعة، ج١٩، ص٣٧٦-٣٧٧. رنسيمان: تاريخ الحروب، ج٣، ص١٣٥-١٣٦. غروسيه، ص٢٣٣. عاشور: الحركة الصليبية، ج٢، ص١٥٤. حومد: تاريخ الجهاد، ج٢، ص١٦٦-١٦٧. قلعجي، ص٤٢١.

[٢] أمبرويز: رحلة ريتشارد، عن الموسوعة، ج٣١، ص٢٠٠-٢٠٦، وهنا يبالغ أمبرويز في وصف بطولات الفرنج والشجاعة الخارقة لريتشارد. للاستزادة أنظر: ابن شداد: النوادر السلطانية، عن الموسوعة، ج١٥، ص٢٥٣-٢٥٤. غروسيه، ص٢٣٤-٢٣٥. رنسيمان: تاريخ الحروب، ج٣، ص١٣٧-١٣٨. عاشور، الحركة الصليبية، ج٢، ص١٥٤. حومد، تاريخ الجهاد، ج٢، ص١٦٨.

## ثانياً: العلاقات السياسية الدبلوماسية بين الجانبين

## (دبلوماسية صلاح الدين وريتشارد)

### ١-أولى الاتصالات الدبلوماسية بين الطرفين والأسباب التي دعت إلى ذلك

### (مرحلة جس النبض)

خاض الطرفان العربي الإسلامي والصليبي معارك ضارية حول عكا مدة عامين ونصف العام، حشد خلالها كل من الطرفين حشوداً كبيرة، ويمكن القول إن هذه المعارك استنزفت قواهما، وأنهكتهما، لذلك فإن كلا الجانبين كان تواقاً لإيقاف العمليات العسكرية برهة من الزمن، ويبدو أن الذي أخَّر ذلك هو أن كلا القيادتين التي تمثلت بصلاح الدين وريتشارد أبت ايقاف الحرب على حسابها أو حساب سمعتها أو على حساب "المصالح الوطنية"؛ لذلك مثَّل العام التالي لسقوط عكا تردداً وتذبذباً واضحاً وكبيراً في العلاقات بين السلم والحرب، فالعمليات العسكرية الكبيرة في هذا العام – سلف ذكرها– تخللها الكثير من المفاوضات والاتصالات الدبلوماسية، وفي النهاية يبدو أن القيادتين توصلت لقناعة بعدم القدرة على تحقيق نصر حاسم على الطرف الآخر بسبب تعب وضجر الطرفين من طول الحرب والخسائر الكبيرة التي تكبدها كلاهما، سواءً بالأرواح أم العتاد، وإدراك كل منهما أن خصمه يتمتع بخبرة وعبقرية وقيادة عسكرية فذة، بالإضافة إلى وجود أسباب عديدة خاصة لدى كل منهما جعلتهما يتوصلان إلى قناعة وضرورة توقيع الصلح، ومن هذه الأسباب على **الجانب الصليبي**:

١- لم يكن المناخ مواتياً للصليبيين أثناء هجومهم الأول على القدس، وأثناء ترميمهم وتحصينهم لعسقلان، حيث لاقوا أوضاعاً مناخية متردية بالغة السوء زادت في حجم معاناتهم ومتاعبهم.

٢- الشقاق داخل المعسكر الصليبي والنزاعات الفرنسية الإنكليزية التي بدأت تزداد حدة، وكثيراً ما عارض الفرنسيون رأي ريتشارد وتوقفوا عن القتال معه، وانسحبوا من المعسكر إلى عكا وصور.

٣- الأخبار السيئة التي تتابعت ونمت لمسامع ريتشارد من مملكته في انكلترا، التي أوجبت عليه الحضور مسرعاً إلى هناك لتفادي ضياعها.

**أما على الجانب الإسلامي فتتمثل بالآتي:**

١- إخفاق صلاح الدين في الحصول على دعم عسكري إسلامي، وتجميع قوى عسكرية تضاهي قوة الصليبيين في الحملة الثالثة التي أتى على رأسها ثلاثة من كبار ملوك أوربا، وبعد سقوط عكا استمرت جنود هذه الحملة تعمل جميعها تحت لواء ريتشارد، بالإضافة إلى قوى الصليبيين الموجودين في المنطقة قبل قدوم الحملة الثالثة.

٢- طول أمد الحرب التي قادها صلاح الدين ضد مملكتي القدس اللاتينية الأولى والثانية، مما أدى إلى تراجع القدرات القتالية للمعسكر الإسلامي، وبدأ العساكر يتململون ويشعرون بالتعب والرغبة في الخلود إلى الراحة، وقد أدرك صلاح الدين ذلك منذ حصار عكا وقبل سقوطها بيد الصليبيين، وعبّر عن مثل ذلك في رسالته إلى الخليفة العباسي حين قال: "فإنهم يتضجرون ولا يصبرون، بل يتفللون ولا يجتمعون، ويتسللون ولا يرجعون، وإنما يقيمون ببذل نفقة، وإذا حضروا بقلوب غير متفقة"[١].

٣- مشكلة الإقطاع العسكري التي تكوَّن على أساسها جيش صلاح الدين لم تساعده في المضي طويلاً في الحروب.

هذه الأسباب والظروف الخاصة لدى كل طرف جعلت وجهات النظر تقترب من بعضها، وغدت الاتصالات واقعية فيما بينهما، إلى أن تم إبرام صلح الرملة وتوثيقه بينهما في عام ٥٨٨هـ/ ١١٩٢م.

وأول هذه الاتصالات السياسية الدبلوماسية أتت من طرف ريتشارد، وبدأت بين الطرفين منذ وقت مبكر، فقبل معركة أرسوف المحورية في تاريخ العلاقات بينهما وأثناء الاستعداد لها أرسل ريتشارد وهو على نهر القصب قرب أرسوف لقوات اليزك القريبة منه طالباً الاجتماع بالعادل الأيوبي أخي صلاح الدين، ونمي ذلك إلى صلاح الدين فأرسل لأخيه العادل قائلاً: "إن قدرت أن تطاول الإفرنج فلعلهم يقيمون اليوم حتى يلحقنا التركمان فإنهم قد قربوا منا"[٢]، وهنا يظهر واضحاً أن صلاح الدين قد وافق منذ البداية على الاتصالات السياسية الدبلوماسية، وإن لم يكن جاداً بها، ذلك أن معركة أرسوف لم تكن قد بدأت بعد، ولاشك أن التعويل عليها كان كبيراً من الجانب الإسلامي، وعلى هذا يبدو أن

---

[١] ابن واصل: مفرج الكروب، ج٢، ص٣٣٣.

[٢] ابن شداد: النوادر السلطانية، عن الموسوعة، ج١٥، ص١٩٨.

صلاح الدين قَبِلَ باجتماع العادل بريتشارد لمعرفة المستوى النفسي ومدى الاستعداد والجاهزية العسكرية التي عليها الصليبيين، ولمعرفة الأهداف التي يرنوا إليها ريتشارد بدقة، يضاف إلى ذلك رغبة صلاح الدين الواضحة في كسب الوقت من خلال ذلك ريثما تصله بقية القوى التي ينتظرها.

أما ريتشارد فمن جانبه يبدو أن طلبه للصلح آنذاك لم يكن من جانب ضعف أو وهن، وقد ثبت ذلك في معركة أرسوف، ولربما أراد الأهداف نفسها التي أرادها صلاح الدين، حيث يذكر أمبرويز: "وإدراكاً من الملك ريتشارد أن قواته لا تكره الأتراك فقط، بل إنها لم تعد تخشاهم كما كانت من قبل، ولهذا قام الآن بإرسال سفارة متميزة إلى صلاح الدين وإلى أخيه سيف الدين يطلب استسلام مملكة سورية مع كل ما هو عائد إليها، حسبما كانت أيام الملك المجذوم"[١].

وتم الاجتماع بين العادل وريتشارد مع بعض المستشارين والسياسيين، وعلى العموم كان الاجتماع مخفقاً بشكل كامل، والسبب في ذلك هو عدم وجود الرغبة الحقيقية للصلح أو التفاهم بين الطرفين آنذاك، فكلاهما كان يُعقب على أرسوف، وكانت مجمل مطالب ريتشارد في هذه المرحلة – كما يفهم من كلام ريتشارد السالف ذكره– تخلي المسلمين عن جميع الأراضي التي سيطروا عليها بعد حطين، وإعادة مملكة القدس اللاتينية الأولى إلى مجدها السابق.[٢]

وإخفاق هذا الاجتماع يعني حتمية المعركة في أرسوف في ١٤ شعبان ٥٨٧هـ/ ٧ أيلول ١١٩١م، التي لم تسفر عن نصر عسكري حاسم لكلا الطرفين، إلا أنها حسمت وأظهرت مسألة توازن القوى العسكرية عند المعسكرين.

وبعد دخول الصليبيين عكا خاف كونراد Conrand – صاحب صور– على نفسه من غائلة ريتشارد وسطوته، فترك المعسكر الصليبي وعاد إلى مقر حكمه في صور، وزادت مخاوف كونراد بعد معركة أرسوف، وأخذ يسعى إلى التوصل إلى صلح مع صلاح الدين، وبذلك أصبح هناك تياران صليبيان يسعيان للتوصل إلى صلح مع المسلمين، ولا بُدَّ أن ذلك قوّى مركز صلاح الدين في المفاوضات، وأضعف موقفهم لتسابقهم على عقد صلح منفرد مع صلاح الدين، وبعد انتهاء صلاح

---

[١] أمبرويز: رحلة ريتشارد، عن الموسوعة، ج٣١، ص١٣٢.

[٢] ابن شداد: النوادر السلطانية، عن الموسوعة، ج١٥، ص١٩٩.

الدين من زيارته التفقدية المفاجئة للقدس، وعودته في ٩ رمضان ٥٨٧هـ/ نهاية أيلول ١١٩١م إلى معسكره في الرملة وصل إليه رسول من قبل المركيس كونراد مونتفراتConrand Montferrat صاحب صور طالباً الصلح مع المسلمين، وأن يُعْطَى صيدا وبيروت مقابل مجاهرته بالعداء للصليبيين، وأعلن استعداده لقصد عكا ومحاصرتها، وأنه مُسْتَعِدٌ لِحلفان اليمين على ذلك لصلاح الدين.[١]

وفي الرد الذي أرسله له صلاح الدين اشترط عليه لتسليمه صيدا وبيروت البدء بمجاهرة العداء لريتشارد ومعسكره، وقيامه بحصار عكا، وأخذها وإطلاق مَن بها وبصور من أسرى المسلمين.[٢]

وهنا يظهر بوضوح تشدد صلاح الدين في رده على كونرادConrand ، وفي ذلك دلالة على تحسن موقف المعسكر الإسلامي، كما أنه دلالة على عدم جدية صلاح الدين في تفاوضه مع كونراد؛ لأنه الطرف الأضعف والأقل أهمية من ريتشارد بين الصليبيين، إذ إن الأخير يُمثل جميع الصليبيين الوافدين، وعلى هذا فإن صلاح الدين فضّل التفاوض مع الطرف الصليبي الأقوى؛ أي مع ريتشارد، ويبدو أن صلاح الدين سعى لاستغلال كل ما يمكنه من فُرقة الصليبيين لصالحه من خلال ضرب الفريقين ببعضهما بعضاً.

ووصلت إلى ريتشارد أخبار تلك المفاوضات والمراسلات بين كونراد وصلاح الدين، وما إن أنهى حصار القدس حتى سار إلى عكا في محاولة منه لرأب الصدع مع كونراد، ولرده إلى الحلف الصليبي ضد المسلمين.[٣]

في الوقت نفسه – آخر رمضان ٥٨٧هـ/ تشرين الأول ١١٩١م– أثناء قيام المسلمين بخراب عسقلان أرسل ريتشارد إلى صلاح الدين طالباً الصلح، وكان مما جاء في رسالته "إن المسلمين والفرنج

---

[١] ابن شداد: النوادر السلطانية، عن الموسوعة، ج١٥، ص٢٠٧. أبو شامة:الروضتين، عن الموسوعة، ج١٩، ص٣٥٣. ديورانت: قصة الحضارة، ج١٥، ص٤٢. حومد: تاريخ الجهاد، ج٢، ص١٤٧. سيد، أشرف صالح محمد: فن التفاوض الأيوبي ودبلوماسية الصليبيين خلال الحملة الصليبية الثالثة على الشرق، مجلة علوم الانسان والمجتمع، جامعة ابن رشد، هولندا، ص٢١.

[٢] ابن شداد: النوادر السلطانية، عن الموسوعة، ج١٥، ص٢٠٧. أبو شامة: الروضتين، عن الموسوعة، ج١٩، ص٣٥٣. حومد: تاريخ الجهاد، ج٢، ص١٤٧.

[٣] ابن شداد: النوادر السلطانية، عن الموسوعة، ج١٥، ص٢٠٨. أبو شامة:الروضتين، عن الموسوعة، ج١٩، ص٣٥٣. ابن واصل: مفرج الكروب، ج٢، ص٣٧٢. حومد: تاريخ الجهاد، ج٢، ص١٤٧.

قد هلكوا، وخربت البلاد وتلفت الأموال والأرواح، وقد أخذ هذا الأمر حقه، وليس هناك حديث سوى القدس والصليب والبلاد، والقدس متعبدنا ما ننزل عنه ولو لم يبق منا واحد"، وأظهر صلاح الدين اهتمامه بتلك الرسالة، وردَّ عليه باللهجة نفسها مؤكداً له أهمية القدس بالنسبة إلى المسلمين، فقال له: "القدس لنا كما هو لكم، وهو عندنا أعظم مما هو عندكم، فلا تتصور أن ننزل عنه ولا نقدر على التفريط بذلك بين المسلمين"[١].

ولم تسفر المفاوضات في هذه المرحلة عن أي تقدم لإصرار ريتشارد على استعادة بيت المقدس والإقليم الواقع غربي الأردن وصليب الصلبوت، ويبدو أن منتهى غاية صلاح الدين في الرد على ريتشارد كانت هي اشغال الفرنج ريثما يتم الانتهاء من خراب عسقلان.

### ٢-مشروع المصاهرة السياسية:

بعد الاشتباكات المتفرقة التي تمت بين الطرفين قرب الرملة، وبعد أن تم الانتهاء من خراب عسقلان على يد المسلمين أرسل ريتشارد من يافا إلى صلاح الدين في النطرون يُحدثه في أمر الصلح، وكان صلاح الدين قد كلّف أخاه العادل الموجود في اللد آنذاك بأن يتولى هذه المفاوضات، وفي هذه الأثناء، وبالتحديد في ٢٩ رمضان ٥٨٧هـ/ ١٩ تشرين الأول ١١٩١م وصلت رسالة إلى لعادل من قبل ريتشارد يقترح فيها حلاً سياسياً دبلوماسياً جديداً، ربما يكون ناجحاً وموفقاً إلى حد ما في حل جُلُّ الخلافات في حال نجاح هذا المشروع، وتضمن الاقتراح زواجاً سياسياً بين العادل وجوانا أخت ريتشارد أرملة ملك صقلية، ونص الاقتراح أن يتنازل صلاح الدين عن جميع أرض فلسطين لأخيه العادل، وبالمقابل يتنازل ريتشارد عن عكا وجميع البلاد الساحلية التي هي تحت أيديهم لأخته جوانا، وينبغي أن يُقيم العروسان في القدس، ويُسمح للمسيحيين بزيارة كنيسة القيامة، وكذلك يُعيد صلاح الدين إليهم

---

[١] ابن شداد: النوادر السلطانية، عن الموسوعة، ج١٥، ص٢١٠-٢١١. أبو شامة: الروضتين، عن الموسوعة، ج١٩، ص٣٥٤-٣٥٥. ابن واصل: مفرج الكروب، ج٢، ص٣٧٢-٣٧٣. رنسيمان: تاريخ الحروب، ج٣، ص١١٥. رستون: مقاتلون في سبيل الله، ص٣٣٠.

صليب الصلبوت، بالإضافة إلى إطلاق سراح جميع المعتقلين في كلا الجانبين، وكذلك تضمن الاقتراح إرضاء الداوية والإسبتارية بِرَدِّ ممتلكاتهم في قرى فلسطين.[١]

ويبدو أن العادل راقت له الفكرة، فأرسل ابن شداد ليُطلع أميره وأخاه صلاح الدين، ويستشيره في ذلك المشروع، وعندما طُرحت الفكرة على صلاح الدين ضحك مستهزئاً بها لاعتقاده أن ذلك "مكر وهزل" من قبل ريتشارد، أو لتيقنه من استحالة تنفيذ هذه الفكرة من قبل الجانب الصليبي في ظل حروب دينية قائمة بينهما، إلا أن صلاح الدين لم يعارض الفكرة ؛ بل قبل ورحب بها، وكرر ابن شداد سؤاله لصلاح الدين ثلاث مرات وكرر الأخير قبوله بها،[٢] وهنا يبدو أن صلاح الدين وهو السياسي الماهر لم يرفض هذا المشروع، بل قَبِلَهُ وأيده لضعف مركزه ولعدم رغبته الوقوف في وجه أي مشروع تصالحي، ولكيلا يكون هناك أي حجة لريتشارد، ورغبة منه في أن يكون إخفاق المشروع حجةً على ريتشارد لا له.

ويذكر ابن العبري أن العادل كان يدرك أن جوانا أخت الملك ريتشارد "لن ترضى الاقتران بعربي"، ولهذا فلعله وافق على المشروع على سبيل المزاح كعادته.[٣]

ويبدو أن ريتشارد كان جاداً – ولو في الظاهر– بذلك العرض الذي قدمه للعادل، حيث حاول عبثاً إقناع أخته التي اعترضت على هذا المشروع بعد اجتماعها بالقساوسة ورجال الدين معلنةً أنه ليس هناك ما يدعوها للزواج من رجل مسلم، وعندما وصل ابن النحال – رسول العادل وصلاح الدين– إلى ريتشارد أعلمه ريتشارد بذلك، وأرسل معه دعوة للعادل بأن يتنصّر ويعتنق المسيحية ولو في الظاهر، وبالطبع رفض العادل ذلك بأسلوبه اللبق، وأبقى باب المفاوضات مفتوحاً.[٤]

---

[١] ابن شداد: النوادر السلطانية، عن الموسوعة، ج١٥، ص٢١٢. أبو شامة:الروضتين، عن الموسوعة، ج١٩، ص٣٥٣. ابن العبري: تاريخ الزمان، ص٢٢١. زكار: الموسوعة، ٣، ص٣٩٥. رنسيمان: تاريخ الحروب، ج٣، ص١١٦. رستون: مقاتلون في سبيل الله، ص٣٤٢. حومد: تاريخ الجهاد، ج٢، ص١٤٨-١٤٩.

[٢] ابن شداد: النوادر السلطانية، عن الموسوعة، ج١٥، ص٢١٢-٢١٣. رستون: مقاتلون في سبيل الله، ص٣٤٢-٣٤٣.

[٣] ابن العبري، تاريخ الزمان، ص٢٢٢.

[٤] ابن شداد: النوادر السلطانية، عن الموسوعة، ج١٥، ص٢١٣. أنتوني بردج، ص٢١٧. رنسيمان: تاريخ الحروب، ج٣، ص١١٦. عاشور، الحركة الصليبية، ج٢، ص١٤٤. سيد، أشرف صالح محمد: الدبلوماسية الأيوبية الصليبية (١١٩١-١١٩٢)، شركة الكتاب الإلكتروني العربي، بيروت، ط١، ٢٠٠٧م، ص١٩.

وأثناء تبادل الرسل بينهما بعث ريتشارد للعادل قائلاً: "إن معاشر دين النصرانية قد أنكروا عليَّ وضع أختي تحت مسلم بدون مشاورة البابا، وهو كبير دين النصرانية ومقدمه، وها أنا أسيّر إليه رسولاً يعود في ستة أشهر، فإن أذن فيها ونعمت، وإلا زوّجْتُك ابنة أخي، وما أحتاج إلى إذنه في ذلك".[1]

ومن خلال هذه الرسالة يظهر أنه لا فائدة مرجوة منها، وثبت للعادل ولصلاح الدين إنما ذلك المشروع كان مجرد مراوغة سياسية من قبل ريتشارد، إذ إن المدة التي حددها ريتشارد ستة أشهر حتى يذهب الرسول ويعود بالنتيجة من قبل البابا غير ممكنة في ظل ظروف حرب لم تتوقف أحداثها بينهما أبداً، على الرغم من تلك المراسلات بينهما، وهذا يدعو للشك من جديد في نية ريتشارد الحقيقية ومدى جديته في مثل هذا الزواج مع ما عُرف عنه من التزمت والعنصرية والوحشية الدموية، وهذا يدعو إلى الإقرار أن ريتشارد أراد من طرح ذلك المشروع صرف العادل ومن ورائه صلاح الدين عن عقد أي صلح أو اتفاق مع كونراد، وهي محاولة لكسب الوقت وإطالة أمد المفاوضات، وظهر ذلك جلياً بطلبه من العادل الانتظار مدة ستة أشهر ريثما يذهب الرسل إلى البابا ويعودوا.

وعلى الرغم من إخفاق هذا المشروع الذي سخر منه صلاح الدين منذ البداية إلا أن قبول رأس الطرفين بهذه الفكرة علناً وعدم رفضها قولاً يدل على انفتاح عقلية ذلك العصر والتفاهم والتقارب الفكري لدى الطرفين، وليس ذلك بعيد عن روح التسامح التي اتصف بها صلاح الدين على مدى حروبه مع الصليبيين، كما يمكن تسويغ ذلك المشروع بالمراوغة السياسية عند الطرفين، وربما أن العادل كان يطمح من وراء ذلك إلى زيادة سلطته وبسط نفوذه، ومن ثم الاستعداد لتولي الحكم بعد أخيه.

### ٣-صلاح الدين ما بين كونراد Conrand وريتشارد Richard

صرف العادل نظره عن مشروع الزواج السياسي، وبدأ الاستعداد لمرحلة جديدة مقبلة مع الصليبيين، فزادت حدة الاشتباكات بينهما، وفي ١٦ شوال ٥٨٧هـ/ ٥ تشرين الثاني ١١٩١م أوقع المسلمون بالفرنج كميناً محكماً، فأرسل ريتشارد معاتباً العادل على ذلك، ومعلناً رغبته بالاجتماع به، فسار العادل إليه محملاً بالهدايا في ١٨ شوال ٥٨٧ هـ/ ٧ تشرين الثاني ١١٩١م، واستقبله ريتشارد أفضل استقبال، واجتمعا على مائدة طعام كبيرة، فتسامرا وتحادثا في أمر الصلح، واتصف الاجتماع

---

[1] ابن شداد: النوادر السلطانية، عن الموسوعة، ج١٥، ص٢٢١-٢٢٢.

بينهما بالمودة والاحترام، "وانفصلا عن توادد ومطايبة"[١]، وربما أن السبب في طيب العلاقات هذه وهدوئها هو رغبة الطرفين في تخفيف حدة التوتر العسكري والتقدم في المفاوضات وتحقيق الصلح.

أبدى ريتشارد خلال الاجتماع للعادل رغبته في الاجتماع بصلاح الدين، إلا أن الأخير ردَّ سلباً على ذلك، وجاء في رسالته له: "الملوك إذا اجتمعوا يقبح منهم المخاصمة بعد ذلك، فإذا انتظم أمر حسن الاجتماع، والاجتماع لا يكون إلّا لمفاوضة في مهم، وأنا لا أفهم بلسانك وأنت لا تفهم بلساني، ولا بدَّ من ترجمان بيننا نثق أنا وأنت به، فليكن ذلك الترجمان رسولاً حتى يستقر أمر وتستتب قاعدة، وعند ذلك يكون الاجتماع الذي يعقبه الوداد والمحبة"[٢].

وفي منتصف شوال وصل رينالد Rinald - صاحب صيدا وشقيف أرنون- رسولاً كونراد إلى صلاح الدين في المعسكر الإسلامي متحدثاً في أمر الصلح، فأمر صلاح الدين "بإجلاله واحترامه"، واجتمع معه في ١٩ شوال، وخلال الاجتماع عرض رينالد على صلاح الدين الصلح مقابل صيدا وبيروت، وعلى أن يكون هذا الصلح موجهاً ضد ريتشارد وجماعته، ومن جديد كرر عليه صلاح الدين شروطه السالفة بأن يبدأ المركيس بمبادأة الفرنج الوافدين من البحر بالعداوة، وأن يحاصر عكا ويطلق من بها وبصور من أسرى المسلمين، وبعدها يسلمه صلاح الدين صيدا وبيروت.[٣]

وفي مساء اليوم نفسه وصلت إلى صلاح الدين سفارة جديدة من قبل ريتشارد برئاسة الهنفري[٤]، وافتتحت هذه السفارة برسالة إلى صلاح الدين على لسان ريتشارد: "إني أُحب صداقتك ومودتك"[١]،

---

[١] أبو شامة: الروضتين، عن الموسوعة، ج١٩، ص٣٥٤-٣٥٥. ابن واصل: مفرج الكروب، ج٢، ص٣٧٢-٣٧٤. رنسيمان: تاريخ الحروب، ج٣، ص١١٥.

[٢] ابن شداد: النوادر السلطانية، عن الموسوعة، ج١٥، ص٢١٩. وللاستزادة: أبو شامة:الروضتين، عن الموسوعة، ج١٩، ص٣٥٥. ابن واصل: مفرج الكروب، ج٢، ص٣٤٧.

[٣] ابن شداد: النوادر السلطانية، عن الموسوعة، ج١٥، ص٢١٧، ٢١٩-٢٢٠. أبو شامة: الروضتين، عن الموسوعة، ج١٩، ص٣٥٣. حومد: تاريخ الجهاد، ج٢، ص١٥١.

[٤] تذكره بعض المصادر العربية باسم "ابن الهمفري"، والهنفري كان سيد تبنين، وأحد فرسان الفرنج الشجعان آنذاك، توفي ٥٧٤هـ على يد المسلمين. (ابن الأثير: الكامل، ج٩، ص٤٣٧. السبكي، تاج الدين بن علي، طبقات الشافعية الكبرى، تح: محمود الطناحي وعبد الفتاح الحلو، هجر للطباعة والنشر، ط٢، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٢م، ج٧، ص٣٦٥)، ويبدو أن ابن الهنفري هو ذاته هونفروا (أونفروا)، الزوج الأول للملكة ايزابيل، وقد تقدم الحديث عنه في الفصل الثالث.

إلا أن ريتشارد كرر فيها تمسكه بالقدس، ولكن بلهجة أخف حدة بكثير من ذي قبل، إذ إنه عرض في هذه الرسالة تقسيم المناطق بينهما بما في ذلك القدس، وما كان من صلاح الدين إلا أن أعطى هذه السفارة من طرف اللسان حلاوة، وأعطاهم وعوداً جميلة، وصرفهم من يومهم دون أن يأخذوا رداً شافياً كاملاً على طلبهم، وأهم ما ركز عليه صلاح الدين في هذا اللقاء هو قضية الأسرى؛ إلا أن السفارة ردت عليه: "إن كان صلح فعلى الجميع، وإن لم يكن صلح فلا يكون من حديث الأسارى شيء"[٢].

وعلى عكس ريتشارد الذي كانت لديه رغبة حقيقية في تحقيق الصلح يبدو أن صلاح الدين لم يكن لديه الرغبة ذاتها في هذه المرحلة؛ لعدم وثوقه بريتشارد، ولعدم تقديم ريتشارد تنازلات حقيقية في سبيل ذلك، وقد أسرّ صلاح الدين لابن شداد بمثل ذلك، حيث قال له: "متى ما صالحناهم لا تؤمن غائلتهم"، "فالمصلحة أن لا نزال على الجهاد حتى نخرجهم من الساحل أو يأتينا الموت".[٣]

ويبدو أن صلاح الدين فهم أن ريتشارد على الرغم من حديثه الكبير عن الصلح إلا أنه لن يتراجع عن أقل من نصف القدس، في الوقت الذي لم يكن به صلاح الدين مستعداً للتخلي عن شبر واحد منه، وقد حلَّ الشتاء فآثر صلاح الدين في ٢٣ ذي القعدة ٥٨٧هـ/ بداية تشرين الثاني ١١٩١م الانسحاب إلى القدس والتحصُّن بها، والاستعداد لمعركة مصيرية على تخومها.

ويبدو أن سبب موقف صلاح الدين السلبي من الصلح في هذه المرحلة هو الخيارات التي كانت لديه، أيعقدُ صلحاً مع كونراد؟ أم يعقدهُ مع ريتشارد؟ أم يمتنع عن ذلك، ويستمر في المواجه العسكرية على الرغم من التحديات التي كانت تواجهه في داخل جيشه ؟.

وبناءً على الخيارات التي أمامه عقد مجلساً في ٢١ شوال ٥٨٧هـ/ ١٠ تشرين الثاني ١١٩١م جمع فيه الأمراء وأصحاب الرأي والمشورة، وعرض عليهم خيارات الصلح مع كونراد Conrand أم مع ريتشارد؟ وذكر لهم شروطه مع كونراد التي تقدم ذكرها، ثم ذكر لهم اقتراحي الملك ريتشارد للصلح،

---

[١] ابن شداد: النوادر السلطانية، عن الموسوعة، ج١٥، ص٢٢٠. للاستزادة أنظر: رستون: مقاتلون في سبيل الله، ص٣٤٤-٣٤٥.

[٢] ابن شداد: النوادر السلطانية، عن الموسوعة، ج١٥، ص٢٢٠. حومد، تاريخ الجهاد، ج٢، ص١٥٢. رستون: مقاتلون في سبيل الله، ص٣٤٤.

[٣] ابن شداد: النوادر السلطانية، عن الموسوعة، ج١٥، ص٢٢٠-٢٢١.

**الأول**: بأن يكون للفرنج من القرى الساحلية مواضع معينة، ويكون للمسلمين المناطق الجبلية بأسرها بالإضافة لبعض القرى الساحلية.

**الثاني**: تكون القرى كلها مناصفةً، ويكون للفرنج قُسس في كنائس القدس وبيعه.[١]

يبدو أنه ظهر لصلاح الدين خلال الاجتماع عدم وجود رغبة واضحة لدى الجميع بعقد صلح مع أي من الطرفين، ولكن فهم منهم أنه إن كان ولا بدَّ من هذا الأمر فليكن مع ريتشارد.[٢]

ويبدو أن الذي أثَّر في ذلك هو ما اتصف به كونراد من شدة المكر والخداع، وما عُرف عنه من نكثه للوعود والعهود، ورغبته الظاهرة والمعلن عنها وهي البقاء في الشرق الفرنجي إلى أمد غير محدود، يضاف إلى ذلك أن كونراد لم يكن يمثل شريحة كبرى من الفرنج، على عكس ريتشارد الذي كان ملكاً لمملكة انكلترا وله جزء من فرنسا، وانساق خلفه جميع فرنج الشرق على الرغم مما بينهم من خلافات داخلية حادة، وما أبداه من رغبة واضحة في مغادرة الشرق إلى مملكته الأوربية، ويبدو أن هذه الأمور كلها ساعدت على ترجيح الاتفاق مع ريتشارد واستبعاده مع كونراد.

وكان أن توقفت المفاوضات خلال الهجوم الصليبي على القدس في شهر كانون الثاني ١١٩٢م، وبعد أن أخفق هذا الهجوم وعادوا متفرقين متنازعين باتجاه عسقلان وعكا وغيرها، وما تبع ذلك من حرب ونزاعات داخلية فيما بينهم – تقدم الحديث عنها– ومحاولات ريتشارد لإعادة وحدة الصليبيين، بالإضافة إلى تجدد وصول رُسل من مملكته في أوربا تحثه على الإسراع في العودة إليها، وأهم من ذلك كله هو استمرار اتصالات كونراد مع صلاح الدين بهدف تحقيق الصلح، وإخفاق ريتشارد من جديد في ثني كونراد عن ذلك، وبناءً على كل ذلك قرر ريتشارد مع بداية عام ٥٨٨هـ/ ١١٩٢م – أي بعد إخفاق الهجوم الصليبي على القدس–تجديد المفاوضات مع صلاح الدين، وأرسل مبعوثه ستيفن تيرنهام لزيارة صلاح الدين والعادل في القدس، فارتاع وفوجئ هذا السفير برؤية رينالد Rinald صاحب صيدا وباليان دي ابلين – اللذان مثّلا جانب كونرادConrand في المفاوضات مع صلاح الدين– على

---

[١] ابن شداد: النوادر السلطانية، عن الموسوعة، ج١٥، ص٢٢١. حومد: تاريخ الجهاد، ج٢، ص١٥٢. رنسيمان: تاريخ الحروب، ج٣، ص١١٧.

[٢] ابن شداد: النوادر السلطانية، عن الموسوعة، ج١٥، ص٢٢١. رستون: مقاتلون في سبيل الله، ص٣٤٧.

أبواب مدينة القدس،[١] فكان ذلك نذير شؤم لنتيجة المفاوضات بين ريتشارد وصلاح الدين، إذ كان ذلك من شأنه أن يضعف كثيراً موقف ريتشارد التفاوضي مع صلاح الدين، وربما منذ ذلك أو قبله أخذ ريتشارد يعمل على التخلص من كونراد؛ لذا كان خياره تنصيب غيGuy ملكاً على عكا، وإبطال دعوى خصمه في ذلك، وبناءً على ذلك عقد ريتشارد مجلساً في عسقلان في منتصف ربيع الأول ٥٨٨هـ/ بداية نيسان ١١٩٢م حضره كل الفرسان والبارونات والأعيان لتلك الغاية، فكانت النتيجة عكسية تماماً، وأصبح كونراد ملكاً على الصليبيين بما ملكه من التعقُّل وسمو الهمة مقارنةً مع منافسه غي كما تقدم شرحه، وتظاهر ريتشارد بقبول نتيجة الاجتماع، وأرسل له مُبَشِراً بذلك، إلا أن حقيقة الأمر أن شخصاً كريتشارد لم يكن ليسلم بهذا الأمر، ويجعل خصمه كونراد يَنْعَمُ بعرش بُنِيَ على أكتافه، ولا بدَّ أنه شرع في تدبير مشروع آخر للتخلص من كونراد، والتفرّد في شؤون الصليبيين وفي المفاوضات مع الجانب الإسلامي.

في هذه المرحلة ساءت كثيراً أحوال الصليبيين الداخلية، وتوترت العلاقات فيما بينهم، وغرقت عكا بحرب داخلية، وانشق الفرنسيون عن معسكر ريتشارد كما تقدم ذكره، وبالطبع لم يكن صلاح الدين جاهلاً عما يحدث في عكا، وكان من شأن ذلك أن يعزز موقفه التفاوضي، تزامن ذلك مع تعب عساكره من كثرة المواظبة على الغزو والقتال، والبعد عن الأوطان، وكثرة الديون، ويذكر ابن شداد أنه كان هناك قسم من العساكر لم يفارق صلاح الدين طوال الحرب.[٢]

ولا بدَّ أن هذه الظروف ساعدت على تحقيق تقدم في المفاوضات، ويبدو أن صلاح الدين قبل باستئنافها مستغلاً أوضاع الصليبيين السيئة لانتزاع أكبر قدر من التنازلات، وتحقيق الصلح بأفضل الشروط المناسبة للجانب الإسلامي، ولا بدّ أن شروط الصلح ستأتي في جانب المسلمين في ظل تلك الظروف والفُرقة التي يعيشها الصليبيون.

---

[١] لم يتسن للبحث الوقوع على هذه التفاصيل سوى عند رنسيمان: تاريخ الحروب، ج٣، ص١٢٢. وعنه نقل حومد: تاريخ الجهاد، ج٢، ص١٥٣.

[٢] ابن شداد: النوادر السلطانية، عن الموسوعة، عن الموسوعة، ج١٥، ص٢٢٣. غوانمة، يوسف حسن: معاهدات الصلح والسلام بين المسلمين والفرنج، دار الفكر، عمان، ط١، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م، ص١٥٧-١٥٨.

في ٤ ربيع الأول ٥٨٨هـ/ ٢٠ آذار ١١٩٢م غادر العادل المعسكر الإسلامي في القدس باتجاه عسقلان بناءً على دعوة ريتشارد، ولقيت سفارة العادل استقبالاً حافلاً مبالغاً فيه، لدرجة أنه استُبْعِد في حفل الاستقبال كل الطقوس الدينية المألوفة، وقد حمل العادل في جعبته عرضاً جديداً لريتشارد تضمن أن يحتفظ الصليبيون بما سبق لهم أن سيطروا عليه، ولهم الحق في أداء الحج إلى القدس - بدون أن يحملوا سلاح- ويحق لهم تعيين قس في كنيسة القيامة، وأن يعيد لهم المسلمون صليب الصلبوت، ويتنازلوا لهم عن بيروت بعد أن تخرّب استحكاماتها.[١]

تزامن ذلك مع وصول رسول من انكلترا ليُخبر ريتشارد بأن الأمور قد ساءت كثيراً هناك، وأن أخاه يوحنا يُمعن في اغتصاب السلطة، ويحثه على الإسراع بالعودة إلى انكلترا، واسترداد حقوقه المغتصبة بها.[٢]

ولا شك أنه نُمِيَ لريتشارد خبر تقارب وجهات النظر بين صلاح الدين وكونراد Conrand ، وأنهما على شفا توقيع صلح كبير بينهما- كما سيأتي الحديث على تفصيله- وهنا يظهر جلياً أن الأرضية قد تهيأت لتوقيع صلح تاريخي بين الطرفين - ريتشارد وصلاح الدين- وأن كلاهما أصبح جاداً في ذلك.

وأرسل ريتشارد إلى العادل وهو في بيسان يخبره ما مضمونه: "إنا قد وافقنا على قسمة البلاد، وأن كل من في يده شيء فهو له"، "ويكون القدس لنا ولكم فيه الصخرة".[٣]

وبالطبع أرسل العادل لأخيه صلاح الدين يطلعه على ذلك، وبدوره أطلع الأخير أمراءه على ذلك، فوافقوا ورحبوا به، "وسار الجواب إلى الملك العادل في ذلك".[٤]

---

[١] ابن شداد: النوادر السلطانية، عن الموسوعة، ج١٥، ص٢٢٣. رنسيمان: تاريخ الحروب، ج٣، ص١٢٢-١٢٣. حومد: تاريخ الجهاد، ج٢، ص١٥٤.

[٢] أمبرويز: رحلة ريتشارد، عن الموسوعة، ج٣١، ص١٥٠.

[٣] ابن شداد: النوادر السلطانية، عن الموسوعة، ج١٥، ص٢٢٣-٢٢٤. حومد: تاريخ الجهاد، ج٢، ص١٥٧.

[٤] ابن شداد: النوادر السلطانية، عن الموسوعة، ج١٥، ص٢٢٤. حومد: تاريخ الجهاد، ج٢، ص١٥٧.

وترددت الرسل بين العادل وريتشارد، وكان آخرها أن وافق ريتشارد على أن تكون الصخرة والقلعة للمسلمين، والباقي مناصفةً بما في ذلك قرى القدس، وسار العادل من غور الأردن إلى القدس لملاقاة أخيه صلاح الدين وليطلعه على التفاصيل والخطوات الأخيرة.[١]

وهنا لا بدَّ من ذكر ملاحظة مهمة؛ وهي أن هذه المفاوضات والتفاصيل الأخيرة التي سلف ذكرها لم ترد سوى عند ابن شداد الذي كان شاهد عيان ومشاركاً بها، حيث يقدم مادة جيدة في هذا الخصوص تميزه من غيره ممن كتب آنذاك.

في هذه الأثناء وبالسياق نفسه كانت مفاوضات صلاح الدين مع كونراد مونتفرات Conrand Montferrat صاحب صور سارية على قدم وساق، ففي وسط شهر ربيع الأول ٥٨٨هـ/نهاية آذار ١١٩٢م وصل رسول كونراد إلى صلاح الدين يجدد الحديث في الصلح، وكرر عليه صلاح الدين شروطه القديمة في ذلك، وأضاف عليها أن ما يأخذه المركيس كونراد من البلاد الإفرنجية بعد الصلح بانفراده يكون له، "وما نأخذه نحن بانفرادنا يكون لنا، وما نتفق نحن وهو على أخذه تكون له نفس البلد، ويكون لنا ما فيه من أسرى المسلمين وغير ذلك من الأموال"، وعلى كونراد إطلاق سراح كل أسير مسلم في مملكته، وفي حال فوّض ريتشارد إليه أمر البلاد لضرورة السفر، وأصبح هو المتحكم بها نيابةً عن ريتشارد فعليه أن يلتزم بشروط الصلح التي سيتم توقيعها قريباً مع ريتشارد، باستثناء عسقلان وما يليها فإنها تكون خارج الصلح، وتكون البلاد الساحلية لكونراد والبلاد الداخلية التي هي بحوزة المسلمين لهم، وما في الوسط مناصفةً، ثم سيّر صلاح الدين رسول كونراد بهذه الشروط.[٢]

وما لبث أن عاد الرسول في ٦ ربيع الآخر / ٢٢ نيسان ليُطلع صلاح الدين على ما يتم ترتيبه في الأوساط الصليبية من اختيار كونراد ملكاً على الفرنج، ويحثه على الإسراع في توقيع الصلح لكي يُسفِّر الفرنسيين إلى بلادهم، وإلا فإن التباطؤ في ذلك سيؤدي إلى إبقاء كل شيء على حاله، وسينتهي الحديث عن الصلح بشكل كامل.[٣]

---

[١] ابن شداد: النوادر السلطانية، عن الموسوعة، ج١٥، ص٢٢٤.

[٢] ابن شداد: النوادر السلطانية، عن الموسوعة، ج١٥، ص٢٢٥.

[٣] ابن شداد: النوادر السلطانية، عن الموسوعة، ج١٥، ص٢٢٦.

تزامن ذلك مع سوء أوضاع إقليم الجزيرة عقب وفاة الملك المظفر تقي الدين في ١٩ رمضان ٥٨٧هـ/ ٩ تشرين الأول ١١٩١م؛[١] وكان المسلمين في حالة حرب مع الصليبيين آنذاك، فحاول صلاح إخفاء نبأ وفاته، وقال لمجلسه: "المصلحة كتم ذلك وإخفاؤه لئلا يتصل بالعدو ونحن ننازله"[٢]، وتولى بعد المظفر ابنه المنصور محمد، ولم يكن على علاقات جيدة مع صلاح الدين وربما تمرَّد عليه أحياناً، وقد أثّر ذلك سلباً في أوضاع المسلمين السياسية والعسكرية، وخشي الأخير أن يتفاهم المنصور مع بكتمر (صاحب خلاط)، فتزداد الأوضاع سوءاً في المعسكر الإسلامي، ويضعف موقفه سياسياً وعسكرياً أمام الفرنج، وبناءً على ذلك وافق صلاح الدين على الصلح مع كونراد، وردَّ الرسول في ٩ ربيع الآخر يعلمه بذلك،[٣] ولكن الرياح جرت بما لا تشتهي سفن الإثنين (صلاح الدين وكونراد)، ووافقت في جريانها سفن ريتشارد، ولم يتم ذلك الصلح لسقوط كونراد قتيلاً في ١٢/ ربيع الآخر ٥٨٨هـ/ ٢٨ نيسان ١١٩٢م، وضاع دمه بين هذا وذاك ولم يُحسم الأمر بذلك –كما سلف شرحه وتفصيله في الفصل الثاني-.

## ٤- المفاوضات بين الجانبين الإسلامي والصليبي بعد مقتل كونراد Conrand

كان لمقتل كونرادConrand آثار كبيرة في سير المفاوضات بين الجانبين الإسلامي والصليبي، وإن صدقت تحليلات هذا البحث –التي تقدم تقريرها- بأن ريتشارد هو من خطط ونفّذ جريمة القتل تلك، فيكون بذلك قد أضاع على صلاح الدين فرصة توقيع صلح كبير مع المقتول، كما أفقده أوراق ضغط تفاوضية كبيرة، وأصبح الموقف التفاوضي والوضع العسكري يميل لصالح ريتشارد، فالمشاكل

---

[١] كان صلاح الدين قد منح ابن أخيه المظفر تقي الدين عمر في عام ٥٨٦هـ بعض المناطق التي تتبع كوكبوري صاحب اربل وراء الفرات، كحران وغيرها، فطمع الملك المظفر بأملاك مجاوريه، مما أوقعه في صراع مع بكتمر صاحب خلاط، وانشغل بذلك الصراع بعيداً عن سياسة صلاح الدين، وتوفي وهو يحاصر ملازكرد التابعة لبكتمر في رمضان ٥٨٧هـ، ويبدو أن تقي الدين كانت له أطماع توسعية في المنطقة لتأسيس امارة كبيرة تتبع له، ويظهر ذلك منذ أن عام ٥٧٩هـ حيث استدعاه صلاح الدين من مصر، وأسند حكمها لابنه العزيز، مما أثار غضب تقي الدين وعمل على فتح بلاد المغرب، إلا أنه تراجع عن ذلك. ابن خلكان، شمس الدين أحمد بن محمد: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تح: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ج٣، ص٤٥٦-٤٥٧. أبو الفداء: المختصر، ٣، ص٧٩-٨٠.

[٢] ابن شداد: النوادر السلطانية، عن الموسوعة، ج١٥، ص٢١٥. للاستزادة أنظر: وفيات الأعيان، ج٣، ص٤٥٧.

[٣] ابن شداد: النوادر السلطانية، عن الموسوعة، ج١٥، ص٢٢٦. أبو شامة:الروضتين، عن الموسوعة، ج١٩، ص٣٥٨.

هدأت في عكا، والفرنسيون قبلوا بالعودة إلى المعسكر الصليبي، والحاكم الفرنسي الجديد لمملكة القدس اللاتينية الثانية – هنري دي شامبين Henry of Champagne الذي تم اختياره خلفاً لكونراد- أعلن صراحةً استعداده للعمل تحت لواء خاله ريتشارد.[١]

وبناءً على ذلك ضرب ريتشارد بالمفاوضات عرض الحائط، وأخذ يستعد لاستئناف الأعمال العسكرية ضد المسلمين،، وقد علم بذلك صلاح الدين من سيف الدين المشطوب الذي فُكَّ أسره حديثاً، ووصل إلى صلاح الدين في أول جمادى الآخر، وعندما سأله الأخير عن حديث الصلح ردَّ سيف الدين: "إن الانكتار قد سكت عنه"[٢].

وتقدم ريتشارد مسرعاً للاستيلاء على حصن الداروم في ٩ جمادى الأول ٥٨٨هـ/ ٢٣ أيار ١١٩٢م، ولم يكتف به، بل أخذ يستعد في جمادى الآخر / حزيران للهجوم على القدس للمرة الثانية مستغلاً اضطراب أوضاع الجزيرة وعصيان المنصور محمد بن تقي الدين عمر فيها على عمه صلاح الدين،[٣] ولم تُستأنف المفاوضات حتى إخفاق حصارهم للقدس، وانسحابهم عنه في ٢١ جمادى الآخر ٥٨٨هـ/ ٤ تموز ١١٩٢م، وعودة المعسكر الصليبي إلى يافا، وما تبع ذلك من خلافات وتمزقات داخل معسكرهم[٤].

ومن يافا أخذ ريتشارد يسعى من جديد إلى استئناف المفاوضات وتوقيع الصلح مع صلاح الدين، وقبل أن يرسل رسوله إلى صلاح الدين وصلت للأخير رسالة من قبل الكونت هنري الذي أصبح هو الحاكم الجديد في صور وعكا، وكانت هذه الرسالة مليئة بالتَعَنُّت والغرور، طالب فيها بإعادة مملكة القدس كاملةً إليه، وبعد هذه الرسالة بثلاثة أيام وصل رسل ريتشارد إلى صلاح الدين يتحدثون في أمر الصلح.[٥]

---

[١] أمبرويز: رحلة ريتشارد، عن الموسوعة، ج٣١، ص١٥٥-١٥٦.

[٢] ابن شداد: النوادر السلطانية، عن الموسوعة، ج١٥، ص٢٢٥.

[٣] أمبرويز: رحلة ريتشارد، عن الموسوعة، ج٣١، ص١٥٦-١٥٧، ١٦٣-١٦٦. كذلك راجع ما تقدم ذكره عن ذلك في الحديث عن العلاقات العسكرية بين الجانبين.

[٤] أمبرويز: رحلة ريتشارد، عن الموسوعة، ج٣١، ص١٨٧.

[٥] رنسيمان: تاريخ الحروب، ج٣، ص١٣٣.

هنا لا بدَّ من التوقف قليلاً عند هذه الرسالة، فعلى الرغم من أن المصادر العربية لم توردها إلا أنها معقولة جداً وغير مستبعدة، ويبدو أن الذي أراد هذه الرسالة فعلاً هو ريتشارد، فأوحى إلى ابن أخته هنري بإرسالها إلى صلاح الدين ليُعلن له من خلالها أن حالة الانشقاق والفرقة الصليبية داخل مملكة القدس قد زالت بمقتل كونراد Conrand، وتولى نيابة عنه هنري دي شامبين Henry of Champagne الذي أعلن أنه حليف لريتشارد، ولا يخرج عن رأيه ووجهة نظره.

ويبدو أن هذه الرسالة الصغيرة وغير الجادة من قبل هنري قد آتت أُكلها عند صلاح الدين، إذ أذعن الأخير بعدها لمفاوضات جادة مع ريتشارد، وبالطبع كانت هناك أسباب أخرى تخص الداخل الإسلامي ساعدت على ذلك، كالضجر والتعب الذي أصاب العسكر، وكثرة الديون التي ترتبت عليهم.[١]

وفي العودة إلى رسل ريتشارد فقد وصلوا إلى المعسكر الإسلامي في ٢٦ جمادى الآخر ٥٨٨هـ/ ٩ تموز ١١٩٢م؛ أي بعد ثلاثة أيام من وصول رسل هنري، وفيها كان ريتشارد أميل إلى المسالمة والمصالحة على الرغم من بعض التهديد الذي حوته رسالته، وكان مما جاء فيها:

"إني راغب في مودتك وصداقتك، ولا يجوز لك أن تهلك المسلمين كلهم، ولا يجوز لي أن أُهلك الفرنج كلهم، وهذا ابن أختي الكندهري قد ملّكتُه هذه الديار، وسلّمته إليك ليكون هو وعسكره تحت حكمك، ولو استدعيتهم إلى الشرق سمعوا وأطاعوا، وإن جماعة من الرهبان المنقطعين قد طلبوا منك كنائس فما بخلت عليهم بها، وأنا أطلب منك كنيسة، وتلك الأمور التي كانت تضيق صدرك مما كان يجري في المراسلة مع الملك العادل تركتها وأعرضت عنها، ولو أعطيتني قرية أو خربة قَبِلتُها".[٢]

وبعد أن عرض صلاح الدين هذه الرسالة على أصحابه ومستشاريه أشاروا عليه بالملاينة والمحاسنة لريتشارد، وكان من جملة رد صلاح الدين على رسالته: "إنك إذ دخلت معنا هذا الدخول فما جزاء الإحسان إلا الإحسان، إن ابن أختك يكون عندي كبعض أولادي، وأنا أُعطيك أكبر الكنائس وهي

---

[١] ابن واصل: مفرج الكروب، ج٢، ص٣٩١.

[٢] ابن شداد: النوادر السلطانية، عن الموسوعة، ج١٥، ص٢٤٠. ووردت هذه الرسالة في ابن واصل: مفرج الكروب، ج٢، ص٣٩٠-٣٩١. أبو شامة: الروضتين، عن الموسوعة، ج١٩، ص٣٧٢. أمبرويز: رحلة ريتشارد، عن الموسوعة، ج٣١، ص١٨٨.

القمامة، وأما بقية البلاد فنقسمها"، فالساحلية التي بيد الفرنج تكون لكم، والداخلية تكون بيد المسلمين، وما بينهما يتم تقاسمه مناصفةً، أما عسقلان وما وراؤها فيكون خراباً لا لأحد.[١]

ويظهر هنا بشكل واضح تركيز صلاح الدين على قضية ابعاد الخطر الصليبي عن عسقلان وغزة؛ لأهمية وخطورة موقعهما على طريق دمشق – مصر، وأيضاً يظهر هنا تسارع الرسل بين الجانبين، ففي ٢٩ جمادى الآخر عاد رسول ريتشارد محملاً بالهدايا للسلطان، وفي هذه الرسالة وافق ريتشارد على القسمة (المناصفة) التي وضعها صلاح الدين، ولكنه أضاف مطلباً جديداً هو أن يكون للفرنج في القدس عشرون جندياً، وأن لا يتعرض أحد بسوء للنصارى والفرنج في القدس.[٢]

وخلال وجود رسول ريتشارد استنتج منه صلاح الدين بأن ريتشارد قد تنازل عن القدس بالكلية، باستثناء موضوع زيارته، كما استنتج منه ضيق الوقت لدى ريتشارد واضطراره للعودة إلى بلاده في أوربا.[٣]

وهنا تشدد صلاح الدين قليلاً في الإجابة على رسالة ريتشارد، واشترط في رسالة الرد أن: "القدس ليس لكم فيه حديث سوى الزيارة"، وأعاد تأكيده على خراب عسقلان وما يليها[٤] مع جعل مزارعها وقراها تابعةً للصليبيين تعويضاً لهم عن كثرة النفقات والعناء والأموال التي تكبدوها في إعادة اعمارها حسبما ألمح إليه رسول ريتشارد، واشترط صلاح الدين خراب الداروم وغيره من الحصون القريبة منه، وتكون هذه البلاد مناصفةً بين الطرفين، وبذلك يكون للفرنج من يافا إلى صور بأعمالها، وفي حال حدوث خلاف ما على أي قرية ستكون مناصفة بين الجانبين. وقد حمل رسول ريتشارد هذه الرسالة

---

[١] ابن واصل: مفرج الكروب، ج٢، ص٣٩١. ابن شداد: النوادر السلطانية، عن الموسوعة، ج١٥، ص٢٤١، أمبرويز: رحلة ريتشارد، عن الموسوعة، ج٣١، ص١٨٨. حومد، تاريخ الجهاد، ج١٦٣.

[٢] ابن شداد: النوادر السلطانية، ١٥، ص٢٤٢. أبو شامة: الروضتين، عن الموسوعة، ج١٩، ص٣٧٣.

[٣] ابن شداد: النوادر السلطانية، ١٥، ص٢٤٢.

[٤] ابن شداد: النوادر السلطانية، ١٥، ص٢٤٢. أبو شامة: الروضتين، ج١٩، ص٣٧٣.

بالإضافة إلى هدية من قبل صلاح الدين كرداً على هدية ريتشارد السابقة له، وذلك في الأول من رجب ٥٨٨هـ/ ١٣ تموز ١١٩٢ م.[١]

ما لبث أن عاد الرسول من قبل ريتشارد في ٣ رجب ٥٨٨هـ/ ١٥ تموز ١١٩٢ معلناً أن ريتشارد قد وافق على التنازل عن القدس بالكلية شريطة أن يكون للفرنج ممثلون فيها، وأن يكون في القدس رهبان وقساوسة في كنيسة القيامة وغيرها، ولكنه اشترط عدم تخريب عسقلان والداروم ويافا ؛ بل إبقاؤها عامرة وحجته بأن الفرنج قد عارضوا ذلك، وبذلك يكون للصليبيين من الداروم جنوباً إلى أنطاكية شمالاً، وذكر في الرسالة أنه إذا وافق صلاح الدين على ذلك انتظم الصلح وتم توقيعه، وإلا فإن الفرنج لن يمكنوا ريتشارد من مغادرة فلسطين، وستعود الحرب سجالاً بين الطرفين، كما طلب ريتشارد في هذه الرسالة أن يدخل جميع الفرنج من يافا إلى أنطاكية في الصلح.[٢]

وكان رد صلاح الدين على هذه الرسالة بأن موضوع أنطاكية يجب أن يترك جانباً، فللمسلمين معهم شأن مستقل، "ورسلنا عندهم، فإن عادوا بما نريد أدخلناهم في الصلح؛ وإلا فلا"[٣]، وأما سور عسقلان فلا بدَّ من خرابه والملك يتلقى تعويضاً عن ذلك مدينة اللد، وسيَّر صلاح الدين الحاج يوسف مع رسول ريتشارد بهذا الرد في الرابع من رجب/ ١٦تموز .[٤]

وفي صباح السابع من رجب عاد الحاج يوسف بمفرده رسولاً من قبل ريتشارد، وجرت العادة بأن يكون هو ورسول ريتشارد معاً، وبدوره أخبر الحاج يوسف صلاح الدين برسالة ريتشارد التي كان فحواها أنهم لا يستطيعون أن يخربوا من سور عسقلان حجراً واحداً.[٥]

---

[١] ابن شداد: النوادر السلطانية، عن الموسوعة، ج١٥، ص٢٤٢.أبو شامة: الروضتين، عن الموسوعة، ج١٩، ص٣٧٣. حومد: تاريخ الجهاد، ج٢، ص١٦٤.

[٢] ابن شداد: النوادر السلطانية، عن الموسوعة، ج١٥، ص٢٤٢-٢٤٣. أبو شامة: الروضتين، عن الموسوعة، ج١٩، ص٣٧٣. رنسيمان: تاريخ الحروب، ج٣، ص١٣٣. حومد: تاريخ الجهاد، ج٢، ص١٦٤. الدبلوماسية الأيوبية،ص٢٧.

[٣] أبو شامة:الروضتين، عن الموسوعة، ج١٩، ص٣٧٣.

[٤] أبو شامة:الروضتين، عن الموسوعة، ج١٩، ص٣٧٤. وللاستزادة: ابن شداد: النوادر السلطانية، عن الموسوعة، ج١٥، ص٢٤٣. حومد: تاريخ الجهاد، ج٢، ص١٦٤.

[٥] أبو شامة:الروضتين، عن الموسوعة، ج١٩، ص٣٧٤. ابن شداد:النوادر السلطانية، عن الموسوعة، ج١٥، ص٢٤٣.

وكانت تلك الرسالة من حيث الظاهر إيذاناً بانتهاء المفاوضات وعودة الصليبيين إلى ميدان القتال والمعارك، وفي الحقيقة أن ريتشارد – وإن كانت رسالته توحي بذلك– إلا أن مجريات الأحداث تثبت استمرار الرغبة الحقيقية لدى ريتشارد في توقيع الصلح، وذلك لشدة ما كان يعانيه من ضغوط خارجية قادمة من مملكته في أوربا تحثه على الإسراع في العودة، ويؤكد ذلك ما قام به ريتشارد خلال المفاوضات والجدل القائم بينهما على التفاصيل الدقيقة بأن ترك يافا ورحل إلى عكا، وقد أعدَّ خطته للإقلاع، وقد حصل على موافقة ومباركة الإسبتارية والداوية – كما تقدم ذكره– ويبدو أن خطته التي وضعها اقتضت بأن يزحف من عكا فجأة على بيروت فيستولي عليها، فيشكل بذلك أرضية مناسبة لتوقيع الصلح مع الجانب الإسلامي ومنها يُبحر إلى أوربا.[١]

عندما علم صلاح الدين بنية الفرنج قصد بيروت استدعى جيوشه، وخرج من القدس في ١٥ رجب/ ٢٧ تموز إلى الرملة ثم باتجاه يافا فوصلها في اليوم نفسه، وتمكن من السيطرة عليها في ١٨ رجب بعد معارك شرسة أدت إلى دمار جزء كبير من أسوارها، إلا أنه اضطر للانسحاب منها بعد عودة ريتشارد إليها كما تقدم ذكره.

ومن يافا وعلى الفور أعاد ريتشارد حديث الصلح مع صلاح الدين لعدة أسباب، هي على حد وصف أمبرويز(٢):

أ- التعب والجهد الكبير الذي بُذل في المعركة أدى إلى سقوط ريتشارد مريضاً وتدهور صحته، بالإضافة إلى عدد آخر من الفرسان.

ب- الروائح التي انبعثت من أجساد الموتى المتفسخة أفسد المناطق المجاورة، وكادت أن تتسبب في موت بعض الأحياء.

ت- الخلافات والنزاعات التي بدأت تبرز داخل المعسكر الفرنجي بسبب الاعتراض على سفر ريتشارد إلى عكا بهدف الاستشفاء، وعدم قبول كل من الإسبتارية والداوية ولا حتى هنري دي شامبين Henry of Champagne البقاء في يافا لحمايتها من قوات المسلمين

---

[١] راجع: أبو شامة:الروضتين، عن الموسوعة، ج١٩، ص٣٧٤. رنسيمان: تاريخ الحروب، ج٣، ص١٣٤.

[٢] أمبرويز: رحلة ريتشارد، عن الموسوعة، ج٣١، ص٢٠٧-٢٠٨.

المتربصة بها، مما أغضب ريتشارد وأزعجه كثيراً، لتأكده من ضعف الاهتمام بالقضية الصليبية داخل معسكره.

وبناءً على ماتقدم آثر ريتشارد الصلح مع صلاح الدين خشية وقوع مملكة القدس اللاتينية الثانية فريسة بيد المسلمين، وفي ١٩ رجب أرسل رسالته مع أبي بكر العادلي الحاجب إلى صلاح الدين جاء فيها: "بالله عليك أجب سؤالي في الصلح، فهذا أمر لا بدّ له من آخر، وقد هلكت بلادي وراء البحر وما دوام هذا مصلحة لا لنا ولا لكم"[١].

ويبدو أن هذه الرسالة مع ما فيها من اللين والخضوع إلا أنها أتت من موقع قوة، فريتشارد أرسلها عقب تحقيقه نصراً خاطفاً رائعاً في يافا، وبالمجلس نفسه الذي حمَّل أبا بكر العادلي هذه الرسالة كان يسخر من التراجع السريع لقوات المسلين أمامه.[٢]

وبعد أن استشار السلطان أصحاب المشورة بالنسبة إليه أرسل لريتشارد مؤكداً له ضرورة خراب عسقلان بعد أن خُربت يافا، ويكون للفرنج بين صور وقيسارية فقط. وردّ عليه ريتشارد طالباً يافا وعسقلان على سبيل الإقطاع والتبعية، حيث جاء في رسالته بهذا الخصوص: "وتكون عساكرهما في خدمتك دائماً"[٣]، فوافق صلاح الدين على التنازل عن يافا، وأصرَّ على الاحتفاظ بعسقلان، وردّ عليه ريتشارد بالشكر والتقدير لإعطائه يافا، وكرر طلب عسقلان، وألمح له أنه إن لم يتم الأمر مسرعاً ويوقع الصلح خلال ستة أيام فإنه سيبقى طيلة الشتاء في المنطقة دون أن يغادر إلى مملكته.[٤]

ويبدو أن ريتشارد أراد في هذه الرسالة أن يُسرّع عجلة المفاوضات، ويدفع صلاح الدين إلى توقيع الصلح بأسرع وقت ممكن عن طريق توجيه تهديد لطيف له بإنهاء تلك المفاوضات، واستئناف الأعمال

---

[١] ابن شداد: النوادر السلطانية، عن الموسوعة، ج١٥، ص٢٥١. أبو شامة: الروضتين، عن الموسوعة، ج١٩، ص٣٧٧. ابن واصل: مفرج الكروب، ج٢، ص٣٩٩.

[٢] ابن شداد: النوادر السلطانية، عن الموسوعة، ج١٥، ص٢٥١. ابن واصل: مفرج الكروب، ج٢، ص٣٩٨.

[٣] ابن شداد: النوادر السلطانية، عن الموسوعة، ج١٥، ص٢٥٢.ابن واصل: مفرج الكروب، ج٢، ص٣٩٩. للاستزادة أنظر: أبو شامة:الروضتين، عن الموسوعة، ج١٩، ص٣٧٧-٣٧٨. رنسيمان: تاريخ الحروب، ج٣، ص١٣٦. حومد: تاريخ الجهاد، ج٢، ص١٦٧.

[٤] ابن شداد: النوادر السلطانية، عن الموسوعة، ج١٥، ص٢٥٢. العماد: الفتح القسي، عن الموسوعة، ج١٣، ص٤١٢. أبو شامة:الروضتين، عن الموسوعة، ج١٩، ص٣٧٧-٣٧٨. ابن واصل: مفرج الكروب، ج٢، ص٤٠٠.

العسكرية متجاهلاً واقعه السيء الذي كان خصمه يعلمه تماماً، فجاء الرد عليه شديداً وحازماً من قبل صلاح الدين حيث رفض التنازل بالمطلق عن عسقلان، وذكَّره بضعف موقفه وموقف الفرنج عامة مقابل قوة المسلمين، وألمح إليه أنه غير عابئ كثيراً بسفره أو بقائه، فهو - أي صلاح الدين- في أرضه ووطنه وبين أولاده، والمسلمون يرون أن الجهاد أقرب القربات إلى الله.[١]

وبذلك أخفقت هذه الجولة من المفاوضات، وبرزت خلالها أن عسقلان هي العقبة الكؤود التي لا يمكن تجاوزها، وذلك بسبب تمسك كلا الطرفين بها؛ ولأهمية موقعها، وغدا أمر الحرب وشيكاً، وأخذ كل من الطرفين يستعد لها.

ولا شك أن كلاهما كان يدرك في سريرته أن توقيع الصلح قد اقترب، فأراد أن يُصعد عسكرياً لتحقيق أكبر قدر من المكاسب والتنازلات الممكنة من جانب خصمه، وتلك هي السياسة العامة المتبعة في الحروب قديماً وحديثاً، وذلك يثبت بشكل قاطع تقدم وسبق الشخصيتين - صلاح الدين وريتشارد - لعصريهما في فن السياسة والدبلوماسية.

وفي ٢٣ رجب ٥٨٨/ ٤ آب ١١٩٢م شن صلاح الدين هجوماً على المعسكر الفرنجي خارج يافا، إلا أنه أخفق به، ولم يحقق نجاحاً بفضل قوات ريتشارد وحنكته العسكرية وقد تقدم شرح ذلك، وأعاد صلاح الدين تجميع قواه في الرملة استعداداً لجولة أخرى.[٢]

وفي تلك الأثناء ازداد ألم مرض الحمى على ريتشارد ووصلته الفاكهة والكمثرى والثلج بناءً على طلبه من صلاح الدين، وكما يذكر ابن شداد فقد كانت غاية صلاح الدين من ذلك كشف أوضاع المعسكر الفرنجي من خلال تردد الرسل بينهما[٣]، وتزامن ذلك مع تجدد بعض الخلافات داخل المعسكر

---

[١] ابن شداد: النوادر السلطانية، عن الموسوعة، ج١٥، ص٢٥٢. العماد: الفتح القسي، عن الموسوعة، ج١٣، ص٤١٢. ابن واصل: مفرج الكروب، ج٢، ص٤٠٠.

[٢] انظر ما تقدم ذكره في الحديث عن العلاقات العسكرية، وانظر: ابن شداد: النوادر السلطانية، عن الموسوعة، ج١٥، ص٢٥٤-٢٥٥.

[٣] ابن شداد: النوادر السلطانية، عن الموسوعة، ج١٥، ص٢٥٦. للاستزادة أنظر: ابن واصل: مفرج الكروب، ج٢، ص٤٠٢. غروسيه، ص٢٣٥.

الصليبي وانشقاق الفرنسيين وعدم طاعتهم لريتشارد،[١] لذا تطلع الأخير إلى إعادة إحياء المفاوضات مع صلاح الدين، وفي قرارة نفسه قد تخلى نهائياً عن عسقلان، ولكنه لم يظهر ذلك في الرسالة التي أرسلها لصلاح الدين، ربما رغبةً منه في تحسس نوايا صلاح الدين الذي كان قد أخفق بهجومه الأخير، وتلقى جيشه ضربة كبيرةً خارج يافا، فلعله يقدّم بعض التنازلات، إلا أن صلاح الدين ردَّ بالإصرار على التمسك بعسقلان، وهنا حاول ريتشارد إعادة تفعيل دور العادل – الذي كان قرب القدس– في هذه المفاوضات، فتوسط لديه لإقناع صلاح الدين بالتخلي عن عسقلان أو دفع تعويض عنها، ولكن دون جدوى.[٢]

### ٥- صلح الرملة ٢١ شعبان ٥٨٨هـ/ ٢ أيلول ١١٩٢م

حقيقةً أن صلاح الدين لم يَقِلَّ رغبة عن خصمه في الصلح، وقد جاء في جملة رده على أخيه العادل في ١٧ شعبان ٥٨٨هـ/ ٢٩ آب ١١٩٢م: "إن نزلوا عن عسقلان فصالحناهم، فإن العسكر قد ضجروا ملازمة البيكار، والنفقات قد نفدت"[٣]. ويبدو أن الصلح كان ممكناً منذ أمد لولا عسقلان التي شكلت حجر عثرة أمام المفاوضات، إذ أصر الطرفان على الاحتفاظ بها.

ولا بدّ من ذكر أن حادثة يافا كانت درساً قاسياً لن ينساه صلاح الدين؛ إذ أمر العسكر بالحملة على الفرنج فتقاعسوا عن ذلك، ويبدو أن صلاح الدين أخذ يخشى أن يحتاج لعسكره فلا يجدهم، لذا آثر أن يمنحهم وقتاً للاستراحة وتغيير الحال، بالإضافة إلى حاجة البلاد للإعمار بما في ذلك مدينة القدس التي تحتاج إلى كثير من التحصين والآلات الحربية لحمايتها من أي طارئ.[٤]

أما على الجانب الصليبي فقد تدهورت صحة ريتشارد في تلك الأثناء، وربما تراءى له أنه إن لم يعجل بالعودة إلى بلاده فلربما يدركه الموت في الشام، وتزامن ذلك مع سوء أحوال مملكته في الغرب الأوربي، واعتداءات أخيه على السلطة فيها، كل ذلك جعله يُسرع في تدبير أمر عودته إلى أوربا،

---

[١] ابن شداد: النوادر السلطانية، عن الموسوعة، ج١٥، ص٢٥٥. رنسيمان: تاريخ الحروب، ج٣، ص١٣٩. حومد: تاريخ الجهاد، ج٢، ص١٦٨.

[٢] ابن شداد: النوادر السلطانية، عن الموسوعة، ج١٥، ص٢٥٦. ابن واصل: مفرج الكروب، ج٢، ص٤٠٢. رنسيمان: تاريخ الحروب، ج٣، ص١٣٩.

[٣] ابن شداد: النوادر السلطانية، عن الموسوعة، ج١٥، ص٢٥٦. ابن واصل: مفرج الكروب، ج٢، ص٤٠٣.

[٤] انظر: ابن شداد: النوادر السلطانية، عن الموسوعة، ج١٥، ص٢٥٨.

ويضيف رنسيمان إلى ذلك: "ما أظهره ابن أخته هنري والطوائف الدينية الحربية من أنهم لم يثقوا في سياسته"[١]. كل تلك الأمور كانت تضغط على ريتشارد لتحقيق الصلح مع صلاح الدين لتدعيم موقف مملكة الصليبيين الناشئة قبل مغادرته لها، فمجريات الحروب الماضية أثبتت أنه لا صمود لهذه المملكة إطلاقاً أمام صلاح الدين بدون ريتشارد وجيشه، وليست حادثة يافا ببعيد، حيث قال عنها ريتشارد: "والله العظيم الكريم ما ظننت أنه يأخذ يافا في شهرين، فكيف أخذها في يومين؟!"[٢].

وبناءً على ذلك أرسل ريتشارد في ١٧ شعبان ٥٨٨هـ/ ٢٩ آب ١١٩٢م خمسة أشخاص إلى قائد الطليعة الواقفة في مواجهة الفرنج بدر الدين دلدرم ليخبره أن يخبر صلاح الدين بأن ريتشارد قد تنازل نهائياً عن عسقلان بما في ذلك المطالبة في التعويض عما خسره في عمارتها وبنائها، وهو جادٌّ في توقيع الصلح.[٣]

وفي يوم الأحد ١٩ شعبان/ ٣١ آب كتب صلاح الدين جوابه إلى ريتشارد، أو ما يسمى مسودة الصلح، وفيه الحدود الدقيقة بين الطرفين، وتم فيها تحديد المناطق التي ستكون ضمن نفوذ الصليبيين، كما حدد بها اليوم الذي سيتم به توقيع الصلح والحلفان، وهو ٢١ شعبان/ ٢ أيلول، وجدير بالذكر هنا أن صلاح الدين قطع بذلك طريق المماطلة والمناورة أمام ريتشارد؛ إذ اشترط عليه في هذه الرسالة أن يوافق عليها جملة واحدة وإلا "يكون الأمر قد انفصل من بيننا"[٤]، وتنتهي المفاوضات، ومعها سينتهي الحديث عن الصلح.

لم يكن أمام ريتشارد إلا الإذعان والموافقة على هذه الرسالة جملة واحدةً دون أن يمتنع عن إظهار رغبته بالمزيد من المناطق وترجى صلاح الدين أن يمنَّ بها عليه، حيث قال لرسله: "قولوا للسلطان مبارك، رضيت بهذه القاعدة، وقد رجعت إلى مروءتك فإن زدتني شيئاً فمن فضلك وإنعامك"[٥]، وما كان من

---

[١] رنسيمان: تاريخ الحروب، ج٣، ص١٣٩. وللاستزادة: أمبرويز: رحلة ريتشارد، عن الموسوعة، ج٣١، ص٢٠٧-٢٠٩.

[٢] ابن شداد: النوادر السلطانية، عن الموسوعة، ج١٥، ص٢٥١.

[٣] ابن شداد: النوادر السلطانية، عن الموسوعة، ج١٥، ص٢٥٧. حومد: تاريخ الجهاد، ج٢، ص١٦٨.

[٤] ابن شداد: النوادر السلطانية، عن الموسوعة، ج١٥، ص٢٥٧.

[٥] ابن شداد: النوادر السلطانية، عن الموسوعة، ج١٥، ص٢٥٨.

صلاح الدين الذي تعوَّد كرمه وشهامته الصديق والعدو، القريب والبعيد إلا أن جعل اللد والرملة مناصفةً بينهما.[١]

وفي ٢١ شعبان/ ٢ أيلول سار العادل إلى ريتشارد -وهو اليوم الذي كان قد حدده صلاح الدين من قبل - حاملاً العرض والنسخة الأخيرة للصلح وتفاصيله الدقيقة، فأوكل ريتشارد مهمة الاطلاع عليها لأعوانه بحجة المرض، وأنه لا طاقة له في الوقوف على تفاصيلها، معلناً أنه قد وافق عليها سلفاً، واجتمع الوفد الإسلامي بنواب ريتشارد بما فيهم هنري، وأطلعوهم على تفاصيل مسودة الصلح النهائية، واتفقوا على أن يتم الحلفان على الصلح في اليوم التالي؛ لأنهم كانوا قد أكلوا شيئاً، وليس من عاداتهم الحلف بعد الأكل.

وفي اليوم التالي الأربعاء ٢٢ شعبان/ ٣ ايلول عاهد الوفد الإسلامي ريتشارد على الصلح، وحلف جماعته بذلك باستثنائه، بحجة أن الملوك لا يحلفون، وكان ممن أقسم على هذا الصلح نيابةً عنه الكونت هنري دي شامبين Henry of Champagne، وباليان بن بارزان صاحب طبرية، وسائر مقدمي الطوائف الدينية في مملكة القدس اللاتينية الثانية.[٢]

وفي اليوم التالي وصل رسل ريتشارد، وأهمهم ابن الهنفري[٣] وباليان[٤] إلى صلاح الدين ليتم التوقيع والحلفان على المعاهدة من الجانب الإسلامي، فأخذوا بيده وعاهدوه على الصلح بموجب الشروط التي تم الاتفاق عليها، وقد أعطى صلاح الدين لهم يده فقط، ولم يُقسم على الصلح مثلما فعل ريتشارد، وأقسم نيابةً عنه أخوه العادل، وولديه الأفضل والظاهر، والملك المنصور صاحب حماة، والملك المجاهد صاحب حمص، والملك الأمجد صاحب بعلبك، والأمير بدر الدين الياروقي صاحب تل باشر،

---

[١] ابن شداد: النوادر السلطانية، عن الموسوعة، ج١٥، ص٢٥٨.

[٢] ابن شداد: النوادر السلطانية، عن الموسوعة، ج١٥، ص٢٥٩. ابن واصل: مفرج الكروب، ج٢، ص٤٠٣.

[٣] هو ابن أونفروا، الزوج الأول للملكة إيزابيل، وقد تقدم الحديث عنه في الفصل الثالث.

[٤] هو باليان دي ابلين، والد يوحنا سيد بيروت.

وسابق الدين عثمان بن الداية صاحب شيزر، والأمير سيف الدين المشطوب، بالإضافة إلى عدد من المقدمين والأمراء.[١]

وكذلك سيَّر صلاح الدين مع رسل ريتشارد رُسلاً إلى أمرائه المجاورين للصليبيين كي يحلفوا لهم على هذا الصلح، بالنسبة إلى أنطاكية وطرابلس فقد حلف المسلمون لهم ولكن علَّق صلاح الدين اليمين بشرط حلفهم للمسلمين، وتم ذلك.[٢] كما أمر النقابين أن يسيروا إلى عسقلان لإخراج الفرنج منه ولتخريب سورها، ويكون مع النقابين جماعة من الإفرنج إلى حين يتم خراب السور خشية إبقائه عامراً، وكان ذلك ضمن شروط الصلح[٣].

## شروط صلح الرملة

١- مدة الصلح ثلاث سنوات وثلاثة أشهر.

٢- تكون كل من المناطق الآتية تحت نفوذ الصليبيين:

أ- يافا وأعمالها باستثناء يبنا ومجدل يابا، وتكون اللد والرملة مناصفة[٤].

ب- قيسارية وأعمالها.

ت- أرسوف وأعمالها.

ث- حيفا وأعمالها.

ج- عكا وأعمالها باستثناء الناصرية وصفورية.

٣- تكون عسقلان خراباً بيد المسلمين، ويتم خرابها بمشاركة الطرفين قبل أن يتسلمها المسلمون.

٤- تكون البلاد الداخلية بيد المسلمين، بما في ذلك القدس وصيدا وبيروت وجبيل.

---

[١] أبو شامة:الروضتين، عن الموسوعة، ج١٩، ص٣٨٠-٣٨١. ابن شداد: النوادر السلطانية، عن الموسوعة، ج١٥، ص٢٥٩-٢٦٠. ابن واصل: مفرج الكروب، ج٢، ص٤٠٤.

[٢] أبو شامة:الروضتين، عن الموسوعة، ج١٩، ص٣٨١. ابن شداد: النوادر السلطانية، عن الموسوعة، ج١٥، ص٢٦٠.

[٣] ابن شداد: النوادر السلطانية، عن الموسوعة، ج١٥، ص٢٦٠. النويري: نهاية الأرب، ٢٨، ص٤٣٦.

[٤] ابن شداد: النوادر السلطانية، عن الموسوعة، ج١٥، ص٢٥٧، ٢٥٩.

٥- دخول البلاد الإسلامية جميعها في هذا الصلح، بما في ذلك بلاد الإسماعيلية، وكذلك الصليبيون أجمع، بما في ذلك إمارة أنطاكية وكونتية طرابلس وفق آخر صلح صالحهم عليه المسلمون.[١]

٦- حرية الحج للمسيحيين إلى بيت المقدس دون مطالبتهم بأي ضريبة.

وبذلك تكون المناطق المتنازع عليها مثل عسقلان وغزة والداروم ويبنى واللد وتل الصافية جميعها بيد المسلمين.[٢] وبهذه الشروط تكون قد ارتسمت الخطوط الأخيرة لمملكة القدس اللاتينية الثانية التي لم يزد عرضها عن عشرة أميال، وأما طولها فبلغ تسعون ميلاً[٣].

بعد أن تم الانتهاء من حلفان اليمين على تلك الشروط أمر السلطان صلاح الدين "المنادي أن ينادي في الوطاقات والأسواق ألا أن الصلح قد انتظم في سائر بلادهم، فمن شاء من بلادهم أن يدخل إلى بلادنا فليفعل، ومن شاء من بلادنا أن يدخل إلى بلادهم فليفعل"[٤]. ويصف ابن شداد وأبو شامة الفرح والسرور الذي عمَّ كلا الجانبين بعد توقيع الصلح؛ لطول أمد الحرب، وما تبعها من متاعب ارتاح الناس منها في هذا الصلح.[٥]

وعلى عكس عامة الشعب يبدو أن صلاح الدين - كما يذكر ابن شداد- لم يكن راغباً بهذا الصلح، ولم يكن ليقبل به لولا أن الظروف اضطرته إلى ذلك، ولو أن الرياح سارت كما تشتهي سفنه لما وقَّع صلحاً معهم حتى يتم تحرير بلاد الشام منهم بشكل كامل.

كما أنه أبدى تخوفه من الصلح خشية أن يستغله الفرنج في إعادة ترتيب أوضاعهم، وأبدى تخوفه من تخلي ورثته عن قاعدة الجهاد وانشغالهم بالمؤامرات فيما بينهم، فيقول ابن شداد: "والله العظيم،

---

[١] ابن شداد: النوادر السلطانية، عن الموسوعة، ج١٥، ص٢٥٧-٢٥٩. الفتح القسي، عن الموسوعة، ج١٣، ص٤١٤، ٤١٦. ابن واصل: مفرج الكروب، ج٢، ص٤٠٣. أمبرويز: رحلة ريتشارد، عن الموسوعة، ج٣٠، ص٢٠٨-٢٠٩. زكار: الموسوعة، ٣، ص٣٩٧. الخريسات: السياسة الأيوبية، ص١٠. قلعجي، ص٤٢٧.

[٢] راجع الفتح القسي، عن الموسوعة، ج١٣، ص٤١٦. زكار: الموسوعة، ٣، ص٣٩٧.

[٣] رنسيمان: تاريخ الحروب، ج٣، ص١٤٦.

[٤] أبو شامة:الروضتين، عن الموسوعة، ج١٩، ص٣٨٤.

[٥] ابن شداد: النوادر السلطانية، عن الموسوعة، ج١٥، ص٢٦٠. أبو شامة:الروضتين، عن الموسوعة، ج١٩، ص٣٨١-٣٨٣. زكار: الموسوعة، ٣، ص٣٩٧.

إن الصلح لم يكن من إيثاره، فإنه قال لي في بعض محاوراته في الصلح: أخاف أن أصالح، وما أدري أي شيء يكون مني، فيقوى هذا العدو، وقد بقيت لهم هذه البلاد فيخرجوا لاسترداد بقية بلادهم، ونرى كل واحد من هؤلاء الجماعة – يقصد أخيه وأبناءه– قد قعد في رأس قلعته يعني حصنه، وقال: لا أنزل فيهلك المسلمون"[١].

وهنا يظهر بوضوح تخوف صلاح الدين من ضعف الجبهة الأيوبية بعد وفاته أو غيابه عن الساحة السياسية،كما خشي أن يؤدي ذلك إلى تزايد قوة الصليبيين مما يدفعهم للخروج عن شروط الصلح وشن حرب لاستعادة ما سبق أن كان بأيديهم من البلاد الإسلامية، وما لهذا من آثار سلبية في المسلمين.

وفي التعقيب على موقف الطرف الآخر (الصليبي) من الصلح يبدو أن ريتشارد أيضاً لم يكن مقتنعاً بهذا الصلح وفق هذه الشروط، وإنما ظروفه هي التي أملت عليه ذلك، وعند النظر إلى الصلح وشروطه من زاوية واقع ريتشارد والظروف التي أحاطت به، تبدو شروط الصلح جيدة بالنسبة إليه أيما كانت، وذلك لما كان يعانيه آنذاك من مرض شخصه وتعب عسكره داخل صفوف الجيش، وسوء أحوال مملكته الغربية التي لم تتوقف عن إرسال طلبات الاستغاثة له. ويمكن القول: إن هذه أول حملة صليبية تنتهي إلى عقد صلح أو اتفاق مع العرب– المسلمين، وتقبل بالواقع وتسعى للتعايش السلمي.

وعند التدقيق في صلح الرملة والظروف التي قادت له يظهر أنه لم يكن صلحاً بمعنى الكلمة، كما أنه لم يكن معاهدة سلام دائمة، وإنما هدنة مؤقتة قصيرة الأمد، من شأنها توفير الراحة لكلا الطرفين وإعادة ترتيب الصفوف، وطلب الإمدادات وتنظيم الأوضاع الداخلية.

ولا بدّ من الإشارة إلى أنه لا يوجد بهذا الصلح أدنى اعتراف للصليبيين بأي حق لهم على أرض فلسطين، فكما تقدم فإن كل ما تم تقريره في هذا الصلح هو إيقاف القتال، ولمدة محدودة.

ولا يمكن التقليل من أهمية المناطق التي منحت للصليبيين بموجب هذه المعاهدة، فتخلي الصليبيين عن القدس مقابل استيلائهم على المناطق الساحلية وفَّر لهم مكاسب تجارية كبيرة، ولا سيما أن جوهر

---

[١] ابن شداد: النوادر السلطانية، عن الموسوعة، ج١٥، ص٢٦٠. للاستزادة أنظر: أبو شامة:الروضتين، عن الموسوعة، ج١٩، ص٣٨٤. الذهبي: تاريخ الإسلام، ج٤١، ص٣٥٩. النعيمي، عبد القادر بن محمد: الدارس في تاريخ المدارس، تح: إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، ط١، ١٩٩٠م، ج٣، ص١٤٢. عاشور، الحركة الصليبية، ج٢، ص١٥٨.

ومركز التجارة آنذاك هي عكا التي كانت ضمن أملاكهم، وعاصمةً لمملكتهم التي رسموا حدودها بموجب هدا الصلح، وهي "مملكة القدس اللاتينية الثانية"، بالإضافة إلى أهمية عكا كان هناك أيضاً يافا التي كان من شأنها تسهيل وصول الحجاج المسيحيين إلى المناطق المقدسة لديهم، ودون شك أنه كان للتجار الإيطاليين دورهم في إقناع ريتشارد بالتخلي عن القدس مقابل الساحل، ولا يخفى الحاجة الماسة لريتشارد بشكل خاص ولمملكة القدس بشكل عام لمساعدات المدن التجارية الإيطالية، سواءً في الميدان العسكري أم في ميدان نقل الطعام والمؤن والإمدادات.[١]

ولم يلبث أمير أنطاكية بوهموند الثالث أن أقر صلح الرملة، وحضر في ٢١ شوال ٥٨٨هـ/ نهاية تشرين الأول ١١٩٢م لزيارة صلاح الدين في بيروت عندما كان في طريقه من القدس إلى دمشق، وبالغ صلاح الدين في إكرامه واحترامه، وأنعم عليه بالعمق، وزرعان، ومزارع تعمل خمسة عشر ألف دينار، وتحسنت العلاقات بين الجانبين كثيراً بعد أن كانت سيئة جداً قبل صلح الرملة[٢]. وما يُلاحظ هنا أن أمير أنطاكية لجأ مباشرة إلى صلاح الدين لتوقيع الصلح ولبسط العلاقات بينهما دون وساطة هنري دي شامبين Henry of Champagne حاكم مملكة القدس اللاتينية الثانية، والممثل الأول للصليبيين في الشرق بشكل عام بعد رحيل ريتشارد.

ما إن تم توقيع صلح الرملة حتى عادت الحياة الطبيعية إلى فلسطين، واختلط العسكران، وظهرت التجارة كأول نشاط بارز بين الجانبين، وذهب جماعة من المسلمين إلى يافا بهدف التجارة،[٣] وأقبل الحجاج المسيحيون على بيت المقدس آمنين، فوصل خلق عظيم العدد منهم، وفتح لهم صلاح الدين أبواب القدس، وأرسل معهم الخفراء يحفظونهم حتى يرتدوا إلى يافا. ولما علم ريتشارد بكثرة أعداد الزائرين من الصليبيين خشي أن يغضب ذلك المسلمين فسيَّر إلى صلاح الدين يسأله منع الزوار باستثناء من

---

[١] للمزيد عن التجار الايطاليين والدور الذي شغلوه انظر: الدبلوماسية الأيوبية الصليبية، ص٣٢-٣٣. عن الطحاوي، حاتم عبد الرحمن، الاقتصاد الصليبي في بلاد الشام، عين للدراسات، ط١، ١٩٩٩م، ص١١٦. علي، علي السيد: العلاقات الاقتصادية بين المسلمين والصليبيين، عين للدراسات، ط١، ١٩٩٦م، ص٦٢، ٩٥، ١٣٥.

[٢] أبو شامة:الروضتين، عن الموسوعة، ج١٩، ص٣٩٤. العماد: الفتح القسي، عن الموسوعة، ج١٣، ص٤٢٢. تاريخ ابن خلدون، ج٥، ص٣٨٣. العليمي: الأنس الجليل، ج١، ص٣٩١-٣٩٣.

[٣] ابن شداد: النوادر السلطانية، عن الموسوعة، ج١٥، ص٢٦١. عاشور: الحركة الصليبية، ج٢، ص١٥٨.

يحمل علامة أو موافقة من جانبه، وهنا لا يستبعد أن ريتشارد أراد من وراء ذلك أغراض أخرى سياسية ودينية واقتصادية يُلزم بها بني جلدته ولم يُفصح عنها آنذاك.

ويُفهم من أمبرويز أن طلب ريتشارد من صلاح الدين منع الزوار أنه كان موجهاً ضد الفرنسيين الذين تقاعسوا عن تقديم المساعدة له في يافا في الأمس القريب، ولم يكونوا رهن اشارته في الأمس البعيد خلال المعارك والخلاف حول حصار القدس؛ لذا طلب من صلاح الدين منع زيارة القدس لكل من الفرنج الذين لا يحملون جواز سفر أو رخصة منه شخصياً أو من هنري دي شامبين Henry of Champagne، مما أغضب الفرنسيين بشكل كبير.[١]

إلا أن صلاح الدين بما عرف عنه من الشهامة وحسن الخلق أبى ذلك وردَّ عليه معتذراً بأن أولئك الحجاج قد وصلوا من ذلك البعد لزيارة هذا المكان الشريف؛ فلا أستحلُ منعهم، بل على العكس فإنه بالغ في إكرام هؤلاء الحجاج واحترامهم،[٢] وربما يُفسر موقفه هذا برغبته بألّا يكون هناك أي سلطة – ولو معنوية– لريتشارد على بيت المقدس، وأيضاً ربما أن صلاح الدين لم يرغب في إغضاب الحجاج المسيحيين الذين ينتمون إلى مناطق مختلفة خشية إثارة أممهم ضده من جديد.

وتظهر هنا الأهمية والخطورة الكبيرة من موقف صلاح الدين من الحجاج، وتظهر الحنكة السياسية والدبلوماسية والنظرة الإنسانية، إذ يبدو أنه أراد بموقفه ذاك أن يثبت للعالم المسيحي أنه لا توجد أي خطورة أو أي مشكلة على الشعائر المسيحية في حال وقوع أي من مقدساتهم بيد المسلمين.

وفي النهاية يمكن القول إن صلح الرملة كان سابقةً جيدةً في تاريخ العلاقات الإسلامية الصليبية، ففيه استن صلاح الدين وريتشارد طريقة جديدة للعلاقات بين الطرفين، وهي سُنة اللجوء إلى المفاوضات السلمية لحل معضلات الحرب وكوارثها، وكان لهذه السُنة أثرها الجميل في قابل الأيام. ويمكن القول إن توقيع هذا الصلح أو المعاهدة هو دليل واضح على أنه لم يكن هناك ثمة نصر لأي طرف على الآخر، وذلك يُذكِّر بقول غاستون بوتول عن المعاهدات بين الأطراف المتنازعة، إذ يقول: "ليست إلا شر السُبل

---

[١] أمبرويز: رحلة ريتشارد، عن الموسوعة، ج٣١، ص٢٠٩.

[٢] العماد: الفتح القسي، عن الموسوعة، ج١٣، ص٤١٧. ابن شداد: النوادر السلطانية، عن الموسوعة، ج١٥، ص٢٦١-٢٦٢. أبو شامة:الروضتين، عن الموسوعة، ج١٩، ص٣٨٤-٣٨٥. رنسيمان: تاريخ الحروب، ج٣، ص١٤٠. عاشور: الحركة الصليبية، ج٢، ص١٥٨.

المتبقية، أولاً بالنسبة إلى المحاربين أنفسهم، لأن المثل الأعلى للمقاتل ليس الوصول إلى تسوية، بل بلوغ النصر الكامل الذي يمحق العدو ويقهره، وفي هذه الحالة فإن المنتصر لا يباحث ولا يناقش، بل يملي القواعد مباشرة".[١]

بعد توقيع الصلح سرّح صلاح الدين عساكره ورحل إلى القدس في الرابع من رمضان/ ١٤ أيلول، واستمر فيها قرابة الشهر ينظر أحوالها ويعيد ترتيب أمورها، ثم رحل باتجاه القلاع الساحلية ليتفقّد أحوالها، ودخل دمشق في ٢٦ شوال، ولم تطل اقامته بها حيث اعتراه مرض الحمى، وتوفي في صبيحة يوم الأربعاء ٢٧ صفر ٥٨٩هـ/ ٣ آذار ١١٩٣م[٢]، أي بعد توقيع صلح الرملة بستة شهور، وتولى السلطنة بعده أبناؤه، وكان على رأسهم الملك الأفضل في دمشق.

فهل تحقق ما كان يخشاه صلاح الدين؟

ما مدى اتساق أو تباين السياسة الأيوبية مع الصليبيين قبل وبعد وفاة صلاح الدين؟

هذا ما سيتم بحثه في الفصل الآتي، وهنا يمكن اختصار القول: إنه بوفاة صلاح الدين فقدت الجبهة الإسلامية عامل قوة كبير فيها، وبدأت مرحلة جديدة من العلاقات مع الجانب الصليبي.

أما على الجانب الصليبي فيمكن القول إنه بتوقيع صلح الرملة انتهت الحملة الصليبية الثالثة، ورحل ريتشارد في الأول من شوال ٥٨٨هـ/ التاسع من تشرين الأول ١١٩٢م باتجاه مملكته في أوربا[٣]، وبذلك تكون الجبهة الصليبية أيضاً فقدت عامل قوتها في تلك المرحلة، حيث يبالغ أمبرويز في وصف عظمته وأهميته ومدى التخبط والحزن والأسى والخوف من المستقبل الذي ساد الأوساط الصليبية عند رحيله عنهم إلى الغرب الأوربي[٤]، وبغيابه أيضاً أصبحت هناك قيادة جديدة للصليبيين في عكا، وبدأت مرحلة جديدة مع المسلمين، كما سيأتي الحديث عنه في المبحث الآتي.

---

[١] بوتول، غاستون: معاهدات السلام عبر التاريخ، تر:جورج أبو كسم، الأبجدية للنشر، دمشق، ط١، ١٩٩٦م، ص٣٠

[٢] للمزيد راجع ابن شداد: النوادر السلطانية، عن الموسوعة، ج١٥، ص٢٦٦-٢٧٢. العليمي: الأنس الجليل، ج١، ص٣٩١-٣٩٣

[٣] تواريخ أسرة بلانتغنت، عن الموسوعة، ج٣٠، ص٢٥١.

[٤] أمبرويز: رحلة ريتشارد، عن الموسوعة، ج٣١، ص٢١٧-٢١٨.

## المبحث الثاني

## العلاقات الأيوبية مع مملكة القدس اللاتينية الثانية بعد صلاح الدين وريتشارد حتى توحيد التاج مع قبرص عام ٥٩٣هـ/ ١١٩٧م

### أولاً: أوضاع مملكة القدس بعد رحيل ريتشارد عام ٥٨٨هـ/ ١١٩٢م

تقدم الحديث عن إيزابيل وزوجها كونراد، وبعد أن سقط الأخير قتيلاً توجَّب عليها أن تقبل كراهيةً بهنري دي شمبانيا الذي كان فرنسياً، حفيداً لملك فرنسا لويس السابع، وأيضاً ابن أخي الملك الفرنسي فيليب اوغسطس من أبيه، وابن أخت ريتشارد ملك انكلترا من أمه.

في هذه الأثناء وبعد إبرام صلح الرملة سالف الذكر غادر ريتشارد المملكة تاركاً حكمها لهنري دي شامبين Henry of Champagn، وما لبث هنري أن أثبت جدارة عالية في قيادة المملكة ونشاطاً كبيراً وحرصاً شديداً على تدعيم نفوذه وتوطيد أركان مملكته بكل حزم وذكاء، وتمكن من إعادة الاعتبار إلى السلطة الملكية بعد انهيارها على يد غي دي لوزجنان Guy De Lusignan، وبالوقت نفسه تمكن من الاحتفاظ بصِلات ودٍّ مع الأيوبيين، وعلى طريقة ملوك القدس القديمين نفسها، فقد تدخّل في النزاع الخطير الناشب في سورية الشمالية بين أمير أنطاكية بوهموند الثالث وأمير كيليكيا الأرمني ليون الثاني[١]، كما تمكن من توطيد العلاقة مع فرقة الحشيشية، وقام في عام ٥٨٩هـ/ ١١٩٣م بزيارة قلعتهم "الكهف"، وأقام مدة طويلة عند مقدمهم، وأعطوه كثيراً من الهدايا، وأصبحوا حلفاء، لدرجة أن مقدم الحشيشية أبدى استعداده لاغتيال أي شخصية يرغب بها هنري دي شامبين،[٢] ولكن علاقات الود هذه لم تستمر، لموته في حادثة سقوطه من على شرفة قصره أثناء استعراضه لقوة عسكرية- كما سلف شرحه في الفصل الثاني-.

وبغض النظر عن الرسالة التي أرسلها هنري إلى صلاح الدين التي تقدم ذكرها والتي جاء فيها كثير من الغرور والتهديد، وكان مسوغها في البحث أنها أرسلت بإيحاء من ريتشارد، ويبدو أن سياسة هنري تجاه صلاح الدين لم تكن أقل مسالمة عما كانت عليه مع الحشيشية، حيث يذكر ابن الأثير أن هنري

---

[١] عن تفاصيل هذا الصراع انظر: مجهول: ذيل تاريخ وليم، عن الموسوعة، ج٨، ص٤٧٠-٤٧٧.

[٢] مجهول: ذيل تاريخ وليم، عن الموسوعة، ج٨،ص٤٧٤-٤٧٥. غروسيه، ص٢٤٠. برنارد: الحشيشية، ص٣٤٦-٣٤٧

أرسل إلى صلاح الدين بعد سفر ريتشارد يستعطفه ويستميله ويطلب منه خلعة، وكان فيما قاله له في الرسالة: "أنت تعلم أن لُبْسَ العِبَاءِ والشربوش عندنا عيبٌ، وأنا ألْبَسُهُما منك محبَّةٌ لك"، ويضيف ابن الأثير أن صلاح الدين أرسلهما إليه وفرح بهما هنري، ولَبِسَهُما في عكا.[1]

وبالمجمل يمكن القول إن الصليبيين في مملكة القدس اللاتينية الثانية كانوا يعيشون بسلام في ظل قيادة هنري، واستمر ذلك حتى أعلن الإمبراطور الألماني هنري السادس عزمه على القيام بحملة صليبية على غرار حملة والده السالفة، وقبل أن يقوم بحملته هذه وجّه إلى سورية عدداً من الصليبيين الألمان فوصلوا إلى عكا في شوال ٥٩٣هـ/ أيلول ١١٩٧م، وكان سلوك هؤلاء سيئاً للغاية، وخارجاً عن إرادة حكام المملكة، وكانت النتيجة انتهاء العمل بالهدنة الموقعة بين الجانبين الإسلامي والصليبي كما سيأتي شرحه.

وعلى الرغم من الهدوء والسلام الذي عاشته مملكة القدس اللاتينية الثانية منذ توقيع صلح الرملة ٥٨٨هـ/١١٩٢م وحتى قدوم الحملة الألمانية عام ٥٩٣هـ/١١٩٧م، إلا أن ذلك لا يعني بالمطلق أنها كانت أقوى جانباً، وأصلب عوداً مما كانت عليه المملكة الأولى، فمن الواضح أن هذه المملكة افتقدت الاستقلال الذاتي والحرية الكاملة في القرارات والعمل بسبب اعتمادها منذ البداية على الغرب الأوربي لتجاوز الصعوبات التي وضعها أمامها الأيوبيون بشكل خاص، وهذا جعل القوى الغربية ولاسيما الجمهوريات الإيطالية تستغل مساندتهم لها في فرض نوع من الوصاية عليها والإمعان في التدخل في شؤونها، بالإضافة إلى عوامل الانشقاق والفرقة والبغضاء والتنافس بين عناصر الصليبيين في الشام، ولاسيما بين الفرنسيين والإنكليز التي ظهرت جلية أثناء الحملة الثالثة، وربما كان هذا الانشقاق والتنافس هو السبب الرئيسي في إخفاق الصليبيين في إعادة السيطرة على القدس، واستمروا على ذلك إلى ما بعد رحيل ريتشارد عن المملكة عائداً إلى مملكته فيما وراء البحار، مما أثَّر سلباً في قوة المملكة واستقلالها، وأدى إلى إضعاف مركز الصليبيين طيلة القرن الثالث عشر، ويذكر عاشور أنه "إذا كانت عوامل الضعف هذه لم تعمل في سرعة مما مكن مملكة القدس الثانية من أن تعيش في عكا قرناً كاملاً، فإن السبب في

[1] ابن الأثير: الكامل، ج١٠، ص١٠٦. للاستزادة أنظر: الذهبي: تاريخ الإسلام، ج٤١، ص٧٩.

ذلك إنما يرجع إلى الظروف التي أحاطت بالدولة الأيوبية خاصة والقوى الإسلامية في الشرق الأدنى عامة"[١].

بالإضافة إلى افتقاد المملكة للاستقلال الذاتي والحرية الكاملة فإن هنري دي شامبين Henry of Champagne واجه منافسة شديدة على وراثة العرش من قبل غي لوزجنان Guy De Lusignan، وما تبع ذلك من انحياز البيازنة إلى غي لوزجنان وتدبيرهم مؤامرة للسيطرة على صور وتسليمها له، وتمكن هنري في عام ٥٨٩هـ/ ١١٩٣م من إلقاء القبض على مدبري تلك المؤامرة، وأمر بتخفيض عدد جالية البيازنة إلى ثلاثين شخصاً فقط، مما أدى إلى اثارة حفيظة البيازنة وقيامهم بغارات انتقامية على القرى الساحلية الواقعة بين صور وعكا كما تقدم ذكره في الحديث عن وراثة العرش[٢]. يضاف إلى ذلك أن عدم تتويج هنري ملكاً أدى إلى إضعاف سلطته الداخلية، وحدوث بعض التمردات ضده كان أبرزها عام ١١٩٤م حيث اجتمع كبار رجال كنيسة القيامة في عكا لاختيار بطريركاً جديداً للمملكة ووقع الاختيار على رئيس أساقفة قيسارية ليتولى المنصب، وأرسلوا إلى روما للتصديق على هذا الانتخاب، وقد تم كل ذلك دون استشارة زعيم المملكة هنري، مما أدى إلى استيائه الشديد، وأمر بإلقاء القبض على رجال كنيسة القيامة، وكان ذلك إجراءً متسرعاً فيه الكثير من التعنت والتهور، حيث وجّه لهنري النقد الشديد جرّاء ذلك، وحجتهم في ذلك أنه لم يكن ملكاً متوجاً؛ لذا لا يحق له التدخل في هذا الأمر، ومن ثم اضطر هنري إلى إطلاق سراح المعتقلين.[٣]

وبالسياق نفسه وقع هنري في خلاف مع كند اسطبل المملكة (كفيل المملكة، وتعني المسؤول الأمني فيها)[٤] عموري (أملريك Amalric) لوزجنان أخو غي، وذلك لتأييده البيازنة والتدخل لصالحهم، مما جعل هنري يلقي القبض عليه في سنة ١١٩٤م، وبسبب تدخل مقدمي الإسبتارية والداوية لدى هنري تم إطلاق سراحه مقابل تخليه عن منصب كفيل المملكة، وهنا فضَّل أملريك اللجوء إلى يافا التي كان يحكمها أخوه جفري الذي نصَّبه الملك ريتشارد من قبل حاكماً عليها، وعلى الرغم من ذلك فإن أملريك لم يتخلَ عن منصب كفيل المملكة، إلا أن هنري أصرَّ على موقفه ورأى أن أملريك

---

[١] عاشور: الحركة الصليبية، ج٢، ص١٦٢.

[٢] للمزيد راجع، مجهول: ذيل تاريخ وليم، عن الموسوعة، ج٨، ص٤٢٥، ٤٥٣-٤٥٥.

[٣] رنسيمان: تاريخ الحروب، ج٣، ص١٥٦.

[٤] اديوري: قبرص والحروب الصليبية، ص٤٨

فقد حقه بذلك، وعيّن خلفاً له هو يوحنا ابلين بن باليان، وهو أخٌ غير شقيق لزوجته الملكة ايزابيل، وشاءت ظروف قبرص أن يتم استدعاء أملريك من يافا لحكمها بسبب وفاة أخيه غي بها عام ٥٩٠هـ/ ١١٩٤م، وهنا أُتيحت الفرصة ليوحنا ابلين للتفاوض والتقارب مع البيازنة، وتقرر عقد الصلح معهم بالعام نفسه، وتمت إعادة الحي الخاص بهم في عكا، واعترفوا بحكومة هنري دي شامبين Henry of Champagne بعد أن فقدوا الأمل بمرشح منافس له على العرش.[١]

لا شك أن هنري ارتاح لوفاة غيGuy ، فعقد الصلح مع البيازنة من مبدأ قوة، لتوطيد حكمه ولزيادة شعبيته وقوته في المملكة، وجدير بالذكر هنا أن العداوة بين هنري وأملريك تجددت بعد أن أصبح الأخير سيداً لقبرص؛ إذ طالب الأول بحق استشارته في ولاية الحكم في قبرص كونه ممثلاً لملوك بيت المقدس، ولكن أدرك الطرفان فيما بعد ضرورة تحقيق التفاهم والتحالف بينهما وضرورة العمل معاً، وبمسعى من كند اسطبل قبرص تم اعتراف هنري بأملريك (عموري) حاكماً على قبرص، وقام بزيارة له، وتم خلالها توطيد أواصر الصداقة والتعاون والتفاهم، ورتبا إقامة تحالف وثيق بينهما، وتم الاتفاق على تزويج أولاد أملريكAmalric الثلاث غويتين (جاي)، وهيو (هيوج أو هيوت)، وجوهانين (يوحنا)، من بنات الملكة ايزابيلا (ماريا وأليس وفيليا شامبانيا)، وبذلك راودهما الأمل بأن تتحد المملكتان في الجيل المقبل، غير أن اثنين من الأمراء القبارصة ماتا في سن مبكرة، ولم يثمر من تلك الزيجات إلا تلك التي جرت بين هيو وأليس، وكان لهذه الأسرة دور في توحيد سياسة المملكتين فيما بعد.[٢]

وبذلك ازدادت أهمية قبرص، وازداد اعتماد مملكة القدس اللاتينية الثانية عليها كونها أصبحت تمثل الخط الدفاعي الثاني عن المملكة في حال تعرضها لأي خطر مفاجئ من قبل الأيوبيين، بالإضافة إلى أنها أصبحت قاعدة الإمدادات الأولى لمملكة القدس، وهكذا أصبحت أوضاع المملكة تزداد استقراراً وتطوراً على يد هنري دي شامبين في ظل الهدوء الذي عاشته مع الجبهة الإسلامية.

---

[١] مجهول: ذيل تاريخ وليم، عن الموسوعة، ج٨، ص٤٥٣-٤٥٨. اديوري: قبرص والحروب الصليبية، ص٤٨. رنسيمان: تاريخ الحروب، ج٣، ص١٥٧.

[٢] مجهول: ذيل تاريخ وليم، عن الموسوعة، ج٨، ص٤٧٨-٤٧٩. رنسيمان: تاريخ الحروب، ج٣، ص١٥٨.

**ثانياً: أوضاع الأيوبيين الداخلية بعد وفاة صلاح الدين**

توفي صلاح الدين في ٢٧ صفر ٥٨٩هـ/ ٣ آذار ١١٩٣م تاركاً خلفه دولة واسعة الأرجاء يمتد جناحها الآسيوي من ديار بكر شمالاً إلى اليمن جنوباً، وجناحها الأفريقي من برقة شمالاً وإلى بلاد النوبة جنوباً.

يمكن القول: إن صلاح الدين ترك هذه الدولة واسعة الأرجاء غير وطيدة الأركان لانشغاله عن ترتيب أوضاعها الداخلية والادارية في الحروب على الجبهة الصليبية وانهماكه بذلك مدة حكمه. وبعد توقيع صلح الرملة عام ٥٨٨هـ/ ١١٩٢م لم تمهله المنية الوقت الكافي لوضع الأسس الداخلية لدولته، ولم يكن لديه وقت كافٍ لحل جميع المشكلات والمعضلات التي تكرست في دولته، لذا فإن وفاته تركت فراغاً سياسياً كبيراً لم يستطع أحد من أبنائه السبعة عشر أو أخوته أو أي أحد من أبناء تلك الأسرة أن يملأه.

وانفرط عقد دولته بعده وتمزقت بين أبنائه وورثته، ودخلت البلاد في حرب أهلية مريرة لم تنته إلا على يد أخيه العادل في عام ٥٩٨هـ/ ١٢٠٢م الذي تمكن من إعادة الوحدة لهذه الدولة.

وليس البحث هنا بصدد الخوض في هذه الحروب والنزاعات الداخلية التي عاشتها الدولة الأيوبية بعد صلاح الدين، فذلك مبحث مستقل، وقد استوفى حقه على أيدي كثير من الباحثين المختصين، ولكن من الضروري هنا الإشارة إلى التشرذم والانقسام الذي آلت إليه دولة صلاح الدين عقب وفاته فقط بما يخدم موضوع البحث "علاقة الأيوبيين مع مملكة القدس اللاتينية الثانية".

ويمكن القول: إن صلاح الدين اعتمد قبل وفاته على تعيين أولاده حكاماً على المناطق الرئيسية في بلاده، وبالإضافة إليهم استعان ببعض أقاربه، وقد تم تقسيم المملكة عقب وفاته على النحو الآتي:[1]

---

[1] العماد: الفتح القسي، عن الموسوعة، ج١٣، ص٤٣١-٤٣٦. ابن واصل: مفرج الكروب، ج٣، ص٣-٤. النويري: نهاية الأرب، ٢٨، ص٤٤٠. زكار: الموسوعة، ج٣، ص٤٠١. عاشور: الحركة الصليبية، ج٢، ص١٦٩. عمران، تاريخ الحروب الصليبية، ص١٨٥. أبو سعيد: الجبهة الإسلامية، ص١٧٦-١٧٧. حومد: تاريخ الجهاد، ج٢، ص١٧٣.

١- دمشق والساحل وبيت المقدس وصرخد وبانياس وهونين وتبنين وجميع الأعمال إلى الداروم جنوباً حتى حدود مصر جميعها كانت من نصيب الابن الأكبر لصلاح الدين وهو الأفضل نور الدين علي، ويتبع له كل من الملك الظافر خضر بن صلاح الدين في حكم بصرى وحوران، وأيضاً يتبع له الملك المجاهد أسد الدين شيركوه (ابن عم صلاح الدين) في حكم حمص والرحبة، والملك الأمجد بهرام شاه ابن أخ صلاح الدين في حكم بعلبك.

٢- مصر كانت من نصيب الملك العزيز عثمان بن صلاح الدين، وكان بها عند وفاة أبيه فاستولى عليها.

٣- حلب وجميع أعمالها - بما في ذلك تل باشر وحارم واعزاز وبروزيه ودربساك ومنبج وغير ذلك - كلها بيد الظاهر غازي منذ قبل وفاة صلاح الدين واستمر بعده.

٤- حماة وسلمية والمعرة ومنبج وقلعة نجم للملك المنصور محمد بن تقي الدين عمر، وبدوره يتبع لعمه الظاهر.

٥- اليمن للملك العزيز سيف الإسلام أخي صلاح الدين.

٦- الكرك والشوبك في الشام ومعها الرها وسميساط والرقة وقلعة جعبر وديار بكر وميافارقين في الجزيرة جميعها للملك العادل أخي صلاح الدين، وكان ذلك قليلاً بحقه لما تمتع به من خبرة سياسية وعسكرية تفوق أولاد أخيه بكثير.

٧- يضاف إلى ذلك العديد من القلاع والحصون والمدن الصغيرة موزعة على عدد كبير من أمراء الدولة الأيوبية[١]. ويضاف إلى ذلك تحرك أبناء البيوت القديمة كالزنكيين والأراتقة في الموصل والجزيرة لاسترداد حقوقهم المغتصبة في نظرهم[٢].

كان صلاح الدين قد أوصى قبل وفاته أن تكون السلطة العليا والطاعة في المملكة لابنه الأكبر الأفضل علي، ويجمع المؤرخون على أن الأخير لم يكن بالرجل المناسب آنذاك.[١]

---

[١] انظر: ابن واصل: مفرج الكروب، ج٣، ص٤. للاستزادة أنظر: Maher Y, Abu-Munshar: Sultan al-Kamil, Emperor Frederick II and the Submission of Jerusalem, International Journal of Social Science and Humanity, Vol 3, No 5, September 2013, p.p. 443-444.

[٢] رنسيمان: تاريخ الحروب، ج٣، ص١٥١. عاشور: الحركة الصليبية، ج٢، ص١٦٩.

والمهم أن الدولة الأيوبية غرقت بجملة من المشاكل والنزاعات والصراعات الداخلية أشغلتهم عن الفرنج، وجعلتهم يسعون جاهدين إلى استمرار الهدنة مع مملكة القدس اللاتينية الثانية، واستمر الحال على هذا المنوال لأكثر من سبع سنوات حيث تمكن خلالها العادل من إقصاء أبناء أخيه عن السلطة بمختلف الوسائل، واستلم زمام الحكم بنفسه في معظم أرجاء المملكة وتفرّد بها، وأرغمهم على الاعتراف له بذلك عام ٥٩٨هـ/ ١٢٠٢م، واستمر حتى وفاته في ٦١٥هـ/ ١٢١٨م.[٢]

ومن جديد أُعيدت الوحدة في سياسة الأيوبيين تجاه الصليبيين على يد العادل، وأصبح العادل هو صاحب الكلمة العليا في الدولة الأيوبية، فأخذ ينظّم دولته ويقسّم إدارتها بين أولاده، فولّى ابنه الأشرف موسى البلاد الشرقية (حران والرها)، وابنه الملك الأوحد ميافارقين، وفي قلعة جعبر كان ابنه الحافظ أرسلان شاه، وفي دمشق الملك المعظم شرف الدين عيسى، وفي مصر ولده الكامل محمد.[٣]

## ثالثاً: العلاقات الأيوبية مع مملكة القدس اللاتينية الثانية منذ صلح الرملة حتى قدوم الحملة الألمانية عام ٥٩٣هـ/ ١١٩٧م، وانعكاسات هذه العلاقات على حرب الوراثة الأيوبية عقب وفاة صلاح الدين

في ظل الظروف والأوضاع التي عاشها الطرفان بعد غياب الزعيمين صلاح الدين وريتشارد عن مسرح الأحداث، حاول الطرفان جاهدين الحفاظ على الهدنة الموقَّعة بين الزعيمين في الرملة عام ٥٨٨هـ/ ١١٩٢م، وكان كلاهما راغباً في استمرارها، فقد أبدى زعيم مملكة القدس هنري دي شامبين

---

[١] ابن واصل: مفرج الكروب، ج٣، ص٤-٥. المقريزي، تقي الدين أحمد بن علي، ت٨٤٥هـ: المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، تح: محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٧م، ج١، ص٢٣٣. ابن تغري بردي: النجوم، ججـ٦، ص١٢٢. زكار: الموسوعة، ٣، ص٤٠١-٤٠٢. أبو سعيد: الجبهة الإسلامية، ص١٧٧. عاشور: الحركة الصليبية، ج٢، ص١٧٠.

[٢] للمزيد عن الصراعات الداخلية وحرب الوراثة التي عاشتها الدولة الأيوبية راجع: ابن واصل: مفرج الكروب، ج٣، ص٤-١١٥. أبو الفداء: المختصر، ٣، ص٩٧-١٠٢. مجهول: ذيل تاريخ وليم، عن الموسوعة، ج٨، ص٤٧٩-٤٨٣. أبو سعيد: الجبهة الإسلامية، ص١٧٧-١٨٠. عاشور، الحركة الصليبية، ج٢، ص١٦٩-١٧٢. رنسيمان: تاريخ الحروب، ج٣، ص١٥١-١٥٥.

[٣] ابن نظيف الحموي، محمد بن علي: التاريخ المنصوري، تح: أبو العبد دودو، مطبعة الحجاز، مطبوعات مجمع اللغة العربية، دمشق، ص٢٤-٢٥. المقريزي: المقريزي: السلوك، ج١، ص٢٧١. أبو سعيد: الجبهة الإسلامية، ص١٨٨.

Henry of Champagne رغبة في تمديد الهدنة مع الأيوبيين بعد وفاة صلاح الدين، وشهدت العلاقات بين الطرفين مرحلة هدوء واستقرار على الرغم من التجاوزات والحالات الفردية التي كان يقوم بها بعض الأمراء في الطرفين.

فالفوضى التي عمّت الدولة الأيوبية إبّان حرب الوراثة جعلت من المتعذر الاحتفاظ بحالة من الاستقرار تضمن دوام السلم مع الصليبيين في مملكة القدس، ومثال ذلك عز الدين سامة أمير بيروت التابعة لدمشق آنذاك، فقد دأب على تسليح السفن لقطع الطريق على الصليبيين والاعتداء على مراكبهم ونهبها، وعبثاً شكاه الصليبيون إلى الملك العادل في دمشق وللعزيز عثمان في القاهرة، ولكن دون جدوى، ولم يكف عز الدين عن سياسته تلك، وتحمَّل الصليبيون في مملكة القدس بصبر بالغ اعتداءاته تلك واعتداءات أمثاله من الحكام المسلمين، واستمر الأمر على هذا المنوال حتى مجيء الألمان إلى بلاد الشام سنة ٥٩٣هـ/ ١١٩٧م حيث تعكّر الجو السياسي والعسكري وتحول إلى الفوضى.[١]

لا شك أن حرب الوراثة الأيوبية وصلت مسامعها سريعاً إلى الجارة مملكة القدس اللاتينية الثانية، ولا بد أن الأيوبيين قد علموا بذلك؛ إذ يذكر أبو شامة على لسان صليبيي مملكة القدس الذين أرسلوا إلى إمبراطور ألمانيا يشرحون له انحلال عقد المسلمين وسهولة السيطرة على القدس، فقال: "فإن المسلمين قد اشتغل بعضهم ببعض، ولهو عن كل سنة وفرض"[٢]، وفي ذلك دلالة واضحة على تنبه العلماء وبقية الشعب ورفضهم لمثل تلك الحروب –حروب الزعامة والسلطة-.

ويبدو أن هنري حاكم مملكة القدس قد استغل ذلك لإعادة قدر كبير من الأمن والطمأنينة لمملكته تلك، فعمل جاهداً بنصيحة مستشاريه من الابيلين، وهي سياسة التفاهم مع المسلمين، وأن ينتهج معهم دبلوماسية دقيقة، والعمل على الإيقاع بين أبناء صلاح الدين وأخوته وإذكاء نار الخلاف بينهم، وقد حقق هنري تقدماً في سياسته تلك، وأعاد قدراً كبيراً من الهدوء والطمأنينة إلى مملكته، واستمر الهدوء والسلام مع الجبهة الإسلامية.[٣]

---

[١] ابن الأثير: الكامل، ج١٠، ص١٤٥. رنسيمان: تاريخ الحروب، ج٣، ص١٧٠. عاشور: الحركة الصليبية، ج٢، ص١٧٣-١٧٤.

[٢] أبو شامة: عيون الروضتين، ج٤، ص٤٤٠.

[٣] رنسيمان: تاريخ الحروب، ج٣، ص١٧٠.

استمر ذلك الهدوء حتى بداية عام ٥٩٤هـ/ نهاية ١١٩٧م حيث تمكنت ستيفاني ميللي Stephany Milly (بنت أخت رينالدRinald سيد صيدا التي تُعدُّ وارثة لجبيل في عصر المملكة الأولى) تمكنت من السيطرة على جبيل (ببليوس)[١] بطريقة سلمية دون قتال، وذلك وفق اتفاق عقدته مع أميرها الكردي منحته بموجبها مبلغاً مالياً كبيراً، فتم ذلك، وأسندت ستيفاني حكم جبيل لابنها غي الأول امبرياكوGuy I Ambriaco،[٢] وبالعام نفسه ٥٩٤هـ/ ١١٩٧م قدِم الألمان في حملتهم إلى مملكة القدس.

وبالمجمل يمكن القول إن سياسة الطرفين قبل قدوم الحملة الألمانية تحرَّت الحفاظ على مضمون صلح الرملة، ومحاولة وأد أي مشكلة قد تؤدي لإنهاء ذلك الصلح، مما يفسر محدودية العمليات العسكرية بين الطرفين في تلك المرحلة التي أعقبت صلح الرملة وسبقت الحملة الألمانية.

**وعن انعكاسات هذه العلاقات الأيوبية الصليبية على حرب الوراثة عقب وفاة صلاح الدين** عام ٥٨٩هـ/ ١١٩٣م يمكن القول: إن الموقف الأيوبي ضعف أمام الموقف الصليبي عما كان عليه أيام صلاح الدين، إذ تقسَّمت الدولة الأيوبية من بعده بين أبنائه وورثته، وأصبح كل جزء منها تابعاً لشخص على الرغم من تعيين صلاح الدين لابنه الأفضل خلفاً له في السلطة، وسادت الفرقة والنزاعات.

لقد أبدى الطرفان (الصليبي والأيوبي) ارتياحاً كبيراً تجاه صلح الرملة، وحرص صليبيو مملكة القدس على تجديد هذا الصلح عقب وفاة صلاح الدين؛ إذ أرسل هنري إلى العزيز عثمان بهذا الشأن،

---

[١] تقع إلى الشرق من بيروت قليلاً بنحو ٢٠ ميلاً، وهناك تداخل كبير في المصادر بين هذه ومدن أخرى تحمل الاسم نفسه أو اسم جبلة، ولإيضاح ذلك اللبس هناك بحث متخصص بذلك هو: عامر، سامية: الصليبيون في فلسطين "جبيل- لبنان"، عين للدراسات والبحوث، ط١، ٢٠٠٢، ص٧-١٠.

(٢) دي فتري: المنتقى، عن الموسوعة، ج٣٣، ص٢٤٤-٢٤٥. النويري: نهاية الأرب، ٢٨، ص٤٤٢-٤٤٣. المقريزي: السلوك، ج١، ص٢٣١. رنسيمان: تاريخ الحروب، ج٣، ص١٧٠. عاشور: الحركة الصليبية، ج٢، ص١٧٤. Rey, E. G: Les Seigneurs de Giblet, in R.O.L. III, Paris 1900-1901, pp. 400-408.

وللمزيد هناك بحث كامل عن جبيل في عصر سيطرة الصليبيين، يتحدث عن التفاصيل الدقيقة لأحداث تسليم جبيل: سامية: الصليبيون في فلسطين "جبيل- لبنان"، ص٨٤-٨٧.

وتم له ذلك سنة ٥٩٠هـ/ ١١٩٤م[١]، وعلى الرغم من كل ذلك إلا أن الخوف الأيوبي من احتمال نقض الصليبيين للهدنة كان كبيراً، ولاسيما لدى الملك الأفضل علي صاحب دمشق، الذي تولى السلطنة خلفاً لوالده صلاح الدين، وكان أول هاجس له في هذا المجال هو مدينة القدس وأمور الدفاع عنها ضد المطامع والأخطار الصليبية "لأنها كانت تحتاج حينَئذٍ إلى أموال ورجال لمدافعة الفرنج"[٢]، فَثَقُلَ عليه ذلك، وآثر أن يتنازل عنها – تحت تأثير وزيره ابن الأثير– إلى أخيه العزيز عثمان صاحب مصر لتكون تابعة له إدارياً، وبذلك يقع عليه عاتق ومسؤولية تأمين احتياجاتها والدفاع عنها.[٣]

وكان ذلك بداية لشرارة حرب الوراثة الأيوبية؛ إذ إن العزيز استقبل ذلك الأمر بكامل الرضى والسرور، وعلى الفور أرسل عشرة آلاف دينار إلى متولي القدس آنذاك عز الدين جرديك لينفقها على عسكر القدس، وخُطِبَ له بها، كما أرسل عسكراً إليها خشية نقض الفرنج للهدنة المبرمة فجأةً، وفي أثناء ذلك فوجئ العزيز بتراجع أخيه الأفضل عن قراره السابق، وتقريره إبقاء القدس مرتبطة به إدارياً.[٤] فعارض العزيز ذلك، وأخذ أمراؤه بالإغراء بينهما، وحسّنوا له الاستبداد بالملك والقيام مقام أبيه في السلطنة، وبدأت الوحشة بين الطرفين،[٥] ولا شك أن أخبارها وصلت لمسامع صليبيي مملكة القدس، فتشجعوا لنقض الصلح والهجوم في عام ٥٩٠هـ/ ١١٩٤م على جبلة وجبيل سالفة الذكر، وهذا الهجوم على جبيل غير ذاك الذي تقدم ذكره، بهدف السيطرة عليهما، وكانت جبيل تابعة للأفضل وتمكن الصليبيون من احتلالهما، وحاول الأفضل عبثاً استردادها منهم إلا أنه أخفق في ذلك، في حين أنه تمكن من استرداد جبلة.[٦]

واتخذ العزيز من سيطرة الفرنج على جبيل وجبلة عام ٥٩٠هـ/ ١١٩٤م ذريعة لشن الحرب على أخيه الأفضل لانتزاع الشام منه خشية سقوطها بيد الفرنج على شاكلة جبيل، إذ كان من جملة ما قاله

---

[١] المقريزي: السلوك، ج١، ص٢٤١.

[٢] المقريزي: السلوك، ج١، ص٢٢٨. للاستزادة أنظر: الخريسات: السياسة الأيوبية، ص١٥.

[٣] للمزيد راجع أبو شامة: عيون الروضتين، ج٤، ص٤٢٠. ابن تغري بردي: النجوم، ج٦، ص١٢٠.

[٤] النويري: نهاية الأرب، ٢٨، ص٤٤٢. المقريزي: السلوك، ج١، ص٢٢٩.

[٥] أبو شامة: عيون الروضتين، ج٤، ص٤٢١، ٤٢٤. المقريزي: السلوك، ج١، ص٢٢٩.

[٦] دي فتري: المنتقى، عن الموسوعة، ج٣٣، ص٢٤٤-٢٤٥. النويري: نهاية الأرب، ٢٨، ص٤٤٢-٤٤٣.
المقريزي: السلوك، ج١، ص٢٣١. ابن تغري بردي: النجوم، ج٦، ص١٢٠.

له أمراؤه: "إن توانيت استولت الفرنج على البلاد"[١]. وليس البحث هنا للتفصيل في حرب الوراثة، ولكن ما يجب ذكره هنا هو أن الخطر الصليبي كان سبباً في تأزم الوضع الداخلي الأيوبي، إذ اتخذ العزيز من سقوط جبيل بيد الصليبيين ذريعة لمهاجمة الشام في بداية عام ٥٩٠هـ/ ١١٩٤م معلناً أنه يريد قتال الفرنج، ومضمراً في داخله الهجوم على دمشق وانتزاعها من أخيه، ولم تنته هذه الأزمة إلا بتدخل عمهم العادل بينهم، وفرضه صلحاً مؤقتاً عليهم أُسندت بموجبه القدس وأعمالها للملك العزيز، كما اضطر الأفضل للتنازل عن بعض المناطق لصالح أخيه الظاهر غازي صاحب حلب كجبلة واللاذقية وبكسرائيل وصهيون، وبقي مع الأفضل طبرية والغور إضافة إلى دمشق وأعمالها.[٢]

ونظرة متمعنة في هذا الصلح تظهر أن العادل ربما عمل من خلاله على إعادة ترتيب وتموضع المناطق التي تشكل خط مواجهة مع الصليبيين، وأنه آثر تقسيمها بين دمشق وحلب ومصر، مما يُقوي جبهة الصراع مع الصليبيين.

وفي مجرى الأحداث التالية يظهر أن هذا التموضع الجديد في بلاد الشام شكل عامل ضغط على الكيانات الصليبية، ولاسيما على مملكة القدس اللاتينية الثانية التي آثرت التراجع عن جبيل لصالح الأفضل وفق وساطة بيزنطية، وذلك بالعام نفسه الذي أُخذت به، وهو عام ٥٩٠هـ/ ١١٩٤م.[٣]

## رابعاً: العلاقات الأيوبية مع مملكة القدس اللاتينية الثانية خلال الحملة الألمانية عام ٥٩٣هـ/ ١١٩٧م

لم تكن مملكة القدس وزعيمها هنري دي شامبين Henry of Champagne الوحيدين الذين استغلوا حرب الوراثة والنزاع الأيوبي الأيوبي، فذلك النزاع لم يكن خافياً على الغرب الأوربي، ولاسيما عن الإمبراطور الألماني هنري السادس ( ٥٨٦-٥٩٤هـ/ ١١٩٠-١١٩٧م) الذي كثيراً ما كان يرنو بنظره إلى الشرق الصليبي، وهو من أشد المتحمسين للحروب الصليبية، وسعى جاهداً لاستعادة

---

[١] أبو شامة: عيون الروضتين، ج٤، ص٤٢١.

[٢] النويري: نهاية الأرب، ٢٨، ص٤٤٥. المقريزي: السلوك، ج١، ص٢٣٢. الخريسات:السياسة الأيوبية، ص١٦-١٧.

[٣] المقريزي: السلوك، ج١، ص٢٣٤. السياسة الأيوبية، ص١٧.

السيطرة على بيت المقدس وتحقيق أطماعه الواسعة بإخضاع الشرق اللاتيني والإمبراطورية البيزنطية لسلطة إمبراطوريته المقدسة، وعلى هذا بدأ الإعداد للحملة التي سُميت ب "الحملة الألمانية" عام ٥٩٣هـ/ ١١٩٧م.

وليس البحث هنا بصدد التفصيل عن هذه الحملة، فهو خارج موضوع البحث، ولكن لا بدَّ من توضيح بعض القضايا التي تخدم موضوع البحث وهي "العلاقات الأيوبية مع مملكة القدس اللاتينية الثانية"، فقد شكلت هذه الحملة الشرارة الأولى التي أنهت مدة الاستقرار والهدوء التي سادت الجبهة الأيوبية الصليبية منذ صلح الرملة عام ٥٨٨هـ/ ١١٩٢م.

وخلف هنري السادس والده فردريك الأول بارباروسا في حكم الإمبراطورية الرومانية المقدسة في عام ٥٨٦هـ/ ١١٩٠م حتى عام٥٩٤هـ/ ١١٩٧م، وكان عمره آنذاك لا يتجاوز ثلاثة وعشرين عاماً، إلا أنه امتلك من الطموح ما جعله يسعى لإعادة مجد الإمبراطورية الرومانية المقدسة، فراودته الأحلام بإلحاق الإمبراطورية البيزنطية والأرمن والكيانات الصليبية في بلاد الشام بإمبراطوريته، وجَعْلَها جميعها تحت حكمه، ويذكر أبو شامة أن صليبيي مملكة القدس أرسلوا له يحرضونه على تحرير القدس، وقالوا له: "أن عِظَام أَبيه إِلى الْآن في صور في تَابُوت مكلل بالديباج وكأنَّه فِي الْأسر منتظر الإفراج، فَإِنَّه لا يقبر إِلَّا بِالْبَيت الْمُقَدّس إِذا استُخلِص"[1]، وعلى هذا الأساس بدأ في سياسته الداخلية والخارجية، واتخذ عدة اجراءات (سياسية، وعسكرية، ودبلوماسية)[2] لتسهيل سير حملة بقيادته إلى الشرق الإسلامي لاسترداد بيت المقدس، وحمل الصليب علناً في مجمع بارى في ٣١/ أيار ١١٩٥م،[3] ووعد من يشترك في هذه الحملة بثلاثين أوقية من الذهب، فاستجاب له عدد كبير، واستطاع خلال عام واحد تشكيل جيش كبير، إلا أن الظروف في أوربا حالت ببينه وبين قيادة تلك الحملة، فأوكل قيادتها إلى مستشار القصر الإمبراطوري كونراد رئيس أساقفة مينز Mainz، كونه الأقدر والأكبر بين رجال الكنيسة في

---

[1] أبو شامة: عيون الروضتين، ج٤، ص٤٤٠.

[2] عن هذه الاجراءات انظر: مجهول: ذيل تاريخ وليم، عن الموسوعة، ج٨، ص٤٨٨-٤٨٩، ٤٩٦-٤٩٩. حمزة: العلاقات السياسية، ص٢١٢-٢١٥.

[3] رنسيمان: تاريخ الحروب، ج٣، ص١٦٩. حومد: تاريخ الجهاد، ج٢، ص١٨٤. حمزة: العلاقات السياسية، ص٢١٢-٢١٤.

الإمبراطورية الألمانية المقدسة، كما أنه موطن ثقة الإمبراطور هنري ومستشاره، ومتولي دار الوثائق الإمبراطورية، فضلاً عن أنه صديق البابا الجديد أنسونت الثالث.[١]

ولا بدَّ أن هنري دي شامبين Henry of Champagne حاكم مملكة القدس قد شعر بالخطر والتهديد الجرماني لمملكته منذ أن بدأت مقدمات هذه الحملة تصل إلى عكا على شكل دفعات متفرقة. وبشكل عام لم ينظر صليبيو مملكة القدس إلى الألمان بعين الارتياح؛ لِما تقرر من الصلح مع المسلمين، ولرغبتهم الشديدة بعدم إثارة أي حرب لا داعي لها مع المسلمين[٢]، وتتفق المصادر العربية واللاتينية على ذلك، باستثناء ابن الأثير الذي يذكر أن صليبيي المملكة هم الذين أرسلوا إلى أوربا وألمانيا يطلبون النجدات لإنقاذهم من اعتداءات أمير بيروت عز الدين سامة، فكانت الحملة الألمانية نجدةً لهم،[٣] ويذكر أيضاً أبو شامة ما شابه ذلك،[٤] ولكن مجريات الأحداث تنفي أن يكون صليبيو المملكة قد قاموا بذلك، ويمكن تفنيد ما ورد عند أبي شامة بأن تلك الرسالة التي يذكرها هي إضافة من عنده تعبيراً عن سخطه عن واقع المسلمين الذي وصلوا إليه آنذاك نتيجة لحروب الزعامة والسلطة؛ إذ لا يوجد في المصادر والمراجع اللاتينية ما يثبت أو يُشير لتلك الرسالة. وكل ما يورده صاحب ذيل تاريخ وليم في هذا الصدد أن عموري (ايميري) استقبل المستشار الألماني قائد الحملة في قبرص بكل فرح وسرور، ومسوغ ذلك هو رغبته بأن يُتوج ملكاً على قبرص من قبل الإمبراطور الألماني، وبالفعل قام المستشار الألماني بذلك نيابة عن الإمبراطور هنري، وتم تتويج عموري ملكاً في نيقوسيا.[٥]

والمهم أن الدفعة الكبرى من هذه الحملة وصلت إلى عكا في شوال ٥٩٣هـ/ آب ١١٩٧م، وأخذت الجموع الصليبية الألمانية تتصرف بقسوة بالغة مع من يحتكون بهم من الصليبيين المحليين، وكأنهم

---

[١] مجهول: ذيل تاريخ وليم، عن الموسوعة، ج٨، ص٤٩٤، ٤٩٩. رنسيمان: تاريخ الحروب، ج٣، ص١٧٤.حمزة: العلاقات السياسية، ص٢١٥.

[٢] مجهول: ذيل تاريخ وليم، عن الموسوعة، ج٨، ص٤٩٩-٥٠٠. رنسيمان: تاريخ الحروب، ج٣، ص١٩٩. حمزة، العلاقات السياسية، ص٢١٥. حومد: تاريخ الجهاد، ج٢، ص١٨٥. عمران: تاريخ الحروب الصليبية، ص١٨٨.

[٣] ابن الأثير: الكامل، ج١٠، ص١٤٥.

[٤] أبو شامة: عيون الروضتين، ج٤، ص٤٤٠.

[٥] مجهول: ذيل تاريخ وليم، عن الموسوعة، ج٨، ص٤٩٨.

في بلد محتل ومقهور، فعاملوا سكان البلاد بازدراء، وتعالوا عليهم واحتقروهم وسببوا لهم سخطاً كبيراً، وألحقوا بهم أضراراً بالغة.[١]

والمهم هنا هو الرد الرسمي لحكومة مملكة القدس اللاتينية الثانية في عكا على هذه القوات الجديدة التي أتت لمساعدتهم من أجل إعادة احتلال القدس، ويبدو أن هذه الحكومة لم تكن تنظر بارتياح لوجود القوات الألمانية، إذ إن هذه الجموع سوف تثير حرباً لا داعي لها، وستُنهي عهد الهدوء والاستقرار الذي ساد الجبهة الإسلامية الصليبية،[٢] بالإضافة إلى أن طلائع هذه الحملة لم تتوقف عند عكا لاستشارة حكومتها، بل مضوا مباشرةً إلى الجليل داخل البلاد الإسلامية، مما أثار حفيظة المسلمين، وربما وحَّد كلمتهم ضدهم بعد أن سعى هنري جاهداً لتشتيتهم.[٣]

ويبدو أن المعارضة كانت كبيرة للوجود الصليبي الألماني في عكا وفي المملكة بشكل عام، وبدأت الشكوى تصل بكثرة لهنري دي شامبين على تصرفات هؤلاء القساة البرابرة، ويبدو أن هنري نفسه كان غاضباً من وجودهم؛ إذ تجاوب فوراً مع الشكوى ضدهم، واستشار أعوانه وأمراء المملكة بالسلوك الأمثل تجاههم، فأشاروا عليه باستعمال القوة ضدهم، وما إن علم الألمان بهذه الخطة ضدهم حتى سارعوا إلى الخروج من عكا، وتجمعوا في إحدى ضواحيها قرب الشاطئ.[٤]

أما بالنسبة للرد الرسمي للدويلات الأيوبية التي انشغلت في حروبها الداخلية فيمكن القول: إنه بإقصاء الملك الأفضل عن السلطة في دمشق سنة ٥٩٢هـ/ ١١٩٥م وانتقال زعامة الأسرة الأيوبية إلى أخيه صاحب مصر العزيز عثمان، وتولي عمهم العادل دمشق وأعمالها كتابعٍ له يمكن القول إن الدولة الأيوبية أصبحت تُحكم من قبل الجناح الأكثر تشدداً تجاه الصليبيين، إذ إن تلك الشخصيتين كثيراً ما كانت توجه نقداً لاذعاً للملك الأفضل بسبب سياسته الضعيفة تجاههم وتوانيه عن مواجهتهم، وهنا يرد التساؤل عن سير العلاقات بين الطرفين الأيوبي والصليبي في ظل التطورات الداخلية لكليهما؟ وما

---

[١] مجهول: ذيل تاريخ وليم، عن الموسوعة، ج٨، ص٤٩٨-٤٩٩. غروسيه، ص٢٤١.

[٢] مجهول: ذيل تاريخ وليم، عن الموسوعة، ج٨، ص٥٠٠. حمزة: العلاقات السياسية، ص٢١٥.

[٣] رنسيمان: تاريخ الحروب، ج٣، ص١٧٠.

[٤] مجهول: ذيل تاريخ وليم، عن الموسوعة، ج٨، ص٤٩٨-٥٠٠. غروسيه، ص٢٤١، حومد: تاريخ الجهاد، ج٢، ص١٨٤.

هو موقفهما من التهدئة الجارية منذ صلح الرملة ؟ وما هي التحديات التي واجهت ذلك الصلح ؟ وما مدى صموده؟

ويمكن القول إن الموقف الرسمي للقيادتين كان راغباً باستمرار صلح الرملة ومحترماً له، إلا أن تطورات ممالكهم الداخلية والرغبات الشعبية حالت بينهم وبين ما يشتهون.

فالعادل – بعد أن تموضع في دمشق وأصبحت تابعة له كذلك أعمالها وكل ما كان تابعاً لابن أخيه الأفضل علي– على الرغم من انهماكه في ترتيب شؤون سياسته الداخلية ورغبته الشديدة في استمرار صلح الرملة مع مملكة القدس اللاتينية الثانية؛ إلا أن موقعه كحاكم مسلم في دمشق لم يكن يسمح له بتجاهل التحركات الصليبية الجديدة على حدوده.

يضاف إلى ذلك أن ما يكنُّه في داخله من رغبة شديدة في زعامة الأسرة الأيوبية كان يحتاج للقيام ببعض الأعمال البطولية لزيادة رصيده الشعبي، فيكون ذلك عون له عندما يريد الاعلان عن رغبته في توحيد الأسرة الأيوبية، وبناءً على ذلك ما إن علم العادل بوصول قوات الحملة الألمانية إلى عكا حتى أرسل إلى ابن أخيه الملك العزيز بمصر وإلى جميع الأمراء الأيوبيين في حماة وحمص وحلب والجزيرة والموصل طالباً منهم أن يتناسوا ما بينهم من منازعات وضغائن، وأن يرسلوا عساكرهم إليه كونه الأقرب من الخطر الصليبي الجديد.[١]

وأتى رد العادل عنيفاً على قوات الحملة الألمانية ولاسيما عندما هاجموا السواحل القريبة من بيروت واللاذقية وجبلة وصور وصيدا سنة ٥٩٣هـ/ ١١٩٧م، وكذلك مهاجمتهم لتبنين في العام التالي ٥٩٤هـ/ ١١٩٨م، فلم ينتظر العادل تكامل وصول النجدات إليه، وأسرع إلى منطقة الجليل التي تلقت أولى الاعتداءات الصليبية الألمانية عليها، وقتلوا بعض المسلمين وأسروا وغنموا شيئاً كثيراً.[٢]

ما إن علم الألمان بقرب وصول قوات العادل –التي بالغت الشائعات في ضخامتها– حتى ولّوا الأدبار مذعورين مسرعين إلى عكا، لدرجة أن الفرسان تركوا عتادهم وتخلوا عن الراجلة، وتمكن الجيش

---

[١] المقريزي: السلوك، ج١، ص٢٥١، ٢٥٣. رنسيمان: تاريخ الحروب، ج٣، ص١٧١. حمزة: العلاقات السياسية، ص٢١٦. حومد: تاريخ الجهاد، ج٢، ص١٨٥.

[٢] ابن واصل: مفرج الكروب، ج٣، ص٧٤. المقريزي: السلوك، ج١، ص١٤٠-١٤١. عاشور: الحركة الصليبية، ج٢، ص١٧٤.

الإسلامي من الإحاطة بالألمان قرب عكا، وأوقعوا بهم الهزيمة عند رأس الماء بمرج عكا، وتكاثرت الشائعات في صفوف الصليبيين عن عظمة الجيش الإسلامي، وتراءى لهم أن العادل سوف يزحف على عكا.[١]

هنا شعرت حكومة عكا بالخطر المحدق الذي تسبب لهم به الألمان، وأدرك حاكم عكا الكونت هنري أن الوقت قد فات، وأنه مرغم على التعاون مع الألمان وانقاذهم لمنع تقدم المسلمين إلى عكا، وبناءً على نصيحة هيو صاحب طبرية أرسل هنري فرسانه وكل ما استطاع أن يحشده من قوات لدعم القوات الألمانية، وكان على رأس الواصلين البيازنة والفلورنسيون المسلحون بأفضل الأسلحة، ويبدو هنا أن الجبهة الصليبية أصبحت قادرة على الصمود أمام هجوم العادل.[٢]

وفي الحقيقة أن العادل لم يكن على استعداد للدخول في حرب مفتوحة طويلة غير مضمونة النتائج، كما أنه لم يرغب في تبديد قوى جيشه، فآثر الانحراف به إلى الجنوب باتجاه يافا مستغلاً وجود حامية بها قليلة العدد على الرغم من استحكاماتها المنيعة.[٣]

ومع أن يافا كانت تابعة لأملريك -عدو هنري- الذي أصبح ملكاً جديداً في قبرص إلا أن هنري فضّل مساعدته في حماية يافا على أن تسقط بيد المسلمين، وعلى هذا أرسل أسطولاً ورجالاً إلى يافا لمساعدة حاميتها الفرنسية في الدفاع عنها[٤]، وكذلك سارت إليها القوات الألمانية بقيادة دوق بارابانت لنجدتها،[٥] وما إن وصلت هذه القوات إليها حتى وجدتها قد سقطت بيد المسلمين، وتمكن العادل من دخولها والسيطرة عليها في شوال ٥٩٣هـ/ نهاية آب ١١٩٧م، وصمدت قلعتها - التي لجأ

---

[١] مجهول: ذيل تاريخ وليم، عن الموسوعة، ج٨، ص٥٠١. رنسيمان: تاريخ الحروب، ج٣، ص١٧١. حمزة: العلاقات السياسية، ص٢١٦. حومد: تاريخ الجهاد، ج٢، ص١٨٥.

[٢] مجهول: ذيل تاريخ وليم، عن الموسوعة، ج٨، ص٥٠١-٥٠٣. رنسيمان: تاريخ الحروب، ج٣، ص١٧١. حمزة: العلاقات السياسية، ص٢١٦. حومد: تاريخ الجهاد، ج٢، ص١٨٥.

[٣] مجهول: ذيل تاريخ وليم، عن الموسوعة، ج٨، ص٥٠١، ٥٠٥-٥٠٧. رنسيمان: تاريخ الحروب، ج٣، ص١٧١-١٧٢. زيان، حامد زيان غانم: الصراع السياسي والعسكري بين القوى الإسلامية زمن الحروب الصليبية، دار الثقافة للنشر، القاهرة، ١٩٨٣، ص١٠٥.

[٤] مجهول: ذيل تاريخ وليم، عن الموسوعة، ج٨، ص٥٠٧. رنسيمان: تاريخ الحروب، ج٣، ص١٧١-١٧٢.

[٥] ابن الأثير: الكامل، ج١٠، ص١٤٦. حومد: تاريخ الجهاد، ج٢، ص١٨٦.

إليها المدافعون عن المدينة- قليلاً، إلا أن المسلمين حاصروها وضيقوا عليها الخناق إلى أن امتلكوها عنوةً وقهراً، وأسروا جميع من فيها.[١]

وفي هذه الأثناء سقط هنري قتيلاً من على إحدى شرفات قصره في ١٠ أيلول ١١٩٧م دون أن يَعلم نتيجة معركة يافا، وبذلك تكون خسارة الصليبيين مزدوجة، وساعدت تلك الأوضاع على سرعة اختيار أملريك (عموري) Amalric ملك قبرص؛ لأن يكون زوجاً للملكة الأرملة إيزابيل وحاكماً جديداً لعكا، وبذلك توحَّد تاجا قبرص وعكا، كما تقدم تفصيله عند الحديث عن وراثة العرش في مملكة القدس اللاتينية الثانية.

قَبِلَ عموري بالزواج من إيزابيل، وقدم إلى عكا للاقتران بها وتولي مهام الحكم، وذلك في صفر ٥٩٤هـ/ بداية ١١٩٨م، وبتوحيد التاجين أصبح لِزاماً على ملوك قبرص من آل لوزجنان الدفاع عن المصالح الصليبية في بلاد الشام، وكما سلف ذكره فإن عموري أثبت براعة سياسية ومهارة دبلوماسية في حكم مملكة القدس اللاتينية الثانية. وبالنسبة إلى علاقته مع المسلمين اتصف بالاتزان والبعد عن التطرف، واتخذ في ذلك موقفاً وسطا، ابتعد فيه عن حدود التفريط بحقوق الصليبيين مع المسلمين، ووقف موقفاً حازماً من اعتداءات المسلمين على حدود المملكة عقب مجيء الحملة الألمانية عام ٥٩٣هـ/ ١١٩٧م التي أنهت الصلح السائد بين الطرفين.[٢]

وصل عموري إلى عكا بعد أن سقطت يافا بيد العادل ؛ لذلك آثر أن يبدأ حكمه بها بتعويض تلك الخسارة بالاستيلاء على بيروت وصيدا، ويبدو أنه لم يرغب بأن يكون هو قائد الحملة، لذلك استغل الحماس الألماني وكلّف - أو ربما أيد- دوق برابانت في قيادتها، وكان الأخير قد استغل وجود القوات الإسلامية في يافا فآثر إرسال حملة إلى صيدا وبيروت في ذي الحجة ٥٩٣هـ/ تشرين الأول ١١٩٧م، وعلم العادل الذي كان قد قَدِمَ إلى عين جالوت بهذه الخطة، فسار إلى بيروت ليمنع الألمان من تحقيق ذلك، وعلى الفور بدأ بتخريب سور المدينة، وكاد العادل أن يخرب بيروت بكاملها، إلا أن

---

[١] أبو شامة:الروضتين، عن الموسوعة، ج١٩، ص٤٦٤. ابن واصل: مفرج الكروب، ج٣، ص٧٥. المقريزي: السلوك، ج١، ص٢٥١. مجهول: ذيل تاريخ وليم، عن الموسوعة، ج٨، ص٥٠٧-٥٠٩. دي فتري: المنتقى، عن الموسوعة، ج٣٣، ص٢٤٥. زيان: الصراع السياسي والعسكري، ص١٠٥.

[٢] انظر: ابن الأثير: الكامل، ج١٠، ص١٤٧. عاشور: الحركة الصليبية، ج٢، ص١٧٦.

صاحبها سامة عارض ذلك مؤكداً له أنه قادرٌ على حمايتها والصمود فيها أمام الصليبيين.[١] فسار العادل عنها باتجاه صيدا بقصد خرابها، وكذلك المناطق المحيطة بصور، وتمكن من احراق أشجارها وأبراجها، وفي العام التالي (٥٩٤هـ/ ١١٩٧م) قام بتخريب عسقلان.[٢]

ونظرة سطحية إلى السياسة الأيوبية آنذاك والإجراءات التي اتخذتها على أرض الواقع يظهر بشكل واضح مدى ضعف السياسة الأيوبية تجاه الصليبيين ؛ إذ إن التمزق الذي وصل الأيوبيون إليه آنذاك جعلهم يتخوفون من احتمالات قدوم حملة صليبية تسيطر على تلك المناطق، مما دفعهم إلى اللجوء إلى تدميرها مفضّلين ذلك على سقوطها سليمة بيد الصليبيين؛ فتكون عامل قوة لهم، وفي قول المقريزي دلالة كبيرة على ذلك، إذ يقول: "لعجز الملوك عن ممانعة الفرنج بالسلاح واضطرارهم إلى هدم المدن وتعفية رسومها"[٣]، وبالطبع لم تكن تلك هي السياسة الأمثل لأنها كلفت السكان الأصليين كثيراً من المشاق الاقتصادية والاجتماعية.

ولما وصل الصليبيون الألمان إلى صيدا وجدوها خراباً، فانطلقوا منها إلى بيروت، عندها وجد صاحبها عز الدين سامة أنه لا قِبَلَ له بمواجهتهم فآثر الانسحاب منها وتسليمها لهم صفواً عفواً بغير قتال، ودخلها الفرنج في ذي الحجة ٥٩٣هـ/ تشرين الأول ١١٩٧م،[٤] وأصلحوا ما كان قد خربه المسلمون من أسوارها وقرروا منحها كإقطاع ليوحنا دي ابلين، وهو أخ غير شقيق للملكة إيزابيل،

---

[١] ابن الأثير: الكامل، ج١٠، ص١٤٦. ابن سباط، حمزة بن أحمد بن عمر: صدق الأخبار= تاريخ ابن سباط، تح: عمر عبد السلام تدمري، جروس برس، طرابلس، ط١، ١٩٩٣م، ج١، ص٢١٩-٢٢٠. حومد: تاريخ الجهاد، ج٢، ص١٨٦.

[٢] ابن الأثير: الكامل، ج١٠، ص١٤٦-١٤٧. المقريزي: السلوك، ج١، ص٢٥٣. الخريسات، حنان: السياسة الأيوبية تجاه الصليبيين (٥٨٩-٦٤٨هـ/ ١١٩٣-١٢٥٠م)، رسالة أُعدت للحصول على درجة الماجستير، بإشراف أ.د. أحمد الحسو، جامعة مؤتة، ٢٠٠٤م، ص٢٠.

[٣] المقريزي: السلوك، ج١، ص٢٥٣.

[٤] دي فتري: المنتقى، عن الموسوعة، ج٣٣، ص٢٤٥. أبو شامة: الروضتين، عن الموسوعة، ج١٩، ص٤٦٤. ابن الأثير: الكامل، ج١٠، ص١٤٦. ابن واصل: مفرج الكروب، ج٣، ص٧٤. شذرات الذهب، ج٦، ص٥١٠. رنسيمان:تاريخ الحروب، ج٣، ص١٧٧.

واستمر في حكمها حتى عام ٦٣٣هـ/ ١٢٣٦م [١]، ولا بدَّ أنه حدثت بعض الاشتباكات عقب السيطرة على بيروت أدت إلى مزيد من السيطرة الصليبية على بعض المناطق الساحلية،[٢] وبذلك توسعت حدود مملكة القدس وأضحت قريبة من حدود كونتية طرابلس.

وهنا يتبادر إلى الأذهان الشك في إخلاص ونية عز الدين سامة أمير بيروت، فهل كان مخلصاً في نيته عندما منع العادل عن تدمير بيروت وخرابها؟

ألم يكن عز الدين سامة قادراً على حماية بيروت والصمود أمام الفرنج كما وعد العادل بذلك؟

ألم يتوجب على سامة مقاومتهم ما بوسعه وعدم تسليمها لهم صفواً عفواً بغير قتال؟

هل كانت هناك مواطأة بينه وبين الصليبيين لتسليمها سالمة لهم دون خراب؟

لا شك أنه كان من المتوجب على سامة مقاومة الصليبين والعمل بكل ما بوسعه لإنقاذ بيروت منهم، أو على الأقل تخريبها قبل الانسحاب منها. أما تسليمها لهم بهذه الطريقة فيدعوا للشك والريبة في سلوكه وتواطئه معهم، ولكن لا يوجد ما يثبت ذلك، ومن خلال مجرى الأحداث يظهر أن عز الدين سامة لم يكن على علاقات جيدة مع العادل الأيوبي والأفضل حكام الشام آنذاك، وكان يميل إلى محالفة العزيز عثمان بن صلاح الدين صاحب مصر، وبعد انسحابه من بيرت وسقوطها بيد الفرنج ذهب إلى مصر وأخذ يحرض صاحبها على أخيه الأفضل،[٣] ويذكر النويري أن العادل اتهمه بمباطنة الظاهر صاحب حلب، وساءت العلاقة كثيراً بينهما بعد سيطرة العادل على مصر، إلى أن اعتقله، واستولى على أملاكه في عام ٦٠٨هـ/ ١٢١٠م.[٤]

---

[١] وبعده تولى حكمها ابنه باليان حتى عام ٦٤٤هـ/ ١٢٤٧م. انظر: غروسيه، موجز تاريخ الحروب الصليبية، ص٨٤. رنسيمان: تاريخ الحروب، ج٣، ص١٧٧.

[٢] النويري: نهاية الأرب، ج٢٨، ص٤٥٤. ابن واصل: مفرج الكروب، ج٣، ص٧٤. حمزة، العلاقات السياسية، ص٢١٦.

[٣] أبو شامة: عيون الروضتين، ج٤، ص٤٤٠. ابن واصل: مفرج الكروب، ج٣، ص٣٩.

[٤] النويري: نهاية الأرب، ج٢٩، ص٦٠. ابن الوردي، عمر بن مظفر بن عمر بن محمد: تاريخ ابن الوردي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٦م، ج٢، ص١٢٨.

ولم يكن سقوط بيروت بيد الألمان أمراً عادياً أو حادثاً هامشياً، فهي كانت حتى ذلك الوقت تشكل قاعدة بحرية للسفن الإسلامية وتهدد المواصلات البحرية للصليبيين، وسيطرتهم عليها مكنتهم من إحكام إشرافهم على شواطئ الشام، ولا سيما المناطق التابعة للمسلمين بين طرابلس وعكا. وشكَّل سقوطها ضربة كبيرة للمسلمين آنذاك، وذاع صيتها في الأوساط الشعبية، ودرج في تلك الأوساط بيتا شعر في حق صاحبها عز الدين سامة الذي سلمها للفرنج دون قتال، وقد نُظِما أثناء محاصرة الفرنج لتبنين، وهما في صيغتهما خطاب لصاحب تبنين:

سَلِّم الحصن ما عليك مَلامَة ... ما يُلام الذي يَرومُ السّلامة
فعطاء الحصون من غير حرب ... سُنَّة سَنها ببيروت سامة[١]

لم يكن سقوط بيروت بيد الصليبيين لِيَمُرَّ دون أن يُحْدِثَ تأثيراً إيجابياً في الأوساط الصليبية، فأمير أنطاكية بوهيموند الثالث تشجع على القيام بمحاولة لاسترداد اللاذقية وجبلة، وهما الميناءان اللذان استولى عليهما صلاح الدين سنة ٥٨٤هـ/ ١١٨٨م، وبالفعل قام بوهموند بمحاولة للاستيلاء عليهما في بداية سنة ٥٩٤هـ /أواخر ١١٩٧م . إلا أن الملك الظاهر الأيوبي صاحب حلب – الذي كانت تلك المناطق تابعة له– كان قد أخذ حيطته وحصَّن المدينتين، وإن كان قد هدَّم ما بداخلهما من مبان ورحَّل الأهالي استعداداً لأمر طارئ، وعندما ركب بوهيموند البحر ونزل في بانياس فوجئ بتحصينهما، وأخفق في تحقيق غرضه، وعاد من حيث أتى.[٢]

أما عن آثار سقوط بيروت بين الأوساط الألمانية فقد أخذتهم العزة والشجاعة، وبدأوا بالزحف نحو القدس للاستيلاء عليها ظناً منهم أنها كبيروت لن تستطيع الصمود أمام انتصاراتهم، إلا أنهم اكتفوا بانتصارات خفيفة حولها، وغنائم كثيرة، فتراجعوا عنها[٣]، وكان قد لحق بهم ملك عكا الجديد أمالريك (عموري ) لوزجنان، كما لحق بهم كونراد رئيس أساقفة ماينز.[٤]

---

[١] أبو شامة:الروضتين، عن الموسوعة، ج١٩، ص٤٦٥. الذهبي: تاريخ الإسلام، ج٤٢، ص١٧. ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٣، ص١٩.

[٢] ابن العديم: زبدة الحلب، ج٢، ص٦١٠-٦١١. عاشور: الحركة الصليبية، ج٢، ص١٧٦.

[٣] ابن واصل: مفرج الكروب، ج٣، ص٧٤. حمزة، العلاقات السياسية، ص٢١٦-٢١٧.

[٤] رنسيمان: تاريخ الحروب، ، ج٣، ص١٧٧. عاشور: الحركة الصليبية، ج٢، ص١٧٧.

ويرى رنسيمان أن البارونات السوريين عارضوا الزحف على القدس، وكانوا يرغبون في تجديد الهدنة مع العادل على أساس منحه يافا واحتفاظهم ببيروت، إلا أنهم لم يستطيعوا أن يثنوا الألمان عن عزمهم،[١] وفي طريقهم إلى القدس توقفوا لحصار حصن تبنين قرب صور، وبدأوا في حصاره بشراسة وبكل جدية في بداية صفر ٥٩٤هـ/ أواخر تشرين الثاني ١١٩٧م، وشنوا عليه في البداية هجوماً عنيفاً، وأحدثوا نقوباً في أسوار الحصن، وقاتلت حامية تبنين قتالاً بطولياً وردت هجمات الصليبيين، ولكن ما أحدثوه من نقوب في أسوار الحصن جعل رجال الحامية تخشى أن يملك الصليبيون الحصن عنوة فيقتلونهم وتصبح النساء والأولاد سبايا بين أيديهم والأموال غنائم لهم، لذلك أرسلوا يطلبون الصلح والأمان على أنفسهم وأهليهم وأموالهم[٢] مقابل التخلي عن الحصن والقلعة بما فيها من الأسرى المسيحيين الذين يبلغ عددهم خمسمائة أسير، غير أن رئيس الأساقفة كنراد – قائد الحملة– ومعه بعض القادة الألمان أصروا على التسليم بدون قيد ولا شرط، وذلك لدخولها عنوةً وتنفيذ مآربهم في القتل والأسر والاسترقاق ونهب الأموال ولتحقيق مكاسب أكثر عن طريق الحرب.[٣]

لا شك أن موقف الألمان هذا زاد الشرخ بينهم وبين صليبيي المملكة، إذ إنهم لم يكترثوا لوضع الأسرى الصليبيين في قلعة تبنين الذين بلغ عددهم قرابة خمسمئة أسير، ولا بدّ أن ذلك أثار حفيظة صليبيي المملكة وسخطهم، وقد عبر عن ذلك صراحة صاحب ذيل تاريخ وليم عندما قال ساخراً من أفعالهم: "يثق الألمان كثيراً بقوتهم وبفضائلهم الخاطئة، فهم لم يشفقوا على الأسرى المسيحيين الذين سيعادون إليهم، ولم يعرفوا ما يليق بهم من خير ولا شرف"[٤].

وجدير بالذكر هنا موقف بارونات مملكة القدس السوريين اللذين عارضوا الحملة أساساً، وأبدوا حرصهم على توطيد الصداقة مع العادل وتجديد الصلح بشكل دائم مع المسلمين، فخشيوا من بطش

---

[١] رنسيمان: تاريخ الحروب، ج٣، ص١٧٨.

[٢] دي فتري: المنتقى، عن الموسوعة، ج٣٣، ص٢٤٥. ابن الأثير: الكامل، ج١٠، ص١٤٧. حومد: تاريخ الجهاد، ج٢، ص١٨٧.

[٣] دي فتري: المنتقى، عن الموسوعة، ج٣٣، ص٢٤٥. مجهول: ذيل تاريخ وليم، عن الموسوعة، ج٨، ص٥١١-٥١٢. أبو شامة:الروضتين، عن الموسوعة، ج١٩، ص٤٦٦. ابن واصل: مفرج الكروب، ج٣، ص٧٥. حمزة: العلاقات السياسية، ص٢١٧.

[٤] مجهول: ذيل تاريخ وليم، عن الموسوعة، ج٨، ص٥١٢.

الألمان بحامية تبنين في حال انصياعها لهم واستسلامها بدون قيد أو شرط، فيكرر الألمان ما فعله ريتشارد بحامية عكا، كما خشوا أن يؤدي ذلك إلى إثارة حمية الجهاد عند المسلمين، فينتهي عهد الصلح والاستقرار وتعود الحرب سجالاً بين الطرفين، وهذا ما لم يرغب به البارونات، لذلك آثر هؤلاء البارونات مراسلة العادل وحامية تبنين وتحذيرهم من الألمان ومن مغبة الاستسلام لهم، وكان من جملة ما أرسلوه لحامية تبنين: "إن سَلَّمتُمُ الحِصْن استأسرَكُم هذا – يقصدون كونراد قائد الحملة الألمانية– وقتلكم، فاحفظوا نفوسكم".[١]

وهنا تنبه رجال الحامية لهذا الخطر المحدق بهم، وعادوا إلى قلعة تبنين بعد أن كانوا يتفاوضون مع الألمان على التسليم، وظن الألمان أنهم عادوا لافتكاك أسرى المسيحيين في القلعة؛ إلا أن رجال الحامية أقسموا على أنفسهم آنذاك أن يموتوا وألا يدخلوا في مفاوضات ثانية مع الصليبيين الألمان، واستماتوا في الدفاع عن حصنهم وقلعتهم.[٢]

وبدوره تنبه العادل إلى خطورة الموقف، وزاد في حجم المساعدات العسكرية لحامية تبنين، وأرسل إلى ابن أخيه العزيز حاكم مصر ليقدم إليه، وأرسل إلى بقية أمراء البيت الأيوبي، ولم يتأخر العزيز عثمان في النجدة، وأتى مسرعاً على رأس الجيش المصري في أوائل ربيع الآخر ٥٩٤هـ/ أوائل شباط ١١٩٨م،[٣] وحضر معه أخوته الظافر والمعز والمؤيد، وكان قد سبقهم إلى العادل أخوهم الأفضل علي، وحضر الدفاع عن تبنين كل من المجاهد صاحب حمص والأمجد صاحب بعلبك، وعز الدين بن المقدم، وبدر الدين دلدرم وغيرهم من الأعيان،[٤] وفي ذلك دليل واضح على استمرار تكاتف البيت الأيوبي واتحادهم ضد أي اعتداء صليبي على المنطقة.

---

[١] ابن الأثير: الكامل، ج١٠، ص١٤٧. للاستزادة أنظر: رنسيمان: تاريخ الحروب، ج٣، ص١٧٨. حمزة: العلاقات السياسية، ص٢١٧.

[٢] ابن الأثير: الكامل، ج١٠، ص١٤٧. مجهول: ذيل تاريخ وليم، عن الموسوعة، ج٨، ص٥١٤. حمزة: العلاقات السياسية، ص٢١٨. عاشور: الحركة الصليبية، ج٢، ص١٧٧.

[٣] العماد: الفتح القسي، عن الموسوعة، ج١٣، ص٤٣٢. أبو شامة:الروضتين، عن الموسوعة، ج١٩، ص٤٦٦. عاشور، الحركة الصليبية، ج٢، ص١٧٧.

[٤] أبو شامة:الروضتين، عن الموسوعة، ج١٩، ص٤٦٦.

وعلى الفور بدأت القوات الإسلامية إلى جانب قوات العادل بالهجوم والتضييق على الصليبيين حول حصن تبنين،[١] وتزامن ذلك مع التعب والإرهاق الذي بدأ الألمان يشعرون به، فضعفت جهودهم، وخفت حدتهم، وكان قد قَدِمَ إليهم منذ شوال ٥٩٣هـ/ أيلول ١١٩٧م خبر وفاة الإمبراطور الألماني هنري السادس، وما نتج عن ذلك من اندلاع حرب داخلية في ألمانيا، لذلك حرص كثير من القادة الألمان على العودة إلى بلادهم للمشاركة في اختيار إمبراطور جديد لألمانيا، وبالطبع كان لذلك الأمر دور في إحداث مشاحنات ومناقشات صاخبة بين الأمراء الألمان في الشرق،[٢] فما كان من كونراد قائد الألمان إلا أن قرر التخلي عن حصار تبنين، وترددت الشائعات داخل صفوف الألمان بفرار كونراد وكبار القادة معه، فساد الذعر والخوف في صفوفهم، وولوا منهزمين باتجاه صور وعكا في منتصف ربيع الآخر ٥٩٤هـ/ نهاية شباط ١١٩٨م، وذلك بعد حصار دام ثلاثة أشهر لتبنين،[٣] وتعقبتهم قوات العزيز والعادل، وساروا في أثرهم يلتقطون من ظفروا به منهم، ومن عكا بدأوا يستقلون سفنهم عائدين إلى أوطانهم في ألمانيا وأوربا، وذابت هذه الحملة بشكل سريع،[٤] وكغيرها من الحملات الألمانية السابقة انتهت دون أن تحقق نتائج تذكر على المستوى العسكري، ويُرْجِعُ بعض الباحثين والمحللين ذلك إلى سوء تنظيم الجيش الألماني وعدم تدريبهم وجهلهم بالقوانين الحربية وإدارتها.[٥]

ودون شك أنه كان لموقف عموري السلبي وموقف البارونات المحليين من هذه الحملة دور مهم في إخفاقها، ويمكن القول إن هذا الموقف السلبي كان له مسوغاته، إذ إن الرغبة الألمانية والبابوية في السيطرة على مملكة القدس ولاسيما مدينة القدس كانت واضحة في هذه الحملة، لذا فإن عموري ومعه البارونات الذين أَنِفُوا الخضوع لهم وأَلِفُوا الاستقلالية خَبِروا ذلك وفَوَّتوا الفرصة على الألمان وعلى البابوية.

---

[١] ابن واصل: مفرج الكروب، ج٣، ص٧٥. ابن الأثير: الكامل، ج١٠، ص١٤٧.

[٢] مجهول: ذيل تاريخ وليم، عن الموسوعة، ج٨، ص٥١٤. زاباروف، الصليبيون، ٢١٣. حمزة: العلاقات السياسية، ٢١٩، ٢٢٣-٢٢٤. للاستزادة أنظر: مختصر تاريخ القدس، عن الموسوعة، ج٣٣، ص٢٤٥.

[٣] ابن الأثير: الكامل، ج١٠، ص١٤٧. دي فتري: المنتقى، عن الموسوعة، ج٣٣، ص٢٤٥. عمران: الحروب الصليبية، ١٨٩.

[٤] ابن واصل: مفرج الكروب، ج٣، ص٧٥-٧٦. رنسيمان: تاريخ الحروب، ج٣، ص١٧٩. عاشور: الحركة الصليبية، ج٢، ص١٧٧.

[٥] حمزة: العلاقات السياسية، ص٢١٩.

وفي تقويم العلاقات بين الأيوبيين والصليبيين خلال الحملة الألمانية يمكن القول: إن الأيوبيين لم يكونوا هم البادئون بأي هجمات على الطرف الآخر، إلا في حدود المحافظة على ممتلكاتهم وحفظ ماء الوجه، وفي جميع الحالات التي اضطر بها الأيوبيون إلى الدخول في حرب مع الصليبيين حصروا دائرة عملياتهم العسكرية بما يعيد العلاقات بين الطرفين إلى ما كانت عليه من قبل بموجب الاتفاقات المعقودة بينهما، أي أنهم حصروا دائرة أعمالهم ضد الصليبيين بما يؤمن حالة من التوازن بين الطرفين، ومنع أو رد اعتداءات الأخيرين، ومنعهم من التوسع على حساب الأراضي الأيوبية، وقد آثروا الارتباط معهم بمعاهدات تقر بوجودهم وتحول دون الإخلال بالتوازن العسكري والسياسي القائم بين الطرفين منذ صلح الرملة عام ٥٨٨هـ/ ١١٩٢م، ويمكن تسويغ الموقف الأيوبي هذا بالتمزق السياسي والمؤامرات التي حيكت داخل البيت الأيوبي ضد بعضهم بعضاً، والقيادة الثنائية – إن صحت التسمية– في الجانب الأيوبي من قبل العادل والعزيز، إذ إن الأخير أصبح هو السلطان الشرعي بعد أخيه الأفضل، أما العادل الذي كانت بيده جميع العمليات العسكرية لم يكن سوى تابع للعزيز، ولربما أن ذلك لم يشجعه للسعي إلى تحقيق نصر عسكري كبير من شأنه أن يُعلي مركز العزيز ويقويه، ذلك المركز الذي يسعى العادل إليه.

وعن الموقف الصليبي تجاه الأيوبيين خلال الحملة الألمانية يظهر بوضوح موقفان متناقضان تماماً، فالموقف الأول مثَّله الملك وبارونات المملكة المحليون الذين آثروا الهدوء والاستقرار والتوازن مع الجانب الأيوبي والاستمرار في المحافظة على الصلح والاتفاقيات المعقودة بينهم، وهذا التناغم بين الموقفين الأيوبي والصليبي أدى إلى عقد اتفاقية بينهما عام ٥٩٤هـ/ ١١٩٨ م عقب عودة الألمان إلى بلادهم.

أما الموقف الصليبي الثاني فقد مثَّله الألمان المتحمسون للقيام بأعمال عسكرية ضد الأيوبيين، ظناً منهم أنهم قادرون على إعادة مجد مملكة القدس اللاتينية القديمة، وهذا دفعهم إلى القيام بأعمال عسكرية عديدة ومتفرقة ضد الأيوبيين دون أدنى تفكير وتخطيط في تلك العمليات.

## المبحث الثالث

# العلاقات الأيوبية مع مملكة القدس اللاتينية الثانية خلال مرحلة توحيد التاج مع قبرص (٥٩٣-٦٠٢هـ/ ١١٩٧-١٢٠٥م)

### أولاً: هدنة عام ٥٩٤هـ/ ١١٩٨م

أهم ما ورّثته الحملة الألمانية للحاكم الجديد لمملكة القدس اللاتينية الثانية عموري لوزجنان هو التوتر في الأوضاع السياسية والعسكرية والحرب مع المسلمين، فبعد رحيل الألمان وجد هنري نفسه وجهاً لوجه في حرب تورط بها مع المسلمين، ولم يكن له يد ولا رغبة في إشعال نارها، ويبدو أنه لم يكن مستعداً في بداية حكمه للمضي في حرب مفتوحة طويلة الأمد سواءً مع المسلمين أم مع غيرهم. فأعباء الحكم في قبرص وعكا أوقع على كاهله ترتيب كثير من الأمور الداخلية والسياسية والدبلوماسية، إضافة إلى أن عامة الشعب في مملكة القدس كانوا قد سئموا القتال وخلدوا إلى الراحة، حيث يقول صاحب تاريخ القدس: "ولم يعد قومنا تواقين أبداً لخرق الهدنة في أية مناسبة، مهما كان نوعها، لإنجاز حصار أي موقع حصين، أو لإعادة بناء أي قلعة مهدمة"[١].

وعلى الجانب الإسلامي فإن الملك العزيز انسحب مضطراً إلى مصر لظروف داخلية استدعت وجوده هناك،[٢] ولم يكن الملك العادل قد انتهى من الحروب الداخلية التي توجبت عليه لإعادة توحيد الامارات الأيوبية، ولا بدَّ أنه كان راغباً بالتفرّغ لها وتسوية أوضاعه الداخلية، مما أملى عليه القبول بالصلح بعد أن راسله الصليبيون بذلك.

وعلى هذا فيبدو أن ظروف الطرفين فرضت عليهما القبول بعقد الصلح في ٢٤ شعبان ٥٩٤هـ/ أول تموز ١١٩٨م على أساس القواعد التي اتُبعت في صلح الرملة المعقود بين صلاح الدين وريتشارد،

---

[١] دي فتري: المنتقى، عن الموسوعة، ج٣٣، ص٢٤٥.

[٢] راجع ابن الأثير: الكامل، ج١٠، ص١٤٨.

مع احتفاظهما بالمناطق التي سيطرا عليها حديثاً، فاحتفظ الصليبيون ببيروت وجبيل، وأصبحتا تابعتين لمملكة القدس اللاتينية، واحتفظ العادل بيافا، في حين قُسِّمت صيدا بين الطرفين.[١]

وتجدر الإشارة هنا إلى أن هذه المعاهدة على الرغم من أنها أُرْسِيَتْ على قواعد وشروط صلح الرملة إلا أن سيطرة الصليبيين على بيروت وجبيل (ببليوس) مقابل سيطرة المسلمين على يافا؛ جعل الكيانات الصليبية متصلة مع بعضها، ولا يفصل بينها جيوب إسلامية، ولا يخفى الأهمية الجغرافية لجبيل التي تقع على ساحل المتوسط بين كونتية طرابلس شمالاً ومدينة بيروت جنوباً، وبالتالي سيطرة الفرنج عليها تساعد على إعادة حركة المواصلات بين مملكة القدس وشمال الشام، ولا يخفى أهمية الدور العسكري الذي شغلته جبيل في بداية الحروب الصليبية.[٢]

وعن مدة الهدنة يظهر أنها اختلفت باختلاف المصادر والمراجع، فبعض المصادر العربية حددت مدتها بثلاث سنوات[٣]، وبعضها الآخر بخمس سنوات وثمانية أشهر،[٤] واكتفى بعضها بذكر عبارة: "حتى استقرت الهدنة"، أو "فاصطلحوا"، أو عبارة "انتظم الصلح"[٥].

بينما ذكرت المصادر اللاتينية أن مدة الهدنة كانت خمس سنوات وثلاثة أشهر[٦]، وبعضها الآخر يذكر مدتها خمس سنوات وثمانية أشهر.[٧] غير أن سير الأحداث يُظهر عدم التقيد بتاريخ محدد لانتهاء الهدنة؛ إذ استمر الهدوء مخيماً على الجبهتين لأكثر من خمس سنوات، أي حتى عام ٦٠٠هـ/ ١٢٠٤م حيث وصلت بقايا الحملة الرابعة إلى المملكة، وأحدثت بعض الاضطرابات، عندها بدأ الحديث عن تجديد الهدنة، هذا يدعو إلى القول إن هدنة عام ٥٩٤هـ/ ١١٩٨م لم يُحَدَّدُ تاريخاً دقيقاً لنهايتها، أو ربما جُعلت مفتوحة المدة، لذلك أتت مدتها مختلفة بين مصدر وآخر.

---

[١] ابن واصل: مفرج الكروب، ج٣، ص٧٨. ابن الأثير: الكامل، ج١٠، ص١٤٨. المقريزي: السلوك، ج١، ص١٤١. زاباروف: الصليبيون في الشرق، ص٢١٣، ٢٨١-٢٨٢. غوانمة: معاهدات الصلح والسلام، ص٦٣.

[٢] لمزيد من التفاصيل عن جبيل وأهميته ودورها راجع سامية، الصليبيون في فلسطين، ص٧-١١، ١٥- وما يليها.

[٣] كنز الدرر، ج٧، ص١٣٧. ابن واصل: مفرج الكروب، ج٣، ص٧٨.

[٤] الذهبي: تاريخ الإسلام، ج٤٢، ص١٩.

[٥] ابن الأثير: الكامل، ج١٠، ص١٤٨. أبو شامة: عيون الروضتين، ج٤، ص٤٤٢.

[٦] زاباروف: الصليبيون في الشرق، ص٢٨١. Eracles, op. cit, p. 228. عمران: الحملة الخامسة، ص٩١.

[٧] رنسيمان: تاريخ الحروب، ج٣، ص١٨٠.

## ثانياً: انعكاسات حرب الوراثة على العلاقات الأيوبية الصليبية بعد توقيع هدنة ٥٩٤هـ/ ١١٩٨م

بعد توقيع هدنة عام ٥٩٤هـ/ ١١٩٨م بين العادل وعموري لوزجنان انصرف بعدها العادل إلى استكمال توحيد الدولة الأيوبية، وخاض حرباً داخلية استمرت حتى عام ٥٩٨هـ/ ١٢٠١م، والبحث هنا ليس بصدد التفصيل في هذه الحرب، والمهم أن العادل تمكن آنذاك من توحيد الدولة الأيوبية، وأصبح حاكماً لكل من مصر ودمشق وبيت المقدس؛ بالإضافة إلى أملاكه في الشرق، وأخذ يعيد تنظيم المملكة بعد التفكك الذي أصابها إثر وفاة أخيه صلاح الدين، فولّى ابنه الأكبر الكامل محمد مصر نائباً عنه، وابنه المعظم عيسى دمشق، وابنه الثالث الأشرف موسى حران والرها، والرابع وهو الأوحد نجم الدين تولى ميافارقين، وفي قلعة جعبر استقر ابنه الحافظ نور الدين، في حين استمرت حلب تحت حكم ابن أخيه الظاهر، وكذلك سميساط وأعمالها تحت حكم الأفضل وكلاهما تابع للعادل، وأقطع حماة وأعمالها للمنصور بن العزيز.[١]

وعند النظر إلى علاقات العادل مع مملكة القدس اللاتينية الثانية خلال هذه المرحلة لا يمكن تجاهل تلك الأحداث والصراعات الداخلية التي فُرضت على العادل إبَّانَ حرب الوراثة، ومع ما وُصِفَ به العادل من الصفات الحسنة والحيلة والذكاء والنشاط، وشهادة المؤرخين بحرصه على الجهاد ضد الصليبيين،[٢] ولكن يبدو أنه كان مضطراً في بداية حكمه إلى اتباع سياسة المهادنة تجاه الصليبيين، والاقتصار على سياسة الدفاع عن دولته، وتخليه عن سياسة الهجوم على ممتلكات الصليبيين في الشام، خشية أن يؤدي ذلك إلى قيام حملة صليبية جديدة في الوقت الذي كان منهمكاً به في اخضاع الممالك الأيوبية، ويعمل على توحيدها وإعادة ترتيب أموره الداخلية فيها، ومن هنا فقد تميَّزت سياسة العادل

---

[١] أبو شامة: عيون الروضتين، ج٤، ص٤٤٣-٤٥٨. ابن العبري، غريغوريوس يوحنا: تاريخ مختصر الدول، أنطون صالحاني اليسوعي، دار الشرق، بيروت، ط٣، ١٩٩٢م، ص٢٣٢.

وللمزيد عن حرب الوراثة في هذه المرحلة ومساعي العادل لتوحيد الدولة انظر: ابن الأثير: الكامل، ج١٠، ص١٥٠-١٦٢، ١٦٩، ١٧٣-١٧٦، ١٨٠-١٨١. ابن واصل: مفرج الكروب، ج٣، ص٨٠-٨١، ٩٥ وما يليها. النويري: نهاية الأرب، ٢٨، ص٤٤٥-٤٥٢، ٢٩، ص٩-١١، ١٩-٣٥.

[٢] الذهبي: سير أعلام النبلاء، ١٦، ص١٢٠-١٢١. الذهبي: تاريخ الإسلام، ج٤٤، ص٢٦٩-٢٧٧. ابن كثير، أبو الفداء اسماعيل بن عمر، ت٧٧٤هـ: طبقات الشافعيين، تح: أحمد عمر هاشم ومحمد زينهم، مكتبة الثقافة الدينية، ١٩٩٣م، ص٧٩٠-٧٩٢.

آنذاك بعدم رفضه لأي هدنة جديدة معروضة عليه من قِبل الصليبيين، ويمكن تسويغ قبول العادل بهدنة ٥٩٤هـ/ ١١٩٨م رغبة منه في التفرغ لأمور الدولة الداخلية وتسوية نزاعاتها، وإعادة الوحدة إليها، ودليل ذلك استيلاؤه على مصر بعدها.

**ثالثاً: العلاقات الأيوبية الصليبية بعد هدنة عام ٥٩٤هـ/ ١١٩٨م وأثناء الحملة الرابعة**

خيم الهدوء على العلاقات بين الجانبين، وهدأت جبهة الصراع الأيوبي الصليبي بعد هدنة ٥٩٤هـ/ ١١٩٨م، واستمر ذلك حتى وصول مقدمات الحملة الصليبية الرابعة إلى عكا، وكان الذي هيأ الظروف لهذا الهدوء وساعد على استمراره انشغال الطرفين بمشاكله الداخلية.

فعلى الجانب الأيوبي تجددت الصراعات الداخلية فيما بينهم، واستمرت حتى سنة ٥٩٨هـ/ ١٢٠٢م، فقد تمكن العادل من فرض سيادته على الدولة الأيوبية بشكل شبه كامل، واعترف أبناء أخيه صلاح الدين له بذلك[١]، علماً أنه قد تولى السلطنة بشكل كامل كأتابك عن المنصور ابن العزيز ابن صلاح الدين منذ ٢٢ ربيع الآخر ٥٩٦ هـ/ ١٠ شباط ١٢٠٠م.[٢]

وعلى الجانب الصليبي اضطربت الأوضاع الداخلية في إمارة أنطاكية منذ صفر ٥٩٣ هـ/ بداية عام ١١٩٧م، إذ توفي حاكمها ريموند، وغرقت الإمارة في حرب داخلية في عام هـ/ ١٢٠١م على شاكلة حرب الوراثة الأيوبية، وكان لزاماً على حاكم مملكة القدس عموري أن يرقب الوضع هنا وهناك ملتزماً طرف الحياد على الرغم من أنه كان يميل إلى حزب ريموند روبين الصغير - ابن ريموند المتوفي-.[٣]

---

[١] للمزيد عن هذه الصراعات انظر: ابن واصل: مفرج الكروب، ج٣، ص٨٠-١٣٣. ابن الأثير: الكامل، ج١٠، ص١٤٩ وما يليها. المقريزي: السلوك، ج١، ص٢٥٧-٢٧١.

[٢] ابن الأثير: الكامل، ج١٠، ص١٦٩، ١٧٣. ابن واصل: مفرج الكروب، ج٣، ص١١٠-١١١. النويري: نهاية الأرب، ج٢٨، ص٤٥٦-٤٦٢.

[٣] للمزيد راجع رنسيمان: تاريخ الحروب، ج٣، ص١٨١-١٨٥.

وربما أن عموري فضَّل التزام طرف الحياد؛ لأن المحافظة على الصلح والسلام مع المسلمين كانت أولويته، على الأقل ريثما تصل الحملة الكبيرة التي وصلت مسامعها إليه، وأنه يتم الإعداد لها في أوربا وهي الحملة الرابعة.[١]

ويمكن اختصار القول: إن الصليبيين في مملكة القدس اللاتينية الثانية بعد الحملة الألمانية لم يتجرؤوا على خرق الهدنة مع الأيوبيين على الرغم من انشغال الأخيرين في حرب الوراثة والنزاعات الداخلية.

ففي عام ٥٩٩هـ/ نهاية ١٢٠٢م وصل إلى عكا أسطول فلمنكي، وتبعه بعد عدة أيام سفن من مرسيليا تحمل جماعة من الفرسان بقيادة أسقف أوتون وكونت قوريز، ثم تلاهم جماعة أخرى من النبلاء والفرسان الفرنسيين قَدِمُوا على سفن من البندقية، وكغيرهم من الصليبيين الجدد كانوا متحمسين لقتال المسلمين، وأخذوا يحرضون صليبيي المملكة ضد المسلمين، إلا أنهم ارتاعوا عندما عارضهم الملك عموري بعدم قبوله خرق الهدنة مع الأيوبيين، وأمرهم بالتريث والانتظار؛[٢] لذا فإن عموري تلقى الشتيمة والاتهام بالجبن علناً من أحد قادة هؤلاء؛ وهو رينالد دامبيير.[٣]

وأمام إصرار عموري على عدم خرق الهدنة قرر هؤلاء الصليبيون الجدد التوجه إلى أنطاكية لخدمة أميرها، كونه في حالة حرب مع الأيوبيين، وفي الطريق بين طرابلس وأنطاكية، وتحديداً في اللاذقية التي كانت تابعة لحلب آنذاك تعرضوا لكمين من قبل المسلمين، فأُسِر وقُتل كثير منهم.[٤]

---

[١] عن هذه الحملة وانحرافها نحو القسطنطينية انظر: فيلهاردين: الاستيلاء على القسطنطينية، تر: سهيل زكار، الموسوعة الشاملة في تاريخ الحروب الصليبية، ج١٠، ص٦-١١٥. دي كلاري، روبرت: سقوط القسطنطينية للصليبيين، تر: سهيل زكار، الموسوعة الشاملة في تاريخ الحروب الصليبية، ج١٠، ص٢٠٠-٢٤٧. ابن الأثير: الكامل، ج١٠، ص١٩٧-١٩٨. زاباروف: الصليبيون، ص٢١٤-٢٧٨.

[٢] دي فتري: المنتقى، عن الموسوعة، ج٣٣، ص٢٤٥-٢٤٦. المقريزي: السلوك، ج١٠، ص٢٧٣. غروسيه، ص٢٤٤. رنسيمان: تاريخ الحروب، ج٣، ص١٨٦.

[٣] لم يتسن للبحث الوقوع على هذه المعلومة سوى عند رنسيمان: تاريخ الحروب، ج٣، ص١٨٦.

[٤] دي فتري: المنتقى، عن الموسوعة، ج٣٣، ص٢٤٥-٢٤٦. رنسيمان: تاريخ الحروب، ج٣، ص١٨٧. حومد: تاريخ الجهاد، ج٢، ص١٩٠.

ويبدو أن هذه الجماعات من الصليبيين لم تكن كثيرة العدد، حوالي ثلاثمئة شخص، وربما كانت مقدمة للحملة الرابعة التي قُدِّر لها أن تنحرف في تلك الأثناء إلى القسطنطينية. وعلى الرغم من عودة هذه الجماعات الصليبية الجديدة ومعارضة صليبيي المملكة لهم، وعدم نقضهم للهدنة إلا أن الجو السياسي بدأ يتجه نحو التوتر بين الطرفين (الأيوبي والصليبي).

لابدّ هنا من الذكر أن عموري لم يكن لين الجانب أو سهلاً في تعامله مع المسلمين، وإنما كان سياسياً حاذقاً وحذراً، تميز بالرصانة والحكمة، ولا بدَّ أنه كان يرغب بقدوم حملة صليبية كبيرة تمكنه من استرجاع القدس من أيدي المسلمين، أما وإن وصلت أعداد قليلة من الصليبيين المتحمسين فإن ذلك لم يثير غروره، ولربما عَلِمَ عن ظهر قلب أنهم لن يفيدوه بشيء على أرض الواقع، وسوف يؤدي الانصياع لحماسهم إلى انهيار الهدنة المعقودة مع المسلمين، وربما يؤدي ذلك إلى إثارة حمية الجهاد لدى المسلمين، وفي ذلك مافيه من مخاطر على المملكة الناشئة التي لم تتوطد أركانها بعد. ويمكن اختصار وصف سياسة هنري بأنها اقتصرت على الدفاع عن مصالح المملكة دون الهجوم مع الاستعداد والتأهب لرد أي عدوان من جانب المسلمين، والمثال على ذلك أن أميراً مصرياً امتلك قلعة في منطقة صيدا، ودأب على القيام بغارات عدوانية على ممتلكات مملكة القدس وبعض السفن التابعة لها، واستولى في ربيع الآخر ٦٠١ هـ/ نهاية عام ١٢٠٤م على سفينتين للصليبيين قرب شواطئ قبرص، وضِمْنَ سياسة الدفاع التي اتخذها عموري فإنه أرسل إلى الملك العادل يشكوا له أفعال ذلك الأمير، إلا أنه لم يفلح بذلك، وتذرَّع العادل بأنه عاجز عن اخضاع ذلك الأمير أو كفِّه عن العدوان، وعندئذٍ لجأ عموري - كرد انتقامي- إلى اعتراض قافلة بحرية مصرية تقصد اللاذقية، وتبلغ عشرين سفينة، فاستولى عليها جميعها بما تحمله من بضائع قدِّرت بنحو ستين ألف دينار، وأسر بحارتها الذين بلغ عددهم المائتين.[1]

تزامن ذلك مع استيلاء صليبيو الحملة الرابعة على القسطنطينية عام ٦٠٠هـ/ ١٢٠٤م، ونزول بعض الجماعات من بقايا تلك الحملة في عكا، وكانت هذه الجماعات من الصليبيين الجدد المتحمسين للهجوم على بيت المقدس، وقد تشجعوا بامتلاك إخوانهم لمدينة القسطنطينية في تلك الأثناء؛ لذا عزموا على الاستيلاء على مدينة بيت المقدس وأخذها من المسلمين، وقاموا بأعمال النهب والسلب والسبي

[1] كنز الدرر، ج٧، ص١٥٩. رنسيمان: تاريخ الحروب، ج٣، ص١٨٧. عاشور: الحركة الصليبية، ج٢، ص١٩٤.

بنواحي الأردن،[١] ويبدو أن موقف عموري في هذه المرة لم يكن كسابقه، إذ تساهل معهم، وكان على رأسهم في تلك الأعمال، حيث شرع في الإغارة على إقليم الجليل مستعيناً بالداوية والإسبتارية، واستمر تقدمهم حتى كفركنا التي تقع على الطريق بين عكا وطبرية، وقطعوا الطريق هناك، وأخذوا كل من بها مع أموالهم، وعزموا على الهجوم على بيت المقدس.[٢]

هنا ظهر للعادل أن عموري قد نقض الهدنة التي بينهما، وكان العادل موجوداً آنذاك في دمشق، فخرج مسرعاً منها في نهاية عام ٦٠٠هـ/ منتصف ١٢٠٤م متوجهاً إلى جبل الطور الذي يقع في الجنوب الشرقي من عكا ليمنع الصليبيين من التقدم إلى الممتلكات الإسلامية، وأنزل الجيش في قبالتهم، ورابط أمامهم في جنوب كفركنا، وكتب إلى سائر البلاد الإسلامية يستدعي العساكر للحرب، ويطلب النجدة.[٣]

ويبدو أن الطرفين لم يكونا مستعدين أو راغبين في الدخول في حرب مفتوحة أو معركة حاسمة، ويبدو أنهما كانا ينتظران خروج الحملة الصليبية الرابعة من القسطنطينية ووصولها إلى الشام؛ لذا تجمد الموقف بينهما وبقي على حاله دون تقدم من أحدهما.

وربما أن العادل الذي وصلت إليه أخبار الحملة الرابعة لم يرغب باستنفاذ قواته في مناوشات محلية مع الملك عموري، وما وصله من جماعات متفرقة عُدّت من بقايا الحملة الرابعة، وعلى هذا يبدو أنه آثر ادخار الجهد والطاقات والإمكانيات لمواجهة الحملة الرابعة المُنتظر خُروجها من القسطنطينية إلى بلاد الشام، وتحمَّل إلحاح أمرائه الذين نفذ صبرهم على اعتداءات الفرنج، وكانوا يرون الهجوم على ممتلكاتهم، إلا أن العادل لم يوافقهم الرأي.[٤]

---

[١] ابن واصل: مفرج الكروب، ج٣، ص١٣٥، ١٥٩. النويري: نهاية الأرب، ج٢٩، ص٣٥.ابن الأثير: الكامل، ج١٠، ص٢٠٠. عمران: الحملة الخامسة، ص٩٥-٩٦.

[٢] ابن الأثير: الكامل، ج١٠، ص٢٠٠. المقريزي: السلوك، ج١، ص٢٧٥. رنسيمان: تاريخ الحروب، ج٣، ص١٨٧. الأيوبيون بعد صلاح الدين، ص٨٩.

[٣] ابن واصل: مفرج الكروب، ج٣، ص١٥٩، ١٦٢. المقريزي: السلوك، ج١، ص٢٧٥. ابن الأثير: الكامل، ج١٠، ص٢٠٠. النويري: نهاية الأرب، ج٢٩، ص٣٥. رنسيمان: تاريخ الحروب، ج٣، ص١٨٧-١٨٨. عمران: الحملة الخامسة، ص٩٦.

[٤] ابن الأثير: الكامل، ج١٠، ص٢٠٠. عمران: الحملة الخامسة، ص٩٦. عاشور: الحركة الصليبية، ج٢، ص١٩٤.

وفي حال قرر العادل الدخول في معركة مع صليبيي مملكة القدس اللاتينية الثانية فلا بدَّ أن ذلك سيؤدي إلى لفت النظر والانتباه من قِبَل الغرب الأوربي بشكل عام ومن قبل الصليبيين الذين استقروا في القسطنطينية بشكل خاص، مما قد يثير حميتهم وحماسهم، ويجعلهم يسرعون إلى إنقاذ إخوانهم في مملكة القدس، ولربما هذا هو السبب الذي جعل العادل يبدي قدراً كبيراً من الحكمة والتأني في الرد على الصليبيين، كما يمكن القول: إن واقع الأيوبيين وعدم ثقة العادل بأبناء أخيه وخشيته جانبهم كان له دور مهم في ذلك.

ويبدو أن تلك الأسباب جعلت العادل لا يرد بعنف على الأسطول الصليبي الذي هاجم دلتا النيل في العام نفسه شوال ٦٠٠هـ/ حزيران ١٢٠٤م، حين دخلوا النيل من جهة رشيد ووصلوا إلى فوَّة، وأقاموا خمسة أيام ينهبون ويسبون، إلى أن انسحبوا سالمين دون أن يحدث أي اشتباك[١]، وكان منتهى رد العادل على تلك الاعتداءات القيام ببعض الأعمال الاحترازية، حيث طلب المساعدات والإمدادات من جميع أنحاء الدولة، وأقام بعض التحصينات، ولاسيما حول دمشق حيث بنى حول سورها فصيلاً دائرياً بالكلس والحجر وعمَّق خندقها وأجرى فيه الماء،[٢] وأرسل العديد من العساكر والحجارين والنقابين الذين قدِموا إليه من حلب إلى مصر لحفظها من اعتداءات صليبية محتملة،[٣] وبالعام نفسه ٦٠٠هـ/ ١٢٠٣م وردته الأخبار بحركة الفرنج نحو جبلة واللاذقية، فسيّر إليها العساكر لهدمها وخرابها.[٤]

والذي يلفت النظر هنا هو خروج عموري عن سياسة الهدوء والحذر في تعامله مع العادل، فبالأمس القريب فضّل عدم الاشتباك معه، والآن يقوم بهجوم خطير على الدلتا المصرية، ويبدو أن هذا الهجوم جاء ضمن سياسة الرد الانتقامي التي قام بها عموري رداً على أعمال الأمير المصري في منطقة صيدا سالف الذكر، أو ربما أن هذا الهجوم كان بمثابة حملة استكشافية لمصر تمهيداً لعمل آخر مرتقب.

---

[١] ابن واصل: مفرج الكروب، ج٣، ص١٦١. أبو الفداء: المختصر، ج٣، ص١٠٦. المقريزي: السلوك، ج١، ص٢٧٥. النويري: نهاية الأرب، ج٢٩، ص٣٧. رنسيمان: تاريخ الحروب، ج٣، ص١٨٨. عمران: الحملة الخامسة، ص٩٧.

[٢] ابن واصل: مفرج الكروب، ج٣، ص١٤١. المقريزي: السلوك، ج١، ص٢٧٣.

[٣] ابن واصل: مفرج الكروب، ج٣، ص١٣٥. المقريزي: السلوك، ج١، ص٢٧٣.

[٤] ابن العديم: زبدة الحلب، ج٢، ص٦٢٥.

ولا شك أن عموري؛ وهو حاكم مملكة القدس اللاتينية الثانية كان على اطلاع أكبر بكثير من معرفة العادل بأخبار الحملة الرابعة، ولا بدَّ أن الأخبار قد وصلته بأن الحملة الصليبية الرابعة قد استقرت في القسطنطينية، وأن قادتها لا يريدون المتابعة إلى ساحل بلاد الشام، وبذلك فقد عموري كل أمل له في وصول مساعدة سريعة وفعالة من الغرب؛ لذا عمد إلى الإسراع في تجديد الصلح مع العادل وتوثيق العلاقة معه.

وربما أن عموري لاحظ بثاقب بصيرته مدى تفوق ووحدة السياسة الأيوبية منذ تسلم العادل للسلطنة في عام ٥٩٦هـ/ ١٢٠٠م، وتطويعه وإنهائه لكل معارضة له منذ عام ٥٩٨هـ/ ١٢٠٢م، وبعبارة أخرى ربما أن عموري شعر بضعف موقفه أمام الأيوبيين، لذلك أسرع إلى توقيع هدنة معهم بما يضمن له الهدوء والاستقرار ريثما تتحسن أوضاع مملكته، أو ريثما تصلهم حملة صليبية أو مساعدات جديدة تم استدعاؤها من قبله.

ولا بدّ هنا من الإشارة إلى أن أهم العوامل التي ساعدت على بروز وتفوق السياسة الأيوبية آنذاك، وهي عدم اكتفاء العادل بالأعمال الاحترازية الداخلية، وانما اتجاهه منذ البداية نحو الخارج لضرب الفرنج في صميمهم، فعقد اتفاقيات منفردة معهم، كان أولها المعاهدة الشهيرة التي وقّعها مع البنادقة في ٧ رمضان ٥٩٨هـ/ ٣١ أيار ١٢٠٢م، واتخذت هذه الاتفاقية مظهراً اقتصادياً وتجارياً حيث منحهم بموجبها امتيازات تجارية جديدة وكبيرة في بلاد الشام ومصر، ولا شك أنها حملت في داخلها كثيراً من المظاهر السياسية التي ضمنت للعادل حياد تلك القوة البحرية الكبيرة تجاه أي اشتباك أو نزاع أيوبي مع صليبيي مملكة القدس اللاتينية الثانية،[1] وعدم اشتراكهم مستقبلاً في أي حملة صليبية ضده، ولا بدّ أن هذه الاتفاقية أصبحت فيما بعد – بمحض الصدفة– أحد الأسباب المهمة في انحراف الحملة الصليبية الرابعة نحو القسطنطينية، إذ لا يَغْرُب على أحد من الباحثين الدور الذي شغله البنادقة في هذا الأمر.

---

[1] الموسوعة الموجزة في التاريخ الإسلامي، الدولة الأيوبية، ج٥-٦. زاباروف: الصليبيون، ص٢٣٢-٢٣٣. أرنست باركر، ص١٠٣.رنسيمان: تاريخ الحروب، ج٣، ص٢٠٦. الخريسات: السياسة الأيوبية، ص٢٣. عاشور، فايد حماد محمد: العلاقة بين البندقية والشرق الأدنى الإسلامي في العصر الأيوبي، دار المعارف، مصر،١٩٨٠م، ص٢٠٧-٢٠٨.

**رابعاً: هدنة عام ٦٠١هـ/ ١٢٠٤م**

أدرك عموري تفوق السياسة الأيوبية عليه، وبعد أن عَلِمَ باستقرار الحملة الرابعة في القسطنطينية أدرك ضرورة تجديد الصلح مع المسلمين، فراسل العادل في ذلك، وأثناء المراسلات أظهر الأخير أنه لا يقل رغبةً عن الأول في عقد الصلح، إذ إنه أظهر سياسة تقوم على التسامح الديني والعناية بالتبادل التجاري، وربما أرغمه على ذلك ما تعانيه الدولة الأيوبية من خلافات ومشاكل داخلية مقابل نشاط حركة الفرنج في تلك المرحلة، سواءً من أوربا إلى فلسطين أم نشاطهم في داخل الإمارات الصليبية، وتمثَّل ذلك في قدوم جماعات فرنجية جديدة إلى عكا وغيرها من مراكز الفرنج في المنطقة، كما تقدم شرحه في الحديث عن وصول بقايا الحملة الرابعة وما تبعها من اشاعات.

ويبدو أن الطرفين فضلوا العلاقات السلمية القائمة على التنازلات والمبادلات والاتفاق السلمي، وترددت الرسل بينهما إلى أن تقررت الهدنة بين الطرفين في بداية سنة ٦٠١هـ/ أيلول ١٢٠٤م، وبعدها رحل العادل إلى مصر وأقام بالقاهرة، وبموجب الصلح تنازل لهم العادل عن يافا كما تنازل لهم عن بلاد المناصفات (أي التنازل عن كل ما كان مناصفة بين المسلمين والصليبيين من المناطق)، وتختلف المصادر في ذكر تلك البلاد التي تنازل عنها العادل، فابن واصل يذكر اللد والرملة[١]، والنويري يذكر الرملة والناصرة،[٢] ويضيف ابن الأثير نصف صيدا،[٣] ولكن ورود كلمة "بلاد المناصفات" في هذه المصادر تعني التنازل عن كامل المناطق التي كانت مناصفةً بين المسلمين والصليبيين، وورد هذا واضحاً عند ابن الأثير عندما قال: "ونزل لهم عن جميع المناصفات في الصيدا والرملة وغيرهما، وأعطاهم ناصرة وغيرها"[٤]. وأصبحت جميع تلك المناطق ضمن نفوذ مملكة القدس اللاتينية الثاني، وكان التنازل عن

---

[١] ابن واصل: مفرج الكروب، ج٣، ص١٦٢. عاشور: الحركة الصليبية، ج٢، ص١٩٦. نقلاً عن Grousset; op. Cit. III, p. 184.

[٢] النويري: نهاية الأرب، ج٢٩، ص٣٥.

[٣] ابن الأثير: الكامل، ج١٠، ص٢٠١.

[٤] ابن الأثير: الكامل، ج١٠، ص٢٠١. وللمزيد عن هذه الهدنة: المقريزي: السلوك، ج١، ص٢٧٧. أبو الفداء: المختصر، ج٣، ص١٠٦.غروسيه، ص٢٤٤. زاباروف: الصليبيون في الشرق، ص٢٨١. غوانمة: معاهدات الصلح والسلام، ص٦٤. عاشور: الحركة الصليبية، ج٢، ص١٩٦. نقلاً عن Grousset; op. Cit. III, p. 184.

نصف صيدا يعني سيطرة الصليبيين على كل السهل الساحلي، ومن ثم تسهيل مهمة الحجاج المسيحيين.

والذي يلفت الانتباه أن المصادر العربية لم تحدد مدة الهدنة - كسابقتها- حيث ترد عند ابن واصل: "تقررت بينهم وبينه الهدنة مدةً اتُفق عليها"[١]، وكذلك عند المقريزي[٢]، بينما ذكرت المصادر اللاتينية أن مدتها ست سنوات[٣]. ويبدو أن هذه المصادر اعتمدت في تحديد هذه المدة على مجريات الأحداث؛ إذ ظهر الحديث عن تجديد الهدنة بين العادل والصليبيين بعد ست سنوات من تاريخها. وأيضاً مما يُلفت النظر أن المصادر الإسلامية لم تحدد الإطار المكاني الذي شملته الهدنة، سوى ما ورد عند ابن الأثير "فاصطلح هو والفرنج على دمشق وأعمالها وما بيد العادل من الشام"[٤]؛ أي أن هذه الهدنة لم تشمل سوى دمشق وأعمالها، ويؤكد على ذلك سير الأحداث، إذ إن الفرنج هجموا في العام المقبل على حماة وحمص واللاذقية وجبلة، كما سيأتي الحديث على ذكره.

وفي العودة إلى أعالي الشام، وبالتحديد إلى منطقة حماة فما إن تم توقيع هدنة ٦٠١هـ/ ١٢٠٤م وغادر العادل إلى مصر، واستقر في القاهرة حتى بدأ التوتر يعود إلى منطقة حماة، وقصدها الفرنج بنية الهجوم عليها، وهنا لا بدَّ من بسط الحديث قليلاً عن العلاقات بين مملكة القدس والمنصور صاحب حماة.

---

[١] ابن واصل: مفرج الكروب، ج٣، ص١٦٢.

[٢] المقريزي: السلوك، ج١، ص٢٧٧.

[٣] رنسيمان: تاريخ الحروب، ج٣، ص١٨٨.

[٤] ابن الأثير: الكامل، ج١٠، ص٢٠١.

## خامساً: العلاقات بين مملكة حماة الأيوبية ومملكة القدس اللاتينية الثانية خلال مرحلة توحيد التاج

لم تخرج حماة في سياستها وعلاقتها مع مملكة القدس اللاتينية الثانية عن السياسة العامة التي سارت عليها الدولة الأيوبية التي تمثّلت بمقاومة ومناهضة الوجود الصليبي في المنطقة، ومثّلت حماة واحدة من قلاع المقاومة الداخلية التي صمدت أمام الخروقات الصليبية المتكررة، ولاسيما خروقات الإسبتارية في قلعة الحصن وهجماتهم المتكررة على حماة كلما شعروا بقوتهم أو شعروا بضعف خصمهم، وتصدى لهم أيوبيو حماة من أسرة تقي الدين عمر (ابن أخ صلاح الدين) بكل قوة وحزم، فمنذ عصر صلاح الدين شُهر عمر ابن أخيه في قيادته للمعارك ضد الصليبيين ومقارعته لهم، وأصبحت له مكانة خاصة عند صلاح الدين، وغالباً ما ولّاه ميمنة الجيش في المعارك، واستمر ملوك حماة من نسله يقودون ميمنة القوات الأيوبية في أي معركة يشاركون بها، وتوارثوا هذه المكانة.[١]

في هذه المرحلة شُهر المنصور محمد بن تقي الدين عمر، حيث تولى حكم حماة بين عامي ٥٨٧-٦١٧هـ/ ١١٩١-١٢٢٠م، والتزم سياسة عمه العادل تجاه صليبيي مملكة القدس، وكانت تلك السياسة تميل إلى الهدوء والاستقرار لِما كان يعانيه البيت الأيوبي من تمزق وصراع داخلي عنيف، إلا أنه لم يسمح لهم، ولم يتجاهل أي اعتداء على أطراف مملكته، فعندما وصلت إلى عكا مقدمات الحملة الصليبية الرابعة في عام ٥٩٩هـ/ ١٢٠٢م، وأدى ذلك إلى رفع الروح المعنوية لدى صليبيي مملكة القدس، ولاسيما الموجودين منهم في حصن الأكراد والمرقب وطرابلس، فتجمَّعوا بفارسهم وراجلهم بزعامة الإسبتارية بغرض قصد مدينة حماة لإجبار صاحبها على تسليم حصن بعرين الواقع في قبالة حصن الأكراد،[٢] وما إن عَلِمَ ملك حماة المنصور محمد بتلك الأخبار حتى أسرع بعساكره إلى بعرين ودخل قلعتها، واتخذ كل الاحتياطات والإجراءات اللازمة لمواجهة الفرنج والتصدي لهم.[٣]

وعلى الرغم من الصراع الداخلي الكبير الذي كانت تعاني منه الأسرة الأيوبية من جرّاء حرب الوراثة؛ إلا أنه تمثَّل في حماة آنذاك شكلاً جميلاً من أشكال الوحدة الإسلامية- العربية، وذلك أن

---

[١] أبو الفداء: المختصر: ج٣، ص١٢٤، ١٤٣. الحايك: العلاقات الدولية، ج٢، ص١٨٣. سميث: الإسبتارية، ص٢٤٤.

[٢] ابن واصل: مفرج الكروب، ج٣، ص١٤١. المقريزي: السلوك، ج١، ص٢٧٣. الحايك: العلاقات الدولية، ٢، ص١٨٣.

[٣] ابن واصل: مفرج الكروب، ج٣، ص١٤١. أبو الفداء: المختصر، ج٣، ص١٠٣. تاريخ ابن الوردي،ج٢، ص١١٨.

المنصور ما إن أرسل إلى العادل يُعلمه بتطور تلك الأحداث ويطلب منه المساعدة حتى أعطى العادل الأوامر للقوات الأيوبية في كل من حمص وبعلبك بالتوجه السريع إلى حماة لمساندة المنصور في التصدي للصليبيين،[١] وأمر ملكي حمص وبعلبك (المجاهد والأمجد بهرام شاه) بالانصياع لآراء الملك المنصور صاحب حماة وطاعته، وكذلك وجّه بمثل تلك الرسائل إلى ابن أخيه الملك الظاهر صاحب حلب.[٢]

وبفضل هذه المساعدات والقوات التي وصلت إلى المنصور تمكن في ٣ رمضان ٥٩٩هـ/ منتصف أيار ١٢٠٣م من تحقيق نصر كبير على تجمع الصليبيين في قبالة حصن بعرين، وأسر عدداً من مقدميهم وخيالتهم وأرسلهم إلى حماة.[٣]

وكانت تلك ضربة كبيرة تلقاها الصليبيون على يد حاكم حماة، لدرجة أن الإسبتارية الذين مثّلوا قادة الصليبيين في تلك الهجمات تدخلوا لدى الداوية للتوسط بينهم وبين المسلمين، كون الداوية على علاقات حسنة مع الملك المنصور آنذاك، فعمد الداوية إلى تهويل الأمر لدى المنصور بتعظيم حجم القوات الصليبية القادمة في البحر؛ وذلك لإقناع المنصور ورضوخه للصلح،[٤] وذكر له رسول الداوية أنه قد نزل بعكا من الفرنج نحو ستين ألفاً من فارس تُرْكَبُلي[٥] وراجل، وأنهم يقصدون جهة جبلة واللاذقية.[٦]

---

[١] ابن واصل: مفرج الكروب، ج٣، ص١٤١. أبو الفداء: المختصر، ٣، ص١٠٣.

[٢] ابن واصل: مفرج الكروب، ج٣، ص١٤٢.

[٣] ابن واصل: مفرج الكروب، ج٣، ص١٤٣. المقريزي: السلوك، ج١، ص٢٧٣. أبو الفداء: المختصر، ج٣، ص١٠٣. الحنبلي، أحمد بن إبراهيم: شفاء القلوب في مناقب بني أيوب، تح: ناظم رشيد، دار الحرية للطباعة، بغداد، ١٩٧٩م، ص٣٣٨.

[٤] ابن واصل: مفرج الكروب، ج٣، ص١٤٦.

[٥] التركبلي لفظة يونانية، معناها أبناء أو سلالة الترك، وهو مصطلح أطلقه البيزنطيون على فرقة من فرق جيشهم تلي في الأهمية فرقة الفرسان، وينحذر أفرادها من أب تركي أو عربي وأم يونانية، ويبدو أن البيزنطيين بعد معركة ملاذكرد مع السلاجقة قد شكّلوا هذه الفرقة التي تعتمد في نظام قتالها على الكر والفر والحرب السريعة تشبهاً بالسلاجقة، وأثناء مرور الصليبيين في الأراضي البيزنطية خلال حملتهم الأولى اقتبسوا نظام هذه الفرقة وكوّنوا لأنفسهم فرقاً كثيرة تحمل الاسم نفسه وتتألف من قوى الخيالة الخفيفة المؤلفة من مسيحيي البلاد. انظر: غروسيه: موجز تاريخ الحروب الصليبية، ص٨٥. ابن واصل: مفرج الكروب ٢، ص١٤٩ حاشية رقم ١. ويذكر أسامة بن منقذ: أن التركبولي هم رماة الإفرنج. انظر: الاعتبار، تح: سهيل زكار، عن الموسوعة، ج١٢، ص١٧٧.

[٦] ابن واصل: مفرج الكروب، ج٣، ص١٤٦. المقريزي: السلوك، ج١، ص٢٧٣.

وذكر له الرسول أن مقدمي الداوية والإسبتارية يسعيان في تحقيق الصلح بين الأرمن وصليبيي أنطاكية، وستجتمع كلمة الجميع على حرب المسلمين.[١] ولكن المنصور لم يكترث بكل ذلك ورفض الصلح مع الإسبتارية، وكان في جملة رده على رسول الداوية "إنّا لا نجزع بما تقول ولا نكترث، ولو أنهم أضعاف ذلك لناجزتهم".[٢]

وكان رد الصليبيين على ذلك أنهم تجمعوا من جديد للهجوم على حصن بعرين، وانضم إليهم بعض الصليبيين الجدد، وبلغ تعدادهم جميعاً حوالي ٤٠٠ فارس و١٢٠٠ راجل أغلبهم من إسبتارية قلعتي الحصن والمرقب، وهاجموا حصن بعرين بالعام نفسه ٥٩٩هـ/ ١٢٠٣، وكانت النتيجة كسابقتها، حيث انتصر عليهم المنصور، وهزمهم وقتل منهم مقتلة عظيمة، وأخذ منهم أسرى إلى حماة.[٣]

ومن جديد كرر الإسبتارية طلب الصلح مع المنصور، فكتب المنصور يستشير الملك العادل بذلك فجاء رد العادل بالقبول، ولكن بشرط عدم التفريط بالحقوق، والشدة والصرامة في توقيع الصلح معهم، أي أن الصلح يجب أن يصب في مصلحة المسلمين، وزوده بمعلومات استخباراتية عن الفرنج فحواها أنه لا يوجد نجدة قريبة لهم في البحر، وأوضاعهم سيئة في المملكة،[٤] وانسجاماً مع جواب السلطان العادل استمرت قوات الملك المنصور مرابطة في قلعة بعرين تتربص تحركات الصليبيين إلى نهاية عام ٥٩٩هـ/ آب ١٢٠٣م، واستمر وصول النجدات إليه،[٥] وتكرر إلحاح الإسبتارية على توقيع الصلح إلى أن تم ذلك في بداية سنة ٦٠٠هـ/ ١٢٠٣م.[٦]

يبدو أن قبول المنصور لهذا الصلح في هذا التوقيت لم يكن عفوياً، بل ربما كان بأمر من العادل، إذ إن هذا الصلح أتى متزامناً مع وصول بقايا الحملة الصليبية الرابعة إلى عكا في بداية سنة ٦٠٠هـ/

---

[١] ابن واصل: مفرج الكروب، ج٣، ص١٤٧. المقريزي: السلوك، ج١، ص٢٧٣.

[٢] ابن واصل: مفرج الكروب، ج٣، ص١٤٧.

[٣] ابن واصل: مفرج الكروب، ج٣، ص٢٤٨-١٤٩. أبو الفداء: المختصر، ج٣، ص١٠٣. الحنبلي: شفاء القلوب، ص٣٣٨-٣٣٩.

[٤] ابن واصل: مفرج الكروب، ج٣، ص١٥٢. الخريسات: السياسة الأيوبية، ص٢٥.

[٥] ابن واصل: مفرج الكروب، ج٣، ص١٥٣. أبو الفداء: المختصر، ج٣، ص١٠٣.

[٦] ابن واصل: مفرج الكروب، ج٣، ص١٥٤. أبو الفداء: المختصر، ج٣، ص١٠٥. الحنبلي: شفاء القلوب، ص٣٣٩.

خريف ١٢٠٣م، وتعاضد عموري ملك مملكة القدس الثانية معهم، وكان على رأسهم في الغارات التي قاموا بها، وإعلان نيتهم الهجوم على بيت المقدس، وتصدي العادل لهم، وانتهى الحال بين الجانبين إلى توقيع هدنة عام ٦٠١هـ/ ١٢٠٤م كما سلف شرحه.

والمهم هنا من تلك المعاهدة أنها لم تشمل جميع أنحاء الدولة الأيوبية، واقتصرت على مناطق سيطرة العادل في الشام، ومن الجانب الآخر يبدو أنها لم تشمل جميع صليبيي مملكة القدس اللاتينية الثانية؛ لذا لم يَعُمَّ الاستقرارُ والهدوءُ في جميع المناطق طيلة مدة المعاهدة، وعاد التوتر يخيّم على منطقة حماة بعد توقيع الهدنة مباشرةً، ويبدو أن الهدنة التي عقدها المنصور معهم في العام الماضي كانت مدتها سنة واحدة فقط، فما إن انتهت هذه السنة حتى تجمع الصليبيون في سنة ٦٠١هـ/ ١٢٠٤م بقيادة الإسبتارية، وشنوا هجوماً على إحدى ضياع حماة، وتسمى "الرُقَيْطَا"، هي قريبة من باب حماة الغربي، وعندما خرج إليهم المنصور ألحقوا الهزيمة به، "وتبعوه إلى البلد، فخرج العامة إلى قتالهم، فَقَتَلَ الفرنجة منهم جماعةً وعاد الفرنج"[١]. ووصلت عساكر دمشق إلى حماة مُرسلة من قبل المعظم عيسى بن العادل بناءً على طلب المنصور، وذلك استعداداً لمرحلة مقبلة مع الفرنج، إلا أن الرُسل ترددت بين الجانبين، وانتهت بتوقيع أو تجديد الصلح بينهما بالعام نفسه ٦٠١هـ/ نهاية ١٢٠٤م[٢]، وساد الهدوء والاستقرار على الجبهتين حتى عام ٦٢٦هـ/ ١٢٢٩م، حيث قامت الإسبتارية بالاعتداء على ممتلكات حماة كما سيأتي شرحه في الحديث عن العلاقات عقب توقيع صلح يافا.

في تلك الأثناء هجم الصليبيون على مدينة حمص "وقتلوا وأسروا جماعة فيها، وعادوا إلى بلادهم، ورداً عليهم أغار المجاهد أسد الدين صاحب حمص على مناطقهم حتى وصل حصن الأكراد، وأخذ من الغنم والمواشي ما لا يُحصى كثرة".[٣]

---

[١] ابن الأثير: الكامل، ج١٠/ ٢٠١. للاستزادة أنظر: سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان، ٢٢، ص١٤٣. ابن واصل: مفرج الكروب، ج٣، ص١٦٢-١٦٣. أبو الفداء: المختصر: ج٣، ص١٠٦. التاريخ المنصوري، ص٤٤. تاريخ ابن الوردي، ج٢، ص١٢٠. المقريزي: السلوك، ج١، ص٢٧٧. عاشور: الجهاد الإسلامي، ص٢٧٨.

[٢] ابن واصل: مفرج الكروب، ج٣، ص١٦٣-١٦٤. التاريخ المنصوري، ص٤٥. الحنبلي: شفاء القلوب، ٣٣٩. أبو الفداء: المختصر، ج٣، ص١٠٦. تاريخ ابن الوردي، ج٢، ص١٢٠.

[٣] ابن واصل: مفرج الكروب، ج٣، ص١٦٨. للاستزادة أنظر: المقريزي: السلوك، ج١، ص٢٧٧. السياسة الأيوبية، ص٢٦.

وفي نهاية عام ٦٠١هـ/ بداية ١٢٠٥م هاجم صليبيو طرابلس مدينتي جبلة واللاذقية التي كانتا تتبعان لصاحب حلب الملك الظاهر، وعندما قدِم عليهم عسكر حلب أوقعوهم في كمين وقتلوا وأسروا جماعة من المسلمين، وأخذوا كثيراً من الغنائم والسبايا ثم عادوا سالمين إلى طرابلس.[١]

وعند النظر إلى اتفاقية المنصور معهم سالفة الذكر وقبلها اتفاقية العادل أيضاً سنة ٦٠١هـ/ ١٢٠٤م وما تبع ذلك من غارات الفرنج على حمص واللاذقية وجبلة يظهر أنه سادت آنذاك فكرة الاتفاقيات المنفردة، أي اتفاق كل منطقة من مناطق المسلمين مع أخرى من مناطق الفرنج دون أن يشمل ذلك الاتفاق بقية المناطق في الجانبين، وذلك على عكس اتفاقية الرملة التي وقعها صلاح الدين عام ٥٨٨هـ/ ١١٩١م مع ريتشارد، وكانت صلحاً كاملاً شاملاً لكل الأطراف في الجانبين، وكما يقال إن "التاريخ يعيد نفسه"، فهذه الاتفاقيات والأحداث متشابهة جداً في المضمون والموقع الجغرافي والغاية القصوى منها مع حاضر العرب، وغدت تلك الاتفاقيات المنفردة مثلاً يحتذى به للعرب في التاريخ المعاصر ومحاولات الصهيونية القديمة المتجددة توقيع اتفاقيات منفردة مع الجانب العربي.

ولابدّ أنه كان لعموري لوزجنان يدٌ في هذه الاتفاقيات المنفردة؛ لِما امتاز به من حكمة سياسية وعقلية قانونية ومقدرة فائقة وحُسن سياسة تجاه المسلمين، تمثَّلت بشكل واضح في اتفاقيته الأخيرة مع الملك العادل عام ٦٠١هـ/ ١٢٠٤م التي تُعد إنجازاً دبلوماسياً لعموري، وتَصُب نتائجها في مصلحة مملكته وتُعلي من شأنه، إلا أنه لم ينعم بها طويلاً، حيث توفي في العام التالي لها في عكا عقب إسرافه في تناول وجبة سمك، وكان عمره آنذاك قد تجاوز الخمسين،[٢] وشكلت وفاته خسارة كبيرة لمملكة القدس الناشئة، وترتب عليها انفصال عُرى الوحدة بين تاجي قبرص ومملكة القدس، وتوجب على مملكة القدس اتباع سياسة جديدة تتفق مع مصالح حكامها الجدد.

ويمكن القول: إنه على الرغم من الاتفاقيات والمعاهدات الكثيرة الموقعة بين الجانب الإسلامي والصليبي فإن الحروب والمناوشات لم تتوقف تماماً بين الجانبين خلال المدة التي سبقت قدوم الحملة

---

[١] ابن واصل: مفرج الكروب، ج٣، ص١٦٦-١٦٧. المقريزي: السلوك، ج١، ص٢٧٧. عاشور: الجهاد الإسلامي، ص٢٧٩.

[٢] رنسيمان: تاريخ الحروب، ج٣، ص١٨٨-١٨٩. للاستزادة أنظر: ابن الأثير: الكامل، ج١٠، ص١٤٧.

الخامسة، ولم تكن تلك الهدن والاتفاقيات سوى فرصٍ لالتقاط الأنفاس، والاستعداد لمهاجمة الطرف الآخر، واسترداد الحقوق المزعومة كلٌ على هواه.

إلا أن تلك المناوشات لم تمنع تقارب وجهات النظر والاتصالات السلمية بين الجانبين، وظهور الرغبة الشديدة في التعايش السلمي، وظهر هذا جلياً في التقرير الذي أرسله أسقف عكا جاك دي فتري إلى البابا شاكياً له أحوال الصليبيين المتردية التي لا تسمح بقدوم حملة صليبية جديدة، وكانت مهمة جاك دي فتري بين الصليبيين تنفيذ رغبة البابا بإثارة نشاط اللاتين المحليين استعداداً لحملة صليبية جديدة "هي الخامسة"، حيث ورد في تقريره أن المسيحيين الوطنيين يكرهون اللاتين، ويؤثرون حكم المسلمين، بينما انصاع اللاتين أنفسهم إلى حياة الخمول والبذخ والأخلاق البذيئة، وغلبت عليهم الصفة الشرقية، وفسد رجال الدين اللاتين، ونزعوا إلى الجشع والتآمر، ولم يُثْنِ التقرير سوى على الطوائف الدينية العسكرية، أما عناصر المدن الايطالية (البندقية- بيزا- جنوا) وتجارها فإن الحسد والغيرة المتبادلة فيما بينهم جعلتهم عاجزين دائماً عن التعاون معاً، وخَلُصَ التقرير إلى أنه ليس للفرنج في الشرق الأدنى رغبة في قدوم حملة صليبية جديدة.[١]

ويمكن القول: إنه خلال هذه المدة سادت مرحلة من الهدوء والاستقرار والرخاء المادي لدى الجانبين، وأدى ذلك إلى نبذ الحرب من كلاهما، ولا شك أن انشغال البابا اينشونتيوس الثالث في الشؤون والسياسات الأوربية الداخلية كان له أكبر الأثر في ذلك، فالبابا أهمل مملكة القدس في تلك المرحلة، وانهمك في الشؤون والنزاعات الأوربية المعقدة، ولا سيما النزاع الإنكليزي الفرنسي، والصراع بين الأحزاب الإقطاعية في ألمانيا، وتنظيم عدوان الفرسان الألمان على شعوب منطقة البلطيق، وانشغاله في محاربة الهرطقة الألبيجية والقضاء عليها في جنوب فرنسا (١٢٠٩-١٢١٢م)، وعلى هذا فإن البابا يبدو أنه لم يكن لديه أي مانع في إقامة علاقات سلمية ودية بين مملكة القدس اللاتينية الثانية والمسلمين ريثما ينتهي من مشاكله الأوربية، وما إن حلَّ عام ٦٠٩هـ/ ١٢١٣م حتى كان البابا قد انتهى من تلك المشاكل وأخذ يدعو إلى حملة صليبية جديدة تنقذ مملكة القدس مما هي به من وهن.[٢]

---

[١] رنسيمان: تاريخ الحروب، ج٣، ص٢٦١. حومد: تاريخ الجهاد، ج٢، ص٢١٦.

[٢] زاباروف: الصليبيون في الشرق، ٢٨٢.

## المبحث الرابع

## العلاقات الأيوبية مع مملكة القدس اللاتينية الثانية بعد انفصال تاج الأخيرة عن قبرص إلى ما قبل مجيء الحملة الخامسة (٦٠١-٦١٤هـ/ ١٢٠٥-١٢١٧م)

### وصاية يوحنا ابلين وجان دي بريين John de Briene على عرش عكا

بوفاة عموري لوزجنان عام ٦٠١هـ/ ١٢٠٥م انفصل تاج مملكة القدس الثانية عن تاج قبرص، وانتقلت السلطة في مملكة القدس الثانية إلى الملكة إيزابيل، وكما تقدم ذكره في الحديث عن وراثة عرش المملكة، فإن ايزابيل لم تكن مضطرة في هذه المرة للزواج من جديد؛ إذ أصبح لديها خمس بنات، أكبرهن ماريا مونتفرات من زوجها كونراد مونتفرات Conrand Montferrat ، وتبلغ من العمر الثالثة عشر؛ لذا تَقَرَّرَ أن تتولى هذه البنت عرش المملكة، ويكون خالها يوحنا ابلين الأول (سيد بيروت بين عامي ٥٩٣-٦٣٣هـ/ ١١٩٧-١٢٣٦م) وصياً عليها، واستمر ذلك حتى بلوغها سن الرشد في عام ٦٠٧هـ/ ١٢١٠ حيث رشح لها ملك فرنسا أحد أُمرائه المغمورين ليكون زوجاً لها، وهو جان دي بريين John de Briene البالغ آنذاك الستين من العمر، وتم الزواج في ربيع الأول ٦٠٧هـ/ أيلول ١٢١٠م، وأصبح عرش المملكة تحت وصايته، وأما الملكة ايزابيل فإنها لم تعمر طويلاً بعد زوجها عموري.

### أولاً: العلاقات في ظل وصاية يوحنا ابلين ٦٠١-٦٠٧هـ/ ١٢٠٥-١٢١٠م

جمع يوحنا ابلين بين ما اتصف به والده باليان من الشهامة والحكمة، وبين ما اتصفت به أمه ماريا كومنينا اليونانية من حدة الذكاء، حكم بيروت بين عامي ٥٩٣-٦٣٣هـ/ ١١٩٧-١٢٣٦م، وخلالها تولى الوصاية على مملكة القدس، واستمر خمس سنوات (٦٠١-٦٠٧هـ/١٢٠٥-١٢١٠م) يحكم المملكة بكياسته وهدوئه، ولم تزعجه أي حروب مع المسلمين، ولم يوقعه في إحراج مع الأخيرين أي قوة صليبية خارجية على المستوى الرسمي[1]، ويستثنى من ذلك بعض التجاوزات التي جاءت من قبل امارة طرابلس ومملكة قبرص اللتين هما في الأصل خارج سيطرة مملكة القدس، إلا أن ذلك كان له عواقب سيئة على العلاقات مع الأيوبيين؛ لأن زعيم مملكة القدس من المفترض أن له سلطة عليا على جميع

---

[1] رنسيمان: تاريخ الحروب، ج٣، ص١٩١.

الصليبيين، وكان أهم تجاوزات إمارة طرابلس تلك التي أتت من قبل إسبتارية حصن الأكراد الذين هم في الأصل خارج سلطة المملكة وخارج سلطة الوصي على عرشها يوحنا دي ابيلين، وقد استمروا في تحرشاتهم بحمص وحماة، وأكثروا من هجماتهم وغاراتهم على الأولى بين عامي ٦٠٣-٦٠٤هـ/ ١٢٠٦-١٢٠٨م، حيث يقول ابن الأثير عن سنة ٦٠٤هـ: "وفي هذه السنة كَثُر الفرنج الذين بطرابلس وحِصن الأكراد، وأكثروا الإغارة على بلد حمص وولاياتها، ونازلوا حمص، وكان جمعهم كثيراً"[١]، فأرسل صاحب حمص أسد الدين شيركوه يطلب النجدات من أقربائه ملوك الشام، ولم ينجده سوى الظاهر غازي صاحب حلب، حيث سيّر له عسكراً "أقاموا عنده ومنعوا الفرنج عن ولايته"، واستمر الأمر على هذا المنوال بين أخذ ورد[٢].

ومن الاضطرابات التي حصلت أيضاً في مرحلة وصاية يوحنا ابلين تلك التي أتت من قبرص في شتاء سنة ٦٠٤هـ/ ١٢٠٧م، حيث إن بعض قراصنتهم استولوا على عدة قطع من الأسطول المصري وأسروا من فيها، وبفرض أن يوحنا الوصي على عرش مملكة القدس هو ممثل الصليبيين السياسي والأكبر في المنطقة فقد أرسل له العادل يُحَمّله المسؤولية ويلومه ويذكّره بالمعاهدة القائمة بينهما قائلاً: "نحنُ صلحٌ فلِم غدرتم بأصحابنا؟، فاعتَذَرَ - يقصد الوصي- بأن أهل قبرس ليس لي عليهم حكم، وأن مرجعهم إلى الفرنج الذين بالقسطنطينية"[٣].

كان هذا الرد بمثابة تملُّص الوصي ومن ورائه كل صليبيي المملكة مما يأتيه قراصنة قبرص من أعمال في المستقبل، وفي ذلك دلالة واضحة على انفصال عُرى الوحدة بين قبرص ومملكة القدس من بعد وفاة عموري لوزجنان عام ٦٠١هـ/١٢٠٥م، وأن كلتاهما اتخذت سياسة خارجية مستقلة عن الآخرى، كما يعني ذلك بشكل أو بآخر أن الاتفاقيات المعقودة بين الأيوبيين والصليبيين في مملكة القدس لا علاقة لصليبيي قبرص فيها، وإن كان الذي وقَّع عليها هو ملكهم عموري قبل وفاته.

---

[١] ابن الأثير: الكامل، ج١٠، ص٢٦٣. للاستزادة أنظر: سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان، ج٢٢، ص١٤٩. النويري: نهاية الأرب، ج٢٩، ص٤٠. الذهبي: تاريخ الإسلام، ج٤٣، ص٦، ١٤.

[٢] ابن الأثير: الكامل، ج١٠، ص٢٦٣. للاستزادة أنظر: سبط اين الجوزي: مرآة الزمان، ٢٢، ص١٤٩. ابن واصل: مفرج الكروب، ج٣، ص١٦٨. الذهبي: تاريخ الإسلام، ج٤٣، ص١٤، ١٩. عمران: الحملة الخامسة، ص١٠٠.

[٣] ابن الأثير: الكامل، ج١، ص٢٦٣. للاستزادة أنظر: عاشور: الحركة الصليبية، ج٢، ص١٩٨. عاشور: الجهاد الإسلامي، ص٢٩٢.

والمهم أن رد الوصي – كونه كبير الصليبيين وممثلهم الأعلى في المنطقة– كان لا يرقى إلى حجم المشكلة، مما أغضب العادل، وتوترت العلاقات بينهما، وتزامن ذلك مع الغارات التي شنها إسبتارية حصن الأكراد وطرابلس على بلاد حمص؛ لذلك عمد العادل إلى تجهيز جيش كبير سار به من مصر قاصداً بلاد الشام، وطلب النجدات من جميع أنحاء دولته، وسار جيشه حتى وصل مشارف عكا عاصمة مملكة القدس ونازلها، وترددت الرسل بين الجانبين، وبعد المماطلة قَبِل الوصي على عرشها حنا دي ابلين إطلاق سراح مالديه من أسرى المسلمين، وانتهت الأزمة عند هذا الحد على الصعيد السياسي الرسمي.[١]

أما على الصعيد الشعبي فقد كان العكس تماماً، إذ يذكر سعيد عبد الفتاح عاشور أن: "قناعة العادل بذلك الحل وإمعانه في مسالمة الصليبيين كان شيئاً لا يتفق بأي حال وحماسة المسلمين المعاصرين ورغبتهم في الجهاد"، وما يؤيد ذلك أن العادل عندما غادر عكا ووصل إلى دمشق وجد أهلها ممتعضين من غارات الصليبيين على بلاد المسلمين، واجتمع كثير منهم في المساجد استعداداً للجهاد ضد الصليبيين، وطالبوا السلطان العادل علناً بذلك.[٢]

ويمكن القول إن مملكة القدس اللاتينية الثانية التزمت آنذاك الهدوء والمسالمة تجاه المسلمين، وما وجد من تجاوزات وتهديدات لبلاد العرب– المسلمين أتت من قبل إمارة طرابلس وما يتبعها من إسبتارية حصن الأكراد، وليس البحث هنا للتفصيل في علاقات الأيوبيين مع إمارة طرابلس، ولكن يمكن اختصار القول: إن العادل وطّد العزم على التوجه إليهم بحملة كبيرة، وسار من دمشق باتجاه حمص ونزل على بحيرة قَدَس[٣]، وأرسل يستدعي جميع الملوك من بني أيوب، فوصله كثير منهم، واجتمع عنده نحو عشرة آلاف فارس وعسكروا جميعهم على بحيرة قَدَس، وأشاع العادل خبر قصده لطرابلس، إلا أنه توجه

---

[١] ابن واصل: مفرج الكروب، ج٣، ص١٧٢. ابن الأثير: الكامل، ج١٠، ص٢٦٣. أبو الفداء: المختصر، ج٣، ص١٠٧-١٠٨. الذهبي: تاريخ الإسلام، ج٤٣، ص٦-٧. عاشور: الجهاد الإسلامي، ص٢٩٣. عاشور: الحركة الصليبية، ج٢، ص١٩٨.

[٢] عاشور: الحركة الصليبية، ج٢، ص١٩٨. عاشور: الجهاد الإسلامي، ص٢٩٣.

[٣] بين حمص وجبال لبنان، طولها اثنا عشر ميلا فى عرض أربعة أميال، تنصبّ إليها مياه ما حولها من الجبال، ثم يخرج منها نهر العاصي. ياقوت: معجم البلدان، ج١، ص٣٥٢. مراصد الاطلاع، ج١، ص١٦٨-١٦٩.

إلى حصن الأكراد وقاتل أهله أشد قتال، وأخذ برجاً قريباً منه يسمى "أعناز"[١]، وأسر منه خمسمئة رجل، وأخذ أموالاً وسلاحاً كثيراً، ثم حاصر طرابلس ونصب عليها المجانيق، وخرّب بلادها وبساتينها وفتح إحدى القلاع القريبة منها، وانتهى الأمر بينهما بالصلح في آخر ذي القعدة ٦٠٣هـ/ ١٢٠٦م،[٢] وعاد العادل إلى حمص ومنها إلى دمشق.[٣]

وكان لحملة العادل هذه أثرها الكبير في تحجيم تحركات الصليبيين، سواءً في مملكة القدس أم في امارة طرابلس، إذ لم تشهد البلاد أي تحركات معادية خلال الأعوام الثلاث التالية (٦٠٤-٦٠٧هـ/ ١٢٠٧-١٢١٠م)، فقد انتهت الهدنة في نهايتها، وفي هذه المدة انشغل الصليبيون في مملكة القدس في البحث عن زوجٍ للملكة ماري التي بلغت سن الرشد حديثاً، وانتهى الأمر بزواجها من جان دي بريين عام ٦٠٧هـ/ ١٢١٠م، وأيضاً انشغل العادل خلال هذه المدة في تسوية بعض المشاكل التي أتته من ناحية البلاد الشرقية، كالموصل وخلاط وسنجار والجزيرة، وانشغل ببعض الخلافات مع ابن أخيه الظاهر صاحب حلب، وكذلك غارات الكرج على بعض المناطق الإسلامية، كما عمد في هذه المرحلة إلى تقسيم الدولة بين أبنائه، وتوطيد مركزه الشخصي بها، والحصول على تقليد وتشريف من الخليفة العباسي في بغداد يُقر له حكم البلاد جميعها التي بين يديه، وتم له ذلك وأصبح مفوضاً من الخليفة العباسي في حكم تلك البلاد .[٤]

---

[١] بلد بين حمص والساحل. معجم البلدان، ١، ص٢٢٢. مراصد الاطلاع، ج١، ص٩٦.

[٢] التاريخ المنصوري، ص٥٢-٥٣. ابن واصل: مفرج الكروب، ج٣، ص١٧٢-١٧٣. النويري: نهاية الأرب، ج٢٩، ص٤٠. أبو الفداء: المختصر،ج٣، ص١٠٨. الذهبي: تاريخ الإسلام، ج٤٣، ص٧، ١٩.غوانمة، معاهدات الصلح والسلام، ص٦٤. عاشور، الجهاد الإسلامي، ص٢٩٣-٢٩٤. عمران: الحملة الخامسة، ص١٠١-١٠٢.

[٣] ابن واصل: مفرج الكروب، ج٣، ص١٧٥. أبو الفداء: المختصر، ج٣، ص١٠٨.

[٤] للمزيد عن هذه الأحداث راجع ابن واصل: مفرج الكروب، ج٣، ص١٨٣-٢٠٠. ابن الأثير: الكامل، ج١٠، ص٢٦٨-٢٧٥. المقريزي: السلوك، ج١، ص٢٨٤-٢٨٨. الجهاد الإسلامي، ص٢٦٨-٢٧٥.

## ثانياً: العلاقات في ظل ووصاية جان دي بريينJohn de Briene (٦٠٧-٦١٤هـ/ ١٢١٠-١٢١٧م) معاهدة عام ٦٠٩هـ/ ١٢١٢م وبناء قلعة جبل الطور

تم اختيار العجوز جان دي بريينJohn de Briene البالغ الستين من العمر من قِبل الملك الفرنسي ليكون زوجاً للملكة الشابة ماري بنت ايزابيل، وملكاً لمملكة القدس اللاتينية الثانية كما سلف ذكره-. وقبل أن يصل الملك الجديد جان دي بريين إلى عكا بنحو شهرين تقريباً، وبالتحديد في شهر محرم سنة ٦٠٧هـ/ ١٢١٠م انتهى أمد الهدنة المعقودة بين المسلمين وصليبيي مملكة القدس . عندها أرسل العادل إلى عكا يطلب تجديد الهدنة، فعقد الصليبيون فيها مجلساً لمناقشة طلب العادل، وتولى يوحنا ابلين رئاسة المجلس – لأنه لا يزال مضطلعاً بأعباء الحكم ريثما يصل الملك الجديد- ووافق الجميع على تمديد الهدنة، بما في ذلك رئيس المجلس والإسبتارية والتيوتون وغيرهم باستثناء الداوية، الذين عارضوا تجديد الهدنة، واحتجوا بسند قانوني أنه لا يجب إلزام الملك الجديد بسياسة معينة.[١]

ونتج عن ذلك حصول بعض المناوشات الحربية بين الطرفين، إذ إن الداوية قاموا بالتعاون مع بعض عناصر الصليبيين الجدد الذين وصلوا حديثاً إلى عكا مع الملك الجديد جان دي بريين John de Briene، وقاموا ببعض الأعمال الاستفزازية والهجوم على بعض المناطق الإسلامية الساحلية، وأحرقوا بعض القرى وأخذوا الأسلاب.[٢]

ورد العادل على ذلك بأن أمر ابنه المعظم بالتحرك إلى جبل الطور ليستقر به، ومنه يقوم بالهجوم على ضواحي عكا[٣]، وقد وصف سبط ابن الجوزي الحماس الشعبي في دمشق والرغبة في الجهاد آنذاك، وكيف أن جماعات كبيرة لحقت بالمعظم في نابلس ومنها شنّوا غاراتهم على الفرنج، حيث قال السبط

---

[١] دي فتري: المنتقى، عن الموسوعة، ج٣٣، ص٢٤٦. رنسيمان: تاريخ الحروب، ج٣، ص٢٣٩. عمران: الحملة الخامسة، ص١٠٢-١٠٣.

[٢] دي فتري: المنتقى، عن الموسوعة، ج٣٣، ص٢٤٦. ابن واصل: مفرج الكروب، ج٣، ص٢٠١. المقريزي: السلوك، ج١، ص٢٩١. السياسة الأيوبية، ص٢٩. عمران: الحملة الخامسة، ص١٠٣. عاشور: الجهاد الإسلامي، ص٢٩٥.

[٣] ابن واصل: مفرج الكروب، ج٣، ص٢٠١. المقريزي: السلوك، ج١، ص٢٩١. دي فتري: المنتقى، عن الموسوعة، ج٣٣، ص٢٤٦.

وقد كان على رأس تلك الجماعات: "وخرجنا نحو بلاد الفرنج، فأخربنا وهدمنا وأسرنا جماعة، وقتلنا جماعة وعدنا سالمين مع المعظم إلى الطور"[١].

كان جان دي بريين آنذاك قد وصل حديثاً إلى عكا في ٢٣ ربيع الأول ٦٠٧هـ/ ١٣ أيلول ١٢١٠م، وعلى الفور تم عقد حفل القران وتوّج ملكاً في صور في ٣ تشرين الأول ١٢١٠م، وأثناء حضور رجال البلاط الملكي حفل التتويج في صور وصلت طلائع جيش المعظم إلى ضواحي عكا، وأغارت عليها.[٢] ودون شك أن ذلك فاجأ الصليبيين وأرعبهم فوجدوا أنفسهم أمام خطر كبير، ويبدو أن جان دي بريين سمح لبعض قواته بالاشتراك مع الداوية في حملة عسكرية بحرية إلى مصر، ووصلت مصب نهر النيل في دمياط، ودخلوا قرية مورة، وعادوا دون أن يظفروا بشيء.[٣]

ويبدو أن هذه الحملة التي شجع عليها الملك الجديد لم تكن سوى حملة استكشافية لمرحلة ما ستأتي بعده، وسير الأحداث التالية يُثبت ذلك، إذ إنه بعد انقضاء الهدنة المعقودة بين المسلمين والصليبيين سارت الحملة الخامسة إلى مصر.

ويبدو أن الملك الجديد جان دي بريين John de Briene مع أنه كان من الأمراء المغمورين، وأنه اتصف بالفقر، وبلغ من العمر الستين، إلا أن المراجع اللاتينية تُجمع على أنه لم تنقصه الجدارة السياسية والحنكة الدبلوماسية بالمطلق، وكان سياسياً بارعاً وله خبرة في الحكم، وذا قدرة فائقة مليئاً بالحيوية، ولكنه أظهر حذراً شديداً في تعامله مع المسلمين،[٤] ومن هذا الباب يبدو أنه سمح بالقيام بتلك الحملة العسكرية الاستكشافية السريعة قبل توقيع الهدنة مع المسلمين، فما إن انقضى أمد الهدنة حتى باشر الملك الجديد في حملته على مصر، ويؤيد هذه النية المُبيتة لدى جان دي بريين أنه بعد أن وقّع على الهدنة مع العادل أرسل إلى البابا ينذره ويستنجده ويطلب منه أن تكون هناك حملة صليبية جاهزة لغزو مصر قبل انقضاء الهدنة.[٥]

---

[١] الذهبي: تاريخ الإسلام، ج٤٣، ص٣٠. للاستزادة أنظر: شذرات الذهب، ج٧، ص٣٥.

[٢] رنسيمان: تاريخ الحروب، ج٣، ص٢٤٠. غروسيه، ص٢٤٦.

[٣] نهاية الأرب، ٢٩، ص٥٣. شذرات الذهب، ٧، ص٤٦. الذهبي: تاريخ الإسلام، ج٤٣، ص٣٣.

[٤] رنسيمان: تاريخ الحروب، ج٣، ص٢٣٨، ٢٤٠. غروسيه، ص٢٤٦.

[٥] دي فتري: المنتقى، عن الموسوعة، ج٣٣، ص٢٤٦. عاشور، الجهاد الإسلامي، ص٢٩٦. عمران: الحملة الخامسة، ص١٠٣.

ويمكن القول: إنه مع استلام جان دي بريين للحكم عاد الحديث من جديد عن تجديد الهدنة مع العادل، وبعد عودة الحملة الاستكشافية من مصر في العام ٦٠٨هـ/ ١٢١١م قَبِل جان دي بريين عرضاً جديداً مقدماً من العادل، تضمن تجديد المعاهدة التي بين الطرفين لمدة خمس سنوات، على أنه لن تدخل حيز التنفيذ حتى محرم ٦٠٩هـ/ تموز سنة ١٢١٢م، وتم بموجبها إطلاق سراح أسرى المسلمين[١].

ويبدو أن الشروع في بناء قلعة جبل الطور من قبل المسلمين كان من الأسباب المهمة التي أجبرت الصليبيين على توقيع تلك الهدنة مع العادل، ويعبر صاحب تاريخ القدس عن الحزن الدفين وعدم الرضى بين أوساط مملكة القدس عن هذه المعاهدة المعقودة مع المسلمين.[٢]

**بناء قلعة جبل الطور**

بُدِءَ ببناء هذه القلعة بعد أن تقرر الصلح بين العادل وإمارة طرابلس في أواخر عام ٦٠٣هـ/ ١٢٠٦م، ذلك أن العادل بعد أن انسحب إلى دمشق مرَّ بطريقه في منطقة طبرية على جبل الطور المطل على الناصرة، وبذلك يكون قبالة عكا، ويحمي إقليم الجليل، ويبدو أن العادل أُعجب آنذاك بحصانة هذا الجبل فقرر بناء قلعة عليه لتكون بمثابة خط دفاع أمامي ضد الجبهة الصليبية، ويبدو أن المعظم بدأ سريعاً في بنائها، وفي عام ٦٠٧هـ/ ١٢١٠م أمره أبوه بالإقامة بها لمواجهة غارات الصليبيين، وفي عام ٦٠٩هـ/ ١٢١٢م نزل العادل بها وأحضر معه الصناع من كل البلاد، وساهمت جميع العساكر في عملية البناء، وشارك في بناء هذه القلعة خمسمئة من البنائين بالإضافة إلى الفعلة والنحاتين، وأنفق عليها الكثير من الأموال، واستمر العمل في بنائها إلى ماقبل وفاة العادل سنة ٦١٥هـ/ ١٢١٨م، وغدت قلعة منيعة مزودة بالسلاح والرجال والعتاد.[٣]

ويبدو أن هذه القلعة شكلت خطراً عسكرياً كبيراً على الصليبيين في مملكة القدس، وأوقعت الرعب في قلوبهم، وجعلتهم يشعرون بأن المسلمين ينوون القيام بعمل خطير ضدهم؛ لذلك اضطروا مرغمين على قبول عرض العادل وتوقيع الصلح سالف الذكر، وظهر هذا جلياً في كتابات صاحب

---

[١] ابن واصل: مفرج الكروب، ج٣، ص٢٠١. ابن الأثير: الكامل، ج١٠، ص٣٤٢. رنسيمان: تاريخ الحروب، ج٣، ص٢٤٠.

[٢] دي فتري: المنتقى، عن الموسوعة، ج٣٣، ص٢٤٦.

[٣] المقريزي: السلوك، ج١، ص٢٩٥. ابن الأثير: الكامل، ج١٠، ص٢٨٤. النويري: نهاية الأرب، ج٢٩، ص٥٣.

تاريخ القدس، حيث قال: "قام المسلمون بتحصين جبل الطور ضدنا، وذلك من أجل إهانة المسيحية وإلحاق الضرر بها، وأكثر من هذا بغية تضييق الخناق على مدينة عكا، وجدد رجال شعبنا هدنتهم مع المسلمين، وعاشوا في ظل الحزن والنحيب مع كثير من المآسي والمظالم"[١].

ويوضح البابا -أكثر من صاحب تاريخ القدس- كيف أن هذه القلعة كانت إهانة للمسيحية، فيذكر في مراسيمه الأوربية التي أرسلها بهدف التحريض على حملة صليبية جديدة "الحملة الخامسة" أن تلك القلعة بُنيت قصداً وعمداً في المكان الذي حدث فيه ما يسمى بقيامة يسوع المسيح كما جاء في الإنجيل،[٢] كما شرح في مراسيمه كيف أن تلك القلعة تهيمن على عكا، وتتيح للمسلمين الاعتقاد أنهم من خلالها "سيتمكنون من أن يقتحموا بلا عائق الأرض المتبقية من مملكة القدس"[٣].

وعلى العموم يمكن القول: إن الهدنة المعقودة بين العادل وصليبيي مملكة القدس عام ٦٠٩هـ/ ١٢١٢م مرت بسلام دون حروب تذكر باستثناء الاضطرابات التي حصلت بين الإسماعيلية الباطنية وصليبيي طرابلس وأنطاكية.[٤]

وانشغل جان دي بريين John de Briene خلال هذه المدة في توطيد مركزه، إذ إن زوجته الملكة ماري لم تلبث أن توفيت في سنة ٦٠٩ هـ/١٢١٢م حزناً على شبابها الضائع، وكما سلف ذكره فإن ماري أنجبت في هذه المدة القصيرة من زواجها طفلة وأسمتها "يولاند"، وأحياناً أُطلق عليها اسم "إيزابيل أو ايزابيلا"، والذي يهم أنه لم يطل أمد الخلاف، واتُفِقَ على أن يكون والدها جان وصياً عليها وعلى عرش المملكة ريثما تبلغ سن الرشد، فتابع جان سياسته الحكيمة في قيادة المملكة، وأبدى حرصه الشديد على عدم إضاعة سنوات الهدنة مع المسلمين سدىً، وإنما أخذ يعمل على تصفية مشاكل الصليبيين الداخلية، ويمنيهم بمشروع غزو مصر، وعلى الصعيد الخارجي عمد إلى إرسال الرسل إلى روما وأوربا ينبههم على خطورة بناء قلعة جبل الطور على مملكة القدس ولاسيما العاصمة عكا، ويطلب منهم إعداد حملة جديدة تصل الشرق عند انتهاء أمد الهدنة.[٥]

---

[١] دي فتري: المنتقى من تاريخ القدس، عن الموسوعة، ج٣٣، ص٢٤٦.

[٢] انظر: دي فتري: المنتقى، عن الموسوعة، ج٣٣، ص١٦١

[٣] زاباروف: الصليبيون في الشرق، ص٢٩٣.

[٤] للمزيد، انظر: عاشور: الحركة الصليبية، ج٢، ص٢٠٢.

[٥] التاريخ المنصوري، ص٦٣. عاشور، الحركة الصليبية، ج٢، ص٢٠١.

## الفصل الخامس

**العلاقات الأيوبية مع مملكة القدس اللاتينية الثانية خلال الحملتين الصليبيتين الخامسة والسادسة، والدور الذي شغلته المملكة في هاتين الحملتين ..... ٢٩٨**

**المبحث الأول ..... ٢٩٨**

**العلاقات أثناء الحملة الصليبية الخامسة (٦١٤-٦١٨هـ/ ١٢١٧-١٢٢١م) ..... ٢٩٨**

**أولاً: العلاقات في بلاد الشام قبل توجّه الحملة الخامسة إلى دمياط، ودور مملكة القدس في هذه الحملة. .....٢٩٨**

**ثانياً: العلاقات أثناء حصار دمياط .....٣٠٧**

**ثالثاً: السياسة الأيوبية الجديدة تجاه الصليبيين أثناء الحملة الصليبية الخامسة .....٣١٥**

**1- السياسة الأيوبية العامة في بلاد الشام تجاه مملكة القدس اللاتينية الثانية (الخراب والدمار)..... ٣١٥**

**2- السياسة الخاصة للكامل الأيوبي أثناء حصار دمياط (٦١٥-٦١٦هـ/ ١٢١٨-١٢١٩م)، والموقف الصليبي منها (المواجهات والمساومات والتنازلات) .....٣٢٠**

**رابعاً: العلاقات والأوضاع الأيوبية الصليبية عَقِبَ سقوط دمياط عام ٦١٦هـ/ ١٢١٩م .....٣٣٤**

**خامساً: توقيع صلح عام ٦١٨هـ/ ١٢٢١م وهدوء الجبهة العسكرية بين الجانبين الأيوبي والصليبي .....٣٤٣**

**سادساً: العلاقات السياسة والدبلوماسية بين الأيوبيين ومملكة القدس اللاتينية الثانية بعد اخفاق الحملة الخامسة ٦١٨هـ/ ١٢٢١م حتى قدوم السادسة عام ٦٢٦هـ/ ١٢٢٨م .....٣٤٧**

**(العلاقات والأوضاع داخل بلاد الشام وسياسة المساومات والتحالفات الخارجية) .....٣٤٧**

**المبحث الثاني ..... ٣٥٦**

**العلاقات الأيوبية مع مملكة القدس اللاتينية الثانية خلال الحملة الصليبية السادسة حتى قدوم السابعة (٦٢٦-٦٤٨هـ/ ١٢٢٨-١٢٥٠م) ..... ٣٥٦**

**المساومات والتنازلات ..... ٣٥٦**

**مرحلة وراثة ووصاية آل هوهنشتاوفن على عرش عكا ..... ٣٥٦**

**أولاً: العلاقات بين فردريك والكامل قبل قدوم الأول على رأس الحملة السادسة.....٣٥٦**

**ثانياً: المساومات والتنازلات بعد وصول فردريك إلى عكا .....٣٦٥**

**ثالثاً: من التصعيد العسكري إلى التهدئة والصلح، وما بينهما من تحديات .....٣٦٧**

**رابعاً: صلح يافا وشروطه ٢٢ ربيع الأول ٦٢٦ هـ/ ١٨ شباط ١٢٢٩م .....٣٧٥**

**خامساً: دور الأشرف في تسليم القدس لفردريك .....٣٧٩**

**المبحث الثالث .....٣٨٣**

**تطور العلاقات الأيوبية مع مملكة القدس اللاتينية الثانية عقب توقيع صلح يافا عام ٦٢٦هـ/ ١٢٢٩م.....٣٨٣**

**1- العلاقات بين الكامل وفردريك (التناغم السياسي والديني) .....٣٨٣**

**٢- علاقات فردريك مع عموم الأمراء الأيوبيين بعد مغادرته عكا في أول أيار ١٢٢٩م إلى إمبراطورتيه في أوربا..... ٣٩١**

**٣- العلاقات الأيوبية مع بقية عناصر مملكة القدس اللاتينية الثانية خلال مدة صلح يافا (٦٢٦-٦٣٦هـ/ ١٢٢٩-١٢٣٩م) .....٣٩٤**

**أ- جمود الموقف وهدوء الجبهات .....٣٩٤**

**ب- اعتداءات الاسبتارية على مملكة حماة .....٤٠٢**

**ج- اعتداءات الداوية على مملكة حلب .....٤٠٤**

## الفصل الخامس

# العلاقات الأيوبية مع مملكة القدس اللاتينية الثانية خلال الحملتين الصليبيتين الخامسة والسادسة، والدور الذي شغلته المملكة في هاتين الحملتين

## المبحث الأول

## العلاقات أثناء الحملة الصليبية الخامسة (٦١٤-٦١٨هـ/ ١٢١٧-١٢٢١م)

### أولاً: العلاقات في بلاد الشام قبل توجّه الحملة الخامسة إلى دمياط، ودور مملكة القدس في هذه الحملة.

كان اعتلاء البابا أنسونت الثالثPope Innocent III كرسي البابوية في روما (٥٩٤-٦١٣هـ/ ١١٩٨-١٢١٦م) ايذاناً بإنهاء مرحلة التوافق السلمي التي قد خيمت شكلياً على العلاقات الأيوبية الصليبية، فقد كان هذا البابا على درجة واسعة من العلم والمعرفة والاطلاع، ومتحمساً للفكرة الصليبية ومؤيداً وداعماً لحركتها؛ لذلك عمل ما بوسعه على توحيد جميع قوى المسيحيين في الغرب والشرق على السواء، وتسخيرها لغزو الشرق العربي واسترداد مدينة بيت المقدس، ومن هذا الباب بدأ بالدعوة إلى الحملة الصليبية الخامسة منذ عام ١٢١٥م حيث عقد مجمعاً دينياً كبيراً في اللاتيران في روما حضره ألف وثلاثمئة من الأساقفة بالإضافة إلى الشخصيات السياسية من جميع أنحاء أوربا، إلا أن القدر لم يمهل أنسونت ليرى النتائج.[1]

وقبل الحملة الصليبية الخامسة كانت أوربا قد أرسلت حملة أخرى في عام ٦٠٨هـ/ ١٢١٢م إلى المشرق العربي، أطلق عليها حملة الأطفال، انتهت بالإخفاق المأساوي الذريع.

---

[1] الراهب الدومينيكاني، عن الموسوعة، ج٤٣، ص١١٥٥. عمران: الحملة الخامسة، ص١١٥-١١٧.

Moore, John C. "Pope Innocent III, Sardinia, and the Papal State." .Speculum, Vol. 62, No. 1. (Jan., 1987), pp 81–101

Julien THÉRY-ASTRUC; Introduction", in Innocent III et le Midi " (Cahiers de Fanjeaux, 50), Toulouse, Privat, 2015, pp. 11–35.

وليس البحث هنا للتفصيل في هاتين الحملتين، والذي يهم أنه قبل مجيء الحملة الخامسة كان الطرفان العربي – الإسلامي من جهة، والصليبي من جهة أخرى يعيشان مرحلة هدوء واستقرار، وهناك علاقات ومصالح تجارية بينهما، ومع انتهاء الهدنة المعقودة بين المسلمين وصليبيي مملكة القدس اللاتينية الثانية بدأت الأوضاع تتجه نحو التوتر والتصعيد.

ويمكن القول إن السبب المباشر للحملة الصليبية الخامسة هو توحيد العادل الأيوبي للقوى الإسلامية في مصر وبلاد الشام، وبناء قلعة جبل الطور التي شكّلت تهديداً مباشراً لعكا كما سلف ذكره.

وبدأت عساكر الحملة الخامسة تصل إلى عكا تباعاً منذ جمادى الآخر ٦١٤هـ/ أيلول ١٢١٧م وكان جُلها في البداية من الهنغاريين وعلى رأسهم أندريه الثاني Andrey II (ملك هنغاريا)، وكذلك الألمان وعلى رأسهم دوق النمسا ليوبولد السادس Leupold VI، ثم لحقت بهم فصائل قبرصية تابعة لملك قبرص هوغ الأول Hugues I لوزجنان، ثم انضم إليهم في عكا بوهيموند الرابع (أمير أنطاكية وطرابلس)، وكذلك ملك مملكة القدس جان دي بريين John of Breinne –الوصي على عرشها آنذاك– كذلك وصلت إلى عكا فصائل عسكرية تابعة للأسياد والبارونات الصليبيين المحليين، وأحياناً كان هؤلاء الأمراء على رأس جماعاتهم كجوتيه الثالث صاحب قيسارية (٦١٤-٦٢٦هـ/ ١٢١٧-١٢٢٩م) والوصي السابق على عرش المملكة يوحنا أف ابلين John of Ibelin سيد بيروت بين عامي(٥٩٣-٦٣٣هـ/ ١١٩٧-١٢٣٦م) ومعه ابنه فيليب، وكذلك انضم للمجتمعين رادلف بطريرك بيت المقدس وعدد آخر من كبار رجال الدين، –بالطبع أيضاً– وشاركهم فرسان المنظمات الدينية ورؤساؤها[١] الذين لا يمكن أن يتغيبوا عن مثل ذلك الشرف العظيم بالنسبة إليهم.

وتَجَمَّعَ كل هؤلاء الفرقاء في عكا في انتظار اكتمال أعداد الوافدين من عناصر الحملة الخامسة، "وصاروا في جمع عظيم لم يجتمع لهم بعكا بعد موت السلطان الملك الناصر صلاح الدين مثله"[٢]، وبالغ

---

[١] بادربورن، أولفر أوف: الاستيلاء على دمياط، تر: سهيل زكار، الموسوعة الشاملة في تاريخ الحروب الصليبية، دمشق ١٩٩٨، ج٣٣، ص٢٩. ويندوفر: ورود التاريخ، ج٢، عن الموسوعة، ج٤٥، ص٧٢٦-٧٢٧. الراهب الدومينيكاني، عن الموسوعة، ج٤٣، ص١١٥٧. زاباروف: الصليبيون في الشرق، ص٢٩٤. غروسيه: ملحمة الحروب، ص٢٤٨. عمران، الحملة الخامسة، ص١٦٦.

[٢] ابن واصل: مفرج الكروب، ج٣، ص٢٥٤.

بعض الباحثين في تحديد أعداد هؤلاء الصليبيين الذين اجتمعوا في عكا وتوزعوا ورابطوا حولها، فأوصل بعضهم العدد إلى عشرين ألف فارس ومئتي ألف من المشاة.[١]

كثرة الأعداد تلك أدت إلى تعرّضهم لمشكلة نقص المواد الغذائية والتموينية، ومع مرور الأيام تفاقمت الأزمة، ولجأ الجنود إلى أعمال السلب والنهب داخل عكا، وسادت الفوضى داخل المعسكر الصليبي؛[٢] لِذا رأى بعض القادة ضرورة القيام ببعض الأعمال العسكرية ضد المسلمين، لصرف نظر الصليبيين عن الحالة السيئة التي وصلوا إليها، ومع تكامل وصول أعداد الصليبيين إلى عكا عقد كبار القادة وبعض رجال الدين والأساقفة مجلساً حربياً لمناقشة الخطة العسكرية التي أعدها الملك جان دي بريين مع رؤساء الطوائف الدينية، وتتلخص هذه الخطة في قيام بعض القوات الصليبية بمهاجمة مدينة نابلس للتمويه عن هدف الحملة الرئيسي وهو غزو مصر، وبالوقت نفسه تقوم القوات الرئيسية للحملة بمهاجمة مدينة دمياط تمهيداً للاستيلاء على مصر كاملةً، باعتبارها الطريق الوحيد لهزيمة المسلمين في الشام واستعادة الأرض المقدسة، وهي الفكرة التي أصبحت سائدة آنذاك وروَّج لها من قبل ريتشارد، إلا أن المجتمعين في المجلس قرروا تأجيل مشروع الهجوم على مصر بسبب قلة القوات وعدم توافر السفن اللازمة لنقل جنود الحملة إلى مدينة دمياط، وانتقل المجلس لمناقشة خطة مهاجمة بيت المقدس، إلا أنه تعذَّر تنفيذ هذا المشروع لعدم توفر الماء الكافي لقواتهم الكبيرة عند المدينة المقدسة، وفي النهاية قرر المجتمعون في المجلس مهاجمة دمشق، وعلى الفور بدأوا في إعداد الجيش لذلك.[٣]

كان الملك جان دي بريين John of Breinne يُلِحُّ منذ البداية على تسيير الجيش باتجاه الأراضي الإسلامية في بلاد الشام، وبالفعل تم ذلك في ٢٥ رجب ٦١٤هـ/ ٣ تشرين الثاني ١٢١٧م وارتحل الجميع من عكا سالكين طريق مرج عامر، وكان ذلك إيذاناً منهم ببدء الحرب وانتهاء الصلح المعقود بين الطرفين الإسلامي والصليبي، وعلى حد قول رنسيمان: فإنه على الرغم من قلة عدد جيشهم

---

[١] زاباروف، الصليبيون في الشرق، ص٢٩٥.

[٢] بادربورن: الاستيلاء على دمياط، عن الموسوعة، ج٣٣، ص٢٩. عمران: الحملة الخامسة، ص١٦٧.

[٣] عمران: الحملة الخامسة، ص١٦٨.

إلا أنه "فاق العدد كل جيش ظهر في فلسطين منذ الحملة الصليبية الثالثة"[١]، وقدِّر عدد الجيش آنذاك بحوالي ٩ – ١٥ ألف جندي وفارس.[٢]

فوجئ العادل بهذا الهجوم المبكر من قبل الصليبيين، وأسرع من مصر إلى فلسطين، فمرَّ بالرملة واللد ومنها إلى نابلس لكي يقطع الطريق على الصليبيين عند عين جالوت، إلا أن الجيش الصليبي سبقه إلى هناك وأصبحت وجهته الجديدة مهاجمة قوات العادل دون دمشق.[٣]

فاضطر العادل إلى الانسحاب نحو بَيْسان التي تقع قرب مصب نهر جالوت، واعترض المعظم عيسى[٤] على والده بذلك، ورأى ضرورة قتال الصليبيين، وأثناء جدالهم بهذا الأمر بلغهم أن الصليبيين اتجهوا نحو بيسان لاحقين بهم، فكرر العادل موقفه السالف نفسه، ولم يتجاسر على مقاومتهم، وخشي من ضعف عسكره إذ إنه لم يكتمل وصول العساكر التي طلبها، وانسحب من بَيْسان نحو دمشق ونزل قربها في عجلون عند مرج الصفر، وذلك لاستكمال وصول الإمدادات ولتنظيم الجيش والاستعداد لملاقاة الفرنج،[٥] وأرسل ابنه المعظم عيسى صاحب دمشق إلى نابلس مع طائفة من العساكر بغرض منع الصليبيين من الوصول إلى مدينة بيت المقدس.[٦]

وكان انسحاب العادل من بيسان مخيباً لآمال أهلها الذين لم يستطع الفرار منهم سوى قلة قليلة، وبسهولة تمكن الصليبيون من احتلال المدينة كونها خاليةً من كل وسائل الدفاع، ونهبوها وكل ما يحيط بها، وأخذوا منها غنائم وفيرة لِما وجدوه فيها من الأسواق والغلال والمواشي الشيء الكثير، حيث يقول ابن

---

[١] رنسيمان: تاريخ الحروب، ج٣، ص٢٦٣. للاستزادة أنظر: ابن واصل: مفرج الكروب، ج٣، ص٢٥٤. بادربورن: الاستيلاء على دمياط، عن الموسوعة، ج٣٣، ص٣٠.

[٢] سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان، ج٢٢، ص٢١٧. عمران: الحملة الخامسة، ١٦٩. عاشور: الحركة الصليبية، ج٢، ص٢٠٥.

[٣] سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان، ج٢٢، ص٢١٧. ابن واصل: مفرج الكروب، ج٣، ص٢٥٥.

[٤] انظر: ترجمته في أبو شامة: الذيل على الروضتين، تح: سهيل زكار، الموسوعة الشاملة في تاريخ الحروب الصليبية، ٢٠، ص٢٩٣-٢٩٤. ابن واصل: مفرج الكروب، ج٤، ص٢٠٨-٢٢٣.

[٥] سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان، ج٢٢، ص٢١٧. الذيل على الروضتين، عن الموسوعة، ج٢٠، ص١٩٦. ابن واصل: مفرج الكروب، ج٣، ص٢٥٥. للاستزادة أنظر: بادربورن: الاستيلاء على دمياط، عن الموسوعة، ج٣٣، ص٣٠. عاشور: الحركة الصليبية، ج٢، ص٢٠٥. عمران: الحملة الخامسة، ١٦٩.

[٦] سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان، ج٢٢، ص٢١٧. عمران: الحملة الخامسة، ص١٧١.

واصل: "وأخذوا جميع غلاتها وحواصلها، وغنموا من المسلمين ما لا يُحصى كثرةً، ونهبوا ما بين بيسان وبانياس، وبثوا السرايا في القرى".[١]

ويتفرَّد أبو شامة بخبر أن العادل أحرق بيسان قبل الانسحاب منها[٢]، إلا أن بقية المصادر العربية واللاتينية تُجمع على ما تقدم ذكره، وربما أن العادل أمر بإحراق الدور والأماكن الحكومية فأُحرق قليل منها وبقي الكثير.

وعلى العموم فإن انسحاب العادل من بيسان شجع الصليبيون على التمادي في الهجوم على المنطقة الواقعة بين بيسان وبانياس، ففي بداية شعبان ٦١٤هـ/ ١٠ تشرين الثاني ١٢١٧م عبرت عناصر الجيش الصليبي الأردن بعد أن استباح بيسان مدة ثلاثة أيام وأوغل حتى وصل إلى نوى في حوران، ثم اتجه نحو بانياس، وفرض عليها الحصار مدة ثلاثة أيام، ثم عاد إلى عكا عبر الأردن "ومعه من الغنائم والسبي ما لا يحصى"[٣]. ثم كرر في شهر شعبان/ تشرين الثاني نفسه غاراته على منطقة بانياس ونهب صيدا والشقيف ثم عاد إلى مرج عكا. [٤]

ويعترف أولفر أوف بادربورن صراحةً بنهب ذلك الجيش وسلبه للمنطقة، ويتفاخر بذلك علناً في كتاباته، إذ يقول عن جيش العدو (الجيش الإسلامي) بعد انسحابه أمامهم: "تاركاً البلاد لتتعرض للسلب والنهب من قبل جند الرب"[٥]، وهنا دلالة واضحة على توجه الحركة الصليبية نحو النهب والسلب باسم الدين والصليب، وباعتراف أحد كبار رجالاتها، وكأن ذلك يقربهم إلى الله، إذ إن أولفر ذكر صراحة النهب والسلب أنه تم من "من قبل جند الرب"، ويعلن بهجته بالأطعمة والأعلاف التي حصلوا عليها.

كان لهذه الهجمات العنيفة والمفاجئة التي قام بها الصليبيون في هذا العام ٦١٤هـ/ ١٢١٧م صدىً واسعاً في أرجاء البلاد الإسلامية، ولاسيما في بلاد الشام حيث عم الهلع مدنها، وبلغ الخوف أشده بأهل

---

[١] ابن واصل: مفرج الكروب، ج٣، ص٢٥٥. للاستزادة أنظر: سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان، ج٢٢، ص٢١٧.

[٢] الذيل على الروضتين، عن الموسوعة، ج٢٠، ص١٩٦.

[٣] بادربورن: الاستيلاء على دمياط، عن الموسوعة، ج٣٣، ص٣٠-٣١.

[٤] ابن واصل: مفرج الكروب، ج٣، ص٢٥٥. الذيل على الروضتين، عن الموسوعة، ج٢٠، ص١٩٦-١٩٧. عمران: الحملة الخامسة، ص١٧٠.

[٥] بادربورن: الاستيلاء على دمياط، عن الموسوعة، ج٣٣، ص٣٠.

دمشق وقراها، وكثر ضجيجهم في المساجد،[١] ولم يُهدِّئ روعهم ويزيل خوفهم إلا وصول المجاهد أسد الدين شيركوه صاحب حمص بقواته ودخوله دمشق، وذلك لِما شُهِرَ به من سمعة طيبة في قتاله للفرنج،[٢] وأرسل العادل ابنه المعظم إلى نابلس التي كانت تُعد نقطة دفاع متقدمة للقدس، وكلّفه بتحصين القدس وإعداد الدفاع عنها،[٣] كما أصدر تعليماته لحماية دمشق وإفساد ما حولها من مزارع وعيون ومروج،[٤] وهذا يُذكِّر بسياسة صلاح الدين في القدس وما حولها أثناء حصار الفرنج لها عام ٥٨٨هـ/ ١١٩٢م، وهي سياسة الأرض المحروقة القديمة المتجددة في هذه البلاد التي تشابهت بها السياسات واختلف بها كثيراً الأهداف المبتغاة من تلك السياسات.

واستقر العادل في مرج الصفر -قرب دمشق- ليرقُب تحركات الفرنج، واستمر جيشه في حالة تأهب واستعداد كبيرة، وسيَّر الرسل إلى سائر الأقطار لاستدعاء النجدات،[٥] ويظهر جلياً أن العادل ابتعد عن المواجهة المباشرة معهم أو الدخول في معركة كبيرة، وفضل الغارات السريعة والمناوشات الخفيفة معهم بهدف استنزاف قواتهم وجرّهم إلى أعمال عسكرية لم تكن في حسبانهم ولم يكونوا قد خططوا لها، وإشغالهم في عمليات حصار طويلة ومملة.

أما على الصعيد الصليبي فيبدو أن الغارات التي قامت بها هذه الجموع كانت عشوائية، لا هدف لها سوى السلب والنهب، كما يبدو أنها لم تتمتع بقيادة مركزية محددة، ويبدو أن كل فرقة لم تعترف سوى بزعيمها كقائد أعلى لها، في حين كان الملك جان دي بريين يعدُّ نفسه هو الملك والقائد الأعلى لهذه الجموع دون أن يملك السلطة الفعلية على جميع البارونات البارزين، وكانت هناك معارضة قوية قائمة ضده،[٦] ولم يكن جان راضياً عن سير الأحداث تلك، ورأى ضرورة مهاجمة قلعة جبل الطور الذي بناه الأيوبيون حديثاً، وعلى الفور أعدَّ حملة عسكرية لتدمير تلك القلعة، دون أن يحظى ذلك القرار بموافقة بقية

---

[١] الذيل على الروضتين، عن الموسوعة، ج٢٠، ص١٩٦.

[٢] الذيل على الروضتين، عن الموسوعة، ج٢٠، ص١٩٧. الحايك، منذر: العلاقات الدولية في عصر الحروب الصليبية، دار الأوائل، دمشق، ط١، ٢٠٠٦م، ج٢، ص١٩٨.

[٣] سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان، ج٢٢، ص٢١٧. أبو شامة: الذيل على الروضتين، عن الموسوعة، ج٢٠، ص١٩٧. ابن واصل: مفرج الكروب، ج٣، ص٢٥٦. عاشور: الحركة الصليبية، ج٢، ص٢٠٦.

[٤] عاشور: الحركة الصليبية، ج٢، ص٢٠٦.

[٥] الذيل على الروضتين، عن الموسوعة، ج٢٠، ص١٩٨. عاشور، الحركة الصليبية، ج٢، ص٢٠٦.

[٦] زاباروف: الصليبيون في الشرق، ٢٩٦. رنسيمان: تاريخ الحروب، ج٣، ص٢٦٤.

أطراف الجيش الصليبي، فأخفق هجومه الأول عليها في ٢ رمضان ٦١٤هـ/ بداية كانون الأول ١٢١٧م على الرغم من شدته، وكرر الهجوم على هذه القلعة بمساعدة الطوائف الدينية وتكرر الإخفاق ثلاث مرات، وارتد الجيش الصليبي عائداً إلى عكا في السادس من رمضان.[١]

ويبدو أن عدم اتفاق كلمة الصليبيين على الهجوم على قلعة حصن الطور كانت هي أحد الأسباب في اخفاقهم ثلاث مرات في الهجوم عليها، كما أن المقاومة الشديدة التي أبدتها حامية الطور واستماتتها في الدفاع عنها كان لها أكبر الأثر في ذلك، فسبط ابن الجوزي يذكر أنه بعد أن عَجِزَ وجَبُنَ بعض المدافعين فيه لكثرة ما لاقوه وبسبب استشهاد بعض الأعيان تشاوروا في الأمر "واتفقوا على أنهم يقاتلون قتال الموت ولا يُسَلمون أنفسهم لئلا يجري عليهم ما جرى على أهل عكا"[٢]، وهنا إشارة جميلة إلى ضحايا عكا الذين قُتلوا ظلماً وغدراً على يد ريتشاردRichard ، وفي ذلك دلالة على أن دماءهم لم تجف ولم تُنس، وستبقى ذِكراهم حية بين المسلمين آنذاك، وأنهم كانوا سبباً في صمود حامية الطور وسبباً في عدم تسليم القلعة، ومن ثم نجاة حصن الطور ومن فيه من السقوط بيد الصليبيين.

ولإدراك الأهمية السياسية والعسكرية آنذاك لقلعة جبل الطور لا بدَّ من استعراض بيتي الشعر اللذين أرسل بهما الأمين عبد المحسن الحلبي[٣] إلى الخليفة العباسي في بغداد آنذاك:

قُـــل للخليفـــةِ لا زالـــتْ عســـاكِرُهُ ... لهـــا إلى النَّصْـــرِ إصـــدارٌ وإيـــرادُ
إنَّ الفـــرنج بحِصْـــنِ الطُّـــور قـــد نزلـــوا ... لا تَغْفُلَـــنَّ فحِصْـــنُ الطُّـــورِ بغـــدادُ[٤]

وعلى الرغم من المقاومة الشديدة والبسالة التي أبدتها حامية قلعة الطور إلا أن العادل أدرك ضعف موقفه بها، فخشيَّ سقوطها بيدهم، ويبدو أنه أدرك أن هذا الحصن هو سبب قدوم الحملة الخامسة، واستمراره سيؤدي إلى قدوم مساعدات غربية جديدة للصليبيين، إذ إن سبط يذكر أن العادل قال لولده

---

[١] سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان، ج٢٢، ص٢١٨-٢١٩. الذيل على الروضتين، عن الموسوعة، ج٢٠، ص١٩٨. ابن واصل: مفرج الكروب، ج٣، ص٢٥٧. رنسيمان: تاريخ الحروب، ج٣، ص٢٦٤. للاستزادة أنظر: بادربورن: الاستيلاء على دمياط، عن الموسوعة، ج٣٣، ص٣١-٣٢. زاباروف: الصليبيون في الشرق، ص٢٩٥.

[٢] سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان، ج٢٢، ص٢١٨. للاستزادة أنظر: الذيل على الروضتين، عن الموسوعة، ج٢٠، ص١٩٨.

[٣] هو عبد المحسن بن حمود بن المحَسِّن، أمين الدين الحلبي، كان كاتباً لعز الدين أيبك المعظَّمي، له تصانيف كثيرة، توفي عام ٦٤٣هـ ودفن بباب توما. سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان، ج٢٢، ص٣٩٢.

[٤] سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان، ج٢٢، ص٢١٨، ٣٩٢. الذيل على الروضتين، عن الموسوعة، ج٢٠، ص١٩٨.

المعظم: "قد بنيت هذا الطور، وهو يكون سبباً لخراب الشَّام"[١]، وبناءً على ذلك قرر تخريبها وإلحاقها بالأرض، وأمر ولده المعظم أن يقوم بذلك، ويُخرج ما فيها من مؤونة ومعدات، ويبدو أنه في تلك الأثناء قد وصلت جموع الحملة الخامسة إلى دمياط، فرأى العادل ضرورة استغلال ما في هذه القلعة من مقاتلين ومؤونة وعتاد في الدفاع عن دمياط، إذ قال لابنه: "وأرى من المصلحة خرابه ليتوفَّر مَن فيه من المسلمين والعُدَد على حفظ دمياط"[٢].

في تلك الأثناء كان الصليبيون قد لجأوا إلى تحصين مناطقهم وبناء استحكاماتها بهدف التحصن بها، وذلك رداً على بناء المسلمين لقلعة جبل الطور، حيث عمد الملك جان دي بريين إلى إعادة إعمار قيسارية وبناء استحكاماتها مستعيناً بليوبولد دوق اوستريا (النمسا) Leupold VI، بينما شرع فرسان الداوية والتيوتون في بناء قلعة ضخمة فيها هي قلعة عثليث جنوب جبل الكرمل التي عُرِفت بقلعة الحجاج،[٣] وعند المقارنة بين سياسة الهدم التي انتهجها الأيوبيون مقابل سياسة البناء التي اتبعها الصليبيون يظهر جلياً مدى تفوق السياسة الصليبية على السياسة الأيوبية وقوة مركزهم في المنطقة، وتراءى للجميع أن الوقت يسير لصالح الصليبيين، وأن المنطقة ستشهد نصراً عسكرياً لمملكة القدس على الأيوبيين، وستتضاعف مناطق سيطرتها إلا أن شيئاً من ذلك لم يكن.

في هذه الأثناء غادرت عكا جماعات صليبية وقدِمت إليها جماعات جديدة أخرى، ويبدو أن اخفاق جموع الصليبيين أمام قلعة جبل الطور جعلت الملك الهنغاري "أندرو الثاني" يقتنع بعقم المشروع الصليبي، فقرر مغادرة المملكة اللاتينية والعودة إلى بلاده، وبالفعل غادرها في شوال ٦١٤هـ/ بداية ١٢١٨م دون أن يكترث بتوسلات وتهديدات بطريرك بيت المقدس، وقبله بأيام قليلة كان قد توفي هيو ملك قبرص

---

[١] سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان، ج٢٢، ص٢٢٧. للاستزادة أنظر: الذيل على الروضتين، عن الموسوعة، ج٢٠، ص٢٠٩.

[٢] سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان،٢٢، ص٢٢٧. للاستزادة أنظر: الذيل على الروضتين، عن الموسوعة، ج٢٠، ص١٩٨، ٢٠٩.

[٣] كندي: القلاع الصليبية، عن الموسوعة الشاملة، ٥٢، ص١٨٦-١٨٨. بادربورن، الاستيلاء على دمياط، عن الموسوعة، ج٣٣، ص٣٣. الراهب الدومينيكاني، عن الموسوعة، ج٤٣، ص١١٥٨-١١٥٩.

في منصف شوال ٦١٤هـ/ ١٠كانون الثاني ١٢١٨م أثناء زيارته لطرابلس، وأدى ذلك إلى ضعف موقف عناصره في عكا.[١]

وفي بداية عام ٦١٥هـ/ ٢٦ نيسان ١٢١٨ قَدِم إلى عكا الشطر الأول من الأسطول الفريزي، ثم تبعهم بعد أسبوعين الشطر الآخر منه، وترددت الأنباء عن قرب وصول الصليبيين الفرنسيين الذين كانوا قد احتشدوا في إيطاليا، فبادر جان دي بريين إلى البحث عن خطة عسكرية جديدة يستفيد بها من هؤلاء الصليبيين الجدد.[٢]

وأصبح الجميع في هذه المرحلة يدرك أهمية مصر السياسية والعسكرية والأمنية، بالإضافة إلى مكانتها العامة بالنسبة إلى الإسلام والمسلمين، وبدأ يتضح لهم ذلك منذ عهد الحملة الصليبية الثالثة حيث نصح ريتشارد قلب الأسد Richard the Lionheart الصليبيين منذ آنذاك بمهاجمة مصر والاستيلاء عليها إذا ما أرادوا الاستيلاء على بلاد الشام عموماً وفلسطين خصوصاً؛ لاعتقادهم أن مصر كانت تعدّ مورداً بشرياً ومالياً للجيوش الإسلامية، والاستيلاء عليها سيحرم المسلمين من أغنى إقليم لديهم، ويجعلهم غير قادرين على المحافظة على أسطولهم في شرق البحر المتوسط، وبذلك لن يكونوا قادرين على المحافظة على بيت المقدس في حال تعرضه لهجوم مزدوج من عكا والسويس المصرية، وفي أسوأ الأحوال فإن سيطرة الصليبيين على الموانئ والسواحل المصرية ستدفع العرب – المسلمين لمقايضتهم تلك المناطق بالقدس.[٣]

يضاف إلى ذلك أن مصر في حال استيلاء الصليبيين عليها ستصبح مورداً اقتصادياً لهم يزيد من قوتهم من ناحية، ويقلل من اعتمادهم على معونات الغرب الأوربي من ناحية أخرى، وناحية ثالثة ستكون قاعدة عسكرية كبيرة لهم تختصر عليهم الوقت كثيراً في حال طلبوا مساعدات عاجلة.

---

[١] الراهب الدومينيكاني، عن الموسوعة، ج٤٣، ص١١٥٨. بادربورن: الاستيلاء على دمياط، عن الموسوعة، ج٣٣، ص٣٣. زاباروف، الصليبيون في الشرق، ص٢٩٥. غروسيه، ملحمة الحروب، ص٢٨٤. غروسيه: موجز تاريخ الحروب الصليبية، ص٧١. الجهاد الإسلامي، ص٣٠١.

[٢] بادربورن: الاستيلاء على دمياط، عن الموسوعة، ج٣٣، ص٣٧. الراهب الدومينيكاني، عن الموسوعة، ج٤٣، ص١١٥٩. زاباروف: الصليبيون في الشرق، ص٢٩٥-٢٩٦. عمران: الحملة الخامسة، ص١١٤، ١٨١. رنسيمان: تاريخ الحروب، ج٣، ص٢٦٧.

[٣] الراهب الدومينيكاني، عن الموسوعة، ج٤٣، ص١١٥٩-١١٦٠. غروسيه: ملحمة الحروب، ص٢٤٨-٢٤٩.

واقتنع الجميع بفكرة مهاجمة مصر، وتم تجهيز المؤن التي تكفي الحملة مدة ستة أشهر على الرغم من قرب الشاطئ المصري من الشاطئ الشامي، وهذا يدل على مدى الاستعداد الجَدِّي لغزو مصر، وتحملت مملكة قبرص العبء الأكبر من هذه المواد التموينية، ويرجع الفضل في ذلك إلى يوستورج (رئيس أساقفة نيقوسيا)؛ لأن هنري الأول Henry I ملك قبرص كان طفلاً لم يتجاوز عمره تسعة أشهر.[١]

وبناءً على هذا كانت خطة الملك جان دي بريين John of Breinn تقضي بمهاجمة مصر عن طريق البحر، وعقد القادة الصليبيون اجتماعاً في عكا أقرُّوا خلاله تلك الخطة، ويبدو أنه تم الاتفاق بينهم على أن يتم اجتماع جيوشهم بالقرب من عكا عند قلعة ابن الرب "قلعة الحجاج"، ومن هذه القلعة انتقلت جيوشهم إلى عثليث حتى تتم الاستعدادات النهائية للإبحار نحو دمياط، وتقرر استخدام السفن الفريزية الراسية بسواحل الشام التي كانت تبلغ حوالي ثلاثمئة سفينة لنقل الجنود الصليبيين ودوابهم وآلاتهم وكل ما يحتاجون إليه إلى سواحل مصر، وكانت سفنهم وغلايينهم مجهزة لذلك، وعلى الفور بُدء بتنفيذ الخطة في نهاية صفر ٦١٥هـ/٢٤ أيار ١٢١٨م.[٢]

ويبدو أنهم فضلوا اختيار الطريق البحري على الطريق البري الذي جرَّبوه من قبل، وأخفقوا فيه منذ الحملة الأولى، بالإضافة إلى أن الطريق البري أصبح شبه مستحيل عليهم لفقدان الصليبيين مراكزهم في جنوب بلاد الشام، لهذا فإن الطريق البري سيكون شاقاً وطويلاً، وقد فضلوا الطريق البحري لِما وفَّر لهم من الأمان والراحة والسرعة في الوصول إلى سواحل مصر، وبفضل هذا الطريق فإن القوات الصليبية سوف تصل إلى دمياط محتفظة بحيويتها ونشاطها، مما يمكنها من القيام بمهامها العسكرية على أهبة السرعة.

وكان في تصور الصليبيين أنهم لو استولوا على دمياط سوف يتمكنون من خلالها غزو الدلتا كلها والتقدم إلى القاهرة وتخريبها كونها تمثل قلعة الإسلام القوية في الشرق كله، وكذلك سيتمكنون -حسب رواية الكاردينال جاك دي فتري- من نشر الديانة المسيحية الكاثوليكية في الشرق الإسلامي عامة.[٣]

**ثانياً: العلاقات أثناء حصار دمياط**

---

[١] عمران: الحملة الخامسة، ص١٨٣. عن عاشور، سعيد عبد الفتاح: قبرص والحروب الصليبية، ص٤٠.

[٢] بادربورن: الاستيلاء على دمياط، عن الموسوعة، ج٣٣، ص٣٧-٣٨. تاريخ الجهاد، ج٢، ص٣٠٢. عمران، الحملة الخامسة، ١٨٣.

[٣] عمران، الحملة الخامسة، ص١٨٢-١٨٣. نقلاً عن رسائل جاك دي فتري Vitry, Lettres des Tacgues de Vitry, p.103.

تم اختيار دمياط كونها أنسب المواقع للهجوم على مصر كلها، ويبدو أن الصليبيين قد أدركوا من خلال تجربتهم في الهجوم عليها عام ٥٦٥هـ/ ١١٦٩م أن احتلال المدينة لا يتحقق إلا إذا كان الهجوم عليها من جهتي البر والبحر معاً، وبناءً على ذلك كانت خطتهم الجديدة لاحتلالها. وكانت دمياط محصنة تماماً منذ عهد صلاح الدين الأيوبي، حيث اهتم بها كثيراً، وكان أهم معالم حصانتها هو سورها، والخندق حولها، وبرجان كبيران؛ الأول هو برج السلسلة الذي يقع وسط النيل، وهو أقرب إلى الضفة الغربية من الشرقية، وهو في غاية المتانة والمنعة، والآخر هو أحد أبراج دمياط في مقابل برج السلسلة، ويمتد بين البرجين سلسلة من الحديد تزن حوالي مئة وثلاثين قنطاراً مصرياً[١]، وكانت مهمة رجال برج المدينة إرخاء السلسلة إذا أرادوا صعود السفن في النيل، ويشدونها إذا أرادوا منعها من ذلك، ونظراً لأهمية برج السلسلة فقد أطلق عليه المؤرخون قفل دمياط، وأحياناً قفل الديار المصرية.[٢]

وعن قيادة الصليبيين في هذه المرحلة، يظهر أنهم استمروا في تخبط القيادة لديهم، ودون قائد معين يلتزمون تعليماته، على الرغم من أن الملك جان دي بريين كان منذ البداية يعدُّ نفسه قائداً أعلى لهم، وفي ١٨ أيار ١٢١٨م كتب البابا هونوريوس الثالث Honorius III إلى الملك وجميع رجال الدين وجميع الأمراء الصليبيين يخبرهم بأنه قد عيَّن الكاردينال البرتغالي الأصل بيلاجيوس Pelagus أسقف ألبانو مندوباً عنه في هذه الحملة، وطلب من الجميع إطاعته.[٣]

وعندما حان الوقت المتفق عليه لرحيل الحملة بأكملها لم تكن بعض السفن قد جُهِّزت تماماً، لذلك صدرت الأوامر في ٢٦ صفر ٦١٥هـ/ ٢٤ أيار ١٢١٨م للسفن المستعدة للإبحار والتحرك باتجاه دمياط، وبقي الملك جان دي بريين ورؤساء الهيئات الدينية ومعظم رجال الدين بسواحل الشام حتى تستعد بقية السفن الصليبية، وكان على رأس السفن التي أبحرت يوستورج (رئيس أساقفة نيقوسيا)، وبعد أن وصلت طلائع هذه الحملة إلى دمياط بعد ثلاثة أيام من إبحارها لم يخاطروا بالنزول إلى البر لعدم وجود قائد

---

(١) كان الحديد في عهد الدولة الأيوبية يوزن بالقنطار الجروي (ابن مماتي، أسعد: قوانين الدواوين، تح: عزيز سوريال عطية، مكتبة مدبولي، القاهرة، ط١، ١٩٩١م، ص٣٦١)، وكل قنطار منه يزن مئة رطل، وكل رطل جروي يساوي ٩٦.٧ كغ، وبذلك يكون وزن السلسلة حوالي ١١٥٧١كغ تقريباً. هِنتس، فالتر: المكاييل والأوزان الإسلامية، تر: كامل العسلي، منشورات الجامعة الأردنية، عمان، ١٩٧٠م، ص٤١. عمران: الحملة الخامسة، ص١٨٧

(٢) الذيل على الروضتين، عن الموسوعة، ج٢٠، ص٢١٠. المقريزي: المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٨هـ، ج١، ص٣٩٨، وسيرد هذا المرجع باسم.

(٣) عمران: الحملة الخامسة، ١٨٣-١٨٤.

معين عليهم، وبسبب تأخر وصول بقية الأسطول الصليبي من بلاد الشام اقترح يوستورج على الصليبيين اختيار الكونت سيمون أوف ساربروكن Saarbrucken قائداً عليهم، وعلى الرغم من اعتراض بعضهم عليه إلا أنه لم يلبث أن اقتنع الجميع به، وكان على هذا القائد المؤقت العملُ على انزال القوات الصليبية على الضفة الغربية للنيل في قبالة دمياط التي تقع على بعد مسافة ميلين من مصب نهر النيل، ويحمي دمياط من الخلف بحيرة المنزلة، وقد تم اختيار جيزة دمياط للرسو فيها، وكان ذلك اختياراً موفقاً كونها شبه جزيرة مثلثة محصنة طبيعياً بالبحر والنهر من كل جهاتها.[١]

وعلى العموم نزل الصليبيون بها في ٤ ربيع الأول ٦١٥هـ/ ٨ حزيران وبدأوا بإقامة معسكرهم في هذا المكان، وأما فيما يتعلق بالملك جان وبقية الحملة (البطريرك وبصحبته الأساقفة، ودوق النمسا وفرسان البيوت الدينية) فقد أبحروا بعد ثلاثة أيام من إبحار القسم الأول من الحملة، أي في اليوم نفسه التي وصلت به طلائع القسم الأول إلى دمياط، وذلك في أواخر صفر / ٢٧ أيار.[٢]

وقد بالغت المصادر العربية في تقدير أعداد هؤلاء الفرنج، فأوصل بعضها العدد إلى ٧٠ ألف فارس و٤٠٠ ألف جندي،[٣] في حين أن المصادر اللاتينية قللت ذلك العدد إلى خمسة آلاف فارس وأربعين ألف جندي فقط.[٤]

وعلى العموم فإن الجيش الصليبي نزل في جيزة دمياط دون مقاومة من أحد، وعندما حاول التقدم شرقاً نحو دمياط حال بينهم وبينها السلسلة الواصلة بين البرجين، لذا كان عملهم الأساسي في البداية هو

---

[١] بادربورن: الاستيلاء على دمياط، عن الموسوعة، ج٣٣، ص٣٨. ويندوفر: ورود التاريخ، ج٢، ص٧٥٢-٧٥٣، عن الموسوعة، ج٤٥، ص٧٥٢-٧٥٣. المقريزي: الخطط، ج١، ص٣٩٨. عمران : الحملة الصليبية، ص١٩١. رنسيمان: تاريخ الحروب، ج٣، ص٢٧٠. تاريخ الجهاد، ج٢، ص٣٠٢.

[٢] سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان، ج٢٢، ص٢٢٧. المقريزي: الخطط، ج١، ص٣٩٨.

[٣] المقريزي: الخطط، ج١،ص٣٩٨. للاستزادة أنظر: المقريزي: السلوك، ج١، ص٣٢٠،حيث يُنقص العدد به إلى عشرة آلاف فارس و٢٠٠ ألف جندي، وعلى الرغم من أن الرقم مبالغ فيه كثيراً إلا أنه أقرب للواقع مما أورده صاحب الخطط.

[٤] ويندوفر: ورود التاريخ، ج٢، ص٧٨٨، عن الموسوعة، ج٤٥، ص٧٨٨. بادربورن، الاستيلاء على دمياط، عن الموسوعة، ج٣٣، ص٩١. للاستزادة أنظر: King, op. cit. p. 191.

محاولة الاستيلاء على برج السلسلة، وبعد عناء كبير وقتال عنيف تم لهم ذلك، واستولوا عليه في أول جمادى الآخرة ٦١٥هـ/ ٢٤ آب ١٢١٨م، وبذلك أصبحت دمياط مفتوحةً أمام الصليبيين.[١]

وفي العودة إلى ردة الفعل الأيوبي على هذه الأحداث، فيبدو أن نزول الصليبيين على دمياط كان مفاجأةً كبيرةً للسلطان العادل وابنه الكامل الذي كان نائباً عن أبيه في حكم مصر منذ عام ٦٠٤هـ/ ١٢٠٧م.

والذي يهم أن الكامل خرج على رأس الجيش المصري من أجل الدفاع عن دمياط منذ اليوم التالي لوصول الصليبيين، ونزل في العادلية -قرب دمياط-، في حين أن سفن الأسطول المصري وصلت في فرع النيل إلى قرب دمياط، وكان العادل آنذاك مقيماً في بلاد الشام في مرج الصفر بالقرب من دمشق، وبالتحديد في قرية "عالقين"، وقد ألمَّ به المرض، وأصبح شيخاً مسناً تجاوز الخامسة والسبعين، فما كان منه إلا أن أرسل الإمدادات العسكرية إلى ابنه الكامل، واستمر الحال متجمداً قرابة أربعة أشهر إلى أن تمكن الصليبيون من الاستيلاء على برج السلسلة (مفتاح الديار المصرية)، ويبدو أن وَقْعَ هذا النبأ كان عظيماً على العادل، فلم يحتمل الصدمة و"انزعج ودقَّ بيده على صدره، وأقام مريضاً إلى يوم الجُمعة إلى سابع أو ثامن جُمادى الآخرة فتوفي بعالقين"، ويصادف هذا التاريخ ٣١ آب ١٢١٨م.[٢]

لم يكن لوفاة العادل محمد أثر كبير في مجريات الأحداث العسكرية على الجبهة الصليبية في دمياط، فالأوضاع الداخلية قد تقدم ترتيبها عقب هدنة ٦٠٤هـ/ ١٢٠٧م حيث خيَّم الهدوء على العلاقات بين الطرفين، فاستغلها العادل لتقسيم دولته بين أبنائه، وعيَّن كل واحد منهم على منطقة محددة، فأعطى ابنه الكامل محمد حكم مصر، وابنه المعظم عيسى حكم دمشق وما يلحق بها من العريش إلى حمص بما في ذلك البلاد الساحلية وبلاد الغور وفلسطين والقدس والكرك الشرقي وصرخد، وولى ابنه الأشرف موسى البلاد الشرقية بما فيها الرها وحران وخلاط وغيرها، وابنه الأوحد نجم الدين أيوب أعطاه ميافارقين وما

---

[١] بادربورن: الاستيلاء على دمياط، عن الموسوعة، ج٣٣، ص٣٩. المقريزي: الخطط، ج١، ص٣٩٨. وللمزيد من التفاصيل الدقيقة عن الاستيلاء على برج السلسلة راجع، بادربورن: الاستيلاء على دمياط، عن الموسوعة، ج٣٣، ص٣٩-٤٤. ويندوفر: ورود التاريخ، ج٢، ص٧٥٣-٧٥٨، عن الموسوعة، ج٤٥، ص٧٥٣-٧٥٨.

[٢] سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان، ج٢٢، ص٢٣١. وللمزيد من التفاصيل راجع المصدر نفسه ٢٢، ص٢٣١- ٢٣٣. الذيل على الروضتين، عن الموسوعة، ج٢٠، ص٢١٥. المقريزي: الخطط، ج١، ص٣٩٩. ويندوفر: ورود التاريخ، ج٢، ص٧٥٨، عن الموسوعة، ج٤٥، ص٧٥٨. قاسم، عبده قاسم: في تاريخ الأيوبيين والمماليك، عين للدراسات، مصر، ٢٠١٠م، ص٩٩.

يلحق بها، وأخذ الحافظ أرسلان قلعة جعبر، وملك الفائز إبراهيم قوص وأعمالها، وللأفضل الفيوم وأعمالها، وللأمجد حسن بعلبك وأعمالها، وملك المغيث محمود الكرك والشوبك.[١]

وتذكر المصادر أنه لم يكن للكامل منافس بين أخوته في زعامة الأسرة الأيوبية، فابن العديم يذكر أنه عند وفاة العادل أرسل أتابك حلب "شهاب الدين" إلى الأشرف يشجعه على أن يكون هو السلطان بعد أبيه، وأن يُخطب له في البلاد وتضرب السكة باسمه، وأن تكون العساكر الحلبية في خدمته، فردَّ عليه الأشرف قائلاً: "لا والله لا أغير قاعدة قَرَّرها أبي، بل يكون السلطان أخي الملك الكامل، ويكون قائماً مقام أبي".[٢]

وعلى هذا فإن وتيرة الأحداث السياسية والعسكرية سارت على نغمتها المعتادة، ولم تكن حادثة وفاة العادل بالخطورة المتوقعة التي يخشاها الجميع، فالمعظم في بلاد الشام كثَّف من غاراته على الصليبيين في جمادى الآخر ٦١٥هـ/ أيلول ١٢١٨م، والتقى معهم على القيمون، وانتصر عليهم، "وقتل منهم مقتلة عظيمة، وأسر من الداوية مئة فارس، وأدخلهم القدس منكَّسةً أعلامُهم"[٣].

وكذلك الصليبيون بعد أن استولوا على برج السلسلة لم يواصلوا ضغطهم وترددوا طويلاً في متابعة الهجوم على دمياط، وقرروا الانتظار حتى وصول الإمدادات من الغرب، وعانوا خلال هذه المدة الكثير من الويلات والأمراض والمجاعات داخل معسكرهم.[٤]

وعسكر الكامل في منزلة العادلية بالقرب من دمياط على الجانب الغربي للنيل، وقام بالضغط على الصليبيين لمنع تقدمهم نحو دمياط، في حين استمرت الإمدادات تصل إلى دمياط من قِبله،[٥] وأرسل العديد من الرُسل (سبعين رسولاً) إلى ملوك وأمراء المسلمين وعلى رأسهم الخليفة العباسي في بغداد، وإلى

---

[١] المقريزي: السلوك، ج١، ص٢٨٤. الحريري، أحمد بن علي: الاعلام والتبيين، تح: سهيل زكار، مكتبة دار الملاح، دمشق، ١٩٨١م، ص٩٢.

[٢] ابن العديم: زبدة الحلب، ج٢، ص٦٤٦-٦٤٧.

[٣] سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان، ج٢٢، ص٢٢٨. للاستزادة أنظر: أبو شامة: الذيل على الروضتين، عن الموسوعة، ج٢٠، ص٢١٠.

[٤] بادربورن: الاستيلاء على دمياط، عن الموسوعة، ج٣٣، ص٤٧-٤٩. رنسيمان: تاريخ الحروب، ج٣، ص٢٧٣-٢٧٤.

[٥] المقريزي: الخطط، ج١، ص٣٩٩. قاسم: في تاريخ الأيوبيين والمماليك، ص١٠٢. حومد: تاريخ الجهاد، ج٢، ص٢٢٠-٢٢١.

أخوته المعظم عيسى والأشرف موسى في بلاد الشام، يحذرهم بأنه إن سقطت مصر بيد الفرنج فإنه لن تستعصي عليهم أرض إسلامية في أي مكان،[١] وركز الكامل في رسائله تلك على موضوع إثارة حمية الجهاد لدى المسلمين حكاماً وشعوباً، وحثّهم على ضرورة أداء واجبهم الديني في الدفاع عن مصر، وبرز آنذاك الفقيه والمؤرخ الدمشقي سبط ابن الجوزي (ت٦٥٤هـ/١٢٥٦م) كأكبر المصلحين الاجتماعيين في بلاد الشام، وكأكبر الداعين والواعظين لإذكاء روح الجهاد على الصعيد الشعبي والرسمي ضد الحملة الصليبية الخامسة، وكان له الأثر الأكبر في إقناع الأشرف موسى بضرورة المشاركة في الدفاع عن مصر في الوقت الذي أخفق المعظم بذلك.[٢]

وبعدها بدأت النجدات الإسلامية من كل الأنحاء تتوالى على المعسكر الإسلامي في فارسكور ومنها قوات حماة وحمص ودمشق وبعلبك وحلب، "وأقبلت العساكر الإسلامية، والملوك الأيوبية يتبع بعضها بعضاً، ونزلوا كلهم بالمنصورة في خدمة الملك الكامل".[٣]

إلا أن المعسكر الإسلامي واجه صعوبات داخلية كثيرة تمثلت في مؤامرة وثورة داخلية كبيرة ضد الكامل، وكادت أن تطيح به، وأدت إلى انسحاب الكامل من معسكره في العادلية إلى أشموم طناح قرب مدينة المنصورة، وتمكن الكامل – بفضل مساندة أخيه المعظم عيسى الذي أتى مسرعاً على رأس قواته من

---

[١] المقريزي: الخطط، ج١، ص٣٩٩-٤٠٠. ابن تغري بردي: النجوم، ج٦، ص٢٤٠. ابن الفرات، ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم: تاريخ الدول والملوك، تح: ميس مقلد، رسالة مقدمة لنيل درجة الماجستير في تاريخ العرب والإسلام، بإشراف سهيل زكار، جامعة دمشق، ٢٠١٨م، ص١٧٥. ابن دقماق : الجوهر الثمين، ج٢، ص٢٠٧-٢٠٦. ابن إياس، محمد بن أحمد: بدائع الزهور في وقائع الدهور، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م، ج١، ق١، ص٢٧١.حومد: تاريخ الجهاد، ج٢، ص٢٢٢. الخريسات: السياسة الأيوبية، ص٣٦.

[٢] سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان، ج٢٢، ص٢٣٩، ٢٥٧. الذهبي: تاريخ الإسلام، ج٤٣، ص٣٠، ٤٤، ص٥٥. ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٣،ص٥٨. ابن تغري بردي: النجوم، ج٦،ص٢٤٠. الخريسات: السياسة الأيوبية، ص٣٦. وللمزيد عن سبط ابن الجوزي ودوره في الجهاد آنذاك راجع: حميد، فيصل بجاش علي: التيارات الفكرية في بلاد الشام ودورها في مواجهة الحروب الصليبية، أطروحة أعدت لنيل درجة الدكتوراه في تاريخ العرب والإسلام، بإشراف أ.د. سهيل زكار، جامعة دمشق، ٢٠٠٧م، ص٤٥٨-٤٦٣.

[٣] ابن العديم: زبدة الحلب، ج٢، ص٦٥٢-٦٥٣. ابن الفرات: تاريخ الدول والملوك، ص١٧٧.

الشام – من القضاء على هذه المؤامرة بعد أن "همَّ بمفارقة أرض مصر"[١]، إلا أن النتيجة كانت استيلاء الصليبيين على معسكره في العادلية في ٦ ذي القعدة ٦١٦هـ/ ٥ شباط ١٢١٩م، وأخذوا ما به من غنائم، وبذلك غدت دمياط محاصرة من جهتي البر والبحر،[٢] وبعد أن تمكن الكامل من القضاء على تلك المؤامرة الداخلية التي كادت أن تطيح به عَمِدَ إلى إعادة تنظيم جيشه، وحاول مراراً العودة إلى معسكره في العادلية، وتكرر إخفاقه في ذلك على الرغم من مساعدة المعظم له، فلجأ إلى إقامة معسكره في فارسكور التي تقع على بعد ستة أميال جنوب دمياط، ومنها أخذ يشن الهجمات على الفرنج الذين استقروا مجدداً في العادلية، ويهاجم قواهم حول دمياط، ولكن دون فائدة.[٣]

أيضاً عانى المعسكر الصليبي المحاصر لدمياط من صعوبات ومشاكل عدة، تمثلت في سوء اختيارهم موقع المعسكر، إذ إن موقعه كان مناسباً جداً للدفاع في حين أنه لم يكن مناسباً للهجوم بالمطلق، وأيضاً تعرضوا للأمراض والوباء داخل المعسكر[٤]، ومقابل هذه التحدِّيات والصعوبات كان هناك ما يُنعش هذا المعسكر ويعزز قوته ويثير نشاطه من جديد، فقد وصلتهم نجدات صليبية جديدة، وكثيرة، منذ خريف عام ١٢١٨م، فقد بدأت الإمدادات تصل من أوربا، وتوافدت جموع الصليبيين على المعسكر غرب النيل، وكان منهم الإيطاليون والفرنسيون والإنكليز وكثير من الأساقفة والبارونات، وكان من بينهم المندوب البابوي بيلاجيوس[٥]. إلا أن وصول الأخير مثَّل أبرز التحديات التي واجهت المعسكر الصليبي؛ لأن وصوله في منتصف أيلول ١٢١٨م، كان ايذاناً ببدء القيادة المزدوجة لهذا المعسكر، إذ كان يرى –كونه مندوباً عن البابا– أنه ينبغي أن تكون له القيادة العليا لكامل الحملة، مستغلاً الآراء والأهواء المتفرقة داخل

---

[١] المقريزي: السلوك، ج١، ص٣١٥. للاستزادة أنظر: ابن الأثير: الكامل، ج١٠، ص٣٢٨. سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان، ج٢٢، ص٢٣٧. الصفدي، صلاح الدين خليل بن أيبك: الوافي بالوفيات، تح: أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى، دار إحياء التراث، بيروت، ٢٠٠٠م، ج٧، ص١٤٨. حومد: تاريخ الجهاد، ج٢، ص٢٢٢.

[٢] بادربورن: الاستيلاء على دمياط، عن الموسوعة، ج٣٣، ص٥١-٥٢. ابن العديم: زبدة الحلب، ج٢، ص٦٤٨. المقريزي: الخطط، ج١، ص٤٠٠. المقريزي: السلوك، ج١، ص٣١٤. في تاريخ الأيوبيين والمماليك، ص١٠٤. حومد: تاريخ الجهاد، ج٢، ص٢٢١.

[٣] بادربورن: الاستيلاء على دمياط، عن الموسوعة، ج٣٣، ص٥٣، ٥٥-٥٩. المقريزي: الخطط، ج١، ص٤٠١. رنسيمان: تاريخ الحروب، ج٣، ص٣٧٩.

[٤] للمزيد عن هذه الصعوبات راجع بادربورن: الاستيلاء على دمياط، عن الموسوعة، ج٣٣، ص٤٧-٤٩. ويندوفر: ورود التاريخ، ج٢، عن الموسوعة، ج٤٥، ص٧٦٠-٧٦١. في تاريخ الأيوبيين والمماليك، ص١٠٣.

[٥] ويندوفر: ورود التاريخ، ج٢، عن الموسوعة، ج٤٥، ص٧٥٩. زاباروف، الصليبيون في الشرق، ص٢٩٧. حومد: تاريخ الجهاد، ج٢، ص٢٢٢.

المعسكر الصليبي، وذلك على الرغم من خضوع الجميع من قَبلُ للقيادة العسكرية لجان دي بريين في هذه الحملة، ولا بدَّ أن دعواه تلك تتطلب مهارة دبلوماسية عالية إلا أنه لم يتمتع بشيء من ذلك، ولم يملك من الخصال الشخصية ما يؤهله لتلك المطالب، فعلى الرغم من أنه كان رجلاً ذا طاقة هائلة متشجعاً للعمل الصليبي وذا خبرة إدارية، إلا أن المصادر اللاتينية تُجمع على أنه كان ضيق الأفق قصير النظر، مستبداً مغرماً بنفسه، وعنيداً بشكل مثير، ولم يكن يتردد في اتخاذ القرارات العسكرية دون الرجوع إلى العسكريين من ذوي الخبرة، وسرعان ما تسبب وجوده في زيادة حجم معاناة المعسكر الصليبي.[١] ولا بدَّ أن ذلك سيؤدي إلى نتائج سيئة على الصليبيين، فالملك جان دي بريين John of Breinne والأمراء الصليبيون في سورية لن يعترفوا بقيادة بيلاجيوس، وسيسيرون خلف الملك، في حين أن الصليبيين الجدد المتحمسين دينياً لن يفضِّلوا أي سلطة على سلطة الكنيسة والبابا التي مثَّلها الكاردينال بيلاجيوس الذي كان يرى أن له الحق في الانفراد بالقيادة العليا للجيش الصليبي.

وبعد أشهر قليلة من ذلك وصلت إلى المعسكر الصليبي نجدات قوية قادمة من قبرص في نهاية ٦١٥هـ/ شباط ١٢١٩م وعلى رأسها جوتيه "قائد الجيش القبرصي"، بالإضافة إلى الإمدادات والمؤن التي استمرت هذه الجزيرة في إرسالها تباعاً إلى الصليبيين في مصر والشام،[٢] إذ يقول ابن واصل في بداية تأريخه لسنة ٦١٦هـ/ ١٢١٩م: "والفرنج يزحفون إلى البلاد ليلاً ونهاراً لا يفترون عن مقاتلتهم"[٣]، ولا شك أن هذه الإمدادات والنجدات الجديدة كان لها دور في تقوية مركز الصليبيين حول دمياط، ومن ثم استمرار الضغط وتشديد الحصار عليها حتى تمكنوا من دخولها واستباحتها كما سيأتي تفصيله.

---

[١] في تاريخ الأيوبيين والمماليك، ص١٠٣. Mayer, op. cit, p. 212.

للاستزادة أنظر: زاباروف : الصليبيون في الشرق، ص٢٩٨-٢٩٩. غروسيه: ملحمة الحروب، ص٢٥١. حومد: تاريخ الجهاد، ج٢، ص٢٢٢.

[٢] زاباروف: الصليبيون في الشرق، ص٢٩٧. عمران: الحملة الخامسة، ص٢٣٦. عاشور: الحركة الصليبية، ج٢، ص٢١٩. عن عاشور: قبرص والحروب الصليبية، ص٣٩-٤٠.

[٣] ابن واصل: مفرج الكروب، ج٤، ص٢٣.

## ثالثاً: السياسة الأيوبية الجديدة تجاه الصليبيين أثناء الحملة الصليبية الخامسة (٦١٤-٦١٨هـ/ ١٢١٧-١٢٢١م)

### ١- السياسة الأيوبية العامة في بلاد الشام تجاه مملكة القدس اللاتينية الثانية (الخراب والدمار)

بدأت أثناء وجود الحملة الصليبية الخامسة في بلاد الشام تظهر سياسة جديدة في الأوساط الأيوبية تجاه الشام، ولا سيما نحو القدس وما حولها، وللأسف؛ فقد تمثلت هذه السياسة بخراب المدن أو تدمير التحصينات، على الرغم من الوحدة الكبيرة والتماسك القوي الذي أبداه المسلمون في سياستهم الخارجية تجاه الصليبيين.

ويمكن القول إن هذه السياسة - سياسة الخراب والتدمير- ظهرت على مستوى خفيف منذ عهد العادل، وقبل سقوط دمياط بقليل، حيث إنه أمر ابنه الأشرف موسى في نهاية ٦١٤هـ/ آذار ١٢١٨م بالسير إلى حمص ليكون هناك في مقابلة الفرنج، وليشاغلهم عن حصار دمياط، وتمكن الأشرف من دخول صافيتا وتخريب ربضها ونهب رستاقها، وقام بتهديم ما حولها من حصون، ثم تابع إلى حصن الأكراد ونهبه وحاصر قلعته حتى أشرفت على السقوط، وكذلك فعل ببانياس وصفد، إلا أن تجدد الحرب بين الأشرف وسلاجقة الروم أدت إلى تراجعه عن سياسته تلك والعودة إلى حلب.[١]

وأرسل الكامل إلى المجاهد أسد الدين شيركوه الثاني صاحب حمص، وطلب منه الهجوم على ممتلكات مملكة القدس في الشام بهدف تخفيف الضغط على مصر.[٢]

أيضاً المعظم عيسى صاحب دمشق، فقد ترك مصر أثناء حصار دمياط وعاد إلى الشام بهدف القيام ببعض الأعمال العسكرية ضد الفرنج بها لتخفيف الضغط على مصر، فحاصر قيسارية مدة أربعة أيام، وتمكن من الاستيلاء على حصنها، ثم دمَّرها وسوَّاها بالأرض،[٣] وحاول تكرار ذلك على عثليث،

---

[١] سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان، ج٢٢، ص٢٢٧. أبو شامة الذيل على الروضتين، عن الموسوعة، ج٢٠، ص٢٠٩. ابن العديم: زبدة الحلب، ج٢، ص٦٤٣. بادربورن: الاستيلاء على دمياط، عن الموسوعة، ج٣٣، ص٦٩، ٧٦. عاشور، الحركة الصليبية، ج٢، ص٢١٥-٢١٦. الخريسات: السياسة الأيوبية، ص٣٣.

[٢] الحايك: العلاقات الدولية، ج٢، ص١٩٨.

[٣] ابن تغري بردي: النجوم، ج٦، ص٢٣٩.ويندوفر: ورود التاريخ، ج٢، ص٧٨٦، عن الموسوعة، ج٤٥، ص٧٨٦. بادربورن: الاستيلاء على دمياط، عن الموسوعة، ج٣٣، ص٧٤-٧٦. حومد: تاريخ الجهاد، ج٢، ص٢٢٣.

إلا أن صمود الداوية بها وتحصيناتهم القوية لها جعلته ينسحب عنها[١] إلى حصن الطور وتبنين وبانياس وصفد بهدف تدمير حصونها، وذلك في شهري آذار وأيار سنة ١٢١٩م، وأرسل إلى أخيه العزيز عثمان وأستاذ داره عز الدين أيبك اللذين كانا آنذاك في بيت المقدس يأمرهما بهدم أسوارها من الأساس حتى لا يتمكن الصليبيون في حال احتلالها من البقاء فيها.[٢]

إلا أن العزيز وعز الدين أيبك حاولا التأنّي في تنفيذ أوامر المعظم، وأرسلا له يوضحان أنهما قادران بما لديهما من قوات عن الدفاع عن المدينة وحمايتها، إلا أن المعظم كتب إليهما مرة أخرى مشدداً على ضرورة ووجوب خراب الأسوار من أساسها، مسوغاً ذلك بأن الصليبيين "لو أخذوه لقتلوا كل من فيه، وحكموا على دمشق وبلاد الإسلام"، وإمعاناً في حرص المعظم على ضرورة تنفيذ أوامره أرسل مع كتابه ذاك مجموعة من النقابين والحجارين المختصين بعمليات الهدم والدمار.[٣]

وفعلاً بدأت في بيت المقدس عمليات هدم الأسوار والحصون والأبراج بصورة منظمة وممنهجة، وشكل ذلك فاجعةً حقيقيةً لسكانها الذين أُصيبوا بالرعب والهلع مما قد يُصيبهم من الخطر، وهام الناس على وجوههم حتى ضاقت بهم الطرقات، وأخذوا بالهرب في كل الاتجاهات، فوصل بعضهم إلى مصر وبعضهم الآخر إلى دمشق وآخرون إلى ما وراء الأردن، ومات كثير منهم بسبب الجوع والعطش كما ذكر سبط ابن الجوزي.[٤]

ويصف السبط الذي كان معاصراً لتلك الأحداث ردة الفعل المباشرة لسكان مدينة القدس بقوله: "ووقع في البلد ضجةٌ عظيمة مثل يوم القيامة، وخرج النّساء المخدَّرات والبنات والشيوخ والعجائز، والشبان

---

[١] وندوفر: ورود التاريخ، ج٢، ص٧٨٦، عن الموسوعة، ج٤٥، ص٧٨٦. بادربورن: الاستيلاء على دمياط، عن الموسوعة، ج٣٣، ص٧٦-٧٧، ٨٥. حومد: تاريخ الجهاد، ج٢، ص٢٢٣.

[٢] سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان، ج٢٢، ص٢٣٣، ٢٣٦. الذيل على الروضتين، عن الموسوعة، ج٢٠، ص٢١٧. بادربورن: الاستيلاء على دمياط، عن الموسوعة، ج٣٣، ص٥٣، ٨٥. النقر، محمد الحافظ: تاريخ بيت المقدس، دار الرازي، ص١٩٠.

[٣] سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان، ج٢٢، ص٢٣٦. الذيل على الروضتين، عن الموسوعة، ج٢٠، ص٢٢٢. ابن تغري بردي: النجوم، ج٦، ص٢٤٤. النقر: تاريخ بيت المقدس، ص١٩٠.

[٤] سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان، ج٢٢، ص٢٣٦-٢٣٧. وللمزيد عن تخريب القدس انظر: الذيل على الروضتين، عن الموسوعة، ج٢٠، ص٢٢٢. ابن واصل: مفرج الكروب، ج٤، ص٣٢. ابن تغري بردي: النجوم، ج٦، ص٢٤٤. بادربورن: الاستيلاء على دمياط، عن الموسوعة، ج٣٣، ص٥٣، ٨٥.

والصبيان إلى الصخرة والأقصى، فقطَّعوا شعورهم، ومزَّقوا ثيابهم بحيث امتلأت الصخرة ومحراب الأقصى من الشُّعور، وخرجوا هاربين، وتركوا أموالهم وأثقالهم، وما شكُّوا أن الفرنج تُصَبِّحُهُم..."[١].

وتذكر الدراسات أنه لم يبق في القدس آنذاك من السكان سوى الحاميات العسكرية، وبعض رجال الدولة، وعدد قليل من المتصوفة، وكذلك غادرها النصارى واليهود الذين كانوا قد تجمعوا فيها بأعداد كبيرة بعد الفتح الصلاحي.[٢]

وفي هذا الصدد يذكر ابن واصل أن أسوار وأبراج بيت المقدس كانت في غاية القوة والمنعة والعظمة، وذلك بسبب أن إعمارها استمر منذ فتح بيت المقدس على يد صلاح الدين عام ٥٨٣هـ/ ١١٨٧م حتى آنذاك، ويضيف ابن واصل: "كان كل برج من أبراجه نظير قلعة"، وأنه تم تدمير جميع الأبراج ما خلا برج داود بسبب تمركز الوالي والحامية العسكرية فيه، ويقع هذا البرج قرب الباب الغربي للقدس، ومنه يقود الطريق إلى بيت لحم.[٣]

موقع برج داود ١

---

[١] سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان، ج٢٢، ص٢٣٦.

[٢] النقر: تاريخ بيت المقدس، ١٩١-١٩٢. نقلاً عن Prawer, J, Minorities in the Crusader States in a History of the Crusades, Vol, V, P. 97.
Powell, J, Anatomy of a crusade, 1213-1221, Philadelphia, 1986, p.p. 191-175.

[٣] ابن واصل: مفرج الكروب، ج٤، ص٣٢. للاستزادة أنظر: بادربورن: الاستيلاء على دمياط، عن الموسوعة، ج٣٣، ص٥٣. ويندوفر: ورود التاريخ، ج٢، ص٦٥٨، عن الموسوعة، ج٤٥، ص٧٥٨. النقر : تاريخ بيت المقدس، ص١٩١. وللمزيد عن برج داود راجع رحلة ثيودوريك، عن الموسوعة، ج٣٥، ص٣١٤. ورحلات الراهب الدومينيكاني، عن الموسوعة، ج٤١، ص٤٤٥-٤٤٦، ج ٤٣، ص١١٦١.

برج داود ١

دون شك أن هذه السياسة التي اتبعها المعظم في فلسطين كانت باتفاق مسبق مع الكامل، إذ يذكر سبط ابن الجوزي أن الكامل قال لأخيه المعظم بعد سقوط دمياط: "قد فات ما ذُبح، وجرى المقدور بما هو كائنٌ، وما في مقامك هاهنا فائدة، والمصلحة أن تنزل إلى الشام تَشْغَل خواطر الفرنج، وتستجلب العساكر من الشرق"[١]، وإن صح ذلك فهو يدل على أحد أمرين:

**الأول**: أن الكامل والمعظم استشعرا قوة الصليبيين أثناء حصارهم لدمياط، وأن قواتهما لن تمكنهما من المواجهة والصمود أمامهم، ولا بدّ أن الصليبيين سيحتلون القدس وما حولها، ومن ثم اتفقوا على خرابها كخطوة أولى للتخلي عنها أمام الضغط الصليبي الوشيك عليها.

**الثاني**: كان هناك اتفاق ضمني مسبق بين الكامل والمعظم على مراسلة الصليبيين المحاصرين لدمياط في حال سقوطها بيدهم أو قبل سقوطها، ومقايضتها بفلسطين ككل، بما في ذلك القدس، وأن ينسحب الصليبيون من مصر كاملةً. وهنا آثرا تسليم المنطقة لهم مدمرة خالية من التحصينات كي لا يستطيعوا

---

[١] سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان، ج٢٢، ص٢٣٨. للاستزادة أنظر: اليونيني: ذيل مرآة الزمان، ج٢، ص٢٠٢- ٢٠٣. ابن تغري بردي: النجوم، ج٦، ص٢٣٨.

الدفاع عنها في المستقبل، وفي أحسن الأحول كي ينشغلوا في تحصينها مدة من الزمن، ويؤيد ذلك عروض الكامل عليهم بذلك فيما بعد، وهذا يقود إلى البحث في التفاصيل الدقيقة لسياسة الكامل تجاه الصليبيين.

وقبل ذلك لا بدَّ من الإشارة إلى أن العلاقات بين الجانبين الإسلامي والصليبي عقب سقوط دمياط، فعندما بدأ الملك جان بعد سقوط دمياط بالتفكير في العودة إلى عكا متذرعاً بتردي الأوضاع والعلاقات مع المسلمين في بلاد الشام لم تكن الأوضاع العسكرية بها متوترة آنذاك، وربما كان السبب الأساسي لعودته هو صراعه مع بيلاجيوس، وربما الأهم من ذلك هو الصراع على وراثة العرش في أرمينيا؛ لأن زوجته الجديدة (التي تزوجها عقب وفاة زوجته ملكة القدس) كانت إحدى وريثات العرش في أرمينيا[١].

والذي يهم أن الملك جان ما إن أذن له البابا في العودة إلى عكا وعاد إليها في المحرم من سنة ٦١٧هـ/ آذار ١٢٢٠م[٢] حتى بدأت الهجمات الأيوبية على بعض أنحاء مملكته في بلاد الشام، ذلك أنه منذ سقوط دمياط بدأت السياسة الأيوبية تعمل على إعادة فتح جبهات جديدة في بلاد الشام ضدهم، إذ يورد سبط ابن الجوزي أن المعظم كتب إليه بعد سقوط دمياط في سنة ٦١٧هـ/ ١٢٢٠م أن يحرّض أهل دمشق على الغزو والجهاد، وأن يجمع العساكر والمطَّوعة من قراها، وأن يلتقيه بما يجمع من العساكر والمجاهدين في نابُلُس. وبالفعل بدأ سبط بذلك، وقاد جموع المجاهدين والمطَّوعة، وسار إلى الساحل، واشترك مع المعظم في فتح قيسارية، حيث أغارت قوات دمشق في الشهر نفسه الذي عاد به جان إلى عكا محرم ٦١٧هـ/ آذار ١٢٢٠م على قلعة قيسارية التي لم يكن قد مضى وقت طويل على الفراغ من بنائها، واستمر المعظم حتى سيطر عليها ودمرها[٣].

وأغارت قوات المعظم على قلعة عثليث (قلعة ابن الرب أو تل الصافية) التي كانت تتبع للداوية، وفرضت حصاراً عليها، وكون عثليث أحد أهم معاقل الداوية في بلاد الشام فإنهم تركوا القوات الصليبية الموجودة في دمياط وعادوا إلى بلاد الشام للدفاع عن قلعتهم وعلى رأسهم مقدمهم، واستمر ذلك الحصار

---

[١] بادربورن: الاستيلاء على دمياط، عن الموسوعة، ج٣٣، ص٧٨، ٨١.

[٢] بادربورن: الاستيلاء على دمياط، عن الموسوعة، ج٣٣، ص٧٨.

[٣] سبط اين الجوزي: مرآة الزمان، ج٢٢، ص٢٣٩. للاستزادة أنظر: ابن تغري بردي: النجوم، ج٦، ص٢٣٩.

حتى رمضان ٦١٧هـ/ تشرين الثاني ١٢٢٠م، حيث انسحب المعظم إلى دمشق،[١] وكان سبب فك حصاره عن هذه القلعة تكاتف الصليبيين وتناديهم للدفاع عنها، إذ يذكر أولفر أن المندوب البابوي أرسل الرسل والرسائل إلى ملكة قبرص وإلى الصليبيين والبارونات في سورية يحثهم على تقديم العون لتلك القلعة، وبالفعل وصلت مساعدات قبرص سريعاً، وعندما عَلِمَ المعظم بقرب وصول قوات بوهيموند وصاحب بيروت وغي صاحب جبلة وغيرهم فك الحصار عنها وانسحب إلى دمشق.[٢]

## ٢-السياسة الخاصة للكامل الأيوبي أثناء حصار دمياط (٦١٥-٦١٦هـ/ ١٢١٨-١٢١٩م)، والموقف الصليبي منها (المواجهات والمساومات والتنازلات)

بدأ الكامل الأعمال الدفاعية نيابةً عن والده منذ وصول الفرنج إلى الساحل المصري، وتابع ذلك بعد وفاة والده العادل كونه ولي عهده في حكم مصر، ويمكن القول إن الكامل محمد ورث عن أبيه أساليبه ووسائله السياسية وألاعيبه الدبلوماسية، كما ورث عنه الميل إلى الهدوء ومهادنة الفرنج والاكتفاء برد الفعل في التعامل معهم،[٣] ودون شك أن السنوات التي قضاها السلطان الكامل إلى جانب والده في حكم مصر وما شاهده أثنائها من محاولات والده بذل قُصارى جهده لكي يتجنب الحرب مع الصليبيين، بالإضافة إلى اشتراكه في حروب أبيه ضد أقربائه الأيوبيين، ولا بدَّ أن ذلك كله ترك بصمات واضحة على سياسات الكامل محمد وفكره السياسي والعسكري تجاه الفرنج الصليبيين.

ويمكن القول إن الكامل قام بما يتوجَّب عليه من اجراءات دفاعية عن دمياط عَقِبَ وفاة والده العادل، فعسكر في منزلة العادلية بالقرب من ثغر دمياط على الجانب الغربي للنيل، وقام بالضغط على الصليبيين لمنع تقدمهم نحو دمياط، في حين استمرت الإمدادات تصل من قِبَلِهِ إلى دمياط.[٤] لكن ذلك لا يعني بالمطلق أن الكامل انتهج سياسة أبيه نفسها في مواجهة ومهادنة الصليبيين، وهنا لا بدَّ من التذكير

---

[١] بادربورن: الاستيلاء على دمياط، عن الموسوعة، ج٣٣، ص٧٦-٧٧، ٨٥-٨٦. للاستزادة أنظر: أبو الفداء: المختصر، ٣، ص١٢٦. تاريخ ابن الوردي،٢، ص١٣٧. رنسيمان: تاريخ الحروب، ج٣، ص٢٩٣.

[٢] بادربورن: الاستيلاء على دمياط، عن الموسوعة، ج٣٣، ص٨٦-٨٧.

[٣] انظر: اليونيني: ذيل مرآة الزمان، ٢، ص٢٠٣.

[٤] نهاية الأرب، ٢٩، ص٨٧.المقريزي: السلوك، ج١، ص٣٠٩. المقريزي: الخطط، ج١، ص٣٩٩. في تاريخ الأيوبيين والمماليك، ص١٠٢. حومد: تاريخ الجهاد، ج٢، ص٢٢٠-٢٢١.

بأهم ملامح سياسة العادل تجاه صليبيي مملكة القدس اللاتينية الثانية، ويمكن اختصار هذه السياسة بأن العادل كان شديد الحرص على أن يبقى واقع الحال بينه وبين الصليبيين وَفْقَ الصيغة التي حددها أخوه معهم بصلح الرملة عام ٥٨٨هـ/ ١١٩٢م التي كان للعادل يد كبرى فيها، ويُلاحظ ذلك من خلال الهدن التي وقَّعها معهم، إذ إن جميعها أتت متوافقة مع معاهدة صلح الرملة، وفي سبيل ذلك كان العادل صارماً في وجه محاولات الصليبيين (سواءً صليبيوا المملكة أم القادمون الجدد) لتغيير هذا الواقع أو الكسب عليه، وذلك واضح فيما سلف ذكره وشرحه مفصلاً.

هنا يرد التساؤل: ما مدى اتباع الكامل لسياسة أبيه الصارمة تجاه الصليبيين؟

وما مدى اهتمام الكامل في المحافظة على مضمون صلح الرملة؟

وما هي أهم ملامح سياسة الكامل تجاه الصليبيين؟

وهل استقى الكامل من أبيه الخصال الدبلوماسية والميل إلى الهدوء وترك الخصال العسكرية والسياسية الصارمة تجاههم؟

وهل التزم الكامل السياسة الأيوبية العامة التي اعتُمِدت منذ عهد المؤسس صلاح الدين؟

يمكن القول إن الكامل الأيوبي خرج عن السياسة الأيوبية المعتادة تجاه الصليبيين منذ تأسيس الدولة الأيوبية على يد صلاح الدين، واتبع سياسة سهلة ومرنة تجاههم تقوم على المساومات والتنازلات والركون إلى التهدئة وتحقيق الصلح، وذلك لعدة أسباب:

أ- تزايد الضغط الصليبي على دمياط وإحكام الحصار عليها.

ب- استمرار وصول المساعدات والإمدادات من قبرص والغرب الأوربي للمعسكر الصليبي المحاصر لدمياط كما سلف ذكره.

ت- الخطر المغولي الذي بدأ يقترب من الدولة الخوارزمية في الشرق، وبروز مشكلة الدفاع عن الجبهة الشرقية للعالم الإسلامي ضد المغول، وانشغال الأشرف موسى بذلك، بالإضافة إلى

مشاكله الداخلية، في الوقت الذي لم يكن به الكامل ولا المعظم راضيان عن سياسته في شمال البلاد، مما حجب مساعدة موسى لهما.[١]

ث- الخلافات والشقاقات داخل الصف الأيوبي التي كثيراً ما استبشر الصليبيون وتفاءلوا بها، إذ ورد على لسان مقدم الداوية في رسالته التي أرسلها بعد سقوط دمياط بيدهم إلى أسقف إليمنيوم Elimenum وإلى بطرس دي مونتأليوت ما يشير إلى انتباه الصليبيين في مصر لتلك الخلافات واستغلالها بكل حذر لصالحهم، إذ ورد لديه: "والحديث عن وجود خلافات بين المسلمين يمنحنا السرور والراحة".[٢]

ج- موجة الرعب التي صاحبت المغول وسبقتهم لا بدَّ أن أصداءها وصلت إلى الكامل في مصر وأَقَضَّتْ مَضْجَعَهُ، في حين أنها أنعشت آمال الصليبيين الذين بدأوا يتطلعون إلى المغول كحليف مستقبلي لهم ضد المسلمين (أسطورة برسترجون)[٣]، وقد ورد في رسالة مقدم الداوية سالفة الذكر مايشير إلى اهتمام الصليبيين بالجبهة الشرقية للمسلمين التي يقودها الأشرف آنذاك، وعدم ابتهاجهم للانتصارات التي حققها الأخير على تلك الجبهة، إذ يرد في الرسالة عن الأشرف: "بفضل الرب سوف لن يكون بإمكانه بسهولة قهرهم جميعاً، لأنه إذا ما استطاع إنهاء تلك الحرب، سوف يكون من الممكن أن يلتفت باهتمامه نحو كونتية أنطاكية، أو نحو طرابلس، أو عكا، أو مصر، ولسوف نكون في الخطر الأعظم".

لكل هذه الأسباب آثر الكامل جانب المساومات والتهدئة والصلح مع الصليبيين، ومن هذا الباب الجديد دخل الكامل في ذي الحجة ٦١٥هـ/ شباط ١٢١٩م[٤] ليقدم لهم العديد من التنازلات تمثَّلت في مجملها بموافقته على اعادة احياء مملكة القدس اللاتينية الأولى وعاصمتها القدس.

---

[١] للمزيد عن المغول والخوارزمية انظر: ابن واصل: مفرج الكروب، ج٤، ص٣٤-٦٤. ابن العبري: مختصر الدول، ص٤٠٠ ومايليها. وعن مشاغل الأشرف الداخلية انظر: ابن واصل: مفرج الكروب، ج٤، ص٧٠-٧٧. كذلك: سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان، ج٢٢، ص٢٥٧. الذيل على الروضتين، عن الموسوعة، ج٢٠، ص٢٤٦-٢٤٧. الذهبي: تاريخ الإسلام، ج٤٤، ص٥٥. ابن كثير: البداية والنهاية، ١٣، ص٥٨. رنسيمان: تاريخ الحروب، ج٣، ص٢٨٤.

[٢] ويندوفر: ورود التاريخ، ج٢، عن الموسوعة، ج٤٥، ص٧٨٦.

[٣] عن هذه الأسطورة انظر: أوتو أسقف فريزنغ: ما ورد لدى أتو أسقف فريزنغ عن الحروب الصليبية، عن الموسوعة، ج٢٩، ص٣٤٢-٣٤٣. ويندوفر: ورود التاريخ، ج١، عن الموسوعة، ج٤٤، ص٣٠٥-٣٠٦.

[٤] هناك اختلاف بين المصادر والمراجع في تحديد هذا التاريخ بدقة.

لا شك أن المعظم كان له دور كبير في قرارات الكامل آنذاك لِما أبداه من جهود ومساعدات كبيرة للكامل آنذاك، وعلى هذا فلا بدّ أن المعظم وافق، وربما دفع الكامل إلى مثل ذلك الاتجاه (الاتجاه نحو السلام وتحقيق المصالحة الشاملة)، ويرد في المصادر اللاتينية ما يؤيد ذلك، حيث يورد صاحب تاريخ هرقل أن الملك المعظم تنازل للكامل عن جميع الأراضي التي كانت تتبع للصليبيين قبل فتوحات صلاح الدين في سبيل تخليص مصر من القوات الصليبية، ويبدو أن الكامل سُرَّ بذلك، فقَبَّل أخاه المعظم على كتفه وأثنى عليه كثيراً، ووعده بتعويضه في صعيد مصر مقابل ما يتنازل عنه في الشام.[١]

والمهم أن الكامل أرسل إلى المعسكر الصليبي أسيراً كان لديه، واسمه "لجارس Legars"، وزوده بترجمان اسمه بيران Beiran، فاتجها إلى المعسكر الصليبي والتقيا بملك القدس وبالمندوب البابوي، وطلبا منهما أن يرسلا مندوباً عنهما لمقابلة الملك الكامل في فارسكور.[٢]

وبالفعل أرسلا اثنين من عقلائهم لهذا الغرض هما أملني دي ريورات Amelin de Riorte وهو من مقاطعة أنجو، والآخر اسمه وليم، واصطحبا معهما ترجمان اسمه موستار Mostar، وتوجهوا بصحبة رسول الكامل إلى فارسكور، وبعد أن مثلوا أمام الكامل عرض عليهم ما يلي:[٣]

أ- يعيد المسلمون للصليبيين جميع الأراضي التي كانت بحوزتهم قبل فتوحات صلاح الدين باستثناء الكرك والشوبك التي سيتم دفع أتاوة عنهما.

ب- يعيد المسلمون صليب الصلبوت للصليبيين.

ت- جلاء الصليبيين عن مصر بشكل عام ودمياط بشكل خاص.

ث- مدة الهدنة ثلاثون عاماً.

وبالمجمل يمكن اختصار القول إن عرض الكامل لهم تضمن إعادة مجد مملكة القدس إلى ما كانت عليه قبل حطين عام ٥٨٣هـ/ ١١٨٧م باستثناء الكرك والشوبك، لِما لِموقعهما من أهمية كبيرة على طريق مصر- الحجاز - بلاد الشام، كما أن سيطرة الصليبيين عليهما ستحرم الكامل من الاتصال مع أطراف

---

[١] عمران: الحملة الخامسة، ص٢٣٧. عن Eracles, op, cit, p. 338.

[٢] عمران: الحملة الخامسة، ص٢٣٨. عن تاريخ هرقل

[٣] ابن الفرات: تاريخ الدول والملوك، ص١٧٨. غروسيه: ملحمة الحروب، ص٢٥٠. رنسيمان: تاريخ الحروب، ج٣، ص٢٨٥-٢٨٦. النقر: تاريخ بيت المقدس، ص١٨٨. عمران: الحملة الخامسة، ٢٣٨-٢٣٩. عاشور: الحركة الصليبية، ج٢، ص٢١٩.

دولته في الشرق، وربما أن ذلك كان السبب في تمسك الكامل بهما، أو ربما أن السبب في ذلك هو أهمية موقعهما العسكري الذي كان من شأنه مساعدة الكامل في ضرب الصليبيين في حال خروجهم عن الاتفاق المعقود فيما بينهم.

وعاد الرسولان إلى المعسكر الصليبي ليبلغا القادة بما قدمه الكامل من تنازلات سخية وعروض مغرية، فعقدوا مجلساً للتشاور، وفي هذا المجلس اختلفت آراؤهم حول قبول أو رفض عرض الكامل، وانقسموا إلى حزبين أو فريقين:

**الأول**: وافق على ذلك العرض، وضم هذا الفريق الملك جان دي بريين وأمراء مملكته والفرنسيين والألمان بما فيهم دوق النمسا والإنكليز، بالإضافة إلى فرسان التيوتون.

**الثاني**: لم يوافق على عرض الكامل، وضم المندوب البابوي بيلاجيوس -الذي ادعى القيادة العليا للحملة- فقد عارض الملك جان، وأيده بذلك البطريرك والأساقفة ورجال الدين وطائفتا الداوية والاسبتارية والإيطاليون، وأصرُّوا على توجيه هجماتهم ضد معسكر الكامل والمعظم في فارسكور بدلاً من الاكتفاء بحصار دمياط. ولما اعترض حزب الملك جان دي بريين على تلك الخطة مؤكدين على ضرورة قبول عروض الكامل بكل وسيلة من الوسائل وأنها نافعة جداً للصليبيين؛ اتهمه حزب بيلاجيوس بالخيانة والضعف،[١] وفي نهاية المجلس قرروا رفض ذلك العرض، وأصروا على استعادة جميع مملكة القدس بما في ذلك (الكرك والشوبك) بحجة أنه من المستحيل الاحتفاظ ببيت المقدس دون هاتين القلعتين نظراً لأهميتهما العسكرية، ويفهم من رواية ويندوفر أنهم قبلوا فقط بهدنة مؤقتة قصيرة الأمد، وتوقف الأمر عند هذا الحد، ورفضوا أن يناقشوا بقية شروط الصلح المتعلقة بالانسحاب من مصر، وأمضى الجانبان مدة الهدنة القصيرة في إصلاح استحكاماتهما الداخلية.[٢]

يبدو أن العرض السخي الذي قدمه الكامل كاد أن يفضي إلى نتائج إيجابية لصالح المسلمين لو أن الكامل استغل ذلك، فالإيطاليون عارضوا عرض الكامل للصلح وانضموا إلى حزب بيلاجيوس رغبةً منهم

---

[١] الراهب الدومينيكاني، عن الموسوعة، ج٤٣، ص١١٦٢. بادربورن: الاستيلاء على دمياط، عن الموسوعة، ج٣٣، ص٦٣، ٨١-٨٢. رنسيمان: تاريخ الحروب، ج٣، ص٢٨٥-٢٨٦. غروسيه: ملحمة الحروب، ص٢٥٠-٢٥١. عمران: الحملة الخامسة، ص٢٣٨-٢٣٩. عاشور: الحركة الصليبية، ج٢، ص٢٢٠. للاستزادة أنظر: ابن الفرات: تاريخ الدول والملوك، ص١٧٨.

[٢] ويندوفر: ورود التاريخ، ج٢، عن الموسوعة، ج٤٥، ص٧٦٩.

في احتلال الدلتا المصرية حيث بها مكاسب تجارية ضخمة تفوق أهمية بيت المقدس بالنسبة إليهم؛ إذ عُرف عنهم شغفهم بالتجارة وما يتعلق بها من طرق وأسواق، لذلك فإن دمياط كانت على درجة عالية من الأهمية بالنسبة إليهم، كمعبر وسوق تجاري مهم، وأن السيطرة عليها ستُعفيهم من الضرائب المقررة على بضائعهم من قِبل الكامل التي تراوحت بين ٢٠-٣٥% من قيمة تلك البضائع،[١] ومن ثم فإن السيطرة عليها تتحكم في قراراتهم السياسية، وببساطة يمكن تفسير موقف الإيطاليين بالوقوف إلى جانب المنتصر، ففي البداية شككوا بقدرات الحملة على مصر؛ لذلك آثروا جانب التهدئة مع الكامل، وعندما رأوا أن الحملة الخامسة حققت بعض النجاحات وشاهدوا بأم أعينهم ضُعف موقف المسلمين في دمياط انقلبوا على رأيهم القديم، وأيدوا الحملة في احتلال مصر، ويؤيد هذا الرأي ما ذكره أولفر بكل وضوح عن تقلباتهم تلك عندما قال عنهم: "وقام الجنود الإيطاليون بأمل كاذب بخداع الحماسة الدينية لدى النائب البابوي، وذلك بعدما وعدوا بتقديم العون للزحف، لكنهم كانوا مثل بني أفرايم النازعون في القوس الرامون انقلبوا في يوم الحرب"[٢].

وببساطة أكثر من تلك يمكن تفسير الموقف المعارض لجماعتي الاسبتارية والداوية الدينيتين كون الكرك والشوبك كانتا تتبعان لهما في عهد المملكة الأولى؛ لذا لا يمكن أن يقبلا بأي صلح أو اتفاق لا يرد لهما تلك المنطقتين، وفي ضوء المصالح الشخصية فإن الكرك والشوبك هما أهم لهما من القدس بكثير.

وعن موقف بيلاجيوس ففي أحسن الأحوال يمكن تفسيره بالعناد الذي اتُصف به، والرغبة في معارضة الملك جان ليُثبت وجوده وأحقيته في الانفراد بقيادة الحملة، وأيضاً يمكن تفسير موقفه بالسذاجة والامعان كثيراً في التفاؤل بالنصر القادم، فقد شط به الخيال كثيراً، وتوهم أنه في حال سقطت دمياط بين يديه ستسقط معها مصر كاملةً، ومن ثم انهيار الإسلام بشكل عام، وتساقط دوله وممالكه أمام قيادته الجبارة، وبالتالي سيتمكن من نشر المسيحية الكاثوليكية في كل ربوع العالم.[٣]

---

[١] بادربورن: الاستيلاء على دمياط، عن الموسوعة، ج٣٣، ص٨١. ابن مماتي، قوانيني الدواوين، ٣٢٥-٣٢٧. ربيع، حسنين محمد: النظم المالية في مصر زمن الأيوبيين، مطبعة جامعة القاهرة، ١٩٦٤م، ص٥١.

[٢] بادربورن: الاستيلاء على دمياط، عن الموسوعة، ج٣٣، ص٨١.

[٣] الراهب الدومينيكاني، عن الموسوعة، ج٤٣، ص١١٦٢. رنسيمان: تاريخ الحروب، ج٣، ص٢٨٩. العلي: الصراعات، ص٢٠٦. السيد، عبد اللطيف عبد الهادي: الحروب الصليبية من خلال كتابات جاك دي فتري، ص١٧٥-١٧٦. عمران، الحملة الخامسة، ٢٤١.

أولاً وأخيراً فإن بيلاجيوس كان رجل دين بعيداً كل البعد عن قيادة العمليات العسكرية أو حتى السياسية، وعندما شاءت الأقدار أن تكون له تلك القيادة شط به الخيال إلى ذلك الانتصار البعيد المنال.

ربما تراءى لبيلاجيوس أن الظروف الدولية تساعده على ذلك؛ إذ شاع آنذاك أسطورة برسترجون وقوته العظيمة واستعداده لمساندة الصليبيين في القضاء على المسلمين[١]، ولكن للأسف حتى الآن لم يتمكن الأوربيون من تبديد خفايا تلك الأسطورة التي تغنوا بها كثيراً.

عوَّل بيلاجيوس أيضاً كثيراً على شخصية جنكزخان ودولته الناشئة، وتخيل أنه سَيُعقد حلفاً بينهما للإطباق على المسلمين، وذهب الخيال به لأبعد من ذلك؛ إذ اعتقد أن الصليبيين في شبه الجزيرة الإيبرية سيواصلون انتصاراتهم على المسلمين، وسيجتازون مضيق جبل طارق، وسيسيطرون على جميع مناطق العالم الإسلامي التي تلي مصر من ناحية الغرب، وأيضاً في جهة الشمال الإسلامي كان له ثقة عالية بدولة أرمينيا، وأنه بمقدورها السيطرة على شمال الشام والعراق.[٢]

يبدو أن بيلاجيوس رفض عروض الكامل للصلح؛ لأنه شكك في نوايا الكامل، ورأى أن غايته من تلك العروض خداع الصليبيين ودب الشقاق والفرقة فيما بينهم، وفي حال قبول الصليبيين عروضه فإنه يخطط لاستعادة ما سيتخلى عنه في حال عودة الحملة الصليبية الخامسة إلى أوربا.

**وعن موقف الملك جان دي بريين** المؤيد لقبول عروض التفاوض والصلح مع الكامل فيمكن تفسيرها بواقع الأحداث على الأرض، إذ إن جان كان وصياً على عرش مملكة القدس اللاتينية الثانية، لهذا فإن استعادة عاصمتها المفقودة، وإعادة إحياء مملكة القدس الأولى الذي أخفق كثير من ملوك وقادة أوربا عن مثل ذلك العمل ستجعل منه ملكاً عظيماً لا ينازعه أحد على الملك، أما الانتصارات التي ستُحققها الحملة الخامسة في مصر فليست مضمونة الفوائد بالنسبة إلى جان، بل ظهر له واضحاً بأنها ستذهب لخدمة البابوية ولإعلاء شأن مندوبها بيلاجيوس الذي أظهر منذ وصوله للمعسكر الصليبي منافسة شديدة للملك جان.

---

[١] عن هذه الأسطورة انظر: أوتو أسقف فريزنغ: ما ورد لدى أتو أسقف فريزنغ عن الحروب الصليبية، عن الموسوعة، ج٢٩، ص٣٤٢-٣٤٣.

[٢] عمران، الحملة الخامسة، ص٢٤٠. العلي: الصراعات، ص٢٠٦. عن Duggan. A The story of crusades 1097-1291. London, 1963, p.p. 217-218.

ويمكن تفسير **موقف الفرنسيين** المؤيد للملك يوحنا دي بريين والمعارض لمندوب البابا بيلاجيوس انطلاقاً من عدائهم القديم للبابوية ونزاعهم معها.

وعلى العموم فإن موقف الملك جان وحزبه كان أكثر عقلانية من حزب المندوب البابوي وأقرب إلى الواقع؛ إذ إن بيلاجيوس أضاع فرصة ذهبية لاستعادة بيت المقدس للصليبيين واحياء مملكتهم الأولى، ومن الغرابة أن يكون موقف المندوب البابوي على هذه الشاكلة، فهو الرأس الديني الأكبر لهذه الحملة ويمثل وجهة نظر البابوية للحروب الصليبية، والأكثر غرابة من موقفه كان موقف رجال الدين المؤيدين له بعدم قبول عروض الكامل بإعادة القدس إليهم. وفي ذلك دلالة واضحة على انهيار الأهداف الدينية للحملات الصليبية، وتحوّل أهدافها إلى دنيوية بشكل واضح على يد المندوب البابوي بيلاجيوس، فلو كانت الحملة الخامسة محتفظة بالصبغة الصليبية والأهداف الدينية للحروب الصليبية لقبل الرأس الديني والدنيوي لهذه الحملة -بيلاجيوس الذي مثَّل البابا- بعرض السلطان الكامل، واستغل فرصة استرداد بيت المقدس إلى حظيرة المملكة الصليبية مقابل الجلاء عن مصر، إلا أن مجريات الأحداث تثبت عدم اكتراثه بالهدف الديني وإصراره على مصر، فأضاع بذلك فرصة ثمينة سيندم عليها فيما بعد.

كما أن عرض الكامل للصلح على الصليبيين وتنازعهم إثر ذلك فيه دلالة واضحة على تغلّب المصالح الشخصية على الأهداف الدينية للصليبيين، فانقسام الصليبيين على أنفسهم تجاه عروض الكامل يمكن تفسيرها في ضوء المصالح الشخصية، لأن الملك جان دي بريين كان ملكاً لمملكة القدس اللاتينية الثانية بدون منازع؛ وإن كان ذلك بشكل مؤقت، ومن هنا فإن عودة المملكة لمجدها القديم وسيطرتها على القدس وما حولها سيُعلي من شأنه كونه ملكاً عليها، وسيزيد ذلك في شعبيته ويعلي مكانته ويقوي عرشه.

أما موقف بيلاجيوس فيمكن تفسيره بأنه كشخص لم يكن له أي صفة في الشرق اللاتيني سِوى أنه مندوب ونائب عن البابا في قيادة الحملة الخامسة، وفي حال قبول الصليبيين بعروض الكامل ستنتهي الحملة الخامسة ومعها ينتهي دور بيلاجيوس في الشرق، لذلك آثر رفض تلك العروض والاستمرار في الحرب، والذي يلفت النظر أن بطريرك بيت المقدس كان مؤيداً له في هذا الاتجاه.

وكانت النتيجة لمرور كل هذا الوقت هو ازدياد أوضاع دمياط سوءاً نتيجة للحصار والأمراض والأوبئة، وأصبحت مصر في ذلك العام ٦١٦هـ/ ١٢١٩م مهددة بمجاعة كبيرة وبغلاء الأسعار بسبب

انخفاض فيضان النيل، فكانت تلك السنة من أشق السنين وأشدها على مصر حيث امتلأت الطرقات بالأموات وعُدمت الأقوات.[١]

واتخذ الكامل عدة إجراءات دفاعية لدفع الخطر الصليبي عن دمياط، كإعداد خطط الدفاع الأمامية عند فارسكور، وجمع الأموال اللازمة لنفقات الحرب، واستنهاض آل البيت الأيوبي لإمداده بالمساعدات والقوات اللازمة لإجلاء القوات الصليبية عن مصر عسكرياً بعد أن أخفقت المحاولات السياسية والدبلوماسية، وفي هذه الأثناء وصلت بعض النجدات الإسلامية إلى مصر، وكان أهمها قوات حماة بقيادة المظفر محمود بن ملكها المنصور محمد (٥٨٧-٦١٧هـ/ ١١٩١-١٢٢٠م).[٢]

يبدو أن الكامل عمد في هذه المرحلة -بعد إخفاق المفاوضات ووصول الإمدادات والنجدات- إلى تحسين موقفه التفاوضي، وذلك بالسعي إلى تحقيق بعض الانتصارات العسكرية على أرض الواقع، ومن ثم إرغامهم على قبول التفاوض وتوقيع الصلح، وبناءً على ذلك قام بعدة هجمات وحصلت بعض المناوشات بين المعسكرين الإسلامي والصليبي؛ إلا أنها لم تُفْضِ إلى نتائج حاسمة، وكذلك تكررت غارات الفرنج وهجماتهم على دمياط، إلا أن جميعها باءت بالإخفاق.[٣]

هذه الإخفاقات التي مُني بها الصليبيون، وعجزهم عن الاستيلاء على دمياط بعد خمسة عشر شهراً من المعارك مع المسلمين جعلتهم يضجرون من ذلك الوضع، وأصبحت الروح المعنوية في معسكرهم على وشك الانهيار، وأخذوا يكيلون التهم لبعضهم بعضاً، وتعالت الأصوات داخل معسكرهم، وفي مقدمة هذه الأصوات صوت المندوب البابوي الذي ينادي بالهجوم على المعسكر الإسلامي في فارسكور، وتوصلوا إلى قناعة مفادها "أنه من غير الممكن الاستيلاء على دمياط من دون إرادة الرب وتدخله"[٤]، واعترض على ذلك الملك جان دي بريين ومن يواليه مؤكدين على ضرورة الاستمرار في تشديد الحصار على دمياط حتى تستسلم حاميتها، وفي النهاية انتصرت إرادة الفريق الأول متهمين الفريق الثاني بالجبن والخيانة، واضطر

---

[١] ابن واصل: مفرج الكروب، ج٤، ص١٩، ٢٣، ٣٢-٣٣. المقريزي: السلوك، ج١، ص٣١٩. الراهب الدومينيكاني، عن الموسوعة، ج٤٣، ص١١٦١-١١٦٢. رنسيمان: تاريخ الحروب، ج٣، ص٢٨٤. عاشور: الحركة الصليبية، ج٢، ص٢٢١.

[٢] المقريزي: السلوك، ج١، ص٣١٩. عمران: الحملة الخامسة، ص٢٤٨، ٢٥٣.

[٣] ويندوفر: ورود التاريخ، ج٢، عن الموسوعة، ج٤٥، ص٧٦٢-٧٦٦. عمران : الحملة الخامسة، ١٥٤-٢٦٠.

[٤] ويندوفر: ورود التاريخ، ج٢، عن الموسوعة، ج٤٥، ص٧٦٧.

الفرق الثاني للسير خلف الأول في الهجوم على المعسكر الإسلامي في فارسكور، وتظاهر هذا المعسكر بالانسحاب، وعندما وصل الصليبيون إلى المعسكر الإسلامي وجدوه شبه خالٍ من العساكر، وعندما قرر الصليبيون المبيت في ذلك المعسكر استدار المسلمون عليهم وقاموا بهجوم مضاد عليهم مستغلين عنصر المفاجأة ومحققين نصراً عظيماً، حيث اختلت صفوف الصليبيين، وانسحبوا بشكل غير منظم، وذلك في منتصف جمادى الثاني ٦١٦هـ/ آخر آب ١٢١٩م.[١] وقدِّرت أعداد قتلى الصليبيين بين ألف قتيل عند جاك دي فيتري وألف وأربعمئة قتيل في تاريخ بطاركة الاسكندرية، وأربعة آلاف ونيف في تاريخ هرقل[٢]، ويذكر ويندوفر أن رؤوس خمسمئة من الصليبيين قُدمت إلى السلطان الكامل دون أن يحدد عدد القتلى بدقة، وكان بين هؤلاء القتلى عدد من كبار الشخصيات والفرسان الصليبيين كما كان هناك العديد من الأسرى، وعلى رأسهم مقدم الاسبتارية والأسقف المنتخب لبوفياس.[٣]

وبذلك يكون الكامل حقق هدفه في تحسين موقفه العسكري، وعاد المسلمون إلى معسكرهم منتصرين، وأقاموا حفلاً كبيراً على دقات الطبول وأنغام المزامير والآلات الأخرى في مساء ذاك اليوم نفسه ١٦ جمادى الآخرة/ ٢٩ آب، وزينت القاهرة بالأعلام، وتم نقل الأسرى إليها.[٤]

ولكن على الرغم من الحالة السيئة والنتائج الوخيمة التي وصل إليها الصليبيون إلا أنهم لم يستسلموا لواقعهم الذي وصلوا إليه، ولا يزال لديهم مزيداً من القوة والإمدادات والإصرار على محاصرة دمياط، ويبدو أن الكامل أدرك ذلك فأراد أن يستغل تلك الحالة النفسية السيئة التي وصل إليها الصليبيون والتي أفضت إليها المعركة السالفة، ومستغلاً حالة الضعف والتخبط التي سادت في معسكرهم، فآثر تكرار عرض الصلح بعد ثلاثة أيام من تلك المعركة مستغلاً تحسُّن موقفه العسكري، أي أنه آثر تقديم عرض جديد للصلح من مركز القوة التي وصل إليه بعد تلك المعركة علَّ الصليبيين يغيرون من موقفهم المتشدد، ويكونون قد أصبحوا أكثر ليونة من موقفهم السابق فيستجيبون لعرضه، وبناءً على ذلك أرسل الكامل الرسولين اللذين كان قد أرسلهما من قبل مع اثنين من كبار أسرى الصليبيين في المعركة الأخيرة، وهما أندرو اوف نانتيول وجان دارسين، ويبدو أن الغاية من ارسالهما كانت لنصح الملك والمندوب البابوي بعدم تَصْعِير الخد والابتعاد عن

---

[١] ويندوفر: ورود التاريخ، ج٢، عن الموسوعة، ج٤٥، ص٧٦٨-٧٦٩. بادربورن: الاستيلاء على دمياط، عن الموسوعة، ج٣٣، ص٨٣.

[٢] عمران، الحملة الخامسة، ص٢٦١-٢٦٢.

[٣] ويندوفر: ورود التاريخ، ج٢، عن الموسوعة، ج٤٥، ص٧٦٩.

[٤] ابن العميد: أخبار الأيوبيين، ص١١. عمران: الحملة الخامسة، ص٢٦٢.

الغرور؛ بل قبول عرض الكامل، وقد أبلغ الرسولان كل من ملك مملكة القدس والمندوب البابوي بأن الله قد أكرم الملك الكامل وعساكره بالنصر، على الرغم من ذلك فإنه لا يتفاخر ولا يتباهى؛ لأن العظمة لا تؤدي إلى الخير، وأنه يعرض عليكم الصلح بالشروط التي سلف أن عرضها عليكم من قبل، ويبدو أن الصليبيين ردوا الرسل دون مناقشة ذلك العرض، وكرر العادل إرسال الرسولين وحمَّلهما عرضاً أكثر سخاءً من ذي قبل، وقد تضمن عرضه البنود الآتية:[١]

أ- تنازل المسلمين عن كل الأراضي التي فتحها صلاح الدين(أي بيت المقدس وعسقلان وطبرية وجبلة واللاذقية وسائر مدن الساحل) باستثناء الكرك والشوبك (شرق الأردن).

ب- يدفع الكامل مبلغاً قدره ١٢ ألف دينار مقابل الكرك والشوبك.

ت- يدفع الكامل تكاليف إعادة تحصين بيت المقدس وبقية الحصون والقلاع التي خرَّبها المعظم والمسلمون في بلاد الشام، مثل قلعة الطور وتبنين وبانياس وصفد وغيرها، وتُشكل لجنة رباعية من الطرفين لتحديد تلك التكاليف.

ث- إعادة صليب الصلبوت إلى المسيحيين.

ج- مدة الهدنة ثلاثون عاماً.

ح- استعداد الكامل لتقديم عشرين رهينة من أقربائه ليحتفظ الصليبيين بهم مدة سنتين كدليل على حُسن النية.

ولا بدَّ من الإشارة إلى أن تفاصيل ذلك العرض لم توردها المصادر العربية، وكلها مستقاة من المصادر اللاتينية والصليبية.

ومن جديد تكرر انقسام الصليبيين إلى حزبين ازاء عروض الكامل بين مؤيد ومعارض،[٢] وسوغ بطريرك القدس جاك دي فتري موقفه المعارض بأن غاية الكامل من هذا العرض إثارة النزاعات والصراعات

---

[١] ويندوفر: ورود التاريخ، ج٢، عن الموسوعة، ج٤٥، ص٧٧٢.بادربورن: الاستيلاء على دمياط، عن الموسوعة، ج٣٣، ص٦٣. الراهب الدومينيكاني، عن الموسوعة، ج٤٣، ص١١٦٢. عمران : الحملة الخامسة، ص٢٦٤.النقر: تاريخ بيت المقدس، ص١٨٩. L.F. Grasade. Lettre to the pope. Honorus III, dated 11 the nov, 1219, p.47. Hist. Patr. Alex. P.253. Eracles, op. cit, p.p. 341-343.

[٢] بادربورن: الاستيلاء على دمياط، عن الموسوعة، ج٣٣، ص٦٣. ويندوفر: ورود التاريخ، ج٢، عن الموسوعة، ج٤٥، ص٧٧٢. العلي: الصراعات، ص٢١١.

داخل المعسكر الصليبي،[١] ويمكن تسويغ موقفي الداوية والاسبتارية كموقفهما من العرض السابق كون قلعتي الكرك والشوبك كانتا تتبعان لهما من قبل.

ومن جديد تكرر عناد بيلاجيوس ومَن يواليه حيث اشترطوا تسليم كل المناطق التي تقدَّم ذكرها، ومن ثم يتم تسليم دمياط، وأنَّبوا جان دي بريين وأمراءَه على استعدادهم للتساهل مع الكامل، وكانت حجتهم أنه لا يمكن الدفاع عن القدس مستقبلاً بعد هدم أسوارها وتحصيناتها ما لم يستعيد الصليبيون المعاقل والحصون التي كانت لهم في شرق الأردن،[٢] وفي النهاية تم رفض عروض الكامل وبدأ الاستعداد للحرب.

لا شك أن هذا الخلاف بين الملك جان دي بريين ومن يواليه من جهة وبيلاجيوس ومن يواليه من جهة أخرى كان السبب في إخفاق الحملة الذريع.

ولما استؤنفت العمليات القتالية من قبل الكامل والمعسكر الإسلامي في رجب ٦١٦/ نهاية أيلول ١٢١٩م تمكن المعسكر الصليبي المحاصر لدمياط من رد تلك الهجمات، ووصلتهم إمدادات عسكرية جديدة – فرنسية وإنكليزية- كانت محملة على عشر سفن جنوية، وكان لهذه القوات والإمدادات الجديدة دور مهم في رفع الروح المعنوية للصليبيين، وشحذ هممهم، وتشجيعهم على رد الهجوم ومواصلة وتشديد الحصار على دمياط.[٣]

وعقب وصول هذه الإمدادات والمساعدات الجديدة قام الكامل بالهجوم على معسكرهم مرات عدة، إلا أنها كانت مناوشات بسيطة لم تُفْضِ إلى نتائج حاسمة، وتزامن ذلك مع سوء أوضاع دمياط وكثرة الموت والوباء والمجاعات بها، وتناقصت أعداد حاميتها، وقد تزامن ذلك مع تأخر وصول الإمدادات من الشرق، واشتداد خطر المغول في تلك الجهة، يضاف إلى ذلك الصراع الذي نشب بين الأشرف والأفضل آنذاك على امتلاك حلب وانشغالهما عنه بذلك،[٤] ويبدو أن اجتماع تلك الأسباب كلها جعلت الكامل

---

[١] رسائل جاك دي فتري: ص٧٤. عمران: الحملة الخامسة، ص٢٦٥.

[٢] ويندوفر: ورود التاريخ، ج٢، عن الموسوعة، ج٤٥، ص٧٧٢-٧٧٣. حومد: تاريخ الجهاد، ج٢، ص٢٢٧. عاشور: الحركة الصليبية، ج٢، ص٢٢٠.

[٣] ويندوفر: ورود التاريخ، ج٢، عن الموسوعة، ج٤٥، ص٧٧٣. بادربورن: الاستيلاء على دمياط، عن الموسوعة، ج٣٣، ص٦٣-٦٤. الراهب الدومينيكاني، عن الموسوعة، ج٤٣، ص١١٦٣.

[٤] سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان، ج٢٢، ص٢٣٨.ابن العميد:أخبار الأيوبيين، ص١١.عمران: الحملة الخامسة، ص٢٧٠.

يُكرر عرض الصلح للمرة الثالثة على الصليبيين بالشروط والتنازلات نفسها التي قدمها لهم من ذي قبل، إلا أن بيلاجيوس استمر في عناده، واشترط لقبوله تخلي المسلمين عن الكرك والشوبك إضافةً لِما سلف وقدموه من تنازلات، وأن يدفع الكامل لهم مبلغاً قدره ثلاثمئة ألف دينار.[١]

وربما جاء ذلك الموقف المتشدد للكاردينال بناءً على وصول أنباء النجدات التي تُحشد في الغرب، والحملة الصليبية الكبرى التي شِيْعَ أن إمبراطور ألمانيا فردريك الثاني ونبلاء آخرين يُعِدُون لها[٢]؛ لذلك تشدد الكاردينال بيلاجيوس في مطالبه ورفض أي حلٍّ سلمي، قائلاً: "إنه من العار على الإفرنج ألا يتموا ما بدأوا به بعد أن استبشروا بتمامه"[٣].

وفي الحقيقة لا يوجد تفسير منطقي يبرر سلوك المندوب البابوي ذاك؛ إذ إنه رفض الحصول على ما ينشده عندما قُدِّمَ له على طبق من ذهب، وفضَّل الاستمرار في الحرب.

ومن حسن حظ الصليبيين في هذه الآونة أن أوضاع دمياط ازدادت سوءاً على سوء، وكثر بها الموت والوباء والمجاعات، وتناقصت أعداد حاميتها، ولم يتجاوز جميع أعداد من بها الثلاث آلاف نسمة.[٤]

لذا لم تصمد دمياط طويلاً، وتمكن الصليبيون من تسلق أسوارها بعد حصار دام ستة عشر شهراً واثنين وعشرين يوماً حصلت خلاله معارك واشتباكات كبيرة وضارية بين الطرفين، وحاول خلالها المسلمون فك الحصار عنها لكن دون جدوى، وسقطت بيدهم في ٢٥ شعبان ٦١٦هـ/ ٥ تشرين الثاني ١٢١٩م[٥].

---

[١] ابن واصل: مفرج الكروب، ج٤، ص٩٥. ابن الفرات: تاريخ الدول والملوك، ص١٧٨. قلعجي، ص٤٩٣.

[٢] ويندوفر: ورود التاريخ، ج٢، عن الموسوعة، ج٤٥، ص٧٨٦.

[٣] قلعجي: صلاح الدين، ص٤٩٣. للاستزادة أنظر: بادربورن: الاستيلاء على دمياط، عن الموسوعة، ج٣٣، ص٧٩. غروسيه: ملحمة الحروب، ص٢٥٢.

[٤] بادربورن: الاستيلاء على دمياط، عن الموسوعة، ج٣٣، ص٦٤، ٧٣. الراهب الدومينيكاني، عن الموسوعة، ج٤٣، ص١١٦٣-١١٦٤. ابن واصل: مفرج الكروب، ج٤، ص٣٢-٣٣.

[٥] للمزيد من التفاصيل عن سقوط دمياط راجع بادربورن: الاستيلاء على دمياط، عن الموسوعة، ج٣٣، ص٥٥، ٦٢-٧٤. الراهب الدومينيكاني، عن الموسوعة، ج٤٣، ص١١٦٣. ويندوفر: ورود التاريخ، ج٢، عن الموسوعة، ج٤٥، ص٧٧٣-٧٧٤. ابن واصل: مفرج الكروب، ج٤، ص١٩، ٣٢-٣٣. المقريزي: السلوك، ج١، ص٣١٩. ابن تغري بردي: النجوم، ج٦، ص٢٣٨.

وتتفق الرواية العربية مع اللاتينية بأن الصليبيين أخذوا دمياط عنوةً، إلا أن سبط ابن الجوزي وأبا شامة يذكران أن أهل دمياط "راسلوا الفرنج على أن يُسلموا إليهم البلد، ويخرجوا منه بأهليهم وأموالهم، واجتمع الأقساء وحلفوا على ذلك"[١]، ويبدو أن ما يذكرانه قد تمَّ بعد دخول الصليبيين لدمياط عنوة، حيث تحصَّن أهلها في قلعتها وأحد أبراجها، ومن ثم تمت هذه المفاوضات.

وعلى العموم فإن الصليبيين ما إن اقتحموا دمياط حتى غدروا بأهلها "ووضعوا فيهم السيف قتلاً وأسراً.."[٢]، وقتلوا وسفكوا بها الدماء والمذابح كعادتهم، وهنا يَستحضر الدارس حادثة سقوط عكا عام ٥٨٧هـ/ ١١٩١م، وما أعقبها من قتل جميع من أُخذوا أسرى منها على يد ريتشارد.

وتشابهت دمياط كثيراً في صمودها مع عكا، إذ إنها استعصت على محاولاتهم المتكررة دون فائدة، وتكررت اخفاقات الصليبيين على أسوارها، لدرجة أنهم يئسوا من تحقيق الهدف الذي أتوا لأجله، والدليل على ذلك أن بعضهم أخذ يفكر بالانسحاب والعودة إلى بلاده في أوربا، وكان على رأسهم ليوبولد السادس Leupold VI دوق النمسا الذي ترك حصار دمياط، وعاد إلى بلاده في ربيع الأول سنة ٦١٦هـ/ أيار ١٢١٩م، وذلك بعد أن قاتل مدة سنة ونصف بجهود كبيرة ونشاط عظيم ونفس رَضِية، بذل خلالها نفقات لا تُحصى، وقد انسحب معه عدد كبير من الجنود، وكان ذلك خسارة كبيرة للصليبيين.[٣]

---

[١] سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان، ج٢٢، ص٢٣٨. أبو شامة: الذيل على الروضتين، عن الموسوعة، ج٢٠، ص٢٢٤.

[٢] سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان، ج٢٢، ص٢٣٨. الذيل على الروضتين، عن الموسوعة، ج٢٠، ص٢٢٤.

[٣] بادربورن: الاستيلاء على دمياط، عن الموسوعة، ج٣٣، ص٥٥. ويندوفر: ورود التاريخ، ج٢، عن الموسوعة، ج٤٥، ص٧٦٩-٧٧٠.

## رابعاً: العلاقات والأوضاع الأيوبية الصليبية عَقِبَ سقوط دمياط عام ٦١٦هـ/ ١٢١٩م

كان لحادثة سقوط دمياط بيد الصليبيين التي تزامنت مع طرق المغول لبلاد المسلمين الشرقية التي راحت تسقط بأيديهم بشكل سريع أثر عظيم على العالم الإسلامي آنذاك بشكل عام، وأثارت ردود فعل عنيفة في بلاد الشام ومصر بشكل خاص، وانتشرت الشائعات بنية الفرنج بالتقدم لاسترداد بيت المقدس، مما زاد أوضاع المسلمين سوءاً، وقد عبَّر ابن الأثير عن حالة الحزن والذعر التي اكتنفت المسلمين آنذاك بقوله: "ولقد بُلِيَ الإسلام والمسلمون في هذه المدة بمصائب لم يُبْتَلَ بها أحدٌ من الأمم الأخرى..."[١].

وعبر المقريزي عن جذوة الجهاد التي بدأت تتقد في الأوساط الشعبية المصرية كردة فعل جهادية على سقوط دمياط، فيقول: "واجتمع الناس من أهل القاهرة ومصر وسائر النواحي، مابين أسوان إلى القاهرة، ووصل الأمير حسام الدين يونس والفقيه تقي الدين طاهر المحلي فأخرجا الناس من القاهرة ومصر، ونودي بالنفير العام، وألا يبقى أحد"، "فاجتمع من المسلمين عالم لا يقع عليه حصر"[٢].

وعلى المستوى الأيوبي كان لسقوط دمياط أثر كبير في قياداتهم وزعاماتهم، إذ إنهم استشعروا الخطر الصليبي المباشر على عروشهم، فتنادوا للوحدة والتكتل ضد الصليبيين، وذهب المعظم بنفسه إلى أخيه الأشرف موسى "وأشار عليه بأن يسرع التوجه إلى مصر في عساكره، ويستصحب معه ملوك أهل البيت وعساكرهم، فأجابه الملك الأشرف إلى ذلك"[٣].

وكذلك أرسل الكامل كتبه إلى جميع الأقطار يستنجدهم ويطالبهم بإمدادات ضد الخطر الصليبي الذي تمثَّلت ذروة قوته في سقوط دمياط، وبالفعل سار إليه في جمادى الآخرة ٦١٨هـ/ آب ١٢٢١م كل من الملك المنصور[٤] صاحب حماة والملك المجاهد صاحب حمص والملك الأمجد بهرام شاه صاحب بعلبك، كلٌّ على رأس عسكره، بالإضافة إلى الأشرف موسى والمعظم عيسى، وحسب رواية المقريزي فقد بلغ عدد

---

[١] ابن الأثير: الكامل، ج١٠، ص٣٣٥. وللمزيد انظر: المصدر نفسه ج١٠، ص٣٣٣-٣٣٦. ابن واصل: مفرج الكروب، ج٤، ص٣٣. النقر، تاريخ بيت المقدس، ص١٨٩.

[٢] المقريزي: السلوك، ج١، ص٣٢٠.

[٣] ابن واصل: مفرج الكروب، ج٤، ص٩٢.

[٤] توفي سنة ٦١٧هـ، انظر: ترجمته في الذيل على الروضتين، عن الموسوعة، ج٢٠، ص٢٣٨-٢٣٩.

فرسان المسلمين آنذاك نحو أربعون ألفاً دون الجنود.[١] وتمثَّل آنذاك مظهراً جميلاً من مظاهر الوحدة الأيوبية ضد الخطر الصليبي، ولاسيما موقف الأشرف موسى إذ نصحه خواصه بعدم الذهاب بنفسه إلى مصر والبقاء في قاعدة ملكه لِما تعانيه بلاده من مشاكل وخلافات داخلية، فردَّ عليهم: "قد خرجت بنية الجهاد، ولا بدَّ من اتمام هذا العزم"[٢].

وبعد سقوط دمياط ترك الكامل معسكره ورحل بجيشه جنوباً بعيداً عن خطوط العدو إلى ما سُميت فيما بعد المنصورة، وعسكر فيها، وكانت المنصورة تقع على مفرق البحريين الآخذ أحدهما إلى دمياط والآخر إلى أشموم طنَّاح، وأخذ يعيد ترتيب صفوفه وتنظيم الجيوش التي وصلت لمساندته ضد الصليبيين.[٣] وتمكن من تحقيق نصر عظيم على الصليبيين في رجب ٦١٧هـ/ أيلول ١٢٢٠م في وقعة البرلس، وغنم المسلمون خيولهم وسلاحهم، وأوصل أبو شامة عدد قتلاهم آنذاك إلى عشرة آلاف.[٤]

أما الصليبيون فقد استولوا على قلعة تنيس عقب سقوط دمياط بيدهم،[٥] وبعد وقعة البرلس عادوا إلى دمياط التي استقروا بها منذ احتلالهم لها في العام الماضي، وجعلوا منها مركزاً لهم، ونشب بينهم خلافات حادة حول مستقبل وتبعية المدينة المحتلة، وأضاعوا سنة ١٢٢٠م كلها في أعمال التآمر والخداع والخلافات البينية، وتفاقم الخلاف بين المجموعات الصليبية المتعددة الأوطان، "وازدادت الحالة حدة لدرجة أنهم كبحوا أنفسهم بصعوبة عن قتال بعضهم بعضاً دون العدو"[٦]، وكانت النتيجة تعمُّق الخلافات والصراعات فيما بينهم.

---

[١] المقريزي: السلوك، ج١، ص٣٢١. أما بادربورن فإنه يُنقص هذا العدد إلى سبعة آلاف من الخيالة (الاستيلاء على دمياط، عن الموسوعة، ج٣٣، ص٩١. للاستزادة أنظر: ابن الفرات: تاريخ الدول والملوك، ص١٧٥. وندوفر: ورود التاريخ، ج٢، ص٧٩٠، عن الموسوعة، ج٤٥، ص٧٩٠.

[٢] ابن واصل: مفرج الكروب، ج٤، ص٩٣. للاستزادة أنظر: تاريخ الدول والملوك، ص١٧٥. أبوسعيد: الجبهة الإسلامية، ص٢١٥.

[٣] ابن واصل: مفرج الكروب، ج٤، ص٣٣. ابن العميد: أخبار الأيوبيين، ص١١. بادربورن: الاستيلاء على دمياط، عن الموسوعة، ج٣٣، ص٦٤. قلعجي: صلاح الدين، ص٤٩٢.

[٤] الذيل على الروضتين، عن الموسوعة، ج٢٠، ص٢٣٥. للاستزادة أنظر: ابن العميد: أخبار الأيوبيين، ص١١. بادربورن: الاستيلاء على دمياط، عن الموسوعة، ج٣٣، ص٨٣.

[٥] ويندوفر: ورود التاريخ، ج٢، عن الموسوعة، ج٤٥، ص٧٧٥.

[٦] أنتوني بردج: تاريخ الحروب الصليبية، ص٢٥٠. للاستزادة أنظر: الراهب الدومينيكاني، عن الموسوعة، ج٤٣، ص١١٦٤.

والسؤال هنا لِماذا ظهر هذا التآمر والصراع بين أطراف الصليبيين؟ ومن هم أطراف هذا الصراع؟

وهل استمر الحزبان المتصارعان من قبل حول عروض الكامل على حالهما؟ أم أن هناك بعض التعديلات في أطراف الصراع؟

وهل الصراع الآن هو حول عروض الكامل، أم أن الصراع جديد يتمثل في المنافسة على زعامة دمياط والسيطرة عليها؟

أليس من المفترض أن يكون للنصر الذي حققه الصليبيون في دمياط دور في رفع الروح المعنوية عندهم، وأن يكون ذلك مقدمةً لانتصارات أخرى؟ أم أن دمياط كانت عاملاً قوياً في دب الفرقة والخلاف فيما بينهم؟

وبالتالي، هل كان سقوط دمياط بدايةً لنهاية الحملة الصليبية الخامسة؟ وما هو الدور الذي شغلته في ذلك؟

منذ البداية كان تصرف بيلاجيوس فيه كثير من الغرابة والرعونة، وكان ينظر إلى نفسه على أنه القائد والحاكم الأعلى للحملة الخامسة ولجميع الجيش الصليبي في مصر، ناسياً أحكام أنظمته الكهنوتية، ويرى أن على الجميع تقديم الطاعة والخضوع له بما فيهم ملك القدس، وبعد سقوط دمياط كان يرى أن له فضلاً كبيراً في ذلك، ولا بدَّ من تبعيتها للكنيسة البابوية، أي له مباشرة بصفته نائباً عن البابا،[1] وأيده بذلك رجال الدين الذين روَّجوا لأفكاره وعملوا جاهدين على إظهار أن سقوط دمياط كان بمجهود خاص من النائب البابوي ونتيجة لشجاعته وقدرته الشخصية، ولم يؤيد رجال الدين هؤلاء سوى الإيطاليين. ويلاحظ أن جماعتي الاسبتارية والداوية لم يقفا في هذه المرة إلى جانب بيلاجيوس كسابق عهدهما إزاء عروض الكامل، وانما انضموا في هذه المرة إلى حزب الملك جان دي بريينJohn of Breinne في دعواه بأن الحملة الخامسة جاءت لمساندة مملكة القدس في توطيد مركزها واسترداد أراضيها، ومن ثم فإن دمياط جزء من مملكة القدس اللاتينية الثانية التي يحكمها جان دي بريين. وعن موقفهما هذا في هذه المرحلة يمكن

[1] الراهب الدومينيكاني، عن الموسوعة، ج٤٣، ص١١٦٤.

تعليله بالأملاك الكبيرة التي كانت لهم في عكا وما حولها، ولربما أنهما سمعا أو أُلمِحَ إليهما من قِبل الملك بشيء من الخطر على تلك الأملاك، كون النزاع مع بيلاجيوس تطور كثيراً، واختلف عما قبل.[١]

وتأزم الموقف وتطور النزاع بين الطرفين، وليس البحث هنا للخوض في تفاصيل هذا النزاع والصراع، ذلك أنه قد تمت دراسته بشكل مفصَّل في رسالة ماجستير في القسم نفسه، من قبل الطالب محمود العلي، تحت عنوان "الصراعات الصليبية الداخلية في مملكة القدس الثانية"، بإشراف الأستاذ الدكتور سهيل زكار.

والذي يهم أنه عندما عُرضت القضية على البابا هونوريوس الثالثHonorius III حلَّها لصالح الملك جان دي بريين على الرغم أن ميوله وأهواءه كانت لجانب بيلاجيوس، ويمكن تعليل موقف البابا برغبته في إنهاء الصراع ووقف الانقسام داخل الصف الصليبي، بالإضافة إلى تهديدات الملك جان بالانسحاب من المعسكر الصليبي والعودة إلى عكا.[٢]

إلا أن النائب البابوي لم يُسلِّم بذلك، كما لم يغفر للملك تغلُّب رأيه عليه؛ لذلك أخذ يتصرف بتجاهل تام لوجود الملك، ويقوم بالعديد من الأعمال الاستفزازية له، مما أدى إلى تردي العلاقة بين الزعيمين، وأخذ بيلاجيوس يتصرف بشكل مستقل عن الملك لدرجة أن سلطته فاقت سلطة الملك، وعلت عليها، ووجه له العديد من الإهانات، حتى كاد ينشب بينهما صراع عسكري مباشر، إلا أن الملك فضَّل الانسحاب من دمياط والعودة إلى عكا، وأخذ يتحيَّن الفرصة المناسبة لذلك.[٣]

واستغل جان توتر العلاقات السياسية والعسكرية مع الأيوبيين في بلاد الشام وما قام به الملك المعظم عيسى في ٦١٧هـ/ آذار ١٢٢٠م بمهاجمة قيسارية وعثليث، فادعى الملك جان أن مملكته أصبحت في خطر برمتها، ولا بدَّ من عودته إليها، فأذن له البابا بذلك، وغادرها في ٢٢ محرم ٦١٧هـ/ ٢٩ آذار ١٢٢٠م.[٤]

---

[١] تاريخ هرقل، ص٣٤١. عمران: الحملة الخامسة، ص٢٧٦-٢٧٨. العلي: الصراعات، ص٢١٧.

[٢] لم يتسن للبحث الوقوع على هذا الخبر سوى عند: العلي: الصراعات، ص٢١٩.

[٣] الراهب الدومينيكاني، عن الموسوعة، ج٤٣، ص١١٦٤.

[٤] بادربورن: الاستيلاء على دمياط، عن الموسوعة، ج٣٣، ص٧٨. غروسيه: ملحمة الحروب، ص٢٥١-٢٥٢. رنسيمان: تاريخ الحروب، ج٣، ص٢٩٢-٢٩٣. العلي: الصراعات، ص٢٢٤.

وتختلف الروايات التاريخية في تحديد السبب الحقيقي وراء عودة الملك جان إلى عكا، في حين أن أولفر بادربورن وصاحب تاريخ هرقل يجزمان أن سبب عودته هو مشكلة وراثة العرش في أرمينيا، كون زوجته ستيفاني (ريتا) ابنة الملك ليون والتي تزوجها عام ١٢١٤م تُعدُّ إحدى وريثات العرش آنذاك، وليس البحث هنا للحديث عن ذلك.[١]

والذي يهم أن بيلاجيوس انشغل في هذه المرحلة في إعمار دمياط وتوطين الجاليات الفرنجية فيها، وتباطأ في الزحف إلى القاهرة بانتظار إمدادات جديدة تأتيه من الغرب الأوربي، وتراخت يده عن الحصار البحري الذي كان الفرنجة قد ضربوه على المنطقة بين دمياط وعكا، فنشطت السفن الإسلامية هناك وأحرقت عشر سفن صليبية تحمل مؤونة إلى الصليبيين في دمياط، واستولت السفن الإسلامية على بعض سفن التجار الإيطاليين.[٢]

ولما وصلت حملة دوق بافاريا إلى دمياط اشتد ساعد الكاردينال بيلاجيوس، وقرر الزحف إلى القاهرة، وأرسل سفارة رسمية لملك مملكة القدس اللاتينية الثانية جان دي بريين John of Breinne يطلب منه العودة إلى المعسكر الفرنجي في دمياط، واضطر الملك إلى تلبية الدعوة لئلا يُتهم بعرقلة أعمال الصليبيين، وكي لا يظهر بمظهر الخائن أو المُقصِّر تجاه الصليب، ووصل إلى دمياط في ١٥ جمادى الأولى ٦١٨هـ/ ٧ تموز ١٢٢١م، وبذلك اكتملت إمدادات الصليبيين في دمياط، وكثُر عددهم، وانتعشت معنوياتهم، وهاجت جموعهم لغزو ما تبقى من مصر.[٣]

وهنا يتساءل الباحث عن السبب الحقيقي وراء دعوة بيلاجيوس للملك بالعودة للمعسكر الصليبي في دمياط؟

ألم يكن هناك صراع عنيف بينهما على الزعامة في دمياط؟

---

[١] راجع بادربورن: الاستيلاء على دمياط، عن الموسوعة، ج٣٣، ص٧٨، ٨١. سمباط الأرمني، التاريخ المعزو إلى القائد سمباط، تر: سهيل زكار، عن الموسوعة الشاملة، ج٣٦، ص٣١٦-٣١٧. العلي: الصراعات، ص٢٢٥-٢٢٦.

[٢] بادربورن: الاستيلاء على دمياط، عن الموسوعة، ج٣٣، ص٨٤. ويندوفر: ورود التاريخ، ج٢، عن الموسوعة، ج٤٥، ص٧٨٩. غروسيه: ملحمة الحروب الصليبية،ص٢٥٢. Grousset, Hist. des Croisades, III, p.p. 232-234.

[٣] ابن واصل: مفرج الكروب، ج٤، ص٩٣-٩٤. المقريزي: السلوك، ج١، ص٣٢١. ويندوفر: ورود التاريخ، ج٢، ص٧٨٩، عن الموسوعة، ج٤٥، ص٧٨٩. الراهب الدومينيكاني، عن الموسوعة، ج٤٣، ص١١٦٤-١١٦٥. غروسيه: ملحمة الحروب، ص٢٥٢-٢٥٣. قلعجي: صلاح الدين، ص٤٩٣. عمران : الحملة الخامسة، ص٣١٢.

ألم يكن بيلاجيوس راغباً بالتفرد في حكم دمياط، وأن يكون له وحده شرف الانتصارات القادمة؟

يبدو أن غياب الملك جان أحدث فراغاً سياسياً وعسكرياً لم يستطع أحد أن يملأه بعده، ولا بدَّ أنه أخذ معه بعض القوات الخاصة التابعة له. وإن كان قد اضطر إلى إبقاء شيئ – وربما قسم كبير– من قواته في المعسكر الصليبي فإن تلك القوات لم تكن لتعمل بكامل طاقتها في ظل غياب ملكها وحنقه على المندوب البابوي، ولابدَّ أن المندوب البابوي كان بحاجة إلى قوات عسكرية جديدة تساعده على نجاح مغامرته الجديدة التي يُعدَّ لها، ومن هنا كان استدعاؤه للملك جان.

ويسوغ الراهب الدومينيكاني سبب دعوة المندوب البابوي للملك جان للعودة من عكا إلى دمياط بأن قائد القوات الصليبية في دمياط عارض رغبة المندوب البابوي بتقدم القوات نحو الداخل معلناً أنه "لا يحق للمندوب البابوي تحريك الجيش في غياب الملك، وبناءً عليه لما رأى النائب البابوي أنه ما لم يكن حاضراً فمن غير الممكن تنفيذ الحملة الصليبية بعث برسالة رسمية إليه، ورجاه بالظهور"[١].

ودون شك أن الصراع عاد من جديد بين الملك والمندوب البابوي لاختلاف وجهات النظر بينهما حول فكرة التقدم جنوباً باتجاه القاهرة، ويمكن تعليل عودة الملك من عكا إلى دمياط بخشيته من تحمل المسؤولية في حال إخفاق الحملة، وإن كان العكس فستزداد أهمية وشعبية المندوب البابوي، كونه هو الذي خطط ونفَّذ هذه الحملة، ومن هذا المنطلق يبدو أن الملك جان فضَّل التواجد معهم في حملتهم باتجاه القاهرة، وقد عبَّر عن عدم قناعته وعدم رغبته باستمرار الأعمال القتالية، ووجه نصيحته إلى النائب البابوي بأنه: "إذا ما تحرك الجيش الصليبي من دمياط وغادرها في ذلك الوقت فلن تصله النجدات من دمياط لا براً ولا بواسطة الماء، ولا سيما أن موسم فيضان النيل بات وشيكاً، وقد انزعج النائب البابوي كثيراً من نصيحة الملك العاقلة، ومن رأيه الصائب، وأعلن عن حرمان كنسي عام ضد كل من يُعيق تنفيذ خطته، وعندما رأى الملك أنه من المستحيل صرف النائب البابوي عن مقاصده؛ استجاب وهو مكره جداً، وإذعاناً منه إلى الكنيسة"[٢].

---

[١] الراهب الدومينيكاني، عن الموسوعة، ج٤٣، ص١١٦٤-١١٦٥. للاستزادة أنظر: بادربورن: الاستيلاء على دمياط، عن الموسوعة، ج٣٣، ص٧٩-٨٠.

[٢] الراهب الدومينيكاني، عن الموسوعة، ج٤٣، ص١١٦٥.

ويبدو أن الملك جان كان يرى ذلك الاتجاه منذ أن كان بعكا حيث قال عن وضع الجيش الصليبي في مصر: "إننا نقحم الجيش في مغامرة خاسرة"[١]، ولكن كل ذلك لم يلتفت إليه المندوب البابوي، وأصر على التقدم باتجاه الداخل.

وللمرة الأخيرة جدد الكامل عرض الصلح على الصليبيين، وذلك في رجب ٦١٨هـ/ آب ١٢٢١م، أي بعد أن وصل إليه أخواه المعظم والأشرف مع قواتهما، بالإضافة إلى بقية قوات الشام التي تقدم ذكرها، وبعد أن تكامل الجمع لديه وأصبح جيشه مستعداً للصمود أمام الفرنج، وأعلن لهم استعداده للتنازل عن كل فتوحات صلاح الدين الساحلية، بما فيها بيت المقدس، وعسقلان، وطبرية، وصيدا، وجبلة، واللاذقية، وتكرر عناد بيلاجيوس، واشتطَّ في الطلب، وأصرَّ على أن يعطيهم الكامل – إضافة إلى ما تقدم ذكره- الكرك والشوبك، ثلاثمئة ألف دينار – وفي بعض الروايات خمسمئة ألف- كتعويضٍ عن خراب القدس وأسوارها.[٢]

واستغرب الملك الفرنسي آنذاك – فيليب أغسطس Philippe Auguste – من موقعه هناك في فرنسا من سلوك بيلاجيوس في مصر، وتساءل مستغرباً: "كيف يرفض مقايضة مدينة واحدة بمملكة مع كامل أراضيها؟!"[٣].

وكسالف عهده كان لملك القدس جان رأي مغاير، ورأى أن من الحكمة القبول بعروض الكامل، وقال إنها الفرصة الأخيرة لتحقيق الأهداف الصليبية بأقل التكاليف، ولكن بيلاجيوس ردَّ عليه بتهمة الخيانة، وأعلن تحريم عقد أي اتفاقية دون الحصول على موافقة الكنيسة الرومانية، متذرعاً بأن "الإمبراطور لم يأذن من خلال رسائله المختومة بالذهب بعقد أي صلح أو بالإعداد لأي معاهدة مع المسلمين"[٤]، وبناءً على ذلك لم يكن أمام جان دي بريين سوى إعلان الموافقة على المشاركة في تلك الحملة قائلاً له: "سأشارك في حملتك وليحكم الله فيما بيننا"[٥].

---

[١] غروسيه: ملحمة الحروب، ص٢٥٢.

[٢] ابن الأثير: الكامل، ج١٠،ص٣٠٩. المقريزي: السلوك، ج١، ص٣٢٧. ابن واصل: مفرج الكروب، ج٤، ص٩٤-٩٥. ابن الأثير: الكامل، ج١٠، ص٣٠٩.حومد: تاريخ الجهاد، ج٢، ص٢٣١-٢٣٢. قلعجي: صلاح الدين، ص٤٩٣.

[٣] غروسيه: ملحمة الحروب، ص٢٥٢.

[٤] بادربورن: الاستيلاء على دمياط، عن الموسوعة، ج٣٣، ص١٠٢. للاستزادة أنظر: العلي: الصراعات، ص٢٣٥.

[٥] غروسيه: ملحمة الحروب، ص٢٣٥.

يبدو أن قوة الجيش الصليبي آنذاك وصلت درجةً جعلت بيلاجيوس يغترَّ بها ولا يعبأ للنداءات الأخرى، فتجاهل كل آراء وحنكة الملك جان ونصائحه السديدة، كما تجاهل تعليمات البابا هونوريوس بعدم رفض أي عروض للصلح إلا بعد الرجوع إليه شخصياً، ومضى في ٨ جمادى الأولى ٦١٨هـ/ ١٢ تموز ١٢٢١م في حملته العسكرية باتجاه الجيش الإسلامي في فارسكور، وذلك دون الإعداد الجيد لتلك الحرب، معتقداً أن الجيوش الأيوبية ستنهار أمامه دون أدنى مقاومة، وسيصل الجيش الصليبي سريعاً إلى القاهرة، إذ يقول ابن الأثير: " وَكَانَ الْفِرِنْجُ لِاعْتِدَادِهِمْ بِنُفُوسِهِمْ لَمْ يَسْتَصْحِبُوا مَعَهُمْ مَا يَقُوتُهُمْ عِدَّةَ أَيَّامٍ، ظَنًّا مِنْهُمْ أَنَّ الْعَسَاكِرَ الْإسلامية لَا تَقُومُ لَهُمْ، وَأَنَّ الْقُرَى وَالسَّوَادَ جَمِيعُهُ يَبْقَى بِأَيْدِيهِمْ، يَأْخُذُونَ مِنْهُ مَا أَرَادُوا مِنِ الْمِيرَةِ".[١]

ربما حُقَّ لبيلاجيوس -كونه زعيماً دينياً وحديثَ عهد بالسياسة العسكرية- أن يغترَّ بكثرة أعداد جنود معسكره الذين شبهتهم المصادر التاريخية بالجراد لكُثرتهم وسعة انتشارهم في المنطقة آنذاك. فالمصادر اللاتينية تذكر أنه كان معه خمسة آلاف فارس وأربعة آلاف رامٍ، وأربعون ألف راجل، بالإضافة إلى بعض الحجاج، وكان معه ستمئة وثلاثون سفينة مختلفة الأحجام، وعدد كبير من مختلف أنواع المراكب والقوارب التي حملت البضائع والميرة.[٢] وكما سلف ذكره في فقرة "العلاقات أثناء حصار دمياط" فإن المصادر العربية ضاعفت أعداد الصليبيين المشتركين في الحملة عشر مرات عن العدد الذي تورده المصادر اللاتينية.

وكما سلف ذكره من قبل؛ فقد تجمعت للكامل أيضاً قوة عسكرية كبيرة شملت جميع عرب ومسلمي الجزيرة وبلاد الشام ومصر بقيادة أقربائه الأيوبيين، وحسب رواية المقريزي فقد بلغ عدد فرسان المسلمين آنذاك نحو أربعون ألفاً دون الجنود.[٣] في حين أن أولفر يذكر أن هذا العدد سبعة آلاف[٤].

ولا بدَّ أن بيلاجيوس قد تفاجأ بتلك القوات والأعداد التي تجمعت تحت قيادة الكامل، وما هي إلا أيام قليلة حتى أدرك بيلاجيوس خطورة الموقف وفداحة الأخطاء التي ارتكبها وسوء تقديراته مقابل حُسن

---

[١] ابن الأثير: الكامل، ج١٠، ص٣٠٩. للاستزادة أنظر: بادربورن: الاستيلاء على دمياط، عن الموسوعة، ج٣٣، ص٩١-١٠٠. زاباوروف: الصليبيون في الشرق، ص٢٩٩.

[٢] بادربورن: الاستيلاء على دمياط، عن الموسوعة، ج٣٣، ص٩١. ويندوفر: ورود التاريخ، ج٢، ص٧٨٨، عن الموسوعة، ج٤٥، ص٧٨٨.

[٣] المقريزي: السلوك، ج١، ص٣٢١.

[٤] بادربورن: الاستيلاء على دمياط، عن الموسوعة، ج٣٣، ص٩١.

تقديرات الملك جان، إذ إن الجيش الصليبي تقدم وسط مثلث تحيط به المياه من ثلاث جهات هي بحيرة المنزلة شرقاً وفرع دمياط غرباً والبحر الصغير الواصل بينهما جنوباً، واستولوا على شارمساح التي انسحب منها الجيش الإسلامي، وتزامن ذلك مع فيضان النيل، فما كان من الطرف الإسلامي الذي ارتد من شارمساح إلى طلخا – وهي الموضع الذي قامت عليه المنصورة فيما بعد وأقام معسكره بها منتظراً وصول الجيش الصليبي- إلا أن فتح قنوات النيل وترعه، مما أدى إلى إغراق المعسكر الصليبي، كما أرسل الكامل بعض القوات لقطع الإمدادات القادمة من دمياط إلى المعسكر الصليبي قرب المنصورة، وأصبح المعسكر شبه محاصر.[١]

وكانت هناك قناة مهملة جنوب شارمساح تصل فرع دمياط مع فرع آخر للنيل، وقد أهملها الصليبيون لاعتقادهم أنها غير صالحة للملاحة، وعندما أصبح الجيش الصليبي على امتداد البحر الصغير في قبالة الجيش الإسلامي ارتفعت مياه النيل، وامتلأت تلك القناة، وتعذَّر الدفاع عنها، وخلف تلك القناة عسكرت قوات المعظم عيسى والأشرف موسى لقطع طريق الإمداد عن المعسكر الصليبي المحاصر، وتبع ذلك فتح القناطر المقامة على الشاطئ الأيمن للنيل، فتدفَّقت المياه على الأراضي المنخفضة المتاخمة للنهر، والتي كان من المقرر أن يلوذ الجيش الصليبي بالفرار عبرها في حال اضطراره إلى ذلك.[٢]

لم يكن أمام بيلاجيوس الذي تمكن من الفرار من معسكره بأعجوبة سوى الاستسلام للأيوبيين وطلب الصلح معهم أو فناء المعسكر الصليبي، وهنا لجأ إلى الملك جان دي بريين لأخذ نصيحته طالباً منه إنقاذ الموقف وإخراج الصليبيين من تلك المحنة التي هم بها، وتم الاتفاق بينهما على إرسال سفارة إلى الملك الكامل تعرض عليه الصلح بدون شروط.[٣]

---

[١] بادربورن: الاستيلاء على دمياط، عن الموسوعة، ج٣٣، ص١٠٦-١٠٨. الراهب الدومينيكاني، عن الموسوعة، ج٤٣، ص١١٦٥. سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان، ج٢٢، ص٢٥٨. الذيل على الروضتين، عن الموسوعة، ج٢٠، ص٢٤٨-٢٤٩. ابن واصل: مفرج الكروب، ج٤، ص٩٦-٩٧. ابن الفرات: تاريخ الدول والملوك، ص١٧٩. بردج: تاريخ الحروب الصليبية، ص٢٥٠. قلعجي: صلاح الدين الأيوبي، ص٤٩٣-٤٩٤.

[٢] ويندوفر: ورود التاريخ، ج٢، ص٧٩٠، عن الموسوعة، ج٤٥، ص٧٩٠. بادربورن: الاستيلاء على دمياط، عن الموسوعة، ج٣٣، ص١٠٦-١٠٨. سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان، ج٢٢، ص٢٥٨. الذيل على الروضتين، عن الموسوعة، ج٢٠، ص٢٤٨-٢٤٩. ابن الفرات: تاريخ الدول والملوك، ص١٧٩.

[٣] سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان، ج٢٢،ص٢٥٨. ابن واصل: مفرج الكروب، ج٤،ص٩٧. الراهب الدومينيكاني، عن الموسوعة، ج٤٣، ص١١٦٥. زابوروف: الصليبيون في الشرق،ص٢٩٩-٣٠٠. العلي: الصراعات، ٢٣٧. تاريخ هرقل، ص٣٥١.

## خامساً: توقيع صلح عام ٦١٨هـ/ ١٢٢١م وهدوء الجبهة العسكرية بين الجانبين الأيوبي والصليبي

بعد المخاطر الكبيرة التي أحاطت بالمعسكر الفرنجي نتيجة عناد بيلاجيوس وتشبثه بآرائه، وبعد أن وجد المعسكر الفرنجي نفسه شبه أسير بشكل كامل في قبضة المسلمين، قرر الجانب الصليبي إرسال سفارة إلى الكامل الأيوبي في ٢٨ آب ١٢٢١م تعلن فيه الرغبة في الصلح والاستعداد لترك دمياط والجلاء عن البلاد مقابل السماح لهم بالخروج من المأزق الذي وقعوا به، وتَرْكِهم يعودون سالمين إلى بلادهم، ولاقى هذا الطلب أذناً صاغية عند الكامل، وسرعان ما أعلن موافقته على طلبهم على الرغم من أن الجيش الصليبي أصبح بكامله تحت رحمته، وعلى الرغم من معارضة أخويه الأشرف والمعظم لذلك.[1]

فما هي الدوافع التي جعلت الكامل يسرع في قبول الصلح مع أعدائه مع أن موقفه أقوى بكثير منهم؟

هل هناك دلالة ما من خلال موافقته سريعاً على الصلح ومعارضة أخويه لذلك؟

وهل يمكن استنتاج أن الكامل قد ضاق صدراً بوجود القوات الأيوبية – الإسلامية جميعها مع كثير من زعاماتها في مصر، وبالتالي أخذ يخشى على عرشه وأرضه منهم؟ وبالتالي فإن الكامل أراد إزالة خطر الصليبيين بشكل كامل عن مصر وبأسرع وقت لإنهاء جميع التدخلات الخارجية في بلاده؟

وهل يا ترى السبب يمكن تعليله بما اشتُهِرَ به الكامل من الكرم والسخاء ولين التعامل مع العدو؟ أم أن هناك ما هو متعلق بدمياط بشكل خاص؟

يبدو أن دمياط كان لها وقع كبير في نفس الجميع، فبيلاجيوس كان قد رفض إبدالها بمملكة بأكملها!! والكامل كان مستعداً للتخلي عن كل شيء خارج مصر قبالتها. فما هو حجم تلك المكانة لدمياط في نفس الكامل؟

---

[1] الذيل على الروضتين، عن الموسوعة، ج٢٠، ص٢٤٩. ابن واصل: مفرج الكروب، ج٤، ص٩٧. الذهبي: تاريخ الإسلام، ج٤٤، ص٥٦. المقريزي: السلوك، ج١، ص٣٢٨. ابن تغري بردي: النجوم، ج٦، ص٢٤١. ابن الفرات: تاريخ الدول والملوك، ص١٨٠. بادربورن: الاستيلاء على دمياط، عن الموسوعة، ج٣٣، ص١٠٨-١١٠.

أم أن سلوك الكامل يمكن تعليله بقوة التحصينات الصليبية في دمياط؟ أي أن الكامل وإن حقق نصراً في فارسكور وأباد الجيش الصليبي بها إلا أنه يائس من النصر عليهم في دمياط؟ ويسوغ ذلك التحصينات والاستحكامات الكبيرة التي أقامها الصليبيون مجدداً في دمياط، وشحنوها بالعساكر والأسلحة اللازمة، إذ يذكر ابن الفرات فيما بعد أن المسلمين لما دخلوا دمياط "رأوها وقد حصنها الفرنج تحصيناً عظيماً بحيث بقيت لا ترام ولا يوصل إليها"[١]، ويضاف إلى ذلك أنه رسا في قبالتها مجدداً أسطول قوي بقيادة هنري كونت مالطا، ووالتر باليار متولي الديون بصقلية مُرسلاً من قبل الإمبراطور فردريك الثاني.[٢]

ويؤيد هذا الرأي قول ابن واصل في كتابه مفرج الكروب بأن الكامل كان يرى "إن هؤلاء ليسوا جميع الفرنج، وإذا أبدناهم لا نقدر على أخذ دمياط إلا بمطاولة وحروب كثيرة مدة، ويسمع ملوك ما وراء البحر وباباهم بما يجري على الفرنج، فيقدم إلينا أضعاف هؤلاء، وتعود للحرب خدعة، وقد ضجرت العساكر من الحرب وكلَّت".[٣]

والذي يهم أن الكامل ما إن وصلته سفارة الصليبيين طالبة الصلح حتى وضع شروطه الخفيفة وأرسلها لهم للتصديق عليها، وكانت على النحو الآتي:[٤]

أ- تخلي الصليبيون عن دمياط.

ب- تبادل الأسرى من الجانبين، بما في ذلك الأسرى الصليبيين الذين تحت رحمة الملك المعظم، وأسرى المسلمين لدى الصليبيين في مصر وفي كامل مملكة القدس اللاتينية الثانية.

ت- يُعيد الكامل لهم صليب الصلبوت.

ث- مدة الهدنة ثماني سنوات (١٢٢١-١٢٢٩م)، ولا بدَّ أن يُصدِّق عليها الإمبراطور الألماني فردريك الثاني.

---

[١] ابن الفرات: تاريخ الدول والملوك، ص١٨١.

[٢] لم يتسن للبحث الوقوع على هذا الخبر سوى عند رنسيمان: تاريخ الحروب، ج٣، ص٣٠٠.

[٣] ابن واصل: مفرج الكروب، ج٤، ص٩٧. للاستزادة أنظر: ابن الفرات: تاريخ الدول والملوك، ص١٨٠. المقريزي: السلوك، ج١، ص٣٢٨.

[٤] بادربورن: الاستيلاء على دمياط، عن الموسوعة، ج٣٣، ص١١٠-١١٢. ويندوفر: ورود التاريخ، ج٢، ص٧٨٨، ٧٩٠-٧٩١، عن الموسوعة، ج٤٥، ص٧٨٨، ٧٩٠-٧٩١. ابن واصل: مفرج الكروب، ج٤، ص٩٨. المقريزي: السلوك، ج١، ص٣٢٨، ٣٢٩. ابن العبري: تاريخ مختصر الدول، ص٢٣٦-٢٣٧. ابن الفرات: تاريخ الدول والملوك، ص١٨٠-١٨١. أنتوني بردج، ص٢٥٠. قلعجي: صلاح الدين، ص٤٩٤.

ج- ينبغي أن يُسلِّم الصليبيون بعض قادتهم ليكونوا رهائن لدى الكامل ريثما يتم الانسحاب من دمياط وتسليمها للمسلمين، وحدد الكامل أسماء هؤلاء الرهائن، وكان على رأسهم قائد الحملة المندوب البابوي بيلاجيوس وملك مملكة القدس اللاتينية الثانية جان دي بريين، بالإضافة إلى دوق بافاريا ومقدمي الطوائف الدينية الثلاث، وثمانية عشر آخرين من الكونتات والأساقفة، وفي المقابل يُرسل لهم الكامل أحد أبنائه وأحد أخوته وعدداً من صغار الأمراء.

وعلى الفور وافق الصليبيون على هذه الشروط، وقدم الملك جان دي بريين إلى الملك الكامل في ظاهر قرية البرمونين من قرى الدقهيلة، "واجتمعت ملوك الإسلام وملوك الفرنج في خيمة واحدة، وكان يوماً مشهوداً"[١]، وتم الحلفان والتوقيع على الهدنة في ٧ رجب ٦١٨هـ/ ٢٦ آب ١٢٢١م، وأرسل الصليبيون الأمراء المتعينين، كما أرسل لهم الكامل ابنه الصالح نجم الدين أيوب ومعه جماعة من خواصه.[٢]

ومع أن حامية دمياط الفرنجية لم تذعن في البداية للتسليم، إلا أنها وجدت نفسها مضطرة في النهاية لذلك الأمر، تحت تهديدات ملك مملكة القدس، وتحت تهديدات الأيوبيين في الهجوم على عكا، وأهم من ذلك فقدانها وسائل الدفاع عن دمياط، وعدم وجود معدات وعساكر كافية لذلك.[٣]

وأيضاً كان ممن رفض هذه الهدنة غيGuy صاحب جبلة، إذ رفض اطلاق سراح الأسرى لديه مما أدى إلى هجوم المعظم عليه وارغامه على الخضوع لذلك.[٤]

وأخيراً تم جلاء الصليبيين عن دمياط في ١٩ رجب ٦١٨هـ/ ٧ أيلول ١٢٢١م، ودخلها الجيش الأيوبي في اليوم التالي ٨ أيلول، وقد أبحر الصليبيون الغربيون إلى أوربا، في حين عاد جان دي بريين مع رجاله إلى مملكته اللاتينية في الشام،[٥] وكان ذلك نهاية المطاف للحملة الخامسة، وإخفاقاً حاسماً لها، حيث أضاع الصليبيون من خلالها فرصة استعادة بيت المقدس، لا ؛ بل أضاعوا فرصة إعادة إحياء مملكة

---

[١] ابن العميد: أخبار الأيوبيين، ص١٢.

[٢] ابن الأثير: الكامل، ج١٠، ص٣١٠.سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان، ج٢٢، ص٢٥٩، وفيه أن توقيع الصلح تم في ١٩ رجب. الذيل على الروضتين، عن الموسوعة، ج٢٠، ص٢٤٩. ابن واصل: مفرج الكروب، ج٤، ص٩٨. المقريزي: السلوك، ج١، ص٣٢٨. الذهبي: تاريخ الإسلام، ج٤٤، ص٥٦. ابن تغري بردي: النجوم، ج٦، ص٢٤٢.

[٣] ويندوفر: ورود التاريخ، ج٢، ص٧٩١، عن الموسوعة، ج٤٥، ص٧٩١. حومد: تاريخ الجهاد، ج٢، ص٢٣٥.

[٤] بادربورن: الاستيلاء على دمياط، عن الموسوعة، ج٣٣، ص١١٥.

[٥] الذيل على الروضتين، عن الموسوعة، ج٢٠، ص٢٥٠. ابن العبري: تاريخ مختصر الدول، ٢٣٧.. قلعجي: صلاح الدين، ص٤٩٦.

القدس اللاتينية الأولى برمتها مع عاصمتها القديمة القدس، ويمكن القول إنهم أضاعوا فرصة احتلال مصر بأكملها، فلو أن الحملة الصليبية الخامسة تمتعت بقيادة موحدة وحكيمة لربما حققت ما تمنت، إلا أنها ابتُلِيت بقيادة بيلاجيوس وما اتصف به من الحمق والتغطرس والتجرُّد من اللباقة والكياسة السياسية والعسكرية الضرورية في كل شخصية سياسية أو عسكرية. ولا بدَّ أنه لقي تأنيباً كبيراً بعد عودته إلى أوربا على سوء تصرفه في مصر.

وبذلك يكون الأيوبيون حققوا نصراً عسكرياً وسياسياً ودبلوماسياً لم يكن بالحسبان، ذلك أن ابن الأثير يقول آنذاك: "وأعطى الله المسلمين ظَفَرَاً لم يكن في حسابهم، فإنهم كانت غاية أمانيهم أن يُسلَّموا البلاد التي أُخذت منهم بالشام ليعيدوا دمياط، فرزقَهُم الله إعادة دمياط، وبقيت البلاد بأيديهم على حالها".[١]

وبإخفاق الحملة ثبت للجميع إخفاق بيلاجيوس كقائد سياسي وعسكري، وجهله الكبير بذلك، كما ثبت لهم إخفاق البابوية في قيادة الحروب الصليبية بشكل مباشر، وأن عليها أن تُعيد القيادة إلى الرموز السياسية والعسكرية دون الدينية، وبذلك تسقط الصبغة الدينية عن هذه الحروب.

وعلى الرغم من وصول نجدات جديدة للصليبيين عقب مغادرتهم دمياط، وكان من شأنها أن تُعزز موقفهم[٢]، إلا أنه سادت مرحلة من الهدوء النسبي في العلاقات بين الطرفين، ولم تغيِّر تلك النجدات شيئاً على أرض الواقع، ويبدو أن الصليبيين فضَّلوا الاستقرار وهدوء الجبهة مع المسلمين.

---

[١] ابن الأثير: الكامل، ج١٠، ص٣١١.

[٢] ابن الأثير: الكامل، ج١٠، ص٣١١. ابن واصل: مفرج الكروب، ج٤، ص٩٩.

## سادساً: العلاقات السياسية والدبلوماسية بين الأيوبيين ومملكة القدس اللاتينية الثانية بعد اخفاق الحملة الخامسة ٦١٨هـ/ ١٢٢١م حتى قدوم السادسة عام ٦٢٦هـ/ ١٢٢٨م

### (العلاقات والأوضاع داخل بلاد الشام وسياسة المساومات والتحالفات الخارجية)

انتهت بتوقيع صلح عام ٦١٨هـ/ ١٢٢١م بين الأيوبيين والصليبيين الحملة الصليبية الخامسة وتوقفت العمليات العسكرية بين الطرفين، وسادت مرحلة من الهدوء والاستقرار بينهما، انشغل خلالها كل طرف بمشاكله الداخلية.

فعلى صعيد مملكة القدس – وكما سلفت الإشارة عند الحديث عن وراثة العرش في مملكة القدس– فإن الأميرة الصغيرة يولاند قد قاربت بلوغ سن الرشد (كانت في الرابعة عشر من عمرها)، وأصبح من الضروري إيجاد زوج مناسب لها ليتولى الحكم بدلاً عن والدها جان دي بريينJohn of Breinne ، وفي سبيل ذلك غادر الملك جان دي بريين عكا إلى أوربا في سنة ٦١٩هـ/ ١٢٢٢م لمقابلة البابا في روما.

وكما سلف فقد كان من أسباب سفر الملك جان دي بريين إلى أوربا هو التباحث مع ملوك أوربا حول أسباب اخفاق الحملة الخامسة، والبحث في سبيل الإعداد لحملة صليبية جديدة تنقذ الصليبيين في الشرق، والذي يهم أن الملك ترك نائباً عنه في عكا هو "يودس دي مونتبليارد" لإدارة دفة الحكم في المملكة ريثما يُنهي مهمته في أوربا[١]، وشاءت الظروف أن لا تكون هناك عودة للملك إلى مملكته، وذلك أن الملك جان يبدو أنه فضل القيام بجولة أوربية ريثما تصل ابنته أوربا ويتم تزويجها من فردريك، وكان هدف هذه الجولة الحصول على مساعدات ودعم جديد للحركة الصليبية، فارتحل إلى إسبانيا، وهناك تزوج من ابنة ملك غاليشيا، ومنها أبحر إلى إنكلترا حيث نال بها كثيراً من الأعطيات – من ملكها وباروناته– للمساعدة على نيل الأرض المقدسة، ومن ثم يمم نحو صديقه الملك الفرنسي فيليب، إلا أنه وجده توفي تاركاً له وصية بمئة ألف دولار باريسي، لتكون عوناً له على استرداد الأرض المقدسة، والمبلغ نفسه لفرسان الداوية، وكذلك للاسبتارية.[٢]

---

[١] دي نافار: حروب فردريك، عن الموسوعة، ج٣٥، ص٣٣، ٣٤.

[٢] الراهب الدومينيكاني، عن الموسوعة، ج٤٣، ص١١٦٦.

وبعدها انشغل جان وهو في أوربا في الصراع على عرش المملكة مع صهره الجديد الإمبراطور فردريك الثاني، ذلك أن الأخير ما إن تزوج بيولاند عام ٦٢٢هـ/ ١٢٢٥م حتى أعلن لحميّه الملك أنه لم يعد وصياً على عرش مملكة القدس اللاتينية الثانية، وتولى فردريك شؤون الحكم في عكا دون أن يرحل إليها، وقد تقدّم شرح ذلك مفصلاً عند الحديث عن وراثة الحكم في عكا في فقرة "الصراع على عرش عكا منذ انفصال التاج عن قبرص حتى تسلم فردريك الثاني له".

ومن هذا الباب يمكن تفسير الهدوء الذي لزمته مملكة القدس اللاتينية الثانية في علاقاتها مع الجانب الأيوبي في بداية هذه المرحلة بغياب زعامات صنع القرار عنها (الملك والنائب البابوي وبطريرك القدس)؛ إذ إنهم رحلوا جميعاً إلى الغرب الأوربي منذ عام ٦١٩هـ/١٢٢٢م، لذلك آثر النائب عن الملك في عكا جانب التهدئة مع الأيوبيين ريثما يعود الملك بحملة صليبية جديدة قد ذهب ساعياً لها.

وكل ما يمكن ذكره هنا هو المظاهرة العسكرية التي قام بها الصليبيون الجدد في عكا عام ٦٢٤هـ/ ١٢٢٧م بهدف نقض الهدنة مع المسلمين ووضع خطة للزحف على قيسارية، ويافا، والقدس، وقد اتفقت جميع عناصر ومكونات مملكة القدس على جعل دوق أوف ليمبورغ Limburg قائداً للجيش الصليبي في المملكة آنذاك نيابةً عن الإمبراطور الألماني فردريك الذي أصبح ملك القدس، وفي اجتماع عقدوه خارج عكا قرروا بدء تنفيذ الخطة بالهجوم على قيسارية، ويستفيض ويندوفر في الحديث عن الحماس والروح العالية التي تمتع بها الجنود الصليبيون آنذاك، إلا أن إعلان الإمبراطور فردريك مجدداً عن تأجيل القدوم إلى عكا متذرعاً بمرض أصابه أدى إلى خفض -أو فقدان- تلك الروح المعنوية والإصابة بالرعب والإحباط، ومن ثم قرر معظم الصليبيين الجدد (حوالي أربعين ألف رجل مسلح) العودة إلى وطنهم، وهكذا خفَّ التوتر العسكري الذي عاشته المنطقة آنذاك.[1]

أما على الجانب الأيوبي فلم يكن الحال مختلفاً كثيراً، إذ إنهم دخلوا في نزاع داخلي كبير فيما بينهم، وانقسموا على أنفسهم، وتحزَّبوا، وظهرت لديهم سياسة جديدة سابقة وخطيرة في تاريخهم وهي سياسة البحث عن حليف خارجي ضد بعضهم بعضاً، مما أدى إلى هدوء الجبهة مع مملكة القدس خلال هذه المرحلة. والبداية كانت مع الشقاق الكبير الذي بدأ يظهر بين الأخوين الكامل صاحب مصر والمعظم صاحب دمشق، ولجوء كل منهما لتدعيم موقفه بالبحث عن حليف خارجي، ومع أن البحث هنا ليس

---

[1] راجع ويندوفر: ورود التاريخ، ج٢، ص٨٥٢-٨٥٥، عن الموسوعة، ج٤٥، ص٨٥٢-٨٥٥.

مخصصاً للتفصيل في النزاع الداخلي الأيوبي، إلا أنه لا بدَّ من توضيح بعض جوانب هذا الصراع بما يخدم موضوع البحث- العلاقات مع مملكة القدس- تلك العلاقات التي تحوَّلت من صراع إلى تحالف ومهادنة.

فبعد تحقيق النصر على الحملة الخامسة سارت العلاقات بين الأخوة الأيوبيين (الكامل، والمعظم، والأشرف) على ما يرام مدة قصيرة من الزمن، ثم أخذ الجو السياسي يتعكَّر بينهم، وكانت البداية عندما زار الأشرف أخاه الكامل في مصر مروراً بدمشق، فلعبت الضغينة في قلوب الأخوة، وشك المعظم بتآمرهما عليه، وعلى حد قول ابن الأثير "إنه نُقل إليه -أي للمعظم- عنهما أنهما اتفقا عليه، والله أعلم بذلك"[١].

وتزامن ذلك مع رضى الخليفة العباسي عن المعظم وحنقه على الكامل والأشرف، ذلك أن المسعود[٢] ابن الكامل- حاكم اليمن- كان قد أساء في مكة المكرمة إلى ممثل الخليفة في الحج -أمير الحاج العراقي- واستهان به عام ٦١٩هـ/ ١٢٢٢م،[٣] واتفق الخليفة العباسي مع صاحب أربل "مظفر الدين كُوكُبري" على مراسلة المعظم وتحريضه ضد أخويه،[٤] ويبدو أن ذلك صادف هوىً في نفس المعظم ورغبة شديدة في الاستيلاء على جميع المناطق التي تقع في سورية، وأن يزيل حكم أبناء عمه في حمص وحماة، بالإضافة إلى طمعه في أملاك أخويه الكامل والأشرف، وإمعاناً في توطيد العلاقة مع صاحب أربل أرسل في سنة ٦٢١هـ/ ١٢٢٤م ولده الناصر داود ليقيم هناك عند عمته خاتون بنت أيوب زوجة كوكبري.[٥]

ويبدو أن المعظم عيسى رأى أن التحالف مع كوكبري صاحب أربل لم يكن كافياً لتحقيق نصرٍ على أخويه الكامل محمد والأشرف موسى، ولا سيما أن أملاكه تقع بين أملاكهما، فلجأ إلى البحث عن حليف قوي يستند إليه، فلم يجد أمامه سوى جلال الدين الخوارزمي الذي بدأت أصداء صمود دولته أمام المغول تصل إلى بلاد الشام، وأصبحت دولته تحكم مناطق واسعة ممتدة من آخر آذربيجان حتى نهر

---

[١] ابن الأثير: الكامل، ج١٠، ص٤١٨. للاستزادة أنظر، الذيل على الروضتين، عن الموسوعة، ج٢٠، ص٢٥٠.

[٢] تذكره المصادر باسم أقسيس، توفي سنة ٦٢٦هـ. للمزيد راجع مرآ الزمان،ج٢٢، ص٣٠١-٣٠٢.

[٣] ابن الأثير: الكامل، ج١٠، ص٤١٨. سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان، ج٢٢، ص٢٦١. الذيل على الروضتين، عن الموسوعة، ج٢٠،ص٢٥٣-٢٥٤. ولمزيد من التفاصيل عن هذه الحادثة راجع، عمران:تاريخ الحروب الصليبية، ص٢٨٣.

[٤] ابن الأثير: الكامل، ج١٠، ص٤١٨.

[٥] الذيل على الروضتين، عن الموسوعة، ج٢٠، ص٢٧٣. عمران: تاريخ الحروب الصليبية، ص٢٨٤.

السين،[١] لذلك أرسل رسوله الصدر البكري - محتسب دمشق- في سنة ٦١٩هـ/ ١٢٢٢م إلى جلال الدين الخوارزمي، وتوطدت العلاقات بينهما،[٢] ونجح المعظم في تشكيل حلف دفاعي معادي -بدرجة أولى- لأخيه الأشرف موسى وطموحاته التوسعية في الجزيرة، وكان أقطاب هذا الحلف جلال الدين الخوارزمي، وصاحب أربل، وانضم إليهم صاحبا ماردين وآمد، وتم توزيع المهام بين أقطاب هذا الحلف، فكانت مهمة جلال الدين مهاجمة مدينة أخلاط "عاصمة الأشرف موسى"، ومهمة مظفر الدين كوكبري صاحب أربل مهاجمة الموصل، في حين يتفرغ المعظم عيسى لمهاجمة حمص وحماة وتحقيق أطماعه وطموحاته بهما.[٣]

وبذلك سيتم فتح عدة جبهات للقتال، وسَيَصْعُب اجتماع عساكر شمال الشام والجزيرة ومصر على قتال هذا الحلف، وبالفعل تقدَّم المعظم عيسى في سنة ٦٢٣هـ/ م إلى مدينة حمص وحماة، وأغار على قرى حمص وخرَّبها، وتم نهبها وتدميرها، وامتدت غاراته إلى سلمية، ثم هاجم المعرة واستولى عليها، وعاد لحصار حمص، وطال مقامه عليها، "ولم ينل من قلعتها ومدينتها غرضاً، ووقع الفناء في عسكره، وماتت دوابهم وكثر المرض فيهم"[٤]، وقد لقيت تلك التحركات معارضة شديدة من قبل الأشرف والكامل، وأرسلا إليه يحثانه على التراجع عمّا قام به مؤخراً وفك الحصار عن حماة العائدة لابن عمهما صلاح الدين قلج أرسلان، ألحّا عليه بذلك، وتزامن ذلك مع سوء موقف حلفائه فاضطر إلى تنفيذ رغبتهما وهو غاضب حانق عليهما،[٥] ولاشك أن ذلك زاد من مخاوف ووساوس المعظم والخشية من اقتسام الكامل والأشرف أملاكه.

---

[١] للمزيد عن دولة الخوارزمية، راجع، ابن واصل: مفرج الكروب، ج٤، ص١٨١-١٩٠، ٢٣١-٢٣٣. عمران: تاريخ الحروب الصليبية، ص٢٨٣-٢٨٤.

[٢] سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان، ج٢٢، ص٢٦٠-٢٦١. الذيل على الروضتين، عن الموسوعة، ج٢٠، ص٢٥٣. ابن واصل: مفرج الكروب، ج٤، ص١٧٦.

[٣] ابن الفرات: تاريخ الدول والملوك، ص٢٦٢. ابن واصل: مفرج الكروب، ج٤، ص١٧٦. نصر، سوسن محمد: بنو أيوب مع الخوارزمية والمغول والمماليك في شمال الشام والجزيرة، المجلة التاريخية المصرية، عد٣٠ و٣١، ١٩٨٣-١٩٨٤م، ص٥٤-٦٣.

[٤] ابن واصل: مفرج الكروب، ج٤، ص١٧٩. للاستزادة أنظر: ابن الفرات: تاريخ الدول والملوك، ص٢٦٣.

[٥] ابن الأثير: الكامل، ج١٠، ص٤١٨. ابن الفرات: تاريخ الدول والملوك، ص٢٦٣-٢٦٤. حومد: تاريخ الجهاد، ج٢، ص٢٤١. عاشور: الحركة الصليبية، ج٢، ص٢٣٩.

ومن جانبه هاجم جلال الدين الخوارزمي عاصمة الأشرف "خلاط" في العام نفسه ٦٢٣هـ/ ١٢٢٦م وضرب عليها حصاراً شديداً إلا أنه أخفق في دخولها في ذلك العام بسبب حلول الشتاء واشتداد البرد ونزول الثلج بالإضافة إلى تهديدات التركمان لممتلكاته، ويذكر بعضهم أن السبب في رحيله عنها هو وصول الأشرف في نهاية ٦٢٣هـ/ ١٢٢٦م إلى أخيه المعظم في دمشق طالباً منه الشفاعة في رحيل الخوارزمي عن خلاط، فاتصل به المعظم وتم ذلك، ويمكن القول إنه اجتمعت جميع تلك العوامل المتقدمة وفرضت على جلال الدين الانسحاب عن خلاط، إلا أنه كرر حصارها أكثر من مرة في عام ٦٢٥هـ/ ١٢٢٨م وقاتلها قتالاً شديداً حتى تمكن من دخولها في ٢٨ جمادى الأولى ٦٢٧/ نيسان ١٢٣٠م، وتعامل الخوارزمي مع أهلها بكامل العنف والوحشية، فقتلوا وأسروا ونهبوا وهتكوا الأعراض،[١] لدرجة قال بعضهم فيها "ارتكب الخوارزمي في خلاط أكثر مما ارتكبه التتار في البلاد التي قهروها".[٢] كما قال عنهم ابن تغري بردي: "عاثوا وخربوا البلاد، وكانوا شراً من التتار، لا يعفون عن قتل ولا عن سبي، ولا في قلوبهم رحمة"[٣].

وفي العودة إلى زيارة الأشرف للمعظم في نهاية ٦٢٣هـ/ ١٢٢٦م -سالفة الذكر- فبعض المصادر تذكر أن هدف هذه الزيارة كان تشكيل حلف معادٍ للخوارزميين، وكي يطلب الأشرف من أخيه المعظم السماح لجيوش مصر أن تمر عبر أراضيه إلى الشرق، فاستغل المعظم ذلك لإرغام الأشرف على الانضمام إلى جانبه ضد أخيهما الكامل، والتعهد بمساعدته في الاستيلاء على حمص وحماة واضطر الأشرف إلى ذلك مرغماً، إلا أن الأخير ما إن عاد إلى عاصمة ملكه في خلاط حتى أعلن عدم الوفاء بعده، مسوغاً أنه اضطر إلى ذلك العهد مرغماً، وأنه سيستمر في التحالف مع أخيه الكامل، مما صَعَّد في حدة الخلاف بين الأخوة الثلاثة.[٤]

---

[١] ابن الأثير: الكامل، ج١٠، ص٤٣٩. سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان، ج٢٢، ص٢٧٩، ٣٠١، ٣٠٣. ابن واصل: مفرج الكروب، ج٤، ص١٨٧-١٨٨، ١٩٠-١٩١، ٢٣٥. أبو الفداء: المختصر، ج٣، ص١٣٦، ١٣٧، ١٤١، ١٤٥، ١٤٧. ابن العبري: مختصر الدول، ص٤٢٩. تاريخ الزمان، ص٢٧٥-٢٧٦. سوسن: بنو أيوب، ص٦٥-٦٨.

[٢] حومد: تاريخ الجهاد، ج٢، ص٢٤٢.

[٣] ابن تغري بردي: النجوم، ج٦، ص٣٢١.

[٤] ابن الأثير: الكامل، ج١٠، ص٤١٨. سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان، ج٢٢، ص٢٧٩. ابن واصل: مفرج الكروب، ج٤، ص١٧٩-١٨١. حومد: تاريخ الجهاد، ج٢، ص٢٤١.

ويبدو أن المعظم زادت مخاوفه ووساوسه على أملاكه من تحالف أخويه ضده، وقد تزامن ذلك مع قدوم سفارة الإمبراطور فردريك الثاني إلى المعظم سنة ٦٢٤هـ/ ١٢٢٦م، وهي في طريق عودتها من عند الكامل في مصر إلى ألمانيا، وتأكد المعظم من خلالها من التحالف بين الكامل وفردريك، وتنازل الأول للأخير عن أراضي تابعة للمعظم كما سيأتي شرحه.

يبدو أن هذا الخبر كان الضربة القاصمة لخروج المعظم عن جلالته ووقاره وسلطانه، فسعى مهرولاً إلى الاستنجاد بجلال الدين الخوارزمي، ومصرحاً له باستعداده لإعلان التبعية والطاعة له، وتكررت الرسل بينهما لوضع الترتيبات الأخيرة، وفيها أبدى المعظم استعداده للخطبة باسم جلال الدين وضرب السكة باسمه، فأرسل جلال الدين خلعة له، فلبسها المعظم وتجوَّل بها في شوارع دمشق، وقطع الخطبة لأخيه الكامل،[1] وذلك إمعاناً في إظهار الولاء والتبعية للحليف الخارجي على خلاف عادة الحكام الضعفاء الذين طالما يحاولون إظهار استقلالهم على مرأى شعوبهم على الرغم من اعترافهم سراً وبكل صراحة بالتبعية، وربما المبايعة للحليف الخارجي.

ورداً على إجراءات المعظم تلك وتطور علاقاته مع جلال الدين الخوارزمي قرر الكامل مهاجمة دمشق، فخرج من القاهرة في رمضان ٦٢٤هـ/ أيلول ١٢٢٧م ووصل إلى بلبيس، إلا أن المعظم تمكن من خداعه وملاطفته وملاينته ببعض الرسائل الدبلوماسية؛ لذلك تراجع الكامل عن مهاجمة دمشق وعاد إلى القاهرة.[2]

أيضاً لم تكن عودة الكامل إلى القاهرة عن حُسن نية، ويبدو أنه أخذ يخطط لإشغال أخيه بصراعات مستقبلية كبيرة مع الإمبراطور فردريك، إذ إن الكامل رابه تحالف أخيه مع جلال الدين، وأخذ

---

[1] سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان، ج٢٢، ص٢٧٩. ابن واصل: مفرج الكروب، ج٤، ص١٧٩. المقريزي: السلوك، ج١، ص٣٤٥.

وللمزيد عن تحالف المعظم مع جلال الدين الخوارزمي راجع : زيان، حامد زيان غانم: الصراع السياسي والعسكري بين القوى الإسلامية زمن الحروب الصليبية، دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة، ١٩٨٣م، ص١٠٩-١١١.

[2] ابن واصل: مفرج الكروب، ج٤، ص٢٠٦. ابن العميد : أخبار الأيوبيين، ص١٤. أبو الفداء: المختصر، ج٣، ص١٤١. تاريخ ابن الوردي، ج٢، ص١٤٧. المقريزي: السلوك، ج١، ص٣٤٥. توفيق، عمر كمال: الدبلوماسية الإسلامية والعلاقات الإسلامية مع الصليبيين، مؤسسة شباب الجامعة، الاسكندرية، ١٩٨٦م، ص٧١-٧٢.

يخشى على مستقبله وعلى دولته؛ لذلك قرر إرسال فخر الدين يوسف بن شيخ الشيوخ[١] إلى الإمبراطور فردريك الثاني يطلب منه القدوم إلى عكا. وعندما قَدِمت سفارة فردريك إلى الكامل في تلك الأثناء وبالعام نفسه ٦٢٤هـ/ ١٢٢٦م، بالغ الأخير في إكرامهم والترحيب بهم، وأعلن لرُسل الأول أنه مستعد للتخلي عن القدس وغيرها من الفتوحات الصلاحية لصالح فردريك.[٢]

كانت تلك المناطق تتبع المعظم عيسى؛ لذلك توجَّب على المتفاوضين معرفة رد فعل أو موقف المعظم من هذا الصلح وتلك العروض، وعلى هذا الأساس – وبتوجيه من الكامل أو بدونه– عرَّجت سفارة فردريك على دمشق وهي في طريق عودتها من مصر بالعام نفسه لتطلب من المعظم الموافقة على تسليم بيت المقدس وغيرها من المناطق التي تنازل عنها الكامل إلى الإمبراطور فردريك، مما أثار غضب المعظم وصرَّح لهم بعدم قبوله بذلك الاتفاق، وأبدى استعداده للقتال بقوله لهم: "قل لصاحبك ما أنا مثل الغير وما له عندي سوى السيف"،[٣] ولا بدّ أن المعظم أخذ يسعى إلى زيادة الحيطة والحذر تجاه أخيه الكامل ومن خلفه الإمبراطور فردريك.

ويبدو أن الرد الصارم من قبل المعظم دفع فردريك إلى تحريض أتباعه في مملكة القدس اللاتينية الثانية للإغارة على السواحل التابعة للمعظم وإثارة القلاقل له، حيث يذكر فيليب دي نافار أن فردريك عندما أرسل في عام ١٢٢٦م نائبه مونتبليارد إلى عكا ومعه أسقف ملفي Melfi ليضمنوا له ولاء بارونات المملكة، أرسل معهم" قوة مؤلفة من ثلاثمئة فارس لتكون شحنة في البلاد باسم الإمبراطور"[٤]. وإضافة إلى هذه القوة أيضاً وصلت إلى عكا في العام التالي ١٢٢٧م قوة مؤلفة من ثمانمئة فارس وعشرة آلاف راجل، بقيادة دوق أوف ليمبورغ Limburg. إذ يذكر ويندوفر أنه سبق فردريك إلى الأراضي المقدسة حوالي أربعون ألف حاج صليبي، وعندما تأخر فردريك في حملته إلى بلاد الشام عاد هؤلاء الحجاج إلى بلادهم

---

[١] عن علاقة أسرة شيخ الشيوخ مع الصليبيين والدور الذي شغلته هذه الأسرة راجع، حاج أبو بكر، نضال: أسرة شيخ الشيوخ ابن حموية في العصر الأيوبي وعلاقتها مع الصليبيين، رسالة أعدت لنيل درجة الماجستير في تاريخ العرب والإسلام، بإشراف أ.د. اكتمال اسماعيل، جامعة دمشق، ٢٠٠٨م.

[٢] ابن العميد: أخبار الأيوبيين، ص١٤. ابن الفرات: تاريخ الدول والملوك، ص٣٠٥-٣٠٦.

[٣] سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان، ج٢٢، ص٢٨٤. للاستزادة أنظر: الذيل على الروضتين، عن الموسوعة، ج٢٠، ص٢٩٢. ابن الفرات: تاريخ الدول والملوك، ص٣١٠-٣١١. الذهبي: تاريخ الإسلام، ج٤٥، ص٤١. المقريزي: السلوك، ج١، ص٣٤٥. حمزة: العلاقات السياسية، ٢٦٨.

[٤] دي نافار: حروب فردريك، عن الموسوعة، ج٣٥، ص٣٤.

وبقي في عكا منهم حوالي ثمانمائة فارس فقط تحت قيادة دوق أوف ليمبورغ Limburg،[١]. ولكن رواية ويندوفر هذه لا يوجد ما يدعم تفاصيلها، ويبدو أن تجمع هؤلاء الحجاج الصليبيين (الأربعين ألف حاج) تم في ميناء برنديزي في آب عام ١٢٢٧م، وعندما تأخر فردريك عن قيادة الحملة وأعلن تأجيله لها انفضَّ هؤلاء الحجاج كلٌّ إلى بلاده، وبقي هناك في الميناء حوالي ثمانمئة فارس وعشرة آلاف جندي فقط، تم إرسالهم إلى عكا تحت قيادة دوق ليمبورغ.[٢]

والذي يهم أنه في هذه الآونة – وبعد وصوله لعكا- أعلن هذا الدوق لزعماء وأعيان مملكة القدس أنه يرغب بخرق الهدنة مع المسلمين، وسيقوم بالزحف إلى المدينة المقدسة، وبدأوا فعلاً بتحصين قيسارية والاستعداد ليافا.[٣]

وهنا أدرك المعظم عيسى خطورة هذه التحركات التي لا يُستبعد أن الكامل كان له يد بها، فلجأ المعظم إلى سياسة الأرض المحروقة وتدمير كل ما تبقى من أسوار وتحصينات القدس، كما سد صهاريج الماء فيها، وجهَّز العساكر لتقيم في مدينة نابلس لحماية القدس، وقام بتدمير استحكامات صفد وكوكب وتبنين، وأرسل في طلب النجدات من حليفه جلال الدين الخوارزمي،[٤] واهتم بجهازه الخاص بالتجسس ولاسيما تجاه فردريك، لدرجة أنه أدخل به النساء ورجال الدين والرهبان، وإضافة إلى هذه الأعمال التجسسية المخابراتية أيضاً اهتم المعظم بالأعمال والتجهيزات العسكرية في طرابلس كي تتمكن من التصدي لأي هجوم بحري متوقع من جانب الإمبراطور فردريك أو من جانب أخيه الكامل.[٥]

ولا شك أن تلك الأحداث وسياسة المعظم بشكل خاص أثارت حفيظة الكامل، ومن جديد أعلن عداءه السافر له، ولا بدَّ أنه مضى قُدماً في مشروعه التصالحي مع فردريك إلا أن وفاة المعظم المفاجئة في أول ذي الحجة ٦٢٤هـ/ ١٢٢٦م وهو في عنفوان تحركه حالت دون تنفيذ مشاريعه، وشكلت فراغاً كبيراً

---

[١] ويندوفر: ورود التاريخ، ج٢، عن الموسوعة، ج٤٥، ص٨٥١-٨٥٤.

[٢] دي نافار: حروب فردريك، عن الموسوعة، ج٣٥، ص٣٥-٣٦.

[٣] ويندوفر: ورود التاريخ، ج٢، عن الموسوعة، ج٤٥، ص٨٥١-٨٥٤.

[٤] الحموي: التاريخ المنصوري، ص١٤٣. الخريسات: السياسة الأيوبية، ص٤٠. الخطيب، ابراهيم: القدس بين أطماع الصليبيين وتفريط الملك الكامل، جعمان، ط١، ٢٠٠١م، ص٢٧٥.

[٥] سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان، ج٢٢، ص٢٨٧-٢٨٨. النويري: نهاية الأرب، ج٢٩، ص١٤٥-١٤٦. حمزة، العلاقات السياسية، ص٢٦٩-٢٧٠. البحيري: صلاح الدين، المخابرات الأيوبية في مواجهة الصليبيين، المؤرخ العربي، عد٤١، ١٩٩٠م، ص١٢٢.

في بلاد الشام، وظروفاً ملائمة للتحرك العسكري بها من قبل الكامل وفردريك، ولكن وفاته أوجبت على الكامل إعادة النظر في علاقاته مع فردريك كما سيأتي الحديث على شرحه.

والمهم هنا أن الكامل استغل وفاة أخيه المعظم، وقدم إلى بلاد الشام في رمضان سنة ٦٢٥هـ/ ١٢٢٧م، وفرض سيطرته على كثير من المناطق التي كانت ضمن أملاك أخيه، مثل مدينة بيت المقدس التي أعلن أنه سيطر عليها لحمايتها من خطر الصليبيين.[١]

واستغل الصليبيون في مملكة القدس اللاتينية الثانية -بما فيهم الفرقتان العسكريتان اللتان كانتا قد سبقتا فردريك إلى عكا- وفاة المعظم، وقاموا بتحصين قيسارية، واستعدوا ليافا وغيرها من مدن الساحل، وعمد الفرنسيون إلى صيدا التي كانت مناصفة مع المسلمين فطردوهم من حصتهم بها، وأعادوا اعمارها، كما حصَّنوا جزيرة قلعة البحر عند الطرف الشمالي الشرقي من ميناء صيدا، أما الألمان فقد أعادوا بناء حصن القرين إلى الشمال الشرقي من عكا، وقاموا في ربيع سنة ١٢٢٨م بإعادة بناء قلعة قيسارية التي كان المعظم قد هدمها من قبل.[٢] وفي خضم هذه الأحداث قدِمت الحملة الصليبية السادسة إلى بلاد الشام وعلى رأسها الإمبراطور الألماني فردريك الثاني، ولا بدّ أنه كان لذلك أثر كبير في تبدّل وتغير العلاقات والأجواء في المنطقة.

---

[١] ابن واصل: مفرج الكروب، ج٤، ص٢٢٥-٢٢٧. خريسات: السياسة الأيوبية، ص٤١.

[٢] ابن الأثير: الكامل، ج١٠، ص٤٣٤. الذهبي: تاريخ الإسلام، ج٤٥، ص٣٠. الحريري: الاعلام والتبيين، ص٩٥.

## المبحث الثاني

# العلاقات الأيوبية مع مملكة القدس اللاتينية الثانية خلال الحملة الصليبية السادسة حتى قدوم السابعة (٦٢٦-٦٤٨هـ/ ١٢٢٨-١٢٥٠م)

## المساومات والتنازلات

## مرحلة وراثة ووصاية آل هوهنشتاوفن على عرش عكا

### أولاً: العلاقات بين فردريك والكامل قبل قدوم الأول على رأس الحملة السادسة

تميزت العلاقات بين الإمبراطورية الرومانية المقدسة والأيوبيين بالهدوء والاتزان واستمرار الاتصالات بين الجانبين، وعندما تولى فردريك عرش الإمبراطورية الرومانية عمل على الاستمرار في علاقات جيدة مع الأيوبيين، وأرسل في سنة ٦١٢هـ/ ١٢١٥م إلى الملك العادل في القاهرة سفارة بقيادة سيفالو Cefalu بهدف تجديد المعاهدات التجارية بين الدولتين، وفي هذه الآونة كان الكامل يتولى حكم مصر نيابة عن والده،[١] بالإضافة إلى أن موقف فريدريك من الحملة الخامسة كان مُرضياً نوعا ما بالنسبة إلى الكامل[٢].

وقد عُرف عن تلك الشخصيتين (الكامل وفريدريك) التقارب الفكري والعقلي والتوافق في الميول والطباع والاتجاهات، وتسامحهما الديني، والولع بمختلف العلوم[٣]، وإعجاب كل منهما بالآخر، ولا بد أن الذي ساعد على ذلك هو نشوء فريدريك في كنف الحضارة الإسلامية في صقلية وتأثره بآراء وأفكار المسلمين، وإتقانه للعربية ضمن اللغات الستة التي كان يجيدها، كما يُذكر أنه تعلم الدين الإسلامي والجدل من أحد العلماء المسلمين،[٤] وربما جعل هذا العلاقات في هذه المرحلة تتسم بمسحة من التسامح المطلق الذي غاب بين الطرفين طيلة عصر الحروب الصليبية.

---

[١] حمزة: العلاقات السياسية، ص٢٦٦-٢٦٧.

[٢] انظر: دي نوفار: حروب فردريك، عن الموسوعة، ج٣٥، ص٣٢.

[٣] يوجد ترجمة وافية عن الكامل في ابن تغري بردي: النجوم، ج٦، ص٢٢٧-٢٣٧.

[٤] ابن واصل: مفرج الكروب، ج٥، ص٣٤.أبو الفداء: المختصر، ج٤، ص١٤١.

L, Emperecr Fredreic II: Questions Philosophi ques A dress Aux Saront Muslmans. Journd Asiqtiaue au R, ecueil De Memories, tomel 1, F.M. paris. 1853. P. 242.

وفي العودة إلى فريدريك فإنه بزواجه عام ٦٢٢هـ/ ١٢٢٥م من يولاند بنت ماري وجان دي بريين -كما سلف شرحه مفصلا في الفصل الرابع عند الحديث عن وراثة العرش في مملكة القدس اللاتينية الثانية-أصبح الوصي والمسؤول عن عرش المملكة وانتقل له تاجها، فأصبحت مهمته مضاعفة تجاه الشرق الفرنجي، فمن جهة كان قد قَدَّمَ للبابا عدةً وعود بالسفر إلى الشرق على رأس حملة صليبية تحرّر مدينة القدس وتعيد مجد المملكة القديمة، وقد تكررت مطالب البابا له بذلك، وتصاعد الخلاف بينهما لدرجة أن البابا أصدر قرار الحرمان ضده في ٢٩ أيلول ١٢٢٧م[١]- وليس البحث هنا للخوض في هذه التفاصيل.

ومن جهة ثانية فإن فريدريك بزواجه من يولاند - وريثة عرش مملكة القدس اللاتينية الثانية- أصبح وصياً على عرش تلك المملكة، ولا بدّ من حضوره إليها وإعادة ترتيب أمورها خلال مدة أقصاها سنة ويوم وإلا يسقط حقه في وراثة العرش كما تقدم شرحه في فصل النظام السياسي للمملكة. ويبدو أن الكامل استنتج من سير تلك الأحداث أن مجيئ الإمبراطور فريدريك إلى فلسطين صائرٌ لا محال، سواءً رضي الكامل أم لا، وربما أن الكامل رغب في استباق الأحداث فعمل على توجيه حملة فريدريك لتكون ضد أخيه المعظّم لا ضده، مستغلاً ما بينهما (الكامل وفردريك) من علاقات تاريخية طيبة، ويبدو أنه تجاهل أو جَهِل المخاطر والأبعاد السياسية والدينية والعسكرية التي ستنجم عن تلك الحملة، ومن هذا الباب دخل ليُرسل سفارة إلى فريدريك في صقلية. يضاف إلى ذلك أن الكامل قد ارتاب من العلاقات بين أخيه المعظم وجلال الدين الخوارزمي، فخشي "أن يكون اتفاقهما سبباً لزوال دولته فأرسل الأمير فخر الدين" إلى فريدريك.[٢]، وما إن وصل الرسول إلى صقلية في خريف عام ٦٢٣هـ/١٢٢٦م حتى سُرَّ به الأخير واستقبله أحسن استقبال، وعندما طلب فخر الدين من فريدريك الحضور بعساكره إلى بلاد الشام لمساندة الكامل ضد أخيه المعظّم، أعرب له فريدريك عن عطفه وقبوله هذا الأمر[٣].

ويبدو أن فريدريك كان يجول في خاطره آنذاك فكرة القيام بحملة صليبية قوية تنقذ الشرق اللاتيني من المسلمين، لذا لم يقدم وعوداً قاطعة للكامل، وبالوقت نفسه لم يغلق باب المفاوضات معه، ويبدو أن فردريك بحنكته وذكائه رغب في معرفة مدى ومنتهى التنازلات التي كان الكامل مستعداً لها، لذلك أرسل

---

[١] الراهب الدومينيكاني، عن الموسوعة، ج٤٣، ص١١٦٦-١١٦٧. ورود التاريخ، ج٢، ص٨٦٢، عن الموسوعة، ج٤٥، ص٨٦٢-٨٧٠.

[٢] ابن واصل: مفرج الكروب، ج٤، ص٢٠٦. للاستزادة أنظر: المقريزي: السلوك، ج١، ص٣٤٥.

[٣] ابن واصل: مفرج الكروب، ج٤، ص٢٠٦. دي نافار: حروب فردريك، عن الموسوعة، ج٣٥، ص٣٧.

بالعام نفسه أسقف مدينة بالرمو (برنارد) إلى عكا ليصطحب نائبه بها (نائب فردريك توماس أكوينو) معه إلى القاهرة، وحمَّل هذه السفارة كثيراً من الهدايا والرسائل الودية، وكان من بينها بعض الجوارح وعدة خيول من بينها فرس الملك، وحُمِلَت هذه الهدايا على مركب ذهب مرصع بجوهر فاخر، وتلقى الكامل هذه السفارة ببالغ السرور والإكرام، ورحب بهم أيما ترحيب، لدرجة أنه خرج بنفسه إلى ظاهر القاهرة لاستقبالهم، وأثناء الاجتماع والمباحثات تأكدت السفارة من استعداد الكامل للتنازل عن كامل الفتوحات الصلاحية باستثناء الكرك والشوبك. وبعد انتهاء الاجتماع مع سفارة فردريك بدا الكامل حريصاً على رد الهدية له، فجهَّز سفارة جديدة من قِبَله على رأسها جمال الدين بن منقذ الشيزري[1]، وحمَّلها هدايا ثمينة من تحف الهند والعراق والشام ومصر، وكان على رأس هذه الهدايا سرج من ذهب فاقت قيمته جميع هدايا الإمبراطور له مجتمعة.[2]

هنا يجب ملاحظة أن ظروف عرض الكامل للصلح على الصليبيين أثناء الحملة الخامسة اختلفت عمّا هي عليه الآن، فالمناطق التي أبدى الكامل استعداده للتنازل عنها للصليبيين أثناء الحملة الخامسة كانت تقع تحت سيطرة المعظم، وكان العرض المُقَدم لهم بالاتفاق بين الأخوين الكامل والمعظم، أي أن الأخير كان راضياً ومستعداً لتقديم تلك المناطق للصليبيين مقابل الجلاء عن مصر، أما الآن فإن الوحشة قد سرت بين الأخوين، وتقدم الكامل بذلك العرض للصليبيين دون استشارة أو رضى المعظم الذي تُعد تلك المناطق ضمن أملاكه؛ لذلك توجَّب على الكامل وعلى رُسل الإمبراطور في آنٍ واحد معرفة رد فعل أو موقف المعظم من هذا الصلح أو الاتفاق كما سلف ذكره.

ولا بدَّ أن فردريك عَلِمَ من سفارته الموقف السلبي للمعظم من ذلك التفاهم مع الكامل، إلا أنه لم ييأس من ذلك، ووجد في عرض الكامل فرصة جيدة يجب عدم إضاعتها، تزامن ذلك مع ضغوط البابا عليه للإسراع في قيادة حملة صليبية إلى الشرق، وبناءً على ذلك يبدو أن فردريك بدأ فعلاً بالإعداد لحملة صليبية تنقذ الشرق الفرنجي من المسلمين، وتعيد إحياء مملكة القدس اللاتينية الأولى، وما إن وصلته رسالة نائبه هناك – توماس أسيرا– يُخطرهُ بها بوفاة المعظم في نهاية سنة ٦٢٤هـ/ ١٢٢٧م حتى أسرع في إعداد

---

[1] هو إسماعيل بن مبارك بن كامل بن مقلد بن علي بن منقذ، ولد بمصر سنة ٥٦٩هـ، ولّاه الكامل على حران، وتوفي بها سنة ٦٢٧هـ. الصفدي: الوافي، ج٩، ص١١٧. الذهبي: تاريخ الإسلام، ج٤٥، ص٢٤٦.

[2] المقريزي: السلوك، ج١، ص٣٤٥. الحموي: التاريخ المنصوري، ص١٤٨-١٤٩. حمزة: العلاقات السياسية، ص٢٦٨، ٢٧١.

الحملة، وعلى الفور أرسل إلى الشرق قوة مؤلفة من خمسمئة فارس على رأسها فيلانجيري[١]، وهنا يظهر أن فردريك عمل على كسب الوقت، واستغلال ظروف بلاد الشام التي أعقبت وفاة المعظم، وخشية من تراجع الكامل عن وعوده له.

ومن الغرابة أن الكامل كرر إرسال سفارة دبلوماسية له في بداية سنة ٦٢٥هـ/ نهاية سنة ١٢٢٧م برئاسة فخر الدين بن شيخ الشيوخ، ولا يوجد في المصادر تفصيل دقيق لأسباب هذه الزيارة، وأهم ما يذكر في هذه السفارة أن فردريك أهدى إلى فخر الدين شارة الفرسان -أي أعطاه شرف الفروسية- وذلك لأنهما أصبحا صديقين حميمين نتيجة اللقاءات التي تمت بينهما في الإمبراطورية المقدسة.[٢]

ويمكن تسويغ هذه السفارة بأن الكامل أيقن عن ظهر غيب أن أوربا قد حسمت أمرها، وقررت إرسال حملة صليبية كبيرة تُعيد لها هيبتها ووقارها الذي انهار في الحملة الخامسة، ولا بدّ أن هذه الحملة الصليبية الكبيرة قادمة إلى المنطقة سواء بقيادة فردريك أم بقيادة غيره، وربما أن الكامل ومعه السياسي الدبلوماسي الكبير فخر الدين عملا على وأد هذه الحملة في أرضها، وتفريغها من مضمونها الديني، وجعلها سياسية سلمية لا عسكرية دموية، وعلى هذا فإنهما فضَّلا أن يكون على رأسها فردريك المحروم كنسياً دون غيره، ويرد عند الراهب الدومينيكاني ما يؤيد ذلك، إذ يقول: "بأن فردريك قد تخلى عن الحملة الصليبية؛ لأن السلطان بعث برسل له، وقد جلبوا له رسائل ورشوات كبيرة، ووعدوه بأنه سوف يحصل على مملكة القدس من دون حرب أو سفك للدماء شريطة قيامه بإعاقة رحلة الصليبيين"[٣].

وبغض النظر عن تفاصيل الحملة السادسة، والذي يهم أن فردريك لما وصل إلى بلاد الشام سنة ٦٢٦هـ/ ١٢٢٩م كانت الأوضاع قد اضطربت بها منذ العام الماضي، واتجهت نحو التوتر بين الأيوبيين والصليبيين في عام، وانتهت الهدنة المعقودة بين الجانبين، وحدثت تحركات عسكرية من كلاهما، منها هجوم المسلمين بقيادة العزيز عثمان بن العادل على صور، وأخذهم العديد من الأسرى والغنائم.[٤]

---

[١] دي نافار: حروب فردريك، عن الموسوعة، ج٣٥، ص٣٧.

[٢] جوانفيل: حياة لويس، عن الموسوعة، ج٣٤، ص٨٢- ٨٣. حمزة: العلاقات السياسية، ص٢٧١. وللمزيد عن علاقات الصداقة بين فردريك وفخر الدين راجع: نضال: أسرة شيخ الشيوخ، ص١٢٠-١٢١.

[٣] عن الموسوعة، ج٤٣، ص١١٦٧، وللاستزادة أنظر: المصدر نفسه، ص ١١٦٨.

[٤] التاريخ المنصوري، ص١٥٨. أبو شامة: الذيل على الروضتين، عن الموسوعة، ج٢٠، ص٢٩٥.

في ٢١ تموز ١٢٢٨م رست سفينة الإمبراطور فردريك في ميناء ليماسول القبرصي، في حين تابعت بقية سفن الحملة القليلة العدد إلى عكا بقيادة خادمه ريشار فيلانجيري Filangieri، وقضى فردريك بقبرص قرابة الشهر من الزمان أثبت خلالها حقه في السيادة عليها[١]، وخلال هذه المدة اجتمع بها مع زعماء وبارونات مملكة القدس اللاتينية الثانية الذين حضروا إلى قبرص بناءً على طلبه، ولا بدَّ أن الشك والريبة وعدم الثقة بين الطرفين خيَّمت على الاجتماع، كونه ألمانياً وأغلب أعيان مملكة القدس فرنسيون أو إنكليز، يضاف إلى ذلك أنه محروم كنسياً.[٢] وأهم من ذلك أن وضعه القانوني في المملكة أصبح مشكوكاً به وموضع خلاف كبير بعد وفاة زوجته الملكة الشرعية للمملكة "يولاند"، منذ بداية أيار ١٢٢٨م، وذلك بعد أن وضعت في ٢٥ نيسان منه ولداً ذكراً أسمته "كونراد"، فأصبح هذا الطفل الصغير صاحب الحق الشرعي في عرش مملكة القدس اللاتينية الثانية، كما سلف شرحه في الحديث عن وراثة العرش في عكا، وبناءً على ذلك فقد انحصرت حقوق وسلطات فردريك في المملكة كونه وصياً على صغيره كونراد وليس ملكاً.

وربما أن فردريك استنتج من خلال اجتماعاته مع هؤلاء الأعيان والبارونات أنه لا يوجد جيش كبير في المملكة لقتال المسلمين، وإن وُجِدَ هذا الجيش فلا يمكن الاعتماد عليه في فتح معركة مباشرة مع المسلمين.

يضاف إلى ذلك أن جيشه الذي سبقه إلى عكا بقيادة نائبه فيلانجيري Filangieri كان صغير العدد، ولم يتجاوز عدده خمسمئة مقاتل حسبما تورد المصادر والمراجع[٣]، إلا أن ذلك العدد قليل جداً ولا يمكن أن يكون فردريك قد أتى به فقط، وقد تقدمت الإشارة إلى أن هناك فرق أخرى من الحملة -أتت المصادر على ذكرها- كانت قد سبقته إلى فلسطين.

ودون شك أن العدد بلغ أضعاف ما تم ذكره، ولكن على العموم تبقى حملة فردريك قليلة العدد مقارنةً بغيرها من الحملات، لهذا لا يمكنه الخوض في معركة كبيرة مع المسلمين، ولا بدَّ من اتباع الأسلوب

---

[١] عن تفاصيل ذلك راجع دي نافار: حروب فردريك، عن الموسوعة، ج٣٥، ص٣٨-٤٢.

[٢] انظر: دي نافار: حروب فردريك، عن الموسوعة، ج٣٥، ص٣٧-٣٩.

[٣] دي نافار: حروب فردريك، عن الموسوعة، ج٣٥، ص٣٧. حومد: تاريخ الجهاد، ج٢، ص٢٤٤. عاشور: الحركة الصليبية، ج٢، ص٢٤٣. عن عاشور، سعيد: الإمبراطور فردريك الثاني والشرق العربي، مجلة الجامعة للدراسات التاريخية، مج ١١، ١٩٦٣م.

الدبلوماسي خلال الحملة، واللجوء إلى المفاوضات والملاينة، واستخدام كامل الوسائل الدبلوماسية لاستخلاص ما يمكن من الأراضي والمناطق التي أبدى الكامل استعداده للتنازل عنها.

يبدو أن مَن قدَّم الولاء في قبرص للإمبراطور فردريك من أمراء وأعيان مملكة القدس لم يكونوا قد سمعوا بقرار الحرمان البابوي الصادر بحق فردريك، وما إن سمعوا به حتى عدّو أنفسهم في حِلٍّ منه كونهم كانوا قد قدموا يميناً لإمبراطور محروماً كنسياً، وعندما نزل في عكا أعلن بعض الأمراء ورجال الدين صراحة رفضهم التعاون معه، وعلى رأسهم البطريرك الكاثوليكي الاسمي لمملكة القدس "جيرولد Gerold"، وكذلك فرسان الداوية والاسبتارية، ويمكن القول إنه لم يقف إلى جانبه سوى القوات التي أتت معه من ألمانيا بالإضافة إلى جماعة فرسان التيوتون، كونهم ألماناً ومقدمهم هرمان فون سالزا كان صديقاً للإمبراطور فردريك.[١] وبناءً على ذلك فضل فردريك السياسة والدبلوماسية مع الجانب الإسلامي.

إلا أنه عندما وصل الإمبراطور فردريك إلى عكا في عام ٦٢٦هـ/ أيلول ١٢٢٨م كان المعظم عيسى قد توفي منذ ذي القعدة ٦٢٤هـ/ تشرين الثاني ١٢٢٧م[٢]، أي أن الخطر الذي كان يهدد الكامل قد زال ولم يَعُد الكامل بحاجة لمساعدة فردريك، وعندما أرسل الأخير إلى الكامل يُطالبه بما وعده به، وهو تسليم القدس، رفض الكامل ذلك لوفاة المعظم ولتبدل الظروف في بلاد الشام.[٣]

وهنا يتبادر للدارس عدة أسئلة لا بدّ من الإجابة عنها:

هل انتهت بوفاة المعظم سنة ٦٢٤هـ / ١٢٢٧م جميع مشاكل الكامل؟

هل كان خليفة المعظم في دمشق مناهضاً للكامل، أم أنه سار وفق ارادة الكامل؟

هل زال بوفاة المعظم نفوذ الخوارزمية في بلاد الشام بشكل عام وبدمشق بشكل خاص؟

جميع المصادر والمراجع تجعل وفاة المعظم نهايةً للمشاكل التي يعانيها الكامل في بلاد الشام وغيرها، وأن ابنه الناصر صلاح الدين داود الذي ورثه في الحكم كان شاباً صغيراً في العشرين من عمره، وليس لديه

---

[١] ويندوفر: ورود التاريخ، ج٢، عن الموسوعة، ج٤٥، ص٨٧٧-٨٧٨. عمران: تاريخ الحروب الصليبية، ص٢٩١.

[٢] للمزيد عن وفاة المعظم وترجمته وأخباره بشكل مفصَّل انظر: ابن واصل: مفرج الكروب، ج٤، ص٢٠٨-٢٢٣.

[٣] ابن واصل: مفرج الكروب، ج٤، ص٢٣٤-٢٣٥. حمزة: العلاقات السياسية، ص٣٠٥-٣٠٧. حومد: تاريخ الجهاد، ج٢، ص٢٤٥-٢٤٦.

من الخبرة أو القوة ما يجعله مصدر خطر على الكامل، وأنه اشتغل باللهو، وأعرض عن مصالح الرعية؛ لذلك فإن الأخير ندم على استدعائه للإمبراطور فردريك، ورفض التنازل له عما قد وعده به.[١]

إلا أن ذلك ينافي الواقع وسير الأحداث، فالكامل لم يكن متخوفاً من أخيه المعظم بالقدر نفسه الذي كان متخوفاً به من نفوذ دولة جلال الدين خوارزم شاه في دمشق بشكل خاص وبلاد الشام بشكل عام، ووفاة المعظم لا تعني بالمطلق زوال نفوذ الخوارزميين، إذ إنه استلم بعده ابنه الشاب الناصر صلاح الدين داود، ولا بدَّ أنه سار على خُطا والده في سياسة التحالفات الخارجية، على الأقل في المرحلة الراهنة ريثما يتم له تثبيت الحكم، أي لا بدّ أنه استمر في علاقات حسنة مع الخوارزميين، ولا بدّ أنه استمر نفوذهم واضحاً في دمشق وعموم بلاد الشام، ويظهر هذا جلياً باستنجاد الناصر داود بجلال الدين عندما حوصرت عاصمته دمشق بداية عام ٦٢٦هـ/ م من قبل عمه الأشرف، وذكر لجلال الدين أن سبب خلافه مع عمه هو انتماؤه هو وأبيه إليه، وحثه على الإسراع في مهاجمة خلاط واحتلالها "ليشغل سر الملك الأشرف وليندفع عنه شره".[٢]

ورث الناصر أيضا عن أبيه صراعه مع الكامل- وتلك هي التَرِكَة الأسوأ التي بها يُوَرِّث الأب أبناءه الخلافات والضغائن والمشاكل-، وعلى هذا فإن الناصر رفض تسليم قلعة الشوبك لعمه الكامل، فاستغل الأخير ذلك واتخذها ذريعةً لمهاجمة فلسطين والاستيلاء على بيت المقدس ونابلس، وذلك في رمضان ٦٢٥هـ/ آب ١٢٢٨م.[٣] وليس البحث هنا للتفصيل في النزاع الأيوبي الأيوبي، والذي يهم أن الناصر حاول استرضاء الأشرف والتحالف معه إلا أن الأخير استمر في صف الكامل، واتفق معه على اقتسام أملاك المعظم، وحاصرا دمشق، ودخلاها في عام ٦٢٦هـ/ ١٢٢٩م، وعوَّضا الناصر عنها بالصلت والبلقاء والأغوار ونابلس وأعمال القدس وبيت جبريل، وفيما بعد تنازل الناصر عن الشوبك لعمه الكامل، وأصبحت دمشق تابعةً للأشرف حسبما تم الاتفاق عليه بينهما من قبل.[٤]

---

[١] المقريزي: السلوك، ج١، ص٣٤٦، ٣٤٩. عاشور: الحركة الصليبية، ج٢، ص٢٤٤.

[٢] ابن واصل: مفرج الكروب، ج٤، ص٢٤٠. وللمزيد عن سيرة الناصر داود انظر: اليونيني حيث قدم له ترجمة مطولة في كتابه: اليونيني: ذيل مرآة الزمان، ج١، ص١٣-١٤، ٥٢-٥٤، ١٢٦-١٨٤.

[٣] ابن واصل: مفرج الكروب، ج٤، ص٢٢٥-٢٢٧. ابن العميد: أخبار الأيوبيين، ص١٥. المقريزي: السلوك، ج١، ص٣٤٦، ٣٥٠.

[٤] للمزيد راجع، ابن الأثير: الكامل، ج١٠، ص٤٣٦. ابن واصل: مفرج الكروب، ج٤، ص٢٢٨-٢٣١، ٢٣٦-٢٤٠. تاريخ الزمان، ٢٧٣-٢٧٤. المقريزي: السلوك، ج١، ص٣٥٠، ٣٥٦. ابن تغري بردي: النجوم، ج٦، ص٢٣٣.

وفي العودة إلى موقف الكامل تجاه فردريك وعلاقته معه بعد وصوله إلى المنطقة يتساءل الباحث:

هل كان الكامل لايزال راغباً بقدوم فردريك ومنحه القدس؟ أم أنه ندم على استدعائه له، ومن ثم عمل على التملص من وعده لفردريك وعدم تنفيذه؟

وهل سيطرة الكامل على بيت المقدس عقب وفاة المعظم كانت خدمة مُبطنة لفردريك كي يقدمه له على طبق من ذهب ودون عناء؟

وبالتالي هل تمت سيطرة الكامل على القدس بالاتفاق مع فردريك؟

فالكامل لما استنجد بفردريك وقدم له التنازلات كانت القدس وما يحيط بها ضمن أملاك المعظم، أي أن الكامل ظنَّ – بضيق أفق نظره– أنه لن يخسر شيئاً من هذه الوعود التي قدمها لفردريك. أما الآن فبعد وفاة المعظم وقبل مجيء فردريك، كان الكامل تقدم وسيطر على تلك المناطق وأصبحت ضمن أملاكه، وبالتالي لابدَّ أن موقف الكامل قد تغير تجاه وعوده لفردريك، وتغيرت نظرته للتحالف معه، إذ إن ما سيأخذه الأخير يُعد الآن خسارة للكامل، فيذكر المقريزي: "فتحير الملك الكامل، ولم يمكنه دفعه ولا محاربته لِما كان تقدم بينهما من الاتِّفاق، فراسله ولاطفه"[1].

ولما وصل فردريك إلى عكا كان الكامل يحاصر ابن أخيه الملك الناصر داود في دمشق، ولا بدَّ أنه خشي أحد أمرين، **الأول**: أن يقوم الناصر بمراسلة فردريك وطلب المساعدة منه والاتفاق مع بعضهما ضد الكامل.

**الثاني**: أن يستغل فردريك فرصة انشغاله–أي الكامل– بحصار دمشق ويقوم بتوجيه ضربات لممتلكاته في فلسطين، وعلى رأس هذه الممتلكات مدينة القدس التي كانت تعاني الدمار وهدم الأسوار، ولا شك أن احتلال فردريك لها سيكون سهلاً إلى حدٍّ ما.

وبناءً على ذلك كان الكامل أمام خيارين كلاهما مر، الأول: الاستمرار في حصار دمشق والمجازفة في القدس، وهذا سيترتب عليه إثارة الرأي العام في البلاد الإسلامية ضده لتساهله مع الصليبيين والتفريط في حقوق المسلمين.

---

[1] المقريزي: السلوك، ج١، ص٣٥١. للاستزادة أنظر: دي نافار: حروب فردريك، عن الموسوعة، ج٣٥، ص٤٣.

والخيار الثاني: الانسحاب من دمشق وترك حصارها، والتفرغ لمواجهة خطر فردريك على القدس، وهذا سيترتب عليه مهمة مزدوجة، وهي الاستعداد لمواجهة زحف الخوارزميين على أراضيه الشرقية،[1] وفي حال نجاحه في التصدي لهم فمن الصعب التصدي لمن خلفهم (المغول)، يضاف إلى ذلك خلافاته الداخلية مع أبناء بيته وعلى رأسهم الناصر داود صاحب دمشق، وقد تقدمت الإشارة إليه.

وعلى هذا يبدو أن تراجع الكامل عن وعده لفردريك بإعطائه القدس والفتوحات الصلاحية، وإن كان سببه المباشر هو وفاة المعظم، إلا أن هناك أسباب أخرى غير مباشرة يأتي على رأسها إحساسه بالخطأ الذي ارتكبه وندمه على مراسلة فردريك، وخشيته من الغضب الشعبي والإسلامي الذي لا بدّ أنه سيتعرض له.

وعلى العموم فإن استنجاد الكامل بفردريك كان سابقة خطيرة غير مألوفة بين المسلمين في عصر الحروب الصليبية التي غلب عليها طابع الحرب بين الشرق والغرب، وسعي المسلمين جاهدين لإنهاء الوجود الصليبي في بلاد الشام، وتجنب اثارة أي حملة صليبية تأتي من الغرب الأوربي إلى بلاد الشام.

وهنا لابد من ملاحظة أن الكامل لو أنه لم يكن قد تراجع عن مشروعه مع فردريك لما هاجم القدس وسيطر عليها في عام ٦٢٥هـ، ومن ثم تنازل عنها لفردريك، بل جعل عناء السيطرة عليها يتحمله فردريك دون أن يدخل هو في صراع مع أقربائه، ودون أن يلطخ سمعته في العالم الإسلامي، ولا يمكن تفسير ذلك إلا في ضوء الذهاب بعيداً في تطور العلاقات الودية بين فردريك والكامل، وأن الأخير قد رغب بتقديم القدس كهدية على طبق من ذهب لفردريك، ولا يوجد في المصادر العربية أو اللاتينية ما يؤيد ذلك.

---

[1] عن تحركات الخوارزمية في هذا العام ٦٢٥هـ، انظر: المقريزي: السلوك، ج١، ص٣٥١.

## ثانياً: المساومات والتنازلات بعد وصول فردريك إلى عكا

لما وصل فردريك الى عكا لم يكن قد تجمع له بها سوى إحدى عشر ألف مقاتل كما سيأتي شرحه، وهو جيش صغير لا يمكن به فتح معركة كبيرة مع المسلمين؛ لذلك آثر اللجوء إلى المفاوضات والدبلوماسية مع الكامل، ويبدو أنه شعر بندم أو تراجع الكامل عما كان مُستعداً له، فأرسل نائبه القائم بأعمال الوصايا السوري توماس أوف أسيرا (توما الأكويني) وباليان سيد صيدا ليُخطرا الكامل بوصوله عكا، وحملهما رسالة فيها: "كان الجيد والمصلحة للمسلمين أن يبذلوا كل شيء ولا أجيء إليهم، والآن فقد كنتم بذلتم لنائبي – في زمن حصار دمياط – الساحل كله وإطلاق الحقوق بالإسكندرية، وما فعلنا، وقد فعل الله لكم ما فعل من ظفركم وإعادتها إليكم. ومَن نائبي؟! إن هو إلا أقل غلماني، فلا أقل من إعطائي ما كنتم بذلتموه له"[١]. وكان الكامل آنذاك في نابلس، واستقبل رسل فردريك بها، ويبدو أن ظروفه التي ذكرت في الفقرة السالفة اضطرته إلى اللجوء لسياسة فردريك نفسها، فأرسل من قبله رسولين إلى فردريك هما الأمير فخر الدين يوسف بن حموية وصلاح الدين الأربلي[٢] وحملهما بهدايا ثمينة، وطلب منهما إطالة أمد المفاوضات مع فردريك حتى تسقط دمشق أو يعود الأخير إلى بلاده، وقد استقبل فردريك الرسولين في قلعة ريكوردان في نابلس، حيث كان قد نقل معسكره إلى هناك. [٣]

ويبدو أن الكامل في هذه المرحلة – مرحلة حصار دمشق – كان مستعداً لتقديم تنازلات لفردريك فقط بالقدر الذي يكفل مساعدته له في مشروعه الكبير ، وهو توحيد جميع أطراف البيت الأيوبي تحت سيطرته، غير أن تلك التنازلات يجب ألا تبلغ حداً يخرج عن استطاعة الكامل أو يعرّض موقفه أو سمعته للخطر والتشويه بين المسلمين، ومن هذا الباب يبدو أن الكامل تجاهل سيطرة الفرنجة على صيدا في عام ٦٢٥ هـ / ١٢٢٧م عقب وصول فردريك إلى عكا، إذ إن صيدا كانت مناصفة بين المسلمين والفرنجة وسورها وتحصيناتها خراب، فسيطر الفرنج عليها، وأزالوا عنها حكم المسلمين، وأعادوا إعمارها وتحصينها[٤].

---

[١] المقريزي: السلوك، ج١، ص٣٥١. للاستزادة أنظر: حمزة: العلاقات السياسية، ص ٣٠٥ — ٣٠٦.

[٢] توفي الأربلي في عام ٦٣١هـ، للمزيد انظر: ترجمته في ابن تغري بردي: النجوم، ج٦، ص٢٨٦.

[٣] دي نافار: حروب فردريك، عن الموسوعة، ج٣٥، ص٤٤. ورود التاريخ، ج٢، ص٨٧٨، عن الموسوعة ، ج٤٥، ص٨٧٨. المقريزي: السلوك، ج١، ص٣٥١.

[٤] ابن واصل: مفرج الكروب، ج٤، ص٢٣٥.

يبدو أنه خلال المفاوضات التي دارت بين الكامل وفردريك في سنة ٦٢٥ هـ / ١٢٢٧ م حاول الكامل من خلال رسوليه إلى فردريك إقناعه بعقد صلح لا يتضمن تسليم بيت المقدس أو غيرها من البلدات التي سبق الحديث عنها في المفاوضات السالفة، وقد رفض ذلك مصراً على المفاوضات والاتفاقات السالفة التي أتى على أساسها إلى فلسطين، ويظهر هذا في قول ابن واصل في حديثه عن المفاوضات بين الطرفين: "وأبى ملك الإفرنج أن يرجع إلى بلاده إلا بما وقع الشرط عليه من تسليم القدس إليه، وبعض الفتوح الصلاحي ، وامتنع الملك الكامل أن يسلم إليه كل ذلك"[١].

ويبدو أن الكامل كان قد أعلن صراحةً لفردريك أنه كان مستعداً لإعطائه بيت المقدس ثمناً للمساعدة التي سيقدمها له ضد أخيه المعظم، أما وقد تبدلت الظروف، واستغنى السلطان الكامل عن تلك المساعدة، فقد سقطت عنه دفع تلك الضريبة، ويبدو أن أشد ما كان يؤرق الكامل ويخيفه من تنفيذ وعده للإمبراطور هو شعور المسلمين عامة، ويتضح ذلك من جملة ما تلاه فخر الدين على فردريك، حيث قال له: "سيدي؛ لقد طلبت إلى السلطان أن يتخذكم صديقاً وأخاً؛ لذلك فهو يطلب إليكم بألا تطالبوه بأشياء يعجز عن إجابتها، أما إذا أردتم التقدم باقتراحات عملية فهو على أتم الاستعداد لمناقشتها، وبالنسبة لما تقدم به مندوبكم فالسلطان يرى أنه طلب مستحيل، ليس لقيمته المادية وإنما لما قد يصاحبه من لوم" ، "لذلك لا يمكنه إجابتكم الى طلبكم مخافة أن يُصَبُّ عليه غضبُ المسلمين"[٢].

وكي لا يغلق فخر الدين باب المفاوضات مع الإمبراطور طلب منه إعادة إرسال رسله معه إلى الكامل ووعده بمساعدة الرسل لتحقيق تقدم في المفاوضات لدى الكامل ، وبالفعل أرسل الإمبراطور رسله مع فخر الدين، وطالبوا الكامل على لسان فردريك بالوفاء بالوعود التي وعدها له، والتي كان منها سيطرة فردريك على بيت المقدس وإعادة إحياء المملكة الصليبية الأولى، وترددت الرسل بينهما حتى انقضى عام ٦٢٥هـ[٣].

---

(١) ابن واصل: مفرج الكروب، ج٤، ص٢٤١. للاستزادة أنظر: خريسات: السياسة الأيوبية ، ص٢٤١ – ٢٤٢.
Holt, P.M, The Age of the Crusades, (The Near East From Eight Century to 1517), London, 1986, p.64.
Stevenson, W.B, :the Crusaders in the East, slim press, Beirut, 1968, p. 311.

(٢) حمزة: العلاقات السياسية، ص٣٠٦. وللاستزادة أنظر: عاشور: الحركة الصليبية ٢، ص٢٤٨. ورنسيمان: تاريخ الحروب، ج٣، ص٣٢٩.

(٣) الحموي: التاريخ المنصوري، ص ١٦٤.المقريزي: السلوك، ج١، ص٣٥١.

يبدو أن الكامل تعمد إطالة أمد المفاوضات وأوحى لنائبه ورسوله بها (فخر الدين) بذلك، وربما كانت غاية الكامل من ذلك الانتهاء من حصار دمشق ودخولها، وتصفية الخلافات مع بقية أفراد البيت الأيوبي، والقول إن فردريك لجأ لمثل هذا الأسلوب في المراوغة وإطالة أمد المفاوضات هو مجازفة للواقع، فمضي الوقت لم يكن في صالح فردريك ، وظهر جلياً أنه في عجلةً من أمره، فهو أتى من أوربا ليتسلم القدس ويثبت حقوقه بمملكته الجديدة ثم يمضي عائداً لمتابعة صراعاته الغربية في أوربا ، وربما كان لجوء فردريك إلى العمل العسكري كورقة ضغط على الكامل المنهمك في مشاغله الداخلية – سيأتي شرحها– دليلاً على ذلك، وقد أقدم على ذلك على الرغم من عدم استعداده وعدم رغبته في القيام بأعمال عسكرية.

**ثالثاً: من التصعيد العسكري إلى التهدئة والصلح، وما بينهما من تحديات**

أدرك الكامل تماماً نقطة الضعف لدى فردريك وهي ضيق الوقت لديه فراح يستغلها أفضل استغلال وذلك بإطالة أمد المفاوضات، وعلى الرغم من الذكاء ودماثة الخلق والصفات الحسنة التي شُهر بها فردريك إلا أنه لم يمتلك من الحلم ما يجعله يفهم أو يتماشى مع الوتر الذي عزف عليه الكامل، وربما أن السبب في ذلك هو ضيق الوقت لديه فطاش عقله وساء تصرفه وبدأ يتخبط في محاولات الضغط على الكامل، فقرر – ربما بدون تفكير أو تخطيط– تأييد العمل العسكري تجاه الكامل لإرغامه على إنهاء مسلسل المفاوضات والركون إلى الصلح مستغلاً المشاغل التي انشغل بها الكامل وعلى رأسها خلافه مع النظام الحاكم في دمشق، فعند وصول فردريك إلى عكا وجد الصليبيين على السواء (الحجاج الجدد وصليبيي المملكة) قد شرعوا في تحصين قيسارية وفي نيتهم الاستيلاء على يافا والقدس، وهنا قرر فردريك علناً المشاركة في الهجوم على يافا، وقام في منتصف تشرين الثاني عام ١٢٢٨م بحشد قواته قربها، وأعلن استعداده لشن حرب كبيرة ضده وضد القدس، كما أعلن أن الأوامر سوف تصدر للجيش باسم الرب والمسيحيين، وفي الوقت نفسه أرسل إلى هنري حاكم مالطا ليرسل له ٢٠ سفينة حربية[١].

وهنا لابد من التوقف قليلاً لمعالجة قضية مهمة، وهي حجم وإمكانية وفاعلية جيش فردريك.

فهل كان فردريك جاداً في عمله العسكري ذاك؟

---

[١] ويندوفر: ورود التاريخ، ج٢، عن الموسوعة، ج٤٥، ص٨٧٨-٨٧٩. حمزة: العلاقات السياسية، ص٣٠٨.

وهل تجمع لدى فردريك من القوة العسكرية ما يجعله يحقق نصراً على الكامل؟

وهل شكل هذا العمل والتهديد العسكري خطراً حقيقياً على الكامل؟ وهل كان ذلك مسوغاً له للنزول إلى الحل السلمي وتوقيع صلح يافا؟

بدايةً لابد من معالجة حجم القوة العسكرية لدى فردريك وإمكانياتها، وليس البحث هنا للتفصيل في ذلك بالقدر الذي هو لمعرفة الأسباب والظروف التي جعلت الكامل يتساهل مع فردريك ويخضع لطلباته في القدس وغيرها.

معظم المصادر والمراجع تبالغ في تحجيم هذه القوة العسكرية التي كانت لدى فردريك، لدرجة أن بعضها يصف حملته بأنها رحلة سياحية أو دبلوماسية أتى بها على رأس خمسمئة مقاتل فقط، دون الإشارة إلى ما سبقه إلى عكا من فرق عسكرية وغيرها ، فرنسيمان يذكر أنه "لم يكن بوسع فردريك أن يقوم بحملة ضخمة في الشرق"[١].

ومع إقرار البحث بضعف إمكاناته وقلتها، ولكن يمكن القول إنه كان لديه من القوة العسكرية ما يكفي للقيام ببعض الأعمال العسكرية على أطراف مملكة القدس اللاتينية كالتجمع عند يافا في ٢٥ تشرين الثاني عام ١٢٢٨م، وإعادة بناء استحكاماتها المهدمة وتحصينها من جديد والتهديد بغيرها كما تقدم ذكره، ويذكر ويندوفر أن الصليبيين جميعهم شاركوا بذلك العمل، بما فيهم مَن بقي من الحجاج الجدد في عكا تحت قيادة دوق ليمبورغ Limburgh والذين بلغ عددهم ثمانمئة فارس، وبطريرك القدس، ورؤساء أساقفة الناصرة، وقيسارية، ونربونة، وبعض الأساقفة الانكليز، وجماعات الاسبتارية والداوية والتيوتون، وبلغ عدد الجميع حوالي أحد عشر ألف مقاتل، وهو عدد لا بأس به.[٢] وقام الصليبيون الألمان بنهب الكثير من القرى الإسلامية القريبة من يافا، فرد الكامل على ذلك بقطع المفاوضات مع فردريك بسبب نهب الألمان لتلك القرى[٣].

---

[١] رنسيمان: تاريخ الحروب، ج٣، ص٣٢٥-٣٢٦ وللاستزادة أنظر: المرجع نفسه ص ٣٢٩.

[٢] ويندوفر: ورود التاريخ، ج٢، ص٨٧٨، عن الموسوعة ، ج٤٥، ص٨٧٨.

[٣] عاشور: الحركة الصليبية، ٢، ص٢٤٨. حمزة: العلاقات السياسية، ص ٣٠٨-٣٠٩. حومد: تاريخ الجهاد، ج٢، ص٢٤٦.

ومع وصول العديد من السفن المحملة بكميات كبيرة من القمح، والشعير، والخمر، ومختلف أنواع الإمدادات إلى يافا[١]، بما يعني تحسن وضع فردريك العسكري؛ إلا أنه كان هناك العديد من **التحديات التي واجهته**، وكانت بدايتها مع قرار الحرمان الثاني الذي أصدرته الكنيسة بحق فردريك، بسبب استمرار عدائه لها، وبسبب خروجه في تلك الحملة دون أن يحصل على تحلل من قرار الحرمان الأول الذي سبق صدوره بحقه في ٦٢٥هـ/ تشرين الثاني ١٢٢٧م[٢]. ولا بدَّ أن قرار الحرمان أثَّر في قيادة فردريك ومدى انصياع عساكره له الذين يهمهم عدم الإساءة إلى الكنيسة التي قطعت فردريك للمرة الثانية على التوالي، ولا يستبعد أن قسماً منهم بادر بالعودة إلى بلاده.

ليس ذلك فقط وإنما أتاحت البابوية لرعاياها الاعتداء على ممتلكات الإمبراطور فردريك، ونشرت اشاعة في الغرب بأن الإمبراطور فردريك قد مات، وادعى البابا لنفسه حق الوصاية على إمبراطوريته[٣].

ومن التحديات المهمة التي واجهت فردريك آنذاك – وهو في عكا- الأنباء التي بدأت ترده من إيطاليا عن نائبه رينالد دوق سبوليتوم الذي أخفق في الهجوم الذي شنه على أطراف أنكونا ، وأن البابا تحالف مع جان دي بريين- الملك السالف لمملكة القدس- وأخذا يحشدان قوة كبيرة بهدف السيطرة على إمبراطوريته كاملةً، وأن ملك انكلترا أعلن استعداده لمساندة البابا في صراعه مع الإمبراطور[٤].

كما أن البابوية أخذت تسعى إلى نقل ميدان الصراع مع فردريك من الغرب إلى الشرق، ولم تعد قضيتها معه قضية صليبية، وإنما قضية إمبراطور عاق خرج عن سلطتها، وكال لها الاتهامات[٥]، ولا بدَّ أن البابوية عملت على تجنيد كثير من الصليبيين في الشرق للوقوف ضد الإمبراطور ولوضع العقبات أمام مشروعه، مما جعل الفُرقة تستشري بين الصليبيين.

ولم تكن تلك الإجراءات والسياسات تخفى عن الإمبراطور، مما أضعف موقفه في الوقت الذي توجَّب عليه أن يسعى جاهداً لإنجاح مشروعه في الشرق الفرنجي بهدف تقوية رصيده الشعبي والسياسي في

---

[١] ويندوفر: ورود التاريخ، ج٢،ص٨٧٩، عن الموسوعة ، ج٤٥، ص٨٧٩.

[٢] ويندوفر: ورود التاريخ، ج٢،ص٨٦٢، عن الموسوعة، ج٤٥،ص٨٦٢-٨٧٠. رنسيمان:تاريخ الحروب، ج٣، ص٣٢٥. النهار، عمار: هكذا سلم هؤلاء بيت المقدس للفرنج الصليبيين، مؤسسة فلسطين للثقافة، ط١، ٢٠١١م، ص٧١.

[٣] عاشور: الحركة الصليبية، ج٢، ص٢٤٨.

[٤] الراهب الدومينيكاني، عن الموسوعة، ج٤٣، ص١١٦٨. ورود التاريخ، ج٢ ، عن الموسوعة، ج٤٥، ص٨٨٧.

[٥] عن هذه الاتهامات انظر: ويندوفر: ورود التاريخ، ج٢ ، عن الموسوعة، ج٤٥، ص٨٧١-٨٧٣.

أوربا، ومن ثم دعم قضيته تجاه البابوية، وتضافر ذلك مع برود العلاقات بينه وبين بقية الصليبيين وعدم تلقيه المساعدة الكافية منهم؛ إذ إن رنسيمان يذكر: "الواقع أن كثير من الأتقياء الورعين رفضوا التعاون معه ومن هؤلاء البطريرك جيرولد، ولم يكن عند الداوية والاسبتارية ما يدعوهم للتعاون مع رجل تقرر قطعه من الكنيسة"[١].

يضاف الى ذلك أن الكامل قد أعلمه من قبل بأن بارونات مملكة القدس – ولاسيما الداوية والاسبتارية– يأتمرون عليه، وأنهم قد كاتبوه بهذا الغرض، قائلين له – للكامل–: "إذا حصل مصافٌّ نمسك الأنبرور، فسيَّر إلى الأنبرور كتبهم وأوقفه عليها"[٢]، ولا شك أن هذا الأمر شكل تحدياً عظيماً لفردريك، وأنه أخذ يخشى غدر صليبيي مملكة القدس به، وطعنهم له من الخلف.

وهنا يتساءل الباحث عن الخيارات التي كانت أمام فردريك؟ وماهي أنجع السُبل التي كان يجب أن يتخذها للخروج من المأزق الذي وقع به؟

هل يجازف في حرب حاسمة مع المسلمين لتقوية رصيده الشعبي، أم أنه ينسحب من بلاد الشام إلى إمبراطوريته لمواجهة سياسات البابوية العدائية تجاهه؟

هل توجَّب على فردريك العودة إلى طاولة المفاوضات مع الكامل، والتزام جانب الهدوء والملاينة؟

هل هذه التحديات تُعدُّ مسوغاً للإمبراطور فردريك كي يتخلى عن فكرة المواجهة العسكرية مع المسلمين واللجوء إلى الطرق الدبلوماسية؟

هل فكر فردريك بالتحالف مع النظام القائم في دمشق ومن ورائه الخوارزمية –أعداء الكامل– للضغط على الأخير؟

لا شك أن الأخبار التي وصلته من أوربا كان لها أثرها السيء فيه مما جعله يحسب ألف حساب قبل خوض أي معركة مع المسلمين، ولاشك أنه شعر بضرورة عودته إلى إمبراطوريته في أوربا، ولكن عودته مخفقاً سيزيد الطين بلة، وسيزداد موقفه حرجاً أمام الرأي العام في الغرب الأوربي.

---

[١] رنسيمان: تاريخ الحروب، ج٣، ص٣٢٥.

[٢] الذهبي: تاريخ الإسلام، ج٤٥، ص٣٠. العبر في خبر من غبر، ج٣، ص١٩٥. للاستزادة أنظر، التاريخ الكبير، ج٣، عن الموسوعة، ج٤٨، ص٨٥٨.

وهنا يجب ملاحظة إمكانية أن فردريك -على الرغم من عدائه ومعاداة دمشق له - إلا أنه توجّب عليه دعم النظام الحاكم بها سواءً بشكل مباشر أم غير مباشر لمناوأتها وسياستها العدائية للكامل، مما يضعف أو يضغط على موقف الأخير تجاه فردريك، إلا أنه لا يوجد بين الوثائق ما يثبت ذلك، كما أنه لا يوجد ما يدعم فرضية أن فردريك اتصل مع الخوارزمي لتشكيل حلف ضد الكامل.

ويضاف إلى ذلك أن فردريك لم يشأ أن يدخل في حرب مفتوحة ضد الكامل، وذلك لعدم التماسه مساعدة حقيقية له من قِبل صليبيي مملكته ( مملكة القدس اللاتينية الثانية)، بالإضافة إلى أوضاع إمبراطورتيه المتردية في أوربا، ويبدو أنه أدرك سوء تصرفه بلجوئه إلى الأسلوب العسكري والتصعيد السياسي مع الكامل، كما يمكن القول إن لجوء فردريك إلى هذا الأسلوب وحاجته لحشد مزيد من الجنود أدى إلى إدراكه حجم التحديات التي تواجهه والتي كان غافلاً عنها؛ لهذا آثر العودة إلى الجانب السلمي والمضي قدماً في المفاوضات مع الكامل التي كان قد قطعها معه على خلفية اعتداءات الألمان على القرى الإسلامية، فأرسل له يعتذر عن نهب الألمان لتلك القرى، وقبِل دفع تعويض عن الخسائر التي لحقت بها، وذلك كله مقابل استئناف المفاوضات من جديد مع الكامل[١].

ولا بدَّ أن أخبار فردريك كانت ترد الكامل، وعرف الأخير من خلالها مواطن الضعف لدى الأول، فتباطأ في المفاوضات، وأخذ يماطل بها قدر الإمكان، وفردريك يلح عليه بإنهائها، وإزاء ذلك لجأ الأخير إلى سلاح الاستعطاف والتذلل للكامل في رسائله معه، فكان من ضمن تلك الرسائل رسالة يقول بها فردريك: "أنا عتيقُك وأسيرُك، وأنت تعلم أني أكبر ملوك البحر، وأنت كاتبتني بالمجيء، وقد عَلِمَ البابا وسائر ملوك البحر باهتمامي وطلوعي، فإن رجعتُ خائباً انكسرت حرمتي بينهم، وهذه القدس فهي أصل اعتقادهم وحجهم، والمسلمون قد أخربوها، وليس لها دخلٌ طائل، فإن رأى السلطان -أعزه الله- أن يُنعم عليَّ بقصبةِ البلد، والزيادة تكون صدقة منه، وترتفع رأسي بين الملوك، وإن شاء السلطان أن يكشف عن محصولها، وأحمل أنا مقداره إلى خزائنه فعلتُ"[٢].

---

[١] حمزة: العلاقات السياسية ، ص٣٠٩. حومد: تاريخ الجهاد، ج٢، ص٢٤٦.

[٢] الذهبي: تاريخ الإسلام، ج٤٥، ص٣٠. للاستزادة أنظر: العبر في خبر من غبر، ج٣، ص١٩٥. المختار من تاريخ ابن الجزري: ص١٤٤. Maher Y: Sultan al-Kamil, Emperor Frederick II, Vol 3, No 5, September 2013, p. 445.

ويبدو أن فردريك وصل -نتيجة التحديات التي واجهها- إلى النتيجة نفسها التي وصل إليها البحث، وهو أنه على الرغم من كل الإمدادات التي وصلته وكل قوى الفرنج في الشرق إلا أنه لم يكن بوسعه حشد جيش قوي قادر على توجيه ضربة حاسمة للكامل ومن ورائه المسلمين، كما أنه لم يكن يلوح في الأفق أي مقوم من مقومات نجاح حملته.

هنا يرد السؤال: ما الذي جعل الكامل يخشى فردريك ويستجيب لمطالبه في توقيع الصلح؟

ما لذي كان يدور في خلد الكامل؟

ما هي التحديات التي واجهت الكامل وأدت إلى توقيع الصلح؟

أما عن التحديات وظروف الكامل التي ساعدت على الميل إلى التهدئة وقبول الصلاح مع فردريك فيمكن القول:

إن وضع الكامل كان أفضل من وضع فردريك، ولا شك أن الكامل كان يدرك تماماً ضعف موقف فردريك وضعف القوات العسكرية لديه، وربما أنه كان على يقين أن فردريك لا يمكنه أن يقوم بحرب مفتوحة ضده، إلا أن المقريزي يذكر أن الكامل "تورط مع ملك الفرنج وخاف من غائلته عجزاً عن مقاومته"[١].

ولا يمكن تفسير نص المقريزي إلا في حال خشية الكامل من توحّد الأطراف الصليبية واجتماع كلمتهم للقيام بعمل حربي ضده تحت قيادة فردريك، وهذا جائزٌ الاعتقاد به، إذ إنه على الرغم من الخلاف والصراع الكبير بين فردريك وبقية الصليبيين في مملكة القدس اللاتينية، وسعي الجميع -بتحريض من البابوية- لإحباط مشروع فردريك إلا أن المراجع تذكر أنه مع أن الاسبتارية والداوية وبرتراند أوف سيزي رفضوا صراحةً مساعدة الإمبراطور المحروم كنسياً إلا أنهم تبعوه في الطريق من عكا إلى يافا في تشرين الثاني ١٢٢٨م، وساروا على بعد يوم واحد من جيش فردريك، وربما السبب هو خشيتهم من هجوم اسلامي عليه، وأعلنا أنهما "لا يخدمان في جيش الإمبراطور بل في جيش المسيح"[٢].

---

[١] المقريزي: السلوك، ج١، ص٣٥٤.

[٢] دي نافار: حروب فردريك، عن الموسوعة، ج٣٥، ص٤٣-٤٤. للاستزادة أنظر: Setton.K.M:OP.cit, p454.

هذه الرواية تشير إلى أن تحالف الصليبيين ضد الكامل جائز، وإذا تم ذلك فهذا يعني وقوع الأخير بين عدوين قويين، هم الفرنج من جهة وابن أخيه الناصر داود من جهة أخرى، ويضاف إليهم الخوارزمي من جهة ثالثة.

وإذا كان الكامل لا يخشى تحالف تلك الأطراف ضده – مع أن ذلك جائز– إلا أنه لا يمكنه غض النظر عن قبرص ودورها في إمداد فردريك فيما يحتاجه من مساعدات؛ لأن الأخير قد أخضعها لسلطته قبل وصوله إلى بلاد الشام، وهنا يجب ألا يستهان بقوة فردريك التي تمكنت من إخضاع قبرص، وجعلها تحت إدارته كقاعدة ومخزن وخط إمداد له، يضاف إلى ذلك ما تقدم ذكره عن القوة العسكرية التي تجمعت لفردريك قرب يافا، وما قامت به من تخريب للقرى المجاورة لها، وعلى الرغم من صغر ذلك الجيش وضعف إمكانياته، وعدم قدرته على تشكيل خطر حقيقي على الكامل ؛ إلا أن ذلك الجيش كان قادراً على إثارة مخاوف الأخير وإرغامه على عدم تجاهله لهم، ولاسيما أنه مشغول في صراع داخلي مع أبناء بيته بهدف السيطرة على دمشق.

وعلى هذا فإن استمرار الكامل في صراعه بمفرده مع تلك القوى – وإن كانت غير متحدة ضده – قد يطول، ومضي الوقت لم يكن في صالحه، وبناءً على ذلك يبدو أنه قرر مهادنة فردريك وعقد صلح معه، وربما أن الذي ساعده على اتخاذ ذلك القرار هو الصداقة القديمة والعلاقة بين الرجلين منذ أن كان الكامل نائباً عن أبيه العادل في مصر، وما اتسم به كلاهما من تقارب فكري وثقافي وتسامح ديني.

ومن التحديات التي واجهت الكامل آنذاك الصدام الذي قد يحدث مع فردريك في حال لم يتم توقيع اتفاق بينهما، وربما يؤدي ذلك إلى حملات صليبية أخرى متعاقبة في الوقت الذي كان فيه الشرق أحوج إلى السلام منه إلى الحرب، لِما وقع فيه من صراعات داخلية وتحديات خارجية، كان أهمها خطر الخوارزمية، وربما أن الكامل رأى أنه بتوقيع صلح مع فردريك سيُتاح له فرصة مواصلة غزواته العسكرية دون أن تقلقه حركة صليبية جديدة، كما سيُتاح له الفرصة لتنظيم شؤون الدولة الأيوبية والوقوف ضد الخوارزمية.

يضاف إلى ذلك الدور الخطير والمهم الذي شغله فخر الدين بن شيخ الشيوخ بإقناع الكامل بهذا الصلح، وهنا لابد من التوقف قليلاً عند دور فخر الدين، حيث تذكر المصادر أن علاقته توثقت كثيراً مع فردريك ومنحه الأخير وسام الفروسية –كما تقدم ذكره– وجرى بينهم أحاديث وجلسات كثيرة، حيث

يقول ابن واصل: "وكانت تجري بينهما محاورات في أشياءِ شتى"[١]، وتذكر المصادر أحاديث وجلسات كثيرة تمت بين الرجلين اتسم معظمها بالود والصداقة المتبادلة، كان من بينها الحديث عن حكماء العرب والشاعر المتنبي والدين الإسلامي، وعن الجنة والنار والروح، وغيرها من المسائل، كما تطرّق الحديث بينهما إلى مؤسستي الخلافة والبابوية، فأبدا فردريك اعجابه بالخلافة والخليفة، لصلة الأخير بالرسول محمد ﷺ، وأبدى احتقاره للبابوية والبابا، كون الأخير لا يمت بصلة إلى المسيح عليه السلام[٢].

والخلاصة لا بد أنه كان لفخر الدين دور خطير في استمرار وتقدم المفاوضات بين فردريك والكامل،[٣] وظهر هذا جلياً وواضحاً عندما أرسل الإمبراطور -بعد وصوله الى عكا- إلى الكامل يطالبه بوعده له واعطائه القدس، فرد عليه الكامل بأن طلبه مستحيل ، ولا يمكن تحقيقه، وتعثرت المفاوضات بين الطرفين، فطلب فخر الدين من الإمبراطور أن يرسل معه رسولاه -توماس الأكويني وباليان- ثانيةً الى الكامل، ووعده بمساعدتهما بدفع المفاوضات مع الكامل الى الأمام.

والذي يهم هنا أن فردريك كان داهيةً إلى الحد الذي يستطيع به أن يحقق الكثير مما يريده بالأسلوب الدبلوماسي وبالاعتماد على صداقاته ومراسلاته السرّية، فاعتمد أسلوب الاستعطاف مع الكامل بدرجة كبيرة لدرجة أنه جرّد نفسه من أسلحته الشخصية -الخوذة والسيف ودرع الرأس- وأرسلها إلى الملك الكامل[٤].

---

[١] ابن واصل: مفرج الكروب، ج٤، ص٢٤٢. للاستزادة أنظر، نضال: أسرة شيخ الشيوخ، ص١٢٠-١٢١.

[٢] ابن واصل: مفرج الكروب، ج٤، ص٢٥١. للاستزادة أنظر، نضال: أسرة شيخ الشيوخ، ص١٢٠-١٢١.

[٣] انظر: دي نافار: حروب فردريك، عن الموسوعة، ج٣٥، ص٤٣.

[٤] حمزة: العلاقات السياسية، ص٣١٣.

## رابعاً: صلح يافا وشروطه ٢٢ ربيع الأول ٦٢٦ هـ/ ١٨ شباط ١٢٢٩م

نجح أسلوب فردريك الاستعطاف والاسترحام في التأثير في الكامل أيما نجاح، وحقق ما لم يحققه السيف والجيوش الجرارة آنذاك، تزامن هذا الأسلوب مع الأسباب والظروف التي أحاطت بالكامل- كما تقدم ذكرها- وأهم من كل ذلك هو ما شُهر به الكامل من التسامح والبعد عن التطرف لدرجة أنه ضحّى بأغلى ما تملكه بلاد الشام آنذاك؛ وهو القدس الشريف.

والمهم هنا أن المراسلات العلنية انتهت بمراسلات سرية كان آخرها رسالة وجهها الكامل من موقعه في تل العجول إلى فردريك، وبها التنازلات والشروط النهائية للصلح، ويبدو أن فردريك قبلها على حالها دون أي اعتراض أو تعديل، واجتمع ممثلون عن الطرفين في يافا في ٢٢ ربيع الأول سنة ٦٢٦هـ / ١٨ شباط سنة ١٢٢٩م، وتم التوقيع على اتفاقية الصلح والمساومات والتنازلات، وحمل الصلح اسم المدينة التي وُقِع بها ( صلح يافا )[١].

وحضر كممثلين عن الإمبراطور مقدم الفرسان التيوتون - هيرمان فون سالزا Herman von Salza-، واسقفا اكسترو وينشيستر، وعن الكامل حضر فخر الدين بن شيخ الشيوخ وصلاح الدين الأربلي، ثم حلف على الاتفاقية كل من الكامل وفردريك[٢].

وبعد العودة إلى نصوص هذه المعاهدة في أغلب الروايات الإسلامية والعربية واللاتينية وبعد نقدها وتحليلها ومقارنتها واختصارها، يمكن القول إن الاتفاقية نصت على الآتي:

١- تُسَلَّمُ إلى فردريك ومن وراءه ضباطه وحاشيته كل من المناطق الآتية: بيت المقدس (باستثناء قراها)، وبيت لحم ، وكافة القرى الواقعة على طريق عكا- القدس، والمناطق من عكا إلى يافا، وأرض تورون Turon (غرب الجليل) وملحقاتها، بالإضافة إلى صيدا، وقيصرية[٣]، ثم لحقت

---

[١] خريسات: السياسة الأيوبية، ص٤٢.

[٢] رنسيمان: تاريخ الحروب، ج٣، ص٣٣٠. حمزة: العلاقات السياسية، ص ٣١٤.

[٣] سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان، ج٢٢، ص٢٩٦. اليونيني: ذيل مرآة الزمان، ج١، ص١٢٩. أبو الفداء: المختصر، ج٣، ص١٤١. المقريزي: السلوك، ج١، ص٣٥٣. ويندوفر: ورود التاريخ، ج٢، ص٨٩٣، عن الموسوعة، ج٤٥، ص٨٩٣. دي نافار، عن الموسوعة، ج٣٥، ص٤٥. غوانمة : معاهدات الصلح، ص ٦٨. هكذا سلم هؤلاء بيت المقدس، ص٦٢-٦٣. حمزة: العلاقات السياسية، ص٣١٤.

بهذه المناطق تِبْنِيْنُ[١] وأعمالها بناءً على طلب الإمبراطور من الكامل؛ لأن صاحبتهما بنت الهنفري دخلت على الإمبراطور وسألته ذلك [٢].

٢- لفردريك حرية تنظيم هذه المناطق وفقاً لإرادته، إلا أنه لا يتم تحصين أي منها ولا تجدد أسوارها، وتبقى خراباً على حالها[٣]. وتضيف المصادر اللاتينية أنه لا يحق للسلطان الكامل ترميم أو إعادة بناء أي من حصونه أو قلاعه[٤]، في حين لا يوجد أي إشارة لمثل ذلك في المصادر العربية – الإسلامية.

٣- للمسلمين الحق في حرية الوصول إلى أماكن الزيارة لديهم في بيت لحم والأماكن المقدسة الأخرى في ديانتهم.[٥]

٤- يكون الحرم الشريف وما حواه من مناطق (قبة الصخرة والمسجد الأقصى ومسجد عمر) بأيدي المسلمين، ولا يدخلها الفرنج – أياً كانت الجنسية- إلا للزيارة فقط، ويمارس فيه المسلمون شعائرهم دون أي اعتراض ، ويتولاها قوّام مسلم[٦].

٥- تبقى مفاتيح الأبواب الفاصلة بين المنطقتين (المنطقة التابعة للفرنج والأخرى التابعة للمسلمين) في أيدي المقيمين من المسلمين، وذلك لصيانتها والاهتمام بها، ويقيم الوالي على قرى القدس التابعة لمنطقة المسلمين في البيرة ، وهي من أعمال القدس في جهة الشمال، ولا يدخل الصليبيون هذه المناطق إلا بغرض الزيارة فقط[٧].

---

[١] هو حصن يقع بين دمشق وصور، بناه الصليبيون في عام ٤٩٨هـ/ ١١٠٥م لأغراض حربية، في قبالة صور، ومطل على بانياس. معجم البلدان، ج٢، ص١٤. مراصد الاطلاع، ج١، ص٢٥٣. الموسوعة الفلسطينية، بيروت ودمشق، ط١، ١٩٩٠م، مج٢، ق٢، ص٣٧١، ٣٩٠.

[٢] ابن الأثير: الكامل، ج١، ص٣٥٤. ابن العميد: أخبار الأيوبيين، ص١٦.

[٣] ابن واصل: مفرج الكروب، ج٤، ص٢٤١. أبو الفداء: المختصر، ج٣، ص١٤١. المقريزي: السلوك ، ج١، ص٣٥٣. هكذا سلم هؤلاء بيت المقدس، ص٦٢. حمزة: العلاقات السياسية، ص٣١٤. خريسات: السياسة الأيوبية، ص ٤٢. عاشور: الحركة الصليبية، ج٢، ص٢٤٩.

[٤] ويندوفر: ورود التاريخ، ج٢، ص٨٩٣، عن الموسوعة، ج٤٥، ص٨٩٣.

[٥] دي نافار، عن الموسوعة، ج٣٥، ص٤٥.

[٦] ابن واصل: مفرج الكروب، ج٤، ص٢٤١. المقريزي: السلوك، ج١، ص٣٥٣. دي نافار، عن الموسوعة، ج٣٥، ص٤٥.

[٧] ابن واصل: مفرج الكروب، ج٤، ص٢٤١. حمزة: العلاقات السياسية،ص٣١٤. غوانمة ، يوسف حسن: معاهدات الصلح بين المسلمين والفرنج، دار الفكر، عمّان، ط١، ١٤١٥هـ/١٩٩٥م ، ص٦٨.

٦- يسمح للفرنجة بالدخول إلى منطقة الحرم للصلاة، شرط إظهار الاحترام اللائق بالمسجد - بيت الله.[١]

٧- تعهد الإمبراطور بألا يقدم المساعدة لأي فرنجي يخالف النائب أو يقوم بعمل ضد المسلمين طوال مدة المعاهدة، وفي حال قيام أي حرب فإن الإمبراطور يتعهد بعدم محالفة أي جيش له دور في الصراع، كما يتعهد بالعمل على منع مجيء أي حملة أوربية تقصد الاعتداء على أملاك الكامل[٢].

٨- لا يسمح للمصريين ببناء أي حصن جديد، أو إعادة بناء أي حصن قديم طوال مدة الهدنة.[٣]

٩- إذا حدث نزاع بين مسلم ومسلم آخر في القدس فيحاكم أمام محكمة إسلامية ، أما المسيحيون فيحاكمون أمام محكمة مسيحية.[٤]

١٠- إطلاق سراح الأسرى لدى الطرفين، ولاسيما الذين أسروا من حملة الأطفال سنة ١٢١٢م، وفي الحملة الخامسة[٥].

١١- لم تدخل في الاتفاقية كل من طرابلس وأنطاكية[٦]، وحصون طرطوس والمرقب وصافيتا والكرك (هي حصون تتبع الداوية أو الاسبتارية) ، وسوف تترك على وضعهما، والإمبراطور يحذر أتباعه وقواته المقيمين في تلك المناطق من التعامل مع أمرائها أو مساعدتهم[٧].

١٢- يكون هناك صلح وسلام بين الإمبراطور فردريك الثاني والسلطان الكامل خلال مدة المعاهدة، وتختلف هذه المدة بين مصدر وآخر، فبعض المصادر العربية لم تأت على ذكر مدتها[٨]،

---

[١] دي نافار، عن الموسوعة، ج٣٥، ص٤٦.

[٢] دي نافار، عن الموسوعة، ج٣٥، ص٤٦. غوانمة : معاهدات الصلح، ص ٦٨. سعداوي، نظير حسان: الحرب والسلام زمن العدوان الصليبي، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٦١م، ص ٩٤.

[٣] هذا البند لا يوجد سوى في المصادر اللاتينية، ولا يوجد ما يؤيده في المصادر العربية. دي نافار، عن الموسوعة، ج٣٥، ص٤٧. ويندوفر: ورود التاريخ، عن الموسوعة، ج٤٥، ص٨٩٣.

[٤] دي نافار، عن الموسوعة، ج٣٥، ص٤٦.

[٥] دي نافار، عن الموسوعة، ج٣٥، ص٤٧.حمزة: العلاقات السياسية، ص٣١٥.

[٦] يبدو أنه تم استبعادهما رغبة من الإمبراطور فردريك، وذلك لِما سببه له صاحبهما من مشاغل ومتاعب.

[٧] دي نافار، عن الموسوعة، ج٣٥، ص٤٦.

[٨] ابن واصل: مفرج الكروب، ج٤، ص٢٤١. اليونيني: ذيل مرآة الزمان، ج١، ص١٢٨-١٢٩.ابن الأثير: الكامل ، ١٠، ص٤٣٥.

وبعض هذه المصادر اكتفت بذكر مدتها بعشر سنوات كالنويري في كتابه نهاية الأرب[١]، بينما يذكر ابن العميد والمقريزي أن مدتها "عشر سنين وخمسة أشهر وأربعون يوماً"[٢].

بينما تذكر بعض المصادر الصليبية والغربية أن مدتها "عشر سنين"[٣]، ويتفق دي نافار مع ابن العميد والمقريزي في المدة،[٤] بينما يذكر رنسيمان[٥] أن مدتها عشر سنوات بالتقويم المسيحي وعشر سنوات وخمسة أشهر بالتقويم الهجري.

ومن خلال ذلك يصل البحث إلى أن الخلاف في تحديد المدة يعود للخلاف البسيط بين عدد أيام كل من السنة الهجرية والميلادية، لهذا يمكن القول إن مدة المعاهدة كانت عشر سنوات ميلادية، ومن المفترض أن يقابلها بالتقويم الهجري عشر سنوات وثلاثة أشهر وعشرون يوماً.

١٣- يحدد يوم ٢٨ ربيع الأول ٦٢٦هـ / ٢٤ شباط ١٢٢٩م بدء تاريخ سريان المعاهدة[٦].

تلك بنود الاتفاقية التي تتفق عليهما أغلب المصادر العربية واللاتينية المتأخرة. أما المصادر اللاتينية المتقدمة( الصليبية بشكل خاص) فإنها تورد بنوداً ونصوصاً للاتفاقية مخالفة تماماً لما تم ذكره، وتثبت تفوق الرأي والموقف الصليبي في المهادنات وتغليب وجهة النظر الصليبية في بنود المعاهدة، وقد ورد ذلك لدى ويندوفر في نص الرسالة التي أرسلها فردريك آنذاك إلى ملك إنكلترا بمناسبة استعادة بيت المقدس، ووردت نصوص الرسالة بمجملها في خدمة ولصالح الصليبيين وتنم عن ضعف موقف المسلمين[٧].

وهنا يبدو أن أحد الرجلين ( فردريك، وويندوفر) قد غيَّر وحرَّفَ النص الأصلي للمعاهدة بغية اظهار الصليبيين بموقف مشرّف، ولكي يعزز موقف فردريك أمام الكنيسة وأوروبا بعد التحديات التي دارت بينهم، وسياق الأحداث فيما بعد معاهدة الصلح -كما سيتم شرحه عند الحديث عن التحرير الثاني لبيت المقدس- يُثبت صحة البنود التي سلف ذكرها ومنافاة حقيقة المعاهدة لما ذكره ويندوفر في

---

[١] ج٢٩، ص١٥١.

[٢] تاريخ ابن العميد: أخبار الأيوبيين، ص ١٦. المقريزي: السلوك، ج١، ص٣٥٤.

[٣] ويندوفر: ورود التاريخ، ج٢، ص٨٩٣ ، عن الموسوعة ، ج٤٥، ص٨٩٣.

[٤] حروب فردريك، عن الموسوعة، ج٣٥، ص٤٧.

[٥] تاريخ الحروب، ج٣، ص٣٣١.

[٦] المقريزي: السلوك، ج١، ص٣٥٤. حمزة: العلاقات السياسية ، ص ٣١٥.

[٧] ويندوفر: ورود التاريخ، ج٢، ص٨٩٢-٨٩٣. عن الموسوعة، ج٤٥، ص٨٩٢-٨٩٣.

رسالة فردريك إلى ملك انكلترا[١]. بالإضافة إلى أن بنود المعاهدة التي سلف ذكرها تمت بالاعتماد على مؤرخين ثقات معاصرين للأحداث، وربما شهود عيان لها أحياناً، بالإضافة إلى أن الكثير منهم لم يكونوا من رجال البلاط أو ما شابه ذلك، كما أن بعضهم أظهر عداءه السافر ومعارضته الشديدة لهذه المعاهدة كسبط ابن الجوزي الذي جلس في مجالس الوعظ في دمشق، وأشار إلى فظاعة الحدث وهول المصيبة وشهّر وشنّع بها وبمن وقعها[٢]، لو أن بها بنوداً غير التي ذُكرت لما أخفاها سبط ابن الجوزي، علماً أنه كان من أشد المقربين للأشرف والكامل.

وليس البحث هنا للدخول في تفاصيل ردود الفعل الشعبية تجاه تسليم القدس للصليبيين، فعظمة القدس تكفي لمعرفة ذلك، بالإضافة إلى أن كثير من الباحثين فصَّل في ذلك، وعلى رأسهم الأستاذ الدكتور عمار النهار في كتابه هكذا سلم هؤلاء بيت المقدس، وعلى هذا فلن يتطرق البحث إلى هذه المعلومات إلا بما يخدم عنوانه ويوضح تطور العلاقات بين الجانبين (الصليبي والأيوبي) عقِب توقيع معاهدة الصلح سالفة الذكر.

### خامساً: دور الأشرف في تسليم القدس لفردريك

جميع المصادر العربية التي تم اثباتها في الحواشي المتقدمة تورد الحديث بصيغة المفرد عند التطرق للمفاوضات التي جرت بين الكامل وفردريك، ومن ثم تورد معاهدة الصلح وتسليم القدس والشروط التي اتُفق عليها فيما بينهم، أي أن هذه المصادر لا تُشرك الأشرف بشيء من هذا القبيل، في حين أنه لا يوجد بها ما يبرؤه من ذلك.

ويستثنى من هذه المصادر كتاب الكامل في التاريخ لابن الأثير، وبه يُشرك الأشرف والكامل بحمل الوِزر واقتراف الجريمة، فيذكر بعد حديثه عن اجتماع الكامل والأشرف سنة ٦٢٥هـ/ ١٢٢٨م بشأن الشفاعة للناصر، وما حدث خلال الاجتماع من اتفاقهما عليه والتآمر ضده، فيذكر: "وترددت الرسل

---

[١] انظر: النهار: هكذا سلم هؤلاء بيت المقدس ص ٦٧.

[٢] سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان، ج٢٢، ص٢٩٦-٢٩٨. وكذلك راجع سبط: سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان، تح: مها بيطار، رسالة أعدت لنيل درجة الماجستير بإشراف أ. د سهيل زكار، جامعة دمشق ٢٠١٣، ص٦٧.

بينهما -أي الأشرف والكامل- وبين الأنبرور ملك الفرنج دفعات كثيرة، فاستقرت القاعدة على أن يُسلِّموا إليه البيت المقدَّس ومعه مواضيع يسيرة من بلاده".[١]

وفي الحقيقة فإن ابن الأثير لا يجزم باشتراك الأشرف ولا يشير إليه بشكل مباشر، كما أن ابن الأثير مرَّ على الاتفاقية (صلح يافا) مرور الكرام، ولم يذكر جميع بنودها أو تفاصيلها، لدرجة أنه لم يحدد مدتها ومكانها، في محاولة منه لتحجيم الأمر وإظهاره على أنه حدث طبيعي ليس غريب، إذ إن ابن الأثير عُرف عنه تأييده المطلق لأفعال الكامل.[٢]

ويحاول بعض الباحثين[٣] أن يثبتوا رواية ابن الأثير برواية صليبية، وهي رواية روجر ويندوفر المعاصر لتلك الأحداث أيضاً، ولا شك أن لروايته أهمية تاريخية كبيرة لا يمكن تجاهلها أو الاستغناء عنها، إلا أنه يجب مراجعتها وتفحصها بدقة، ومن الضروري إثبات النص الحرفي الذي أورده روجر ويندوفر، وهو مأخوذ من رسالة فردريك إلى ملك بريطانيا يعلمه بالصلح الذي وقَّعه مع الكامل، والمكاسب التي جناها منه، فيذكر ويندوفر: "... وفي أثناء انشغال حجاجنا بهذه المسائل - يقصد إعادة تحصين يافا وبناء قلعتها- تكرر تبادل الرسل بيننا وبين سلطان مصر؛ لأنه كان مع السلطان سلطان آخر اسمه الأشرف، وهو أخوه، وكانا معاً مع جيش كبير عند غزة، على مسافة سفر يوم واحد عنا، في اتجاه آخر لمدينة شكيم، التي تعرف بشكل عام باسم نابلس، وهي قائمة في سهل، وكان ابن أخيه سلطان دمشق مقيماً مع عدد كبير من الفرسان والجنود على مسافة سفر يوم واحد عنا وعن الصليبيين، من أجل استرداد الأرض المقدسة، تجلى أخيراً يسوع المسيح ابن الرب من الأعلى على صبرنا التقوي، ومثابرتنا الخاشعة في سبيل قضيته، وفي عطفة الرحيم علينا جعل سلطان مصر يعيد إلينا المدينة المقدسة"[٤].

ويستشهد بعض الباحثين بما ورد سالفا" عند ويندوفر بأنه أثناء تبادل الرسل مع سلطان مصر كان معه سلطان آخر هو أخوه الأشرف. إلا أن نظرة دقيقة لكلام ويندوفر يظهر أنه هو نفسه لم يجزم بأن الأشرف اشترك بهذه المفاوضات، وإنما فقط ذكر أن الأشرف كان عند الكامل عندما كان الأخير معسكراً قرب غزة، وعلى مقربة منهما ومن الجيش الصليبي كان ابن أخيهما الناصر داود، صاحب دمشق، وربما أن

---

[١] ابن الأثير: الكامل، ج١٠، ص٤٣٤.

[٢] راجع ابن الأثير: الكامل، ج١٠، ص٤٣٤-٥٣٧.

[٣] انظر: النهار: هكذا سلم هؤلاء بيت المقدس، ص٥٩ حاشية رقم ٣.

[٤] ويندوفر: ورود التاريخ، ج٢، ص٨٩٢. عن الموسوعة، ج٤٥، ص٨٩٢.

الذي أراده فردريك بهذه الرسلة وبهذه الجملة تحديداً تهويل الأمر لملك إنكلترا وإظهار مدى قوة وكثرة الجيوش الإسلامية التي تمكن فردريك من إرهابها وإرغامها على توقيع الصلح معه وتسليمه بيت المقدس، ومن ثم تعظيم حجم إنجازه لديه.

ومن خلال ما تقدم ذكره يظهر أن حقيقة الأمر هي أن الأشرف موسى والناصر داود كانا قد اتفقا في سنة ٦٢٥هـ/ م على الذهاب إلى الكامل في غزة كي يشفع الأشرف عنده للناصر داود بن أخيهما المعظم، وما حدث بعدها من اقامة الناصر في بيسان، واتفاق عميه ضده، ومن ثم عودته إلى دمشق والتحصن بها، ثم لحاق الأشرف به لمحاصرته في دمشق، وأخذها منه في العام التالي.[١]

والمهم هنا أن ويندوفر نفسه لم يقصد أن الأشرف اشترك مع الكامل في المفاوضات والتسليم، ويؤكد ذلك ما ذكره في سياق الكلام نفسه في نهاية القطعة من الرسالة التي سلف ذكرها، وهو ".. جعل سلطان مصر يعيد إلينا المدينة المقدسة"، أي أنه ذكر سلطان مصر فقط وبصيغة المفرد، ولم يُثبت أي اشارة إلى الأشرف.

وكما يُفهم من الروايات العربية فالأشرف كان على حصار دمشق أثناء توقيع الكامل لمعاهدة الصلح مع فردريك.[٢]

وفي هذه القضية يَخلُص البحث إلى نتيجة مفادها أن الأشرف موسى -وإن هو لم يشترك في المفاوضات المباشرة بشأن صلح يافا إلا أنه - صمت عن هذا الصلح، وربما باركه، ورضي به ولم يعارضه البتة، وأنه كان مؤيداً تماماً وبشكل مطلق لسياسة أخيه الكامل، وربما كان ذلك بموجب اتفاق بينهما حصل الأشرف بموجبه على دمشق مقابل تأييد أعمى لسياسة أخيه العمياء.

ويظهر من خلال نص أورده ابن نظيف أن الأشرف لم يكن بيده حق النقض لقرار الكامل؛ لذلك رضي بذلك الاتفاق، وربما اضطر لمباركته، فيذكر ابن نظيف أن فردريك عندما لجأ إلى أسلوب الاستعطاف والاسترحام مع الكامل -كما سلف ذكره- وأرسل له في ذي القعدة ٦٢٥هـ/ تشرين الأول ١٢٢٨م مذكراً بالتنازلات التي قدمها للصليبيين في أثناء الحملة على دمياط مقابل الجلاء عنها، ومنوهاً له بأنه هو

---

[١] اليونيني: ذيل مرآة الزمان، ج١، ص١٢٨-١٢٩. ابن الأثير: الكامل، ج١٠، ص٤٣٥-٤٣٦. ابن تغري بردي: النجوم، ج٦، ص٢٣٣. تاريخ الزمان، ٢٧٣.

[٢] انظر: اليونيني: ذيل مرآة الزمان، ج١، ص١٢٩.

(أي فردريك) أحق بتلك التنازلات من صليبيي الحملة الخامسة (حملة دمياط)، في إشارة منه على الإصرار على أخذ القدس وملحقاتها، فقام الكامل بإرسال صورة تلك الرسالة إلى أخيه الأشرف موسى ليستطلع رأيه فيها، فكان رد الأشرف حرفياً على حامل الرسالة -سيف الدين بن قلج-: "يا سيف الدين ما يقول عبد مملوك هو وجماعته، مهما رسمه السلطان الكامل، كان، لأنه هو سلطان البلاد، ولا يخرج أحد عن أمره، بل تسأله اتِّفاق الكَلِمة لِيجمع العساكر من البلاد إلى خدمته، ويقرر ما فيه الصلاح للمسلمين وللبيت"[١].

ومن بين المصادر العربية كلها يتفرد سبط ابن الجوزي بذكر ما يُبرِّئ الأشرف، فيذكر أن الأخير عندما ذهب إلى أخيه الكامل وهو في غزة بغرض الشفاعة عنده للناصر، "وجده قد دفع القدس للإنبرور، فشقَّ عليه، ولام الكامل"(٢). وفي ذلك تبرئة واضحة للأشرف من قبل سبط، ولكن يجب أن يؤخذ بالحسبان العلاقة الطيبة والصداقة التي كانت بين سبط والأشرف، أي أنه ممكن أن يكون سبط قد مال في ذلك إلى الأشرف، فذكر ما يبرئه من ذلك الإثم.

---

[١] الحموي: التاريخ المنصوري، ج١، ص١٦٤. سعداوي: الحرب والسلام، ص٩١-٩٢.

[٢] سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان، ج٢٢، ص٢٩٦.

## المبحث الثالث

# تطور العلاقات الأيوبية مع مملكة القدس اللاتينية الثانية عقب توقيع صلح يافا عام ٦٢٦هـ/ ١٢٢٩م

### أولاً- العلاقات بين الكامل وفردريك (التناغم السياسي والديني)

وقَّع الكامل الصلح وسلَّم القدس لفردريك آملاً في عيش رغيد وحياة هادئة مستقرة وعلاقات رفيعة ووطيدة مع مملكة القدس وملكها الإمبراطور فردريك، وربما حقق شيئاً من ذلك لمدة محدودة الزمن، إلا أنه خسر بموجبها حياةً هادئة وعلاقات داخلية كانت وطيدة ومستقرة نوعاً ما، وعوَّض عنها بالغضب الشديد عليه.

فالذهبي يقول في تعقيبه على تسليم القدس وردود الفعل الشعبية: "وتوغرت القلوب على الكامل"[١].

ويقول ابن تغري بردي: "ووصلت الأخبار بتسليم القدس إلى الإمبراطور، فقامت قيامة الناس لذلك"[٢].

ويبدو أن الكامل قد شعر بما أحاطه من سخط وغضب شعبي ورسمي شديد، فيذكر ابن نظيف الحموي أن الكامل سيَّر رسله إلى الخليفة وإلى البلاد الشرقية بهدف "تسكين العالم عُقيب الصلح على القدس"[٣]، وبهدف "تسكين قلوب الناس وتطمين خواطرهم"[٤]. وفي محاولةً منه

---

[١] الذهبي: تاريخ الإسلام، ج٤٥، ص٣٢.

[٢] ابن تغري بردي: النجوم، ج٦، ص٢٧٢.

[٣] ابن نظيف الحموي، محمد بن علي: التاريخ المنصوري (تلخيص الكشف والبيان في حوادث الزمان، تح: أبو العبد دودو، مطبعة الحجاز، دمشق، ص١٧٩. للاستزادة أنظر: المقريزي: السلوك، ج١، ص٣٥٥، حيث ذكر به المقريزي ما شابه مايرد عند ابن نظيف.

[٤] المقريزي: السلوك، ج١، ص٣٥٥.

لتخفيف هول الحدث وتسويغ سلوكه ذاك، قال: "إنّا لم نسمح للفرنج إلا بكنائس وآدر خراب، والمسجد على حاله، وشعار الإسلام قائم، ووالي الإسلام متحكم في الأعمال والضياع"[١].

وعلى الرغم من تقدير الكامل لخطورة الموقف وشعوره بالعار والهوان الذي قد يلحق به، إلا أنه جازف بكل ذلك ومضى قُدماً في مشروعه التصالحي مع فردريك بهدف انشاء علاقات حسنة ووطيدة مع مملكة القدس اللاتينية الثانية، وهنا الغرابة والتساؤل عن مدى تطور العلاقات بين الرجلين؟

ويبدو أن فردريك الذي أصبح صديقاً حميماً للكامل قد شعر بحرج موقف صديقه، كما يبدو أنه شعر بالملامة لنفسه لِما أوقع به صديقه من موقف محرج، فقال للأمير فخر الدين - مسوغاً ومعتذراً لإصراره على القدس-: "لولا أني أخاف انكسار جاهي عند الفرنج لما كلفت السلطان شيئاً من ذلك، ومالي غرض في القدس ولا غيره، وإنما قصدت حفظ ناموسي عندهم"[٢]. ويشير ذلك بكل وضوح إلى المستوى الرفيع الذي وصلت إليه العلاقات بين الكامل وفردريك، كما يشير إلى ضعف إيمان فردريك بالقضية الصليبية، وأن حملته تلك ما كان لها شأن سوى إعلاء مكانته بين زعماء أوربا.

وعقب توقيع الصلح كان الكامل قد وجَّه أوامره بإخلاء المسلمين للقدس وتسليمه للفرنج، ولا شك أنه اختلطت الأمور آنذاك وعمت الفوضى وكثر الشغب، فيذكر ابن واصل على لسان والده الذي كان آنذاك في القدس وشاهد عيان لتلك الحادثة: "لما نودي بالقدس بخروج المسلمين وتسليم القدس إلى الفرنج، وقع في أهل القدس الضجيج والبكاء، وعظم ذلك على المسلمين، وحزنوا لخروج القدس من أيديهم..."[٣].

ويبدو أن الكامل تجاهل كل ذلك، وأصرَّ على مشروعه التصالحي مع فردريك، وظهر ذلك جلياً في العام الهجري التالي لتوقيع الصلح، إذ اشتعلت انتفاضات شعبية في القدس، وساء موقف الصليبيين بها، وكان من المستحيل حراسة الطريق المؤدي إليها من الساحل، فاستغل المسلمون ذلك، وراحوا يهاجمون

---

[١] المقريزي: السلوك، ج١، ص٣٥٤. للاستزادة أنظر: ابن واصل: مفرج الكروب، ج٤، ص٢٤٣-٢٤٤. دي نافار: حروب فردريك، عن الموسوعة، ج٣٥، ص٤٥. Maher Y: Sultan al-Kamil, Emperor Frederick II, Vol 3, No 5, September 2013, p.p. 445-446.

[٢] ابن واصل: مفرج الكروب، ج٤، ص٢٤٣. المقريزي: السلوك، ج١، ص٣٥٤. للاستزادة أنظر: دي نافار: حروب فردريك، عن الموسوعة، ج٣٥، ص٤٥.

[٣] ابن واصل: مفرج الكروب، ج٤، ص٢٤٣. وللاستزادة: المقريزي: السلوك، ج١، ص٣٥٤.

الصليبيين على هذا الطريق، ثم دبَّر أئمة المسلمين في حبرون ونابلس شن غارة على بيت المقدس، وأنكر الأمراء الأيوبيون أن لهم أي علاقة بتلك الأعمال العدائية ضد الصليبيين، واضطر الكامل للتخلي عن تبنين وأعمالها لصالح فردريك كي يتمكن الأخير من حماية وتأمين الطريق إلى القدس.[١]

ومضى الكامل قُدماً في مشروعه التصالحي مع فردريك متجاهلاً كامل ردود الفعل الإسلامية تجاه سلوكه المتخاذل مع فردريك، ويقدم البحث صورة جميلة عن ذلك، فبعد توقيع الصلح، وما تقدم من أحداث تم ذكرها أرسل فردريك إلى الكامل يستأذن في دخول القدس، فأذن له الأخير بذلك، وزاد على ذلك بأن كلَّف لخدمته كبار رجال الدولة آنذاك ممن شُهِد لهم بالجلال والوقار في الدولة، وهو "القاضي شمس الدين – قاضي نابلس)، حيث أمره الكامل بملازمة الإمبراطور، وخدمته حتى ينتهي من زيارة القدس ويعود إلى عكا.[٢]

وفي رمضان ٦٢٦هـ/ آذار ١٢٢٩م تم الاحتفال بدخول فردريك إلى بيت المقدس، واستقبله عند الباب القاضي شمس الدين وسلمه –باسم السلطان– مفاتيح المدينة.[٣]

ويبدو أن القاضي فَهِمَ جيداً ما أراده الكامل، فأكبَرَ وأَعْظَمَ وفادة الإمبراطور فردريك في تلك الزيارة، لدرجة أنه وصف نفسه – أي القاضي في إحدى نقاشاته معه عن موضوع تعطيل الأذان– بأنه مملوك لفردريك،[٤] ورافقه في زيارة الأماكن الإسلامية المقدسة في القدس، وفي زيارة الحرم الشريف وما فيه من مزارات، وفي نهاية اليوم نزل فردريك ضيفاً في دار القاضي شمس الدين في القدس، وتناقش مع المسلمين على مائدة عشاء ذلك اليوم بعدة مواضيع، منها النجوم والكواكب.[٥]

وكان تعطيل الأذان دفعة كبرى في المضي قدماً في المشروع التصالحي والتزلُّف إلى فردريك، وتلك قضية تستحق الوقوف مطولاً وتكراراً، وهنا يجب الإشارة إلى أن ورود مصطلح "تعطيل الأذان" هو مصطلح مبهم، ويعني الكثير، وقد استخدمه الكثير من الباحثين لتهويل الأمر وتعظيم الحدث مستغلين

---

[١] المقريزي: السلوك، ج١، ص٣٥٤. النهار: هكذا سلم هؤلاء بيت المقدس، ص٨٠.

[٢] ابن واصل: مفرج الكروب، ج٤، ص٢٤٤. المقريزي: السلوك، ج١، ص٣٥٤. حمزة: العلاقات السياسية، ص٣٢٣.

[٣] رنسيمان: تاريخ الحروب، ج٣، ص٣٣٣. هكذا سلم هؤلاء بيت المقدس، ص٨٦.

[٤] ابن واصل: مفرج الكروب، ج٤، ص٢٤٥.

[٥] المقريزي: السلوك، ج١، ص٣٥٤. حمزة: العلاقات السياسية، ص٣٢٧.

عدم تفصيل المصادر الإسلامية بذلك الحدث، وليس الوقوف هنا لمعارضة ذلك الأمر أو لتبسيطه؛ وإنما للإنصاف والتوضيح:

فبعض المصادر والمراجع العربية تورد أن الكامل أمر القاضي شمس الدين-قاضي نابلس- بمنع المؤذنين من أذان الفجر منذ أن بات الإمبراطور ليلته الأولى في دار هذا القاضي في القدس؛[١] لأن مقدمات الأذان (أو ما يسمى حالياً التوحيد) فيها آيات من القرآن تعارض الاعتقادات الصليبية آنذاك عن المسيح عليه السلام وصلته بالله عز وجل، ومن هذه الآيات: "قل هو الله أحد، الله الصمد، لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد"، "ما اتخذ الله من ولد"، "ذلك عيسى ابن مريم"، "إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم"، وغيرها من الآيات القرآنية التي كان من الممكن أن تؤذي شعور الإمبراطور المسيحي فردريك، ولاسيما أن مئذنة الجامع فوق البيت الذي هو نائمٌ فيه.[٢]

وفي هذا الصدد يفسر أنتوني بردج موقف القاضي وسلوكه ذاك بـ "عدم رغبة منه في جرح مشاعر زائره المسيحي الشهير"[٣]. وهنا لا بدَّ من الإشارة إلى أن بعض المصادر العربية لا تجزم بأن الكامل هو الذي أمر القاضي بذلك، ويفهم منها أن القاضي اجتهد من تلقاء نفسه ووجَّه أوامره للمؤذنين بعدم الأذان[٤]

وسواءً كان مصدر الأوامر الكامل أم القاضي شمس الدين يبدو أن ما أُمِرَ بإبطاله هو مقدمات الأذان أو التوحيد، وليس الأذان نفسه. فسبط ابن الجوزي يذكر أن الذي أمر به الكامل هو ألا يصعد المؤذنون المَنائر[٥]، وإنما يؤذنون في الحرم ما دام فردريك في القدس.[١] وفي الحالتين لا يمكن تبسيط الأمر

---

[١] سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان، ج٢٢، ص٣٠٠. عاشور: الحركة الصليبية، ج٢، ص٢٥٢. حمزة: العلاقات السياسية، ٣٢٧.

[٢] ابن أيبك: كنز الدرر، ج٧، ص٢٩٤.

[٣] بردج: تاريخ الحروب الصليبية، ص٢٥٤.

[٤] راجع ابن واصل: مفرج الكروب، ج٤، ص٢٤٥. المقريزي: السلوك، ج١، ص٣٥٤.

[٥] هذه الكلمة ترد في كتاب سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان باسم "المنابر"، ويظهر بشكل جلي أنه خطأ وقع به المحقق، وإنما أراد المؤلف بهذه الكلمة هو "المنائر" وليس المنابر، وشتان بين الاثنتين، فالمِنارَةُ: هي التي يُؤذَّن عليها. الفارابي، إسماعيل بن حماد، ت ٣٩٣هـ: الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، تح: أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين، بيروت، ط٤، ١٩٨٧م، ج٢، ص٨٣٩. الرازي، محمد بن أبي بكر، ت٦٦٦هـ: مختار الصحاح، تح: يوسف الشيخ محمد، المكتبة العصرية، بيروت وصيدا، ط٥، ١٩٩٩م، ص٢٣١.

أو تجاهله، ويمكن القول بحقه كما قال أبو شامة "وكانت هذه من الوصمات التي دخلت على المسلمين"[٢].

وعلى العموم فإن القاضي نَسِيَ أو تناسى أن يأمر المؤذنين بعدم الأذان، ومضت الليلة على حالها، وأذَن للفجر الشيخ عبد الكريم، وسمع الإمبراطور – المُجيد للعربية– ذلك كله، ولا يوجد في المصادر ما يرد عن الكامل الذي كان آنذاك على حصار دمشق بأنه عَقَّب على ذلك الموضوع أو وجَّه الملامة للقاضي ولا أي مضاعفات لتلك القضية.

والذي يهم أن القاضي وجَّه أوامر الكامل للمؤذنين ولم يتم الأذان في فجر الليلة التالية[٣]، وللحديث بقية مع سياسة ودبلوماسية فردريك تجاه الكامل والمسلمين.

وكما تقدم ذكره فلربما كان المقصود آنذاك هو إبطال مقدمات الأذان (التوحيد) وليس الأذان بحد ذاته.

ولم يقتصر سلوك الكامل تجاه فردريك عند هذا الحد، إذ يبدو أن البابوية حاولت التفاهم والتآمر مع الأول ضد الثاني، إلا أنه لم يستجب لها،[٤] وزاد على ذلك بأنه أنقذ فردريك من مؤامرة دبَّرها الداوية (فرسان المعبد) ضده للقضاء عليه.[٥]

هذا عن سياسة الكامل التصالحية تجاه فردريك، أما عن سياسة الأخير تجاه الكامل فإنها لم تكن بأقل من ذلك. ففردريك أيضاً أبدى اهتماماً خاصاً في تطوير واحترام علاقاته مع الكامل، ومع أنه حقق نصراً كبيراً على الكامل في توقيع صلح يافا عام ٦٢٦هـ/ ١٢٢٩م إلا أنه لم يحاول الظهور بذلك المظهر بتاتاً أمام الكامل، بل وجَّه اعتذاراً إليه كما سلف ذكره؛ لأنه وضعه في موقف محرج أمام المسلمين باستلامه للقدس.

---

(١) سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان، ج٢٢، ص٣٠٠. للاستزادة أنظر: ابن أيبك: كنز الدرر، ج٧، ص٢٩٤.

(٢) الذيل على الروضتين، عن الموسوعة، ج٢٠، ص٢٩٩.

(٣) سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان، ج٢٢، ص٣٠٠. أنتوني بردج: تاريخ الحروب الصليبية، ص٢٥٤.

(٤) دي نافار: حروب فردريك، عن الموسوعة، ج٣٥، ص٤٣

(٥). العبر في خبر من غبر، ج٣، ص١٩٥. للاستزادة أنظر: سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان، ج٢٢، ص٣٠٠.

ولم يقف احترام فردريك للكامل عند هذا الحد، بل تعداها لأبعد من ذلك، إذ إنه كان حريصاً كل الحرص على عدم الظهور بمظهر السالب لحقوق المسلمين، كما حرص على احترام مشاعرهم وشعائرهم الدينية، وقد تجلى ذلك بشكل خاص عند زيارته الحذرة للقدس في آذار ١٢٢٩م التي سلف ذكر شيء منها، وهنا لا بدَّ من الوقوف عند بعض المحاور المهمة في هذه الزيارة.

فمنذ البداية استأذن فردريك الكامل لهذه الزيارة، فأذن له، وزاد الأخير على ذلك بأن عيّن كبار رجال الدولة لخدمته، كما سلف ذكره.

وخلال الزيارة تجوَّل فردريك بين الأماكن الإسلامية المقدسة في القدس، ودخل الحرم الشريف وشاهد ما فيه من مزارات، فأبدى إعجابه وحبه لعمارة المسجد الأقصى وجمال منبره، لدرجة أنه صعد على درجات المنبر ليعاين جمال صنعته.[١]

وتضيف بعض المصادر أنه لما أذَّنَ المؤذن لصلاة الظهر أن الإمبراطور "قام هو ومن كان معه من جماعته، فصلّوا"[٢].

أما سبط ابن الجوزي لا يذكر صلاة الإمبراطور، وإنما يذكر صلاة جماعته، دون أن ينفي صلاة الإمبراطور، فيقول: "ولما دخل وقت الظهر، وأذن المؤذن، قام جميعُ مَن كان معه من الفَرّاشِين[٣] والغِلْمان، ومعلمه، وكان – أي معلمه– من صقلية يقرأ عليه المنطق، فصلّوا، وكانوا مسلمين"[٤]. ويبدو أن الذي قُصِد بكلمة "جماعته" هم المسلمون الذين صَحِبُوا الإمبراطور، أو ربما يكون الذي أدى الصلاة هم بعض عناصر جيشه ومرافقيه، إذ تذكر بعض الروايات العربية أنه كان في جيشه بعض الفرق الإسلامية من صقلية، وكانوا يقيمون شعائر الإسلام الدينية من صوم وصلاة، ويؤذنون للصلاة وهم في معسكره ولا ينكر

---

[١] ابن واصل: مفرج الكروب، ج٤، ص٢٤٤. المقريزي: السلوك، ج١، ص٣٥٤. الخريسات: السياسة الأيوبية، ص٣٢٥. وللاستزادة أنظر، بردج: تاريخ الحروب، ص٢٥٤.

[٢] ابن أيبك: كنز الدرر،الدر المطلوب في أخبار بني أيوب، ج٧، ص٢٩٣.

[٣] الفَرّاشون: هم الفرقة التي تقوم بمرافقة الخليفة أو الملك، ومهمتها خدمته وتنظيف قصوره في الداخل والخارج، وتقوم بفرش أو نصب الستائر التي يحتاجها، وتوكل لهم مهمة المناظر في خارج القصر، ولكل شخص منهم راتب محدود. انظر: القلقشندي، أحمد بن علي بن أحمد الفزاري، ت ٨٢١هـ: صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، دار الكتب العلمية، بيروت، ج٣، ص٦٠٠.

[٤] سبط اين الجوزي: مرآة الزمان، ج٢٢، ص٣٠٠.

عليهم أحد ذلك.[١] وكما تقدم ذكره فإن سبط أثبت بشكل واضح أن الغلمان والفراشين -أي خدمه- كانوا مسلمين.

أما عن صلاته هو، فإن ذلك لم يرد سوى عند الدواداري، وإن كان ذلك تم فعلاً فما هو إلا دبلوماسية رفيعة أتقنها فردريك ونفَّذها تماشياً مع عادة وتقاليد مَن يقومون بمرافقته، وهنا يبدو أن فردريك طبَّق المثل الشعبي الدارج في العامية "اللي بَده يرافق بَدُهُ يوافق". وهنا يظهر أن فردريك فهم جيداً العقلية الإسلامية التي كانت تحيط به وترافقه آنذاك، وإن كان قد أدى تلك الصلاة فعلاً فيستبعد أن يكون قد أداها عن إيمان راسخ بالدين الإسلامي، كما يُستبعد أن يكون له إيمان راسخ بالديانة النصرانية.

وأثناء زيارة الإمبراطور تلك لقبة الصخرة وجد عليها كتابات ذهبية على البوابة الخاصة بالقبة، كُتبت بعد تحرير القدس تخليداً لانتصار المسلمين على الصليبيين، منها: "طهَّر هذا البيت المقدس صلاح الدين من المشركين"، وعندما قرأها فردريك تظاهر بأنه لم يفهم معناها، وطلب تفسيرها له.[٢]

وعندما شاهد الشبابيك الشعرية المزينة بالأسياخ بأعلى النوافذ المقابلة للبوابات في الصخرة، سأل عنها لماذا صُنعت بهذه الصورة؟ فأجابوه كي لا تدخل العصافير إلى القبة، فابتسم الإمبراطور وقال لهم: "قد أتى الله إليها بالخنازير"[٣]، وبالطبع يقصد بالخنازير بني جلدته الصليبيين، ولا شك أن تلك كانت سياسة ودبلوماسية وتقرُّباً من المسلمين الذين ربما كانوا آنذاك يطلقون هذا اللفظ على الصليبيين، وذلك اعلان منه بأنه يشاطر المسلمين برأيهم ذاك.

لم يقف احترام فردريك لصديقه السلطان الكامل ومن ورائه المسلمين عند هذا الحد؛ بل تعداه لأكثر من ذلك ومضى قُدماً في مشروعه التصالحي معه، فعند خروجه من المسجد الأقصى وجد قسيساً وبيده الإنجيل يرغب في الدخول إلى المسجد الأقصى، فصاح في وجهه وزجره قائلاً: "ما الذي أتى بك إلى ها هنا، والله لئن عاد أحد منكم يدخل إلى هاهنا بغير إذني لآخذن ما في عينيه، نحن مماليك هذا السلطان الملك الكامل وعبيده، وإنما تصدَّق عليَّ وعليكم بهذه الكنائس على سبيل الإنعام منه، ولا

---

[١] حومد: تاريخ الجهاد، ج٢، ص٢٤٩. للاستزادة أنظر: رنسيمان: تاريخ الحروب، ج٣، ص٣٣٥، حيث يرد لديه أنه كان ضمن حاشية فردريك جماعة من المسلمين.

[٢] سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان، ج٢٢، ص٢٩٩. ابن أيبك: كنز الدرر، ج٧، ص٢٩٣.

[٣] سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان، ج٢٢، ص٢٩٩. للاستزادة أنظر: ابن أيبك: كنز الدرر، ج٧، ص٢٩٣.

يتعدى أحد منكم طوره"، "فمضى ذلك القسيس وهو يرتعد خيفةً منه"[١]. وفي ذلك اشارة إلى اعتراف فردريك بفضل ومنة الكامل وإنعامه عليه بالقدس وسواها، ورغبة منه في زيادة التَزَلُّف والصداقة مع الكامل والمسلمين، وبالطبع فإن ذلك لا يعدو عن كونه أسلوباً دبلوماسياً وسياسةً رفيعةً.

وأيضاً كان من صور الغزل السياسي بين الصديقين ما كان من فردريك في رده على موضوع تعطيل الأذان الذي سلف ذكره، إذ إنه عندما لم يسمع التوحيد والأذان في فجر تلك الليلة طلب القاضي شمس الدين صباحاً وسأله: "لِمَ لَمْ يؤذن المؤذنون على المنائر على جاري عادتهم؟!"[٢].

ولمّا أجابه القاضي عن السبب ردَّ عليه فردريك: "أخطأت فيما فعلت، والله إنه أكثر غرضي في المبيت في القدس أن أسمع أذان المؤذنين وتسبيحهم بالليل"[٣]. وعلى هذا فلا يُستبعد أن يكون فردريك قد اعتاد على سماع صوت المؤذنين وتسبيحهم قبل الأذان (التوحيد) في صقلية، حيث ولد ونشأ بها.

وتضيف بعض المصادر أن فردريك ردَّ على القاضي قائلاً: "لقد أخطأتم يا قاضي، تُغيِّرون شعاركم وشرعكم ودينكم لأجلي؟! فلو كنتم عندي في بلادي هل كُنتُ أُبطل ضرب الناقوس لأجلكم؟! الله الله، لا تفعلوا، هذا أول ما تنقصون عندنا"[٤].

وقبل مغادرته القدس قام فردريك بتوزيع المال والأعطيات على القوّام والمؤذنين والمجاورين، ومنهم الشيخ عبد الكريم المؤذن الذي كان نصيبه مئة دينار.[٥]

وتذكر المصادر أنه لم تطل اقامة فردريك في القدس سوى ليلتين، حيث رحل بعدها إلى يافا، ثم إلى عكا،[٦] وذلك بسبب حرمانه كنسياً، وبسبب الخلافات الداخلية بين صليبيي مملكة القدس، وتعارض وجهات نظرهم بالنسبة إلى اتفاقيته مع الكامل، وهنا لا بدَّ من التطرق إلى تلك الخلافات والنزاعات بما يخدم موضوع علاقات بقية عناصر المملكة مع الأيوبيين، وليس بعيداً عن ذلك.

---

[١] ابن واصل: مفرج الكروب، ج٤، ص٢٤٤-٢٤٥. بردج: تاريخ الحروب، ص٢٥٤.

[٢] ابن واصل: مفرج الكروب، ج٤، ص٢٤٥. للاستزادة أنظر: سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان، ج٢٢، ص٣٠٠.

[٣] ابن واصل: مفرج الكروب، ج٤، ص٢٤٥. للاستزادة أنظر: سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان، ج٢٢، ص٣٠٠. بردج: تاريخ الحروب، ص٢٥٤.

[٤] سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان، ج٢٢، ص٣٠٠.

[٥] سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان، ج٢٢، ص٣٠٠. ابن أيبك: كنز الدرر، ج٧، ص٢٩٤.

[٦] سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان، ج٢٢، ص٣٠٠.

**ثانياً- علاقات فردريك مع عموم الأمراء الأيوبيين بعد مغادرته عكا في ٦ جمادى الآخر ٦٢٦هـ /أول أيار ١٢٢٩م إلى إمبراطورتيه في أوربا.**

بعد مغادرة فردريك لمملكته -مملكة القدس اللاتينية الثانية- إلى إمبراطوريته في أوربا استمر في علاقته مع المسلمين بشكل عام ومع الكامل بشكل خاص على تلك الوتيرة التي كان عليها من قبل، وحرص بشدة على دوام تلك الصداقة معهم، إذ يقول عنه ابن واصل: "واستمر مصافياً للملك الكامل، مواد له، والمراسلة بينهما متصلة إلى أن توفي الملك الكامل وتملك ولده العادل سيف الدين فصافى الانبرطور الملك العادل، وواده وراسله"[١].

ففي سنة ٦٢٧هـ/ ١٢٣٠م أرسل فردريك رسالتين، إحداهما إلى السلطان الكامل؛ وقد وصلته وهو في حران، والأخرى إلى الامير فخر الدين بن شيخ الشيوخ، ويبدو أن تلك الرسالتين حملتا في طياتهما نوعاً من الشكوى بالمتاعب التي عاناها الإمبراطور بعد عودته من مملكة القدس إلى إمبراطوريته، ولاسيما المواجهة بينه وبين البابوية، ويبدو أن فردريك أراد من ذلك توسيع الهوة بين الكامل والبابا، أو ربما أراد إيغار صدر الكامل على البابا والبابوية بشكل عام، ومن ثم إحباط أي محاولة للبابا للاتفاق مع الكامل ضده.[٢]

ويبدو أن تطور العلاقات بين فردريك والكامل جعلت الجنوية - بعد أن خسروا معركتهم في بلاد الشام عام ٦٢٩هـ/ ١٢٣١م مع البيازنة حلفاء فردريك- يرسلون سفارة إلى الملك الكامل لكسب وده ولكي يتوسط لهم عند فردريك ليخفف الضغط عليهم في بلاد الشام.[٣]

لم تقتصر العلاقات بين الطرفين على الخطابات والرسائل والهدايا، وإنما تعدتها إلى حد التعاون العسكري بينهما وتوقيع اتفاقية دفاع مشترك أرسل بمقتضاها الكامل قوة عسكرية مصرية لمساعدة فردريك

---

[١] ابن واصل: مفرج الكروب، ج٤، ص٢٤٦.

[٢] المقريزي: السلوك، ج١،ص٣٥٩. حمزة:العلاقات السياسية، ص٢٤٠. نظير حسان: الحرب والسلام، ص٩٩-١٠٠.

[٣] الكناني، مصطفى حسن محمد: العلاقات بين جنوة والشرق الأدنى الإسلامي (٥٦٧-٦٩٠هـ/ ١١٧١-١٢٩١م)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨١م، ج٢، ص٢٣٢-٢٣٣.

في حصار مدينة برشيا في إقليم لمبارديا شمالي إيطاليا، وذلك سنة ٦٣٦هـ/ ١٢٣٨م، وبالعام نفسه توفي الكامل محمد وخلفه في حكم مصر ابنه العادل الصغير.[١]

ولم تقتصر العلاقات بين الرجلين على المواضيع السياسية والعسكرية؛ بل تعدتها -منذ البداية- إلى المواضيع العلمية، ففي سنة ٦٣٠هـ/ ١٢٣٢م أرسل فردريك بعدة مسائل علمية إلى الملك الكامل طالباً منه حلها، كان منها:

لماذا تظهر الأجزاء الغاطسة في الماء مقوسة؟

لماذا يظهر كوكب سهيل أكبر عندما يقترب من الأفق؟

ما السبب في خداع البصر؟

وأرسل فيما بعد بعض المسائل في الرياضيات والفلسفة، وربما أن غايته منها اختبار العلماء المسلمين ونظرتهم في تلك المواضيع، واختار الملك الكامل لحلها والإجابة عليها أحد علماء الرياضيات العاملين في حاشيته وهو "علم الدين الحنفي"، وتقدم علم الدين بحلول لتلك المسائل بطريقة أذهلت فردريك، لدرجة أنه أرسل للكامل يريد مقابلة ذلك العالم.

وفي الموضوع نفسه أرسل فردريك إلى علماء الموصل يستفسر منهم عن مسائل هندسية وفلكية لتجزئة تربيع الدائرة، وقد لاقت إجابات علماء الموصل رضا الإمبراطور وتقديره.[٢]

ولم تقتصر علاقات فردريك على الكامل فحسب، بل تعدتها لبقية الملوك والأمراء المسلمين المعاصرين آنذاك، سعياً منه لتوسيع علاقاته السياسية والدبلوماسية في المنطقة كي يأمن جانبهم في تلك البلاد، ولاسيما أنه يعد نفسه ملكاً لمملكة القدس اللاتينية الثانية، وهو على نزاع كبير مع بارونات وزعمائها، ولا بدَّ له من السعي وراء دعم خارجي تحسباً لصدامات داخلية، بالإضافة إلى علاقاته السيئة مع البابوية ومن يواليها، وكان من بين تلك العلاقات الدبلوماسية والسياسية رسالة أرسلها للملك الجواد يونس بن مودود- ابن أخ الكامل- وكان آنذاك حاكم في دمشق كنائب عن ابن عمه العادل الثاني بن الكامل، وذلك في شعبان ٦٣٠هـ/ ١٢٣٢م، فردَّ عليها الملك الجواد برسالة فيها الكثير من المديح والتعظيم لفردريك، وكان من جملة ما وصفه بها: "العالم العامل، الظهير، العادل، الأوحد، المجتبى، شمس

---

[١] الكناني: العلاقات بين جنوة والشرق، ج٢، ص٢٣٣.

[٢] حمزة: العلاقات السياسية، ص٣٤١.

الملة النصرانية، جلال الطائفة الصليبية، عضد الأمة الفرنجية،. .."، وفي هذه الرسالة أكد الملك الجواد على فرحه وسعادته لمراسلة فردريك له، فجاء فيها: "فاستبشرت النفوس بوروده، وسرت القلوب بوفوده".[١]

وعن علاقات الأشرف موسى بفردريك يبدو أنها لم تكن أقل مستوى من علاقات الأخير مع الكامل، إذ تذكر المصادر أن الأشرف موسى أرسل إلى فردريك في سنة ٦٣٠هـ/ ١٢٣٢م آلة توضح حركات الكواكب في النظام الشمسي، وفيها أشكال ورسوم للشمس والقمر تبين الأوقات في دورانها المنتظم، وكان يقدر ثمنها بمئتي ألف مارك، وقد أبدى الإمبراطور فردريك إعجابه بتلك الهدية أيما إعجاب، لدرجة أنه كان يتفاخر بها بين أصدقائه، ويعدها أغلى شيء بعد ابنه ووريثه الوحيد الملك كونراد.[٢]

وردّ فردريك على سفارة الأشرف موسى في العام الذي يليه، وكان من جملة الهدايا التي أرسلها إليه طاووس أبيض، ودب أبيض شعره كشعر السبع ينزل البحر ويصطاد السمك ويأكله.[٣]

وفي عهد الصالح نجم الدين أيوب الذي خلف أباه الكامل في حكم مصر- بعد أن أزال أخاه العادل الصغير - توثقت العلاقات كثيراً مع فردريك، فيذكر ابن واصل أنه لما استلم الصالح أيوب الحكم في مصر بدلاً عن أخيه العادل أرسل إليه فردريك سفارة خاصة لتهنئته، وتم استقبال السفارة في القاهرة بكامل مظاهر التشريف والأبهة، ورد الملك الصالح على فردريك بسفارة كان على رأسها الشيخ العلامة سراج الدين الأرموي - قاضي قونية- وأقامت تلك السفارة عند فردريك معززة مكرمة إلى أن ألَّف له سراج الدين كتاباً في المنطق، ثم عاد إلى مصر.[٤]

ووصلت العلاقات بين الطرفين إلى درجة أن أحدهما لم يحالف أو يهادن عدو الطرف الآخر، كرفض الصالح أيوب عام ٦٤٢هـ/ ١٢٤٤ عقد معاهدة صلح مع الداوية (فرسان المعبد) بسبب علاقاتهم

---

[١] القلقشندي: صبح الأعشى، ج٧، ص١٢٥.

[٢] حمزة: العلاقات السياسية، ص٣٤٢. نقلاً عن:

Kantorowicz, Ernst,; Frederick the Second (1194-1250), translated by: Lorimer (E-O), London, 1931, p. 195.

[٣] سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان، ج٢٢، ص٣٢٧. ابن تغري بردي: النجوم، ج٦، ص٢٥١.

[٤] ابن واصل: مفرج الكروب، ج٤، ص٢٤٧. حمزة: العلاقات السياسية، ٣٤٤.

السيئة مع فردريك، وكذلك كان الأخير حريصاً بشدة على إحاطة الصالح بمجريات الأحداث في أوربا، وما يُخطط بها ضد الشرق الإسلامي.[١]

وفي النهاية يمكن القول إن العلاقات بين فردريك وزعماء الأسرة الأيوبية وصلت إلى درجة عالية ورفيعة، حيث استقبل كل منهما سفارات الآخر بترحيب زائد وصدر رحب، وأظهر فردريك اعتزازه وفخره بتلك العلاقات التي تعدَّت الجانب السياسي والعسكري إلى الجانب الحضاري والعلمي.

## ثالثاً- العلاقات الأيوبية مع بقية عناصر مملكة القدس اللاتينية الثانية خلال مدة صلح يافا (٦٢٦-٦٣٦هـ/ ١٢٢٩-١٢٣٩م)

### أ- جمود الموقف وهدوء الجبهات

تمكن فردريك من تحقيق حلم الصليبيين الذي عجزوا عنه منذ ريتشارد قلب الأسد Richard the Lionheart حتى الحملة الخامسة، وهو استعادة القدس لأيديهم، وعلى الرغم من الانتصار الكبير الذي حققه فردريك في اتفاقية وصلح يافا إلا أن هذه الاتفاقية لم تلق الترحيب سوى من فئات قليلة مثل الألمان والصقليين أتباع الإمبراطور الذين رحبوا بهذه الاتفاقية من واقع ولائهم للإمبراطور، وأعلنوا فرحهم بذلك الانتصار العظيم.[٢]

فبعض المؤرخين اللاتين نظر إلى تلك الاتفاقية على أنها عُقدت بين رجلين وليس بين دولتين، إذ يقول فان كليف: "كان الضعف البيّن في هذه الاتفاقية أنها تفتقر إلى تزكية عامة بين الشعبين اللذين عُقدت باسميهما، إذ لم تكن اتفاقية بين دولتين، ولكن بين رجلين كل منهما يستطيع ابداء التسامح تجاه خصمه، دون أن يشاركهما أتباعهما في ذلك"[٣].

---

[١] غوانمة: معاهدات الصلح، ص٦٩. حمزة: العلاقات السياسية، ص٣٤٤.

[٢] راجع الراهب الدومينيكاني، عن الموسوعة، ج٤٣، ص١١٦٧-١١٦٨. دي نافار: حروب فردريك، عن الموسوعة، ج٣٥، ص٤٧.

[٣] النهار: هكذا سلم هؤلاء بيت المقدس، ص٩٢. عن Van Cleve; The Emperor Fredrick II, Oxford, 1972, p.220.

ولا بدَّ من ذكر أن أغلب الصليبيين في الشرق والغرب بما في ذلك البابوية أيضاً عارضوا تلك الاتفاقية بسبب بقاء المسجد الأقصى وقبة الصخرة بيد المسلمين، ولأن سيطرة الفرنج على المدينة المقدسة لم يكن بحد السيف؛ وإنما عن طريق التوسل والاستجداء، ولذلك فإنهم عدّوا تلك الاتفاقية مساومة حقيرة، و"أنه سلام قائم على الغش، وقد جرى إعداده من أجل إيذاء الصليبيين وإحداث البلبلة بين صفوفهم، ولكي يعيق الاستيلاء على الأرض المقدسة"[١]. وهنا يظهر بكل وضوح أن رغبة الصليبيين في أخذ المدينة المقدسة بحد السيف واستنكارهم لأخذها سِلماً فيه ما يكفي للدلالة على استمرار عقليتهم التعصبية، واستمرار رغبتهم في التشفي من المسلمين وارتكاب المجازر نفسها التي تمت قبل أكثر من قرن من الزمان بالمكان نفسه.

فالبابا الذي مثَّل العالم المسيحي آنذاك، ومثَّل مملكة القدس دينياً وروحياً رفض بكل شدة تلك المعاهدة، وأخذ يُشَنِّعُ على فردريك فعلته تلك، متهماً إياه بخيانة المسيحية، وعدم الولاء لمملكة القدس اللاتينية وللطوائف الدينية بها، واتباعه لعادات وشريعة المسلمين في عدة نقاط في المعاهدة، لدرجة أنه يسميه أحياناً بـ "نائب محمد"، كما انتقده البابا بشدة لموافقته على إطلاق سراح الأسرى المسلمين في مملكة القدس.[٢]

ويمكن القول إن تنازل الكامل عن القدس لفردريك كان سبباً كبيراً في انتصار سياسات فردريك على البابوية، فذاع صيته في أوساط الشعوب الأوربية كمحرر للضريح المقدس، لهذا كان ذلك صفعة كبيرة للإيمان الشعبي الأوربي بالبابوية والتسليم لها، وأدى ذلك إلى تنبيه كثير من الفرسان والنبلاء الأوربيين لاستغلال البابوية لهم تحت ستار الدين، ومن ثم بدأت النداءات والاعتراضات والانتقادات تعلو على البابوية وعلى حملاتها الدعائية للحروب الصليبية، وشيئاً فشيئاً أخذت تعلو في الأوساط الأوربية أصوات المعارضة للحملات الصليبية، وهكذا بدأت أوربا تعيد النظر بشرعية تلك الحملات ومسوغاتها، وكان القديس لويس التاسع ملك فرنسا آخر زعماء أوربا المتحمسين لتلك الحروب.

---

[١] الراهب الدومينيكاني، عن الموسوعة، ج٤٣، ص١١٦٨. للاستزادة أنظر: باركر: الحروب الصليبية، ص١١٥. النهار: هكذا سلم هؤلاء بيت المقدس، ص٨٩.

[٢] ويندوفر: ورود التاريخ، ج٢، عن الموسوعة، ج٤٥، ص٨٩٩. متى باريس: التاريخ الكبير، عن الموسوعة، ج٤٧، ص٧٧٤، ٧٧٨. الراهب الدومينيكاني، عن الموسوعة، ج٤٣، ص١١٦٧-١١٦٨. الحايك: العلاقات الدولية، ج٢، ص٢٦٤-٢٦٥.

وفي العودة إلى ردة الفعل والمواقف داخل مملكة القدس اللاتينية الثانية إزاء تلك المعاهدة فيمكن اختصارها بموقفي بطريرك القدس جيرولد، وقائد التيوتون آنذاك هيرمان فون سالزا Herman von Salza، فالأول بعث برسائله إلى البابا وإلى جميع الزعامات الأوربية المسيحية يخبرهم بها عن سلوك الإمبراطور السيء، ويتهمه بها بالحماقة، ويصف المعاهدة بأنها خيانة ارتكبها الإمبراطور مع سلطان مصر. أما هيرمان فون سالزا Herman von Salza فقد أرسل إلى البابا في ١٥ آذار ١٢٢٩م رسالة يُمجِّد بها المعاهدة، ويشيد بها كونها معاهدة سلام مع سلطان مصر، وبموجبها تم استعادة مدينة القدس وبعض الأماكن الأخرى للصليبيين.[١]

وليس البحث هنا للتفصيل في ردود الفعل الصليبية والغربية على الاتفاقية بقدر ما هو للتفصيل في العلاقات الأيوبية مع صليبيي مملكة القدس اللاتينية الثانية، والأوضاع التي تحكمت بتلك العلاقات، ففردريك عقد تلك الاتفاقية – اتفاقية أو صلح يافا- باسم مملكة القدس كونه عدَّ نفسه ملكاً عليها، وهنا لا بدَّ من التذكير بأن امارتي أنطاكية وطرابلس بقيتا خارج مضمون ذلك الصلح كما سلف ذكره، كذلك لم يتناول هذا الصلح منظمتي الداوية والاسبتارية اللتين تملكان قلاعاً وحصوناً في أراضي هاتين الإمارتين؛ لذا فإن العلاقات بين الأيوبيين وبقية عناصر مملكة القدس اللاتينية الثانية اختلفت تماماً عما هي عليه بين الأيوبيين وفردريك ومن يواليه من الألمان والإيطاليين، واتصفت بكامل الاحترام والمودة والصداقة.

وأتت مواقف بقية تلك العناصر الصليبية بناءً على معاداتها لفردريك، وربما رغبت تلك العناصر بتخريب وإخفاق صلح يافا؛ لذا عمدت على شن غارات على المناطق الإسلامية والأيوبية كما سيأتي شرحه، إلا أن الأوضاع الداخلية لمملكة القدس اللاتينية الثانية لم تساعدهم على ذلك واضطرتهم إلى الرضوخ والمحافظة على علاقات ودية مع المسلمين، وتجمد الموقف إلى حين.

ورحل فردريك عن القدس وعكا إلى إمبراطوريته منذ عام ٦٢٦هـ/ أيار ١٢٢٩م، واستمرت مملكة القدس اللاتينية الثانية تابعة له قانونياً، وقبل رحيله حاول أن يخضع لسيطرة الألمان –والتيوتون بشكل خاص- كامل عناصر مملكة القدس؛ فحاصر البطريرك وبيوت الداوية في عكا بتهمة التآمر ضده لقتله،

---

[١] دي نافار، حروب فردريك، عن الموسوعة، ج٣٥، ص٤٧. الراهب الدومينيكاني، عن الموسوعة، ج٤٣، ص١١٦٧-١١٦٨. حمزة: العلاقات السياسية، ص٣٢٢-٣٢٣.

إلا أنه لم يكن لديه سعة من الوقت، ومن ثم غادر عكا وسط جو مشحون بالعداء بينه وبين القساوسة والأهالي والبارونات، وكان قد عين بالين صاحب صيدا وغارنيز الألماني وكيلين عنه في المملكة.[١]

وعاشت مملكة القدس بعده بدون وجود ملك يدير شؤونها، فما كان من أمرائها وباروناتها إلا أن أرسلوا إلى فردريك في بداية عام ٦٢٧هـ/ نهاية ١٢٢٩م يعرضون عليه إرسال ابنه كونراد الرابع (ابن الملكة يولاند) إلى الشام ليكون ملكاً على مملكة القدس اللاتينية الثانية، كونه الممثل الشرعي الوحيد للسلالة الشرعية لملوك هذه المملكة، وقد سلف شرح شرعيته بتفصيل دقيق أثناء الحديث عن وراثة العرش في عكا. والذي يهم هنا هو موقف الإمبراطور فردريك الذي لم يستجب لطلبهم، وأصرَّ على إخضاعهم عسكرياً لسلطته عن طريق حملة عسكرية يقودها فلانجيري عام ١٢٣١م، إلا أنها أخفقت في مهمتها، وزادت الطين بلة بأنها ضاعفت انقسام وتفكك الصليبيين في بلاد الشام، فصور ظلت في يد القوات الإمبراطورية، وخضعت بيروت لصاحبها حنا دي ابلين John of Ibelin، وتشكَّل في عكا في ١٢٣٢م قومون أول مجلس بلدي يرأسه حنا دي ابلين نفسه كما تقدَّم ذكره في الحديث عن النظام السياسي لمملكة القدس، أما بيت المقدس فقد حكمها مندوب عن الإمبراطور، في حين استمرت بقية المدن الصليبية في بلاد الشام مستقلة عن النفوذ الإمبراطوري.[٢]

ولما أدرك فردريك اخفاق سياسته العسكرية في إخضاع بارونات مملكة القدس الصليبيين والصيت السيء لنائبه بها لجأ إلى الوسائل السياسية والدبلوماسية، وبعث برسالة إليهم معلناً فيها عزله لنائبه فيها (فلانجيري) من منصبه، وإحلال محله أحد الأمراء المحليين، وهو فيليب دي موجاستيل Maugastel، ولكن ذلك لم يلق ترحيباً في الأوساط المحلية كون الأخير من أشد أنصار الأول،[٣] واستمرت الفوضى تنخر في مملكة القدس، وتصاعدت الخلافات والفوضى فيها إلى أن تدخَّل البابا -بعد أن تصالح مع الإمبراطور وحل السلام بينهما منذ صلح سان جرمانو في ٢٣ تموز ١٢٣٠م، وأُلغي الحرمان الكنسي، وتم استقبال فردريك في الكنيسة على أنه الابن العزيز في المسيح[٤] لحل ذلك الخلاف، وأرسل في سنة

---

[١] دي نافار، حروب فردريك، عن الموسوعة، ج٣٥، ص٤٧-٤٩. الراهب الدومينيكاني، عن الموسوعة، ج٤٣، ص١١٦٨.

[٢] للمزيد عن الصراعات والنزاعات في هذه المرحلة راجع دي نافار: حروب فردريك، عن الموسوعة، ج٣٥، ص٥٠-٥٧. ولمزيد من التفاصيل عن حملة فيلانجيري انظر: حمزة: العلاقات السياسية، ص٣٣٤-٣٣٥.

[٣] دي نافار: حروب فردريك، عن الموسوعة، ج٣٥، ص٥٧.

[٤] دي نافار: حروب فردريك، عن الموسوعة، ج٣٥، ص٥١.

٦٣١هـ/ ١٢٣٤م رئيس أساقفة رافينا مندوباً عنه إلى هناك، فاقترح ذلك المندوب أن يدخل الأمراء في طاعة فلانجيري الذي عاد إلى صور، إلا أن الأمراء عارضوا ذلك الاقتراح، وأعاد البابا محاولته في العام التالي، وكتب لهم يخبرهم بأن فردريك – بوصفه وصياً على ابنه كونراد– هو صاحب الحق الشرعي في عرش مملكة القدس اللاتينية الثانية، وله حق الإشراف على جميع شؤون الصليبيين بها، بما في ذلك حق تعيين الموظفين الرسميين، والإشراف على القلاع وفرض الضرائب وغيرها، وأن أمراء الشام أساؤوا التصرف ازاء حكامهم، ولكن عفا الله عما سلف، وأن البابا يرى العفو عن جميع أمراء الشام الثائرين ضد فردريك ما عدا آل ابلين الذين يجب محاكمتهم أمام المحكمة العليا في القدس، أما قومون عكا فينبغي حله فوراً. إلا أن بارونات المملكة لم يقبلوا بذلك، ورفضوا اقتراحات البابا رفضاً كلياً، وتمسكوا بكونراد الرابع بن فردريك، بوصفه الوريث الشرعي الوحيد لمملكة القدس اللاتينية الثانية، وأرسلوا إلى البابا يشرحون له أسباب رفضهم السلام مع وكلاء فردريك، واستمر الموقف على ما هو عليه من التوتر.[١]

لهذا يمكن القول: إن مملكة القدس اللاتينية قد انشغلت عن الصراع مع الأيوبيين بمشاكلها ونزاعاتها الداخلية، ولا يمكن الحديث عن نزاعات عسكرية مع الأيوبيين إلا بما يتعلق مع الاسبتارية والداوية في شمال بلاد الشام، كأحداث عام ٦٢٧هـ/ ١٢٢٩م كما سيأتي شرحها.

والذي ساعد على **جمود الموقف** بين الطرفين هو أنه **لم يكن الأيوبيون أفضل حالاً من الصليبيين**، ووصلوا بعد صلح يافا إلى ذروة ضعفهم وانحلالهم، ولا يمكن القول إنهم أخفقوا في استغلال الظروف السيئة التي كان عليها الصليبيون بعد مغادرة فردريك لمملكة القدس، ويمكن القول إنهم لم يحاولوا البتة استغلال تلك الظروف، وتغنوا بشعارات الحزن والأسف العميق على ضياع القدس من أيديهم، ولا تذكر المصادر العربية أي محاولة أيوبية لاسترداد القدس من أيدي الصليبيين طيلة مدة المعاهدة على الرغم من بقاء تلك المدينة مهدمة الأسوار ضعيفة التحصينات خالية من أي حاكم أو جيش صليبي يحميها.

وفي المصادر اللاتينية توجد إشارة واحدة لدى فيليب دي نافار فقط، وبها يُشير إلى محاولة بسيطة لاسترداد القدس قام بها بعض البداة، إلا أن وكيل الإمبراطور – بالين صاحب صيدا– تمكن من إحباطها، وزاد عليها بأن حصل على اعتراف النظام الحاكم الجديد في دمشق بمعاهدة يافا.[٢]

---

[١] دي نافار: حروب فردريك، عن الموسوعة، ج٣٥، ص٥٩-٦١.

[٢] دي نافار: حروب فردريك، عن الموسوعة، ج٣٥، ص٥٠.

وهنا يتساءل الباحث عن الأسباب التي دفعت الأيوبيين إلى سلوك جانب الجمود تجاه القدس بشكل خاص وتجاه الصليبيين بشكل عام؟

هل كانت هناك تحديات داخلية أو خارجية واجهت الأيوبيين فانشغلوا بها عن إثارة حرب مع صليبيي مملكة القدس بشكل خاص والصليبيين بشكل عام؟

لدى البحث في تلك الأسباب والتحديات يلوح فوراً في الأفق خطرا الخوارزمية والمغول، فالخوارزمية وإن كانوا حلفاء للمعظم عيسى إلا أن عصره ومجده قد انتهى وولى من بلاد الشام منذ وفاته في نهاية عام ٦٢٤هـ/ ١٢٢٧م، وعلى العموم فإن الخوارزمية لم يكونوا موثوقي الجانب، وربما تجاوزوا أعمال المغول في الهمجية والعنف والتخريب؛ وإن كانت تلك البلاد إسلامية، وضربوا مثالاً حياً على ذلك بهجومهم عام ٦٢٧هـ/ ١٢٣٠م على خلاط واستيلائهم عليها بعد حصار دام ستة أشهر، ووضعوا فيها السيف وقتلوا وأسروا ونهبوا الكثير، وتذكر الروايات أنه كان من جملة الأسرى زوجة السلطان الأيوبي الأشرف موسى، وأن جلال الدين الخوارزمي قد انتهك عرضها بالليلة نفسها التي استولى فيها على خلاط.[١]

حقيقةً أن تلك الهمجية الخوارزمية أخافت الحكام الأيوبيين فتناسوا القدس، وتناسوا خصوماتهم مع مملكة القدس اللاتينية الثانية، كما تناسوا خلافاتهم الداخلية فيما بينهم، ولجأوا للتحالف مع سلطان سلاجقة الروم "علاء الدين كيقباذ الأول" ضد جلال الدين الخوارزمي، ودارت معركة كبيرة بين الفريقين قرب أرزنجان في رمضان ٦٢٧هـ/ آب ١٢٣٠م، وكانت بها هزيمة ساحقة للخوارزمية، وقتل خلالها معظم عسكرهم، "وامتلأت الجبال والأودية منهم، وشبعت الوحوش والطيور من رممهم"[٢].

ولم يطل أمد سلطانهم جلال الدين الخوارزمي؛ إذ قُتل في العام التالي عَقِبَ معركة مع المغول، وتمزقت دولته شر ممزق، وهامت جموع الخوارزمية في كثير من بلدان الشرق الإسلامي يعرضون خدماتهم على من يدفع لهم أكثر.[٣]

ومع انتهاء خطر الخوارزمية إلا أن الأيوبيين لم يتفرغوا بذلك للصليبيين، إذ برز لهم خطر أعظم من ذلك كان يقف خلف الخوارزميين، وهو خطر القبائل المغولية الذين احتلوا بلاد فارس سنة ١٢٣١م، ثم

---

[١] أبو الفداء: المختصر، ج٣، ص١٤٧.

[٢] ابن تغري بردي: النجوم، ج٦، ص٢٧٣.

[٣] ابن تغري بردي: النجوم، ج٦، ص٢٧٥. عاشور: الحركة الصليبية، ج٢،ص٢٦٣.

استولوا على جميع أراضي الدولة الخوارزمية، وأصبحوا على قرب من عاصمة الخلافة الإسلامية "بغداد"، كما أصبحوا على قرب من أملاك الأيوبيين في الجزيرة.

وتزامن ذلك مع خلاف خطير بدأ يظهر في ذلك الوقت الضيق بين الأيوبيين وسلاجقة الروم بسبب أطماع حاكمهم سلطان قونية علاء الدين (١٢١٩-١٢٣٧م) في خلاط والرها وحران، منذ ابعاد خطر الخوارزمية عنها، ومن ثم ساءت علاقاته مع الأيوبيين، وقاد الكامل جيشاً أيوبياً موحداً من جميع الجهات، وزحف على الأناضول عام ٦٣١هـ/ ١٢٣٤م لتأديب علاء الدين وإبعاد أطماعه عن تلك المناطق، إلا أن ذلك الجيش أخفق في مهمته، وعاد أدراجه بسبب خلاف دبَّ بين الملوك الأيوبيين، ودخولهم دوامة النزاع الأيوبي الأيوبي، فاستغل السلاجقة ذلك لاحتلال آمد وخرتبرت وحران والرها سنة ٦٣٢هـ/ ١٢٣٥م.[١]

ومن جديد انشغل الأيوبيون في صراعاتهم الداخلية، حيث تصاعدت وتيرته في عام ٦٣٤هـ/ ١٢٣٧م، إلا أنه في عام ٦٣٥هـ/ ١٢٣٨م حدثت تبدلات سياسية وقيادية كبيرة، كان على رأسها وفاة الأشرف موسى، ثم تبعه بعد قليل أخوه الكامل محمد، وكان قد سبقهما في العام السالف ملك حلب العزيز غياث الدين بن الظاهر.

وكانت وفاة الكامل نذيراً بتفكك الدولة الأيوبية وانهيارها، إذ إنه على الرغم من تناقض الأقوال والآراء فيه لاقترافه جريمة تسليم القدس للصليبيين؛ إلا أن المؤرخين المعاصرين له يمتدحونه على حُسن سياسته، ويصورونه على أنه رجل دولة بامتياز، فأبو الفداء يصفه بأنه: "ملكاً جليلاً مهيباً حازماً حسن التدبير، أمنت الطرق في أيامه، وكان يباشر تدبير المملكة بنفسه".[٢]

وأفاض المقريزي في وصف حبه للعلم والعلماء، وحُسن سياسته وشدة سلطته، وبعده عن سفك الدماء وبغضه لذلك، فيقول عنه: "حسن التدبير لمماليكه، عفيفاً عن الدماء، وبلغ من مهابته أن الرمل – فيما بين العريش ومصر– كان يمر فيه الواحد بالذهب الكثير والأحمال من الثياب من غير خوف"[٣].

---

[١] ابن تغري بردي: النجوم، ج٦، ص٢٨٢-٢٨٣، ٢٨٧. الحنبلي: شفاء القلوب، ص٣١٤-٣١٥.

[٢] أبو الفداء: المختصر، ج٣، ص١٦١. للاستزادة أنظر: الذهبي: تاريخ الإسلام، ج٤٦، ص٢٥٨.

[٣] المقريزي: السلوك، ج١، ص٣٨١.

وبعد وفاة الكامل غرقت مصر – زعيمة الأيوبيين آنذاك– في صراع على العرش بين العادل الثاني وأخيه الصالح نجم الدين أيوب، وامتد ذلك الصراع ليشمل جميع الزعامات الأيوبية في بلاد الشام، إلى أن تمكن الأخير من السيطرة على عرش مصر في عام ٦٣٨هـ/ ١٢٤٠م، ولكن لم تنتهِ مشاكل ونزاعات الأيوبيين بذلك، وإنما دخل الصالح أيوب –حاكم مصر الجديد– في نزاع جديد مع أيوبيي بلاد الشام، ولاسيما مع عمه الصالح إسماعيل الذي سيطر على دمشق آنذاك بموجب وصية أخيه الأشرف موسى.[1]

والذي يهم هنا هو العلاقات مع مملكة القدس اللاتينية الثانية، فلا بدَّ أنها شهدت مرحلة هدوء واستقرار، وذلك للين الجانب الأيوبي وانشغاله في الصراع الداخلي، وكذلك مملكة القدس لم تكن أفضل حالاً ولا أكثر راحةً في أمرها من الأيوبيين، إذ إنها غرقت أيضاً في صراع داخلي شديد، قبل وبعد رحيل فردريك الثاني عنها، واستمرت العلاقات هادئة بين الطرفين الأيوبي والصليبي حتى اجتياح الخوارزمية للمنطقة وسيطرتهم على القدس عام ٦٣٧هـ/ ١٢٣٩م، وعلى الرغم من عدم رضى الطرفين بمعاهدة وصلح يافا – منذ البداية– إلا أن الموقف تجمَّد وهدأت الجبهات بين الطرفين طيلة مدتها ٦٢٦-٦٣٦هـ/ ١٢٢٩-١٢٣٩م، وكل ما يمكن الحديث عنه خلال مدة المعاهدة هو هجمات بسيطة قام بها كل من اسبتارية وداوية شمال بلاد الشام آنذاك.

---

[1] للمزيد عن الصراعات الأيوبية الأيوبية في هذه المرحلة انظر:

ابن العميد: أخبار الأيوبيين، ص٢٤-٢٧. أبو الفداء: المختصر، ٣، ص١٥٩-١٦١. ابن واصل: مفرج الكروب، ج٥، صفحات متفرقة ١١٤-٢٧٠. ابن العديم: زبدة الحلب، ج٢، ص٦٨٣-٦٩٣. النهار: هكذا سلم هؤلاء بيت المقدس، ص١٠٨-١٠٩. حومد: تاريخ الجهاد، ج٢، ص٢٥٧-٢٦٢. عاشور: الحركة الصليبية، ج٢، ص٢٦٤-٢٦٦.

**ب- اعتداءات الاسبتارية على مملكة حماة**

في أواخر خريف عام ٦٢٦هـ/ ١٢٢٩م استغل الاسبتارية المقيمون في حصن الأكراد النزاع الأيوبي الأيوبي الناشب آنذاك، واعتداءات الخوارزمية على أملاكهم في الجزيرة وسيطرتهم على العاصمة خلاط – كما سلف ذكره– فقاموا بالهجوم على قلعة بعرين وما حولها التابعة لحماة، فقتلوا وأسروا جماعات من التركمان كانوا يعيشون مع مواشيهم حول القلعة، وعادوا بغنائم وأسرى كثر، ولم يستطع حاكم حماة آنذاك المظفر تقي الدين الثاني محمود بن المنصور مواجهتهم، واضطر إلى مراسلتهم والتعهد لهم بدفع الجزية.[١]

وعندما حلَّ أجل دفع الجزية لم يؤدِ الملك الأيوبي صاحب حماة ما أوجبه على نفسه لاسبتارية حصن الأكراد؛ لذا قامت قوة منهم مدعومة بالداوية بالإغارة على حماة في رمضان ٦٢٧هـ/ تموز ١٢٣٠م، وقدِّرت أعدادهم آنذاك بخمسمئة فارس وألفين وسبعمئة راجل، إلا أن الملك المظفر صاحب حماة تمكن من رد تلك القوات، وحقق نصراً كبيراً عليهم عند قرية لفيون أو أفيون[٢]، وأسر أعداداً كبيرة منهم، وهرب الباقون على أقبح صورة، ودخل الملك المظفر محمود حماة مظفراً منصوراً.[٣]

إلا أن الاسبتارية لم يركنوا لذلك، واستمروا في المطالبة بأخذ الجزية التي أقرَّ بها المظفر ملك حماة من قبل، وأصرَّ الأخير على عدم الدفع، فاستنجد الاسبتارية بإخوانهم في المناطق المجاورة لهم، وتجمعوا في تشرين الأول ١٢٣٣م في البقيعة تحت حصن الأكراد، وشنوا هجوماً كبيراً على قلعة بعرين تمكنوا خلاله من السيطرة عليها واستباحوها مدة أسبوع ثم عادوا إلى بلادهم، والغرابة في الموضوع أنه لم يخرج لمواجهتهم المظفر ملك حماة أو أي أحد من رجاله.[٤]

---

[١] الحايك: العلاقات الدولية، ج٢، ص١٨٥. حومد: تاريخ الجهاد، ج٢، ص٢٥٣.

[٢] كانت هذه القرية تقع بين مدينة حماة وبارين، (أبو الفداء:المختصر: ج٣، ص١٤٧)، ولا يزال تلُّ أفيون يحمل الاسم نفسه حتى الوقت الراهن، وهو قرب قرية كفربهم الحالية، إلى الجنوب الغربي من حماة، وقربه القرية التي تُعرف بخربة أفيون. انظر: الحايك: العلاقات الدولية، ٢، ص١٨٥. المعجم الجغرافي للقطر العربي السوري، مادة كفربهم.

[٣] أبو الفداء: المختصر، ٣، ص١٤٧. ابن واصل: مفرج الكروب، ج٤، ص٣٠٣. ابن العبري: تاريخ الزمان، ص٢٧٧. الحايك : العلاقات الدولية، ج٢، ص١٨٥.

[٤] باربير، مالكولم: الفروسية الجديدة (تاريخ لرهبانية الداوية)، تر: سهيل زكار، الموسوعة الشاملة، دمشق ٢٠٠٧م، ج٥٢، ص١٩٦. حومد: تاريخ الجهاد، ج٢، ص٢٥٣.

ويبدو أن المظفر لم يرغب بالدخول معهم في حرب مفتوحة لوحده، وأنه فضَّل التريث ريثما يكتمل تجمع الجيوش الأيوبية في وسط سوريا - شمال سلمية- في شهر رمضان ٦٣١هـ/ حزيران ١٢٣٤م، ذلك التجمع الذي ضم قوات مصر بقيادة الكامل وقوات الأردن بقيادة الناصر داود وقوات الجزيرة ودمشق بقيادة الأشرف موسى، وغيرهم من القوات والأمراء الذين تتالى انضمامهم للجيش، ومثَّل ذلك شكلاً جميلاً من أشكال الوحدة الأيوبية التي كثيراً ما كانت سريعة التبدد، وعن ذلك التجمع يقول ابن واصل: "وشاهدت من عظمة العساكر وكثرتها يومئذٍ ما غلب على ظني أنه لم يجتمع مثله في الأعصار القريبة منا لملك من الملوك"[١].

والمهم أن هذا الجمع اتخذ قراراً بالمسير إلى حماة لرد الصليبيين الذين اعتدوا على قلعة بعرين، وفي نيتهم المتابعة نحو الشمال، ولكن يبدو أن الصليبيين لم يرغبوا في الدخول في حرب مفتوحة مع المسلمين، فاكتفوا بما سلبوه من بعرين وانسحبوا منها قبل أن يصلهم الجيش الأيوبي،[٢] فَغَيَّر هذا الجيش مسيره إلى الشمال لإنقاذ خلاط من هجمات السلطان السلجوقي كيقباد، وذلك في عام ٦٣١هـ/ حزيران ١٢٣٤م، إلا أن هذا الجيش أخفق في هذه المهمة بسبب التخاذل الذي حصل في عسكره، وانتشار الفتنة بينهم، وعاد كل واحد من الملوك إلى بلده في بداية سنة ٦٣٢هـ/ نهاية ١٢٣٤م، وفي العام التالي تمكن الكامل من استرجاع حران والرها من يد كيقباذ صاحب بلاد الروم.[٣]

---

[١] ابن واصل: مفرج الكروب، ج٥، ص٧٤-٧٥.

[٢] أبو الفداء: المختصر،ج٣، ص١٥٤. حومد: تاريخ الجهاد، ج٢، ص٢٥٤.

[٣] للمزيد راجع أبو الفداء: المختصر، ج٣، ص١٥٤-١٥٨. ابن واصل: مفرج الكروب، ج٥، ص٧٤-٧٨، ٨٧-٨٨، ١٠٩-١١٠. ابن العديم: زبدة الحلب، ج٢، ص٦٧٣-٦٧٥. سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان، ج٢٢، ص٣٢٦. ابن تغري بردي: النجوم، ج٦، ص٢٥١. الحنبلي: شفاء القلوب، ص٣١٥-٣١٦.

## ج- اعتداءات الداوية على مملكة حلب

ارتبطت علاقات مملكة حلب مع مملكة القدس اللاتينية الثانية بعلاقاتها مع دمشق والقاهرة، وانفردت بعلاقات طيبة خاصة مع امارتي أنطاكية وطرابلس، إلا أن الداوية كثيراً ما تمردوا على ذلك وشنوا هجمات متعددة على حلب، كهجومهم المخفق على سهل العمق في عام ٦١٣هـ/ ١٢١٦م. ولم يكن الداوية أقل امتعاضاً من الاسبتارية بصلح ومعاهدة يافا عام ٦٢٦هـ/ ١٢٢٩م، واستمروا في تحرشاتهم بالمسلمين، وربما ذلك رغبةً منهم في إحراج فردريك في موقفه وعلاقاته مع المسلمين، حيث قاموا عَقِبَ توقيع صلح يافا بالهجوم على مدينة جبلة، وتمكنوا من الاستيلاء عليها بغتةً، وكانت تتبع آنذاك اللاذقية التي هي من ممتلكات مملكة حلب، وعلى الفور جهَّز الوصي على عرش الأخيرة آنذاك - شهاب الدين طغريل- حملة كبيرة جعل على رأسها بدر الدين بن الوالي، وجعل جبلة كإقطاع له بعد تحريرها، وعلى الفور هرب الفرنج منها، وتعقبهم بدر الدين حتى حصن المرقب، حيث تحصَّنوا به، وحاصرهم به، وأخذ منهم حصن بانياس وأخربه، وأطلق مَن به مِن أسرى المسلمين، وبعد عدة مناوشات تم توقيع الصلح بينهما في ٢٠ شعبان ٦٢٨هـ/ حزيران ١٢٣١م، وتذكر المصادر أن الصلح شمل الاسبتارية والداوية معاً.[١]

وكان من أهم الاعتداءات الصليبية على مناطق المسلمين تلك التي أتت من داوية قلعة بغراس الذين ما فتئوا في المطالبة بحصن دربساك الذي أخذه منهم صلاح الدين في عام ١١٨٨م، ولطالما أغراهم هذا الحصن المجاور لقلعتهم الذي لا يبعد عنهم سوى ١٥كم، ويقع على طريق المواصلات بين أرمينية وأنطاكية، وحاولوا مراراً الاستيلاء عليه واسترداده من المسلمين، إلا أنهم باؤوا بالإخفاق لقوة حاميته، وفي عام ٦٣٤هـ/ ١٢٣٦م استغلوا وفاة الملك العزيز صاحب حلب وأغاروا على سهل العمق، "واستاقوا أغناماً للتركمان، ومواشي لغيرهم كثيرة"[٢]، فخرج إليهم المعظم توران شاه بن صلاح الدين -الوصي على ملك حلب الصغير- على رأس جيش حاصر بغراس وخربها، وكاد أن يأخذها إلا أنه تراجع عنها وفقاً لهدنة مع صاحب أنطاكية، ونزل ذلك الجيش بالقرب من حصن دربساك دون أن يعلم بذلك داوية بغراس الذين ما إن انصرف عنهم جيش حلب حتى جمعوا شملهم "واستنجدوا بصاحب جبيل وغيره من الفرنج، وجمعوا

---

[١] ابن واصل: مفرج الكروب، ج٤، ص٣١٠-٣١١. ابن العديم: زبدة الحلب، ج٢، ص٦٦٨. الحايك: العلاقات الدولية، ج٢، ص١٩١.

[٢] ابن العديم: زبدة حلب، ج٢، ص٦٨١.

راجلاً كثيراً"[١]، وحاصروا دربساك من جديد، فدارت الدائرة عليهم، "وولى الفرنج منهزمين، وكثر فيهم القتل والأسر"[٢]، "ولم ينج منهم إلا القليل"، وكان من جملة القتلى مقدم الداوية الأكبر وليم مونتفرات.[٣]

لقد كسرت هذه الحادثة شوكة الداوية، فلم يعودوا بعدها إلى إثارة أي قلاقل، وساد الهدوء الجبهة بعد تلك الحادثة، ويبدو أن الداوية دخلوا ضمن الهدنة الموقعة بين أنطاكية وحلب، إذ يقول ابن العديم: "وفَتَّتْ هذه الوقعةُ في أعضادَ الداويّة بالساحل، ولم ينتعشوا بعدها، وكانوا قد استطالوا على المسلمين والفرنج"[٤].

واستمرَّ أسراهم في سجون مملكة حلب حتى عام ٦٣٨هـ/ ١٢٤٠م، حيث تلقَّت مملكة حلب وجيشها آنذاك ضربة كبيرة على يد الخوارزمية،[٥] وعلى الرغم من أن الداوية كانوا آنذاك منشغلين وغير قادرين على إلحاق أي أذى بمملكة حلب؛ إلا أن أيوبيي حلب فضَّلوا آنذاك إطلاق سراح أسراهم كإجراء احترازي استكفاءً لشرهم، وإشارة منهم إلى رغبتهم في استمرار السلام بين الطرفين، ويبدو أن هدنة غير معلنة استمرت قائمة بين الجانبين لسنوات عدة، واستمرت الجبهة هادئة بينهما حتى قدوم المغول إلى المنطقة في عام ٦٥٨هـ/ ١٢٦٠م.[٦]

ويمكن القول إن الداوية والاسبتارية تأثروا بروح اتفاقية يافا، وما تبعها من هدوء وعلاقات سياسية هادئة على الجبهات، فركنوا إلى ذلك ودخلوا في معاهدات وعلاقات هادئة مع المسلمين.

---

[١] ابن العديم: زبدة الحلب، ج٢، ص٦٨١-٦٨٢. للاستزادة أنظر: أبو الفداء: المختصر، ج٣، ص١٥٩.

[٢] أبو الفداء: المختصر، ج٣، ص١٥٩.

[٣] ابن العديم: زبدة الحلب، ج٢، ص٦٨٢. للاستزادة أنظر: التاريخ الكبير، ج١، عن الموسوعة، ج٤٦، ص٦٩-٧٠.

[٤] ابن العديم: زبدة الحلب، ج٢، ص٦٨٢.

[٥] للمزيد راجع ابن العديم: زبدة الحلب، ج٢، ص٦٩٤-٦٩٨.

[٦] ابن العديم: زبدة الحلب، ج٢، ص٦٩٨. الحايك: العلاقات الدولية، ٢، ص١٩٢.

# الفصل السادس

**العلاقات الأيوبية مع مملكة القدس اللاتينية الثانية منذ انتهاء صلح يافا في عام ٦٣٦هـ/ ١٢٣٩م حتى انهيار سلطة الأيوبيين عام ٦٥٦هـ/ ١٢٥٨م، والدور الذي شغلته المملكة في هذه المرحلة ..... ٤٠٧**

**المبحث الأول ..... ٤٠٧**

**العلاقات بين الأيوبيين ومملكة القدس اللاتينية الثانية بعد انتهاء صلح يافا حتى مجيء الحملة الصليبية السابعة (٦٣٦- ٦٤٧هـ/ ١٢٣٩-١٢٤٩م) ..... ٤٠٧**

**(التحرير الثاني والثالث للقدس، ومعارك غزة الأولى والثانية والثالثة) ..... ٤٠٧**

**أولاً: أوضاع الأيوبيين والصليبيين عند انتهاء صلح يافا، ووصول الحملة الفرنسية بقيادة ثيوبولد الرابع ..... ٤٠٧**

**ثانياً: معركة غزة الأولى في بداية ربيع الآخر ٦٣٧هـ/١٢ تشرين الثاني عام ١٢٣٩م ..... ٤١٢**

**ثالثاً: إغارة الناصر داود على القدس عام ٦٣٧هـ/ ١٢٣٩م (التحرير الثاني للقدس) ..... ٤١٦**

**رابعاً: التحالفات الجديدة والسباق إلى تقديم التنازلات وعقد الأحلاف الخارجية ضد الخصوم الداخليين (الداوية ودمشق ضد الاسبتارية والقاهرة)، ومعركة غزة الثانية عام٦٣٨هـ/١٢٤٠م ..... ٤١٨**

**خامساً: العلاقات بين الأيوبيين ومملكة القدس اللاتينية الثانية أثناء وجود الحملة الصليبية الإنكليزية (حملة ريتشارد كورنوال) ٦٣٨هـ/ ١٢٤٠-١٢٤١م ..... ٤٢٧**

**سادساً: التسليم الثاني للقدس ٦٤١هـ/ ١٢٤٣م (تقارب دمشق في علاقاتها مع مملكة القدس اللاتينية الثانية وتباعدها مع القاهرة) ..... ٤٢٩**

**سابعاً: التحرير الثالث للقدس، ومعركة غزة الثالثة في جمادى الأولى سنة ٦٤٢هـ/ تشرين الأول ١٢٤٤م (غزة الكبرى أو حطين الثانية) ..... ٤٣٧**

**ثامناً: تطور العلاقات الأيوبية مع مملكة القدس اللاتينية بعد معركة غزة ٦٤٢هـ/ ١٢٤٤م حتى قدوم الحملة الصليبية السابعة ٦٤٧هـ/ ١٢٤٩م. ..... ٤٤٩**

**المبحث الثاني ..... ٤٥٤**

**العلاقات الأيوبية مع مملكة القدس اللاتينية الثانية خلال الحملة الصليبية السابعة ٦٤٧-٦٤٨هـ/ ١٢٤٩-١٢٥٠م ٤٥٤**

**أولاً: العلاقات العسكرية ..... ٤٥٤**

**ثانياً: المراسلات والعلاقات الدبلوماسية أثناء الحملة السابعة ..... ٤٦٢**

**ثالثاً: تجدد المفاوضات الدبلوماسية ..... ٤٦٨**

**رابعاً: مفاوضات لويس توران شاه ..... ٤٧٠**

**المبحث الثالث ..... ٤٨٠**

**علاقات أيوبيي بلاد الشام مع مملكة القدس اللاتينية الثانية منذ إخفاق الحملة السابعة ٦٤٨هـ/ ١٢٥٠م حتى الانهيار النهائي لسلطة الأيوبيين على يد المغول عام ٦٥٦هـ/ ١٢٥٨م ..... ٤٨٠**

**أ- أثناء وجود لويس في مملكة القدس: ..... ٤٨٠**

**ب- انهيار سلطة الأيوبيين ..... ٤٩٤**

# الفصل السادس

# العلاقات الأيوبية مع مملكة القدس اللاتينية الثانية منذ انتهاء صلح يافا في عام ٦٣٦هـ/ ١٢٣٩م حتى انهيار سلطة الأيوبيين عام ٦٥٦هـ/ ١٢٥٨م، والدور الذي شغلته المملكة في هذه المرحلة

## المبحث الأول

## العلاقات بين الأيوبيين ومملكة القدس اللاتينية الثانية بعد انتهاء صلح يافا حتى مجيء الحملة الصليبية السابعة (٦٣٦- ٦٤٧هـ/ ١٢٣٩-١٢٤٩م)

**(التحرير الثاني والثالث للقدس، ومعارك غزة الأولى والثانية والثالثة)**

### أولاً: أوضاع الأيوبيين والصليبيين عند انتهاء صلح يافا، ووصول الحملة الفرنسية بقيادة ثيوبولد الرابع

ما إن انتهت مدة صلح يافا عام ٦٣٦هـ/ ١٢٣٩م -وربما قبله بقليل- حتى بدأ التصعيد يخيم على المنطقة، وهنا لا بدَّ من بسط الحديث قليلاً عن التبدلات السياسية والقيادية والنزاعات الداخلية التي اجتاحت الأيوبيين آنذاك، وذلك بما يخدم موضوع تطور علاقاتهم مع الصليبيين بعد انتهاء صلح يافا.

فالأشرف موسى حاكم دمشق دخل قبل وفاته بقليل في نزاع كبير مع أخيه الأكبر الكامل محمد صاحب مصر، وضم الأشرف إلى جانبه أسد الدين شيركوه صاحب حمص،[1] وكان ذلك النزاع السبب المباشر لإخفاق الحملة الأيوبية على سلاجقة الروم عام ١٢٣٤م، كما سلف شرحه.

وقبل وفاة الأشرف موسى في ٤ محرم ٦٣٥هـ/ نهاية آب ١٢٣٧م قد أوصى بأن يخلفه في حكم دمشق أخوه الصالح عماد الدين إسماعيل، وقاد الأخير في بداية حكمه لدمشق تحالفاً أيوبياً جديداً ضد

[1] لمزيد من التفاصيل راجع سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان، ج٢٢، ص٣٤٠-٣٤١.

أخيه الكامل، وشمل هذا التحالف جميع أيوبيي بلاد الشام باستثناء المظفر تقي الدين الثاني صاحب حماة، والناصر داود صاحب الأردن والكرك، إلا أن الكامل تمكن بحنكته وذكائه من تبديد ذلك التحالف، وتقدَّم لمحاصرة دمشق، واستمر حتى استسلمت له، فعزل أخيه الصالح إسماعيل عنها وعوضه عنها ببعلبك والبقاع وبصرى والسواد.[١]

وتوفي الكامل في العام نفسه ٦٣٥هـ/ آذار ١٢٣٨م، وتصاعد النزاع الأيوبي الأيوبي بعده، حيث ورثه في الحكم ابنه العادل الصغير، ونازعه في ذلك أخوه الصالح نجم الدين أيوب، وتمكن الملك الجواد يونس ابن مودود من الوصول إلى سدة الحكم في دمشق كنائب بها عن العادل الصغير، وذلك بعد نزاع مع الناصر داود الذي كان يعدُّ نفسه صاحب الحق بها[٢]، ولم يُخلص الجواد بها للعادل، ودبت الوحشة بينهما، فراسل الصالح أيوب، واتفق معه على تسليمه دمشق مقابل أن يعوضه عنها بالرقة وسنجار وعانة، فدخل الصالح أيوب دمشق برفقة الخوارزمية، وتسلمها من الملك الجواد في جمادى الآخرة ٦٣٦هـ/ ١٢٣٩م.[٣]

كان ذلك سبب مباشر لنزاع الصالح أيوب مع أخيه العادل حاكم مصر، وتطور ذلك النزاع، واستعان كلاهما بأنصار داخليين وخارجيين، وكان النصير الخارجي هو الخوارزميين الذين كانوا قد تفرقوا في بلاد الشام وغيرها يعرضون خدماتهم على من يدفع لهم أكثر، وتزامن ذلك مع نزاع نشب بين أسد الدين شيركوه صاحب حمص وبين المظفر تقي الدين الثاني صاحب حماة، فانضمت حمص لمصر، وانضمت حماة لدمشق، واتصل حاكم الأخيرة مع عمه الصالح إسماعيل حاكم بعلبك واتفقا على قصد مصر، وفي طريقه إلى مصر استولى الصالح أيوب على بلاد الناصر داود، فهرب الأخير إلى مصر وانضم إلى حِلفها، وعَسْكَرَ أيوب في نابلس في نهاية عام ٦٣٦هـ/ ينتظر وصول عمه الصالح إسماعيل[٤] الذي لم تنقطع كُتبه عنه "ويَعِدُه بها أنّه واصل إلى خدمته" في نابلس، إلا أن إسماعيل كان آنذاك يتفق مع صاحب حمص أسد

---

[١] سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان، ج٢٢، ص٣٤٧، ٣٥٦-٣٥٧. أبو الفداء: المختصر، ج٣، ص١٦٠. نهاية الأرب، ج٢٩، ص٢٢٣-٢٢٦.

[٢] للمزيد عن النزاع على حكم دمشق بين الجواد يونس والناصر داوود انظر: سبط ابن الجوزي: سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان، ج٢٢، ص٣٤٨-٣٤٩.

[٣] سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان، ج٢٢، ص٣٥٨. أبو الفداء: المختصر، ج٣، ص١٦٣. ابن العديم: زبدة الحلب، ج٢، ص٦٩١. أبوسعيد: الجبهة الإسلامية، ص٢٥٢.

[٤] سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان، ج٢٢، ص٣٥٩. اليونيني: ذيل مرآة الزمان، ج٢، ص٨٥.

الدين شيركوه على الصالح أيوب، واتفقا "أن تكون البلاد بينهما مناصفة"[١]، وبدلاً من أن يسير الصالح إسماعيل بجيوشه إلى نابلس توجَّه إلى دمشق، وتمكن من دخولها في ربيع الأول ٦٣٧هـ/ نهاية ١٢٣٩م، وتعرّض الصالح أيوب وهو في نابلس للأسر والسجن على يد الناصر داود صاحب الكرك.[٢] واستاء الناصر لسيطرة عمه الصالح إسماعيل على دمشق كونه يعد نفسه أحق بها لأنها كانت تخضع لأبيه المعظم عيسى، ولما تحالف العادل الصغير مع عمه الصالح إسماعيل حاكم دمشق الجديد انقلب الناصر عليه، وتحالف مع أسيره الصالح أيوب ضدهما واتفقا على مساعدة بعضهما على أن تكون مصر للأخير ودمشق والبلاد الشرقية للناصر داود، وعندما تم للصالح أيوب مُراده ودخل القاهرة وأصبح سلطاناً عليها – منذ ٢٤ ذي القعدة ٦٣٧هـ/ ١٩ حزيران ١٢٤٠م حتى عام ٦٤٧هـ/ ١٢٤٩م- نكث بوعوده للناصر داود، ودخل في خلاف معه، بالإضافة إلى خلافه مع عمه الصالح إسماعيل حاكم دمشق، واستمر إلى أن تمكن من السيطرة على دمشق في عام ٦٤٣هـ/ ١٢٤٥م[٣].

ولا شك أن هذا الصراع (دمشق- القاهرة) شاركت فيه بقية مدن بلاد الشام التي يتزعمها أمراء أيوبيون، وانضمت إليه أيضاً أطراف صليبية -لأول مرة- إلى جانب أحد طرفي النزاع كما سيأتي شرحه.

وبعد دخول الصالح أيوب دمشق اختلف مع الخوارزمية، وانشقوا عنه، ومالوا إلى الصالح إسماعيل وتحالفوا معه ضد الأول، وانضم إليهم الناصر داود، وفرضوا على دمشق حصاراً شديداً في عام ٦٤٣هـ/ ١٢٤٥م، إلا أنه انتهى بالإخفاق بفضل مساعدة عسكر حلب وحمص للصالح أيوب، وتم تحقيق نصر كبير على الخوارزمية في معركة القصب سنة ٦٤٤هـ/ ١٢٤٦م. [٤]

---

[١] سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان، ج٢٢، ص٣٦٣.

[٢] سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان، ج٢٢، ص٣٦٤-٣٦٥.

[٣] سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان، ج٢٢، ص٣٦٦. ابن العديم: زبدة الحلب، ج٢، ص٦٩٢-٦٩٣. أبو الفداء: المختصر، ج٣، ص١٦٣-١٦٦. المقريزي: السلوك، ج١، ص٣٩٤. للاستزادة أنظر: عاشور: الحركة الصليبية، ج٢، ص٦٢٥-٦٢٦. أبو سعيد: الجبهة الإسلامية، ص٢٥٣-٢٥٥.

[٤] أبو الفداء: المختصر، ج٣، ص١٧٤-١٧٥. ابن العميد: أخبار الأيوبيين، ص٣٤. وللمزيد عن نشاط الخوارزميين في هذه المرحلة وعلاقتهم مع الصالح أيوب راجع مهنا، أسامة: نشاط الخوارزميين في الشام والجزيرة، رسالة غير منشورة أعدت لنيل درجة الماجستير في تاريخ العرب والاسلام، بإشراف أ.د. اكتمال إسماعيل، جامعة دمشق، ٢٠٠٧م، ص١٢٦-١٣٠.

ويبدو أن حلب التي طالما حاولت الوقوف على الحياد تجاه تلك النزاعات الداخلية لم يكن وضعها أفضل حالاً، وكثيراً ما اضطرت إلى خوض تلك النزاعات، بالإضافة إلى أنها تعرضت لهجمات كبيرة من قبل الخوارزمية جعلتها مشغولة جداً برد تلك الهجمات لبرهة من الزمن.[١]

وفي النهاية يمكن اختصار القول عن أوضاع الأيوبيين عند انتهاء الهدنة (صلح يافا) عام ١٢٣٩م المعقودة مع مملكة القدس اللاتينية الثانية بأن فِتَنهم كانت آخذةً بعضها برقاب بعض، كلٌ يُحِيْكُ المؤامرة والضغينة للآخر، ويتحالف مع العديد من الأطراف بهدف الإيقاع بخصمه الذي ربما كان صديقه وحليفه بالأمس القريب، تلك النزاعات الداخلية أوقعت الدولة الأيوبية في حالة شديدة من الفوضى والضعف والدمار، تزامن ذلك مع هجمات واجتياحات الخوارزمية للمنطقة، ومن خلفهم الضغط المغولي على البلاد الشرقية.

وهنا يتساءل الباحث عن موقف صليبيي مملكة القدس من تلك الأحداث والنزاعات والفوضى التي عاشتها البلاد الخاضعة للأيوبيين؟

ألم يحاول الصليبيون استغلال ذلك لتحقيق بعض التقدم والانتصارات في المنطقة ؟ وهل امتلكوا الإمكانيات لذلك؟

هل كان هناك يد للصليبيين في تلك النزاعات؟ وهل حاولوا تغذيتها وإذكاء نارها؟

ألم يحاول الصليبيون الانضمام إلى أحد أطراف الصراع الأيوبي الأيوبي؟

يمكن القول إن تلك الأحداث لم تكن تخفى على صليبيي مملكة القدس اللاتينية الثانية، لا؛ بل كانوا على أشد اطلاع واهتمام بها، إلا أن أوضاعهم – التي سلف شرحها– لم تسمح لهم بالقيام بأعمال عدوانية ضد الأيوبيين، مستغلين الصلح القائم بين الطرفين، ولكن ما إن انتهى ذلك الصلح في عام ٦٣٦هـ/ ١٢٣٩م حتى بدأ التوتر يُخيم على العلاقات الأيوبية الصليبية، وكانت البابوية قد استعدت لإرسال حملة عسكرية إلى مملكة القدس بهدف إعادة النظام والاستقرار لها،[٢] وذلك أن القدس بقيت

---

[١] للمزيد راجع، ابن العديم: زبدة الحلب، ج٢، ص٦٩٤-٧٠٩. سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان، ج٢٢، ص٣٧٤-٣٧٥. أبو الفداء: المختصر، ج٣، ص١٦٧-١٧١. سوسن: بنو أيوب،٧٣-٧٥.

[٢] عن استعدادات البابوية ونشاطها ودعايتها لحملة صليبية جديدة راجع ويندوفر: ورود التاريخ، ج٢، عن الموسوعة، ج٤٥، ص١٠١٣-١٠١٧. كذلك التاريخ الكبير، ج١، عن الموسوعة، ج ٤٦، ص٣٨-٣٩.

حتى ذلك الحين مدينة مفتوحة عديمة التحصينات، وليس بها من وسائل الدفاع والحماية ما يكفل لها الصمود أمام أي محاولة إسلامية أيوبية لطرد الصليبيين منها، وقد استجاب لدعوة البابوية آنذاك عدد كبير من زهرة الفرسان الفرنسيين، وعلى رأسهم بعض كبار الأمراء مثل ثيوبولد الرابع Theobald IV أمير شامباني Champegne، وملك نافار Navarre، وهيو الرابع Hugue IV أمير برجنديا، وبطرس موكلرك Mauclerc أمير بريتاني Bretagne، والكونت هنري دي بار Henri de Bar، وغيرهم من الأمراء والسادة الاقطاعيين[١].

وعلى الرغم من معارضة فردريك - الذي كان يَعُدُّ نفسه ملكاً لمملكة القدس- لمثل هكذا حملة فرنسية خشية أن تُؤلِّب فرنجة الشرق ضده، إلا أنه لم يكن بوسعه أن يمنعها، وكل ما استطاع فعله هو استخلاص وعد منهم بألا يحركوا ساكناً في مملكة القدس حتى انقضاء الهدنة في آب ١٢٣٩م.[٢]

وبغض النظر عن تفاصيل سير الحملة- إذ هو خارج موضوع البحث- يمكن القول إنه ما إن وصلت الحملة إلى عكا بقيادة ثيوبولد في صفر٦٣٧هـ/ ايلول ١٢٣٩م حتى كان قد انقضت الهدنة المعقودة، واحتشد في عكا جيش مؤلّف من ألف وخمسمئة فارس، وحشد لا يمكن تعداده من رماة القسي والعقارة والجنود والرجالة[٣]. وعلى الفور انعقد مجلس ليقرر الخطوة التالية، وحضر هذا المجلس الأمراء القادمون وكبار البارونات المحليين، بالإضافة إلى ممثلين عن الرهبانيات العسكرية، ونائب عن بطريرك بيت المقدس - هو رئيس أساقفة صور- وفيه أوصى البارونات المحليون بتوجيه الحملة إلى مصر، وربما كان خياراً موفقاً؛ إذ إن مصر كانت تعيش في فوضى واضطراب لسوء سياسة العادل الصغير بها، وكان هناك رأي آخر في المجلس هو أن يقوم الجيش الصليبي بتحصين قلاع الجليل وجعل دمشق هي العدو والهدف الأساسي للحملة،[٤] وربما أنهم أخذوا بعين الحسبان أن دمشق قد تَسلَّم الصالح أيوب حكمها مجدداً من الجواد يونس -كما سلف شرحه- وما لبث أن طُرِدَ منها أيوب على يد عمه الصالح إسماعيل في نهاية العام نفسه ١٢٣٩م، لهذا فإن أوضاع دمشق كانت مناسبة لأن تكون هدفاً للصليبيين.

---

[١] الراهب الدومينيكاني، عن الموسوعة، ج٤٣، ص١١٦٩. كندي: القلاع، عن الموسوعة، ج٥٢، ص٢٧٣. باربير: الفروسية الجديدة، عن الموسوعة، ج٥٢، ص١٩٦-١٩٧. غروسيه، موجز تاريخ الحروب الصليبية، ص٧٥.

[٢] رنسيمان: تاريخ الحروب، ج٣، ص٣٧١.

[٣] كندي: القلاع، عن الموسوعة، ج٥٢، ص٢٧٣.

[٤] باربير: الفروسية الجديدة، عن الموسوعة، ج٥٢، ص١٩٧. رنسيمان: تاريخ الحروب، ج٣، ص٣٧٢.

وكان هناك رأي ثالث في المجلس الصليبي يقول بالتوجه مباشرةً نحو بيت المقدس وتركيز الجهود في الاستيلاء عليها.[١]

وكان لدى ثيوبولد رأي رابع وسط بين تلك الآراء يهدف إلى تحقيق أكبر قدر من الانتصارات؛ إذ أراد أن يهاجم الجيش الصليبي في البداية المعقلين المصريين الكبيرين في عسقلان وغزة، وهكذا يتم تأمين الطرف والجبهة الجنوبية لدمشق، ومن ثم يتجه الجيش الصليبي إلى مهاجمة الأخيرة مستغلاً دخولها في صراع مع القاهرة.

ليست الوسطية دائماً هي الخيار الأصح، وقد برهنت على ذلك سير الأحداث آنذاك، فما إن اعتمد المجتمعون ذلك الخيار وبدأوا بتنفيذه في أوائل تشرين الثاني ١٢٣٩م حتى أسرعت الرسل الإسلامية إلى حواضر الأمراء الأيوبيين لتدبير عقد هدنة بين الأمراء المتنازعين، ولا بدَّ أن ذلك أدى إلى تقارب وجهات نظر دمشق والقاهرة المتنازعتين سياسياً تجاه الخطر الجديد.

## ثانياً: معركة غزة الأولى في بداية ربيع الآخر ٦٣٧هـ/١٢ تشرين الثاني عام ١٢٣٩م

أخيراً تم الاتفاق بين الصليبيين على تنفيذ رأي ثيوبالد، فغادروا في أوائل تشرين الثاني ١٢٣٩ عكا إلى يافا قاصدين عسقلان الواقعة على الحدود المصرية، وفي الطريق إلى يافا – قرب نهر الأردن – تمكن بطرس كونت بريتاني بمساعدة رالف كونت سواسون من الاستيلاء قرب نهر الأردن على قافلة إسلامية كبيرة وافرة الثروة كانت في طريقها من الكرك الى دمشق، وفيها كثير من الماشية والأغنام، وعلى الرغم من أن القافلة كانت تحرسها قوة إسلامية وافرة العدد وقاومت جيداً لحماية هذه القافلة إلا أن الكمين الذي نصبه لها كونت بريتاني كان أكبر منها، ووقعت القافلة والقوة الحامية لها في شباك ذلك الكمين[٢].

لقد أتت تلك الغنيمة في وقت قاربت به مؤونة الجيش الصليبي على النفاد، فأخذت صدىً أكبر من حجمها، فاغتاظ هنري كونت بار مما ظفر به كونت بريتاني من نجاح ومجد، فتشجع هنري للانشقاق

---

[١] عاشور: الحركة الصليبية، ج٢، ص٢٦٧.

[٢] الراهب الدومينيكاني، عن الموسوعة، ج٤٣، ص١١٦٩. عاشور : الحركة الصليبية، ج٢، ص٢٦٨. حومد: تاريخ الجهاد، ج٢، ص٢٦٤.

عن الجيش الصليبي والاندفاع نحو غزة للقضاء على الجيش المصري الذي أرسله العادل الثاني للدفاع عنها، وتناقلت الإشاعات إلى جيش الصليبيين قلة عدد الجيش المصري وأنه لم يزد عن الألف جندي[١].

ورغبة من هنري كونت بار في الانفراد بالمجد والغنيمة بالانتصار على المسلمين أبقى خطته سراً ولم يطلع عليها إلا عدد قليل من أصدقائه الفرنسيين، ثم سمح لنائبي الإمبراطور فردريك على مملكة القدس اللاتينية الثانية – باليان سيد صيدا ويودس دي مونتبليارد اللذين كرها قيادة ثيوبولد للحملة الفرنسية – وأن يلحقا به، وأيضاً لحق به والتر كونت يافا ويوحنا الابليني John of Ibelin سيد أرسوف، وعلى الرغم من انضمام جميع هؤلاء إلى هنري إلا أنه لم يبلغ عدد الجيش الذي اجتمع له سوى خمسمئة فارس وألف راجل[٢].

وبينما كانوا يوم ٢ تشرين الثاني ١٢٣٩ م يستعدون للزحف الى غزة تسربت الأنباء إلى بقية الحملة الفرنسية الصليبية، وقدم عليهم الملك ثيوبولد ومعه مقدما الطوائف الدينية العسكرية الثلاث وكونت بريتاني ، ونصحوا وتوسلوا إلى هنري كونت بار لإلغاء ذلك المشروع والعودة الى معسكرهم، إلا أن الأخير ركب رأسه العناد وتحدى قيادة الملك واتهمه بالجبن، وأخفق ثيوبولد الرابع Theobald IV- قائد الحملة الفرنسية- في منع كونت بار من تنفيذ مشروعه ذاك، دون أن يتخلى عنه، إذ إن ثيوبولد نقل معسكره إلى جانب أسوار عسقلان ووضعه على أهبة الاستعداد تحسباً للضرورة وللمساعدة[٣].

كان ذلك دليل واضح على فوضى تلك الحملة الفرنسية وضعف قيادتها.

وبالنسبة إلى كونت بار فقد سار على رأس الجيش الذي جمعه متفائلاً بنصر محقق على الجيش المصري قليل العدد، وبلغت ثقته بنفسه أنه حين اقترب من غزة أمر رجاله بالتوقف لينالوا قسطاً من الراحة في منخفض بين التلال الرملية العميقة التي يصعب على الفرسان التحرك بها[٤]. فأحاط بهم جواسيس الجيش المصري من كل جانب، ثم أرسل قائد الجيش المصري – الأمير ركن الدين بيبرس البندقداري-[٥]

---

[١] الراهب الدومينيكاني، عن الموسوعة، ج٤٣، ص١١٦٩. . باربير: الفروسية الجديدة، عن الموسوعة، ج٥٢، ص١٩٨.

[٢] رنسيمان: تاريخ الحروب، ج٣، ص٣٧٤. حومد: تاريخ الجهاد ، ج٢، ص٢٦٤-٢٦٥.

[٣] رنسيمان: تاريخ الحروب، ج٣، ص٣٧٤. حومد: تاريخ الجهاد ، ج٢، ص٢٦٥.

[٤] رنسيمان: تاريخ الحروب، ج٣، ص٣٧٤. حومد: تاريخ الجهاد ، ج٢، ص٢٦٤-٢٦٥.

[٥] هو غير بيبرس الذي أصبح فيما بعد سلطاناً للمماليك، ولا يتعدى الأمر سوى التوافق بينهما في الاسم والشهرة. ابن تغري بردي: النجوم، ج٦، ص٣٢٢.

رماته ليزحفوا حول التلال الرملية وتم تطويق الفرنج من كل جانب وفاق الجيش المصري ضخامة ما كان يعتقد كونت بار ومن معه، وكان ووالتر كونت يافا ( وهو من فرنجة الشرق المحليين) أول من انتبه الى ما كان يحدث ، فأمر بالارتداد العاجل وركب مع دوق برجنديا واتجهوا نحو الشمال، وتبعهما سائر فرسان الشرق الفرنجي ولم يصمد مع هنري كونت بار سوى بعض الأمراء من الأصدقاء المقربين إلا أنهم كانوا عاجزين عن تحقيق أي نصر أو تقدم كون التلال العميقة الرمال لم تمكن الفرسان المثقلين بالأسلحة من الحركة، وتمكن المسلمون من تمزيق تلك القوة قرب غزة في ١٤ ربيع الأول ٦٣٧هـ داود/ ١٣ تشرين الثاني ١٢٣٩م ، وتختلف الروايات العربية واللاتينية في تحديد أعداد الأسرى والقتلى الفرنج في تلك المعركة، وعلى العموم يبدو أن أعداد القتلى تراوحت مابين الأف رجل – باعتراف الروايات اللاتينية– وألف وثمانمائة رجل على حد قول الروايات العربية والإسلامية، وكان من جملة القتلى هنري كونت بار، وتراوحت أعداد الأسرى بين ٢٥٠ – ٦٠٠ أسير، في حين لم يُقتل من المسلمين سوى عشرة أشخاص[١].

وعندما وصلت تلك الأخبار إلى المعسكر الفرنجي قرب عسقلان أراد ثيوبولد أن يزحف على الفور إلى غزة لإنقاذ بني جلدته إلا أن فرسان الشرق الصليبي وقادة المنظمات العسكرية الدينية ولاسيما الداوية والاسبتارية لم يوافقوه على ذلك، ولم يكن بوسعه سوى الانسياق خلف آراء الأغلبية والانسحاب بهدوء إلى يافا ومنها إلى عكا خشيةً من مطاردة المسلمين لهم[٢].

وتذكر الروايات الغربية أن الفرنج كانوا قد همّوا كثيراً بالانقضاض على جيش المسلمين لإنقاذ الأسرى منه، إلا أن أمراء الشرق الصليبي حذروا ثيوبولد من أن ذلك قد يؤدي إلى تصفية جميع الأسرى على يد المسلمين، فاضطر الأخير مرغماً وعلى كره منه للانصياع إلى آرائهم[٣].

ويذكر رنسيمان أن ذلك كان بدايةً للانشقاق والضغينة بين الحملة الفرنسية وصليبيي مملكة القدس اللاتينية الثانية ، ذلك أن ثيوبولد الذي استبدَّ به الغضب "لم يغفر أبداً لمضيفيه – فرسان الشرق الفرنجي– ما حدث"[١].

---

[١] الراهب الدومينيكاني، عن الموسوعة، ج٤٣، ص١١٦٩. المقريزي: السلوك، ج١، ص٤٠٠. باربير: الفروسية الجديدة، عن الموسوعة، ج٥٢، ص١٩٨.

[٢] باربير: الفروسية الجديدة، عن الموسوعة، ج٥٢، ص١٩٨-١٩٩. رنسيمان: تاريخ الحروب، ج٣، ص٣٧٥. عاشور: الحركة الصليبية، ج٢، ص٢٦٨.

[٣] رنسيمان: تاريخ الحروب، ج٣، ص٣٧٥.

وعلى هذه الشاكلة انتهت المرحلة الأولى من هذه الحملة دون أن تحقق أي شيءٍ يذكر على أرض الواقع، لا؛ بل إنها مُنِيَتْ بهزيمةٍ منكرةٍ، ويلاحظ على تلك الحملة أنها افتقرت – منذ البداية – إلى المرونة السياسية والدبلوماسية التي امتازت بها العلاقات الأيوبية مع مملكة القدس اللاتينية الثانية منذ توقيع صلح الرملة عام ٥٨٨هـ / ١١٩٢ م حتى ذلك الوقت.

وربما واتت الحملة ظروف سياسية ودبلوماسية أكثر من غيرها إذ إنها قدمت إلى المنطقة وسط نزاع محتدم بها بين الزعامات الأيوبية، وكان بإمكان هذه الحملة استغلال تلك النزاعات، وأن تحقق عن طريق السياسة والدبلوماسية أكثر مما حققته الحملات التي سبقتها، ولكنها اتخذت طابعاً حربياً جامداً جعلها تنتهي في المرحلة الأولى منها بالإخفاق الذريع، ويبدو أن ثيوبولد تعلم درساً جيداً من ذلك وانتبه على ضرورة المرونة السياسية التي تعيشها المنطقة، فآثر التحالف مع بعض الأطراف الأيوبية ضد الأخرى كما سيأتي شرحه، وهنا يمكن الإقرار بأن نصر المصريين في غزة لم يكن بسبب قوتهم وتنظيمهم بقدر ماكان بسبب ضعف خصمهم وتفلته من النظام الموحد.

---

(١) رنسيمان: تاريخ الحروب، ج٣، ص٣٧٥.

## ثالثاً: إغارة الناصر داود على القدس عام ٦٣٧هـ/ ١٢٣٩م (التحرير الثاني للقدس)

لم تكن حادثة الاستيلاء الصليبي على القافلة الإسلامية – سالفة الذكر– حدثاً عادياً يمكن تجاهله آنذاك، وإنما كانت تطوراً خطيراً في تاريخ العلاقات التجارية، وربما ستؤدي إلى تغيّرٍ كبيرٍ في خطوط التجارة الدولية، وهنا يرد السؤال ماذا يفعل الناصر داود بتلك المناطق القاحلة (الكرك وشرق الأردن) لولا مردود التجارة الكبير الذي يرده منها؟

وهل بعد تلك الحادثة سيستمر المردود المالي الكبير من القوافل التجارية يأتي إلى الناصر داود كعادته؟

ما تأثير تلك الحادثة في الناصر داود وسياسته الجديدة؟

يمكن القول إنه إذا استمر خطر الفرنج آنذاك على تلك المنطقة سيتوقف النقل التجاري بين مصر والشام بشكل خاص، وستتوقف معظم موارد صاحب تلك المنطقة – الناصر داود– ومن ثم سيتوجب عليه السعي جاهداً إلى إيجاد حل لتلك المشكلة.

ويبدو أن الناصر داود وجد أن أفضل الحلول لذلك هو ضرب الصليبيين في القدس واستردادها منهم، وكانت الأخيرة تمثل فردريك ومن خلفه العالم الصليبي آنذاك، وتابعة بشكل مباشر لنائبه فيلانجيري المقيم في صور، أي أنه لا علاقة له بحكومة عكا التي استقبلت الحملة الفرنسية بقيادة ثيوبالد، وعلى الرغم من أن تلك الحملة لم تكن مدعومة أو مرغوباً بها من قبل الإمبراطور فردريك –كما سلف ذكره– إلا أن الناصر داود قرر مهاجمة القدس وتحريرها منه، وهنا يظهر أن الناصر داود ما يزال محتفظاً بإرثه القديم عن أبيه المعظم عيسى، وهو العداء للإمبراطور فردريك الثاني، وقد سلف شرح علاقة المعظم مع فردريك.

ولكي يأخذ الناصر داود الغطاء الشرعي لحملته على القدس تذرّع بأن الصليبيين فيها قد خرقوا صلح يافا الذي كان من ضمن شروطه أن تبقى القدس خراباً دون أي أعمال تحصين، إلا أن الصليبيين لم يتقيدوا بذلك واستغلوا وفاة الكامل في سنة ٦٣٥هـ/ ١٢٣٨م وما نشب من نزاعات على الحكم بين ورثته وأقربائه فعمّروا قلعة غربي بيت المقدس وجعلوا برج داود من أبراجها، وكان هذا البرج هو الوحيد من

بين استحكاماتها وأسوارها الذي سَلِمَ من الدمار والخراب الذي أمر به المعظم عيسى عام ٦١٦هـ/ ١٢١٨ م أثناء حصار الحملة الصليبية الخامسة لدمياط[١].

وبناءً على ذلك جمع الناصر داود عسكره ومعه عسكر الصالح أيوب -الذي كان أسيراً في الكرك- وسار إلى مدينة القدس في ربيع الأول سنة ٦٣٧هـ/ تشرين الثاني ١٢٣٩م، وحاصر القلعة التي بناها الفرنج، ونصب عليها المجانيق ورماها بها، وكان فلانجيري نائب الإمبراطور لم يحفل بها كثيراً ولم يشحنها بحامية كبيرة؛[٢] لذا لم تقاوم المدينة الحصار سوى أحد وعشرين يوماً، في حين استمر برج داود في المقاومة ستة أيام أخرى، وأذعنوا للتسليم في ١٥ جمادى الأولى ٦٣٧هـ/ ٧ كانون الأول ١٢٣٩م بعد نفاد مؤنهم مقابل الحصول على أمان لأنفسهم والرحيل إلى الساحل بدون أموالهم.

عندما فرض الناصر داود حصاره على القدس كانت الحملة الفرنسية قد سارت باتجاه غزة للقضاء على الجيش المصري، وحدث ما سلف ذكره، ويبدو أن الذي ساعد الناصر داود على هذا الانتصار وشحذ همم جيشه هو الانتصار الكبير الذي حققه الجيش المصري آنذاك على الحملة الفرنسية قرب غزة، وهزيمتهم شر هزيمة كما سلف ذكره، ويبدو أن خسارة الصليبيين في معركة غزة كان لها وقعها السلبي على الصليبيين المتمترسين في القدس وفي برج داود، فخارت قواهم وهممهم، وأذعنوا للتسليم مقابل سلامة أرواحهم فقط دون أموالهم، والرحيل إلى الساحل.[٣] وتذكر بعض المصادر والمراجع اللاتينية أن تحرير القدس حدث قبل معركة غزة،[٤] إلا أن ما أُثبت هو الأصح.

وصادف فتح القدس وصول محي الدين بن الجوزي إلى الملك الناصر ومعه جمال الدين بن مطروح فأنشد الأخير يمدح الناصر داود في هذا النصر:

---

[١] ابن واصل: مفرج الكروب، ج٥، ص٢٤٦. أبو الفداء: المختصر، ج٣، ص١٦٥. المقريزي: السلوك، ج١، ص٣٩٩. اليونيني: ذيل مرآة الزمان، ج١، ص١٤١.

[٢] ابن واصل: مفرج الكروب، ج٥، ص٢٤٧. رنسيمان: تاريخ الحروب، ج٣، ص٣٧٦.

[٣] اليونيني: ذيل مرآة الزمان، ج١، ص١٤٢. ابن واصل: مفرج الكروب، ج٥، ص٢٤٦-٢٤٧. المقريزي: السلوك، ج١، ص٣٩٩. العليمي: الأنس الجليل، ج٢، ص٥. الحنبلي: شفاء القلوب، ص٣٥١. ابن سباط، صدق الأخبار، ج١، ص٣١٩. غوانمة: معاهدات الصلح، ص٧٢-٧٣.

[٤] رنسيمان: تاريخ الحروب، ج٣، ص٣٧٧. غروسيه، ج٣، ص٣٧٤-٣٧٥.

Manuscrit de Rothelin, in R.H.C. Occ. Vol II, p.p. 529-531.

الْمَسْجِدُ الْأَقْصَى لَهُ عَادَةٌ سَارَتْ فَصَارَت مَثَلاً سائراً
إذا غَدا بالْكُفْر مستوطناً أَن يبْعَث اللهُ لَهُ ناصراً
فناصرٌ طَهَّرَهُ أَوّلاً وناصرُ طَهَّرَهُ آخراً[1]

## رابعاً: التحالفات الجديدة والسباق إلى تقديم التنازلات وعقد الأحلاف الخارجية ضد الخصوم الداخليين (الداوية ودمشق ضد الاسبتارية والقاهرة)، ومعركة غزة الثانية عام٦٣٨هـ/١٢٤٠م

على الرغم من تعكر الجو السياسي في المنطقة وتوتر الجبهة مع الصليبيين إلا أن الأيوبيين استمروا في نزاعاتهم ومؤامراته الداخلية ضد بعضهم بعضاً، فبعد أن انتهت معركة غزة الأولى وفي العام التالي لها قامت حركة انقلابية في مصر نقلت مقاليد الحكم بها من العادل الثاني إلى أخيه الصالح نجم الدين أيوب ، واستلم أيوب مقاليد الحكم في القاهرة في ٢٥ ذي القعدة ٦٣٧هـ/ ١٩ حزيران ١٢٤٠م، وكان قد وعد حليفه الناصر داود بحكم دمشق بعد استخلاصها من عمهما الصالح إسماعيل كما تقدم ذكره، وكان ذلك سبب كافٍ لبلوغ الصراع أوجه بين القاهرة ودمشق، لا بل إن الصراع أخذ في هذه المرة مناحي جديدة في الاستنجاد بحليف خارجي وتقديم التنازلات له، والذي يلفت النظر تبدل السياسات والتحالفات الخارجية ومعها تبدلت الأدوار عما كانت عليه في عهد المعظم عيسى والكامل وموسى، ففي عهد صراع الأخيرين استنجدت دمشق بالخوارزميين، واستنجدت القاهرة بالفرنج الصليبيين، أما الآن فقد كان الوضع مخالف تماماً، ومن المفارقة أن القاهرة استعانت بالمرحلة الثانية بالخوارزمية في حين استعانت دمشق بالفرنج الصليبيين ولاسيما الداوية والحملة الفرنسية التي أعادت تجميع قواها في عكا بعد الضربة الكبيرة التي تلقتها على يد القوات المصرية قرب غزة عام ٦٣٧هـ / ١٢٣٩م.

وكان من بين تلك التحالفات وأهمها ما تورده بعض المصادر عن دخول حماة دوامة تلك المفاوضات والتحالفات واستنجادها بالصليبيين، فتذكر هذه المصادر أن المظفر الثاني – صاحب حماه- أرسل إلى الصليبيين وعلى رأسهم ثيوبولد يعلن له أنه مستعد للتخلي لهم عن أكثر من حصن من حصونه، ويذكر اليونيني أنه "حضر إليه جماعة من خيالتهم وبنى لهم في حماة كنيسةً، ولبس الغفارة تقرباً إليهم"،[2] وبالغت

---

[1] المقريزي: السلوك، ج١، ص٤٠٠. للاستزادة أنظر: اليونيني: ذيل مرآة الزمان، ج١، ص١٤٢. العليمي: الأنس الجليل، ج٢، ص٥.

[2] اليونيني: ذيل مرآة الزمان، ج٢، ص٨٤-٨٥.

تلك المصادر اللاتينية بأنه كان – أي المظفر– مستعداً لإعلان تبعية حماه للصليبيين، وأن يكون لهم حامية بها، وذهبت بعض هذه المصادر إلى أبعد من ذلك بأنه أوحى لهم أنه مستعدٌ لاعتناق ديانتهم، كل ذلك مقابل تقديم العون والمساعدة له ضد أبناء عمومته، ولاسيما ضد شيركوه صاحب حمص، وضيفة خاتون[١] الوصية على عرش حلب، والصالح إسماعيل الذي استولى مجدداً عل دمشق،[٢] والتقى رسول المظفر بثيوبولد في طرابلس[٣]، حيث سارت إليها الحملة الفرنسية بعد أن أَعادت تجمُّعَها في عكا، وتلقى ثيوبولد ذلك العرض في غبطةٍ وسرور، ويعلل رنسيمان انتهاء هذا التحالف بينهما بأن " مسير ثيوبولد إلى طرابلس كان كافياً لأن يروّع أعداء المظفر، فأرسل الأمير المظفر في أدب إلى ثيوبولد يخطره بأنه لم يعد بحاجة إلى خدماته"[٤]، ولم يقدم رنسيمان تفصيلاً أكثر عن تقدم تلك القوات إلى طرابلس، كما لا يوجد في المصادر ما يؤيد قوله بأن مسير ثيوبولد إلى طرابلس قد روّع أعداء المظفر.

وما يمكن قوله عن هذا التحالف أنه قد يكون المظفر الثاني صاحب حماه قد اتصل بالصليبيين وحاول التوصل معهم إلى حلف كون أن حليفه الصالح أيوب[٥] قد طُرد من دمشق، ووقع في أسر الناصر داود عام ٦٣٧ هـ / ١٢٣٩م كما سلف ذكره، وتحولت حماه إلى ملاذ لأنصار الصالح أيوب الفارين من أعدائه[٦]، واستمر المظفر بإعلان ولائه للصالح أيوب المأسور في الكرك، حيث يقول أبو الفداء: " فإنه مازال على ولائه ، حتى أنه لما أمسك بالكرك كان يُخطب له بحماه وبلادها"[٧]. وتعرض المظفر في العام السالف لحصار عساكر حلب له[٨]، وهنا يظهر أن المظفر الثاني أصبح في وسط كله معادٍ له ويتربص به،

---

[١] توفيت سنة ٦٤٠هـ، وللمزيد عنها هناك ترجمة وافية لها عند: أبو الفداء: المختصر، ج٣، ص١٧١.

[٢] باربير: الفروسية الجديدة، عن الموسوعة، ج٥٢، ص٢٠١. رنسيمان: تاريخ الحروب ، ٣، ص٣٧٧. للاستزادة أنظر: اليونيني: ذيل مرآة الزمان، ج٢، ص٨٤-٨٥. حومد: تاريخ الجهاد، ج٢، ص٢٦٦.

[٣] هكذا يرد عند رنسيمان: تاريخ الحروب، ج٣، ص٣٧٧. ولكن على الأرجح أن الرسول التقى بثيوبولد في عكا، ومن بعدها سارت الحملة الفرنسية الى طرابلس لنجدة المنصور، والدليل على ذلك أنها عادت الى عكا عندما أرسل إليهم المظفر يعلمهم بأنه لم يعد بحاجة إلى خدماتهم.

[٤] رنسيمان: تاريخ الحروب، ج٣، ص٣٧٧.

[٥] يبدو أن علاقة الصالح أيوب مع حماه وملكها أقدم من ذلك بكثير، فقبل أن يستولي على دمشق أرسل في عام ٦٣٥هـ إلى حكام حلب يشفع عنده للملك المظفر صاحب حماه. انظر: ابن العديم: زبدة الحلب ، ج٢، ص٦٨٦.

[٦] المقريزي: السلوك، ج١، ص٤٠٦. للاستزادة أنظر: اليونيني: ذيل مرآة الزمان، ج٢، ص٨٤-٨٥.

[٧] أبو الفداء: المختصر، ج٣، ص١٦٦.

[٨] انظر: المقريزي: السلوك، ج١، ص٣٨٩.

لهذا لا يُستبعد اتصاله بالصليبيين واستنجاده بهم، ولكن الذي يُستبعد في هذا الاتصال أن يكون المظفر قد أعلن استعداده لتبعية حماه لهم، أو أن تكون لهم بها حامية، كما يستبعد بشدة أن يكون قد ألمح لهم استعداده للتحول إلى النصرانية، حتى أن غروسيه نفسه يُضَعِّف من تلك الرواية ، فيقول: "إن هذه أكاذيب شرقية من الخطأ أن يصدقها الصليبيون"[١].

وعن تراجع صاحب حماه عن التحالف مع الصليبيين يمكن القول إن حماه التي أصبحت ملاذاً لأنصار الصالح أيوب أخذت تسعى بشدة إلى إطلاق سراح الأخير[٢]، وما إن تم لها ذلك وسيطر أيوب على حكم مصر حتى انتعشت آمال المظفر الثاني، وحصل له " من السرور والفرح بملك الملك الصالح لمصر ما لا يمكن شرحه"[٣].

وعليه فإن المظفر الثاني قوي جانبه واشتد ساعده بأن أصبح له حليف قوي يتزعم أقوى مملكة من ممالك الأيوبيين – مملكة مصر– فأصبح بغنى عن مساعدة الصليبيين ومحالفتهم؛ لذلك فضَّ يده منهم. كما يمكن أن يضاف إلى ذلك سبباً آخر من أسباب انتعاش أوضاع حماه وتخفيف الضغط عنها هو وفاة أسد الدين شيركوه صاحب حمص في رجب سنة ٦٣٧هـ / شباط ١٢٤٠م، وتولي ابنه المنصور إبراهيم بدلاً عنه[٤].

ويمكن أن يكون الصالح أيوب قد أوحى – بعد أن استلم حكم مصر – لحليفه المظفر صاحب حماه بإنهاء حلفه مع الصليبيين كون استمراره بهذه الطريق سيُضعف مركزه أمام الرأي العام، وكونه حديث العهد بالملك فيهمه كثيراً إظهار صورة جميلة للأوساط العامة.

وفي هذه الأثناء تصاعد الخلاف وبلغ ذروته بين القاهرة ودمشق بعد وصول الصالح أيوب لحكم الأولى في ١٩ حزيران ١٢٤٠م، وقد وعد الناصر داود تسليمه دمشق بعد أخذها من عمهما الصالح إسماعيل كما سلف ذكره، ويبدو أن الصالح إسماعيل كان يدرك أن استيلاءه على دمشق عام ٦٣٧هـ/ ١٢٣٩م قد تم بالحيلة والغدر، ذلك أنه استغل غياب ابن أخيه الصالح أيوب عنها، وانشغاله في النزاع

---

[١] حومد: تاريخ الجهاد، ج٢، ص٢٦٧. غروسيه ، ج٣، ص٣٨٧.

[٢] المقريزي: السلوك، ج١، ص٤٠٦.

[٣] أبو الفداء: المختصر، ج٣، ص١٦٦.

[٤] أبو الفداء: المختصر، ج٣، ص١٦٥-١٦٦. المقريزي: السلوك، ج١، ص٤٠٠.

على عرش مصر مع أخيه العادل الثاني فخدعه ودخلها، واعتقل بها المغيث بن الصالح أيوب، وأبقاه في السجن،[١] وبناءً على ذلك أخذ الصالح إسماعيل يعمل جاهداً لتمتين الحلف الأيوبي الذي سلف ذكره – تحالفه مع أخته ضيفة خاتون الوصية على عرش حلب ومع أمير حمص شيركوه– وجعله موجهاً ضد الصالح أيوب، وربما أنه نجح بذلك إلى حدٍ بعيد، إذ إن المقريزي يذكر: "أن أهل حلب وحمص ودمشق كانوا حزباً على الصالح صاحب مصر"[٢].

ولكن ذلك الحلف لم يكن له من القوة ما يُدخل الطمأنينة إلى قلب الصالح إسماعيل أو يجعله يشعر بقوة موقفه، ولا سيما أن ملك حماة قد انضم صراحةً في هذا الصراع إلى الصالح أيوب، وغرقت حلب في مشاكلها وصراعاتها مع الخوارزمية، إذ يذكر ابن العديم بعد اجتماعه بالملك الصالح إسماعيل بن العادل في ٤ محرم سنة ٦٣٨هـ/ م: "وحملني رسالة إلى الملكة الخاتون، يطلب منها معاضدته ومساعدته على الملك الصالح صاحب مصر إن قصده، فلم تُجبه إلى ذلك في ذلك الوقت"[٣].

ويبدو أن الصالح أيوب أخذ يعمل على تبديد ذلك التحالف الذي تشكل ضده، فيذكر ابن العديم الذي كان في المنطقة بمهمة سياسية من قبل الوصية على عرش حلب –ضيفة خاتون– أنه قبل مقابلته للصالح إسماعيل في دمشق قد اجتمع مع الصالح أيوب في القاهرة، وكان الصالح أيوب قد دخلها حديثاً، فاستحضره الأخير وحمَّله رسالة فيها الكثير من التمجيد والاحترام لعمته ضيفة خاتون الوصية على عرش حلب، وكان مما جاء في هذه الرسالة "تُعَرِّفُها أنني مملوكُها، وإنها عندي في مَحَلِّ الملك الكامل، وأنا أعرض نفسي لخدمتها، وامتثال أمرها فيما تأمره"[٤].

وقام الصالح أيوب في بداية سنة ٦٣٨هـ/ م بحملة تطهير واسعة ضد معارضيه وضد كل مَن كان من أنصار أخيه العادل الصغير أو من أنصار عمه الصالح إسماعيل صاحب دمشق، كالمماليك الأشرفية، حيث يذكر المقريزي أنه "أُغلقت أبواب القاهرة كلها ثلاثة أيام ما خلا باب زويلة حرصاً على أخذ الأشرفية، فأخذوا وأودعوا السجون"، ويضيف أنه قُبض آنذاك على جماعة من الأمراء الأتراك وعدد من

---

[١] أبو الفداء: المختصر، ج٣، ص١٦٥. نهاية الأرب، ج٢٩، ص٢٦١. تاريخ ابن الوردي، ج٢، ص١٦٤.

[٢] المقريزي: السلوك، ج١، ص٤٠٦. للاستزادة أنظر: حومد: تاريخ الجهاد، ج٢، ص٢٦٧.

[٣] ابن العديم: زبدة الحلب، ج٢، ص٦٩٣.

[٤] ابن العديم: زبدة الحلب، ج٢، ص٦٩٣.

الأمراء الكاملية[١]، ويبدو أن ذلك كان سبباً كبيراً في اثارة ريبة الصالح إسماعيل وخشيته على ملكه، ويمكن اختصار حال إسماعيل بمقولة النويري بأنه "خاف الملك الصالح عماد الدين إسماعيل على نفسه من الملك الصالح نجم الدين أيوب"[٢]، وعلى هذا فإن الصالح إسماعيل أخذ يرنو بسياسته إلى صليبيي مملكة القدس اللاتينية الثانية على أنهم أفضل وأقوى حليف له في الوقت الراهن، وبدأ اتصالاته بهم في صيف ٦٣٨هـ/ ١٢٤٠م طالباً منهم المساندة والمعاضدة ضد ابن أخيه صاحب مصر،[٣] ولا تقدم المصادر تفصيلاً كاملاً عن تلك المفاوضات بين الطرفين، ولكن يبدو أن مخاوف الصليبيين لم تكن بأقل من مخاوف إسماعيل، لخشيتهم من توحيد مصر والشام على يد الصالح أيوب في وقت لم يكونوا مستعدين به لمثل تلك الوحدة التي داقوا مرارتها وجربوا وَبَالَهَا عليهم غير مرة.

وعلى هذا يبدو أنهم كانوا مستعدين للتحالف مع الصالح إسماعيل دون أي مقابل إلا أنهم رأوا حاجته الملحة لذلك فأرادوا أن يستغلوا ذلك لتحقيق أكبر قدر من الفائدة الممكنة من هذا التحالف الجديد، وعلى هذا لابدَّ أنهم طلبوا من الصالح إسماعيل مطالبهم القديمة، وهي أن يسلمهم جميع ممتلكات مملكة القدس القديمة التي حطمها صلاح الدين الأيوبي بعد معركة حطين عام ٥٨٣هـ / ١١٨٧م، وبالطبع لن يقبل الصالح إسماعيل في البداية مثل تلك التنازلات، كما أن أوضاع الصليبيين لا تؤهلهم لتلك المكاسب العظيمة، وفي النهاية تذكر المصادر أن الصالح إسماعيل تنازل لثيوبولد الرابع عن قلعتي صفد والشقيف وبلادهما (وهما من أهم الحصون العربية- الإسلامية آنذاك على الحدود الفاصلة بين بلاد الفرنج والمسلمين)، واضافة إلى ذلك أعطاهم مناصفات كل من صيدا وصور، ومناصفات طبرية وأعمالها،

---

[١] المقريزي: السلوك١، ص٤٠٥.

[٢] النويري: نهاية الأرب، ج٢٩، ص٢٧٨.

[٣] النويري: نهاية الأرب، ج٢٩، ص٢٧٨. المقريزي: السلوك، ج١، ص٤٠٣، ٤٠٧. للاستزادة أنظر: التاريخ الكبير، عن الموسوعة، ج٤٦، ص٣٧٦.

مناصفات جبل عاملة وسائر بلاد الساحل[١]، وزاد على ذلك بأن سمح لهم بالدخول إلى دمشق لشراء الأسلحة، فحرّم علماء دمشق آنذاك بيعها للفرنج[٢].

كل ذلك مقابل أن يقوم صليبيو مملكة القدس اللاتينية الثانية بإرسال قواتهم إلى جنوب فلسطين لحماية سورية من الجيش المصري، وبموجب هذا الاتفاق توجب على الصليبيين عدم الدخول في صلح مع صاحب مصر إلا بعلم أو موافقة دمشق، والأمر نفسه توجب على دمشق[٣].

وكان الذي تولى المفاوضات عن الجانب الصليبي هم الداويّة الذين تسلموا قلعة صفد على الفور من المسلمين، وأعادوا بنائها وتحصينها[٤]، وكان من المفترض أن يتم تسليم قلعة هونين (الشقيف) إلى باليان سيد صيدا كونه ابن آخر سيد صليبي لهونين، وكانت تابعة لهم منذ القرن الماضي،[٥] في حين امتنعت حامية قلعة هونين عن التسليم، ورفض نائب الصالح إسماعيل بها أوامر سيده بالتسليم؛ لإدراكه حجم المسؤولية والكارثة التي يسير إليها سيده الصالح إسماعيل، فسار إليها الأخير وعاقب نائبه بها وكبار معاونيه بتجريدهم من أموالهم وممتلكاتهم وطردهم منها، وعاقب بقية أفراد الحامية بحلق لحاهم فقط، وسلم القلعة بنفسه إلى الفرنج[٦]، ومن ثم تم بيع هذه القلعة مع صيدا للداوية في عام ١٢٦٠م، واستمرت بيدهم حتى استردها بيبرس منهم في عام ١٢٦٨م[١].

---

[١] ابن العميد: أخبار الأيوبيين، ص٣١. أبو الفداء: المختصر، ج٣، ص١٦٩. النويري: نهاية الأرب، ج٢٩، ص٢٧٨-٢٧٩. المقريزي: السلوك، ج١، ص٤٠٣، ٤٠٧. تاريخ ابن خلدون، ج٥، ص٤١٣. التاريخ الكبير، عن الموسوعة، ج٤٦، ص٣٧٥-٣٧٦. كندي: القلاع الصليبية، عن الموسوعة الشاملة، ج٥٢، ص١٩٢-١٩٣. . باربير: الفروسية الجديدة، عن الموسوعة، ج٥٢، ص٢٠١.

[٢] النويري: نهاية الأرب، ج٢٩، ص٢٧٨-٢٧٩. المقريزي: السلوك، ج١، ص٤٠٧.

[٣] التاريخ الكبير، عن الموسوعة، ج٤٦، ص٣٧٦. رنسيمان: تاريخ الحروب ، ج٣، ص٣٧٨. حومد: تاريخ الجهاد، ج٢، ص٢٦٨.

[٤] لمزيد من التفاصيل الدقيقة عن بنائها وتحصينها والمكاسب التي حققتها للصليبيين راجع: كندي: القلاع الصليبية، عن الموسوعة الشاملة، ج٥٢، ص٢٧٣-٢٨٥.

[٥] كندي: القلاع الصليبية، عن الموسوعة، ج٥٢، ص١٩٢.

[٦] سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان، ج٢٢، ص٣٨٢. المقريزي: السلوك، ج١، ص٤٠٧. ابن واصل: مفرج الكروب، ج٥، ص٣٠٢-٣٠٣. ابن شداد، عز الدين محمد بن علي: الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة، تح: سامي الدهان، دمشق، المعهد الفرنسي، ١٩٦٢م، ج٢، ص١٥٥-١٥٦. المختار من تاريخ ابن الجزري: اختيار الحافظ

وبالطبع كانت تلك سياسة انهزامية من قبل الصالح إسماعيل أملتها عليه أغراضه السياسية الصغيرة، وأعقبها ردود فعل شعبية عظيمة في العالم الإسلامي معلنين السخط والاشمئزاز من سياسة الصالح إسماعيل تلك، وأخذ علماء دمشق يُشَنّعون على ملكهم الصالح إسماعيل خيانته للإسلام وممالأته للفرنج، وكان أكبر العلماء الذين قادوا حملة المعارضة تلك إمام الشافعية الشهير في دمشق وخطيب مسجدها العز ابن عبد السلام، وإمام المالكية بها الشيخ أبو عمر الحاجب، فأمر الصالح إسماعيل باعتقالهما ثم تم إخراجهما خارج دمشق، فسار العز بن عبد السلام إلى مصر وتبعه أبو عمر الحاجب بعد أن كان قد استقر قليلاً في الكرك[٢].

في هذه الأثناء كانت قوات ثيوبولد قد انسحبت من طرابلس إلى عيون صفورية في الجليل بين يافا وعسقلان[٣]، ويبدو أن ذلك تم لسببين:

**الأول**: إنهاء المظفر الثاني صاحب حماه - بعد أن خرج الصالح أيوب من سجنه في الكرك- مفاوضته واتصالاته مع الصليبيين وإعلانه لهم أنه لم يعد بحاجة إلى مساعدتهم؛ لذلك قرروا العودة باتجاه الجنوب كما سلف ذكره.

**الثاني**: تنفيذاً للاتفاق المعقود مع الصالح إسماعيل ، وقد تقدمت الاشارة إليه آنفاً.

وكانت قوات حمص ودمشق تحت قيادة ملك حمص ابراهيم قد تقدمت الى تلك المنطقة ، واجتمعت مع قوات الصليبيين بقيادة ثيوبالد، وسار جيش التحالف إلى غزة لملاقاة قوات مصر، وذلك سنة ٦٣٨هـ / ١٢٤١م. في حين أن المصادر لم تذكر أن قوات الناصر داود كانت مع المتحالفين ، إلا أن المقريزي يذكر في حوادث سنة ٦٣٨ هـ أنّ في تلك الأثناء "آيس الناصر داود من إعطاء الملك الصالح نجم

---

الذهبي، تح : خضير المنشداوي، بيروت ، دار الكتب العلمية، ط١، ١٩٨٨، ص١٩٠.هكذا سلم هؤلاء بيت المقدس، ص١١٣.

[١] كندي: القلاع الصليبية، عن الموسوعة الشاملة، ٥٢، ص١٩٢-١٩٣.

[٢] سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان، ج٢٢، ص٣٧٠. المقريزي: السلوك، ج١، ص٤٠٧. ابن سباط: صدق الأخبار، ١، ص٣٢٤-٣٢٥. أبو شامة: الذيل على الروضتين، عن الموسوعة، ج٢٠، ص٣٣٤.

[٣] رنسيمان: تاريخ الحروب، ج٣، ص٣٧٨. حومد: تاريخ الجهاد، ج٢، ص٢٦٨.

الدين له دمشق، فانحرف عنه ومال إلى الصالح إسماعيل والمنصور صاحب حمص، واتفقوا جميعاً على الصالح نجم الدين"[١].

وعندما التقت قوات مصر بقوات ذلك التحالف قرب غزة انشق مقاتلو دمشق عن ذلك التحالف وانضموا إلى اخوانهم المصريين، ويبدو أنّ مقاتلي حمص بقوا إلى جانب الفرنج في صف واحد ووقعت بهم هزيمة منكرة، حيث يقول المقريزي: "وعندما تقابل العسكران ساقت عساكر الشام إلى عساكر مصر طائعةً ومالوا جميعاً على الفرنج فهزموهم وأسروا منهم خلقاً لا يحصون"[٢].

وبذلك تم تحطيم ذلك التحالف، وسار الصليبيون إلى عسقلان، ربما بهدف استلامها وتحصينها وفقاً لاتفاق وقع في تلك الأثناء مع حاكم مصر الصالح أيوب كما سيأتي ذكره، في حين سار من بقي موالياً للملك الصالح إسماعيل من جيشي دمشق حمص كلٌّ إلى بلده[٣].

في تلك الأثناء كانت هناك مفاوضات تجري بين الاسبتارية والصالح أيوب صاحب مصر، ذلك أن الاسبتارية كانوا قد امتعضوا من حصول منافسيهم الداوية على حصن صفد من صاحب دمشق، فقرروا آنذاك التفاهم مع سلطان مصر، ويبدو أن ذلك لقي قبولاً سريعاً عند الأخير – الصالح نجم الدين أيوب– الذي أعلن استعداده لإطلاق سراح أسرى الفرنج الذين أسروا في معركة غزة عام ٦٣٧هـ / ١٢٣٩ م – سالفة الذكر– كما سمح للفرنج بالاستيلاء على عسقلان وتحصينها، وذلك كله لقاء التزامهم الحياد بين المعسكرين المسلمين في مصر ودمشق[٤].

ولقي ذلك العرض قبولاً سريعاً لدى مقدم الاسبتارية، وعلى الفور أطلع عليه قائد المعسكر الصليبي آنذاك الكونت ثيوبولد ، فوجده مناسباً جداً، ويكفل له إطلاق سراح زملائه الكونتات الذين أتوا معه من

---

[١] المقريزي: السلوك، ج١، ص٤٠٦. للاستزادة أنظر: ابن تغري بردي: النجوم، ج٦، ص٣٢٣.

[٢] المقريزي: السلوك، ج١، ص٤٠٧. للاستزادة أنظر: ابن تغري بردي: النجوم، ج٦، ص٣٢٣.

[٣] ابن تغري بردي: النجوم، ج٦، ص٣٢٣-٣٢٤. رنسيمان: تاريخ الحروب، ج٣، ص٣٧٩. حومد: تاريخ الجهاد، ج٢، ص٢٦٩.

[٤] رنسيمان: تاريخ الحروب، ج٣، ص٣٧٩. حومد: تاريخ الجهاد، ج٢، ص٢٦٩.

فرنسا وتعرضوا للأسر في معركة غزة، وعلى هذا الأساس وقّع الفريقان على ذلك الاتفاق في عام ١٢٤٠م، ومدته عشر سنوات[١].

ولا يستبعد أن تكون الهزيمة التي حلت بالجيش الصليبي وجيش حمص قرب غزة في الأشهر الماضية على يد القوات المصرية هي إحدى نتائج ذلك الاتفاق، حيث إن الصليبيين انسحبوا بعدها ليتسلموا عسقلان ويقوموا بتحصينها، وبذلك يكون الصالح أيوب قد حقق انتصاراً دبلوماسياً وعسكرياً مقابل تنازلات للاسبتارية تُعَدُّ بسيطة اذا ما قوبلت بتنازلات عمه الصالح إسماعيل للداوية، وفي الحالتين هي تنازلات لا مبرر حقيقي لها، وتعبر عن ضعف الموقف.

ويبدو أن ذلك الاتفاق ونتائجه لم يلقَ قبولاً في جميع أوساط مملكة القدس اللاتينية الثانية، إذ إن أمراؤها ومقدم الداوية فيها قابلوه بالرفض والسخط لرغبتهم في استمرار التحالف مع سلطان دمشق انسياقاً وراء السياسة التقليدية لكليهما، وعلى هذا فإن الكونت ثيوبولد واجه نظرات السخط في أعين الناس أين ما اتجه، فاضطر إلى الإبحار عائداً إلى فرنسا في نهاية أيلول ١٢٤٠م[٢].

ويمكن القول إن حملة ثيوبولد لم تعمل وفق سياسة واحدة، وإنما كانت متعددة السياسات والوجهات، ومنذ البداية دخلت في صراع مع القوات المصرية، مما يؤيد القول إن هدفها الذي كلفها به البابا كان منذ البداية هو إفساد الصلح المعقود بين مصر والإمبراطور فردريك، وهنا يظهر جلياً تعاظم عدوى الخلافات والنزاعات الداخلية التي انتقلت من الايوبيين إلى الصليبيين، وظهور تحالفات جديدة وغريبة نوعاً ما، إذ كان يستبعد أن ينقسم كل من الأيوبيين والصليبيين إلى حلفين وكل حلف يحالف حلفاً آخر من الجهة المقابلة، ثم تطورت تلك الأحلاف إلى أبعد من ذلك كما سيأتي شرحه.

---

[١] التاريخ الكبير، ج١، عن الموسوعة، ج٤٦، ص٣٩٢. رنسيمان: تاريخ الحروب، ج٣، ص٣٧٩. حومد: تاريخ الجهاد، ج٢، ص٢٦٩-٢٧٠.

[٢] التاريخ الكبير، ج١، عن الموسوعة، ج٤٦، ص٣٩٢. باربير: الفروسية الجديدة، عن الموسوعة، ج٥٢، ص٢٠١.

## خامساً: العلاقات بين الأيوبيين ومملكة القدس اللاتينية الثانية أثناء وجود الحملة الصليبية الإنكليزية (حملة ريتشارد كورنوال) ٦٣٨هـ/ ١٢٤٠-١٢٤١م

لم تكد حملة ثيوبولد تغادر مملكة القدس اللاتينية الثانية حتى وصلتها بعد أيام قليلة حملة إنكليزية جديدة في ٢٢ ربيع الثاني ٦٣٨هـ/ ١١ تشرين الأول ١٢٤٠م، كان على رأسها الأيرل ريتشارد كورنوال Richard of Cornwall، وهو شقيق ملك إنكلترا "هنري الثاني Henry II "، وأخٌ لزوجة الإمبراطور فردريك الثاني ملك ألمانيا وصقلية، أتى إلى مملكة القدس بصفته زائراً وحاجاً للقدس، وصادف ذلك قبولاً لدى الإمبراطور فردريك الذي كان على علاقات حسنة معه، وفوَّضه بأن يتخذ كل ما يراه مناسباً في صالح مملكة القدس اللاتينية الثانية التي لا تزال تتبع له من الناحية القانونية، ولا يزال لديه نائب عنه بها[١]، وتبالغ الروايات الغربية في إبراز عظمة وقدرة ذلك الحاج وكفاءته بين أمراء عصره مع أنه كان لا يزال في الحادية والثلاثين من عمره.[٢]

لقد ارتاع ريتشارد منذ وصوله لمملكة القدس من الفوضى العارمة التي نشبت بها، ولاسيما بين الداوية والاسبتارية بسبب موقفيهما المتناقض من الاتفاقية التي عقدها ثيوبولد مع مصر، إذ إن الداوية عارضوا الاتفاقية بشدة، وبالشدة نفسها أيدتها الاسبتارية، وقد رفض كورنوال المشاركة أو الانضمام إلى أحد طرفي النزاع، ورأى ضرورة العمل على إعادة ترتيب أمور الصليبيين في المملكة وتنظيمها[٣]، وفوراً غادر عكا إلى عسقلان ليستأنف التحصينات التي بدء بها عمه ريتشارد قلب الأسد من قبل، ولا بدَّ أن تلك التحصينان شكلت عامل قوة للصليبيين، وتعني بشكل أو بآخر الاستعداد لتصعيد جديد مع مصر، ويبدو أن تلك التحصينات أخافت مصر أو أثارت ريبتها، مما دفعها إلى فتح باب المفاوضات مع كورنوال، فأرسل سلطان مصر الصالح أيوب سفارة له وطلبت منه التوقيع على المعاهدة التي كان قد عقدها ثيوبولد

---

[١] عن موقف فردريك المتقلب من تلك الحملة انظر: التاريخ الكبير، ج١، عن الموسوعة، ج٤٦، ص١٣٧-١٣٨، ٢٩٨-٢٩٩، ٤٦١-٤٦٢.

[٢] التاريخ الكبير، ج١، عن الموسوعة، ج٤٦، ص٣٢١-٣٢٢، ٣٥٥، ٣٧٣-٣٧٤. رحلات الراهب الدومينيكاني، عن الموسوعة، ج٤٣، ص١١٦٩. باربير: الفروسية الجديدة، عن الموسوعة، ج٥٢، ص٢٠٢. ولمزيد من التفاصيل عن استعدادات حملة رتشارد كورنوال في أوربا والتحديات التي واجهتها هناك أنظر: زينب: الإنكليز والحروب الصليبية، ص١٥٦-١٦٢.

[٣] رحلات الراهب الدومينيكاني، عن الموسوعة، ج٤٣، ص١١٦٩. التاريخ الكبير، ج١، عن الموسوعة، ج٤٧، ص٤٥٣-٤٥٥. زينب: الإنكليز والحروب الصليبية، ص١٦٢.

والاسبتارية معه،[١] وربما كان ذلك جُلُّ ما يريده كورنوال، وهنا ظهرت حنكته وذكاؤه وسياسته الوسطية تجاه الأطراف المتنازعة داخل مملكة القدس، فقد كان قبوله للمعاهدة مع مصر يعني رفضه لمعاهدة الداوية مع سلطان دمشق الصالح إسماعيل، وانحيازه إلى جانب الاسبتارية ومن يواليهم، ورفض التوقيع على تلك المعاهدة يعني العكس تماماً، ومن هنا فقد اتخذ موقفاً وسطاً بين هذا وذاك، ووافق على التوقيع على تلك المعاهدة بشرط أن يعترف سلطان مصر بما تم من تنازل سلطان دمشق للفرنج عن صفد وهونين، وأن يُضاف إلى ذلك التنازل عما تبقى من الجليل، بما في ذلك شقيف أرنون وجبل الطور وطبرية، فوافق الصالح أيوب على ذلك، وعُقدت الهدنة بينهما لمدة ثمانية أعوام.[٢]

وبذلك تكون مملكة القدس اللاتينية الثانية قد استعادت كل ما كان لها من أراضٍ غرب نهر الأردن التي امتدت جنوباً حتى تخوم غزة، باستثناء نابلس وإقليم السامرة، ولأن مملكة القدس كانت حتى ذلك الوقت مجردة من كل الاستحكامات، وبسبب خشية كورنوال من نقض المسلمين للهدنة فقد تم الشروع آنذاك في إعادة بناء قلعة طبرية وعسقلان وتحصينهما كي يلتجؤوا إليهما إذا ما دعت الضرورة إلى ذلك، وعين ريتشارد حاكماً على الأخيرة هو "والتر بنينيايه" الذي كان ممثلاً لفلانجيري – نائب الإمبراطور– في بيت المقدس.[٣]

ويبدو أن العلاقات هدأت كثيراً مع مصر في هذه المدة القليلة، لأن حاكم عسقلان هو من حِلف فردريك، ولا يزال الأخير يحترم الصلح مع مصر؛ إذ إنه أرسل في تلك الأثناء رسلاً إلى القاهرة لتهنئة الصالح أيوب في حكم مصر، وجرى استقبال سفرائه بكل مظاهر التشريف والأبهة،[٤] كما تم في تلك الأثناء إطلاق سراح الأسرى الصليبيين في مصر وبينهم العديد من الأمراء، وكذلك الأسرى المسلمين في مملكة القدس الذين قاربوا ثلاثمئة أسير مسلم.[٥]

---

[١] التاريخ الكبير، ج١، عن الموسوعة، ج٤٧، ص٤٥٦. باربير: الفروسية الجديدة، عن الموسوعة، ج٥٢، ص٢٠٢.

[٢] مدة الهدنة ترد فقط عند الراهب الدومينيكاني، عن الموسوعة، ج٤٣، ص١١٦٩. وأنظر: التاريخ الكبير، ج٢، عن الموسوعة، ج٤٧، ص٤٥٦-٤٥٨ . أبو شامة: الذيل على الروضتين، عن الموسوعة، ج٢٠، ص٣٣٤ . باربير: الفروسية الجديدة، عن الموسوعة، ج٥٢، ص٢٠٢. زينب: الإنكليز والحروب الصليبية، ص١٦٢.

[٣] التاريخ الكبير، ج١، عن الموسوعة، ج٤٧، ص٤٥٨-٤٥٩. حمزة: العلاقات السياسية، ص٣٣٧.

[٤] رنسيمان: تاريخ الحروب، ج٣، ص٣٨٢. حومد: تاريخ الجهاد، ج٢، ص٢٧١.

[٥] التاريخ الكبير، ج١، عن الموسوعة، ج٤٧، ص٤٥٩، ٤٨١-٤٨٢. زينب: الإنكليز والحروب الصليبية، ص١٦٢. حومد: تاريخ الجهاد، ج٢، ص٢٧١.

وخلال المدة القصيرة التي قضاها ريتشارد كورنوال في مملكة القدس استطاع أن يظفر برضا الناس كنائبٍ بها عن الإمبراطور فردريك لِما أبداه من الحكمة والكياسة في السياسة، ولتمكنه من تسوية كثير من المشاكل القائمة بها، ويبدو أنه خلال هذه المدة - وبالتحديد في نيسان ١٢٤١م - تم تجديد الهدنة (صلح يافا) التي عقدها الكامل مع فردريك، وما لبث ريتشارد Richard أن غادر مملكة القدس في ذي القعدة ٦٣٨هـ/ أيار ١٢٤١م عائداً إلى إنكلترا، وقد مرّ في طريقه على صقلية حيث جرى استقباله بها بكامل الأبهة والفخامة من قبل زوج أخته الإمبراطور فردريك الثاني، وأقام بها مدة أربعة أشهر، وشغل خلالها مهمة تسوية الخلاف بين البابا والإمبراطور، ولكن دون فائدة[1]، وذلك يدل بشكل أو بآخر على رقي علاقته ومتانتها مع فردريك، وبمغادرته لمملكة القدس اللاتينية الثانية عادت العلاقات إلى التوتر من جديد مع مصر، وعادت النزاعات الداخلية العنيفة إلى المملكة، ولاسيما بين الداوية والاسبتارية، حيث يذكر متى باريس أن الداوية لم يوافقوا على تصرفات الايرل ريتشارد، وبعد رحيله عن عكا خرقوا الهدنة التي عقدها مع مصر، وضايقوا أنصاره الاسبتارية بشدة، وآذوهم وانتقموا منهم لأنهم قبلوا بتلك الهدنة، وحاصروهم ضمن أحيائهم في عكا، ومنعوا دخول المؤن إليهم، كما منعوهم عن إخراج موتاهم من البيوت المُحاصَرين بها لدفنهم في الخارج.[2]

## سادساً: التسليم الثاني للقدس ٦٤١هـ/ ١٢٤٣م (تقارب دمشق في علاقاتها مع مملكة القدس اللاتينية الثانية وتباعدها مع القاهرة)

لم يركن الداوية إلى المعاهدة التي عقدها الاسبتارية مع سلطان مصر الصالح نجم الدين أيوب، وأعلنوا صراحةً رفضهم تلك المعاهدة، وفي ربيع عام ١٢٤٢م قاموا بغارة على مدينة حبرون التابعة لأمير الكرك الناصر داود، فردَّ عليهم بإرسال جيش قطع الطريق إلى القدس، وفرض جباية رسوم على الحجاج والتجار الفرنج الذين يسيرون في هذه الطرق، مما أثار استياء الداوية، فأرسلوا مجموعة من رجالهم في يافا لمهاجمة نابلس التي كانت تابعة آنذاك لسلطان مصر الصالح أيوب، ودخلوها عنوةً في يوم ٣٠ تشرين

---

[1] التاريخ الكبير، عن الموسوعة، ج٤٧، ص٤٦٠، ٤٨٣. زينب: الإنكليز والحروب الصليبية، ص١٦٣.

[2] التاريخ الكبير، ج٢و ٣، الموسوعة، ٤٧، ص٤٨٣، ٤٨، ص٨٥٨-٨٥٦. مارشال: فن الحرب، عن الموسوعة، ج٥٢، ص٥٨. . باربير: الفروسية الجديدة، عن الموسوعة، ج٥٢، ص٢٠٢-٢٠٣.

الأول ١٢٤٢م، ونهبوها وأحرقوا مسجدها الجامع، وقتلوا كثيراً من المسلمين وبعض المسيحيين من أهل البلد، فردَّ الصالح أيوب على ذلك بأن أرسل جيشاً قوياً عدته ألف فارس اجتمع بقوات الناصر داود عند غزة واتجه لمحاصرة مدينة يافا، واستمر الحصار لها إلى أن تراجع الصليبيون عن أعمالهم الأخيرة، واعتذروا للصالح أيوب عن تلك الأعمال، فسحب قواته إلى مصر.[١]

وبعده غرقت مملكة القدس فيما تجدد بها من صراعات داخلية، وانهارت السلطة الملكية فيها، وأخذت الرهبانيات الدينية العسكرية بها تتصرف كجمهوريات مستقلة، وتولى القومون آنذاك حكم عكا، ولم يكن بوسعه أن يمنع الاسبتارية والداوية عن الاقتتال في الشوارع، ولَزِمَ البارونات إقطاعاتهم يحكمونها كيفما شاؤوا.[٢]

غرقت أيضاً المملكة في صراع بين فيلانجيري Filangieri نائب الإمبراطور والبارونات المحليين؛ إذ إن فلانجيري لا يزال حتى ذلك الوقت محتفظاً بمدينة صور، وقد وجد الفرصة مواتية له لاستعادة نفوذ الإمبراطورية في بلاد الشام، وقد اتفقت سياسته مع سياسة الاسبتارية كونهما يؤيدان سياسة التحالف والتفاهم مع مصر، واتفقوا بذلك ضد الداوية، وزحفوا على عكا في ربيع سنة ١٢٣٤م، إلا أن صاحب تبنين - فيليب دي مونتفورتPhilip of Montfort - كان آنذاك في عكا، واستعان بالجنوية والبيازنة، وتمكنوا من التغلب على فيلانجيري الذي ما لبث أن هرب عائداً إلى صور.[٣]

عندئذٍ أدرك الإمبراطور فردريك إخفاق سياسة نائبه فيلانجيري في المملكة، فاستدعاه إلى إيطاليا، وفي ذلك الوقت كان الملك كونراد - بن فردريك والملكة يولاند- قد بلغ سن الرشد، الخامسة عشر، وجاز له أن يباشر حقه الشرعي في حكم مملكة القدس اللاتينية الثانية، إلا أنه لم يشأ أن يذهب إليها بنفسه على الرغم من مطالبة البارونات له بذلك، وفضَّل إرسال نائب عنه إليها، وهو توماس أكيرا Acerra.

---

[١] التاريخ الكبير، عن الموسوعة، ج٤٧، ص٥١٣.باربير: الفروسية الجديدة، عن الموسوعة، ج٥٢، ص٢٠٤-٢٠٥. رنسيمان: تاريخ الحروب، ج٣، ص٣٨٣-٣٨٤. حومد: تاريخ الجهاد،ج٢،ص٢٧١. عاشور: الحركة الصليبية، ج٢،ص٢٧٢.

[٢] التاريخ الكبير، عن الموسوعة، ج٤٧، ص٤٨٣. رنسيمان: تاريخ الحروب، ج٣، ص٣٨٤. حومد: تاريخ الجهاد، ج٢، ص٢٧١.

[٣] عاشور: الحركة الصليبية، ج٢، ص٢٧٢.

وفي ذلك الوقت كان صليبيو المملكة قد استغلوا فرصة خلاء صور من نائب الإمبراطور، فاستعانوا بأساطيل البنادقة والجنوية ليزحفوا إليها، واستولوا عليها في نهاية عام ٦٤٠هـ/ حزيران ١٢٤٣م.[١]

وبذلك زال النفوذ الإمبراطوري من مملكة القدس، وغرق بعدها الصليبيون في فوضى أكبر من ذي قبل، إذ إنهم أصبحوا بدون رئيس أو ملك يسوّي أمرهم، ويبدو أن ذلك الوضع كان مناسباً لبعض الأمراء والبارونات لِما فيه من توافق مع مصالحهم الشخصية، إلا أن الأحداث سرعان ما أثبتت كارثية ذلك الوضع على الصليبيين أجمع، ولم يشفع لهم في ذلك إلا النزاع والصراع الأيوبي الأيوبي الذي كان أشد حدة من الصراع الصليبي الصليبي، وهكذا فإن أوضاع الصليبيين كانت كأوضاع الأيوبيين، كلٌ منهم منشغل في نزاعاته الداخلية وإعادة ترتيب الزعامات المحلية، لذلك كان واجباً على الطرفين التهدئة لمرحلة من الزمن، وعلى الرغم من ذلك إلا أن الجبهة بقيت متوترة نوعاً ما، ولم يكن هناك استقرار نهائي فيها.

ويمكن القول إنه بتولي أليس – ملكة قبرص وخالة يولاند أم كونراد– وزوجها رالف كونت سواسون الوصاية على عرش عكا –كما سلف ذكره في الحديث عن وراثة العرش في المملكة– بتأييد من قبل البارونات المحليين ومن ورائهم الداوية، فإن ذلك انتصاراً للأخيرة على سياسة الاسبتارية المتحالفة مع القوات الإمبراطورية.

فبسقوط صور في ١٢ حزيران ١٢٤٣م بيد باليان الإبيليني (حاكم بيروت بين عامي ٦٣٣-٦٤٤هـ/ ١٢٣٦-١٢٤٧، وهو ابن يوحنا سيد بيروت العجوز) وفيليب مونتفورت والبنادقة والجنوية تم احتلالهم لمراكز الاسبتارية والفرسان التيوتون بها أصبحت المدينة كاملاً في قبضتهم، وهكذا غابت نهائياً سلطة الإمبراطور فردريك عن مملكة القدس، وانتقلت إلى أيدي الأوصياء بصفة رسمية كل من بيت المقدس وعسقلان، وعندما طالب الوصي رالف كونت سواسون –زوج الملكة أليس– بتبعية صور له رفض البارونات ذلك، وقاوموه، فأدرك رالف أن ليس له من السلطة إلا الاسم؛ لذا ترك الوصاية على عكا وغادرها عائداً إلى فرنسا، واستمرت أليس في الوصاية حتى وفاتها سنة ٦٤٥هـ/ ١٢٤٦م.[٢]

---

[١] مارشال، كريستوفر: فن الحرب وشؤونه في عصر الحروب الصليبية، عن الموسوعة الشاملة، ج٥٢، ص٥٩. رنسيمان: تاريخ الحروب، ج٣، ص٣٨٥-٣٨٦. عاشور: الحركة الصليبية، ج٢، ص٢٧٢-٢٧٣.

[٢] روايات معاصرة حول الاعتراف بالملكة أليس، عن الموسوعة، ج٣٥، ص٢٢٥. دي نافار، حروب فردريك، عن الموسوعة، ج٣٥، ص٢٠٩.

وفي النتيجة يمكن القول إنه سيطر على دائرة القرار في مملكة القدس اللاتينية الثانية الحزب المؤيد لسياسة التقارب مع دمشق ضد مصر، وهُزِمَ – أو ضَعُفَ– الحزب المعارض لذلك والمؤيد لسياسة التقارب مع القاهرة.

هذه الأحداث والنزاعات الصليبية الداخلية كان يدور مثلها تماماً بين دمشق والقاهرة والكرك، ومالت الزعامات في دمشق إلى سياسة التقارب مع مملكة القدس، ونجحت دمشق في ضم الكرك بزعامة الناصر داود إلى ذلك التقارب، وهكذا أخفقت سياسة القاهرة في التقارب مع مملكة القدس اللاتينية الثانية وتوجهت إلى البحث عن حليف خارجي كما سيأتي شرحه، ولاسيما بعد أن ضعف موقفها باختفاء سلطة الإمبراطورية الرومانية الفعلية من مملكة القدس منذ تموز ١٢٤٣م.

في تلك الأثناء كانت هناك محاولة جدية للتقارب بين القاهرة ودمشق، ويقتضي الأمر في حال نجاحها تباعد الأخيرتين عن التحالف مع مملكة القدس، واستئناف الحرب ضدها كما اعتاد تاريخ الحروب الصليبية.

وتمت محاولة التقارب تلك في سنة ٦٤١هـ/ ١٢٤٣م، حيث جرت وساطة بين الصالح نجم الدين أيوب سلطان القاهرة، وبين عمه الصالح إسماعيل صاحب دمشق، وتم الاتفاق على أن تكون دمشق وبلادها للصالح إسماعيل، ولكن تقام الخطبة وتضرب السكة فيها وفي حلب وحمص باسم الصالح أيوب، وأن يقوم الصالح إسماعيل بإطلاق سراح المغيث بن الصالح أيوب ومَن اعتُقِل معه عندما سيطر إسماعيل على دمشق عام ٦٣٧هـ/ ١٢٣٩م، كما اتفقا على أخذ بلاد الناصر داود كاملةً منه واقتسامها بينهما.[١]

ويبدو أنه قد بُدِء بتنفيذ بنود ذلك الاتفاق؛ إذ أطلق الصالح إسماعيل بعض المعتقلين بمن فيهم المغيث بن الصالح أيوب، وتمت الخطبة بدمشق للصالح أيوب، وكذلك خُطب له بحمص،[٢] وتم الهجوم على ممتلكات الناصر داود في عجلون من قِبل قوات دمشق[٣].

---

[١] سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان، ج٢٢، ص٣٧٧-٣٧٨. ابن واصل: مفرج الكروب، ج٥، ص٣٢٧-٣٢٨. ابن فضل الله العمري، شهاب الدين أحمد بن يحيى: مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، المجمع الثقافي، أبو ظبي، ط١، ١٤٢٣هـ،ج ٢٧، ص٣٢٥. العليمي: الأنس الجليل، ج٢، ص٦.

[٢] سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان، ج٢٢، ص٣٧٧. أبو شهاب: الذيل على الروضتين، عن الموسوعة، ج٢٠، ص٣٤٠.

[٣] ابن واصل: مفرج الكروب، ج٥، ص٣٢٨. ابن واصل: مفرج الكروب، ج٥، ص٣٢٨-٣٢٩.

وتذكر المصادر أنه عندما أُرسلت الرسل من دمشق إلى مصر ليتم الحلفان على ذلك الاتفاق وتلك الشروط صدرت الأوامر من دمشق بإيقاف العمل بموجب ذلك الصلح والاتفاق، وتم ايقاف الخطبة للصالح أيوب في كل من دمشق وحمص وما يتبعهما، وأُعيد المغيث بن الصالح أيوب إلى سجنه في دمشق، وتراجعت قوات دمشق عن مهاجمة عجلون، وفي حين أن المصادر تتفق على ذلك، إلا أنها تختلف في تحديد السبب.[١]

فابن واصل يذكر أن السبب في ذلك هو وقوع كتاب بيد الصالح إسماعيل مُرسل من قبل الصالح أيوب إلى الخوارزمية يذكر لهم فيه "أنه إنما أظهر الصلح مع عمه ليخلص ابنه الملك المغيث من يده، وأنه باقٍ على عداوة عمه، ولا بدَّ له من قصده وأخذ دمشق منه"[٢].

في حين أن سبط ابن الجوزي يذكر أن سبب إبطال ذلك الاتفاق وايقاف العمل بموجبه هو تحريض الصالح إسماعيل من قِبَلِ وزيره السامري على ذلك الاتفاق، وأغار صدره ضد المغيث وأقنعه بإعادته إلى السجن، حيث يذكر سبط أن السامري قال للصالح إسماعيل بشأن المغيث: "هذا خاتم سليمان، لا تخرجه من يدك، فتُعدم المُلك، فتوقف الأمر ولم ينتظم صلح"[٣]. ويبدو أن السببين كان لهما الأثر في إفساد ذلك الاتفاق وإيقاف العمل به.

وبناءً على مخاوف الصالح إسماعيل من الخوارزمية وسمعتهم السيئة، توجه إلى إعادة إحياء الحلف القديم ضد ابن أخيه سلطان مصر الصالح أيوب، فبعد أن أمر عساكره بالتراجع عن عجلون اتصل بصاحبها الناصر داود "واتفق معه على حرب الملك الصالح نجم الدين"، وأعاد اتصاله مع صاحب حلب وصاحب حمص يُحرِّضهم ضد صاحب مصر، "وصارت كلمة الكل واحدة" [٤].

ويبدو أن مراسلات الصالح أيوب مع الخوارزمية والتقارب بينهما أصبحت واضحة للعلن، وأصبح إسماعيل وحلفه شبه متأكدين من اجتياح الخوارزمية ذوي السمعة سيئة الصيت للمنطقة، وأنهم غير قادرين

---

[١] سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان، ج٢٢، ص٣٧٨. ابن واصل: مفرج الكروب، ج٥، ص٣٣٠-٣٣١. ابن تغري بردي: النجوم، ج٦، ص٣٢٢. نهاية الأرب، ج٢٩، ص٣٠٢.

[٢] ابن واصل: مفرج الكروب، ج٥، ص٣٣١.

[٣] سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان، ج٢٢، ص٣٧٨. للاستزادة أنظر: نهاية الأرب، ج٢٩، ص٣٠٢.

[٤] ابن واصل: مفرج الكروب، ج٥، ص٢٣٢. كذلك ابن تغري بردي: النجوم، ج٦، ص٣٢٢.

على الصمود أمامهم، "وعلموا أنهم لا طاقة لهم به"[١]، ولاسيما أن جيوش دمشق وحمص كانت قد خاضت إلى جانب عساكر حلب كثيراً من المعارك ضد الخوارزمية، علموا خلالها مدى بأسهم وشراستهم، وبشق الأنفس تمكنت تلك الجيوش المتحالفة من إنزال هزيمة كبيرة بهم قرب الرها في نيسان ١٢٤١م، تمكنوا بعدها من طردهم من بعض المناطق التي احتلوها في الجزيرة كالرها ونصيبين.[٢] وما كاد ذلك التحالف يلتقط أنفاسه ويأخذ قسطاً من الراحة حتى سمعوا باستنجاد الصالح أيوب بالخوارزمية وعلاقته معهم، فثارت ثائرتهم وجن جنون الصالح إسماعيل صاحب دمشق الذي سارع لتكوين حلف معادٍ لمصر، كما أبدى استعداده للتحالف مع أي قوة ممكن أن تسانده ضد الصالح أيوب والخوارزمية.

ويبدو أن الصالح إسماعيل والناصر داود قد استغلّا في هذه المرحلة انهيار النظام والسلطة الإمبراطورية في مملكة القدس، واستلام مقاليد الحكم في عكا من قبل الحزب المؤيد لسياسة التقارب مع دمشق ضد مصر استغلّا ذلك في عام ٦٤١هـ/ ١٢٤٣م للاتصال بصليبيي المملكة ومصالحتهم والاستعانة بعساكرهم ضد إخوانهم في مصر مقابل التنازل لهم عن:

أ- بيت المقدس والحرم بما فيه المزارات.

ب- طبرية وعسقلان وكوكب، مع السماح لهم بعمارة هذه المدن وقلاعها.

ت- يكون للفرنج نصيب من بلاد مصر في حال تمت السيطرة عليها.[٣]

وبالفعل تسلم الفرنج المناطق المذكورة، وعمَّروا قلعتي طبرية وعسقلان وحصونهما، وأخذت الاسبتارية كوكب، وبدأوا بعمارتها، ويبدو أن تسليم كوكب لهم كان من باب استرضائهم وإقناعهم بالتخلي عن التحالف مع مصر، ودخل الصليبيون القدس وتسلموا الصخرة المقدسة والأقصى، وجميع المزارات الموجودة في الحرم الشريف، ويذكر ابن واصل عندما زار القدس في نهاية عام ٦٤١هـ/ منتصف ١٢٤٤م أنه

---

[١] ابن واصل: مفرج الكروب، ج٥، ص٢٣٢.

[٢] عن صراع حلب مع الخوارزمية انظر: سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان، ج٢٢، ص٢٧٢-٢٧٤. عاشور: الحركة الصليبية، ج٢، ص٢٧٥.

[٣] ابن واصل: مفرج الكروب، ج٥، ص٣٣٢. للاستزادة أنظر: أبو الفداء: المختصر، ج٣، ص١٧٢.ابن فضل الله: مسالك الأبصار، ج٢٧، ص٣٢٥. المقريزي: السلوك، ج١، ص٤١٧. ابن تغري بردي: النجوم، ج٦، ص٣٢٢. العليمي: الأنس الجليل، ج٢، ص٦. التاريخ الكبير، ج٢، عن الموسوعة، ج٤٧، ص٦٠٧.

رأى بعينه "الرهبان والقسوس على الصخرة المقدسة، وعليها قناني الخمر برسم القربان"، "وأُبطل بالحرم الشريف الأذان والإقامة، وأُعلن فيه بالكفر"[١].

وهنا يظهر بوضوح أنه تم اطلاق يد الصليبيين في بيت المقدس وأصبح لهم كامل السلطة والحكم فيه بخلاف اتفاقية وصلح يافا بين الكامل وفردريك عام ٦٢٦هـ/ ١٢٢٩م التي قيَّدت الصليبيين بشروط وتفاصيل دقيقة يتحتم عليهم عدم تخطيها، ويمكن اختصار القول إن الفرق بين هذا الاتفاق وذاك أنه بموجب صلح يافا كانت يد المسلمين هي العليا في القدس أما الآن فقد حدث العكس، وقد أدرك الصليبيون ذلك، وتفاخروا به.[٢] ومن المفارقة أنه أثناء توقيع صلح يافا كان هناك على أرض فلسطين حملة صليبية بقيادة فردريك، وهو الذي تولى المفاوضات مع الجانب الإسلامي؛ أي أن أوضاع مملكة القدس كانت لا بأس بها، أما الآن فإن بارونات المملكة كانوا قد دخلوا في صراع عنيف مع نائب الإمبراطور في المملكة، وتم انهاء النفوذ الإمبراطوري في صور وغيرها، ثم وقعت المملكة بعدها في صراع بين البارونات وبين رالف الوصي على عرشها بسبب الخلاف على تبعية صور، وفي النهاية ترك رالف في العام نفسه ٦٤١هـ/ ١٢٤٣م الوصاية على عرش عكا وغادرها إلى فرنسا، وبالمجمل فإن مملكة القدس لم تكن في راحة من أمرها، وبالتالي لا يوجد مبرر للجانب الإسلامي لتقديم تلك التنازلات.

والذي يلفت الانتباه أن الناصر داود الذي انتفض على صلح يافا، وحرر القدس من الصليبيين في عام ٦٣٧هـ/ ١٢٣٩م هو نفسه كان بعد أربع سنوات طرفاً في إعادة تسليمها لهم صلحاً، وبشروط أشدُّ إجحافاً عما كانت عليه من قبل.

فما هي الدوافع الحقيقية وراء ذلك؟

وهل الخلاف مع الصالح أيوب مبرر لتسليم القدس؟

ألا يدعو سلوك الناصر داود إلى الشك والريبة في شخصيته، ويدعو إلى الحكم عليها بأنها متقلبة ومنفصلة عن الواقع؟

---

[١] ابن واصل: مفرج الكروب، ج٥، ص٣٣٣. للاستزادة أنظر: أبو الفداء: المختصر، ج٣، ص١٧٢. مسالك الأبصار، ٢٧، ص٣٢٥. المقريزي: السلوك، ج١، ص٤١٨. الأعلاق الخطيرة، ج٢، ص٢٣٤. ابن تغري بردي: النجوم، ج٦، ص٣٢٢. العليمي: الأنس الجليل، ج٢، ص٦.

[٢] انظر: التاريخ الكبير، ج٢، عن الموسوعة، ج٤٧، ص٦٠٨.

وهل سياق الأحداث يثبت ذلك أم ينفيه؟

ألا يثبت موقف الناصر داود هنا ما تم تقريره من قبل بأن تحريره للقدس عام ٦٣٧هـ/ ١٢٣٩م كان لأسباب اقتصادية بحتة؟

في الحقيقة إن المتتبع لسيرة الناصر داود التي قدمها له اليونيني[١] يستنتج مدى تباين مواقفه ومغامراته وعدم اتزانه مع مدح العامة وحبهم له، ومع أنه كان شاعراً ظريفاً خفيفاً، فيه فضيلة الآداب والعلوم، وشهرته بحب العلم والعلماء.

[١] اليونيني: ذيل مرآة الزمان، ج١، ص١٢٦-١٨٤. للاستزادة أنظر: ترجمته عند ابن العديم: بغية الطلب في تاريخ حلب، تح: سهيل زكار، دار الفكر، ج٧، ص٣٤٥٣-٣٤٦٣.

## سابعاً: التحرير الثالث للقدس، ومعركة غزة الثالثة في جمادى الأولى سنة ٦٤٢هـ/ تشرين الأول ١٢٤٤م (غزة الكبرى أو حطين الثانية)

يبدو أنه وقع اتفاق بين الحلفاء بأن يقوم الملك المنصور صاحب حمص بزيارة الصليبيين في عكا والاجتماع معهم لتجييشهم ولوضع خطة المعركة القادمة مع مصر، وحسب ما يُفهم من المصادر التاريخية يبدو أن الوعد بإعطاء الصليبيين حصة من مصر في حال تم الاستيلاء عليها -كما سلف ذكره في شروط الاتفاق- جاء على لسان الملك المنصور خلال هذه الزيارة.[١]

وسواءً كان الوعد بحصة من مصر تم في تلك الزيارة أم قبلها فإن ذلك يفسر حجم المشاركة الفرنجية العالية المستوى في المعركة المقبلة، إذ إن ابن واصل يذكر: "وجمع الفرنج الفارس والراجل وحشدوا"[٢].

ويبدو أنه قبل خروج الجيش الصليبي إلى غزة بقليل هجم الخوارزمية على القدس وحرروها من الصليبيين، وهرب مَن كان بها منهم، وكان بها آنذاك الناصر داود فهرب مع عساكره عائداً إلى الكرك، وهربت عساكر الصالح إسماعيل التي كانت قرب غزة عائدةً إلى دمشق منذ أن علمت باقتراب الخوارزمية من القدس.[٣]

جاء تحرير القدس على يد الخوارزمية وسقوطها بيدهم ليُنبه الحلفاء على شدة الخطر عليهم، فأعادوا تجميع قواهم، وكلَّف الصالح إسماعيل المنصور إبراهيم صاحب حمص بقيادة جيشي حمص ودمشق معاً لِما له من باع طويل في حرب الخوارزمية، إضافةً لِما شُهِرَ به من الشهامة والإقدام، وتقرر الاجتماع مع الصليبيين قرب يافا، وكذلك أرسلا إلى الناصر داود، فأرسل لهما جيشه دون أن يكون على رأسه، والتقى الجميع عند غزة.[٤]

---

[١] راجع ابن واصل: مفرج الكروب، ج٥، ص٣٣٢، ٣٣٨. أبو الفداء: المختصر، ج٣، ص١٧٢. المقريزي: السلوك، ج١، ص٤١٩. العليمي: الأنس الجليل، ج٢، ص٧.

[٢] ابن واصل: مفرج الكروب، ج٥، ص٣٣٢.

[٣] ابن واصل: مفرج الكروب، ج٥، ص٣٣٧. المقريزي: السلوك، ج١، ص٤١٩.

[٤] سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان، ج٢٢، ص٣٨١. ابن واصل: مفرج الكروب، ج٥، ص٣٣٨. المقريزي: السلوك، ج١، ص٤١٩.

وفي العودة إلى موقف سلطان مصر الصالح أيوب، يبدو أنه استمر على علاقات طيبة مع الخوارزمية؛ وإن كان لا يوجد في المصادر ما يُثبت أنه كان هناك أي تحالف بينهما في تلك الآونة، ولكن سياق الأحداث يُثبت ذلك، وما إن أحس الصالح أيوب بخطر ذلك التحالف الذي تقدم إلى غزة حتى وجَّه أنظاره إلى الخوارزمية، وأرسل إليهم طالباً حضورهم إلى غزة لنُصرته ضد أعدائه أيوبيي بلاد الشام وصليبيي مملكة القدس مجتمعين، وعلى الفور لبى الخوارزمية تلك الدعوة وقدموا إلى بلاد الشام.[١]

ويمكن تفسير موقف الخوارزمية هذا وتلبيتهم تلك الدعوة بما لحقهم من هزيمة قرب الرها في رمضان ٦٣٨هـ/ نيسان ١٢٤١م على يد ذلك التحالف نفسه (قوات دمشق وحمص وحلب)، وكانت أقبح هزيمة تنال الخوارزمية في المنطقة بعد هزيمتهم أمام المغول، حيث طُردوا على أثرها من المناطق التي كانوا قد احتلوها في الجزيرة، مثل الرها ونصيبين، وعلى أثرها لم يجرؤوا على مهاجمة بلاد الشام، واستقر جزء كبير منهم بين الرها وحران يواصلون غاراتهم في النهب والسلب، ويعرضون خدماتهم على من يشتريها ويدفع لهم أكثر.[٢]

وبناءً على ذلك ما إن وصلتهم كُتب الصالح أيوب يستنجدهم ويحثهم على القدوم إلى البلاد المصرية في نهاية عام ٦٤١هـ/ بداية ١٢٤٤م حتى لبّوا تلك الدعوة مسرعين بكامل الرضى والقبول والتفاؤل، وعلى الفور اندفع نحو عشرة آلاف رجل منهم عابرين نهر الفرات "وانقسموا قسمين: قسم جاؤوا على بقاع بعلبك، وقسم على غوطة دمشق، ونهبوا وقتلوا، وسدَّ إسماعيل أبواب دمشق، ونزلوا غزَّة"[٣]، وهنا لا يذكر سبط ابن الجوزي أبداً مرورهم على القدس وتحريرهم لها.

---

[١] سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان، ج٢٢، ص٣٧٨. المقريزي: السلوك، ج١، ص٤١٨-٤١٩. الحايك: العلاقات الدولية، ٢، ص١٧١.

[٢] ابن واصل: مفرج الكروب، ج٥، ص٢٩٢-٢٩٣. أبو الفداء: المختصر، ج٣، ص١٦٨.

[٣] سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان، ج٢٢، ص٣٧٨. للاستزادة أنظر: ابن واصل: مفرج الكروب، ج٥، ص٣٣٦. المقريزي: السلوك، ج١، ص٤١٩.ابن تغري بردي: النجوم، ج٦، ص٣٢٢. التاريخ الكبير، عن الموسوعة، ج٤٧، ص٦٢٦.

إذ إنهم قبل نزولهم على غزة، وبعد أن أدركوا مدى حصانة دمشق يمموا نحو الجليل، حيث استولوا على طبرية، ثم على نابلس، ومنها قصدوا بيت المقدس، وأكثروا من القتل والنهب والسلب في طريقهم إليها.[١]

كانت القدس آنذاك مدينة شبه مفتوحة، ضعيفة التحصينات، وليس فيها ملك أو زعيم صليبي يدافع عنها، إذ إنها خرجت عن سلطة الإمبراطور فردريك بالأمس القريب، والصليبيون فيها يميلون إلى الهدوء والاستقرار معوِّلين كثيراً على الهدنة المعقودة مع حاكمي دمشق والكرك[٢]. وعندما اقترب الخوارزميون منها عمد الصليبيون فيها إلى الاستنجاد بأمير أنطاكية وطرابلس بوهيموند الخامس، وملك قبرص هنري الأول Henry I، كما أرسلوا استغاثاتهم إلى عكا ومن ورائها حلفائها في حمص ودمشق والأردن، ولكن أحداً من هذه الأطراف لم يُلبِ النداء لانشغال كل منهم في مشاكله الخاصة.[٣]

ويمكن تفسير موقف التحالف الأيوبي في بلاد الشام الذي تشكل ضد الخوارزمية بأنه لم يقدم النجدة للصليبيين في القدس لحساسية الموضوع، ولخشيتهم من نقمة الرأي العام في البلدان الإسلامية.

وفي ٢٣ صفر ٦٤٢هـ/ ١١ تموز ١٢٤٤م تمكن الخوارزميون من اقتحام مدينة بيت المقدس والاستيلاء عليها بعد قتال مرير في شوارعها حاول خلاله حاكم القدس الصليبي آنذاك القيام بهجوم معاكس على الخوارزميين من القلعة فردَّ الخوارزميون ذلك الهجوم وقتلوا قائد القلعة ومعه مقدم الاسبتارية، وعلى الرغم من ذلك فقد استمرت الحامية الصليبية في الدفاع إلى أن أدركت تخلي الصليبيين عنها فاضطرت للاستنجاد بالناصر داود ملك الكرك لتأمين خروجهم بسلام.[٤].

وعلى الرغم من عدم ميل الناصر داود إلى الصليبيين وكرهه للتحالف معهم -كما يقول رنسيمان-[٥]، إلا أنه أرسل قوة من جيشه إلى القدس استطاعت أن تقنع الخوارزميين بالسماح لمن بقي حياً من الفرنج بالخروج آمناً من القدس، وبالفعل تم ذلك في ٢٣ آب ١٢٤٤م، وخرج منها ستة آلاف فرنجي

---

(١) ابن واصل: مفرج الكروب، ج٥، ص٣٣٦. المقريزي: السلوك، ج١، ص٤١٩.

(٢) التاريخ الكبير، عن الموسوعة، ج٤٧، ص٦٦٠.

(٣) النقر: تاريخ بيت المقدس، ص٣٠٢. عاشور: الحركة الصليبية، ج٢، ص٢٧٥.

(٤) التاريخ الكبير، عن الموسوعة، ج٤٧، ص٦٦٠-٦٦١. ابن واصل: مفرج الكروب، ج٥، ص٣٣٧. ابن تغري بردي: النجوم، ج٦، ص٣٢٣. الراهب الدومينيكاني، عن الموسوعة، ج٤٣، ص١١٧٠. النقر: تاريخ بيت المقدس، ص٣٠٢.

(٥) رنسيمان: تاريخ الحروب، ج٣، ص٣٩٢.

اتجهوا نحو يافا، ولم يكد يبتعد هؤلاء عن مدينة القدس قليلاً حتى دبر لهم الخوارزميون خديعة حربية، بأن رفعوا أعلام الفرنج فوق أسوار القدس، وبذلك ظن الصليبيون بأن المدينة قد عادت لسيطرتهم بفضل من تخلف منهم بها، فعادوا أدراجهم إليها، فانقضَّ الخوارزميون عليهم وقتلوا منهم أكثر من ألفين، وتعرض من بقي منهم حياً للمطاردة طوال طريقهم إلى يافا، وشارك بمطاردتهم البدو الموجودون في المنطقة، بحيث تذكر المصادر اللاتينية أنه لم يصل منهم إلى يافا سوى قرابة ثلاثمئة شخص[١]، ومتى باريس نفسه يذكر أنه "كان نصيب الأكثرية القتل، وكانوا قلة الذين جرحوا والذين نجوا بالفرار"[٢].

وهكذا أصبحت القدس كاملةً تحت رحمة الخوارزمية، وكان تحريرها على يدهم[٣] بعد سنة من تسليمها للصليبيين من قبل الصالح إسماعيل والناصر داود، ولكن الخوارزمية ارتكبوا بها من الأعمال الشنيعة ما فاق ما ارتكبوه في المناطق الأخرى، ويختصر ابن واصل أعمالهم بها بقوله: "بذلوا السيف فيمن كان فيه من النصارى، ولم يبقوا على أحد منهم، وسبوا ذراريهم ونساءهم، ودخلوا كنيستهم المعروفة بقمامة، فهدموا المقبرة التي تعتقد النصارى أنها مقبرة المسيح عليه السلام، ونبشوا قبور النصارى وقبور ملوك الفرنج التي بالقمامة، وأحرقوا عظام الموتى"[٤].

وتذكر المصادر اللاتينية شبيه ما ذكره ابن واصل أيضاً، ففي "رسالة مبكية" التي أرسلها أساقفة ونبلاء مملكة القدس إلى أساقفة الغرب الأوربي وإلى ملكي فرنسا وإنكلترا في تشرين الثاني عام ١٢٤٤م ورد ما يلي: "وقتلوا جميع الصليبيين الذين بقيوا هناك، حتى أمام ضريح ربنا نفسه، وفي الكنيسة التي هربوا إليها للالتجاء، لا بل حتى أنهم قطعوا رؤوس الكهنة الذين كانوا يؤدون القداسات عند المذبح"، "ولطخوا بكل

---

[١] التاريخ الكبير، عن الموسوعة، ج٤٧، ص٦٢٤-٦٢٥، ٦٢٧. رنسيمان: تاريخ الحروب، ج٣، ص٣٩٢. عاشور: الحركة الصليبية، ج٢، ص٢٧٦. حومد: تاريخ الجهاد، ج٢، ص٢٧٣-٢٧٤.

[٢] التاريخ الكبير، عن الموسوعة، ج٤٧، ص٦٢٥.

[٣] يتفق معظم المؤرخين على ذلك، أي أن تحرير القدس عام ٦٤٢هـ/١٢٤٤م تم على يد الخوارزمية، إلا أن قِلة من المؤرخين المتأخرين يجعلون شرف تحريرها يعود للصالح نجم الدين أيوب، وأن هذا التحرير تم على يده، كالعليمي الذي يُعنون ذلك الحدث ب "ذكر الفتح الصالحي النجمي الذي يسره الله" (العليمي: الأنس الجليل، ج٢، ص٣٦)، وكذلك العمري في كتابه مسالك الأبصار، ج٢٧، ص٣٢٦. وأيضاً ابن سباط في كتابه صدق الأخبار، ج١، ص٣٣١. وكذلك فإن سبط لا يتطرّق لتحرير القدس على يد الخوارزمية أبداً.

[٤] ابن واصل: مفرج الكروب، ج٥، ص٣٣٧. للاستزادة أنظر: الراهب الدومينيكاني، عن الموسوعة، ج٤٣، ص١١٧٠. ابن العميد: أخبار الأيوبيين، ص٣٣. رنسيمان: تاريخ الحروب، ج٣، ص٣٩٣.

وسيلة من الإهانات كانت بإمكانهم جبل أكرا الجمجمة، حيث جرى صلب المسيح، والذي فعلوه بالمدينة هو ما لستُ بقادر على التعبير عنه"[١].

وبعد أن أكمل الخوارزميون نهب بيت المقدس يمموا غزة للانضمام إلى جيش الصالح نجم الدين أيوب طمعاً بالعطاء والهبات والإقطاعات منه، وطمعاً بالغنائم التي سيغنمونها في حال تم الانتصار على جيش التحالف (دمشق وحمص وحلب والكرك والصليبيين)، إضافة إلى أن هبات الصالح أيوب والخلع بدأت تصل لمقدميهم قبل أن يصلوا إلى غزة ويجتمعوا مع جيش مصر.[٢]

ويمكن تقدير أعداد الخوارزميين الذين وصلوا إلى غزة آنذاك بعشرة آلاف جندي، واجتمعوا مع الجيش المصري في ١٧ تشرين الأول ١٢٤٤م قرب قرية الحربية (حيربيا)، إلى الشمال الشرقي من غزة، وكان على رأس الجيش المصري الذي توجه إلى غزة المملوك ركن الدين بيبرس البندقداري، وهو غير بيبرس الذي أصبح سلطاناً في القاهرة فيما بعد، وتقدر المصادر والمراجع عدد الجيش المصري آنذاك بحوالي خمسة آلاف فارس من رجال النخبة الأولى الممتازين.[٣] وهنا يظهر أن هذا الجيش لم يكن على رأسه قيادات كبيرة، على عكس جيش التحالف (الشامي الصليبي) الذي كان على رأسه العديد من القيادات والشخصيات الكبيرة، وعلى رأسهم الملك المنصور صاحب حمص، وعدد كبير من الشخصيات والزعامات الصليبية من مملكة القدس، وتعدى ذلك إلى إمارة أنطاكية وكونتية طرابلس، إذ حضر منها بعض الأمراء. ويمكن القول إن حجم المشاركة الصليبية في تلك المعركة جاءت على أعلى مستويات القادة لديها، وبمعظم قواهم العسكرية، حيث كان في الجيش الصليبي آنذاك كل من بطريرك القدس روبيرت، ورئيس أساقفة صور، ورالف أسقف الرملة، وكونت يافا والتر بريين (غوتيير)، وطوائف الفرسان الدينية بمن فيهم الاسبتارية حلفاء مصر بالأمس القريب، وكانت مشاركة تلك الطوائف على مستوى مقدميها، وكذلك فيليب مونتفورت Philip of Montfort صاحب صور وتبنين، وأيضاً شاركت قوات من أنطاكية بقيادة سيدي البترون (يوحنا ووليم)، وكان معهم أبناء عم أمير أنطاكية بوهموند، وأيضاً كند اسطبل طرابلس،

---

[١] التاريخ الكبير، عن الموسوعة، ج٤٧، ص٦٦٠-٦٦١.

[٢] سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان، ج٢٢، ص٣٨١. ابن واصل: مفرج الكروب، ج٥، ص٣٣٧. النقر: تاريخ بيت المقدس، ص٢٠٣.

[٣] التاريخ الكبير، عن الموسوعة، ج٤٧، ص٦٢٨. ابن واصل: مفرج الكروب، ج٥، ص٣٣٧.ابن تغري بردي: النجوم، ج٦، ص٣٢٣. حومد: تاريخ الجهاد، ج٢،ص٢٧٤. الحايك: العلاقات الدولية، ج٢،ص١٧٢، حاشية رقم٣.

ويذكر سبط ابن الجوزي والصفدي أن عدد فرسان الفرنجة الذين حضروا معركة غزة بلغ آنذاك ألفاً وخمسمئة فارس، وأن المشاة بلغوا عشرة آلاف جندي.[١] وتأكيداً لذلك فإن المراجع الغربية ترى أن هذا الجيش الصليبي هو "أضخم جيش قذف به الشرق الفرنجي في ساحة القتال من يوم حطين"[٢].

أما عن خطة المعركة فيبدو أن الجيش المصري والخوارزمية اتخذوا موقف الدفاع، ولا يرد في المصادر أنهم برحوا موقعهم الذي تحصنوا به، في حين أن التحالف الشامي الصليبي يظهر بوضوح أنه اتخذ موقف الهجوم، ويفهم من كتابات سبط ابن الجوزي[٣] أن الملك المنصور إبراهيم -قائد جيشي حمص ودمشق- كان يرى ضرورة اتخاذ موقف الدفاع وتحصين المعسكر في يافا أو قربها تحسباً لهجوم مؤكَّد سيقوم به الخوارزمية، معتمداً في ذلك على خبرته الطويلة في حروبه معهم، وعلى ما اتصفوا به من الإلحاح وعدم القدرة على الانتصار أو المثابرة على حرب طويلة الأمد، وعلى الرغم من إلحاح المنصور على خطته تلك وتأييد القادة له بذلك إلا أن الغلبة كانت لرأي غوتيير كونت يافا الذي كان يشعر بالتفوق العددي على الخصم، وألح في طلب الهجوم، وبادر بالتحرّك بقواته باتجاه غزة فتبعه بقية الجيش،[٤] والتقوا بالقوات المصرية والخوارزمية في ١٢ جمادى الأولى ٦٤٢هـ/ ١٧ تشرين الأول ١٢٤٤م عند إحدى قرى غزة التي تقع إلى الشمال الشرقي منها ببضعة أميال، في منتصف الطريق إلى عسقلان، على اختلاف قليل بين المصادر في تحديد اسم القرية التي كانت المعركة عندها.[٥]

وانتظم جيش التحالف الشامي - الصليبي بأن كان الفرنج في الميمنة وقوات الكرك بقيادة الوزيري في الميسرة، وكان المنصور إبراهيم صاحب حمص في القلب، في حين انتظم جيش مصر بأن جعلوا

---

[١] سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان، ج٢٢، ص٣٨٢. الصفدي، صلاح الدين خليل بن أيبك: تحفة ذوي الألباب فيمن حكم بدمشق من الخلفاء والملوك والنواب، تح: إحسان خُلوصي وزهير الصمصام، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، ١٩٩٢م، ق٢، ص١٩٠، ١٣٣. للاستزادة أنظر، الحايك: العلاقات الدولية، ج٢، ص١٧١.

[٢] رنسيمان: تاريخ الحروب، ج٣، ص٣٩٤.

[٣] راجع سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان، ج٢٢، ص٣٨١.

[٤] جوانفيل: حياة لويس، عن الموسوعة، ج٣٦، ص١٩٤-١٩٥. الحايك: العلاقات الدولية، ج٢، ص١٧٣.

[٥] لم أهتد لترجمتها في المعاجم الجغرافية، فسبط ابن الجوزي يذكر اسم القرية ب "قريبا"، وربما هو خطأ من المحقق، سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان، ج٢٢، ص٣٨٢. ويذكرها رنسيمان: تاريخ الحروب باسم "الحربية" ٣، ص٣٩٤. وترد لدى مصطفى زيادة "قرية حيربيا الحالية"، حملة لويس التاسع، ص٧٥. وفي تاريخ سورية للدبس ص٢٥٥ ترد باسم "بلدة جادر". ويذكر أبو شامة أن مكان المعركة بين غزة وعسقلان: ذيل الروضتين، عن الموسوعة، ج٢٠، ص٣٤٢-٣٤٣. للاستزادة أنظر: ابن واصل: مفرج الكروب، ج٥، ص٣٣٨. المقريزي: السلوك، ج١، ص٤١٩.

الخوارزمية في الميسرة في مواجهة الفرنج، بينما كان جيش مصر في الميمنة في قبالة قوات دمشق وحمص والأردن.[١]

ودارت بين الفريقين معركة من أغرب المعارك، ليس لِما فيها من تناقض المتحالفين وتقارب المتصارعين فحسب، بل لِما في مجريات أحداثها من غرابة، فقد كان الجيش المصري منذ البداية ضعيف التمثيل السياسي على مستوى القيادة، إذ كان على رأسه أحد الأمراء المماليك المغمورين، وهو المملوك بيبرس البندقداري.

وما إن بدأت المعركة حتى فرَّ ذلك الجيش عائداً إلى مصر، واستقر في العريش، وبدلاً من أن تطاردهم قوات دمشق والأردن هي الأخرى فرَّت هاربةً نحو الشمال، وتبعهم بعد قليل المنصور صاحب حمص تاركين أرض المعركة واسعةً للفرنج والخوارزمية، وثبت الطرفان لبعضهما ثباتاً قلَّ نظيره، وشهدت المعركة صراعاً دموياً قلَّما شهدته الجيوش المتحاربة في عصر الممالك الأيوبية مثيلاً.[٢] وعن ذلك يذكر بطريرك القدس في "رسالة مبكية" التي تم إرسالها آنذاك إلى أساقفة الغرب الأوربي: "وهكذا تُرك الصليبيون لوحدهم في ميدان المعركة، ومع أن الخوارزمية والمصريين انقضوا عليهم مع بعضهم، صمد الصليبيون بحكم كونهم أبطالاً للرب، والمدافعين عن الإيمان الكاثوليكي، والذين جعل منهم الإيمان نفسه والآلام إخواناً، وأظهروا مقاومة شجاعة لهم".[٣]

ويبدو أن المعركة لم تستمر سوى ساعات قليلة حققت الخوارزمية خلالها نصراً عظيماً، وأُبيد خلالها الجيش الفرنجي إبادة شبه تامة، إذ لم يَنْجُ من الداوية -باعتراف المصادر اللاتينية المعاصرة- سوى ثلاث وثلاثين شخصاً من أصل ثلاثمئة، وستة وعشرين من الاسبتارية من أصل مئتين، ولم يبق من فرسان القديس

---

[١] سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان، ج٢٢، ص٣٨٢. تحفة ذوي الألباب، ق٢، ص ١٣٣.

[٢] سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان، ج٢٢، ص٣٨٢. تحفة ذوي الألباب، ق٢، ص١٩٠، ١٣٣. الحايك: العلاقات الدولية، ج٢، ص١٧٢. للاستزادة أنظر: التاريخ الكبير، عن الموسوعة، ج٤٧، ص٦٦٢.

[٣] التاريخ الكبير، عن الموسوعة، ج٤٧، ص٦٦٢.

يوحنا التيوتون سوى ثلاثة أشخاص، وكان مقدم الداوية من بين القتلى، ومقدم الاسبتارية من بين الأسرى.[١]

قُتل أيضاً في هذه المعركة مارشال الداوية، ورئيس أساقفة صور، وأسقف الرملة، وسيد البترون، وكان ممن وقع في الأسر -بالإضافة إلى مقدم الاسبتارية- كونت يافا، وكند اصطبل طرابلس، في حين لاذ بالفرار إلى عسقلان فيليب مونتفورت Philip of Montfort والبطريرك، ولحق بهم مَن بقي على قيد الحياة من الصليبيين، في حين تبخرت بقية الجيش بين قتيل وأسير ومفقود.[٢]

وتذكر الروايات العربية- الإسلامية أنه نُقل إلى مصر حوالي ثمانمئة أسير،[٣] وقدَّرت الروايات الغربية عدد القتلى الفرنج بحوالي خمسة آلاف قتيل،[٤] ويكتفي بطريرك القدس في التعبير عن كثرة أعداد القتلى بقوله -بعد عودته إلى عكا-: "ولم يكن هناك بيت أو روح حية لم تكن تبكي واحداً من الموتى قريب لها"[٥].

وتبالغ الروايات العربية- الإسلامية في تحديد عدد القتلى الفرنج، فأوصل بعضهم العدد إلى عشرين ألف[٦]، أو ثلاثين ألف قتيل عند سبط ابن الجوزي الذي حضر إلى أرض المعركة في اليوم الثاني لها.[٧] ولكن يظهر بكل وضوح أن هذا العدد مبالغ فيه، ويبدو أن العدد خمسة آلاف قتيل هو أقرب إلى الواقع.

ومع أن المصادر لا تتحدث عن خسائر وقتلى في صفوف الجيش المصري أو نقيضه الشامي إلا أن ابن واصل يذكر أنه كان مع الأسرى الفرنج الذين وصلوا إلى مصر جماعة من الأمراء والأعيان المسلمين

---

(١) التاريخ الكبير، عن الموسوعة، ج٤٧، ص٦١٩-٦٢٠، ٦٢٩، ٦٦٢. للاستزادة أنظر: جوانفيل: حياة لويس، عن الموسوعة، ج٣٦، ص١٩٥. . باربير: الفروسية الجديدة، عن الموسوعة، ج٥٢، ص٢٠٧. ابن تغري بردي: النجوم، ج٦، ص٣٢٣. الحايك: العلاقات الدولية، ٢، ص١٧٣.

(٢) ابن واصل: مفرج الكروب، ج٥، ص٣٣٨-٣٣٩. التاريخ الكبير، عن الموسوعة، ج٤٧، ص٦٢٩، ٦٦٣. جوانفيل: حياة لويس، عن الموسوعة، ج٣٦، ص١٩٥.

(٣) سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان، ج٢٢، ص٣٨٢. تحفة ذوي الألباب، ق٢، ص١٣٣.

(٤) رنسيمان: تاريخ الحروب، ج٣، ص٣٩٦.

(٥) التاريخ الكبير، عن الموسوعة، ج٤٧، ص٦٦٣.

(٦) تحفة ذوي الألباب، ق٢، ص١٣٣.

(٧) سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان، ج٢٢، ص٣٨٢.

"منهم جماعة من أصحاب الملك الناصر داود وجماعة من عسكر دمشق"، كما يَذكر أنه نُهبت جميع أثقال الدمشقيين.[١]

وبعد المعركة تابعت قوات مصر المنهزمين إلى عسقلان بهدف السيطرة عليها، إلا أن الاسبتارية كانت قد شحنتها بحامية عسكرية كبيرة، وقوَّت استحكاماتها، مما اضطر المصريون إلى فرض الحصار عليها واستقدام السفن من مصر لمراقبة الساحل وتشديد الحصار.[٢]

وبالوقت نفسه حمل الخوارزمية أسيرهم كونت يافا غوتيير إلى مدينته كي يأمر حاميتها بتسليمها حفاظاً على روحه، إلا أنه أبى ذلك، وظهر منه العكس تماماً، بأن أمر الحامية بالامتناع عن التسليم والاستمرار في القتال مهما أُنزل به من العذاب من قبل العدو، وكانت استحكامات يافا من القوة والمنعة ما جعلت الخوارزمية ينسحبون بأسيرهم عنها، وأرسلوه كهدية إلى السلطان في القاهرة، وفيما بعد مات هذا الأسير هناك على أثر شجار نشب بينه وبين أمير مصري كان يلاعبه الشطرنج.[٣]

ويُعقب رنسيمان على نتائج وأهمية معركة غزة الكبرى على العالم الصليبي فيقول أنها: "سلبت الفرنج كل ما أحرزته لهم الدبلوماسية من مكاسب طارئة في عشرات السنين الأخيرة"[٤]. وبلغ تشاؤم صليبيي مملكة القدس اللاتينية الثانية بعد معركة غزة درجةً قال فيها البطريرك: "إن الخوف من المستقبل قد استولى على الجميع؛ لأن جميع المنطقة التي تم نيلها بسيوف الصليبيين هي الآن خالية من جميع بني البشر ومن جميع المساعدات الأرضية، والحماية، وقوة المدافعين قد نزلت إلى لا شيء، ودمرت، لأن هناك فقط عدداً قليلاً من الأحياء، ومع أن هؤلاء قد انحدروا إلى حافة الموت، ما من شيء كما يبدو قد بقي، بل يتوجب أن يسقط كل المتبقي في أيدي أعداء الصليب وَفْقَ رغباتهم"[٥].

---

[١] ابن واصل: مفرج الكروب، ج٥، ص٣٣٩.

[٢] التاريخ الكبير، عن الموسوعة، ج٤٧، ص٦٦٤-٦٦٥، ٤٨، ص٨٩٣. ابن تغري بردي: النجوم، ج٦، ص٣٢٤. المقريزي: السلوك، ج١، ص٤٢٠.

[٣] جوانفيل: حياة لويس، عن الموسوعة، ج٣٦، ص١٩٦. رنسيمان: تاريخ الحروب، ج٣، ص٣٩٦. حومد: تاريخ الجهاد، ج٢، ص٢٧٥.

[٤] رنسيمان: تاريخ الحروب، ج٣، ص٣٩٧.

[٥] التاريخ الكبير، عن الموسوعة، ج٤٧، ص٦٦٤،ج ٤٨، ص٨٩٢.

في الحقيقة أن خسائر الصليبيين في الرجال والقوة العسكرية بشكل عام كانت تفوق احتمالهم، ويمكن القول إن القوة القادرة على الدفاع عن مملكة القدس اللاتينية قد أُبيدت بشكل شبه تام في تلك المعركة، ولم يعد لتلك المملكة من القوة سوى ما يدافع عن مناطقها الساحلية وبعض القلاع الداخلية المنيعة. هذه النتائج أعادت لهم ذاكرة معركة حطين عام ٥٨٣هـ/ ١١٨٧م، إذ إنهم لم يخسروا بعدها من المقاتلين في أي معركة مع المسلمين كما خسروه في معركة غزة عام ٦٤٢هـ/ ١٢٤٤م، وكان حقاً عليهم أن يطلقوا عليها اسم معركة "حطين الثانية".

ويذكر سبط ابن الجوزي ذلك اليوم فيقول: "كان يوماً عظيماً لم يجر مثله في زمن نور الدين وصلاح الدين، رحمهما الله"[١].

أما الفارق بين هذه المعركة وتلك – على الصعيد الأيوبي– فهو كبير جداً، فقبل حطين كان صلاح الدين قد أنهى الصراع الداخلي وحقق وحدة بلاد الشام ومصر، وبعد حطين باشر فوراً بأعمال تدمير مملكة القدس اللاتينية الأولى وتحرير القدس منهم، أما الآن فقد كانت الخوارزمية انتهت من تحرير القدس قبل معركة غزة، ومثَّل الانتهاء من هذه المعركة بدايةً لمشروع الصالح نجم الدين أيوب في توحيد المنطقتين (مصر والشام)، وعلى الرغم من أن الفرصة كانت مواتية لذلك، وكانت هِمَمُ الخوارزميين عاليةً جداً لتنفيذ هذا المشروع، ومباشرةً قاموا باجتياح أراضي مملكة القدس حتى وصلوا أرباض عكا، وتناقلت الإشاعات بقدوم الجيش المصري لإطباق الحصار على عكا، وقد عبَّر البطريرك عن صعوبة وحرج موقفهم بأن قال عن كنائس وأراضي الصليبيين بأنهم: "يجدون مصاعب جمة ومتاعب كبيرة في الدفاع عنها، ولقد قيل أيضاً بأن المصريين الذين هم الآن عند غزة سوف يقدمون قريباً بأعداد كبيرة جداً إلى عكا للاتحاد مع الخوارزمية في حصار المدينة"[٢].

ولكن الخلاف والنزاع الذي بدأ ينشب بين الصالح أيوب والخوارزمية إضافة إلى النزاعات الداخلية الأيوبية دفعته إلى تأجيل مشروع تدمير مملكة القدس اللاتينية الثانية إلى ما بعد الانتهاء من أمر الخوارزمية وتصفية النزاعات الداخلية، وكما يقول رنسيمان فإن: "هذا الإرجاء هو الذي أنقذ الشرق الفرنجي"[٣]. إذ

---

[١] سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان، ج٢٢، ص٣٨٢.

[٢] التاريخ الكبير، عن الموسوعة، ج٤٧، ص٦٦٤.

[٣] رنسيمان: تاريخ الحروب، ج٣، ص٣٩٧.

إن الصالح أيوب لم يكد يتم مشروعه الأول حتى أتته جحافل الحملة الصليبية السابعة، فاشتد مرضه وسقط ميتاً على أثر سماعه بسقوط دمياط، كما سيأتي شرحه.

وفي العودة إلى أحداث معركة غزة وغرابتها وما حوته من تناقضات، ترد التساؤلات الآتية:

هل جرى قتال حقيقي بين المصريين والشاميين؟ أم أن كل منهم انهزم بعد مناوشات بسيطة؟

هل كانت هناك خسائر حقيقية بين الطرفين أم لا؟

لماذا لم يطارد الشاميون المصريين اثر انسحابهم في بداية المعركة؟

هل كان هناك تنسيق مسبق بين الشاميين والمصريين للانسحاب من المعركة وفسح المجال واسعاً للخوارزميين والصليبيين لإبادة بعضهم بعضاً وإنهاء خطرهم على المنطقة؟

أم أن ذلك الانسحاب أتى عفوياً في الوقت نفسه، ودون أي تنسيق مسبق بينهما؟

هل قيادة المنصور إبراهيم صاحب حمص للجيش الشامي تحت رايات الصليبيين ضد أبناء عمومته في مصر كان بإرادة منه أم كان هناك ما أرغمه على ذلك؟ وهل استمر في ذلك التحالف، أم ندم وتراجع عنه؟

هل كان انسحاب المنصور من المعركة بتخطيط مسبق أم أنه أتى وليد الأحداث؟

هل كان للمنصور دور مسبق في التخطيط لإبادة الصليبيين في تلك المعركة؟

لا يوجد في المصادر ما يُجيب عن تلك التساؤلات بدقة، ولكن من خلال تتبع أحداث معركة غزة وما أعقبها في هذه المصادر يمكن القول إنه لم يكن هناك قتال حقيقي بين الجانبين الشامي والمصري، كما أن المصادر لم تذكر وقوع أي خسائر في صفوفهما، سوى ما يذكره ابن واصل أنه كان من ضمن الأسرى الذين وصلوا إلى مصر بعض الأمراء من عسكر دمشق والكرك.[1] وإن صدق ذلك الخبر فلا يستبعد أن هؤلاء كانوا قد تأخروا في الانسحاب مع الجيش الشامي، واستمروا في المقاومة إلى جانب الصليبيين، ولاشك أن أسرهم تم على يد الخوارزميين، ومن المستبعد أن يكون قد تم على يد المصريين.

---

[1] ابن واصل: مفرج الكروب، ج٥، ص٣٣٩.

وعن التخطيط للانسحاب من المعركة من الطرفين، يمكن القول إن من خلال تجييش الجيوش والزحف إلى غزة والاستعداد للمعركة من قبل كلاهما، بأنهما كانا مستعدين كل الاستعداد للمعركة، ولا يوجد تخطيط مسبق للانسحاب من المعركة، ويبدو أنه قبل المعركة بقليل ارتفعت أصوات وبرزت جهود شخصية لتخفيف حدة التوتر والاحتقان بين أبناء المنطقة الواحدة والدين الواحد والقومية الواحدة، وربما كان لذلك أكبر الأثر في تراجع المصريين والشاميين عن القتال، كما يمكن القول إن ذلك كان دليلاً واضحاً على عدم تسرب الخلافات والصراعات بين زعماء الأيوبيين إلى الجماهير الشعبية والطبقات الدنيا، لذا آثرت هذه الطبقات الانسحاب من المعركة التي لا ناقة لهم بها ولا جمل.

وعن المنصور إبراهيم الذي اشتُهر في حروبه ضد الخوارزمية وعداوته الشديدة لهم، فلا يُعقل أنه أراد نصرهم في تلك المعركة، أو أنه تقاصر عن أي مجهود في سبيل ذلك، لذا فإن محالفته للصليبيين لم تكن محبة بهم بالقدر الذي كانت بغضاً للخوارزميين ورغبةً في إلحاق الهزيمة بهم وتشتيت شملهم؛ لذا لا يمكن القول إنه اتخذ قرار الهزيمة مسبقاً -مع عدم استبعاد ذلك عن عسكر دمشق والكرك- ويمكن تفسير انسحابه من المعركة بأنه عندما رأى انهزام الجيش المصري منه في بداية المعركة كره أن يحقق الصليبيون نصراً حاسماً فتشتدَّ شوكتهم، لذا آثر الانسحاب من أرض المعركة تاركاً المجال واسعاً للصليبيين والخوارزميين لتصفية بعضهم بعضاً، وكي لا يخرج أحدهما قوياً من المعركة، بما يكفل له التفوق بعد المعركة على الطرف المنتصر.

ويمكن القول إن الهزيمة كانت هاجساً نفسياً سيطر مسبقاً على المنصور إبراهيم، وذلك لسيره بين أعداء الأمة آنذاك، وتحت راياتهم، فقد ورد عنه بعد الهزيمة أنه قال: "والله لقد حضرت الحرب ذلك اليوم وأوقع الله تعالى في قلبي إنّا لا ننتصر لانتصارنا بالكفار على المسلمين"[١].

أيضاً يورد سبط ابن الجوزي أن المنصور -بعد المعركة- كان يبكي ويقول نادماً: "قد علمتُ أنَّا لما سِرْنا تحت صُلبان الفرنج أننا لا نفلح"[٢].

---

[١] ابن واصل: مفرج الكروب، ج٥، ص٣٣٩. للاستزادة أنظر: ابن تغري بردي: النجوم، ج٦، ص٣٢٤.

[٢] سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان، ج٢٢، ص٣٨٢.

**ثامناً: تطور العلاقات الأيوبية مع مملكة القدس اللاتينية بعد معركة غزة ٦٤٢هـ/ ١٢٤٤م حتى قدوم الحملة الصليبية السابعة ٦٤٧هـ/ ١٢٤٩م.**

شكلت معركة غزة ضربة كبيرة لتحالف أيوبيي الشام مع صليبيي مملكة القدس ، ويبدو أنها أنهكت قواهم بشكل كبير جداً، وكانت خطوة كبيرة لإعادة تحقيق وحدة بلاد الشام ومصر، وإعادة وقوفها في وجه الصليبيين، وكانت نتائجها وعواقبها أقسى بكثير على الفرنج من المعركة نفسها، فبعد تلك المعركة تابعت جيوش مصر زحفها حتى وصلت أبواب دمشق وفرضت عليها حصاراً كبيراً مدة ستة أشهر حتى طلب الصالح إسماعيل في جمادى الأولى ٦٤٣هـ / تشرين الأول ١٢٤٥م أن يسلم المدينة صلحاً على أن يعوَّض عنها بحوران وبعلبك، ويعلن تبعيته للصالح أيوب، فتم ذلك، وتسلم قائد الجيش المصري آنذاك – الأمير معين الدين بن شيخ الشيوخ– دمشق[١]، وبذلك أصبحت الأخيرة تابعة سياسياً للقاهرة، وكان ذلك ضربة ثانية لمملكة القدس وأشدُّ قساوةً من معركة غزة نفسها، حيث يقول متى باريس عن دمشق: "وإن كانت مصبوغة بعقيدة محمد صلى الله عليه وسلم، كانت متحالفة مع الصليبيين، ولم تكن تؤذي أحداً منهم، وكانت نافعةً جداً لهم وموائمة من خلال التجارة المتبادلة والعلاقات القائمة فيما بينهم، لكن الآن بعدما كانت مدينة صديقة تحولت إلى مدينة غير صديقة تماماً والأكثر عدوانية لهم"[٢].

وشكل رضوخ دمشق لسياسة مصر المعادية للفرنج خطراً كبيراً وتطوراً جديداً في العلاقات بين الطرفين الإسلامي والصليبي، وتضايق الصليبيون كثيراً من تلك السياسة الجديدة في المنطقة، ولاسيما تحول سياسة دمشق، وهذا واضح جداً في كلام متى باريس سالف الذكر.

وكان بإمكان الصالح أيوب أن يستغل نصر غزة ويتابع أعماله العسكرية ضد الصليبيين، وربما كان من الممكن أن يحقق نصراً عظيماً شبيهاً بانتصارات صلاح الدين الأيوبي بعد معركة حطين، ويبدو أنه فضّل تأجيل تلك الأعمال إلى ما بعد الانتهاء من صراعاته الداخلية، ولاسيما مع دمشق وحمص، وفي خضم تلك الصراعات التي خاضها برز له صراع جديد، هو الصراع مع الخوارزمية، إذ إنهم انشقوا عن سياسته لخيبة آمالهم في المنح والهبات التي سوف يحصلون عليها من الصالح أيوب جراء تقديم المساعدة والمساندة له في حرب غزة، وكذلك لخيبة آمالهم بسبب عدم سماحه لهم بدخول دمشق عندما تسلمها عام

---

[١] سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان، ج٢٢ ، ص٣٨٨. المقريزي: السلوك، ج١، ص٤٢١، ٤٢٣.

[٢] التاريخ الكبير: عن الموسوعة، ج٤٧ ، ص٨١٧.

٦٤٣هـ / ١٢٤٦م[١]، فاتبعوا سياسة معادية له متحالفين بذلك مع الحلف الشامي، وفيه الصالح إسماعيل صاحب بعلبك – آنذاك– وانضم إليهم الناصر داود صاحب الكرك، اتصل الخوارزمية بالأمير ركن الدين بيبرس– أحد مماليك الصالح أيوب وقائد الجيش الموجود في غزة آنذاك– واتفقوا معه، وتزوج منهم وانضم إليهم، وقرروا جميعاً الزحف على دمشق وفرضوا عليها حصاراً شديداً في ذي القعدة ٦٤٣هـ، لدرجة أن سبط ابن الجوزي يذكر: "بيع العقار بالدقيق، وأُكلت الميتات، والجيف والدم، والقطاط والكلاب، ومات الناس على الطرق، ونَتُنَتِ الدنيا، فكان الإنسان إذا مرَّ بالجبل وشمَّ روائح الناس مرض ومات، وضجر الناس من الغسل والتكفين، فكان الناس يخرجون فيحفرون الآبار، ويرمون النّاس بعضهم على بعض"[٢].

إن ذلك التحالف الجديد ( الصالح إسماعيل – الناصر داود – الخوارزمية) أدى إلى انهيار الحلف القديم (الصالح إسماعيل– حمص– وحلب)، وبسبب شدة كراهية حمص وحلب للخوارزمية ولمعرفتهم الوثيقة بهم ولِما عانوه على أيديهم، فظهر حلف جديد تمثَّل في الصالح أيوب والوصي على حلب وأمير حمص، حيث أرسل الأخيران جيشاً لضرب الحصار المفروض على دمشق[٣]، وخشيةً من الوقوع تحت الحصار اضطر الصالح إسماعيل وحلفاؤه من الخوارزمية إلى فك الحصار عن دمشق والتوجه إلى الشمال إلى بعلبك، ومنها توجهوا إلى حمص، والتقوا في ٨ محرم ٦٤٤هـ /١٢٤٦م على بحيرة حمص الجيش القادم لنجدة دمشق ( جيشي حمص وحلب)، وكان معهم عسكر دمشق، وكانت بينهما معركة شديدة انهزم في نهايتها الصالح إسماعيل وحلفاؤه الخوارزميون، وقُتل من الخوارزميين جموع كثيرة كان على رأسهم زعيمهم حسام الدين بركة خان[٤]. وفي ١٧ ربيع الآخر تلقى الخوارزمية في الصلت قرب الكرك ضربة أخرى على يد قائد

---

[١] المقريزي: السلوك، ج١، ص٤٢٤. التاريخ الكبير، ج٣، عن الموسوعة، ج٤٨، ص٨٧١. الحايك: مملكة حمص في العصر الأيوبي، دار طلاس، دمشق، ص٢٢٤-٢٢٥.

[٢] سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان، ج٢٢، ص٣٨٩. وللاستزادة أنظر: ابن واصل: مفرج الكروب، ج٥، ص٢٢٤-٢٢٥. المقريزي: السلوك، ج١، ص٤٢٤-٤٢٦.

[٣] سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان، ج٢٢، ص٣٨٩. المقريزي: السلوك، ج١، ص٤٢٤-٤٢٦. الحايك: مملكة حمص، ص٢٢٦.

[٤] عن ترجمة بركة خان انظر: سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان، ج٢٢، ص٣٩٩-٤٠٠.

الصالح أيوب – فخر الدين بن شيخ الشيوخ – واتجه من نجا منهم نحو الشرق بقيادة زعيمهم كشلوخان والتحقوا بالتتر.[١]

يمكن القول إن معركة بحيرة حمص بددت شمل الخوارزمية، وأنهت سلطتهم وخطرهم على المنطقة، ويمكن القول إن معركة بحيرة حمص مثّلت أعلى أشكال الوحدة الأيوبية آنذاك وآذنت بتخفيف حدة الصراع فيما بينهم، إذ إنه بعد هذه المعركة قَدِمَ إلى الصالح أيوب في دمشق كل من ملكي حمص وحماه وقدموا له فروض الطاعة والولاء[٢].

وفي تلك الأحداث وتبدل التحالفات سابقة الذكر دليل وبرهان واضح على أن حمص وحلب لم يكن ولاؤها لشخص الصالح إسماعيل أو لشخص الصالح أيوب، وإنما كان الولاء لدمشق، فعندما تبدلت القيادة والسياسة بها في جمادى الأولى ٦٤٣ هـ / تشرين الأول ١٢٤٥م استمَّر ولاؤهم لها وأرسلت كل من حمص وحلب جيشها لفك الحصار الذي فرضه عليها حليفها بالأمس القريب الصالح إسماعيل.

ويبدو أن الصالح أيوب بعد أن خضعت له دمشق، وانتهى من عمه الصالح إسماعيل ومن خطر الخوارزمية بدأ يتوجه بسياسته إلى تحطيم مملكة القدس اللاتينية الثانية ، ففي ١٧ حزيران ١٢٤٧م استولى الجيش المصري على قلعة طبرية عنوةً، ثم تابع إلى قلعة جبل الطور وحصن شقيف أرنون، ثم يمم هذا الجيش نحو عسقلان وفرض عليها حصاراً شديداً برياً وبحرياً، واستمات صليبيو المملكة في الدفاع عنها وإرسال النجدات إليها، إلا أن الجيش المصري تمكن من فتحها في جمادى الآخرة ٦٤٥ هـ/ تشرين الأول ١٢٤٧م، وأمر الصالح أيوب بتدمير حصونها وأسوارها خشية أن يتخذها الصليبيون مرة أخرى قاعدة للهجوم على المسلمين[٣].

فماهي سياسة الصالح أيوب الجديدة؟ وماهي نظرته للعلاقات معهم؟

---

[١] سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان، ج٢٢، ص٣٩٥ – ٣٩٦. التاريخ الكبير عن الموسوعة، ج٤٨، ص٩٦٦-٩٦٧. المقريزي: السلوك، ج١، ص٤٢٥-٤٢٨. نصر: بنو أيوب، ص٧٦-٧٧.

[٢] ابن واصل: مفرج الكروب، ج٥، ص٣٤٩-٣٦١. كنز الدرر: ٧، ص٣٦٠. المقريزي: السلوك، ج١، ص٤٢٤-٤٢٧. أبو الفداء: المختصر، ج٣، ص١٧٤-١٧٥.

[٣] سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان، ج٢٢، ص٤٠١. المقريزي: السلوك، ج١، ص٤٣١. حومد: تاريخ الجهاد، ج٢، ص٢٧٧. رنسيمان: تاريخ الحروب، ج٣، ص٣٩٩-٣٤٠.

هل كان مصمماً على تدمير مملكتهم الصليبية؟ أم أنه اكتفى بتحجيمهم وتأمين خطرهم؟

يبدو أن الصالح أيوب اكتفى بتلك النجاحات واقتصر عليها في الوقت الراهن، ولم يتابع انتصاراته على الصليبيين، وقام بزيارة القدس وأمر بإعادة بناء أسوارها ثم غادرها إلى دمشق، وأقام بها طوال شتاء سنة ١٢٤٨م وربيع سنة ١٢٤٩م حتى قدوم الحملة الصليبية السابعة إلى مصر، ويمكن تفسير سياسته تلك بسياسة أبيه السابقة بأنه مال إلى الهدنة والاستقرار، وخشي قدوم حملة صليبية جديدة تثير له القلاقل، ولاسيما أن البابوية لا تزال تساند صليبيي المملكة، وتتبنى الدعوة لها، والعمل على إرسال مزيد من الحملات الصليبية كلما شعرت بحرج موقف الصليبيين في الشرق، مع انشغال البابوية بصراعاتها الأوربية الأوربية، في الوقت الذي كان الصالح أيوب لم يحسم بعد صراعاته الداخلية، وتطور الخلاف من جديد مع حمص، فأرسل قائد جيوشه فخر الدين بن الشيخ إليها، ونصب عليها المجانيق في عام ٦٤٦هـ / ١٢٤٨م متحالفين بذلك مع حلب ضد حمص[1].

ويمكن تفسير موقف الصالح أيوب بخشيته من تجدد التحالف القديم بين أعدائه الصليبيين وبعض أفراد البيت الأيوبي الذين استمروا في العداء له، أو تجدد العداء معهم (كصاحب حمص).

والسؤال هنا هل حققت سياسة الصالح أيوب أهدافها؟

وهل ضمن الصالح أيوب بسياسته تلك علاقات جيدة مع صليبيي مملكة القدس؟ وضمنت له عدم قدوم حملة صليبية جديدة؟

هل قبل صليبيو مملكة القدس بالأمر الواقع وسلّموا بخروج القدس من أيديهم؟

هل كانت سياستهم كسياسة الصالح أيوب تميل إلى الهدوء والاستقرار؟

هل قبل الصليبيون وهل تحملوا خروج دمشق من سياسة المهادنة لهم إلى سياسة المواجهة معهم؟ أو بالأحرى هل قبلوا بوحدة مصر والشام؟

يمكن القول إنه بعد معركة غزة وما قام به الصالح أيوب من تحرير بعض المناطق، أصبحت مملكة القدس اللاتينية الثانية دويلة صغيرة محدودة النفوذ والصلاحيات وتملك بلاداً ضيقة متناثرة على الساحل

---

[1] سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان، ج٢٢، ص٤٠٤.

السوري، كما أنها تفتقد قيادة موحدة رشيدة وحكيمة، لهذا ظهر عياناً وللجميع أنه لن يمكنها العيش باستقرار، ولن يحميها من السقوط بأيدي المسلمين سوى قدوم حملة صليبية جديدة وكبيرة، وعلى الفور بُدء بالعمل على استقدام مثل هذه الحملة، حيث أرسل بطريرك القدس في عام ٦٤٢هـ/ أواخر عام ١٢٤٤م أسقف بيروت (غاليران) وبطريرك أنطاكية ( ألبرت) كنائبين عنه إلى البابا وإلى ملوك الغرب الأوربي وأمراء الإقطاع هناك، وكلفهما بشرح الحال والأحوال المتردية التي وصلت إليها مملكة القدس اللاتينية الثانية عقب معركة غزة، والمطالبة بإرسال حملة صليبية جديدة تعيد ميزان القوى بين المسلمين وبين الصليبيين، وتحافظ على بقاء مملكة القدس قائمة[١].

وحضر فاليران مؤتمر ليون الكنسي المنعقد عام ٦٤٢هـ / ١٢٤٥م برئاسة البابا أنسونت الرابع، المخصص لحل الخلاف بين البابوات والإمبراطور فردريك الثاني، وجعل موضوع إرسال حملة إلى الشرق بنداً مهماً من بنود هذا المجمع، وأدى فاليران المهمة الموكلة إليه بنجاح[٢].

وبغض النظر عن تفاصيل وإجراءات الحملة الفرنسية (حملة لويس) - الحملة السابعة- وتداعياتها في أوربا[٣]، فإن صليبيي مملكة القدس آثروا خلال هذه المرحلة جانب الهدوء والاستقرار في علاقاتهم مع المسلمين؛ لأن أوضاعهم لا تسمح لهم بغير ذلك، فهم من جهة ينتظرون قدوم حملة صليبية، ومن جهة أخرى انشغلوا منذ عام ٦٤٥ هـ / ١٢٤٦ م بمشكلة الصراع على عرش مملكة القدس والوصاية عليها، حيث تُوُفِيت الملكة أليس الوصية على عرش المملكة الصليبية، وآلت الوصاية إلى ولدها الصغير هنري Henry ملك قبرص، ولقي هذا الوصي الجديد معارضة ومنافسة على الوصاية من إحدى خالاته غير الشقيقة لأمه، وهي ميليسند أميرة أنطاكِية كما سلف شرحه في الحديث عن وراثة الحكم في مملكة القدس اللاتينية الثانية.

---

[١] التاريخ الكبير: عن الموسوعة، ج٤٧، ص٦٥٨-٦٦٥. وفيها الرسالة الموجهة من بطريرك القدس إلى البابا والزعامات السياسية في أوربا كاملة.

[٢] التاريخ الكبير: عن الموسوعة، ج٤٧، ص٦٥٨-٦٦٥. حومد: تاريخ الجهاد، ج٢، ص٢٧٩. الحايك: العلاقات، ج٢، ص١٧٥.

[٣] عن تفاصيل ذلك راجع: يوسف، جوزيف نسيم: العدوان الصليبي على مصر، هزيمة لويس التاسع في المنصورة وفارسكور، دار المعرفة الجامعية، الاسكندرية، ط ٢، ١٩٨٩م ، ص٢٨-٣٦ ، ٤٧ وما يليها.

## المبحث الثاني

# العلاقات الأيوبية مع مملكة القدس اللاتينية الثانية خلال الحملة الصليبية السابعة ٦٤٧-٦٤٨هـ/ ١٢٤٩-١٢٥٠م

على الرغم من المشاكل التي واجهت الأيوبيين ولاسيما الصالح أيوب؛ إلا أنه يمكن القول إن مصر غدت في عهده- قبل قدوم الحملة الصليبية السابعة- آمنة مستقرة، انتظمت إدارتها وانتشر الأمن والعدل بين ربوعها، وساد فيها الرخاء، وازدهرت التجارة التي ضمنت لخزينة الدولة مورداً لا ينضب من المال الذي كان يُنفق في معظمه على البحرية والجيش وما يلزمهما من بناء الاستحكامات والقلاع، وكان لذلك أكبر الأثر فيما بعد في تمكين مصر من دفع العدوان الصليبي عليها بقيادة لويس التاسع.

واعتنى الصالح أيوب في بناء الجيش كثيراً لدرجة أن جيشه عُدَّ من أفضل جيوش العصر الوسيط في الشرق والغرب، اعداداً وتنظيماً، فكان مقسماً إلى طوائف وفرق وطبقات، وكان يتكون من فرسان ومشاة مجهزين بكل ما أنتجه ذلك العصر من أسلحة ومعدات، وأهمها السيوف والسهام والرماح والنشاب والدبابيس والقسى والدروع والمتاريس والمجانيق ومكاحل البارود وقوارير النفط والستائر والنار الإغريقية.[١]

### أولاً: العلاقات العسكرية

أثناء وصول الحملة الصليبية السابعة إلى مصر بقيادة الملك الفرنسي لويس التاسع كان الصالح أيوب في بلاد الشام لا يزال يعمل على إعادة ترتيب أمورها، ويوثِّق وحدتها السياسية مع مصر. وتؤكد المصادر العربية أن الصالح أيوب لم يفاجأ بقدوم الحملة السابعة إلى المنطقة، وأن الإمبراطور فردريك كان قد أرسل له يحذّره ويخطره بذلك، وقد أخذ الصالح أيوب ذلك الخبر بعين التقدير، وبدأ استعداداته للمواجهة المقبلة.[٢]

---

[١] جوزيف: العدوان الصليبي، ص٣٩-٤٢.

[٢] ابن أيبك: كنز الدرر، ج٧، ص٣٦٦. للاستزادة أنظر: المقريزي: السلوك، ج١، ص٤٣٧. جوزيف: العدوان الصليبي، ص٧٨-٧٩.

وعن استعدادات لويس التاسع لهذه الحملة فيمكن القول إنه كان لزاماً عليه أن يحصل على الإذن بتلك الحملة من الإمبراطور فردريك، كونه والد كونراد- الملك الشرعي آنذاك لمملكة القدس اللاتينية الثانية-. وبغض النظر عن تفاصيل وإجراءات تلك الحملة في أوربا فهو خارج موضوع البحث، وهناك كثير من الدراسات التي تخصصت بتلك الحملة بشكل خاص ويمكن اختصار القول إنها حصلت على الموافقة والدعم الأوربي كاملاً، وبشكل عملي باستثناء الإمبراطور الألماني فردريك الذي أظهر لتلك الحملة خلاف ما يُبطن، كونه في موقف لا يستطع من خلاله أن يعلن عداءه لتلك الحملة،[١] ولا بدَّ أنه لم يكن سعيداً بتلك الحملة لسببين:

الأول: عدم رغبته في ازدياد النفوذ الفرنسي في مملكة القدس اللاتينية الثانية بشكل خاص، وفي الشرق الصليبي بشكل عام.

الثاني: عدم رغبة فردريك بتخريب الصلح القائم مع المسلمين ولاسيما مع مصر منذ حملته عام ٦٢٦هـ/ ١٢٢٩م.

وعلى عكس فردريك كان صليبيو مملكة القدس اللاتينية الثانية، حيث حظيت الحملة السابعة بقبولهم ورضاهم، إذا أنهم وافقوا على تلك الحملة واستبشروا بها خيراً، وتركوا نزاعاتهم الداخلية جانباً بوساطة قائد الحملة لويس وبوساطة يوحنا ابلين John of Ibelin سيد أرسوف، ووقَّعوا على هدنة فيما بينهم مدة ثلاث سنوات كي لا تؤثر خلافاتهم على المجهود الحربي للحملة السابعة، وبذلك تكون جميع قوى الصليبيين في المملكة قد تفرَّغت للقتال إلى جانب الحملة التي شارفت على الوصول إلى المنطقة.[٢]

وعندما قدِمت الحملة في خريف عام ١٢٤٨م، سارع كونتات وبارونات الشرق الفرنجي ومقدم الداوية ونائب مقدم الاسبتارية إلى قبرص لملاقات لويس والترحيب به، وعقدوا اجتماعاً في قبرص، وجرت مناقشة خطة الحملة، ويبدو أن أحدهم قد ذَكَّرَ المجتمعين بأحداث الحملة الخامسة وتنازلات الكامل للصليبيين وعروضه آنذاك لهم مقابل الجلاء عن دمياط مقابل القدس وبعض المناطق الأخرى، وكون مصر

---

[١] رنسيمان: تاريخ الحروب، ج٣، ص٤٤٢. حومد: تاريخ الجهاد، ج٢، ص٢٨٠.

[٢] رنسيمان: تاريخ الحروب، ج٣، ص٤٤٩. حومد: تاريخ الجهاد، ج٢، ص٢٨٣.

أخصب أقاليم الدولة الأيوبية وأهمها وأيسرها منالاً عند الهجوم؛ لذا تم اختيارها بموافقة الجميع لتكون الهدف الأول للحملة[١].

يبدو أن لويس التاسع وحملته بشكل عام اتخذت أسلوب المواجهة العسكرية والقتال مع المسلمين، دون الاكتراث أو الأخذ بأسلوب الدبلوماسية والمفاوضات التي نصحته بها الداوية آنذاك.

فالداوية كانوا قد دخلوا في مفاوضات مع الصالح أيوب كي يتنازل لهم عن بعض المناطق مقابل أن يمدوه ببعض القوات التي تسانده في صراعه الجديد مع حلب حول تبعية حمص، وكان قد بدأ ذلك الصراع في صيف عام ١٢٤٨هـ عندما استنجد صاحب حمص بالصالح أيوب ضد اعتداءات الناصر يوسف صاحب حلب.[٢]

والذي يهم هنا أن لويس التاسع انتظر في قبرص طيلة شتاء ١٢٤٨م بناءً على نصيحة مقدمي الداوية والاسبتارية وبارونات مملكة القدس الذين حذَّروه من العواصف الشتوية المعتادة التي ستُهدد الجيش الصليبي في حال اقترابه من شاطئ الدلتا المصرية، وأثناء هذه المدة رفض لويس نصيحة الداوية بالدخول في مفاوضات سياسية ودبلوماسية مع الأيوبيين، وأمرهم بأن يقطعوا مفاوضاتهم واتصالاتهم مع الصالح أيوب، مُعلناً أنه لم يَقْدُمْ إلا لقتال المسلمين،[٣] وبذلك فإن لويس لم يختلف في عقليته العدوانية عن عموم الصليبيين الزائرين الجدد الذين سبقوه إلى أراض مملكة القدس. ويذكِّر هذا بالحملة الفرنسية – سالفة الذكر– التي أتى على رأسها ثيوبولد الرابعTheobald IV أمير شامباني عام ١٢٣٩م، ومنذ البداية تميزت تلك الحملة بالأسلوب العسكري والنشافة السياسية والدبلوماسية، إلا أنها اضطرت في النهاية – بسبب إخفاقها العسكري– إلى الدخول في مفاوضات جادة مع مصر لتحقيق بعض النجاحات –ولو شكلياً– تحفظ بها ماء وجهها.

---

[١] رنسيمان: تاريخ الحروب، ج٣، ص٤٤٤-٤٤٥. حومد: تاريخ الجهاد، ج٢، ص٢٨٢. عمران: تاريخ الحروب الصليبية، ص٣٠٨.

[٢] رنسيمان: تاريخ الحروب، ج٣، ص٤٤٥. حومد: تاريخ الجهاد، ج٢، ص٢٨٣.

[٣] جوانفيل: حياة لويس، عن الموسوعة، ج٣٦، ص١٨٨-١٨٩. رنسيمان: تاريخ الحروب، ج٣، ص٤٤٥.

ومن المفارقات التاريخية في تلك الحروب أن في حملة لويس ومجرياتها ستكون هناك كثير من التشابه والتطابق، إذ إن لويس الذي بدأ سياسة عسكرية صارمة ضد الأيوبيين انتهى معهم بمعاهدة صلح أَمْلت مصر عليه شروطها وبنودها.

في ٤ حزيران ١٢٤٩ بدأت تصل إلى سواحل دمياط طلائع الحملة الصليبية السابعة، وكان على رأسها الملك لويس،[١] وكان الصالح أيوب آنذاك في نهاية سنة ٦٤٦هـ/ ١٢٤٩م مقيماً في دمشق وجيشه يطبق الحصار على حمص التابعة لحلب آنذاك بهدف الاستيلاء عليها، ففوجئ بتوجه الحملة فوراً إلى مصر، ولا بدَّ أنه كان يتوقع هبوطها أولاً في سورية -كما جرت عليه عادة الحملات الصليبية، وهنا اضطر الصالح أيوب لقبول وساطة نائب الخليفة العباسي برفع الحصار عن حمص، وعجَّل بالعودة إلى مصر بعد أن أمر جيوشه في الشام أن تتبعه إليها، ونزل في ٣ صفر ٦٤٧هـ/ ١٨ أيار ١٢٤٩م في بلدة أشموم طنّاح.[٢]

وكان الصالح أيوب آنذاك في مرحلة متقدمة من مرض السل، لدرجة أنه حمل آنذاك من الشام إلى مصر على مِحَفَّة،[٣] ولم يعد يقدر على قيادة الجيش بنفسه، فأمر وزيره المتقدم في العمر فخر الدين بن شيخ الشيوخ صديق فردريك الثاني بأن يتولى قيادة الجيش، وأمره بالمسير إلى البر الغربي لدمياط (جيزة دمياط) حتى يكون في مواجهة الصليبيين عند وصولهم إلى بر المدينة الغربي- كما حدث في الحملة الخامسة-.[٤] واستقر الصالح أيوب في المحرم من سنة ٦٤٧هـ في مدينة أشموم طناح ليكون على مقربة من الأحداث السياسية والعسكرية الوشيكة التسارع، ووجَّه اهتمامه إلى مدينةدمياط، وأمر بتحصينها وشحنها بالآلات والذخائر، وأوكل مهمة حمايتها والدفاع عنها لعرب بني كنانة؛ لاشتهارهم بالشجاعة.[٥] كما بنى

---

[١] لمزيد من التفاصيل عن اقلاع الحملة من قبرص ووصولها إلى الشواطئ المصرية راجع، جوانفيل: حياة لويس، عن الموسوعة، ج٣٦، ص٦٤-٦٥.

[٢] سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان، ج٢٢، ص٤٠٤. ابن العبري: تاريخ الزمان، ص٢٩٣. ابن العبري: مختصر الدول، ص٤٥٢-٥٤٣. رنسيمان: تاريخ الحروب، ج٣، ص٤٥١. عاشور: الحركة الصليبية، ج٢، ص٢٨٦. وللاستزادة أنظر: ابن العميد: أخبار الأيوبيين، ص٣٦.

[٣] سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان، ج٢٢، ص٤٠٤، ٤٠٧.

[٤] المقريزي: السلوك، ج١، ص٤٣٧. ابن تغري بردي: النجوم، ج٦، ص٣٣٠. جوانفيل: حياة لويس، عن الموسوعة، ج٣٦، ص٦٥. جوزيف: العدوان الصليبي، ص٨٣.

[٥] المقريزي: السلوك، ج١، ص٤٣٧. أبو الفداء: المختصر، ج٣، ص١٧٨. جوانفيل: حياة لويس، عن الموسوعة، ج٣٦، ص٦٥. جوزيف: العدوان الصليبي، ص٨١-٨٢.

فيها قلاعاً جديدة وملأها بالغلال والمؤن تحسباً للحصار، وأمر ببناء عدد من السفن وتجهيزها وارسالها إلى دمياط، كما أعلن النفير العام.[١]

ويمكن القول إن الصالح أيوب لم يعوّل على مساعدة كبيرة تأتيه من الشام لسوء العلاقات الأيوبية الأيوبية آنذاك، وكل ما تذكره المصادر عن مثل ذلك هو قدوم أبناء الناصر داود صاحب الكرك والشوبك ومشاركتهم ومساعدتهم الصالح أيوب في تلك المحنة.[٢]

وكما سلف ذكره فإن لويس التاسع فضَّل منذ البداية الأسلوب العسكري البحت في تعامله مع المسلمين، ومن هذا الباب أرسل برسالة تهديد إلى الصالح أيوب، فردَّ عليها الأخير بأقسى منها.[٣]

وربما أن لويس اغتر بكثرة قواته وامكانياته، إذ إن جوانفيل يذكر أن عدد السفن التي سارت معه بلغ ألفاً وثمانمئة،[٤] ويرد عند ابن الوردي أنه كان مع لويس خمسون ألف مقاتل فرنجي.[٥]

وبغض النظر عن تفاصيل الأحداث[٦] فقد تمكنت قوات التحالف الصليبي من دخول دمياط واحتلالها في ٢٢ صفر ٦٤٧هـ/ ٦ حزيران ١٢٤٩م بعد أن انحاز جيش الأمير فخر الدين بن شيخ الشيوخ عن موقعه في الضفة الغربية لأسباب غير واضحة، وعلى الأغلب تتعلق بطمعه في السلطة[٧]، ويذكر متى باريس أن فخر الدين لم يكن مستعداً للمقاومة في دمياط؛ لأنه قد أرسل قواته إلى الاسكندرية، لذلك فوجئ بنزول الصليبيين في دمياط فانسحب بعيداً عنها.[٨] وأعقب انسحابه موجة رعب وهلع عمّت دمياط فهربت حاميتها وسكانها منها وتركوها لقمة سائغة للصليبيين الذين دخلوها دون قتال،

---

[١] الذهبي: تاريخ الإسلام، ج٤٧، ص٣٥٦. المقريزي: السلوك، ج١، ص٤٣٧. ابن تغري بردي: النجوم، ج٦، ص٣٣٠. ابن دقماق: الجوهر الثمين، ج٢، ص٢٠٦. بدائع الزهور، ج١، ق١، ص٢٧١، ٢٧٧. الخريسات: السياسة الأيوبية، ص٥٠.

[٢] المقريزي: السلوك، ج١، ص٤٤٥-٤٤٦. زيادة: حملة لويس التاسع، ص١١٧.

[٣] المقريزي: السلوك، ج١، ص٤٣٧-٤٣٨.

[٤] جوانفيل: حياة لويس، عن الموسوعة، ج٣٦، ص٦٤.

[٥] تاريخ ابن الوردي، ص١٧٦. للاستزادة أنظر: تاريخ ابن خلدون، ج٥، ص٤١٥.

[٦] عن هذه التفاصيل راجع : جوانفيل: حياة لويس، عن الموسوعة، ج٣٦، ص٦٦-٦٩.

[٧] عن تفاصيل ذلك أنظر: زيادة: حملة لويس التاسع ص١١٤-١١٥.

[٨] متى باريس: التاريخ الكبير، عن الموسوعة، ج ٤٨، ص١١٢٤-١١٢٥. للاستزادة أنظر: أبو الفداء: المختصر، ج٣، ص١٧٩.

واستولوا على ما فيها من أسلحة وذخائر،[١] ولا شك أنه كان لذلك الحدث الخطير والسقوط السريع أثره السيء في العالم الإسلامي، وكان له أثر خاص في صفوف القوات المصرية، وبذلك أصبحت مصر كلها مهددة بالغزو الصليبي، حيث يقول المقريزي: "وبلغ ذلك أهل القاهرة ومصر فانزعج الناس انزعاجاً عظيماً، ويئسوا من بقاء كلمة الإسلام بديار مصر".[٢]

هنا يتبادر إلى الأذهان صمود دمياط منذ ثلاثين عاماً مضت أمام جحافل الحملة الصليبية الخامسة لمدة ثمانية عشر شهراً، بذل خلالها الصليبيون كل ما بوسعهم حتى تمكنوا من الاستيلاء عليها، وقد ذكر المقريزي هذه المفارقة، فقال: "وقد كانت دمياط في أيام الملك الكامل لما نازلها الفرنج أقل ذخائر وعدداً منها في هذه النوبة، ومع ذلك لم يقدر الفرنج على أخذها إلا بعد سنة عندما فني أهلها بالوباء والجوع، وكان فيها هذه المرة أيضاً جماعة من شجعان بني كنانة، فلم يغن ذلك شيئاً"[٣].

وبذلك وجد الصالح أيوب نفسه مضطراً إلى التراجع قليلاً نحو الجنوب إلى مدينة المنصورة، وهنا أيضاً تعود للذاكرة أحداثُ الحملة الخامسة، وتراجع أبيه الكامل من قبل إلى المنصورة بعد سقوط دمياط، واتخذ فيها عدة خطوات دفاعية وهجومية في آن واحد، وتمكن خلالها من اعادة الهمة والثقة إلى جيشه المتضعضع، وأهم خطواته تلك أنه أصدر عقوبات صارمة بحق المسؤولين عن سقوط دمياط، وكان على رأسهم شيوخ بني كنانة، حيث أمر بإعدام حوالي خمسين أو ستين منهم، ولا يُستبعد أنه حدَّث نفسه بقتل فخر الدين بن شيخ الشيوخ، إلا أن حساسية الموقف وخطورة الوضع والظروف السيئة عَدَلته عن ذلك.[٤]

---

[١] أبو الفداء: المختصر، ج٣، ص١٧٩. الذهبي: تاريخ الإسلام، ج٤٧، ص٣٥٦. المقريزي: السلوك، ج١، ص٤٣٨. ابن تغري بردي: النجوم، ج٦، ص٣٣٠. جوانفيل: القديس لويس، عن الموسوعة، ج٣٦، ص٦٩، ٧١. أرنست: الحروب الصليبية، ص١٢٢. تتمة تاريخ وليم الصوري، ص١٥٤.

وللمزيد عن أحداث وأسباب انسحاب فخر الدين من بر دمياط إلى أشموم طناح راجع: متى باريس: التاريخ الكبير، عن الموسوعة، ج٤٨، ص١١٢٤. عمران: تاريخ الحروب الصليبية، ص٣٠٩.

[٢] المقريزي: السلوك، ج١، ص٤٣٩.

[٣] المقريزي: السلوك، ج١، ص٤٣٨.

[٤] سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان، ج٢٢، ص٤٠٨. ابن العميد: أخبار الأيوبيين، ص٣٦. أبو الفداء: المختصر، ج٣، ص١٧٩. الذهبي: تاريخ الإسلام، ج٤٧، ص٤٢. المقريزي: السلوك، ج١، ص٤٣٩. ابن العبري: مختصر الدول، ص٤٥٢-٤٥٣. تاريخ الزمان، ص٢٩٤. للاستزادة أنظر: متى باريس:التاريخ الكبير، عن الموسوعة، ج٤٨، ص١١٢٥.

ومن الخطوات التي اتخذها الصالح أيوب في المنصورة أنه شرع في شحنها بالعتاد والمقاتلة وإعدادها للمعركة المقبلة، وأصلح سورها المحيط بها، وساعده على ذلك تطوع أعداد كبيرة من العربان والعامة، وأصبح الجميع على استعداد لملاقاة الصليبيين.[١]

ساعده على ذلك الهدوء والاستقرار الذي ساد بين الطرفين مدة خمسة أشهر ونصف بعد سقوط دمياط، حيث إنشغل الصليبيون خلالها بتصفية نزاعاتهم الداخلية، وترتيب أوضاع دمياط وتبعيتها السياسية والدينية؛ إذ عمدوا إلى تحويل جامعها الكبير إلى كنيسة كتدرائية، وتحويل قبة فاتح الأسمر المقابلة للجامع إلى سكان المعمودية،[٢] كما أن لويس كان ينتظر وصول المساعدات التي طلبها من فرنسا بقيادة أخيه، وكان ينتظر التحاق القوات التي بعثرتها الرياح إبان انتقال الحملة من قبرص إلى دمياط، كما أنه أراد أن يتجنب الويلات التي غرقت بها الحملة الخامسة من فيضان النيل، ولم يعلم أن مياه الفيضان لا تصل إلى الدلتا قبل أواخر شهر تموز من كل عام، أي أن لويس كان بإمكانه أن يزحف جنوباً نحو القاهرة قبل ذلك الميعاد بمدة طويلة، كما أنه لم يعلم أنه يحتاج وقتاً كبيراً بعد الفيضان حتى تتمكن جيوشه من المسير في أرض الدلتا.[٣]

لا بدَّ أن هذا التأخير وهذه العوائق ساعدت على نشوب الفوضى في المعسكر الصليبي لدرجة أن لويس أصبح عاجزاً عن السيطرة على القوات الصليبية. كما أن هذه المدة التي زادت عن خمسة أشهر كانت كافية للجانب الأيوبي كي يقوم بأعماله التحصينية، وأن يكون على أهبة الاستعداد للمعركة المقبلة مع الجيش الصليبي، يضاف إلى ذلك أن العساكر الإسلامية ضاقت من هذا الجمود العسكري خلال تلك المدة، فأخذت تتحول من الموقف الدفاعي الجامد خلف تحصينات المنصورة إلى القيام بأعمال هجومية سريعة ومناوشات خفيفة أضرت كثيراً بالصليبيين، وأسرت أعداد لا بأس بها منهم.[٤]

---

[١] عمران: تاريخ الحروب الصليبية، ص٣١٠.

[٢] جوانفيل: حياة لويس، عن الموسوعة، ج٣٦، ص٧١-٧٣. زيادة: حملة لويس التاسع، ص١١٩-١٢٠.

[٣] جوانفيل: حياة لويس، عن الموسوعة، ج٣٦، ص٧٥. زيادة: حملة لويس التاسع، ص١٢٠.

[٤] جوانفيل: حياة لويس، عن الموسوعة، ج٣٦، ص٧٣، ٧٥، ٧٨. عمران: تاريخ الحروب الصليبية، ص٣١٠. زيادة: حملة لويس التاسع، ص١٢٠. عاشور: الحركة الصليبية، ج٢، ص٢٩٠.

**ثانياً: المراسلات والعلاقات الدبلوماسية أثناء الحملة السابعة**

أثناء ذلك الجمود في الموقف العسكري، ونتيجة للمتاعب والتحديات التي واجهها الصالح أيوب لجأ إلى تفعيل العملية السياسية والدبلوماسية، وهنا يستحضر الباحث أحداث الحملة الخامسة، وما قدَّم خلالها الملك الكامل من تنازلات.

وأرسل الصالح أيوب إلى الملك لويس التاسع يعرض عليه شروطاً للهدنة تتضمن جلاء الصليبيين عن دمياط مقابل إعطاء مدينة بيت المقدس لمملكة القدس اللاتينية الثانية على شاكلة ما قدمه السلطان الكامل للملك جان دي بريين John of Breinne والنائب البابوي بيلاجيوس منذ ثلاثين سنة مضت، وكما تقدم ذكره فإن لويس استبعد منذ البداية الأسلوب السياسي والمهارة الدبلوماسية في تعامله مع المسلمين، واتبع أسلوباً عسكرياً جافاً في سبيل تحقيق أهدافه الدينية، وكما تغلبت العنصرية الدينية من قبل على النائب البابوي بيلاجيوس أثناء الحملة الخامسة وأدت إلى تعنته في تعامله مع المسلمين؛ فإن تلك العنصرية أيضاً برزت خلال الحملة السابعة عند لويس التاسع وحددت أعماله وسياسته من خلالها ومن خلال التقوى الدينية التي تمتع بها، وكان حقاً له أن يُشْهَرَ بلقب "القديس لويس" الذي أُطلق عليه.

لم يتعلم لويس ولم يتعظ من العنصرية والسياسة الدينية الضيقة لسلفه بيلاجيوس، وما آلت إليه تلك السياسة من إخفاق ذريع، وبعبارة أخرى رفض القديس لويس التاسع أن ينحدر بعنجهيته الدينية إلى مستوى المسلمين للتفاوض معهم ومهادنتهم، وكان ذلك واضح في سياسته منذ البداية.[1]

وتذكر بعض الروايات أن اقتراحات السلطان الصالح أيوب للهدنة لقيت شيئاً من الترحيب لدى بعض قادة الصليبيين ولدى الملك لويس نفسه، إلا أن المعارضة لذلك أتت بشكل عنيف من قبل كونت أرتوا Artois أخو الملك لويس الذي اشتُهر بتسرع الخُطا وعناد الرأي، وكان رأيه وحجته أنه لا ينبغي للصليبيين أن يشتروا السلام بالتخلي عن واجب الحرب المقدسة ضد المسلمين، إلا إذا عرض السلطان تعويضاً عن دمياط بالإسكندرية مضافةً إلى شرط استرجاع مدينة بيت المقدس، وبالطبع رفض الصالح أيوب التنازل عن ذلك الثغر البحري المهم (الإسكندرية)، مما أدى إلى قطع الاتصالات وإخفاق

---

[1] انظر: التاريخ الكبير، عن الموسوعة، ج٤٨، ص١١٢٨-١١٢٩، إلا أن الأخبار عنده ترد مبالغاً فيها كثيراً، لذا فهي بحاجة للحذر والتدقيق والنقد، ولا بدّ من تطبيق التجريح والتعديل عليها.

المفاوضات بين الجانبين.[١] ويبدو أنه بالوقت نفسه أرسل الصالح أيوب من المنصورة إلى قائد جيشه في دمشق يأمره بمهاجمة بعض البلاد الصليبية في فلسطين، وعلى أقل التقدير القيام بحصارها بهدف التهديد وتحويل الأنظار إلى بلاد الشام، ومن ثم تخفيف الضغط قليلاً عن مصر،[٢] وهي سياسة عامة بسيطة ومهمة في كل الحروب القديمة والحديثة.

جدير بالذكر هنا أن تلك المفاوضات والتنازلات التي قدمها الصالح أيوب لم ترد في المصادر العربية- الإسلامية على الإطلاق، وإنما استقاها المؤرخون المتأخرون من متى باريس الذي عاصر الحملة وأرَّخ لها دون أن يكون شاهد عيان لما يرويه من أحداث بالغ فيها كثيراً.[٣]

وهنا لا بدّ من ذكر ما أجمع عليه المؤرخون من أن الصالح أيوب كان قوي الشكيمة جديراً بالملك، قوي الجانب، عظيم الهيبة، جباراً ذا سطوة ظاهر الجبروت[٤]. وعلى الرغم من أن المرض قد استولى عليه وجعله غير قادر على الإشراف المباشر على الأعمال القتالية وغيرها إلا أنه بقي عالي الهمة، وانتقل بعد سقوط دمياط إلى المنصورة للتحصُّن بها وإعداد كل ما يمكن إعداده للمعركة المقبلة مع الصليبيين، بالإضافة إلى غضبه الشديد على سقوط دمياط وانزاله أشد العقوبات -بما في ذلك الإعدامات- على كل المسؤولين عن سقوط دمياط، وفي ذلك دلالة واضحة على تأنيب وتأديب عساكره، وإصراره على متابعة القتال ضد الصليبيين ورفضه لأي تراجع أمامهم، وبالتالي يُستبعد عنه تقديم مثل ذلك العرض للصليبيين.

ويرى بعض الباحثين أن متى باريس قد خلط بين حوادث هذه الحملة وبين التي قبلها، حيث إن الكامل قد تقدم بمثل تلك العروض لصليبيي الحملة الخامسة، وقد رفضها المندوب البابوي آنذاك بشدة. وفي أحسن الأحوال يكون ما أورده متى باريس هو إحدى الشائعات المبالغ فيها والتي انتشرت في أوربا عقب الانتصارات الخاطفة التي حققتها الحملة السابعة في دمياط، حيث إنه عَظُمَ تفاؤلهم في الانتصارات اللاحقة لدرجة سرت بها في أوربا شائعة تقول إنهم قد سيطروا على العاصمة المصرية "القاهرة" وكذلك

---

[١] متى باريس: التاريخ الكبير، عن الموسوعة، ج٤٨، ص١٠٩١-١٠٩٢، ١١٢٩-١١٣٠.

[٢] التاريخ الكبير، ج٣، عن الموسوعة، ج٤٨، ص١٠٩٢-١٠٩٣. زيادة: حملة لويس التاسع، ص١١٧.

[٣] راجع التاريخ الكبير، عن الموسوعة، ج٤٨، ص١١٢٨-١١٢٩.

[٤] الذهبي: العبر، ج٣، ص٢٥٧. الصفدي، صلاح الدين خليل بن أيبك: الوافي بالوفيات، تح: المعهد الألماني للأبحاث الشرقية في بيروت، دار فرانز شتايز شتوتغارت، ط٢، ١٩٩١م، ج١٠، ص٥٦. شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ج٧، ص٤١٢.

الفسطاط، وأن سقوط الإسكندرية أصبح قاب قوسين أو أدنى، ويبدو أن مرد هذه الشائعات يعود إلى رسائل مزيفة تم إرسالها من الصليبيين في الشرق لأوربا كي يشحذوا هممهم، ويشجعوا المترددين على القدوم إلى الشرق.[١]

وكان أن قرر الصليبيون في١٣ شعبان ٦٤٧هـ/ ٢٠ تشرين الثاني ١٢٤٩م الزحف من دمياط باتجاه الجنوب إلى فارسكور، وفي هذه الأثناء توفي السلطان الصالح نجم الدين أيوب في ليلة النصف من شعبان ٦٤٧هـ/ ٢٢ تشرين الثاني ١٢٤٩م، فعمدت زوجته شجر الدر إلى اخفاء نبأ وفاته خشيةً على مشاعر ومعنويات الجند في تلك المرحلة الحرجة، وزوَّرت وثيقة تحمل توقيع السلطان بتعيين ابنه توران شاه ولياً للعهد ونائباً للسلطان أثناء مرضه، وفخر الدين قائد عام للجيوش، وعلى الفور أرسلت إلى توران شاه تستدعيه من حصن كيفا، وفي ذلك ما فيه من الأهمية والخطوة الحاسمة من تلك المرأة، وربما كان لها الفضل الأول والأخير في سير المعارك التي تحوَّلت لصالح المسلمين آنذاك.[٢]

وتقرر أن يعسكر فخر الدين بن شيخ الشيوخ القائد العام للجيش خارج المنصورة، ويعمل على إرسال فرق من الجيش لمضايقة الصليبيين وتعكير صفو السير عليهم، كما تقرر أن يكون الأمير ركن الدين بيبرس البندقداري قائداً لفرقة المماليك الصالحية، وتكون إقامة هذه الفرقة داخل معسكر المنصورة، حول القصر السلطاني كعادتها.[٣]

ولا بدَّ أن شيئاً من تلك الأخبار قد تسرَّب إلى معسكر الصليبيين، ولا بدَّ أنهم ضخَّموا تلك الأخبار لزيادة معنويات الجنود، وعلى العموم تشجعوا لمتابعة المسير، فوصل جيشهم إلى فارسكور في ١٢ كانون الأول ١٢٤٩م، ومنها تقدموا إلى شارمساح في ٢٥ شعبان ثم إلى البرمون فوصلها في ٧ رمضان ٦٤٧هـ/ ١٤ كانون الأول ١٢٤٩م، وأخفقت المناوشات العديدة التي قامت بها بعض القوات الإسلامية لإيقاف تقدمهم، وأصبح بحر أشموم هو الفاصل بين المعسكرين الإسلامي والصليبي لمدة ستة أسابيع[٤] حاول خلالها الصليبيون بناء جسر على ذلك البحر الصغير للعبور إلا أن القذائف والنيران الإغريقية التي

---

[١] التاريخ الكبير، عن الموسوعة، ج٤٨، ص١١٠٤، ١١٢٣-١١٢٤.

[٢] المقريزي: السلوك، ج١، ص٤٤١، ٤٤٤-٤٤٥. أبو الفداء: المختصر، ج٣، ص١٨٠. النويري: نهاية الأرب، ج٢٩، ص٣٣٧.

[٣] زيادة: حملة لويس التاسع، ص١٢٨.

[٤] المقريزي: السلوك، ج١، ص٤٤٦. ابن العميد: أخبار الأيوبيين، ص٣٧. أبو الفداء: المختصر، ج٣، ص١٨٠.

بدأ الجيش العربي – الإسلامي يصبها عليهم بلغت من العنف والشدة درجةً منعتهم بها من إتمام ذلك العمل الذي كان قد بدأوه –بناء الجسر– ويستفيض جوانفيل في الحديث مَلِياً عن تلك المعاناة الشديدة التي تلقوها آنذاك[١].

واضطر الصليبيون للانتظار على حافة ذلك النهر حتى بداية شهري ذي القعدة ٦٤٧هـ/ شباط ١٢٥٠م حيث دلَّهم "أحد الأقباط من سلمون"[٢]، ويرد عند متى باريس أنه "دلَّهم عليها بعض المسلمين المتحولين إلى المسيحية"[٣]، أما المقريزي فيذكر أن الذي دلَّهم هو "بعض منافقي أهل الإسلام"، وذلك مقابل مبلغ من المال على مخاضة في النهر كي يعبروا منها إلى المعسكر الإسلامي في جديلة، وتم ذلك بشكل سري في فجر ٨ شباط ١٢٥٠م، ولم يشعر المسلمون إلا والفرنج داخل معسكرهم.[٤]

وهنا لا بدَّ من الذكر أن عبور الفرنج النهر من خلال تلك المخاضة تم بعناء وبطء شديد، وكان قد تولى مقدمة الجيش الصليبي آنذاك روبرت كونت أرتوا "أخو الملك لويس"، وعلى الرغم من تحذيرات الملك لويس والداوية له إلا أن روبرت لم ينتظر عبور بقية الجيش رغبة منه في استخدام عنصر المفاجأة، وعلى الفور بادر بالهجوم على المعسكر الإسلامي في جديلة مع أنه قد تَقرَّر بأن يكون الداوية في طليعة الجيش؛ إلا أنه هجم دون أن يكترث بهم فاضطروا إلى السير خلفه.[٥]

وشن كونت أرتوا Artois هجوماً عنيفاً على القوات الإسلامية وحقق نصراً عليها، وسقط خلالها قائد القوات المصرية – فخر الدين بن شيخ الشيوخ– شهيداً، وكثُر عدد القتلى والجرحى، وانهارت القوى المصرية – الأيوبية في معسكر جديلة.[٦] وبلغت نشوة النصر لدى كونت أرتوا بأنه لم يبالِ بأوامر أخيه الملك لويس التاسع ولا بنصائح القادة الصليبيين من حوله وعلى رأسهم مقدم الداوية الذين نصحوه بالتريث حتى يتكامل عبور القوات الصليبية، فاتهمهم بالجبن والخيانة قائلاً: إن الداوية والاسبتارية والرهبان

---

[١] جوانفيل: حياة لويس، عن الموسوعة، ج٣٦، ص٨٢-٨٧.

[٢] رنسيمان: تاريخ الحروب، ج٣، ص٤٥٨.

[٣] التاريخ الكبير ج٤، عن الموسوعة، ج٤٨، ص١١٣٣.

[٤] المقريزي: السلوك، ج١، ص٤٤٧. للاستزادة أنظر: جوانفيل: حياة لويس، عن الموسوعة، ج٣٦، ص٨٨.

[٥] التاريخ الكبير، عن الموسوعة، ج٤٨، ص١١٣٣-١١٣٤، ١١٣٦. جوانفيل: حياة لويس، عن الموسوعة، ج٣٦، ص٨٨-٨٩.

[٦] سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان، ج٢٢، ص٤٠٨، ٤١١. أبو الفداء: المختصر، ج٣، ص١٨٠. النويري: نهاية الأرب، ج٢٩، ص٣٣٩. التاريخ الكبير، عن الموسوعة، ج٤٨، ص١١٥٤.

هم سبب تأخر نصر الصليبيين، وهم المسؤولون عن الإخفاقات التي منوا بها. وتصاعد الخلاف والشقاق بين المجتمعين،[١] وهنا ظهر جلياً – وبشكل متأخر- الصراع بين الحزبين الديني والسياسي الذي ربما كان مستتراً خلال مختلف مراحل الحروب الصليبية، والآن انفجر ذلك الصراع ووضح للعلن، لدرجة أن روبرت كونت أرتروا هدد علناً بإزالة سلطة الجماعات الدينية من الأرض المقدسة في حال نجاحه في مصر[٢].

ربما أن كونت أرتوا أراد أن يتفرَّد بشرف النصر لوحده، فاندفع في اليوم نفسه (٨ شباط ١٢٥٠م) مع فرسانه بحالة من التهور إلى داخل مدينة المنصورة، وهنا كانت طامته الكبرى، فالجيش المصري كان قد أعاد تنظيم نفسه تحت قيادة قائد فرقة المماليك الصلاحية "ركن الدين بيبرس البندقداري"، وشن هجوماً معاكساً بمساعدة أهل المنصورة على الصليبيين في ٤ ذي القعدة ٦٤٧هـ/ ٨ شباط ١٢٥٠م حققوا خلاله نصراً عظيماً عليهم، وقُتِلَ عددٌ كبير من الصليبيين كان على رأسهم روبرت كونت أرتوا الذي غرق وهو هارب من المعركة، ولم يبق على قيد الحياة من الداوية الذين بلغ عددهم آنذاك مئتين وتسعين فارساً سوى خمسة، والعدد نفسه خسرته كل من فرقة روبرت كونت أرتوا، ومثله أيضاً من الفرقة الإنكليزية بما في ذلك قائدها وليام سالسبري (وليم لونغوسبي) الذي اشتُهر بلقب طويل السيف، ووصل عدد هؤلاء القتلى عند متى باريس إلى ألفي فارس وسبعة آلاف ومئتين من الرجال المحاربين[٣]، في حين أن المصادر العربية تقدر عدد قتلاهم ب ١٥٠٠ قتيل، وهو عدد معقول جداً.[٤]

وهنا تُشيد المصادر والمراجع بالدور الذي قدمه أهالي مدينة المنصورة، ودور المصريين بشكل عام في تحقيق ذلك النصر على الصليبيين آنذاك، إذ إن أهالي المنصورة بدأوا منذ تقدم قوات كونت أرتوا Artois إلى داخل المدينة برميهم بالأحجار، وحثوا عليهم التراب من النوافذ وأسطح المنازل، وأعاقوا نشاطهم بدرجة كبيرة، فسهَّلت تلك المقاومة والأعمال مهمة الجيش المصري الذي أجهز عليهم.[٥]

---

[١] التاريخ الكبير، عن الموسوعة، ج٤٨، ص١١٣٣-١١٣٧، ١١٥٤-١١٥٥.

[٢] التاريخ الكبير، عن الموسوعة، ج٤٨، ص١١٣٥، للاستزادة أنظر: المصدر والجزء نفسه ص١١٣٣-١١٣٧.

[٣] التاريخ الكبير، ج٣، عن الموسوعة، ج٤٨، ص١١٤٥، للاستزادة أنظر: الجزء نفسه، ص١١٣٨-١١٤٠، ١١٥٥. جوانفيل: حياة لويس، عن الموسوعة، ج٣٦، ص٨٩. سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان، ج٢٢، ص٤٠٨.

[٤] زيادة: حملة لويس التاسع، ص١٥٧-١٥٨.

[٥] التاريخ الكبير، ج٣، عن الموسوعة، ج٤٨، ص١١٣٧-١١٣٨، ١١٥٥.

في تلك الأثناء التي كانت بها فرق الجيش الصليبي تُباد في المنصورة كان لويس التاسع على رأس بقية الجيش الصليبي يفرض سيطرته على المعسكر الإسلامي خارج المنصورة، واستعد كل من الطرفين لمعركة طاحنة تمت في ٧ ذي القعدة ٦٤٧هـ/ ١١ شباط ١٢٥٠م، وانتهت بانتصار المسلمين وإنزال إرباك كبير بالمعسكر الصليبي الذي تلقى هزيمتين متكررتين مما أضعف من كفاءته وفعاليته القتالية، ولم تمضِ أيام قليلة حتى تفشى الوباء داخل المعسكر الصليبي، وتواصلت هجمات وغارات وكمائن المسلمين عليهم، وألحقت بهم خسائر كبيرة جداً،[١] وفي تلك الأثناء وصل توران شاه بن الصالح أيوب إلى الصالحية، وتم إعلان خبر وفاة والده، ونودي به سلطاناً على مصر، وتقدم إلى المنصورة -مركز الأحداث العسكرية- في ٢٥ شباط ١٢٥٠م، والتفَّ حوله الجيش الإسلامي المنتصر على الصليبيين، وعلى الفور بدأ بأعمال القتال لدحر الصليبيين الذين أصبحوا مقيمين جنوبي بحر أشموم، وعلى بعد فرسخ من المعسكر الصليبي تمكنت السفن الإسلامية من الاستيلاء على جميع المؤن التي كانت سائرة في بحر أشموم إليهم، فشعر الصليبيون بقرب المجاعة، وزاد موقفهم حرجاً ووضعهم سوءاً، وأحكم المسلمون الحصار، وقطعوا الميرة والمؤن عنهم، ودارت معارك عديدة وعنيفة بين الجانبين جرت أحداثها بين بحر أشموم طناح والمنصورة قاتل خلالها الصليبيون بكل ما أوتوه من قوة، واستنزفوا بها كامل قواهم، إلا أن النصر فيها كان حليفاً للقوات الإسلامية بقيادة السلطان توران شاه بن الصالح أيوب، ويستفيض جوانفيل في الحديث عن تلك المعارك والمآسي التي لاقاها الصليبيون آنذاك.[٢]

---

[١] التاريخ الكبير، ج٣، عن الموسوعة، ج٤٨، ص١١٤١-١١٤٢. جوانفيل: حياة لويس، عن الموسوعة، ج٣٦، ص٩٧-٩٩. رنسيمان: تاريخ الحروب، ج٣، ص٤٦٠-٤٦٢. زيادة: حملة لويس، ص١٧٠-١٨٢.

[٢] جوانفيل: حياة لويس، عن الموسوعة، ج٣٦، ص١٠٢- ١٠٨، ١١٣-١١٤. للاستزادة أنظر: التاريخ الكبير، ج٣، عن الموسوعة، ج٤٨، ص١١٤٢-١١٤٤، ١١٥٦. سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان، ج٢٢، ص٤١٢.

**ثالثاً: تجدد المفاوضات الدبلوماسية**

كما قيل في التاريخ فالأحداث تكرر نفسها، فكما اضطر بيلاجيوس الزعيم الديني للحملة الخامسة للإذعان لقوة وعظمة الجيوش الإسلامية الصامدة أمام عدوانهم القديم المتجدد، واللجوء إلى المفاوضات وتوقيع الصلح على أرض مصر منذ ثلاثين سنة مضت، وكما اضطرت الحملة الفرنسية بقيادة ثيوبولد إلى الأمر نفسه، وزادت بالتحالف مع مصر بعد أن كان ثيوبولد من أشد المعارضين لذلك، كذلك الآن وجد القديس لويس نفسه مضطراً إلى النزول عن كبريائه الديني الذي أعلنه منذ البداية وتفاخر به، ووجد نفسه مرغماً لفتح باب المفاوضات مع المسلمين استجابة لمطالب البارونات المحليين بعد أن أعلن معارضته الشديدة لمثل ذلك في بداية الحملة، وأرسل من جانبه سفارة إلى سلطان مصر في آذار ١٢٥٠م تحمل في جعبتها شروط الصلح التي كانت معقولة جداً وممكنة في الأيام الماضية؛ إذ إنها عرضت تنازل لويس عن مدينة دمياط والأراضي التي استولوا عليها في مصر مقابل تنازل السلطان توران شاه له عن بيت المقدس وبعض المدن الساحلية في الشام، ويدفع الصليبيون للسلطان مئتي ألف دينار مقابل نصف دخل تلك البلاد على مدى ثلاث سنوات.[١]

وكان من الممكن جداً أن يقبل المسلمون بمثل تلك الشروط في الأيام القليلة الماضية، إلا أن لويس تأخر في ذلك، ولم يكن الوقت يجري لصالحه، وتأكد من ذلك عندما جاءه الرد القاسي من سلطان مصر توران شاه؛ إذ جاء في جملة رده على رسل لويس: "والله ما ينال أحد منكم منه ترابة إلا ما تسفيه الرياح عليه وهو مصلوب، وصرخ فيهم صرخة زعزعت قواهم، وردَّهم أقبح رد"[٢].

وظهر للعلن أن هم لويس الأول والأخير أصبح النجاة بجيشه وتأمينه في دمياط، وما المطالب التي قدمها للجانب الإسلامي سِوى مناورة سياسية بحتة على قاعدة "اطلب المستحيل كي تنال المعقول"، وذلك بهدف الحصول على موافقة الجانب الإسلامي بجلاء القوات الصليبية إلى دمياط، وربما كان بنيته الجلاء نهائياً عن مصر، وظهر هذا جلياً بالانسحابات الكبيرة التي قام بها المعسكر الصليبي بعد إخفاق المفاوضات مع الجانب الإسلامي.

---

[١] سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان، ج٢٢، ص٤١٢. القلقشندي: صبح الأعشى، ج٨، ص٣٧-٣٨. للاستزادة أنظر: جوانفيل: حياة لويس، عن الموسوعة، ج٣٦، ص١١٦-١١٧. زيادة: حملة لويس، ص١٨٤-١٨٥.

[٢] القلقشندي: صبح الأعشى، ج٨، ص٣٩. للاستزادة أنظر: ابن تغري بردي: النجوم، ج٦، ص٣٦٧.

فبعد الرفض القاطع من توران شاه لعرض الصلح الذي قدمه لويس كان أمام الأخير خياران أحلاهما مر:

الأول: المجازفة بما تبقى لديه من قوات، ومواصلة الحرب مع المسلمين.

الثاني: التراجع إلى دمياط، وهو الخيار الأسهل والأسلم إلا أنه سيكون نهايتهم.

وما إن أمر لويس قواته بعبور بحر أشموم إلى معسكرهم القديم في شمال ذلك البحر في ليلة الأربعاء ٢٧ محرم حتى تعقبتهم القوات الإسلامية بقيادة بيبرس البندقداري، واقتحمت معسكرهم المذكور في تلك الليلة نفسها، وهرب الفرنج بعدما تكبدوا خسائر فادحة، وتبعتهم القوات المصرية حتى فارسكور التي تبعد عن شارمساح إلى الشمال بحوالي ٢٨كم. ولم تكن عملية الانسحاب التي اعتمدها الجيش الصليبي سهلة التنفيذ نظراً لانهيار ذلك الجيش وفقدان الثقة والروح المعنوية لديه وضآلة الطاقة الجسمانية بين صفوفه بسبب التعب وكثرة الأمراض فضلاً عن طول المسافات ووعورتها التي توجب عليه عبورها.[١]

وكانت عملية انسحاب المعسكر الصليبي عبارة عن سير بطيء متعثِّر، تعتوره وتعوقه هجمات ومناوشات إسلامية جريئة عنيفة وسريعة من كل الجهات، في الوقت الذي عجز به الصليبيون عن درء تلك الأخطار والمتاعب عن أنفسهم، وفي فارسكور كانت هزيمتهم الكبرى واستسلامهم الأخير، وعانوا الكثير من المشاق والمتاعب، ووقع معظم جيشهم بين قتيل وأسير، بما فيهم الملك لويس الذي أُخذ أسيراً بعد أن لجأ إلى قرية المُنية (ميت الخولي عبد الله) إلى الشمال من شارمساح. وأُسر مع لويس أخويه اللذين بقيا أحياء – شارل وألفونسو– بالإضافة إلى بعض النبلاء، وأودعوا في دار ديوان الإنشاء الحكومية في المنصورة، وكانت مخصصة لرئيس الديوان القاضي فخر الدين بن لقمان[٢].

---

[١] راجع: جوانفيل: حياة لويس، عن الموسوعة، ج٣٦، ص١١٤-١١٥، ١١٨-١١٩. سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان، ج٢٢، ص٤١٢. ابن العميد: أخبار الأيوبيين، ص٣٨.ابن أيبك: كنز الدرر، ج٧، ص٣٧٩.

[٢] سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان، ج٢٢، ص٤١٢- ٤١٣. ابن العميد: أخبار الأيوبيين، ص٣٨. المقريزي: السلوك، ج١، ص٤٥٥.جوانفيل: حياة لويس، عن الموسوعة، ج٣٦، ص١١٩-١٢٠. التاريخ الكبير، ج٣، عن الموسوعة، ج٤٨، ص١١٤٤-١١٤٥. الراهب الدومينيكاني، عن الموسوعة، ج٤٣، ص١١٧٢.

وتذكر الروايات العربية- الإسلامية أن قتلى الفرنج بلغ في ذلك اليوم فقط "ما يزيد عن عشرين ألف فارس"[١]، ويصل العدد عند سبط ابن الجوزي إلى مئة ألف قتيل، ولا بدَّ أن سبط لا يقصد بهذا الرقم أعداد قتلاهم في ذلك اليوم فقط، وإنما يقصد هذا اليوم وما سبقه من معارك، وعن الأسرى يقول: "فحدِّث عن البحر ولا حَرَج"، دون أن يحدد الرقم[٢]، وغنم المسلمون "من الأموال والذخائر والفضيات والخيول والبغال ما لا يحصى، وأسروا من الفرنج والخيالة والرجالة والصناع والسوقة ما يناهز مئة ألف نفس"[٣]، وهو عدد لا بدَّ أنه مبالغ فيه، ويبدو أن الرواية اللاتينية أقرب إلى الواقع من تلك، حيث تذكر أن عدد القتلى بلغ ٢٣٠٠ فارساً و١٥ ألف راجل، وأن عدد الأسرى وصل إلى عشرة آلاف أسير[٤].

### رابعاً: مفاوضات لويس توران شاه

بعد الانتصار العظيم الذي حققه الجيش المصري على الصليبيين في فارسكور انتقل توران شاه إليها، وابتنى بها مساكن وأبراجاً عسكرية سلطانية من الخشب، وخياماً ودهاليز من القماش، واتخذها مقراً له ليكون على مقربة من دمياط التي ينوي البدء في تحريرها، وقبل أن يشرع بالأعمال العسكرية ضد الصليبيين في دمياط بدأ بمراسلة الملك لويس الأسير لديه بهدف الحصول على المدينة سلماً دون قتال، ولا بدَّ أن القديس لويس كان مستعداً للتخلي ليس عن دمياط فقط، بل عن مصر كاملاً مقابل حياته وإطلاق سراحه، إلا أن الأمر لم يكن بهذه السهولة بالنسبة إلى لويس، إذ إن توران شاه طلب من لويس أن يسلمه بعض القلاع والمدن الصليبية في فلسطين وبعض القلاع والمدن التابعة لطائفتي الاسبتارية والداوية، وهنا اعتذر لويس له عن ذلك، وعندما هدده مندوبو السلطان توران شاه باحتمال انزال أصناف العذاب به، أجابهم أنه بطبيعة الحال هو أسيرهم وبمقدورهم أن يوقعوا به من ألوان العذاب ما يشاؤون متذرعاً أنه لا يستطيع التنازل عن أرض ليست ملكاً له، ومشيراً بذلك إلى أن ملكيتها تعود للملك كونراد بن الإمبراطور

---

[١] ابن العميد: أخبار الأيوبيين، ص٣٨. وابن أيبك يذكر أن عدد قتلاهم في تلك الليلة لوحدها هو واحد وثلاثون ألف قتيل. ابن أيبك:كنز الدرر، ج٧، ص٣٧٩.

[٢] سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان، ج٢٢، ص٤١٢. للاستزادة أنظر: ابن أيبك:كنز الدرر، ج٧، ص٣٨٠. ابن تغري بردي: النجوم، ج٦، ص٣٦٧.

[٣] ابن العميد: أخبار الأيوبيين، ص٣٨. للاستزادة أنظر: المقريزي: السلوك، ج١، ص٤٥٥. باركر: الحروب الصليبية، ص١٢٢.

[٤] متى باريس: التاريخ الكبير، ج٣، عن الموسوعة، ج٤٨، ص١١٤٤.

فردريك، وعلى هذا ما من أحدٍ سوى الإمبراطور فردريك يستطيع أن يتخلى عنها،[١] وربما كان ذلك سبب في تجاهل المسلمين لتلك المطالب، وكان دليلاً قاطعاً على الرغبة في استمرار العلاقات الطيبة مع فردريك.

وعلى الرغم من الانتصار الكبير الذي حققته القوات المصرية على الصليبيين إلا أن تحصينات الأخيرين في دمياط كانت لا بأس بها، حيث يذكر متى باريس أن الصليبيين كان بإمكانهم "الصمود دونما خطر، لمدة عام على الأقل في وجه حملات جميع جيوش الشرق، بكل من البر والبحر، ولكان في الوقت نفسه من الممكن تحريرها بوساطة نجدة من الصليبيين"[٢].

لا شك أن متى باريس قد بالغ في تعظيم قوة أبناء جلدته في دمياط، ولكن يبدو أن الأمراء المماليك بزعامة توران شاه أدركوا بطريقة أو بأخرى قوة الصليبيين فيها، وأدركوا أن عليهم القتال كثيراً حتى يصلوا إلى النصر الساحق، وربما أدركوا استحالة أو صعوبة ذلك الهدف بعد المحاولة اليائسة التي قاموا بها آنذاك عقب تعالي الأصوات في المعسكر الإسلامي تنادي بترك المفاوضات مع لويس والسيطرة على دمياط عسكرياً إلا أن المحاولة أخفقت.[٣]

لذلك قبلوا بالتنازل عن بعض مطالبهم للويس مقابل تسليم دمياط، ويبدو أن توران شاه كان مضطراً إلى التنازل عن مثل ذلك، ولا يُستبعد أنه كان في عجلة من أمره للتفرّغ للقضاء على الأمراء المماليك الذين بدأ النزاع يظهر بينهم وبينه.

لذلك أسرع توران شاه في التوصل إلى صلح مع الصليبيين، وبعد عدة محاولات أدرك أن التهديد لن يجدِ نفعاً مع عناد لويس وإصراره على الرفض، وأنه مضطر لتجاهل تلك المطالب القديمة، ووضع شروط جديدة وقاسية حملها مندوبيه إلى الملك لويس الذي توجَّب عليه القبول بها، وسجل التاريخ لتوران شاه تشدُده في مفاوضاته مع لويس التاسع، وفي النهاية تم الاتفاق على ما يلي:

---

[١] جوانفيل: حياة لويس، عن الموسوعة، ج٣٦، ص١٢٥، ١٣٠. التاريخ الكبير، ج٣، عن الموسوعة، ج٤٨، ص١١٤٧-١١٤٨. زيادة: حملة لويس التاسع، ص٢٠٣-٢٠٧.

[٢] التاريخ الكبير، ج٣، عن الموسوعة، ج٤٨، ص١١٤٧.

[٣] التاريخ الكبير، ج٣، عن الموسوعة، ج٤٨، ص١١٤٨-١١٤٩.

أن يتعهد لويس بدفع مبلغٍ معيَّنٍ من المال مقابل إطلاق سراحه وسراح أخويه والبارونات جميعاً باعتبارهم جزءاً منه، بالإضافة إلى الجلاء التام براً ونهراً عن دمياط والسواحل المصرية كاملة.

ورحَّب لويس بتلك الشروط، ووافق في الجلسة التالية على المبلغ الكبير جداً الذي حدده توران شاه من باب التعجيز كفدية مطلوبة، وهو مليون بيزنطية ذهبية، أي مائتين وخمسين ألفاً من النقود الذهبية الإمبراطورية المتوَّجة التي تم الاتفاق على الدفع بها، وتعادل خمسمئة ألف ليرة ذهبية فرنسية، بالإضافة إلى الجلاء السريع والتام عن دمياط والسواحل المصرية.[١]

يبدو أن لويس لم يرغب في المجادلة والمناورة حول ذلك المبلغ الكبير لئلا يظهر أمام السلطان توران شاه بمظهر العاجز القليل المال، وكلُّ ما اعترض عليه لويس هو شكل الاتفاق، لا مضمونه، حيث طالب أن يكون المبلغ المحدد مخصصاً بكامله لإطلاق سراح الأسرى من كبار البارونات، فضلاً عن أخويه -شارل كونت أنجو وألفونسو كونت بواتيه- في حين يكون الجلاء عن دمياط والسواحل المصرية هو الفدية الملكية عن نفسه، معللاً ذلك بأن الملوك لا ينبغي أن يوزنوا بمال أو يُشتروا بذهب أو فضة، ويبدو أن توران شاه راقت له تلك المداخلة وما بها من ملاحظة دقيقة مهمة وراقية، وما فيها من دبلوماسية وكياسة سياسية حريصة على الكرامة الملكية.[٢]

ويذكر جوانفيل أن توران شاه قال بحق لويس: "والله، إن هذا الفرنجي رجل كريم الطباع؛ لأنه لم يساوم على دفع مبلغ كبير كهذا"[٣].

وبعدها أمر السلطان توران شاه مندوبيه بالعودة إلى مكان اقامة لويس في دار ابن لقمان لإبلاغه أن السلطان قد تنازل له عن مئة ألف ليرة ذهبية، أي خمسين ألفاً من النقود الذهبية الإمبراطورية المتوّجة، أي أن الفدية المطلوبة أصبحت مئتي ألف فقط من هذه النقود.[٤]

---

[١] جوانفيل: حياة لويس، عن الموسوعة، ج٣٦، ص١٣١.

[٢] جوانفيل: حياة لويس، عن الموسوعة، ج٣٦، ص١٣١. للاستزادة أنظر: التاريخ الكبير، ج٣، عن الموسوعة، ج٤٨، ص١١٥٠.

[٣] جوانفيل: حياة لويس، عن الموسوعة، ج٣٦، ص١٣١.

[٤] جوانفيل: حياة لويس، عن الموسوعة، ج٣٦، ص١٣١.

وأثناء استعداد السلطان توران شاه لتنفيذ الخطوات العملية المتفق عليها كتسلُّم الفدية ودمياط وغيرها وصلته رسالة من قبل أسيره الملك لويس التاسع يطلب فيها الإذن لعدد من كبار الأسرى الصليبيين كي يذهبوا في أربع سفن مصرية إلى دمياط لإذاعة شروط الهدنة وتفاصيلها، ولتحديد موعد وتاريخ دقيق للتسليم، ولإحاطة الملكة البروفنسالية مرغريت برغبات زوجها الملك لويس بشأن جمع مبلغ الفدية المتفق عليه، ولمعرفة رأيها بذلك، وأخبر توران شاه في تلك الرسالة أنه مستعدٌ للمجيء بنفسه إلى فارسكور ليكون رهينة عنده ريثما يتم تسليم دمياط في يوم السبت ٢٦ محرم ٦٤٨هـ/ ٣٠ نيسان ١٢٥٠م[١]، حيث تم تحديد ذلك التاريخ موعداً لتسليم دمياط، وبالفعل وصل لويس إلى السلطان في فارسكور في ٢٤ محرم/ ٢٨ نيسان، وبذلك تكون مدة إقامة لويس في المنصورة قد بلغت اثنين وعشرون يوماً، وأعد له توران شاه مكاناً خاصاً له للإقامة فيه مدة يومين، حيث سيتم بعدها تسليم دمياط وإطلاق سراح الملك لويس التاسع في آن واحد.[٢]

وعن الأوضاع في دمياط وترتيب أمور الانسحاب الصليبي منها، فيمكن القول إن أوضاعهم لم تكن أفضل حالاً من معسكرهم المدمر الأسير بيد المسلمين، وعندما وصلت اللجنة الصليبية التي أرسلها لويس -بموافقة توران شاه- إلى دمياط وكان على رأسها (بطرس كونت بريتاني، ووليام كونت فلاندر، وجاي كونت ابلين، والمؤرخ جوانفيل)، وجدت هذه اللجنة الملكة مرغريت البروفنسالية غارقة في جملة من المشاكل الداخلية، ولا يوجد حولها من يساندها سوى بطريرك بيت المقدس جاي الخامس الذي كان شيخاً عجوزاً ناهز الثمانين من العمر،[٣] أما زعماء الجاليات الإيطالية (البنادقة والجنوية بشكل خاص) فقد بدأوا بحزم أمتعتهم استعداداً للرحيل عن دمياط لتجنب مصير الحملة ولتجنب الغرامات المالية التي ترتبت على إخفاق الحملة، وما وقع به الصليبيون بشكل عام من ضائقة مالية وغذائية وصحية، ولا يخفى أن الإيطاليين كانوا هم أصحاب التجارة والمال، ويُعتمد عليهم بشأن تمويل وتموين الحملة منذ البداية، وعلى الفور استدعت مرغريت زعماء تلك الجاليات، ووضعتهم في صورة الهدنة التي اتفق عليها لويس مع المصريين، وأخبرتهم بأن رحيلهم عن دمياط في ذلك الوقت الحرج سوف يحرم الملك لويس من عناصر

---

[١] جوانفيل: حياة لويس، عن الموسوعة، ج٣٦، ص١٣١-١٣٢. التاريخ الكبير، ج٣، عن الموسوعة، ج٤٨، ص١١٥٠-١١٥١.

[٢] جوانفيل: حياة لويس، عن الموسوعة، ج٣٦، ص١٣٣. زيادة، حملة لويس التاسع، ص٢٠٨-٢٠٩.

[٣] جوانفيل: حياة لويس، عن الموسوعة، ج٣٦، ص١٤٩. زيادة، حملة لويس التاسع، ص٢١٠-٢١١، ٢١٦.

الاستقرار المالي الذي لا بدَّ له من الاطمئنان إليها لينفِّذ ما وعد به الجانب المصري، وكي يدفع الفدية التي تم الاتفاق عليها، لا؛ بل أخبرتهم أنه بمغادرتهم دمياط ربما أن الصليبيين سيخسرون الملك لويس وجميع الأسرى الذين هم تحت رحمة المسلمين، لهذا ترجتهم بألا يغادروا.[١]

هنا وجد التجار البيازنة والجنوية أنفسهم مضطرين للبقاء في دمياط بعد أن وافقت الملكة مرغريت على أن تشتري منهم جميع المواد الغذائية بأثمان باهظة بلغت ثلاثمئة وستين ألف ليرة ذهبية إمبراطورية متوَّجة، أي أن تلك المبالغ زادت عن الفدية الكبيرة المتوجب دفعها للمصريين. ولا بدَّ من الإشارة هنا إلى أن مرغريت أعادت بيع تلك البضائع والسلع، ولكن بأثمان مخفضة جداً تناسب الوضع المأساوي الذي هم به،[٢] وهنا يظهر بكل وضوح تفوق وتغلب المصالح الاقتصادية على الادعاءات الدينية للحروب الصليبية، ولاسيما لدى جمهوريات المدن الإيطالية.

وعن اللجنة التي سلف ذكر قدومها إلى دمياط، فما إن حصلت على الموافقة من دمياط على شروط الهدنة ومواعيد التسليم والجلاء من قبل جميع الطوائف الصليبية المقيمة هناك عادت بالسفن المصرية الأربع إلى فارسكور، وذلك في يوم الخميس ٢٤ محرم/ ٢٨ نيسان، ورست تلك السفن الأربع قرب خيمة الضيافة التي أقام بها الملك لويس، في قبالة المساكن السلطانية، وذلك استعداداً للاشتراك في القافلة النهرية الكبيرة التي سوف يتصدَرُها السلطان توران شاه إلى دمياط حيث سيتم هناك الاحتفال بالجلاء الصليبي التام عن الشواطئ المصرية، وذلك بعد أن يكون تم اطلاق سراح الملك لويس التاسع وأخويه وجميع البارونات المتفق عليهم من الأسر، وحُدد ذلك بيوم السبت ٢٦ محرم ٦٤٨هـ/ ٣٠ نيسان ١٢٥٠م.[٣]

ولما وصلت تلك السفن الأربع إلى قبالة المساكن السلطانية لم تستطع الرسو على البر، وربما مُنعت من ذلك ريثما يصل أمراً ملكياً بذلك، وفي هذه الأثناء كانت قد تغيّرت جميع الأجواء في فارسكور، ووقعت المدينة في ريبة وغموض شديد، وحيرة وجمود، حيث كانت هناك أمور داخلية أيوبية مصرية تتفاعل جداً بشكل كبير وتسير نحو الأسوأ في داخل المعسكر الإسلامي، وذلك على عكس الأوضاع والسياسة الخارجية التي غدت تسير من نجاح لنجاح أعظم، إذ إن مؤامرة وثورة كبيرةٌ جداً كانت تحاك ضد السلطان

---

[١] جوانفيل: حياة لويس، عن الموسوعة، ج٣٦، ص١٤٩-١٥٠.

[٢] جوانفيل: حياة لويس، عن الموسوعة، ج٣٦، ص١٥٠. زيادة: حملة لويس، ص٢١١. رنسيمان: تاريخ الحروب، ج٣، ص٤٧٢.

[٣] جوانفيل: حياة لويس، عن الموسوعة، ج٣٦، ص١٣٢-١٣٣. زيادة: حملة لويس، ص٢١٦.

المنتصر توران شاه؛ لأن النصر الذي حققه المماليك البحرية في معركة المنصورة كان سبباً في ازدياد أهميتهم وارتفاع شأنهم، ودليلاً واضحاً على قوتهم وقدرتهم على تحريك موازين القوى على الساحة المصرية، وأصبحوا أصحاب العقد والحل، وأخذوا ينظرون لأنفسهم على أنهم هم من خَلَّص مصر من الصليبيين، وبدلاً من أن يستوعب توران شاه ذلك ويتعامل معهم بحذر وقع في خلاف ومواجه مباشرة معهم ومع زوجة أبيه شجر الدر، وانتهى النزاع بمقتله على أيديهم في صباح يوم الاثنين ٢٨ محرم ٦٤٨هـ/٢ أيار ١٢٥٠م.[١]

وانتظرت السفن الأربع حائرة على شاطئ النهر لا تدري ما عسى أن تأتي به المقادير، وانتظر لويس في خيمة الضيافة على أمل أن يأتي أمر السلطان بين هذه اللحظة وتلك بالمسير نحو دمياط واطلاق سراحه وسراح باروناته الذين كانوا ينتظرون على السفن الأربع وقد أُحيط بهم، ومضى يوم ٢٦ محرم/ ٣٠ نيسان ولم يحدث شيءٌ من ذلك، وكذلك اليوم الذي يليه.

يبدو أن الأخبار وصلت إلى لويس التاسع بأن نظيره وآسِرَهُ توران شاه قد قُتل، ولم يكن ذلك بالضرورة مؤشر خيرٍ بالنسبة إلى لويس، فتوران شاه على الرغم من قساوته ورعونته وطيشه، وتشدده في تعامله مع الصليبيين وغيرهم، إلا أن لويس قد أمن مكره، ولم يَلْقَ على يديه سوى المعاملة الحسنة، وكان بين لحظة وأخرى سيتم تنفيذ الاتفاق المتفق عليه بينهما، وسيتم اطلاق سراح لويس، أما الآن وبعد أن وصلت وشاعت تلك الأخبار عن ثورة داخلية أو انقلاب عسكري، ومقتل السلطان توران شاه، فهل يُقتل لويس على أيدي الحاكمين أو الثوار الجدد؟ أم سيتم تعديل الاتفاق ؟ وهل تطول مدة لويس في الأسر؟

هل يتم اعلان انتهاء العمل بموجب الاتفاق المعقود بين السلطان المقتول ولويس؟

هل لويس بحاجة إلى الدخول في مفاوضات جديدة ربما تكون أقسى وأشد من تلك؟

---

[١] للمزيد عن أحداث مقتل توران شاه أنظر: أبو الفداء: المختصر، ج٣، ص١٨١-١٨٢. ابن عبد الظاهر:الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر، تح: عبد العزيز الخويطر، الرياض، ط١، ١٣٦٦هـ/ ١٩٤٧م، ص٤٨-٥٠. ابن أيبك:كنز الدرر، ج٧، ص٣٨١-٣٨٣. المقريزي: السلوك، ج١، ص٤٥٧-٤٥٨. زكار، سهيل: تاريخ دمشق من القرن الرابع حتى القرن السابع الهجري، دار التكوين – دمشق، ٢٠٠٧، ج١، ص٨٣٩. جوانفيل: حياة لويس، عن الموسوعة، ج٣٦، ص١٣٣-١٣٤. زيتون، عادل: تاريخ المماليك، جامعة دمشق، ص٧-٨. عودات، أحمد، وآخرون: تاريخ المغول والمماليك، مكتبة الدراسات الاجتماعية، ص٧٥-٧٦.

بالتأكيد ليس من الوارد أن يتم صدور عفو عام عن أعداء السلطان المقتول، فالنصر والتفوق الذي كان يعمل بموجبه السلطان المقتول كان من إنتاج الثوار والحكام الجدد، ولا بدَّ أن لويس يشكل عدوهم الأول بعد التخلص من توران شاه. ويبدو أن لويس من جديد حالفه الحظ على الرغم من تخوفه الشديد، ولم يلق سوى المعاملة الحسنة من هؤلاء الحكام الجدد الذين ما إن انتهوا من أمر توران شاه حتى دخلوا عليه في خيمته التي يقبع بها وسيوفهم ملطخة بدماء توران شاه، وكان على رأسهم فارس الدين أقطاي، ولا بدَّ أن لويس ظنَّ أن نهايته قد اقتربت، وأن شروط الهدنة والتسليم ذهبت بذهاب توران شاه، غير أن فارس الدين أقطاي طمأنه على حياته وعلى الهدنة المتفق عليها من قبل.[١] وتورد بعض المراجع أن فارس الدين أقطاي أخبره مازحاً بأن أمراء المماليك يفكرون في جعله سلطاناً عليهم، إذا قام هو من ناحيته باعتناق الإسلام، ولم يكن لويس التاسع في الحالة النفسية التي تسمح له بمبادلة هذا المزاح أو الرد عليه بمثله فصمت ولم يُجب بكلمة.[٢]

ولم يكن البارونات المنتظرون على ظهر السفن الأربع المصرية أفضل حالاً من الملك لويس، ففي الوقت نفسه صعد إلى تلك السفن -التي تنتظر أوامر توران شاه- فئة من المماليك البحرية الصالحية، وهم مدججون بالسيوف والفؤوس الحربية، وأنزلوا جميع من بها من البارونات الصليبيين إلى أجوافها، وأغلقوا عليهم أبوابها ونوافذها، وتركوهم سجناء بها على هذه الحال، وشددوا الحراسة عليها، وافترش أولئك البارونات أرضية هذه السفن، وقضوا ليلة مسهدة في انتظار المصير اليائس لهم، ويذكر المؤرخ الصليبي الشهير جوانفيل الذي كان ضمن أولئك البارونات وعلى ظهر تلك السفن أنه أمضى ليلته تلك مؤرقاً ممدّداً غارقاً في يأس وخوف شديد، وقدماه في وجه بيير كونت بريتاني، ووجهه عند قدمي ذلك الكونت.[٣]

وفي صباح اليوم التالي أي في ٢٩ محرم/ ٣ أيار عاد أولئك الأمراء المماليك إلى تلك السفن ليُخرجوا البارونات جميعاً من سجونهم المائية، وليطلبوا منهم أن يرسلوا نواباً عنهم لتجديد شروط الهدنة والتسليم والجلاء على نسق ما قام به لويس التاسع مع النظام القديم، وكان على رأس المفاوضين من جانب الحكام

---

[١] جوانفيل: حياة لويس، عن الموسوعة، ج٣٦، ص١٣٥.

[٢] جوانفيل: حياة لويس، عن الموسوعة، ج٣٦، ص١٣٩. زيادة: حملة لويس التاسع، ص٢١٩. جوزيف: العدوان الصليبي، ص٢٣٠-٢٣١.

[٣] جوانفيل: حياة لويس، عن الموسوعة، ج٣٦، ص١٣٥-١٣٦.

الجدد الأمير حسام الدين محمد بن أبي علي الهذباني، وهو الذي أدار دفة المفاوضات الجديدة نيابة عن أمراء المماليك البحرية الصالحية الذين أصبحت لهم الكلمة العليا في مصر كلها، وعلى رأسهم شجر الدر وزوجها الجديد معز الدين أيبك التركماني.[١]

وكان على لويس الخوض مع أولئك الأمراء المماليك الجدد مفاوضات صعبة للغاية، وطويلة، انتهت على القاعدة نفسها التي أرساها مع السلطان القتيل توران شاه، وبما أن البحث هنا ليس مخصصاً للتفصيل في الحملة السابعة، وينتهي بنهاية الأيوبيين؛ لذا لن يتم إيراد تفاصيل تلك المفاوضات مع أنها ترد بصورة جميلة جداً لدى محمد مصطفى زيادة، حيث يضع القارئ بصورة وتفاصيل ما جرى تماماً، لدرجة أن القارئ يشعر وكأنه يعيش الأحداث نفسها، وبالطبع استقى زيادة تلك المعلومات والتفاصيل من جوانفيل.[٢]

ومختصر ذلك أن تلك المفاوضات الشاقة وما بها من ضغوط نفسية على الملك وباروناته الذين كانوا دائماً في خوف شديد على حياتهم استمرت حتى تم إطلاق سراحهم في ٢ صفر ٦٤٨هـ/ ٦ أيار ١٢٥٠م، وأبحرت سُفنهم من دمياط باتجاه عكا في صباح يوم الأحد ٤ صفر/ ٨ أيار بعد أن دفعوا للمسلمين المبلغ المحدد (مائتي ألف ليرة ذهبية)، وتم اطلاق سراح أخي الملك لويس كونت دي بواتيه.[٣]

وهنا يجب ذكر أنه حتى اللحظات الأخيرة التي سبقت إبحار لويس من دمياط إلى عكا كان هناك حزب من بين قادة المماليك ينادي بقوة بإعادة إلقاء القبض على لويس التاسع وباروناته وقتلهم أو إعادتهم إلى سجنهم في المنصورة، والتنكيل بصليبيي الحملة ككل، وكادوا ينجحوا في إقناع الحزب المعتدل بذلك إلا أن الأخير كانت له الكلمة الأخيرة المسموعة والنافذة.[٤]

---

[١] جوانفيل: حياة لويس، عن الموسوعة، ج٣٦، ص١٣٦.

[٢] راجع كتابه: حملة لويس التاسع، ص٢١٩-٢٢٧. للاستزادة أنظر: جوانفيل: حياة لويس، عن الموسوعة، ج٣٦، ص١٣٦-١٣٧، حيث قدم فيه تفاصيل دقيقة جداً.

[٣] جوانفيل: حياة لويس، عن الموسوعة، ج٣٦، ص١٣٦-١٤٠، ١٤٢-١٤٦. التاريخ الكبير، ج٣، عن الموسوعة، ج٤٨، ص١١٥١.

[٤] جوانفيل: حياة لويس، عن الموسوعة، ج٣٦، ص١٤٠-١٤١.

وهذه النهاية التي انتهت إليها الحملة السابعة تُذَكِّر تماماً بالنهاية التي آلت إليها الحملة الخامسة، فلو رضي كل من قادة هاتين الحملتين باللجوء إلى السياسة والدبلوماسية التي اتبعها فردريك الثاني من قبلهم خلال الحملة السادسة لحققوا إنجازاً عظيما في الحملتين يفوق بكثير ما حققه فردريك.

ويمكن القول إن الهزيمة الكبيرة والخسائر العظيمة التي تكبدها الصليبيون أثناء الحملة السابعة مثَّلت دليلاً قاطعاً على عدم جدوى النشاط الصليبي في الشرق الإسلامي، ومثَّلت دليلاً صارخاً على قرب نهاية ذلك النشاط وفتوره، وكان ايذاناً لمملكة القدس اللاتينية الثانية ببدء أفول نجمها وصيرورتها إلى ظلام مخيف ومصير مجهول.

وعَوداً على بدء؛ يبدو أن مفاوضات لويس توران شاه لم تتطرق لشأن عامة الأسرى الصليبيين لدى المصريين، كالعساكر والصناع والسوقة الذين بلغ عددهم في المصادر اللاتينية عشرة آلاف أسير، وفي المصادر العربية عشرون ألف، وتبالغ بعض المصادر كثيراً في ذلك فتوصل العدد إلى مئة ألف أسيركما سلفت الاشارة إليه.

ويبدو أن توران شاه عامل هؤلاء الأسرى بمنتهى القسوة والعنف، وعذّب وقتل قسماً كبيراً منهم بعدة طرق، مرتكباً أبشع المجازر التاريخية، ومُذكِّراً بمجزرة الأمس (مجزرة ريتشارد Richard بحق أهل عكا)، ولربما كان ذلك انتقام قام به توران شاه نيابة عن جده صلاح الدين الأيوبي لمجزرة عكا التي قام بها ريتشارد على مرأى ومسمع المسلمين، وقتل بها نحو ٢٥٠٠-٣٠٠٠ أسير، مع عدم تسويغ موقف توران شاه السيء من الأسرى لديه، ويبدو أن متى باريس أدرك ذلك حين قال : "فقطعوا الآن رؤوس وأطراف وأيدي وأرجل القتلى، وذلك بمثابة علامة على الانتقام الأقصى، وذلك حسبما أمر السلطان."[١]

ويمكن القول إن الفرق بين المجزرتين بأن القديمة كانت بحق أُناس أغلبهم عُزَّل، وفيها كثير من الأطفال والنساء، وهم في أغلبهم أصحاب الأرض، وكانوا قابعين في بيوتهم فدارت الدائرة عليهم، وأصبحوا في أسر ريتشارد Richard.

أما المجزرة الأخيرة فتمت بحق أناس أغلبهم عساكر أتوا من أوربا بقصد قتال المسلمين وسلبهم بلادهم وخيراتهم.

---

[١] التاريخ الكبير، ج٣، عن الموسوعة، ج٤٨، ص١١٤٥-١١٤٦.

ويمكن القول إنه بمقتل توران شاه على أيدي الأمراء المماليك في ٢٨ محرم ٦٤٨هـ/ ٢ أيار ١٢٥٠م وتنصيب زوجة أبيه -شجر الدر- سلطانة على مصر انتهت الدولة الأيوبية في مصر، وبذلك ينتهي الحديث عن علاقاتها مع مملكة القدس اللاتينية الثانية؛ إذ إن توران شاه كان آخر السلالة الأيوبية في مصر، واستلم الحكم بعده الأمراء المماليك وأصبحوا هم المتنفذين، وأسسوا دولة المماليك التي أكملت الدور الذي بدأه صلاح الدين بجد ونشاط، ودون أي مساومة، وكُتب على أيديها تدمير مملكة القدس اللاتينية الثانية عام ٦٩٠هـ/ ١٢٩١م وتحرير المنطقة بشكل نهائي من الوجود الصليبي.

## المبحث الثالث

# علاقات أيوبيي بلاد الشام مع مملكة القدس اللاتينية الثانية منذ إخفاق الحملة السابعة ٦٤٨هـ/ ١٢٥٠م حتى الانهيار النهائي لسلطة الأيوبيين على يد المغول عام ٦٥٦هـ/ ١٢٥٨م

### أ- أثناء وجود لويس في مملكة القدس:

على الرغم من هزيمة لويس التاسع بكل معنى الكلمة، لا؛ بل يمكن القول إنه كان لحملته المصير الأسوأ حظاً من بين الحملات الصليبية على الاطلاق، ومثّلت بداية النهاية الحقيقية للوجود الأسطوري لمملكة القدس اللاتينية الثانية، ومثلت الضربة القاضية لأحلام مملكة القدس اللاتينية الثانية بإعادة عاصمتها المسلوبة – من وجهة نظرهم، وربما كان حقاً عليهم – في حال حالفهم الحظ واستمر وجودهم في المنطقة– أن يعيدوا تسمية مملكتهم بإسقاط كلمة "القدس" منها إلى اسم آخر يحلو لهم ويناسب واقعهم.

وعلى الرغم من كل ذلك فإن لويس التاسع ظن أن بإمكانه أن يوقف عجلة التاريخ ريثما يصلح أخطاءه، ويمحي قبيح فعاله، ويرمم المآسي التي لحقت بالمملكة من جرّاء حملته المخفِقة، وظن أن بإمكانه أن يجعل من أحلامه أمراً واقعاً وأن يُقنع الجميع بأن مملكة القدس حقيقة ثابتة لابد من ظهورها من جديد وعلى يديه، وعلى هذا قرر البقاء في فلسطين ريثما يتحقق له ما يحلم به.

ويمكن القول إن لويس التاسع لم يقنع ولم يقبل بالهزيمة والإهانة التي لحقت به، ولم يجرؤ على السفر إلى مملكته في فرنسا وهو ملطخ بتلك السمعة السيئة؛ لذا قرر البقاء في فلسطين ريثما يتم ترميم ما تصدَّع من سمعته وكبريائه.

إلا أن سنوات أربع مضت على بقائه في فلسطين، ولم يرمم شيئاً من ذلك، وكان ينتقل من سيئ إلى أسوأ، وكان بإمكانه تسويغ ذلك بأن مدة إقامته في عكا أربع سنوات كانت ضرورية للإشراف على تطبيق شروط هدنة دمياط والجلاء عن الأراضي المصرية، وضمان تحرير جميع الأسرى الصليبيين من أيدي المسلمين.

ذلك أن لويس التاسع ما إن وصل إلى عكا في منتصف صفر ٦٤٨هـ /منتصف أيار ١٢٥٠م قادماً من دمياط تلقى رسالة من أمه الملكة بلانش القشتالية التي أنابها محله في الحكم ريثما يعود، وألحت عليه والدته في تلك الرسالة على ضرورة العودة سريعاً إلى مملكته في فرنسا، وذلك بعد أن وصلت إليها أخبار ملك إنكلترا – هنري الثالث Henry III– وعزمه على الهجوم على الأراضي الفرنسية لتسوية حساب اقطاعي له قديم مع العرش الفرنسي، وأيضاً أخبرته بمجموعة من المشاكل الفرنسية الداخلية التي توجَّب عليه الحضور لحلها بنفسه[1].

غير أن التقوى الدينية والعسكرية التي تمتع بها لويس التاسع لم تسمح له بالاستجابة لمثل تلك النداءات من جانب أمه، ورأى بثاقب ورعه الديني أن المصلحة الصليبية لا تسمح له بالخروج من فلسطين، ولابدَّ من وجوده بها ريثما يتم إصلاح ما أفسدته حوادث ومعارك حملته على مصر، إذ إنها أبادت جيش مملكة القدس عن آخره تقريباً، بالإضافة إلى الجيش الفرنسي الذي كان هو على رأسه.

ويبدو أن لويس التقِي –بما اتصف به من ورع ديني وصليبي– عدّ نفسه مسؤولاً بشكل أو بآخر عن ذلك الإخفاق العسكري، ووقوع معظم عساكر الحملة أسرى بيد المسلمين، ومن ثم ليس من البِر أن يغادر مملكة القدس قبل أن يطمئن إلى هؤلاء الأسرى، ويضمن أو يشاهد بأم عينه اطلاق سراحهم، وبالتالي لابدّ له من البقاء على مقربة منهم لضمان تنفيذ شروط الهدنة مع أمراء المماليك حتى نهايتها، ولا يُستبعد أن يكون هناك بعض المطامع السياسية من وراء بقائه في المنطقة لمدة أربع سنوات.

وعلى كل حال فإن لويس استدعى مجلس مشورته بمن فيهم أخويه شارل وألفونسو، والمندوب البابوي (أودو أسقف طوسكولوم)، وفيليب كونت فلاندر، وحنا كونت يافا، وجي موفوازان، والمؤرخ جوانفيل، وغيرهم من البارونات المحليين والفرنسيين، وعُقد المجلس الملكي في عكا يوم الأحد ١٧ ربيع الأول ٦٤٨ هـ/ ١٩ حزيران ١٢٥٠م، وفيه أفضى لويس إلى أعضاء المجلس برسالة والدته الملكة بيلانش، وطلب منهم المشورة بالسفر أم البقاء في عكا لمدة من الزمن، وانتقل لويس في خطابه إلى شرح أحوال البارونات المحليين السيئة بعدما ذهبت عساكرهم بين قتيل وأسير في معارك مصر، وأفضل الناجين حالاً كان مريضاً أو جريحاً، وأشار لويس إلى أن وضع المملكة على العموم ليس بالجيد، وأنه يخشى عليها من سوء العاقبة على يد المسلمين في حال قرر العودة بجيشه سريعاً إلى فرنسا، لأن رحيله سوف يؤدي إلى

---

[1] جوانفيل: حياة لويس، عن الموسوعة، ج٣٦، ص١٥٦. زيادة: حملة لويس، ص٢٣٧.

رحيل سائر القوى الصليبية الفرنسية بعده، وبذلك تصبح مملكة القدس خالية من أي قوة عسكرية قادرة على حمايتها، وهكذا ستكون فريسة سهلة أمام المسلمين، وأمهل لويس التاسع أعضاء المجلس أسبوعاً كاملاً لتقليب الرأي فيما بينهم والاتفاق على رأي وخطة واحدة في ذلك الشأن، وعلى أن يتم الاجتماع في الأحد التالي للإدلاء بالرأي[١]، ولم تلبث الآراء أن انقسمت في اتجاهين:

- الأول: يشمل البارونات الفرنسيين ومعهم المندوب البابوي، ويرون وجوب عودة الملك السريعة إلى فرنسا.
- الثاني: تَمَثّلَه البارونات والزعماء المحليون بزعامة حنا كونت يافا، ويرون ضرورة إقامة لويس في عكا لمدة سنة واحدة على الأقل. وانضم لهم جوانفيل الذي بات صديقاً حميماً للويس التاسع، ومع جوانفيل فئة من الحاشية الملكية[٢].

وعندما انعقد المجلس الملكي في الأحد التالي ٢٤ ربيع الأول ٦٤٨هـ / ٢٦ حزيران ١٢٥٠م، احتج بارونات الاتجاه الأول بالقوة الصغيرة التابعة للويس التي لم تزد عن مئة فارس، وهم كل عسكره في عكا، وعليه لن يقدموا ولن يؤخروا شيئاً لمملكة القدس، أما إذا عاد الملك لويس إلى مملكته وأصلح شؤونها بعد طول غيابه عنها، فربما يكون ذلك فاتحة خير لحملة صليبية جديدة تنقذ الشرق الصليبي كله. في حين أن بارونات الاتجاه الثاني اقترحوا على لسان زعيمهم حنا كونت يافا أن يبقى الملك لويس التاسع في فلسطين لمدة سنة واحدة ريثما تسترجع مملكة القدس شيئاً من قوتها السالفة. وبعد مناقشات حادة بين عناصر الاتجاهين أعلن لويس أنه قد استمع إلى ما فيه الكفاية من الآراء وأنه قرر بأن ترفع الجلسة للأحد التالي حيث سيُعلن فيه قراره النهائي.[٣]

وعندما جاء الأحد أول ربيع الثاني ٦٤٨هـ / ٣ تموز ١٢٥٠ م، وفي بداية الجلسة رسم لويس علامة الصليب على فمه، ثم افتتح الجلسة بأن ابتهل إلى روح القدس أن يرشده إلى قول الصواب، ثم قال: "سادتي، إني أشكر بإخلاص جميع الذين أشاروا عليَّ بالعودة إلى فرنسا، وكذلك أخص بالشكر الذين نصحوني بالبقاء هنا، ولقد توصلت إلى رأي أنني إذا ما بقيت هنا لن أواجه خطر فقدان مملكتي، بسبب

---

[١] جوانفيل: حياة لويس، عن الموسوعة، ج٣٦، ص١٥٦.

[٢] جوانفيل: حياة لويس، عن الموسوعة، ج٣٦، ص١٥٧-١٥٨. رنسيمان: تاريخ الحروب، ج٣، ص٤٧٢-٤٧٣.

[٣] جوانفيل: حياة لويس، عن الموسوعة، ج٣٦، ص١٥٧-١٥٩.

أن الملكة الأم لديها ما يكفي من الرجال للدفاع عنها، وأقمت تقديراً لِما أخبرني به البارونات السكان في هذه البلاد، من أنني إذا ما غادرت سوف تضيع مملكة القدس؛ لأن ما من واحد سوف يتجرأ على المكوث بعدما أغادر، وبناءً عليه قررت أنني لن أهجر مملكة القدس مهما كانت المعطيات، فقد قدمت أنا إلى هنا لإعادة الاستيلاء على أراضيها والدفاع عنها، ولهذا قررت أخيراً وعزمت على البقاء هنا في الوقت الحاضر"[١].

وانتهت مناقشات هذا المجلس على تلك الحال، وقرر معظم البارونات الفرنسيين العودة إلى فرنسا فوراً، بما في ذلك أخوا لويس شارل كونت آنجو وألفونسو كونت بواتيه، تاركين له ما تبقى معهم من أموال وفرسان وخيّالة وعساكر صليبية بلغت عدتهم ألف وأربعمئة رجل، دخلوا كلهم في خدمة لويس التاسع، في حين أن الأخير أغدق الأموال والرواتب العالية على الذين اختاروا البقاء معه في فلسطين[٢].

ثم أرسل لويس في بداية جمادى الأولى ٦٤٨هـ/ أوائل آب ١٢٥٠م رسالة إلى جميع رعاياه وباروناته والفرسان ورجال الدين في فرنسا الذين لم يشتركوا معه في حملته شارحاً لهم أخبار الحملة بالتفصيل، وذكر لهم مبررات بقائه في فلسطين وضرورة العمل على عودة مملكة القدس دينياً وسياسياً، طالباً منهم نجدة عسكرية كبيرة تمكنه القيام بحملة صليبية جديدة في العام القادم، دون أن يذكر تفاصيلاً عن تلك الحملة[٣].

وعن مكانة لويس الرسمية آنذاك في المملكة، فكما سلف الحديث عنه في وراثة عرش المملكة، فإن لويس أصبحت له الكلمة العليا في مملكة القدس اللاتينية الثانية، وتسلم مقاليد حكمها من الوصي على عرشها آنذاك، وأصبح -بحق- ملكاً غير متوّج عليها.

في ظل تلك الفوضى والتخبط السياسي والعسكري الذي عاشته مملكة القدس اللاتينية الثانية كانت بلاد الشام تعاني ذلك التخبط، لا؛ بل ربما عانت أكثر مما عانته مملكة القدس، فاستيلاء المماليك على السلطة في مصر مثَّل حدثاً سياسياً خطيراً على مستقبل أيوبيي بلاد الشام الذين بدورهم مثّلوا معارضة

---

[١] جوانفيل: حياة لويس، عن الموسوعة، ج٣٦، ص١٦١.

[٢] جوانفيل: حياة لويس، عن الموسوعة، ج٣٦، ص١٦٢-١٦٣. حومد: تاريخ الجهاد، ج٢، ص٣٠١. للاستزادة أنظر: التاريخ الكبير ج٣، عن الموسوعة، ج٤٨، ص١١٦٤ ، ١١٩٩.

[٣] لم يتسن للبحث الوقوع على هذا الخبر سوى عند زيادة: حملة لويس، ص٢٤٣.

سياسية وعسكرية كبيرة لذلك الحدث، حيث أعلن المماليك شجر الدر – أرملة سيدهم الصالح أيوب – سلطانة عليهم عَقِبَ مقتل توران شاه، وكان ذلك إيذاناً بانقراض دولة بني أيوب على أرض مصر وحلول دولة فريدة من نوعها محلها هي (دولة سلاطين المماليك البحرية).

ولم يكتف المماليك بشرف مصر؛ بل أخذتهم العزَّة بأنهم أرادوا أن يَتَشَرَّفوا بالشام ويضموها لسلطتهم، ويصبحوا سادةً لأسيادِهم بني أيوب، إذ إن شجر الدّر أرسلت الخطيب أصيل الدين[1] لاستحلاف أمراء الشام على الولاء للسلطانة الجديدة تماشياً مع العادة التي جرت منذ عهد صلاح الدين ابن أيوب بأن تكون لسلطان مصر هيمنة على بقية الملوك والأمراء في بلاد الشام[2].

وكان من الطبيعي أن يأتي الرد من الشام على طلب شجر الدر بالرفض وعدم قبول الحلفان لها، لا؛ بل إنهم لم يعترفوا أصلاً بهذا الاغتصاب العسكري لعرش مصر وحكم المماليك لها، لأن الأيوبيين تمسكوا باعتقادهم أنهم أصحاب الحق الشرعي في حكم المنطقة، والأهم من ذلك أنهم لا يمكن أن يخضعوا لحكم امرأة – بغض النظر عن أصلها.

**والسؤال هنا:**

هل كان أيوبيي بلاد الشام قادرين على هذا الرفض قولاً وفعلاً؟

وهل كان الأيوبيون في تلك الآونة قادرين على الدفاع عن حقهم الشرعي المغتصب من قبل المماليك؟

وهل كان بين أمراء الأيوبيين مَنْ هو مُؤهل لتولي القيادة وإعادة توحيد الأيوبيين من جديد؟

والأهم من ذلك، ماهي سياستهم وعلاقتهم الجديدة مع مملكة القدس اللاتينية الثانية؟ وما موقف هذه المملكة– وعلى رأسها لويس– من تلك الأحداث؟

وهل استمر الأيوبيون في حمل راية الجهاد ضد الصليبيين، أم أنهم حوّلوها ضد المماليك في مصر؟

---

[1] هو محمد بن إبراهيم بن عمر العوفي، توفي سنة ٦٦٨هـ. الصفدي: الوافي بالوفيات، ج٢، ص٥.

[2] المقريزي: السلوك، ج١، ص٤٦٢. عاشور، سعيد عبد الفتاح: الأيوبيون والمماليك في مصر والشام، دار النهضة العربية، ١٩٩٦م، ص١٨٥.

والواضح أن الشخصية الأيوبية الأبرز آنذاك كانت شخصية صاحب حلب الناصر صلاح الدين يوسف بن العزيز، وأضحى هو عميد البيت الأيوبي آنذاك، وقِبلة الأنظار القريبة والبعيدة بين الأيوبيين أينما كانوا، ومستودع الآمال في نهوض الدولة الأيوبية من جديد. وفعلاً استغل الناصر وفاة الصالح نجم الدين أيوب، وتقدم إلى دمشق ودخلها دون قتال في ٧ ربيع الآخر ٦٤٨هـ/ ٩ تموز ١٢٥٠م، أي بعد ستة أيام من إعلان لويس التاسع قراره النهائي بشأن البقاء في عكا، وذلك بناءً على رغبة الأمراء القيمرية فيها[١]، وبطلب رسمي من نائب السلطنة فيها "الأمير الكردي جمال الدين بن يغمور"، "ثم تسلم سائر الأعمال والقلاع المضافة إليها، وملك بلاد الجزيرة، بالإضافة إلى حمص وبعلبك والأغوار والسواحل والمعاقل والحصون إلى غزة"، "وأطاعه صاحب الموصل وصاحب ماردين، وعظم شأنه جداً"[٢]، وأخذ الأيوبيون يتكتَّلون في بلاد الشام تحت قيادته للوقوف في وجه المماليك، ولغزو مصر واستردادها منهم.

كما أنهم أخذوا يَرْنُون بأنظارهم للتحالف مع مملكة القدس اللاتينية ضد الأمراء المماليك في مصر، فتذكر المصادر اللاتينية أن لويس ما إن وصل إلى عكا بعد هزيمته في مصر حتى وصلت إليه رسل الناصر يوسف تشتكي له تذمره من حكام مصر الجدد، وتعرض عليه التحالف ضدهم.[٣]

ولا شك أن ذلك صادف هوىً في نفس لويس التاسع، ووجدها فرصة جيدة للانتقام من الهزيمة المنكرة والعار الذي لحق به على يد المماليك، في الوقت الذي لا بدَّ أن لويس أخذ يؤمن به بضرورة وأهمية العلاقات الدبلوماسية مع المسلمين بعد أن كان من أشد المعارضين لها في بداية الحملة، ومردُّ ذلك إلى إخفاق حملته التي فتّحت عيونه على كثير من الحقائق التي كانت غامضة عليه، ووسعت مداركه السياسية، وجعلته أقل استبداداً برأيه، وأكثر تقبلاً للنصح الذي يُسدى إليه، كما يبدو أن ضعف الصليبيين آنذاك وافتقار لويس إلى السلاح كان درساً كافياً له ليتلقّن أهمية العلاقات الدبلوماسية مع المسلمين.

---

[١] الأمراء القيمرية: نسبة إلى قلعة قَيْمُرُ، وهي قلعة في الجبال بين الموصل وخلاط، يُنسب إليها مجموعة من الأمراء الأكراد. انظر: ياقوت: معجم البلدان، ج٤، ص٤٢٤. مراصد الاطلاع، ج٣، ص١١٤٠.

[٢] اليونيني: ذيل مرآة الزمان: كرنكوي: ج٢، ص١٣٩-١٤٠. للاستزادة أنظر: الغزي، كامل بن حسين بن محمد، ت١٣٥١هـ: نهر الذهب في تاريخ حلب، دار القلم، حلب، ط٢، ١٤١٩هـ، ج٢، ص١٣٠. كرد علي: خطط الشام، ج٢، ص١٠٢.

[٣] جوانفيل: حياة لويس، عن الموسوعة، ج٣٦، ص١٦٤.

إلا أن لويس كان مرتبطاً مع المماليك بشروط معاهدة وصلح دمياط، وكان لزاماً عليه أن يراعي شروط ذلك الصلح ريثما يتم إطلاق سراح أسراه من أيدي المماليك، ولذلك وجد نفسه مضطراً لعدم اغضاب الأمراء المماليك في مصر، لذا آثر – وبكل أدب– التريث في رد الجواب إلى الناصر يوسف سيد الشام.[١]

ونتيجةً لسياسات أيوبيي بلاد الشام تلك شعر المماليك بخطورة الموقف، ولاسيما بعد أن وصل جواب الخليفة العباسي إلى مصر بعدم اعترافه بسلطنة شجر الدر، لا؛ بل عاب على المماليك تسليم أمرهم لامرأة[٢]، يضاف إلى ذلك المصاعب الداخلية التي واجهتا شجر الدر، وعدم قبول الشعب المصري بسلطنتها، لهذا تزوجت من أتابك العسكر الأمير عز الدين أيبك[٣] وتنازلت له عن الحكم في ربيع الآخر ٦٤٨هـ/تموز ١٢٥٠م[٤].

كان على ايبك أن يواجه العديد من الأخطار الخارجية والإضرابات الداخلية التي واجهته، وكان أهمها على الإطلاق التحالف الأيوبي بزعامة الناصر يوسف، حيث بدا هذا التحالف وكأنه يريد أن يقضي على هذه الثورة غير الشرعية من قبل المماليك، ويعيد مصر إلى السلطة الأيوبية.

وأبدى أيبك من الحزم والعزم ما لم يكن مُتَوقَّعاً منه لتثبيت أركان الدولة الناشئة، وكي يتحاشى الصدام مع الأيوبيين في بلاد الشام قام بتعيين صبي لم يتجاوز السابعة من عمره من أبناء البيت الأيوبي[٥] في السلطنة، وأعلن وضع البلاد تحت راية الخلافة العباسية في بغداد[٦]، ولكن ذلك لم يثن الناصر الأيوبي

---

[١] الموسوعة الشاملة: ج٣، ص٤٠٩-٤١٠. حومد: تاريخ الجهاد، ج٢، ص٣٠٢.

[٢] السيوطي، جلال الدين: المستظرف من أخبار الجواري، تح: صلاح المنجد، الكتاب الجديد، بيروت، ١٩٩٥م، ص١١٢. المقريزي: السلوك، ج١، ص٤٦٣-٤٦٤.

[٣] ايبك: مكونة من لفظين: "آي" وتعني القمر و"بيك" وتعني أمير. وايبك: هو تركي الأصل والجنس، كان من مماليك الصالح نجم الدين أيوب، وعندما تولت شجر الدر أصبح أتابك لعسكر. انظر: المقريزي: السلوك، ج١، ص٤٦٣.

[٤] المقريزي: السلوك، ج١، ص٤٦٣. ابن تغري بردي: النجوم، ج٦، ص٢٧٣-٢٧٤ وج٧، ص٤. النويري: نهاية الأرب: ج٢٩، ص٣٦٣-٣٦٤، طقوش: تاريخ المماليك، ص٤٣.

[٥] هو الأشرف موسى بن الملك المسعود يوسف بن الكامل بن العادل. المقريزي: السلوك، ج١، ص٤٦٤.

[٦] الدودار، بيبرس المنصوري ت٧٢٥هـ: التحفة الملوكية في الدولة التركية، تح: عبد الحميد حمدان، الدار المصرية اللبنانية، ط١، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م، ص٢٨. أبو الفداء: المختصر، ج٣، ص١٨٣. المقريزي: السلوك، ج١، ص٤٦٤. طقوش: تاريخ المماليك، ص٥٣.

عن الهجوم على مصر بمن معه من الأيوبيين، ودارت معركة فاصلة بين الطرفين في ١١ذي القعدة ٦٤٨هـ/٢ شباط١٢٥١م قرب العباسة، على بعد ١٢ كم شرق الزقازيق، هُزم فيها الأيوبيون – بعد أن كان النصر لهم في بداية المعركة– وفرَّ الناصر وحلفاؤه عائدين إلى الشام[١].

هذا الانتصار كان دليلاً واضحاً على تصاعد قوة المماليك وانحدار قوة الأيوبيين، وكان بمثابة ركيزة قوية للحكم المملوكي في مصر ومن ثم الشام.

وكان المستفيد الأكبر من هذه الأحداث مملكة القدس اللاتينية الثانية بزعامة لويس التاسع المؤقتة، إذ إن كلا الطرفين الإسلاميين المتنازعين في الداخل عمِل جاهداً على أن يضمن لويس التاسع إلى جانبه، إلا أنه كان أذكى منهما، والتزم الحياد حتى تنجلي الأمور، ليضمن أكبر المكاسب لبني جلدته[٢].

فالناصر يوسف أرسل من جديد إلى مملكة القدس – ومازال على رأسها لويس التاسع– يشير فيها إلى امكانية التنازل لهم عن بيت المقدس في حال التحالف معاً ضد المماليك.[٣] ولا بدّ أن في ذلك مبالغة كبيرة من قبل جوانفيل، إذا لا يُستبعد عرض الناصر لذلك التحالف، في حين لا يُعقل أنه عرض عليه التنازل عن مملكة القدس في هذه السهولة والبساطة.

والذي يهم أن لويس أبدى في هذه المرحلة من المناورة الدبلوماسية والسياسية ما جعله يحقق أكبر النتائج، إذ أرسل سفارة إلى دمشق وعلى رأسها راهب دومنيكاني عارف باللغة العربية، واسمه "إيف البريتوني Yves le Breton"، وقام هذا المبعوث بتبليغ رسالة ملكية طويلة للناصر يوسف، وخلاصتها أن الملك لويس لا يستطيع الدخول معه في حلف ضد الأمراء المماليك في مصر، ولا أن يقبل وعداً بنزول الملك الناصر يوسف عن مدينة بيت المقدس للصليبيين إلا إذا تأكد من عزم سلطان المماليك "أيبك" وأمرائه على عدم احترام هدنة دمياط، وتأكد من عزمهم على عدم إطلاق سراح أسراه لديهم، المبعثرين بأنحاء البلاد المصرية، واختتمت هذه الرسالة بقول لويس: إنه على وشك إرسال سفارة إلى القاهرة بهذا الصدد لمعرفة موقف أيبك وأمرائه من هذا الموضوع، وإذا ثبت للسفارة أن الأمراء المماليك لا يستجيبون

---

[١] ابنأيبك:كنز الدرر، ج٨، ص١٦-١٧. المقريزي: السلوك، ج١، ص٤٦٨-٤٧٠. زكار: الموسوعة، ج٣، ص٤١٠. عاشور الأيوبيين والمماليك: ص١٨٧. طقوش: تاريخ المماليك، ص٥٤.

[٢] راجع: زكار: الموسوعة الشاملة: ج٣، ص٤٠٩-٤١٠. شبارو، عصام محمد: السلاطين في المشرق العربي– معالم دورهم السياسي والحضاري، دار النهضة، بيروت، ١٩٩٤م، ص١١.

[٣] جوانفيل: حياة لويس، عن الموسوعة، ج٣٦، ص١٦٤. شبارو: السلاطين، ص١١.

لهذه الرغبات فإن لويس لن يتردد في الدخول مع الملك الناصر يوسف في ذلك الحلف "الأيوبي- الصليبي" المطلوب، وبذلك يكون لويس قد ترك باب المفاوضات مفتوحاً مع أيوبيي بلاد الشام.[١]

وبالفعل تشجع لويس وقوي موقفه تجاه الأمراء المماليك، وأرسل لزعيمهم "أيبك" سفارة على رأسها يوحنا فالنسين Valenciennes "كونت حيفا"، وهو - بحسب موقع كونتيته- على اطلاع واسع بشدة الخلاف الأيوبي المملوكي، وأثناء اجتماعه بمندوبي سلطنة المماليك في قلعة الجبل بالقاهرة أبدى امتعاضه من عدم التزام المماليك بشروط الهدنة بين الجانبين، وإتلافهم الآلات الحربية والمؤونة الصليبية أثناء الجلاء الصليبي عن دمياط،[٢] ونوَّه لهم أنه إن لم يتم الإسراع في إطلاق سراح أسرى الفرنج الموجودين في القاهرة ؛ فإن لويس سيتحالف مع الأيوبيين في بلاد الشام. وبعد أخذٍ وردٍ وافق المماليك على إطلاق سراح الأسرى الفرنج الذين أسروا في معركة غزة عام ٦٤٢هـ/١٢٤٤م، بالإضافة إلى إطلاق سراح عدد كبير من الفرسان الصليبيين، وبدوره وافق الكونت يوحنا فالنسين -نيابة عن سيده لويس - على عقد محالفة مع سلطنة المماليك موجّه ضد الناصر يوسف الأيوبي، وأكد لهم عدم الدخول في المستقبل بأي مفاوضات صليبية أيوبية، وفي ١٩ رجب ٦٤٨هـ/ ١٧تشرين الأول ١٢٥٠م، وعادت السفارة الصليبية برئاسة حنا فالنسين إلى عكا بأعداد كبيرة من الأسرى بلغت حوالي ثمانمئة أسير على رأسهم مقدم الاسبتارية وليام شاتونيف،[٣] ولا شك أن الأسرى المحررين دخلوا في خدمة الملك لويس أو غيره من زعماء المملكة، وعلى العموم يمكن القول إن تحرير تلك الأعداد من الأسرى كانت عامل دعم وقوة جديدة لمملكة القدس اللاتينية الثانية.

ورغبة من المماليك في زيادة التقارب مع مملكة القدس اللاتينية أرسل زعيمهم ايبك للويس - مع الدفعة الثانية من الأسرى المحررين- هدية تضمّنت فيلاً وحماراً وحشياً، ولابدَّ أن ذلك التسابق من قِبل المسلمين لكسب ود لويس أشعره بقوة مركزه، وأعطاه فسحة من المساومة والمراوغة السياسية والدبلوماسية، وعمل كل ما بوسعه لاستغلال ما بين بلاد الشام ومصر من ضغينة وعداء، فأعاد سفارته - سالفة

---

[١] جوانفيل: حياة لويس، عن الموسوعة، ج٣٦، ص١٦٤-١٦٦، ١٧٢. زكار: الموسوعة: ج٣، ص٣٠٩. زيادة: حملة لويس، ص٢٤٦.

[٢] راجع جوانفيل: حياة لويس، عن الموسوعة، ج٣٦، ص١٥٠، ١٧٢. التاريخ الكبير، ج٣، عن الموسوعة، ج٤٨، ص١١٥١-١١٥٢. زكار: الموسوعة: ج٣، ص٤١٠.

[٣] راجع جوانفيل: حياة لويس، عن الموسوعة، ج٣٦، ص١٧٢-١٧٣. زكار: الموسوعة: ج٣، ص٤١٠.

الذكر- إلى القاهرة تطالب المماليك بإطلاق جميع ما تبقى من أسراه في مصر، ولاسيما الأطفال صغار السن، الذين ربما يضطرون إلى التخلي عن عقيدتهم، كما طالب بإعفائه من متأخر الفدية المستحقة عليه بموجب صلح دمياط، وهو نصف المبلغ الأصلي للفدية؛ أي إعفاؤه من مئة ألف قطعة ذهبية إمبراطورية متوّجة (مائتي ألف ليرة ذهبية فرنسية)، وذلك مقابل ما تم إتلافه سابقاً في دمياط من أثقال ومؤونة صليبية.[١]

وتردد أيبك في البداية أمام هذه المطالب إلا أنه وجد نفسه مضطراً إلى الاستجابة لها بعد أن علم أن رسولاً صليبياً يجيد العربية قد أرسله لويس إلى البلاط الدمشقي، وبعد ازدياد التوتر مع أيوبيي بلاد الشام واستمرار تهديدهم بغزو مصر أرسل أيبك من جديد في ٢٠ صفر ٦٥٠هـ /أوائل أيار ١٢٥٢م سفارة إلى لويس الذي كان آنذاك في مدينة قيسارية يشرف على ترميم قلاعها وحصونها أخبرته بموافقة أيبك على جميع مطالب لويس السابقة مقابل قيام تحالف بين مملكة القدس ودولة المماليك ضد الأيوبيين، وزاد أيبك بأن وعد لويس - في حال تمكن المماليك من السيطرة على فلسطين- بإعادة بيت المقدس للصليبيين، ومعها جميع الأراضي والبلاد التي كانت تابعة لهم قبل فتوحات صلاح الدين، ولم يكن هناك ما يدفع لويس إلى رفض ذلك العرض المغري، فوافق عليه بدون تردد، وأطلق المماليك سراح جميع الأسرى الصليبيين لديهم.[٢] وقد قبل المماليك بذلك مقابل وعد شفوي - غير مكتوب من قبل لويس - على ما تم الاتفاق عليه[٣].

وحاول الداوية إبعاد لويس عن التحالف مع مصر، ونصحوه بالاستمرار في السياسة التقليدية للصليبيين وهي التحالف مع دمشق، واعترضوا على قراره بالتحالف مع المماليك، إلا أن لويس أصرَّ على موقفه، وألزم الداوية بالانسحاب من الاتفاقية وقطع علاقاتهم مع دمشق.[٤]

وكان أن تقررت الخطة الحربية بين الصليبيين والمماليك بأن يزحف الصليبيون من ناحية قيسارية إلى يافا لاحتلالها، في حين يزحف المماليك إلى غزة، ويتم إلتقاء جيوش الحلفاء في ربيع الأول ٦٥٠هـ/

---

[١] راجع جوانفيل: حياة لويس، عن الموسوعة، ج٣٦، ص١٧٣-١٧٤. رنسيمان: تاريخ الحروب: ج٣، ص٤٧٦.

[٢] راجع جوانفيل: حياة لويس، عن الموسوعة، ج٣٦، ص١٧٤، ١٩٠. زيادة: حملة لويس، ص٢٥٠. رنسيمان: تاريخ الحروب:ج٣، ص٤٧٦.

[٣] حومد: تاريخ الجهاد، ج٢، ص٣٠٤. غروسيه، ج٣، ص٥٠٣.

[٤] جوانفيل: حياة لويس، عن الموسوعة، ج٣٦، ص١٨٨-١٨٩.

منتصف أيار ١٢٥٢م عند موضع مُتفق عليه بين يافا وغزة[١]، وبذلك يكون لويس قرر الخروج عن سياسة الحياد التي مايزال يتبعها تجاه الصراع الإسلامي الإسلامي، وما إن بدأ بتنفيذ خطته مع أيبك حتى أدرك من جديد خطأ قراره الأخير. إذ إن أخبار ذلك التحالف وصلت مسرعة إلى الناصر يوسف في دمشق، فأسرع بإرسال قوة عسكرية مؤلفة من أربعة آلاف رجل إلى تل العجول قرب غزة لمنع الاتصال بين جيشي التحالف -صليبيي مملكة القدس والمماليك في مصر - في محاولةً منه لإحباط ذلك الاتفاق[٢]، وبالفعل تمكنت هذه القوات من السيطرة على غزة، وتَوَجَّب على جَيْشَي التحالف تأجيل عملياتهما العسكرية، واستقر لويس مع جيشه منذ أيار ١٢٥٢م في يافا مدة سنة كاملة في انتظار الفرصة المناسبة وفي انتظار وصول حلفائه المماليك، إلا أن تغيُّر الظروف الدولية، وانشغال المماليك بمشاكلهم الداخلية وتدخل الخلافة العباسية بين الطرفين أمكن في صفر ٦٥١هـ/نيسان ١٢٥٣م من عقد صلح بينهما، اعترف الناصر - صراحة- بموجبه بالحكم المملوكي في القاهرة، وتنازل لهم عن غزة والقدس ونابلس والساحل كله؛ أي جنوب فلسطين بأكمله[٣]، وهكذا أدت وساطة الخليفة العباسي إلى فوات الفرصة على لويس التاسع، حيث إنه كاد أن يحصل على بيت المقدس عن طريق استغلاله لتوتر الأوضاع السياسية بين مسلمي بلاد الشام ومصر، ويمكن القول إن وساطة الخليفة لم تكن بسبب خوفه على القدس والخطر الصليبي بقدر ما كانت خوفاً على عاصمته بغداد من الخطر المغولي الذي أصبح قاب قوسين منه؛ لذلك رغب في إنهاء مشاكل مصر والشام وتوحيد القوى لدعمه ضد المغول.

والذي يهم هنا أن المماليك بسيطرتهم على جنوب فلسطين -بما في ذلك القدس- حققوا ما يرغبون، لذلك لم يعودوا بحاجة لاتفاق ايبك مع لويس الذي سلف ذكره، ويبدو أنه تم إغفاله وتجاهله، إذ

---

[١] جوانفيل: حياة لويس، عن الموسوعة، ج٣٦، ص١٩٠. زكار: الموسوعة: ٣، ص٤١٠-٤١١. العبادي، أحمد مختار: قيام دولة المماليك الأولى في مصر والشام، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٨٦م، ص١٢٧.

[٢] جوانفيل: حياة لويس، عن الموسوعة، ج٣٦، ص١٩٠-١٩١. المقريزي: السلوك، ج١، ص٤٧٥. عاشور: الحركة: ج٢، ص٣١٣. زكار: الموسوعة: ج٣، ص٤١١.

[٣] ابن أيبك: التحفة الملوكية: ص٣٨. المقريزي: السلوك، ج١، ص٤٧٧، ٤٧٩. زكار: الموسوعة: ٣، ص٤١١. جوانفيل: حياة لويس، عن الموسوعة، ج٣٦، ص١٩٠-١٩١. شبارو: السلاطين، ص١٢. طقوش: تاريخ المماليك، ص٧٥. العبادي: قيام دولة المماليك، ص١٢٧-١٢٨.

يذكر جوانفيل: "لم يعد منذ ذلك الوقت فصاعداً لا هدنة ولا سلام بيننا وبين أهل دمشق، أو بيننا وبين أهل القاهرة"[١].

وعلى الرغم مما يذكره جوانفيل إلا أنه يبدو أن أيبك استمر في التزامه بالوعود التي قطعها على نفسه تجاه لويس، فأعاد إليه وهو في يافا أعداداً من الأسرى الصليبيين على دفعات متتالية، بلغت في مجموعها الكلي ثلاثة آلاف أسير موزعين بين رجال ونساء وأطفال، وفي مقابل ذلك أطلق الفرنج سراح ثلاثمئة من الأسرى المسلمين لديهم، وكذلك نفَّذ أيبك وعده بشأن النزول عن النصف المؤجل من الفدية المقررة على لويس، وزاد على ذلك بأن أرسل إلى لويس التاسع بعض الهدايا تضمنت فيلاً وزرافة وتُحفاً أخرى مصنوعة من البلور، وبعض العطور وغيرها من الهدايا.[٢]

واستغلت عساكر بلاد الشام التهدئة مع مصر للإغارة على أملاك وقرى مملكة القدس في طريق عودتها من غزة إلى دمشق، ووصلت تلك العساكر إلى قرب عكا، وهددتها بتدمير المروج والمزارع المحيطة بها، إلا أن التحصينات والاستعدادات الكبيرة التي أقامها لويس التاسع في معظم مدن وقرى مملكة القدس اللاتينية، وما تميزت به آنذاك تلك المدن والقرى من القوة والمناعة أدت إلى إخفاق ذلك الهجوم الإسلامي، ولم تؤثِّر تلك الهجمات إلا في صيدا حيث اقتحموها في حزيران ١٢٥٣م باستثناء قلعتها، وبلغ عدد القتلى الصليبيين بها حوالي الألفين، ثم ارتحلوا عنها حاملين العديد من الغنائم والأسرى، وانتقم لويس لما حدث بأن وجّه حملة للإغارة على بانياس التابعة لدمشق، وتمكنوا من اقتحامها وقتل بعض أهلها، إلا أنهم اكتفوا بذلك ولم يحرزوا شيئاً من النجاح، وعادوا إلى صور ليعيدوا بناء أسوارها وتحصيناتها.[٣]

ويبدو أنه هدأت العلاقات بين الطرفين بعد تلك الحادثة، ولا تورد المصادر أي مناوشات ونزاعات أخرى على الجبهتين، لا؛ بل يوجد في تلك المصادر ما يشير إلى وجود علاقات واتصالات سلمية دبلوماسية، إذ يذكر جوانفيل أنه أثناء وجود لويس في يافا "بلغه أن سلطان دمشق سوف يرحب بذهابه إلى القدس، وسيمنحه أماناً مؤكداً، وعقد الملك مؤتمراً عاماً لتفحص المسألة، وبالنتيجة ما من واحد أشار

---

[١] جوانفيل: حياة لويس، عن الموسوعة، ج٣٦، ص١٩٧.

[٢] جوانفيل: حياة لويس، عن الموسوعة، ج٣٦، ص١٩١. التاريخ الكبير، عن الموسوعة، ج٤٩، ص١٣٤٨. رنسيمان: تاريخ الحروب، ج٣، ص٤٧٧. زيادة، حملة لويس، ص٢٥٢

[٣] جوانفيل: حياة لويس، عن الموسوعة، ج٣٦، ص١٩٩-٢٠١، ٢٠٧-٢٠٩. كندي: القلاع الصليبية، عن الموسوعة الشاملة، ج٥٢، ص١٨٢-١٨٨. رنسيمان: تاريخ الحروب : ٣، ص٤٧٨. الحايك: العلاقات الدولية، ج٢، ص١٨٢.

عليه بالذهاب"[١]. ويمكن القول إنه لو استجاب لويس لهذه الدعوة وقام بزيارة القدس وهي تحت سلطة دمشق كان يعني – بشكل أو بآخر- اعترافاً منه بالتنازل عنها، وربما كان هذا هو السبب الذي منعه عن زيارتها.

ويمكن القول إن لويس انشغل في هذه المرحلة -كونه غدا زعيماً للصليبيين وملكاً غير متوّج على مملكة القدس- بالخلافات والنزاعات الصليبية الصليبية، إذ إن صاحب أنطاكية بوهموند الخامس توفي في نهاية ٦٤٩هـ/ بداية عام ١٢٥٢م، وكان وريثه صغير السن، والوصية عليه ضعيفة الشخصية، فتوجب على لويس رعاية أمور تلك الإمارة، والعمل على تحسين علاقاتها المتردية مع أرمينيا.[٢]

وكذلك توفي في العام التالي لوفاة صاحب أنطاكية ملك قبرص "هنري Henry " الوصي على عرش مملكة القدس اللاتينية الثانية، ولم يتجاوز وريثه "هيو الثاني" من العمر بضعة شهور، وحدثت العديد من النزاعات والخلافات على الوصاية عليه وعلى عرش مملكة القدس كما سلف شرحها في الحديث عن وراثة عرش مملكة القدس.

وقبل هيو بقليل توفيت الملكة بلانش الوصية على عرش فرنسا "والدة لويس التاسع"، وذلك في رمضان ٦٥٠هـ/ تشرين الثاني ١٢٥٢م وأعقب وفاتها اضطرابات وقلاقل في فرنسا.[٣]

يبدو أن كل تلك الأحداث جعلت لويس يعمل جاهداً في سبيل توفير الهدوء والاستقرار لمملكة القدس في علاقتها مع جيرانها المسلمين، تمهيداً لعودته السريعة إلى فرنسا. وتزامن ذلك مع انشغال الأيوبيين في بلاد الشام في الصراع مع المماليك في مصر من جهة الغرب ومع المغول الذين اقترب خطرهم من جهة الشرق، وهذا ما جعل العلاقات تتسم بالهدوء والاستقرار – نوعاً ما- بين الأيوبيين ومملكة القدس اللاتينية الثانية، ومهدت لتوقيع معاهدة بينهما لمدة عشر سنين وستة أشهر وأربعين يوماً، ابتداءً من

---

[١] جوانفيل: حياة لويس، عن الموسوعة، ج٣٦، ص٢٠٢.

[٢] جوانفيل: حياة لويس، عن الموسوعة، ج٣٦، ص١٩٢.

[٣] جوانفيل: حياة لويس، عن الموسوعة، ج٣٦، ص٢١٧-٢١٨.وعن تفاصيل وفاتها والمتاعب التي واجهتها قبل أن تموت راجع: التاريخ الكبير، عن الموسوعة، ج٤٩، ص١٣٦٢-١٣٦٣.

٢٥ذي الحجة ٦٥١هـ/ ٢١ شباط ١٢٥٤م،[١] وبعد شهرين من توقيع تلك المعاهدة وبالتحديد في ٢٤نيسان ١٢٥٤م أبحر لويس من عكا عائداً إلى مملكته في فرنسا.[٢]

وعلى الرغم من مشاكله السياسية الكثيرة بها، وتدهور حالته الصحية سنة بعد أخرى إلا أنه لم يَنْسَ مملكة القدس اللاتينية الثانية، ولم يقنط من رحمة قيام حملة صليبية تحت قيادته، سواءً أكان ذلك في المستقبل القريب أم البعيد، واستمر لويس في إرسال المعونات المالية السنوية إلى مندوبه فيها "جودفري سارجينس" كي يصرفها على الكتيبة الفرنسية التي أبقاها وراؤه في عكا تنتظر عودته إليها بجموع صليبية كبيرة[٣]. وعلى الرغم من هدوء العلاقات بين الجانبين الإسلامي والصليبي في تلك المرحلة، إذ إن المماليك أيضاً عقدوا معاهدة في عام ٦٥٣هـ/ ١٢٥٥م مع صليبيي مملكة القدس على شاكلة المعاهدة بين الأخيرة ودمشق في العام المنصرم، إلا أن المماليك تعمّدوا في هذه المعاهدة استبعاد يافا لطمعهم بها ولرغبتهم في جعلها مركزاً لعملياتهم البرية والبحرية في منطقة فلسطين التابعة لهم، وتجددت في العام التالي الاشتباكات الخفيفة بينهما، واستولى جيفري سارجينس -نائب ومندوب لويس في المملكة- ويوحنا كونت يافا -الذي كان قد استلم بين عامي ٦٥٢-٦٥٤هـ/ ١٢٥٤-١٢٥٦م نيابة ملك قبرص في الوصاية على عرش مملكة القدس- كانا قد استوليا على قافلة ضخمة من الدواب للمماليك، مما أدى إلى توتر الأوضاع بينهما وحدوث بعض الاشتباكات في عام ١٢٥٦م، بالإضافة إلى المشاكل الداخلية لدى المماليك والنزاع على الحكم مما أدى إلى تصالحهم مع الأيوبيين، وتنازلهم عن فلسطين كلها لصالحهم، بناءً على وساطة الخليفة -كما سيأتي شرحه- ودون شك أن ذلك الصلح واستقرار الأوضاع بين مصر والشام لم تكن في صالح مملكة القدس اللاتينية الثانية، مما دفعها في عام ٦٥٤هـ/١٢٥٦م إلى تجديد الهدنة مع الأيوبيين والمماليك كل على حدة، ولمدة عشر سنوات، وتم إدخال منطقة يافا في تلك الهدنة[٤]. ولا يستبعد أن يكون الأيوبيون والمماليك قبلوا بتلك الهدنة مع مملكة القدس بإيحاء من الخليفة العباسي، ولرغبة الجميع في التفرغ للخطر المغولي.

---

[١] المقريزي: السلوك، ج١، ص٤٨٥. ويرد عند رنسيمان: تاريخ الحروب، ج٣، ص٤٨٣، ٤٨٥، أن مدة المعاهدة "سنتين ونصف وأربعين يوماً".

[٢] جوانفيل: حياة لويس، عن الموسوعة، ج٣٦، ص٢٢٢.

[٣] زيادة: حملة لويس، ص٢٥٨-٢٥٩.

[٤] متى باريس: التاريخ الكبير، عن الموسوعة، ج٤٩، ص١٥٤١. رنسيمان: تاريخ الحروب، ج٣، ص٤٨٥-٤٨٦.

ولم تكن مملكة القدس أفضل حالاً؛ إذ إن تلك الهدنة كانت سبباً في تفرّغ عناصرها لتصفية نزاعاتهم السياسية والاقتصادية فيما بينهم، وكان على رأس تلك النزاعات حرب القديس سابا Sabas الشهيرة[١] التي لم تنتهِ إلا بسقوط مملكة القدس على يد سلطان المماليك الأشرف خليل بن قلاوون عام ٦٩٠هـ/ ١٢٩١م [٢].

## ب- انهيار سلطة الأيوبيين

في الحقيقة لم ينتهِ نزاع الأيوبيين مع المماليك إلا بنهايتهم وانهيارهم كلياً على يد المغول، ومن ثم على يد المماليك في عام ٦٥٨هـ/١٢٦٠م، ففي سنة ٦٥٢هـ/١٢٥٤م حدث انشقاق داخل الصف المملوكي[٣]، وانضم المماليك البحرية إلى الناصر يوسف، مما زاد في موقفه قوة، وحرّضوه على الخروج إلى مصر، فبدأ يعد العدة لذلك، لكن تدخل الخليفة من جديد أدى إلى تجديد الصلح في سنة ٦٥٤هـ/١٢٥٦م، وبموجبه فرض المماليك سيطرتهم على كل ما كان للصالح نجم الدين أيوب في ساحل الشام بالإضافة إلى مصر[٤].

ولم يعترف المماليك البحرية - بزعامة بيبرس البندقداري- بهذا الصلح، وساءت علاقاتهم مع الناصر يوسف، وانضموا إلى صاحب الكرك المغيث عمر الأيوبي، وحرَّضوه على غزو مصر - ملك آبائه

---

[١] عن تلك الحرب راجع : أعمال القبارصة، ص٢٨ ومايليها. كذلك فن الحرب وشؤونه، عن الموسوعة، ج٥٢، ص٦٠-٦١.

[٢] عن تحرير عكا وما يلحق بها، أنظر: اليونيني: ذيل مرآة الزمان: تح: فراس عبد الرحمن، ص٢٦٠-٢٧٢، ٢٩٥-٣٠٦. ابن أيبك: التحفة المملوكية: ص١٢٦-١٢٧. ابن تغري بردي: النجوم، ج٨، ص٥-٦. ابن أبي حجلة، أحمد بن يحيى التلمساني، ت ٧٧٦هـ: سكردان السلطان، تح: علي محمد عمر، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط١، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠١م، ص٥٦.الفارس الداوي: أعمال القبارصة: ص١٣٣-١٥١. زكار: الموسوعة: ج٣، ص٤٤٦. سرور، محمد جمال الدين: دولة بني قلاوون في مصر، دار الفكر العربي- مصر، ص٢٤١-٢٤٣.

[٣] كان السبب المباشر لهذا الانشقاق هو قتل زعيم المماليك البحرية "فارس الدين أقطاي" سنة ٦٥٢هـ/ ١٢٥٤م بأمر من عز الدين ايبك، حيث إن أقطاي كان يمنعه من الاستقلال بالسلطنة. للمزيد أنظر:

أبو الفداء: المختصر، ج٣، ص١٩٠. الروض الزاهر: ص٥١-٥٤. المقريزي: السلوك، ج١، ص٣٨٣-٤٨٤. أبو سعيد: الجبهة الإسلامية، ص١٧-١٩. طقوش: تاريخ المماليك، ص٤٨-٤٩.

[٤] المقريزي: السلوك، ج١، ص٤٨٤-٤٨٩.

وأجداده- ووافقهم عل ذلك، فاستغلوا وفاة سلطان المماليك عز الدين أيبك وتولي محله ابنه الصغير المنصور علي، وزحفوا مرتين إلى الحدود المصرية سنة ٦٥٥هـ/١٢٥٧م وسنة ٦٥٦هـ/١٢٥٨م، ولكن النتيجة كانت الإخفاق بفضل نائب السلطنة في مصر الأمير سيف الدين قطز المعزي[١].

ومع وصول الخطر المغولي إلى داخل بلاد الشام من جهة الشرق، واستمرار خطر مملكة القدس اللاتينية الثانية من جهة الغرب بدا واضحاً أن الانهيار الأيوبي صائر إلى زوال، والصعود المملوكي لحكم المنطقة متوقف على مدى نجاحهم في التصدي لهذا الخطر الداهم.

وعلى الرغم من وصف اليونيني للناصر صلاح الدين يوسف بأنه "كامل الأوصاف، جميل العشرة، طيب المحادثة والمفاكهة، قريباً من الرعية، يؤثر العدل ويكره الظلم"[٢] إلا أنه لم يكن رجل الساعة المطلوب لِلَمِّ شمل مصر والشام وتوحيدهما، على الرغم من تجاوب قطز - الذي أصبح سلطاناً في القاهرة- معه إلى حدٍ كبير لتوحيد الصفوف أمام المغول، وأعلن استعداده للتنازل له عن الحكم في مصر[٣].

ومهما يكن من أمر فإن المغول انتهوا من أمر العراق وأسقطوا الخلافة العباسية في بغداد سنة ٦٥٦هـ/ ١٢٥٨م، وبدأوا بالزحف فعلياً على بلاد الشام، واكتسحوا الجزيرة الفراتية، واستولوا على حلب في صفر سنة ٦٥٨هـ/كانون الثاني ١٢٦٠م، دون أن يحرك الناصر ساكناً، وتجمعت له قوة كبيرة في دمشق، ومع ذلك فرّ من أمام المغول إلى غزة، تاركاً دمشق لوزيره الذي قام بتسليمها للمغول في ربيع الأول ٦٥٨هـ/ آذار ١٢٦٠م، والذي قاوم بها هو قلعتها فقط، ولكن دون جدوى، وحَذَت بعض المدن حذو دمشق في التسليم.

---

[١] اليونيني: ذيل مرآة الزمان: كرنكوي: ج٢، ص٢٩٩. التحفة الملوكية،ص٣٩-٤٠. المقريزي: السلوك، ج١، ص٤٨٩، ٥٠٠. زكار، سهيل وبيطار، أمينة: تاريخ الدولة العربية في المشرق، جامعة دمشق، ط٧، ٢٠٠٦-٢٠٠٧، ص٢٦٥-٢٦٦. عودات: تاريخ المغول، ص٨٤. طقوش: تاريخ المماليك، ص٥٩-٦٠.

[٢] اليونيني: ذيل مرآة الزمان: كرنكوي: ج٢، ص١٤٠.

[٣] يذكر المقريزي بأنّ قطز كتب إلى الناصر بأنه "لا ينازعه في الملك ولا يقاومه، وأنه نائب عنه بديار مصر، ومتى حلَّ بها أقعده على الكرسي، وقال فيه أيضاً: وإن اخترتني خدَمْتُك، وإن اخترتَ قدِمتُ ومن معي من العسكر نجدة لك على القادم عليك، فإن كنت لا تأمن حضوري سيَّرت إليك العساكر صحبة من تختاره". انظر: المقريزي: السلوك، ج١، ص٥٠٨.

ولم تطل مدة بقاء الناصر في غزة، إذ تخلت عنه عساكره وذهب معظمها إلى مصر، وألقى المغول القبض عليه، وحُمل إلى هولاكو الذي أكرمه أشد الإكرام، ووعده بإعادة مُلك آبائه إليه، وهو يُعد العدة للزحف على مصر، وحمل هذا الوعد بريقاً من الأمل لدى الناصر بعودة المجد الأيوبي، وسيطرة الأيوبيين على مماليكهم الثائرين عليهم في مصر.

ولكن شيئاً من ذلك لم يكن، إذ إن الناصر قُتل على يد المغول عندما حقق المماليك نصراً عظيماً عليهم في معركة عين جالوت ٦٥٨هـ/١٢٦٠م، إذ إن خبر المعركة وصل إلى هولاكو وهو في طريقه إلى العراق ومعه الناصر صلاح الدين يوسف، فاستشاط غضباً، وقال للناصر: "أنت غررتنا بما صغَّرت من أمر القوم عندنا"، ثم أمر به فقُتِل صبراً[١].

وأما بالنسبة إلى الجيش المملوكي بقيادة قطز، فقد قام بحركة تطهير سريعة لبلاد الشام، فاستردَّ دمشق، وكلف الأمير ركن الدين بيبرس بمطاردة التتار حتى حلب، وسمح لبعض أمراء بني أيوب – ممن تعاون معه- بالعودة إلى ولاياتهم – ولاسيما أميري حمص وحماة، ولكن مع الاعتراف بالتبعية لسلطنة المماليك في مصر، والتعهد بدفع الجزية للسلطان قطز، والدعاء له على المنابر، واستمر حكم الأيوبيين في حمص حتى وفاة صاحبها الأشرف موسى سنة ٦٦١هـ/، وحماة حتى وفاة صاحبها أبي الفداء إسماعيل الأيوبي عام ٧٣٢هـ/ [٢].

وقام قطز بضرب عنق أمير بانياس – الملك السعيد حسن الأيوبي- الذي استمر في تحالفه مع المغول وقاتل إلى جانبهم ضد المسلمين[٣]، والإمارة الأيوبية التي بقيت مستعصية على المماليك هي الكرك، التي ما فتئ صاحبها – المغيث عمر- يطالب بحقوق الأيوبيين المشروعة في مصر وحق العودة إليها، وما إن تفرغ لها بيبرس – الذي أصبح سلطاناً للمماليك بعد قطز- حتى بادرها بالهجوم، واستولى على قلعة

---

[١] وكانت حادثة قتله بجبال سَلَماسُ، وسلماس مدينة تقع آخر حدود أذربيجان من جهة الغرب. (المهلبي، الحسن بن أحمد: الكتاب العزيزي أو المسالك والممالك، تح: تيسير خلف، دار التكوين، ط١، ٢٠٠٦م، ص١٤٢). وقُتِل معه أخوه الظاهر غازي والملك الصالح بن شيركوه، وعدد من أولاد الملوك، ونجا — فقط- ابنه العزيز بسبب شفاعة طقز زوجة هولاكو.ابن أيبك:التحفة الملوكية: ص٤٤. اليونيني: ذيل مرآة الزمان: كرنكوي:ص١، ص٤٦٤. ابن العبري، غريغوريوس، ٦٨٥هـ: تاريخ مختصر الدول، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، ١٩٥٨م، ص٢٨٠. المقريزي: السلوك، ج١، ص٥١٩.

[٢] النويري: نهاية الأرب:ج٢٩، ص٤٧٦- ٤٧٧. سوسن نصر: بنو أيوب، ص٨٨. الحايك: مملكة حمص، ص٢١٠-٢١١.

[٣] عاشور: الأيوبيين والمماليك: ص١٩٩. طقوش، محمد سهيل: تاريخ المماليك في مصر وبلاد الشام، دار النفائس، بيروت، ط١، ١٩٩٧م، ص٨٠.

الشوبك في سنة ٦٥٩هـ/١٢٦١م، "ثم شرع يتدبر أمور الكرك – وكانت من أمنع القلاع في بلاد الشام– فتمكن ببراعة مطلقة من الاستيلاء عليها في أواخر سنة ٦٦١هـ/١٢٦٣م"[١]، وتمّ قتل صاحبها المغيث عمر خنقاً بإيعاز من الظاهر بيبرس[٢]. وبذلك وصلت سلطة الأيوبيين إلى نقطة الصفر، وصعد محلهم رقيقهم المماليك كقوة أساسية في الشرق الأدنى.

ومع أن الأستاذ الدكتور سهيل زكار يرى أنه "لا يمكننا أن نتحدث عن وجود سياسة خارجية مرسومة لدى المماليك، بل كان هناك ردات فعل تجاه الوقائع والأحداث، ثم أن المماليك لم يعرفوا الحكم المستقر، ولم تتوفر لديهم البيروقراطية المستقرة، بل كان هناك انقلابات مستمرة وحركات عصيان متواصلة ومؤامرات دائمة"[٣].

إلا أن المماليك يبدو أنهم أدركوا أن انتصارهم على الصليبيين في معركة المنصورة ٦٤٨هـ/١٢٥٠م هو من أهم الأسباب التي جعلتهم يترقَّون إلى أسياد، وربما أنهم أدركوا تماماً بأن ترسيخ سيادتهم في مصر والشام متوقف على مدى نجاحهم في التصدي للأخطار الخارجية (الصليبيين والمغول).

لِمَ لا !؟ فإنهم بنجاحهم هذا سوف يترقَّون من عبيد إلى أسياد، وذلك لا يقارن بشيء، ولا يغلوا عليه شيء، بما في ذلك الروح، فتفانوا في جهودهم تلك، وبلغت الدولة المملوكية المتصاعدة درجة من القوة هابها أعظم قوتين في المنطقة هما الصليبيون والمغول.

---

[١] زكار: الموسوعة الشاملة، ج٣، ص٤٢١.

[٢] اليونيني: ذيل مرآة الزمان: كرنكوي: ج٢، ص٣٠٠. زكار وبيطار: تاريخ الدولة، ص٢٦٨.

[٣] زكار: الموسوعة الشاملة، ج٣، ص٤١١.

# خـاتمـة

كشفت دراسة العلاقات بين الأيوبيين ومملكة القدس اللاتينية الثانية عن أهمية الأوضاع الداخلية لكلا الطرفين في تحديد نوع تلك العلاقات، فعندما كانت تضطرب الأوضاع الداخلية لإحداهما كانت تضطر لأن توافق على إملاءات الطرف الآخر وتخضع لها، والعكس صحيح. والمثال على ذلك الانتصار الكبير الذي حققه الأيوبيون على الصليبيين في الحملة الصليبية الخامسة عام ٦١٨هـ/ ١٢٢١م، بسبب وحدتهم وتجمعهم وتكاتفهم، وأعقب ذلك هزيمة كبيرة للأيوبيين أدت إلى خروج القدس عن سيطرتهم بعد أقل من عقد، وذلك بسبب تفرقهم والنزاعات بينهم.

وأوضحت دراسة العلاقات الأيوبية الصليبية عن وجود اتجاهين متناقضين من حيث الأخلاق واحترام القيم الحضارية والانسانية، فالصليبيون استمروا في مملكتهم الثانية بأعمال الإرهاب والقتل وسفك الدماء، ويلاحظ عدم تمييزهم بين المدني والعسكري، فكل من هو عربي أو مسلم عدو لهم بغض النظر عن صفته أو مهنته. أما العرب- المسلمون فعلى الرغم من مشروعية جهادهم ضد الصليبيين بهدف الدفاع عن النفس والأرض والعرض إلا أنهم كانوا - أثناء تعاملهم مع الصليبيين- شديدي الحرص على عدم سفك الدماء ومراعاة كل أخلاق الحرب، وتقدم صلاح الدين كثيراً في هذا الجانب، وبلغ تسامحه وحلمه مع عدوه درجةً أبهرت الصليبيين أنفسهم، وما زالت أخباره وعظمته تصدح في أوربا حتى الوقت الراهن. وهنا يمكن القول إنه لا يمكن لأي باحث في تاريخ الحروب الصليبية أن يتجاهل الروح والأخلاق السمحة التي تجلى بها صلاح الدين خلال تلك الحروب، ولا أدل على ذلك من قبوله—ولو نظرياً- بفكرة زواج أخيه العادل من جوانا أخت ريتشارد قلب الأسد، وذلك على الرغم من الإجرام والرعب والهمجية آنذاك التي تغنى به الأخير بشكل خاص والصليبيين بشكل عام.

وهنا يخطر للباحث مفارقة مهمة وخطيرة، وهي أن تاريخ المملكتين الصليبيتين (الأولى والثانية) بدأ بارتكاب الصليبيين إبادة جماعية ووحشية للسكان الأصليين في عاصمتي المملكتين (القدس وعكا). وهنا لا بد من ملاحظة أن تأسيس المملكتين تم على أيدي الوافدين الجدد (البحريين)، وهذا شيء طبيعي في المملكة الأولى، ولكن يُستنكر ذلك في الثانية، ومسوغ ذلك أنه في حطين تم تدمير حزب

المحليين البلديين الذين كان يمثلهم آنذاك ريموند الثالث، وبذلك تفوق عليهم حزب الوافدين البحريين (البوليفان) بزعامة الملك غي.

ويلاحظ أن جميع العناصر التي شاركت وكان لها دور حاسم في تأسيس مملكة القدس اللاتينية الثانية كانت عناصر بحرية، ووافدة حديثاً إلى المنطقة، كغي، وكونراد، وريتشارد، وعموم الحملة الثالثة، ولويس التاسع في حملته على المنطقة أيضاً كان بحرياً وافداً.

ومما تميزت به مملكة القدس الثانية عن الأولى دخول قبرص ميدان الحروب الصليبية

ومن الملاحظات والنتائج التي توصل إليها البحث:

إن حصار عكا من قبل الفرنج الذي قارب سنوات ثلاث، وتصدى له المسلمون بكل ما أوتوه من صبر وقوة وكثرة الحشود التي حشدها الطرفان للدفاع عن عكا يُبرز بشكل أو بآخر أهمية عكا دولياً آنذاك، ويسوغ اهتمام الفرنج بها في عصر مملكتهم الأولى، حيث إنهم اجتهدوا آنذاك في ترتيبها ادارياً ودينياً وقضائياً وعسكرياً وسياسياً، وذلك هو أهم مسوغات اتخاذها عاصمة لمملكتهم الجديدة. ساهم هذا بشكل أو بآخر في أن تكون سلطة الدولة فيها مقيدة، وذلك بسبب التنافس والصراع بين عدة جهات وعدة أحزاب، كان أهمها بين تجار المدن الإيطالية الذين أخذوا يسعون جاهدين إلى تمكين نفوذهم وسلطتهم بها، ويمكن القول إن الصراع والتنافس بين الإنكليز والفرنسيين كان السبب الأهم في اخفاق الحملة الصليبية الثالثة في استرداد مدينة القدس على الرغم من مهاجمتها وحصارها غير مرة، وعلى الرغم من تفوق الجيش الصليبي على المسلمين آنذاك، ولكن يبدو أن ريتشارد قلب الأسد فضل آنذاك بقاءها بيد المسلمين على ألا تخضع لسلطة الفرنسيين بعد رحيله الوشيك عن مملكة القدس اللاتينية الثانية، فأمر بفك الحصار والانسحاب عنها، وربما يفسر ذلك رغبة ريتشارد الشديدة في توقيع صلح الرملة عام ٥٨٨هـ/ ١١٩٢م قبل سفره إلى أوربا؛ لضمان استمرار الوضع على حاله وعدم سقوط القدس بيد الفرنسيين بعد رحيله.

وصادف الجانبان (العربي – الإسلامي من جهة والصليبي من جهة أخرى) في القرن الثاني من الحروب الصليبية أحداث وصعوبات كبيرة كانت كفيلة بعدم تطاول أحد الطرفين على الآخر أو قضائه عليه، فلولا سوء أوضاع الأيوبيين ونشوء عدة صراعات وحروب بينهم ومن ثم انهيار دولتهم أمام

المماليك لما طال عمر الحروب الصليبية قرناً آخر من الزمن، ولربما انتهت هذه الحروب مع حطين. وكذلك على الجانب الصليبي فلولا أن مملكة القدس اللاتينية الثانية عانت الكثير من سوء التنظيم والادارة، ولولا افتقارها للقيادة الحكيمة المستقرة من جراء غياب الملوك الشرعيين عنها، ولولا الصراع الكبير على العرش بين الأوصياء؛ لتمكنت من قلب الوضع في بلاد الشام لصالحها، ولربما سيطرت على قسم كبير منه وتفوقت على سالفتها المملكة الأولى، كما كان بإمكان هذه المملكة تقويض سلطة العرب- المسلمين وتطويقهم من خلال الاتفاق مع القوة الوثنية الناشئة المعلنة العداء للإسلام والمسلمين، وهم "المغول"، إلا أن شيئاً من ذلك لم يكن.

ويمكن القول إنه مع الاتفاقيات والمعاهدات الكثيرة الموقعة بين الجانب الإسلامي والصليبي فإن الحروب والمناوشات لم تتوقف تماماً بين الجانبين خلال القرن الثاني من الحروب الصليبية، ولم تكن تلك الهدن والاتفاقيات سوى فرص لالتقاط الأنفاس والاستعداد لمهاجمة الطرف الآخر واسترداد الحقوق المزعومة كلٌ على هواه. كما أن تلك المناوشات لم تَحل دون تقارب وجهات النظر والاتصالات السلمية بين الجانبين وظهور الرغبة الشديدة في التعايش السلمي.

إن سير المفاوضات بين الجانبين الاسلامي والصليبي قبل وبعد مقتل كونراد، تؤكد ما تم تقريره في الفصل الرابع في مبحث العلاقات العسكرية بأن ريتشارد هو من خطط ونفذ ومَوَّلَ عملية القتل تلك، والنتائج هي من تؤكد ذلك، فقد فوَّت بعمله هذا على صلاح الدين فرصة توقيع صلح كبير مع كونراد، كما أفقده أوراق ضغط تفاوضية كبيرة، وأصبح الموقف التفاوضي والوضع العسكري يميل لصالح ريتشارد، فالمشاكل هدأت في عكا، والفرنسيون قبلوا بالعودة إلى المعسكر الصليبي، والحاكم الجديد لمملكة القدس اللاتينية الثانية هنري دي شامبين الذي تم اختياره خلفاً لكونراد أعلن صراحةً استعداده للعمل تحت لواء خاله ريتشارد.

وبعد صلح الرملة طلب ريتشارد من صلاح الدين عدم السماح لعموم الحجاج الأوربيين بزيارة الأماكن المقدسة في فلسطين، إلّا بإشارة أو موافقة منه، إلا أن الأخير اعتذر عن ذلك، وزاد بأن بالغ في إكرام هؤلاء الحجاج واحترامهم، وأياً كانت مسوغات هذا العمل، إلا أنه تظهر هنا الأهمية والخطورة الكبيرة لموقف صلاح الدين تجاه الحجاج، وتظهر الحنكة السياسية والدبلوماسية والنظرة الإنسانية؛ إذ

يبدو أنه أراد بموقفه هذا أن يثبت للعالم المسيحي أنه لا توجد أي خطورة أو أي مشكلة على الطقوس والمقدسات المسيحية في حال وقوع أي منها بيد المسلمين.

لقد مثَّلت المفاوضات السياسية بين صلاح الدين الأيوبي وريتشارد قلب الأسد سجالاً دبلوماسياً سياسياً وعسكرياً من الطراز الرفيع، وأبرز كلاهما شدة التمسك بالأرض وعدم التنازل عن أي جزء منها على الرغم من الصعوبات التي كان يعاني منها كل طرف، وفي النهاية وقَّع صلاح الدين مع الفرنج الصليبيين صلح الرملة عام ٥٨٨/ ١١٩٢م لأسباب عدة تقدمت دراستها، فكان هذا الصلح فاتحة وحجة ومرجعاً لصلح ومعاهدات واتفاقيات عدة أتت بعده، وقعها زعماء الأسرة الأيوبية من بعد صلاح الدين مع مملكة القدس اللاتينية الثانية، إلا أن ما ميَّز هذا الصلح عن سواه أنه كان صلحاً كاملاً شاملاً لكل الأطراف في الجانبين، في حين أن ما تلاه من اتفاقيات ومعاهدات كانت جزئية منفردة، أي اتفاق كل منطقة من مناطق المسلمين مع منطقة أخرى من مناطق الفرنج دون أن يشمل ذلك الاتفاق بقية المناطق في الجانبين. ويمكن القول إن العلاقات السلمية بين الطرفين- الأيوبي والصليبي- ذهبت بعيداً بعد صلاح الدين، ووصلت درجة عالية ورفيعة من الاحترام والمحبة المتبادلة بين قائد الحملة الصليبية السادسة الإمبراطور الألماني فردريك الثاني ومن عاصره من الزعماء الأيوبيين، حيث استقبل كل منهما سفارات الآخر بترحيب زائد وصدر رحب، وأظهر فردريك الثاني اعتزازه وفخره بتلك العلاقات التي تعدَّت الجانب السياسي والعسكري إلى الجانب الحضاري والعلمي.

إن تنازل الكامل الأيوبي عن القدس لفردريك الثاني كان سبباً كبيراً في انتصار سياسات فردريك على البابوية، فذاع صيته بين أوساط الشعوب الأوربية كمحرر للضريح المقدس، وبالتالي كان ذلك صفعة كبيرة للإيمان الشعبي الأوربي بالبابوية والتسليم لها، وأدى ذلك إلى تنبيه كثير من الفرسان والنبلاء الأوربيين على استغلال البابوية لهم تحت ستار الدين، ومن ثم بدأت النداءات والاعتراضات والانتقادات تعلو على البابوية وعلى حملاتها الدعائية للحروب الصليبية، وشيئاً فشيئاً أخذت تعلو في الأوساط الأوربية أصوات المعارضة للحملات الصليبية، ولهذا بدأت أوربا تعيد النظر بشرعية تلك الحملات ومسوغاتها، فكان القديس لويس التاسع ملك فرنسا آخر زعماء أوربا المتحمسين لتلك الحروب، ولكن يمكن القول إن البابوية استمرت طيلة هذه المدة ترعى الحروب الصليبية، وإن كان ذلك نظرياً أكثر منه فعلياً.

إن عرض الكامل للصلح على الصليبيين أثناء الحملة الخامسة في عام ٦١٦هـ/ ١٢١٩م وتنازع الأخيرين إثر ذلك، فيه دلالة واضحة على تغلُّب المصالح الشخصية الفرنجية الصليبية على الأهداف والمصالح الدينية التي نادت بها الحملات الصليبية، فانقسام الصليبيين على أنفسهم تجاه عروض الكامل لا يمكن تفسيرها إلا في ضوء المصالح الشخصية الضيقة، إذ إن الملك جان دي بريين كان آنذاك ملكاً لمملكة القدس اللاتينية الثانية بدون منازع وإن كان ذلك بشكل مؤقت، ومن هنا فإن عودة المملكة لمجدها القديم وسيطرتها على القدس وما حولها سيُعلي من شأنه كونه ملكاً عليها، وسيزيد ذلك في شعبيته ويعلي مكانته ويقوي عرشه، وربما كان يرنو إلى أكثر من ذلك، وهو أن يتناسى الصليبيون بأنه وصيٌّ في عكا فيعينوه ملكاً شرعياً عليهم في القدس- في حال تمت السيطرة عليها-. أما موقف بيلاجيوس، فيمكن تفسيره بأنه كشخص لم يكن له أي صفة في الشرق اللاتيني سِوى أنه مندوب ونائب عن البابا في قيادة الحملة الخامسة، وفي حال قبول الصليبيين بعروض الكامل ستنتهي الحملة الخامسة، ومعها ينتهي دور بيلاجيوس في الشرق؛ لذلك عارض بشدة عروض الكامل، وأصر على الاستمرار في الحرب. واللافت للنظر أن يكون بطريرك بيت المقدس مؤيداً له في هذا الاتجاه، مما يدعم فرضية تغلب المصالح الشخصية على الأهداف والمصالح الدينية السامية. وربما يمكن القول إنه منذ الحملة الأولى تضاربت مصالح رجال الكهنوت مع مصالح النبلاء والقادة السياسيين والعسكريين

وهذه المصالح الشخصية الضيقة عانت منها مملكة القدس اللاتينية الثانية منذ تأسيسها، وربما الأصح من ذلك القول إن تلك المصالح برزت عقب سقوط المملكة الأولى، وكان ذلك بشكل واضح بين كونراد مونتفرات الذي مثَّل التوجه الفرنسي وغي لوزجنان الذي مثَّل التوجه الانكليزي، ولم يقف كونراد في صراعه عند غي بل تعداه إلى مواجهة كل من يقف أمام طموحاته الشخصية، فاصطدم مع البيازنة ثم مع ريتشارد قلب الأسد.

وفي سياق المصالح الشخصية يمكن إدراج قضية الأوضاع المالية السيئة لكثير من حكام تلك المملكة، لهذا اضطر هؤلاء إلى منح امتيازات عدة للجمهوريات الإيطالية التجارية، وهذه الامتيازات أدت بدورها إلى تصاعد المصالح الشخصية الضيقة، وهي الصفة التي طالما لازمت التجار، وفي السياق نفسه، فإن الأزمات المالية ألقت بثقلها على البارونات أصحاب القلاع الذين لم يعد لديهم إمكانات الإنفاق، فاضطر هؤلاء البارونات إلى بيع قلاعهم للاسبتارية والداوية، فأصبحت الأخيرة هي المتملك الأكبر

ويليها الاسبتارية للقلاع في سورية، ولهما سياساتهما الخاصة، وبرز ذلك بشكل خاص عند تحالفهم مع الأيوبيين، لدرجة أن الداوية أصبحت مركزاً مالياً كبيراً بين عكا وقبرص وأوربا، ولا سيما فرنسا.

وربما يصح القول إن سقوط عكا عام ١٢٩١م دفع إلى نشاط الداوية والاسبتارية والتيوتون في أوربا في كثير من الجوانب، فإلى الداوية ستنسب الماسونية العالمية، والاسبتارية مازالت موجودة، ولكن ذهبت إلى رودس ثم إلى مالطا، ولعل الأخطر هو ما قامت به منظمة التيوتون في ألمانيا، فألمانيا التي صار قلبها بروسيا صُنعت من قبل التيوتون.

وعن استمرار الاهتمام الأوربي في الحروب الصليبية يمكن ملاحظة ظهور دراسات أوربية في مطلع القرن الرابع عشر لتناول الحروب الصليبية وضرورة الاستمرار فيها، بالمقابل يلاحظ عدم ظهور أي دراسات من قبل المؤرخين العرب والمسلمين حول تلك الحروب، ومن المناسب هنا توجيه دعوة إلى إعادة بحث هذه الإشكالية في بحث مستقل متفرغ لها، وعلى العموم يمكن تسويغ عدم ظهور مثل تلك الدراسات بأن المسلمين منذ البداية لم يتفرغ أحد منهم إلى دراسة مسألة الحروب الصليبية، ومَن هم الفرنجة وغيرهم؟ ولماذا جاؤوا؟ ويمكن أن يُضاف، إلى ذلك انشغال المسلمين في المشرق بالتصدي للخطر المغولي، وانشغال أهل المغرب الكبير في التمزقات الداخلية وحروب الاسترداد في الأندلس، ومحاولة الإسبان مد تيار حروب الاسترداد -تبشيرياً وعسكرياً- إلى المغرب.

وفي العودة إلى علاقة الكامل مع الإمبراطور فردريك يمكن القول إن الكامل بعد وفاة أخيه المعظم قد تراجع عن علاقاته الودية مع فردريك، وقيل إنه ندم على استدعائه إلى المنطقة، ودليل ذلك أن الكامل سيطر على القدس عقب وفاة أخيه المعظم، ثم تنازل عنها لفردريك. وهنا يمكن تقرير أن الكامل لو أنه كان يعلم في قرارة نفسه أنه سيتنازل عن القدس لفردريك لما أقدم على السيطرة عليها منذ البداية، ولما تحمَّل فيما بعد شتيمة ولوم ومذمة الناس له لتسليمها لفردريك على طبق من ذهب، ويبدو أن الكامل عمل خلال المفاوضات التي أعقبت وفاة أخيه المعظم على إقناع فردريك بعقد صلح لا يتضمن تسليم بيت المقدس وغيرها من المناطق التي سلفت الإشارة إليها في الفصل الخامس من هذه الأطروحة، إلا أن إصرار فردريك ودبلوماسيته الشديدة أدى إلى عدم تنفيذ رغبة الكامل الذي انساق وراء رغبات فردريك.

وفي قضية تعطيل الأذان الذي أمر به الكامل أثناء زيارة فردريك القدس في آذار ١٢٢٩م، فإن المصادر العربية- الإسلامية تصمت عن ذلك الخبر، في حين أن المراجع بالغت وهوَّلت حجم القضية أكثر مما تستحق، ومع اقرار البحث بأهمية تلك القضية وحساسيتها وسوء تصرف الكامل بها إلا أن ما يمكن تقريره هنا هو أن مقدمات الأذان (التوحيد) هي التي تم تعطيلها، وليس الأذان عينه كما روجت لذلك بعض الكتابات المعاصرة.

إن النهاية التي انتهت إليها الحملة السابعة تُذَكِّر تماماً بالنهاية التي آلت إليها الحملة الخامسة، فلو رضي كل من قادة هاتين الحملتين باللجوء إلى السياسة والدبلوماسية التي اتبعها فردريك الثاني خلال الحملة السادسة لحققوا إنجازاً عظيماً في الحملتين يفوق بكثير ما حققه فردريك. ويمكن القول إن الهزيمة الكبيرة والخسائر العظيمة التي تكبدها الصليبيون أثناء الحملة السابعة مثَّلت دليلاً قاطعاً على عدم جدوى النشاط الصليبي في الشرق الإسلامي، ومثَّلت دليلاً صارخاً على قرب نهاية ذلك النشاط وفتوره، وكانت إيذاناً لمملكة القدس اللاتينية الثانية ببدء أفول نجمها وصيرورتها إلى ظلام مخيف ومصير مجهول.

وفي النهاية يمكن القول إن سير النزاعات الأيوبية الأيوبية يؤكد أن الصراع قد اقتصر على الزعامات السياسية ولم تتأثر عامة الشعب بتلك الأغراض السياسية الوضيعة، واستمرت تلك الشعوب نقية وقوية في أداء دورها وواجبها الديني والأخلاقي، ومرتبطة ببعضها بعضاً بالعديد من الروابط الاجتماعية والدينية والعرقية، وهذا يعطي الأمل بأن تنهض البلاد العربية – الإسلامية من واقعها المتردي وتعود لوحدتها وقوتها، كما أن سير النزاعات الأيوبية الأيوبية أثبت بشكل واضح أن ولاء هؤلاء الحكام المتنازعين كان للمدن وليس للأشخاص الحاكمين بها، فعندما تبدلت القيادة السياسية في دمشق في جمادى الأولى ٦٤٣هـ/ تشرين الأول ١٢٤٥م، وأصبح الحاكم بها هو الصالح أيوب استمر ولاء صاحبي حمص وحلب لها، مع أن الصالح أيوب كان عدوهما قبل ذلك، ولم يكتفيا بذلك؛ بل ترجما ذلك الولاء عملياً بأن أرسلا الجيوش لفك الحصار عن دمشق في ذي القعدة ٦٤٣هـ/ نيسان ١٢٤٦، وكان الذي فرض عليها ذلك الحصار هو الصالح إسماعيل حليفهما بالأمس القريب.

# ملاحق

(١)

---

(١) المغلوث، سامي: أطلس الحملات الحروب الصليبية على المشرق الإسلامي، مكتبة العبيكان، الرياض، ط١، ٢٠٠٩م، ص١٢٩.

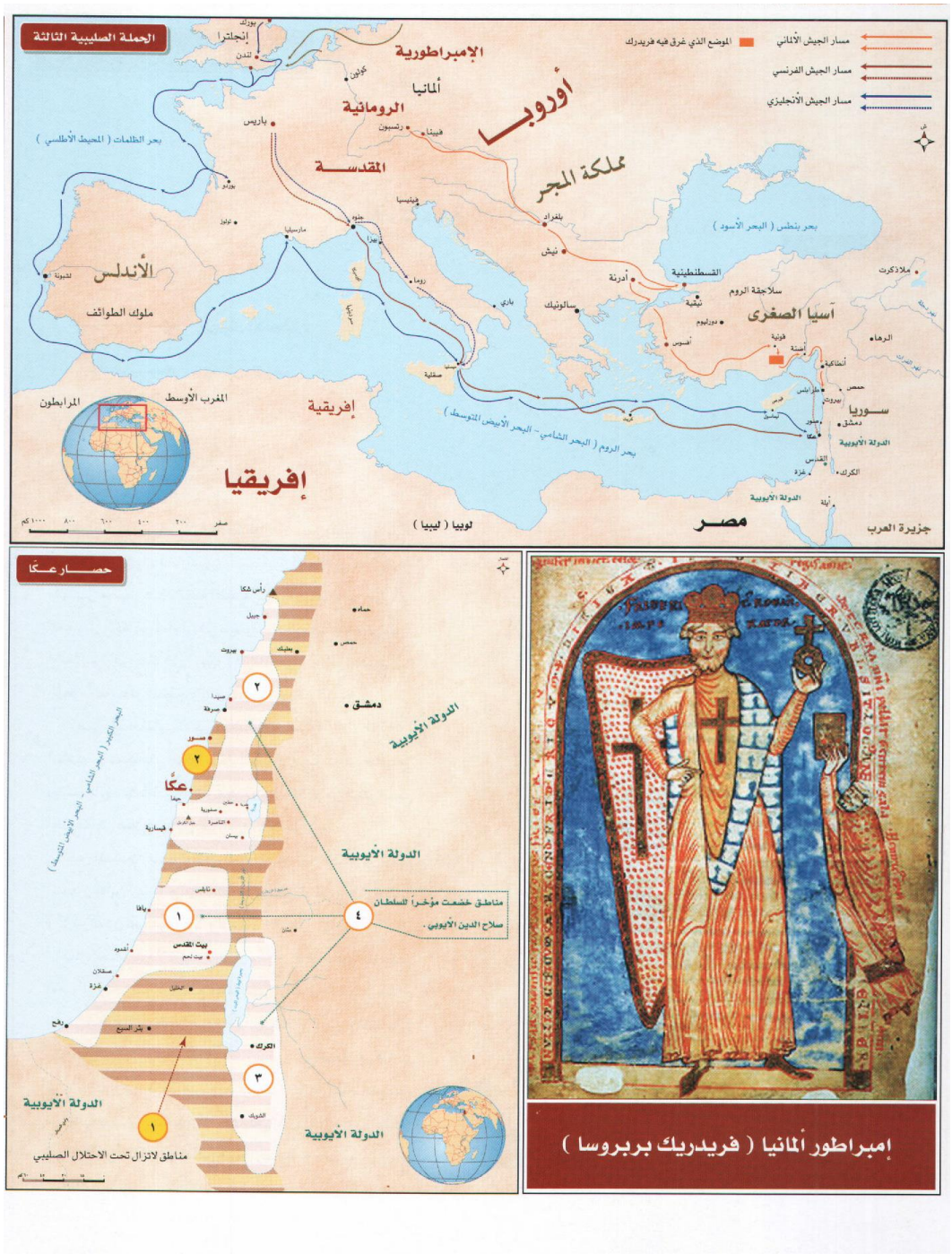


(٢)

---

(٢) أطلس الحملات الحروب الصليبية على المشرق الإسلامي، ص١١٩.

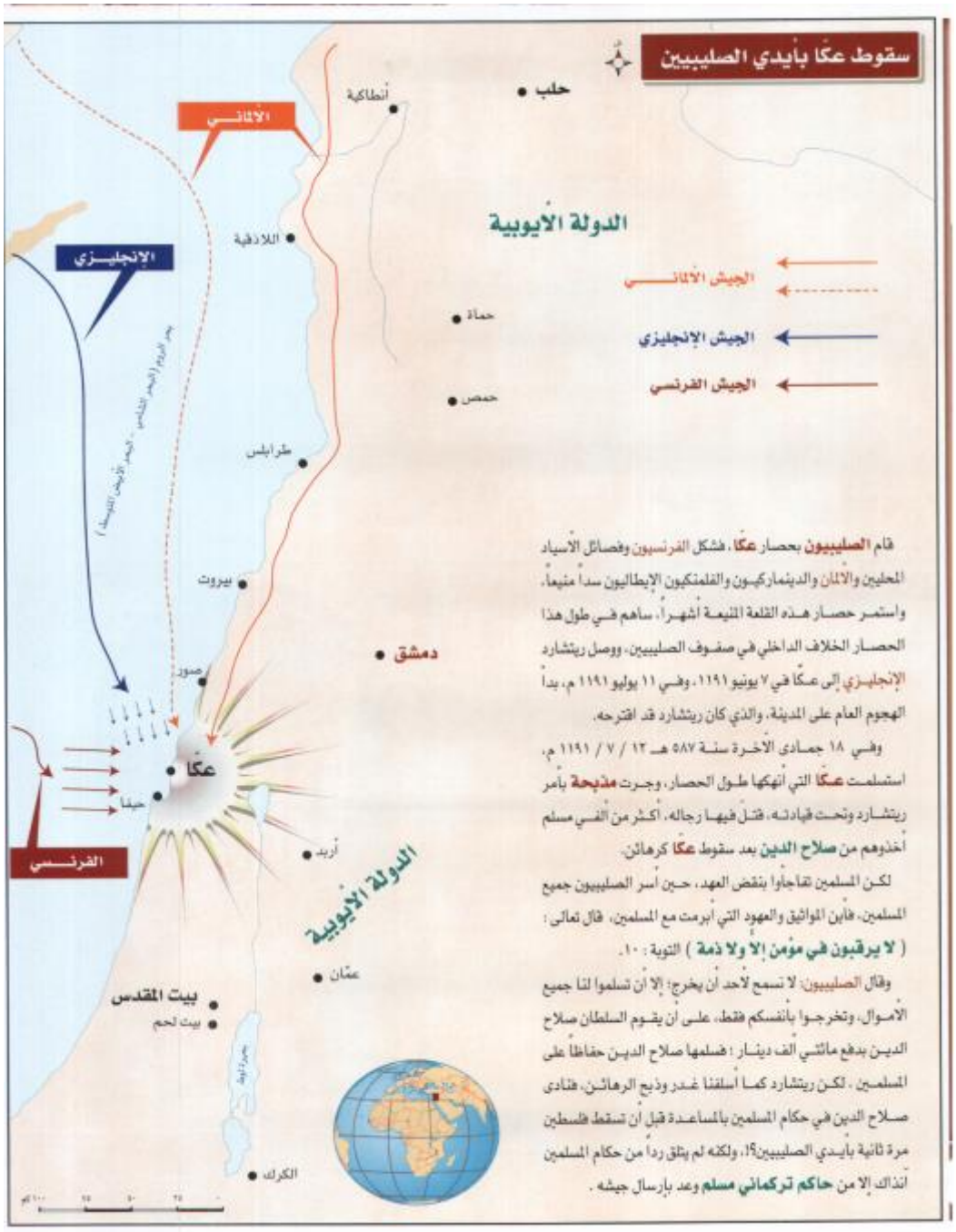


(٣)

[٣] أطلس الحملات الصليبية، ص١٢٠.

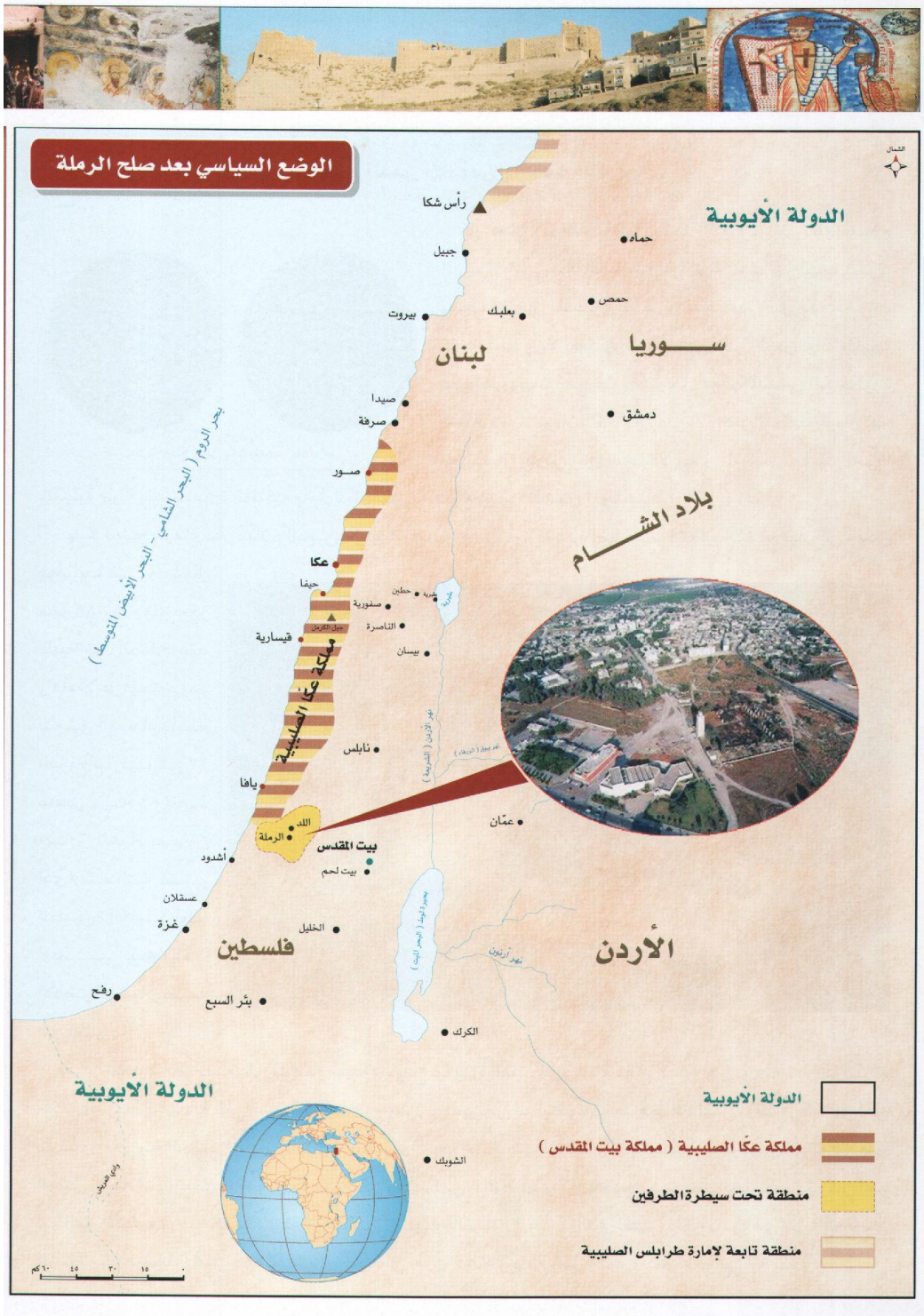


(٤)

---

(٤) أطلس الحملات الصليبية، ص١٢٧.

(٥)

---

(٥) أطلس الحملات الصليبية، ص١٤٩.

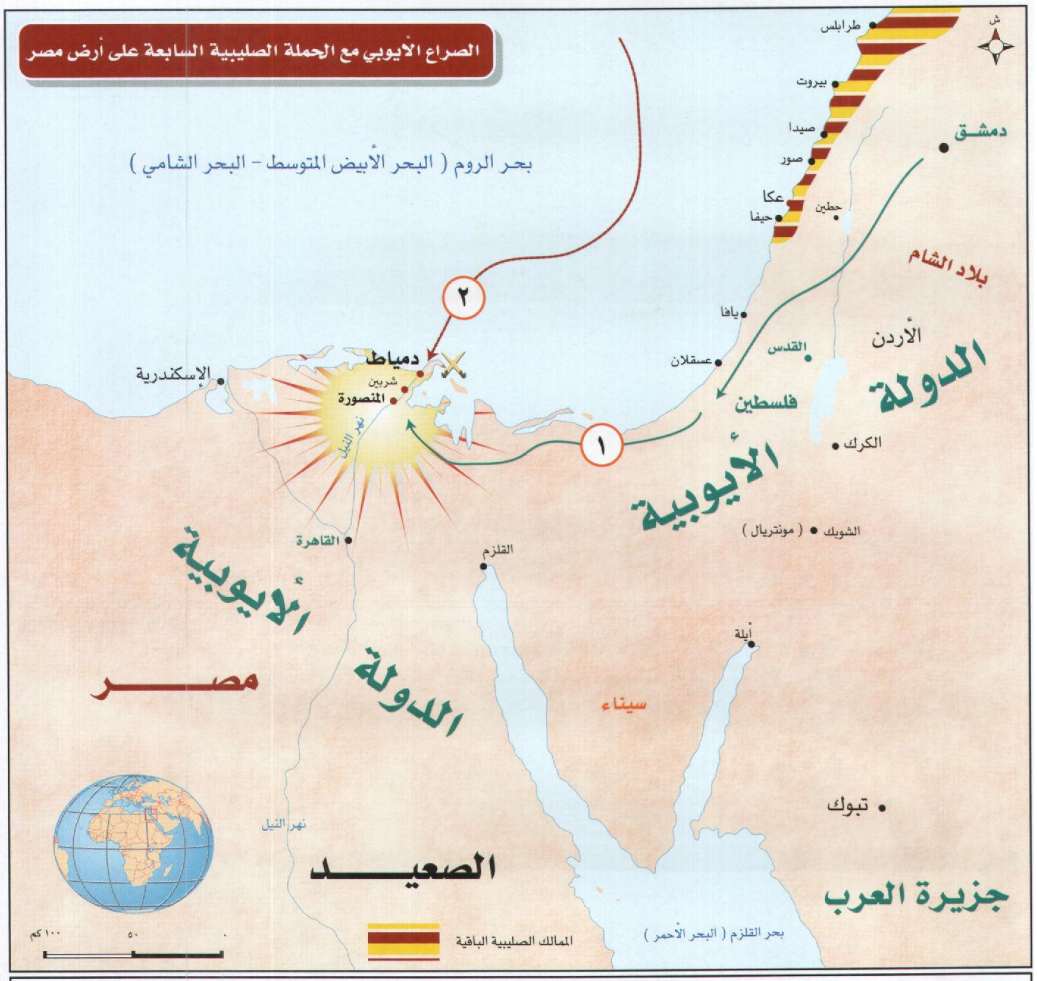


١ علم الصالح أيوب بأنباء الحملة الصليبية السابعة وهو في بلاد الشام، وترامى إليه تجمع الحشود الصليبية في قبرص، واستعدادها لغزو مصر والاستيلاء عليها؛ فرجع إلى مصر على الرغم من مرضه، وبدأ في ترتيب أوضاعه العسكرية.

٢ وصول الأسطول الصليبي إلى المياه المصرية أمام دمياط (٢٠ من صفر ٦٤٧هـ= من يونيو ١٢٤٩م) وفي اليوم التالي؛ نزل الصليبيون إلى البر الغربي للنيل، ووقعت بينهم وبين المسلمين مناوشات انسحب بعدها الأمير فخر الدين وقواته المكلفة بحماية المدينة إلى المعسكر السلطاني .

(٦)

---

(٦) أطلس الحملات الصليبية، ص١٧٢.

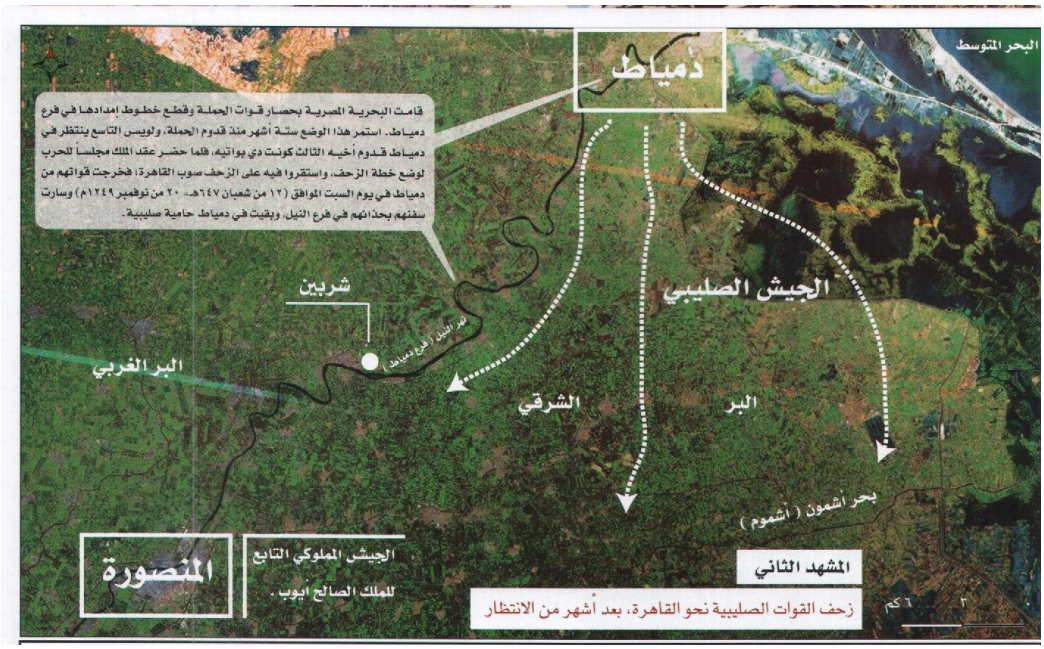


(٧)

(٧) أطلس تاريخ الحروب الصليبية، ص١٧٤.

(٨)

---

(٨) أطلس تاريخ الحملات الصليبية، ص١٧٧.

(٩)

(١٠)

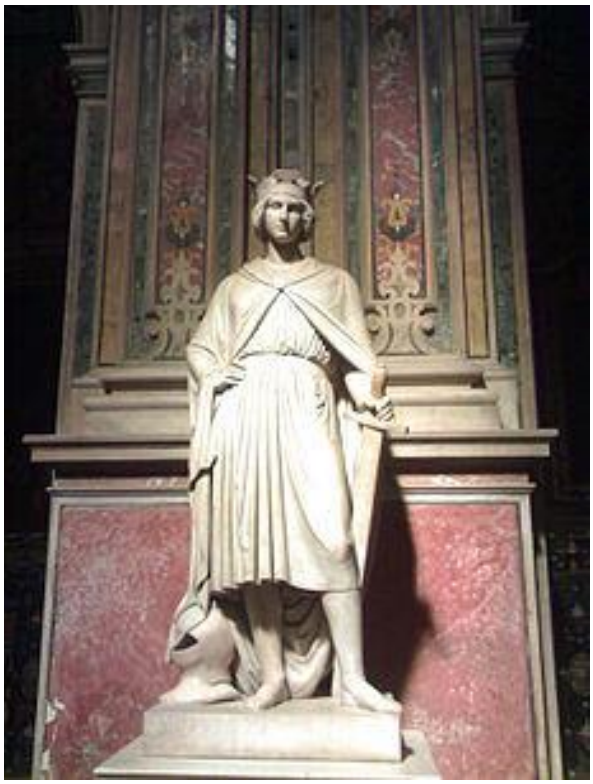

(١١)

---

(٩) https\www.google.com\search\q ويكيبيديا الموسوعة الحرة.

(١٠) https\www.google.com\search\q ويكيبيديا الموسوعة الحرة.

(١١) نصب للملك كونراد الثالث (١٢٥٤ - ١٢٦٨) الذي ولد وعاش ومات في أوروبا، ولم يزر مملكته في الشرق مطلقًا.

(١٢)

(١٢) ويكيبيديا الموسوعة الحرة https wwww.google.comsearchq

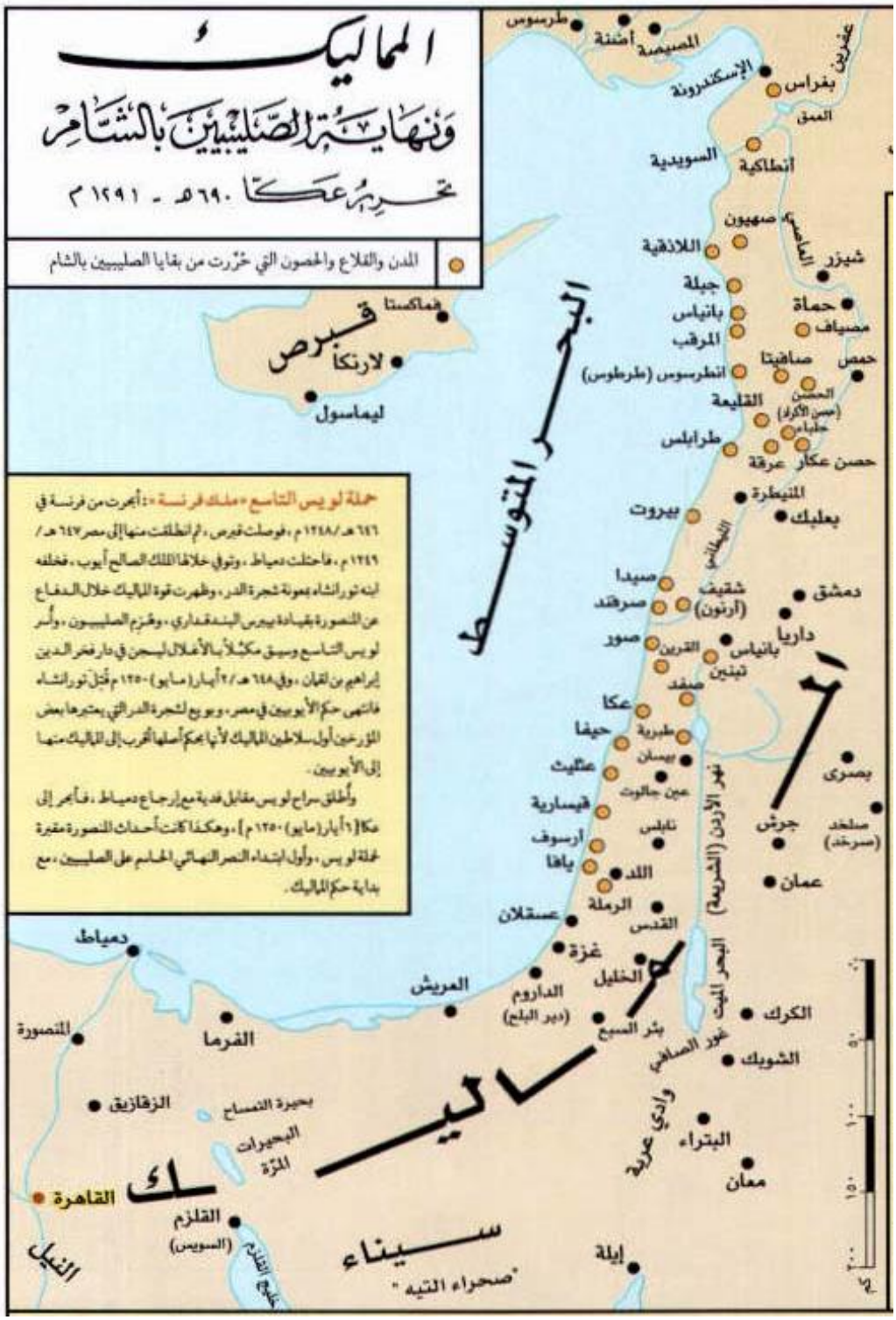
المماليك
ونهاية الصليبيين بالشام
تحرير عكا ٦٩٠هـ - ١٢٩١م
المدن والقلاع والحصون التي حُرِّرت من بقايا الصليبيين بالشام
حملة لويس التاسع «ملك فرنسة»: أبحرت من فرنسة في ٦٤٦هـ/١٢٤٨م، فوصلت قبرص، ثم انطلقت منها إلى مصر ٦٤٧هـ/١٢٤٩م، فاحتلت دمياط، وتوفي خلالها الملك الصالح أيوب، فخلفه ابنه توران شاه بمعونة شجرة الدر، وظهرت قوة المماليك خلال الدفاع عن المنصورة بقيادة بيبرس البندقداري، وهُزِم الصليبيون، وأُسر لويس التاسع وسيق مكبلاً بالأغلال ليسجن في دار فخر الدين إبراهيم بن لقمان، وفي ٦٤٨هـ/٢ أيار (مايو) ١٢٥٠م قُتِل توران شاه فانتهى حكم الأيوبيين في مصر، وبويع لشجرة الدر التي يعتبرها بعض المؤرخين أول سلاطين المماليك لأنها بحكم أصلها أقرب إلى المماليك منها إلى الأيوبيين.
وأُطلق سراح لويس مقابل فدية مع إرجاع دمياط، فأبحر إلى عكا [٦ أيار (مايو) ١٢٥٠م]، وهكذا كانت أحداث المنصورة مقبرة لحملة لويس، وأول ابتداء النصر النهائي الحاسم على الصليبيين، مع بداية حكم المماليك.
قبرص
فماكستا
لارنكا
ليماسول
البحر المتوسط
طرسوس
أضنة
المصيصة
الإسكندرونة
بغراس
العمق
السويدية
أنطاكية
صهيون
اللاذقية
شيزر
جبلة
بانياس
المرقب
حماة
مصياف
حمص
صافيتا
أنطرسوس (طرطوس)
الحصن (حصن الأكراد)
القليعة
حلبا
طرابلس
عرقة
حصن عكار
المنيطرة
بيروت
بعلبك
صيدا
شقيف (أرنون)
صرفند
دمشق
داريا
صور
القرين
بانياس
تبنين
صفد
عكا
حيفا
طبرية
بيسان
عثليث
عين جالوت
قيسارية
نابلس
أرسوف
يافا
اللد
الرملة
عسقلان
القدس
غزة
الخليل
الدارون (دير البلح)
بئر السبع
المريش
دمياط
المنصورة
الفرما
الزقازيق
بحيرة التمساح
البحيرات المرّة
القاهرة
القلزم (السويس)
النيل
سيناء
"صحراء التيه"
إيلة
معان
البتراء
وادي عربة
الشوبك
الكرك
غور الصافي
البحر الميت
نهر الأردن (الشريعة)
بصرى
جرش
سلخد (سرخد)
عمان

# قائمة المصادر والمراجع المعتمدة في البحث

## المصادر الأساسية


١- ابن الأثير ، أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني (ت: ٦٣٠هـ): الكامل في التاريخ ، تح: عمر عبد السلام التدمري، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٧م.

٢- ابن إياس، محمد بن أحمد: بدائع الزهور في وقائع الدهور، الهيئة المصرية العامة للكتاب- القاهرة، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م.

٣- ابن أيبك الدواداري، أبي بكر بن عبد الله: كنز الدُّرر وجامع الغُرر، ج٧، الدر المطلوب في أخبار ملوك بني أيوب، تح: سعيد عاشور، القاهرة، ١٩٧٢م

٤- ابن بطوطة، محمد بن عبدالله، ت ٧٧٩هـ: رحلة ابن بطوطة — تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، أكاديمية المملكة المغربية — الرباط، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٦م،

٥- البَلَاذُري، أحمد بن يحيى بن جابر بن داود: فتوح البلدان، دار ومكتبة الهلال- بيروت، ١٩٨٨م.

٦- ابن تغري بردي، يوسف، ت٨٧٤هـ: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دار الكتب، مصر.

٧- ابن جبير: محمد بن أحمد الكناني: رحلة ابن جبير، دار مكتبة الهلال- بيروت.

٨- ابن حجر العسقلاني: لسان الميزان، تح: دائرة المعارف النظامية- الهند، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات- بيروت، ط٢، ١٣٩٠هـ/١٩٧١م.

٩- ابن أبي حجلة، أحمد بن يحيى التلمساني، ت ٧٧٦هـ: سكردان السلطان، تح: علي محمد عمر، مكتبة الخانجي - القاهرة، ط١، ١٤٢١هـ/٢٠٠١م.

١٠- الحريري، أحمد بن علي: الاعلام والتبيين، تح: سهيل زكار، مكتبة دار الملاح- دمشق، ١٩٨١م.

١١- الحموي، ياقوت بن عبد الله الرومي، ت٦٢٦هـ: معجم البلدان، دار صادر- بيروت، ط٢، ١٩٩٥م.

١٢- الحِميري، محمد بن عبدالله بن عبد المنعم: الروض المعطار في خبر الأقطار، تح: إحسان عباس، مؤسسة ناصر للثقافة، بيروت، ط٢، ١٩٨٠م.

١٣- الحنبلي، أحمد بن إبراهيم: شفاء القلوب في مناقب بني أيوب، تح: ناظم رشيد، دار الحرية للطباعة، بغداد، ١٩٧٩م،

١٤- ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد: تاريخ ابن خلدون= المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، تح: خليل شحادة، دار الفكر، بيروت، ١٩٨٨م،

١٥- ابن خلكان، شمس الدين أحمد بن محمد: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تح: إحسان عباس، دار صادر، بيروت.

١٦- ابن أيبك الدودار، بيبرس المنصوري ت٧٢٥هـ: التحفة الملوكية في الدولة التركية، تح: عبد الحميد حمدان، الدار المصرية اللبنانية، ط١، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م.

١٧- الذهبي، شمس الدين محمد بن أحمد: تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، تح: عمر عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي، بيروت، ط٢، ١٩٩٣م.

١٨- الذهبي: سير أعلام النبلاء، مؤسسة الرسالة، ط٣، ١٩٨٥م.

١٩- الذهبي: المختار من تاريخ ابن الجزري، تح: خضير المنشداوي، بيروت ، دار الكتب العلمية، ط١، ١٩٨٨.

٢٠- الرازي، محمد بن أبي بكر، ت٦٦٦هـ: مختار الصحاح، تح: يوسف الشيخ محمد، المكتبة العصرية، بيروت وصيدا، ط٥، ١٩٩٩م.

٢١- ابن سباط، حمزة بن أحمد بن عمر: صدق الأخبار= تاريخ ابن سباط، تح: عمر عبد السلام تدمري، جروس برس، طرابلس، ط١، ١٩٩٣م

٢٢- سبط ابن الجوزي، يوسف بن قِزأوغلي: مرآة الزمان في تواريخ الأعيان، مؤسسة الرسالة، ط١، ٢٠١٣م.

٢٣- سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان، تح: مها بيطار، رسالة أعدت لنيل درجة الماجستير بإشراف أ. د سهيل زكار، جامعة دمشق ٢٠١٣.

٢٤- السبكي، تاج الدين بن علي، طبقات الشافعية الكبرى، تح: محمود الطناحي وعبد الفتاح الحلو، هجر للطباعة والنشر، ط٢، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٢م، ج٧،

٢٥- السيوطي، جلال الدين: المستظرف من أخبار الجواري، تح: صلاح المنجد، الكتاب الجديد – بيروت، ١٩٩٥م،

٢٦- أبو شامة، شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل، المقدسي الدمشقي: عيون الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، تح: إبراهيم الزيبق، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٩٩٧م،

٢٧- أبو شامة: الذيل على الروضتين، تح: سهيل زكار، الموسوعة الشاملة في تاريخ الحروب الصليبية، ج٢٠.

٢٨- أبو شامة: عيون الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، تح: إبراهيم الزيبق، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٩٩٧م،

٢٩- ابن شداد، بهاء الدين، يوسف بن رافع بن تميم: النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية= سيرة صلاح الدين، تح: جمال الدين الشيال، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط٢، ١٩٩٤م.

٣٠- ابن شداد، عز الدين محمد بن علي: الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة، تح: سامي الدهان، دمشق ، المعهد الفرنسي، ١٩٦٢م.

٣١- ابن شمائل القطيعي، عبد المؤمن بن عبد الحق، ٧٣٩هـ: مراصد الإطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع، دار الجيل- بيروت، ط١، ١٤١٢هـ.

٣٢- الصفدي، صلاح الدين خليل بن أيبك: الوافي بالوفيات، تح: المعهد الألماني للأبحاث الشرقية في بيروت، دار فرانز شتايز شتوتغارت، ط٢، ١٩٩١م.

٣٣- الصفدي: الوافي بالوفيات، تح: أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى، دار إحياء التراث، بيروت، ٢٠٠٠م

٣٤- الصفدي: تحفة ذوي الألباب فيمن حكم بدمشق من الخلفاء والملوك والنواب، تح: إحسان خُلوصي وزهير الصمصام، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، ١٩٩٢م.

٣٥- الطبري، محمد بن جرير، تاريخ الطبري= تاريخ الرسل والملوك، دار التراث، بيروت، ط٢، ١٣٨٧هـ.

٣٦- ابن عبد الظاهر، محي الدين عبد الله، ت٦٩٢هـ: الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر، تح: عبد العزيز الخويطر، الرياض، ط١، ١٣٦٦هـ/ ١٩٤٧م.

٣٧- ابن العبري، أبو الفرج جمال الدين غريغوريوس يوحنا: تاريخ الزمان، تح: اسحاق أرملة، دار المشرق- بيروت، ١٩٩١م،

٣٨- ابن العبري: تاريخ مختصر الدول، أنطون صالحاني اليسوعي، دار الشرق، بيروت، ط٣، ١٩٩٢م،

٣٩- ابن العديم، كمال الدين عمر بن أحمد بن أبي جرادة: زبدة الحلب من تاريخ حلب، تح: سهيل زكار، دار الكتاب العربي، دمشق والقاهرة، ط١، ١٩٩٧م،

٤٠- ابن العديم: بغية الطلب في تاريخ حلب، تح: سهيل زكار، دار الفكر.

٤١- العليمي، عبد الرحمن بن محمد بن عبد الرحمن، ت٩٢٨هـ: الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل، تح: عدنان يونس عبد المجيد نباتة، مكتبة دنديس- عمان.

٤٢- العماد الأصفهاني: الفتح القسي في الفتح القدسي، تح: سهيل زكار، الموسوعة الشاملة في تاريخ

الحروب الصليبية، ج١٣.

٤٣- ابن العماد الحنبلي، عبد الحي بن أحمد، ت١٠٨٩هـ: شذرات الذهب في أخبار من ذهب، تح: محمود الأرناؤوط، دار ابن كثير- دمشق وبيروت، ط١، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م.

٤٤- العيني، بدر الدين محمود: عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان، عن الموسوعة الشاملة في تاريخ الحروب الصليبية، ج٢٤.

٤٥- الغزي، كامل بن حسين بن محمد، ت١٣٥١هـ: نهر الذهب في تاريخ حلب، دار القلم، حلب، ط٢، ١٤١٩هـ.

٤٦- الفارابي، إسماعيل بن حماد، ت ٣٩٣هـ: الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، تح: أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين، بيروت، ط٤، ١٩٨٧م، ج٢.

٤٧- أبو الفداء، الملك عماد الدين اسماعيل: المختصر في أخبار البشر، المطبعة الحسينية المصرية، ط١.

٤٨- ابن الفرات، ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم: تاريخ الدول والملوك، تح: ميس مقلد، رسالة مقدمة لنيل درجة الماجستير في تاريخ العرب والإسلام، بإشراف سهيل زكار، جامعة دمشق، ٢٠١٨م.

٤٩- ابن فضل الله العمري، شهاب الدين أحمد بن يحيى: مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، المجمع الثقافي، أبو ظبي، ط١، ١٤٢٣هـ،ج ٢٧

٥٠- ابن القلانسي، حمزة بن أسد بن علي: تاريخ دمشق، تح: سهيل زكار، دار حسان للطباعة والنشر، دمشق، ط١، ١٩٨٣م.

٥١- القلقشندي، أحمد بن علي بن أحمد الفزاري، ت ٨٢١هـ: صبح الأعشى في صناعة الإنشا، دار الكتب العلمية، بيروت.

٥٢- ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر، ت ٧٧٤هـ: البداية والنهاية، تح: علي شيري، ط إحياء التراث العربي، ط١، ١٩٨٨م،

٥٣- ابن كثير.: طبقات الشافعيين، تح: أحمد عمر هاشم ومحمد زينهم، مكتبة الثقافة الدينية، ١٩٩٣م،

٥٤- ابن كثير: البداية والنهاية، دار الفكر، ١٩٨٦م

٥٥- اللكنوي، محمد عبد الحي الهندي، ت١٣٠٤هـ: الفوائد البهية في تراجم الحنفية، إشراف: أحمد الزعبي، دار الأرقم بن أبي الأرقم، بيروت، ط١، ١٩٩٨م.

٥٦- المقريزي، تقي الدين أحمد بن علي، ت٨٤٥هـ: السلوك لمعرفة دول الملوك، تح: محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٧م.

٥٧- المقريزي: المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٨هـ،

٥٨- ابن مماتي، أسعد: قوانين الدواوين، تح: عزيز سوريال عطية، مكتبة مدبولي، القاهرة، ط١، ١٩٩١م،
٥٩- ابن منقذ، أسامة: الاعتبار، تح: سهيل زكار، عن الموسوعة، ج١٢.
٦٠- المهلبي، الحسن بن أحمد: الكتاب العزيزي أو المسالك والممالك، تح: تيسير خلف، دار التكوين، ط١، ٢٠٠٦م.
٦١- ابن نظيف الحموي، محمد بن علي: التاريخ المنصوري (تلخيص الكشف والبيان في حوادث الزمان، تح: أبو العبد دودو، مطبعة الحجاز ، مطبوعات مجمع اللغة العربية، دمشق.
٦٢- النعيمي، عبد القادر بن محمد: الدارس في تاريخ المدارس، تح: إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، ط١، ١٩٩٠م
٦٣- النويري، أحمد بن عبد الوهاب: نهاية الأرب في فنون الأدب، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، ط١، ١٤٢٣هـ.
٦٤- ابن واصل، محمد بن سالم: مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، تح: حسنين محمد ربيع، مطبعة دار الكتب، مصر، ١٩٧٧م.
٦٥- ابن الوردي، عمر بن مظفر بن عمر بن محمد: تاريخ ابن الوردي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٦م.
٦٦- اليونيني، موسى بن محمد: ذيل مرآة الزمان، تح: سالم كرنكوي، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، ط٢، ١٩٩٢م.
٦٧- اليونيني: ذيل مرآة الزمان، تح: فراس عبد الرحمن، رسالة غير منشورة أُعدت لنيل درجة الماجستير في تاريخ العرب والإسلام، بإشراف أ. د. سهيل زكار، جامعة دمشق، ٢٠١٣.

## المراجع العربية

٦٦- أبوسعيد، حامد غنيم: الجبهة الإسلامية في عصر الحروب الصليبية، دار الثقافة- -القاهرة.
٦٧- البحيري: صلاح الدين: المخابرات الأيوبية في مواجهة الصليبيين، المؤرخ العربي، عد٤١، ١٩٩٠م.
٦٨- البرغوثي وطوطح، عمر الصالح وخليل: تاريخ فلسطين، مكتبة الثقافة الدينية، مصر.
٦٩- البوعنين، لطيفة: الحياة الاقتصادية.
٧٠- البيشاوي، سعيد عبدالله: الممتلكات الكنسية في مملكة بيت المقدس الصليبية (١٠٩٩-١٢٩١م/ ٤٩٢-٦٩٠هـ)، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ١٩٩٠م.

٧١- توفيق، عمر كمال: الدبلوماسية الإسلامية والعلاقات الإسلامية مع الصليبيين، مؤسسة شباب الجامعة، الاسكندرية، ١٩٨٦م.

٧٢- الحايك، منذر: العلاقات الدولية في عصر الحروب الصليبية، دار الأوائل، دمشق، ط١، ٢٠٠٦م.

٧٣- الحايك: مملكة حمص في العصر الأيوبي، دار طلاس – دمشق.

٧٤- حسن عبد الوهاب: تاريخ جماعة الفرسان التيوتون، دار المعرفة الجامعية، الاسكندرية، ١٩٨٩م.

٧٥- حمزة، عادل عبد الحفيظ: العلاقات السياسية بين الدولة الأيوبية والامبراطورية الرومانية المقدسة زمن الحروب الصليبية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠١.

٧٦- حومد، أسعد: تاريخ الجهاد لطرد الغُزاة الصليبيين، ط١، ٢٠٠٢م.

٧٧- الحويري، محمود: الأوضاع الحضارية في بلاد الشام (عصر الحروب الصليبية)، دار المعارف، القاهرة، ١٩٧٩م.

٧٨- الخطيب، ابراهيم: القدس بين أطماع الصليبيين وتفريط الملك الكامل، عمان، ط١، ٢٠٠١م.

٧٩- الدباغ، مصطفى مراد: بلادنا فلسطين، دار الهدى- كفر قرع، ١٩٩١م، ج٧، ق٢.

٨٠- ربيع، حسنين محمد: النظم المالية في مصر زمن الأيوبيين ، مطبعة جامعة القاهرة، ١٩٦٤م.

٨١- رحيل، محمد فوزي: نهاية الصليبيين، عين للدراسات، ط١، ٢٠٠٩م.

٨٢- الزركلي، خير الدين بن محمود: الأعلام، دار العلم للملايين، ط١٥، ٢٠٠٢م.

٨٣- زكار وبيطار، سهيل وأمينة: تاريخ الدولة العربية في المشرق، جامعة دمشق، ط٧، ٢٠٠٦-٢٠٠٧م.

٨٤- زكار، سهيل: الموسوعة الشاملة في تاريخ الحروب الصليبية، دار الفكر، دمشق.

٨٥- زكار، سهيل: تاريخ دمشق من القرن الرابع حتى القرن السابع الهجري، دار التكوين – دمشق، ٢٠٠٧.

٨٦- زيادة، محمد مصطفى: حملة لويس التاسع على مصر وهزيمته في المنصورة، المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية، ط١، ٢٠٠٠م.

٨٧- زيادة، نقولا: رواد الشرق العربي في العصور الوسطى، دار لبنان للطباعة- بيروت، ط٢، ١٩٨٦.

٨٨- زيان، حامد زيان غانم: الصراع السياسي والعسكري بين القوى الإسلامية زمن الحروب الصليبية، دار الثقافة للنشر، القاهرة، ١٩٨٣.

٨٩- زيتون، عادل: تاريخ المماليك، جامعة دمشق.

٩٠- زيدان، جرجي: تاريخ آداب اللغة العربية، دار الهلال.

٦٦- سرور، محمد جمال الدين: دولة بني قلاوون في مصر، دار الفكر العربي- مصر

٦٧- سعداوي، نظير حسان: الحرب والسلام زمن العدوان الصليبي، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٦١م.

٦٨- سيد، أشرف صالح محمد: الدبلوماسية الأيوبية الصليبية (١١٩١-١١٩٢)، شركة الكتاب الالكتروني العربي- بيروت، ط١، ٢٠٠٧م.

٦٩- سيد، أشرف صالح محمد: فن التفاوض الأيوبي ودبلوماسية الصليبيين خلال الحملة الصليبية الثالثة على الشرق، مجلة علوم الانسان والمجتمع، جامعة ابن رشد، هولندا.

٧٠- السيد، عبد اللطيف عبد الهادي: الحروب الصليبية من خلال كتابات جاك دي فتري.

٧١- شبارو، عصام محمد: السلاطين في المشرق العربي- معالم دورهم السياسي والحضاري، دار النهضة- بيروت، ١٩٩٤م.

٧٢- ششن، رمضان: نوادر المخطوطات العربية في مكتبات تركيا، دار الكتاب الجديد- بيروت، مج٣.

٧٣- الصلَّابي، علي: صلاح الدين وجهوده في القضاء على الدولة الفاطمية وتحرير بيت المقدس، دار المعرفة، بيروت، ط١، ٢٠٠٨م.

٧٤- الطحاوي، حاتم عبد الرحمن، الاقتصاد الصليبي في بلاد الشام، عين للدراسات، ط١، ١٩٩٩م.

٧٥- طقوش، محمد سهيل: تاريخ المماليك في مصر وبلاد الشام، دار النفائس، بيروت، ط١، ١٩٩٧م.

٧٦- عاشور، سعيد عبد الفتاح: الأيوبيون والمماليك في مصر والشام، دار النهضة العربية، ١٩٩٦م.

٧٧- عاشور، سعيد عبد الفتاح: الحركة الصليبية، مكتبة الأنجلو المصرية، ط٩، ٢٠١٠م، ج٢.

٧٨- عاشور، سعيد عبد الفتاح: قبرص والحروب الصليبية.

٧٩- عاشور، سعيد: نظم الحكم والادارة في عصر الأيوبيين والمماليك، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط١، ١٩٨٧م،

٨٠- عاشور، فايد حماد محمد: العلاقة بين البندقية والشرق الأدنى الإسلامي في العصر الأيوبي، دار المعارف، مصر، ١٩٨٠م.

٨١- عاشور، فايد: الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين(في العصر الأيوبي)، دار الاعتصام، القاهرة، ط١.

٨٢- عامر، سامية: الصليبيون في فلسطين "جبيل- لبنان"، عين للدراسات والبحوث، ط١، ٢٠٠٢م.

٨٣- العبادي، أحمد مختار: قيام دولة المماليك الأولى في مصر والشام، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٨٦م.

٨٤- عبد القوي، زينب عبد المجيد: الإنكليز والحروب الصليبية من١١٨٩-١٢٩١م، عين للدراسات والبحوث، ط١، ١٩٩٦م.

٨٥- عبد الوهاب، حسن: تاريخ قيسارية الشام في العصر الإسلامي، الاسكندرية، ١٩٩٠م.

٨٦- عتمان، أحمد: تاريخ قبرص، القاهرة، ١٩٩٧م.

٨٧- عثامنة، خليل: فلسطين في العهدين الأيوبي والمملوكي(١١٨٧-١٥١٦م)، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، بيروت، ط١، ٢٠٠٦م.

٨٨- عفاف صبرة: علاقة البندقية بمصر.

٨٩- علي، أحمد علي إسماعيل: تاريخ بلاد الشام (٤٦٣-٦٥٨هـ)، دمشق، ٢٠٠٠م، مج ٥.

٩٠- علي، جواد: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، دار الساقي، ط٤، ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م.

٩١- علي، علي السيد: العلاقات الاقتصادية بين المسلمين والصليبيين، عين للدراسات، ط١، ١٩٩٦م.

٩٢- علي، ياسر أحمد: شَعَب وحاميتها، المنظمة الفلسطينية لحق العودة- بيروت، ط١، ٢٠٠٧م.

٩٣- عمران، محمود سعيد: تاريخ الحروب الصليبية (١٠٩٥-١٢٩١م)، دار المعرفة الجامعية- مصر، ٢٠٠٠م.

٩٤- عودات، أحمد، وآخرون: تاريخ المغول والمماليك، مكتبة الدراسات الاجتماعية.

٩٥- غوانمة، يوسف حسن: معاهدات الصلح والسلام بين المسلمين والفرنج، دار الفكر، عمان، ط١، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م.

٩٦- قاسم، عبده قاسم: في تاريخ الأيوبيين والمماليك، عين للدراسات، مصر، ٢٠١٠م

٩٧- قلعجي، قدري: صلاح الدين الأيوبي، شركة المطبوعات- بيروت، ط١، ١٩٩٢م.

٩٨- كرد علي، محمد بن عبد الرزاق: خطط الشام، مكتبة النوري- دمشق، ط٣، ١٩٨٣م، ج ٤،

٩٩- الكناني، مصطفى حسن محمد: العلاقات بين جنوة والشرق الأدنى الإسلامي (٥٦٧-٦٩٠هـ/ ١١٧١-١٢٩١م)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨١م ، ج٢.

١٠٠- الماضي، مروان: قصة مدينة عكا، منظمة التحرير الفلسطينية.

١٠١- المعجم الجغرافي للقطر العربي السوري.

١٠٢- المغلوث، سامي: أطلس الحملات الحروب الصليبية على المشرق الإسلامي، مكتبة العبيكان، الرياض، ط١، ٢٠٠٩م.

١٠٣- الموسوعة الموجزة في التاريخ الإسلامي، ج ٥-٦

١٠٤- مؤنس، محمد: الحروب الصليبية، قضايا السياسة والعقيدة والمياه، القاهرة، ٢٠٠١م، ص٤٤.

١٠٥- نصر، سوسن محمد: بنو أيوب مع الخوارزمية والمغول والمماليك في شمال الشام والجزيرة، المجلة التاريخية المصرية، عد٣٠ و ٣١ ، ١٩٨٣-١٩٨٤م.

١٠٦- النقر، محمد الحافظ: تاريخ بيت المقدس، دار الرازي.

١٠٧- النهار، عمار: هكذا سلم هؤلاء بيت المقدس للفرنج الصليبيين، مؤسسة فلسطين للثقافة، ط١، ٢٠١١م .

١٠٨- الهموندي، حنان جليل محمد: في مقدمة تحقيقها لقطعة من "مرآة الزمان" لسبط ابن الجوزي، الدار الوطنية- بغداد، ١٩٩٠م.

١٠٩- هيئة الموسوعة الفلسطينية: الموسوعة الفلسطينية، دمشق، ط١، ١٩٨٤-١٩٩٠م.

١١٠- يوسف، جوزيف نسيم: العدوان الصليبي على بلاد الشام (هزيمة لويس التاسع في الأراضي المقدسة)، دار الكتب الجامعية، ط٣، ١٩٧١م.

١١١- يوسف، جوزيف نسيم: العدوان الصليبي على مصر، هزيمة لويس التاسع في المنصورة وفارسكور، دار المعرفة الجامعية – الاسكندرية، ط ٢، ١٩٨٩م.

## المصادر والمراجع الأجنبية المعربة

١١٢- إديوري، بيترو: قبرص والحروب الصليبية، دار الملتقى للطباعة والنشر، قبرص- ليماسول، ط١، ١٩٩٧م.

١١٣- أرنول: رحلة أرنول إلى الأرض المقدسة عام ١٢٢٠م، تر: سهيل زكار، عن الموسوعة الشاملة، ج٣٩.

١١٤- امبرويز: رحلة ريتشارد= الحملة الصليبية الثالثة= حملة الملك ريتشارد إلى أراضي القدس المقدسة، تر: سهيل زكار، الموسوعة الشاملة في تاريخ الحروب الصليبية، دار الفكر، دمشق، ١٩٩٨م، ج٣١

١١٥- أمبرويز: صليبية ريتشارد، تر: سهيل زكار، الموسوعة الشاملة، ج٣٢

١١٦- أوتو أسقف فريزنغ: ما ورد لدى أتو أسقف فريزنغ عن الحروب الصليبية، الموسوعة الشاملة، ج٢٩.

١١٧- بادربورن، أولفر أوف: الاستيلاء على دمياط، تر: سهيل زكار، الموسوعة الشاملة في تاريخ الحروب الصليبية، دمشق ١٩٩٨، ج٣٣ .

١١٨- باربير، مالكولم: الفروسية الجديدة (تاريخ لرهبانية الداوية)، تر: سهيل زكار، الموسوعة الشاملة، دمشق ٢٠٠٧م،

ج٥٢.

١١٩- باركر، أرنست: الحروب الصليبية، تر: السيد الباز العريني، دار النهضة العربي، بيروت، ط٢.

١٢٠- براور، يوشع: الاستيطان الصليبي في فلسطين، تر: عبد الحافظ البنا، عين للدراسات، ط١، ٢٠٠١م.

١٢١- بردج، أنتوني: تاريخ الحروب الصليبية، تر: أحمد سبانو ونبيل الجيرودي، دار قتيبة- دمشق.

١٢٢- بوتول، غاستون: معاهدات السلام عبر التاريخ، تر: جورج أبو كسم، الأبجدية للنشر، دمشق، ط١، ١٩٩٦م.

١٢٣- تواريخ أسرة بلانتغنت، تر: سهيل زكار، الموسوعة الشاملة في تاريخ الحروب الصليبية، دار الفكر، دمشق، ١٩٩٨م، ج٣٠.

١٢٤- ثيوديرك: وصف ثيوديرك للأماكن المقدسة عام ١١٧٢م، تر: سهيل زكار، عن الموسوعة الشاملة، ج٣٥

١٢٥- جوانفيل، جين: حياة القديس لويس، تر: سهيل زكار، الموسوعة الشاملة في تاريخ الحروب الصليبية، ج٣٦

١٢٦- جونز، أرنولد هيومارتن: مدن بلاد الشام حين كانت ولاية رومانية، تر: إحسان عباس، دار الشروق للنشر- عَمان ، ط١، ١٩٨٧م.

١٢٧- دُوزِي، رينهارت بيتر آن: تكملة المعاجم العربية، وزارة الثقافة والإعلام، العراق، ط١، من ١٩٧٩-٢٠٠٠م.

١٢٨- دي ابلين، جون: رواية جون دي ابلين صاحب يافا حول "الوثائق المتعلقة بالوصول إلى وكالة المملكة ونيابتها"، روايات معاصرة حول الاعتراف بالملكة أليس وبالاستيلاء على صور، عن الموسوعة الشاملة في تاريخ الحروب الصليبية، ج٣٥.

١٢٩- دي فيتري، جاك: المنتقى من مختصر تاريخ القدس، ترجمة سهيل زكار، من خلال الموسوعة الشاملة، ج٣٣.

١٣٠- دي كلاري، روبرت: سقوط القسطنطينية للصليبيين، تر: سهيل زكار، الموسوعة الشاملة في تاريخ الحروب الصليبية، ج١٠.

١٣١- دي نافار، فيليب: حروب فردريك الثاني ضد الإيبلينيين في سورية وقبرص، تر: سهيل زكار، الموسوعة الشاملة في تاريخ الحروب الصليبية، دار الفكر، دمشق، ج٣٥.

١٣٢- ديورانت، ويليام جيمس: قصة الحضارة، تر: زكي نجيب وآخرون، دار الجيل، بيروت، ١٩٨٨م،

١٣٣- رستون، جيمس (الابن): مقاتلون في سبيل الله، تر: رضوان السيد، مكتبة العبيكان، ط١، ٢٠٠٢م.

١٣٤- رنسيمان، ستيفن: تاريخ الحروب الصليبية، تر: السيد الباز العريني، ط٣، ١٩٩٣م.

١٣٥- روايات معاصرة حول الاعتراف بالملكة أليس، الموسوعة الشاملة، ج٣٥.

١٣٦- روزنثال، فرانز: علم التاريخ عند المسلمين، تر: صالح أحمد العلي، مؤسسة الرسالة- بيروت، ط٢، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م.

١٣٧- ريشار، تكوين مملكة بيت المقدس.

١٣٨- زاباروف، ميخائيل: الصليبيون في الشرق، تر: الياس شاهين، دار التقدم- موسكو، ١٩٨٦م.

١٣٩- سمباط الأرمني، التاريخ المعزو إلى القائد سمباط، تر: سهيل زكار، عن الموسوعة الشاملة، ج٣٦.

١٤٠- سميث، جوناثان ريلي: فرسان القديس يوحنا في القدس وقبرص، تر: سهيل زكار، الموسوعة الشاملة، دمشق، ٢٠٠٨م، ج٥٢.

١٤١- سميث، جوناثان رايلي: الإسبتارية، تر: صبحي الجابي، مركز الدراسات العسكرية، دمشق، ١٩٨٤م.

١٤٢- سميث، جوناثان رايلي: تاريخ الحروب الصليبية، تر: قاسم عبده قاسم، المركز القومي للترجمة- القاهرة، ط١، ٢٠٠٩م.

١٤٣- سوخم، لودولف فون: رحلة لودولف إلى الأرض المقدسة عام ١٣٥٠م، عن الموسوعة، ٣٩

١٤٤- الشارتري، فوشيه: الاستيطان الصليبي في فلسطين- تاريخ الحملة إلى بيت المقدس، تر: قاسم عبده قاسم، دار الشروق- القاهرة، ط١، ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م.

١٤٥- الصوري، وليم: الحروب الصليبية، تر: حسن حبشي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٢م.

١٤٦- عطية، عزيز سوريال، الحروب الصليبية وتأثيرها على العلاقات بين الشرق والغرب، تر: فيليب صابر يوسف، دار الثقافة- القاهرة، ط٢.

١٤٧- غروسيه، رينيه: موجز تاريخ الحروب الصليبية، تر: أحمد إيبش، هيئة أبو ظبي للسياحة، دار الكتب الوطنية، ط١، ٢٠١٤م .

١٤٨- غروسيه، رينيه: ملحمة الحروب الصليبية، تر: سامية زغيب، دار الهادي.

١٤٩- فابري، فيلكس: جولات الراهب الدومينيكاني فيلكس فابري، تر: سهيل زكار، الموسوعة الشاملة في تاريخ الحروب الصليبية، ج٤٠+ ٤١+ ٤٢+٤٣.

١٥٠- فيلهاردين: الاستيلاء على القسطنطينية، تر: سهيل زكار، الموسوعة الشاملة في تاريخ الحروب

الصليبية.

١٥١- كندي، هيوج: القلاع الصليبية، تر: سهيل زكار، كتاب لم يُنشر بعد، ضمن الموسوعة الشاملة، ج٥٢

١٥٢- كنغ، إ.ج: رهبان تحت السلاح، تر: سهيل زكار، عن الموسوعة، ج٣٣.

١٥٣- لويس، برنارد: الحشيشية (الإغتيال الطقوسي عند الإسماعيلية النزارية)، تر: سهيل زكار، دار قتيبة، دمشق وبيروت، ط١، ٢٠٠٤م،

١٥٤- مارشال، كريستوفر: فن الحرب وشؤونه في عصر الحروب الصليبية، تر: سهيل زكار، عن الموسوعة ، ج٥٢.

١٥٥- ماير، هانس ابرهارد: تاريخ الحروب الصليبية، تر: عماد الدين غانم، دار الهدى –دمشق وبيروت، ط١، ٢٠٠٩.

١٥٦- متى باريس: التاريخ الكبير، عن الموسوعة، ج٤٧.

١٥٧- مجهول: تتمة كتاب وليم الصوري، ص١٤٩.

١٥٨- مجهول: ذيل تاريخ وليم الصوري (١١٨٤-١١٩٧)، تح: مرغريت روث مورغان، تر: سهيل زكار، عن الموسوعة الشاملة في تاريخ الحروب الصليبية، دار الفكر، دمشق، ١٩٩٣م، ج٨.

١٥٩- مرسيليو، جورجيو: رواية الوكيل البندقي جورجيو مرسيليو، روايات معاصرة حول الاعتراف بالملكة أليس وبالاستيلاء على صور، عن الموسوعة الشاملة، ج٣٥.

١٦٠- هِنتس، فالتر: المكاييل والأوزان الإسلامية، تر: كامل العسلي، منشورات الجامعة الأردنية، عمان، ١٩٧٠م.

١٦١- ويندوفر، روجر أوف، ت١٢٣٧م: ورود التاريخ، تر: سهيل زكار، الموسوعة الشاملة في تاريخ الحروب الصليبية، دار الفكر، ٢٠٠٠م، ج٤٤+ ٤٥.

**الرسائل والأطروحات الجامعية**

١٦٢- حاج أبو بكر، نضال: أسرة شيخ الشيوخ ابن حموية في العصر الأيوبي وعلاقتها مع الصليبيين، رسالة أعدت لنيل درجة الماجستير في تاريخ العرب والإسلام، بإشراف أ.د. اكتمال اسماعيل، جامعة دمشق، ٢٠٠٨م.

١٦٣- حميد، فيصل بجاش علي: التيارات الفكرية في بلاد الشام ودورها في مواجهة الحروب الصليبية، أطروحة أعدت لنيل درجة الدكتوراه في تاريخ العرب والإسلام ، بإشراف أ.د. سهيل زكار، جامعة

دمشق، ٢٠٠٧م.

١٦٤- الخريسات، حنان: السياسة الأيوبية تجاه الصليبيين (٥٨٩-٦٤٨هـ/ ١١٩٣-١٢٥٠م)، رسالة أُعدت للحصول على درجة الماجستير، بإشراف أ.د. أحمد الحسو، جامعة مؤتة، ٢٠٠٤م.

١٦٥- داوود، مها: دور قبرص في أحداث الحروب الصليبية من أواخر القرن ٦هـ/ ١٢م حتى أواخر ٨هـ/ ١٤م، أطروحة غير منشورة أعدت لنيل درجة الدكتوراه بإشراف أ.د. وفاء جوني، جامعة دمشق، ٢٠٠٩-٢٠١٠م.

١٦٦- الدكيفي، خالد: لويس التاسع والنشاط الفرنسي الصليبي من معركة المنصورة حتى وفاته (٦٤٨-٦٦٩هـ/ ١٢٥٠- ١٢٧٠م)، رسالة أعدت لنيل درجة الدكتوراه في تاريخ العرب والإسلام، بإشراف أ.د. وفاء جوني، قسم التاريخ، جامعة دمشق ٢٠١١م.

١٦٧- سلامة، جلال حسني: عكا في أثناء الحملة الفرنجية- الصليبية الثالثة، رسالة أعدت لنيل درجة الماجستير بإشراف مصطفى الحياري، الجامعة الأردنية، ١٩٩٣م.

١٦٨- الصغير، أجفان: القلاع في فترة الحروب الصليبية ودورها عند المسلمين في بلاد الشام، رسالة ماجستير غير منشورة، بإشراف أ.د. سهيل زكار، جامعة دمشق، ١٩٩٥م.

١٦٩- علي، سهير محمد مليجي: المرأة الصليبية في بلاد الشام (١٠٩٨-١٢٦٨م)، بحث أُعد لنيل درجة الدكتوراه في الآداب، بإشراف: علية الجنزوري، جامعة عين شمس- كلية البنات، ٢٠٠٢م،

١٧٠- العلي، محمود سالم: الصراعات الصليبية الداخلية في مملكة القدس الثانية، رسالة غير منشورة أُعدت لنيل درجة الماجستير في تاريخ العرب والإسلام، بإشراف أ.د. سهيل زكار، جامعة دمشق، ١٤٣٠هـ/ ٢٠٠٩م.

**المجلات والدوريات**

١٧١- تقرير لجنة الآثار الألمانية العربية ، تموز، ١٩٨٣م.

١٧٢- عاشور، سعيد: الامبراطور فردريك الثاني والشرق العربي، مجلة الجامعة للدراسات التاريخية، مج ١١، ١٩٦٣م.

١٧٣- العزاوي، عباس: الذيل على مرآة الزمان، مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق، مطبعة الترقي، ١٩٤٧م، مج٢٢.

١٧٤- عمران، محمود سعيد: شارل كونت أنجوبين- القسطنطينية وتونس والقدس، مجلة المؤرخ العربي، عد ٦، مج١، آذار ١٩٩٨م.

١٧٥- مجلة البحوث الإسلامية، الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد، العدد ٨٨، ١٤٣٠هـ/ ٢٠٠٩م.

## المصادر والمراجع اللاتينية والأجنبية:

175 - Asssises de Jerusalem: tome II, par Benugonot, Paris, 1843.

176- Duggan. A : The story of crusades 1097-1291. London, 1963.

177 – Michaud. J.F; Hist. des Croisades , Paris, 1817-1822.

**178**- Hamilton: The Latin Church.

**179**- Hill .G, A: History of Cyprus, Cambridge, 1948.

**180**- History of the Patriarchs of Alexandria: extracts (trans. Blochet), Revue de l'Orient Latin, vol. xi Paris, 1908.

**181**- Holt, P.M; The Age of the Crusades, (The Near East From Eight Century to 1517), London, 1986.

**182**- Julien THÉRY-ASTRUC; Introduction", in Innocent III et le " Midi (Cahiers de Fanjeaux, 50), Toulouse, Privat, 2015.

**183**- Kantorowicz, Ernst; Frederick the Second (1194-1250), translated by: Lorimer (E-O), London, 1931.

**184**- L, Emperecr Fredreic II; Questions Philosophi ques A dress Aux Saront Muslmans. Journd Asiqtiaue au R, ecueil De Memories , tomel 1, F.M. paris. 1853.

**185**- L.F. Grasade; Lettre to the pope. Honorus III, dated 11 the nov, 1219.

**186**- Maher .Y: Sultan al-Kamil, Emperor Frederick II, Vol 3, No 5, September, 2013.

**187**- Maher Y, Abu-Munshar: Sultan al-Kamil, Emperor Frederick II and the Submission of Jerusalem, International Journal of Social Science and Humanity, Vol 3, No 5, September 2013.

**188**- Maher Y: Sultan al-Kamil, Emperor Frederick II, Vol 3, No 5,

September 2013.

**189**- Manuscrit de Rothelin, in R.H.C. Occ. Vol II

**190**- Moore, John C; "Pope Innocent III, Sardinia, and the Papal State." .Speculum, Vol. 62, No. 1. (Jan., 1987).

**191**- Painter (Sidney; The Crusade of Theobald of Champagne and Richard of Cornwall, 1239-1241, in Setton, A history of the Crusades, vol. II.

**192**- Painter, S,A: History of Middle Ages, (1284-1500), Newyork, 1954.

**193**- Powell, J; Anatomy of a crusade, 1213-1221, Philadelphia, 1986.

**194**- Prawer, J; Minorities in the Crusader States in a History of the Crusades, Vol, V.

**195**- Rey, E. G: Les Seigneurs de Giblet, in R.O.L. III, Paris 1900-1901.

**196**- Setton.K.M: A History of the Crusades, Pensylvania, 1958.

**197**- Stevenson, W.B :the Crusaders in the East, slim press, Beirut, 1968

**198**- The Templar of Tyre, passim; Letter of John de Villiers.

**199**- Theoderich; Description of the Holy places.

**200**- Van Cleve; The Emperor Fredrick II, Oxford, 1972.

**201**- Vitry; Lettres des Tacgues de Vitry.

# ABSTRACT

In spite of the success of the Third Crusaders Campaign in reviving the Second Kingdom of Jerusalem on a narrow coastal strip stretching from Sidon in the north to Jaffa in the south ,but the failure of this campaign to achieve its most important goals, namely, "the restoration of Jerusalem represents the beginning of crusader decline ,so the ideology of the Crusades was weakened, the popular Christian enthusiasm decreased, and the priorities for the Europeans were to solve their internal problems and conflicts not the crusader project. Nevertheless, their new kingdom, the second Kingdom of Latin Jerusalem, lasted nearly a century, this can be proved by similar events and facts with those in Islamic side. That was because the preoccupation of Islamic countries with the conflict and rivalry among the members of the House of Ayyubis who resorted to establish an external alliances against their brothers at home, in order to tighten their throne and steady in front of their competitors. Based on the conditions of both parties (Islamic on the one hand and the Crusader on the other), it was necessary to enter into political and diplomatic relations and implied agreements that would guarantee a temporary stage of calm and stability so they strengthen their relations to the degree that Ayyubid Alkamel abdicated completely and presented the city of Jerusalem as a gift to his rival the- German emperor- in 626 AH / 1229 AD. In order to strengthen relations between each other, and to keep his throne.

The research of this thesis is a new deep study about the development of Islamic –Crusader relations in the second century of the history of the Crusades, its content is new and presents unprecedented ideas .although many studies dealt with this subject ,rare studies specialized in the relations between the Ayyubids and the Kingdom of Jerusalem , especially diplomatic ones, and the reflection of them on the internal affairs, or the repercussions of those conditions on external relations .in fact Crusaders still have many aspects which need clarification and explanation.

It should be mentioned that this study does not deal with Ayyubid- Ayyubid relations and conflicts at that era. Except for those relate to and clarify the subject of Ayyubid relations with the Kingdom of Latin Jerusalem II. Frankly, Ayyubid- Ayyubid relations is an extent independent research entitled by specialized studies.

"Kingdom of Second Latin Jerusalem" is a branch from this thesis which should be clarified .It refers to Crusader Occupation State established by crusaders of the third campaign after the collapsing of their first kingdom in Jerusalem by Saladin. They chose Acre as a capital and kept the ancient name Kingdom of Jerusalem . Although it was not under their control .They refused their fact of losing Jerusalem; so they insisted on calling their kingdom Kingdom of Jerusalem. In their point of view Acre was temporary capital and substitute for Jerusalem, which they must return to, bringing with them the glory and importance of the city that had before . And they were confident that they would recall it and take it as a capital of their new kingdom, so they called it "Second Kingdom of Latin Jerusalem.."

It is important to mention that the research was restricted to the Ayyubid relations with the Crusaders of the Second Kingdom of Jerusalem, that means it did not address the Ayyubid relations with the other Crusader entities that existed at the time. It must be clarified that the research has no need to talk about the efforts and conquests of Saladin, except for his efforts and attempts to prevent the establishment of the Second Kingdom of Jerusalem.

According to that , the thesis was divided into six sections, the first one was specialized in discussing establishment of the Second Kingdom of Jerusalem in 587 AH / 1191 AD, and the basic factors that contributed to that. And taking Acre as a temporary substitute for Jerusalem after a great siege of Acre and fierce battles around it. These are the most ferocious battles in the history of the Crusades. First, It was necessary to explain the geography of Acre and the importance of its position, and the origin of that name and its development.

The second chapter is devoted to study the inheritance of the throne in the second Latin Kingdom of Jerusalem since its foundation until its collapse. As the system of ruling was purely inherited ,women had the priority in ruling. The throne transferred through their marriages from family to another, so ruling families multiplied , although the system of ruling was purely hereditary .As a result conflicts and struggles emerged about the eligibility in his inheritance.

The third chapter is restricted to clarify the political system followed in this new Kingdom, and the most important features of the dispute between it and

the system that was followed in the First Kingdom. Here I focused on showing the weakness of the authority of the King or the guardian of the throne of Acre. The chapter also discussed the most important categories of the population which settled that Kingdom or transferred to. The fourth chapter dealt with Ayyubid relations with the Second Kingdom of Jerusalem from its foundation until the advent of the Fifth Crusade in 614 AH / 1217 AD .The first and most important diplomatic and political contacts between the two conflicting parties were concluded, and they held al-Ramlah conciliation. After that, the Ayyubid state suffered from a series of internal conflicts that made them strive to preserve the principles of this reconciliation.

The last two chapters (fifth and sixth) discussed the Ayyubid relations with the Kingdom of Jerusalem during the fifth, sixth and seventh crusades, and the serious and important events that took place in them. The role played by the Kingdom in these campaigns which characterized by the conflict between the papacy and the political leadership. The campaigns proved entirely that the papacy is unconfident in its military leadership of any campaign. The role of al-Khawarismiya in the events of that period was also mentioned, and they played an important role in changing the course of events at the time.

Controversial aspect in this research lies behind how crusades succeeded in reviving their kingdom after its collapsing by Saladin in Hittin battle .Sour was the only city under their control .Also ,the importance of it and the role that played in reviving the control of Crusades , and what factors which joined together and made it a military base for Crusades armies in order to

reestablish their collapsing kingdom .The question here is : As Sour was very important why Crusades did not take it as a capital and prefer Acre to .And how this kingdom lasted about a century although it was surrounded by enemies, and suffering from internal conflict about authority.

As for the difficulties of research, they came from differing opinions, divergence of narratives and its contradictions and sometimes ambiguity .So we have to involve all .This is not an easy work, the researcher should think deeply and select the suitable events, arrange them and explain them especially those are not clear or apparent in those sources. Therefore, before embarking on the draft of this thesis ,it is important to be patient and look in various researches and novels, and compare, and explain, to show their facts and arrange in detail.

At the end of this study, several results were reached,

During the Third Crusade (587 AH / 1191 CE), the European struggle for economic and political hegemony in the Mediterranean region became clear. The Western religious motives and zeal of the crusader project were decreased .Therefore, the coastal lands and seaports recovered by the Third Crusade were founded by the Second Latin Kingdom of Jerusalem were more important - for the leaders of the European countries – than the city of Jerusalem or other holy cities located far from the coast, because that coastal strip was essential for their commercial and economic interests .Conflicts between The crusades of the fifth campaign to earn the offers of Ayyubid al-Kamel were a clear indication that the crusader personal interests overcame the religious aims and interests of the crusades. The

division of the Crusaders into themselves can only be explained in the light of narrow personal interests. The Second Latin Kingdom of Jerusalem also suffered from these interests since its founding, and perhaps even more so to say that these interests emerged after the fall of the First Kingdom. The peak of the activity and the effectiveness of the Crusades was during the Third campaign .The Europeans prepared the greatest campaign as a reaction to Hittin , , led by three of Europe's great kings .It lasted for two and a half years (585-587/ AH) (1187-1191/ CE) they were the harshest and toughest battles over the history , and their armies were the greatest .It can be said that Muslims sacrifice and championship were rare during The siege of Acre .Indeed ,that showed the international importance of Acre at that time.

The study of the Ayyubid- Crusader relations revealed two contradictory trends in terms of morality and respect for civilizational and human values. The Crusaders practiced terrorism, murder and bloodshed. While Arabs – Muslims were merciful; despite their legitimacy of al- jihad against the Crusaders in order to defend the self and the land and the honesty .They respect all the ethics of war especially Saladin who was famous for his mercy and morality which astonished even his enemies until now. Here researcher should notice an important and serious comparison , that is both kingdoms (I and II) characterized by brutality of the indigenous peoples in the capitals of both kingdoms (Jerusalem and Acre). It should be mentioned that both kingdoms founded by the newcomers. This is natural in the first kingdom, but this is denounced in the second. Because that in Hittin

the local municipal party, represented by Raymond III was demolished ,so the party of navy newcomers was prevail led by King Guy.

Here, it is noted that navy elements (who were newcomers) played a crucial role in the foundation of the Second Latin Kingdom of Jerusalem, newly arrived to the region, as Guy ,Conrad, Richard, and the third campaign in total , and also Louis IX in his campaign on the region was also a maritime immigrant.

The authority in the Second Kingdom of Latin Jerusalem was restricted due to competitive and conflicting parties, especially Italian merchants who worked hard to strengthen their influence and authority. It can be argued that the struggle and rivalry between the English and the French was the most important reason for the failure of the Third Crusade to recover the city of Jerusalem despite the attack and siege more than once, and despite the superiority of the Crusader army against the Muslims at the time, but it seems that Richard the Heart of Lion preferred to keep it under the control of Muslims But not under the authority of the French after his imminent departure from the Second Latin Kingdom of Jerusalem. He ordered the lifting of the siege and the withdrawal from it. This may be explained by the strong desire of Richard to sign the peace of al- Ramla in 588 AH / 1192 CE before traveling to Europe to ensure stability and prevent French control after his departure.

The two sides (the Arab - Islamic side and the Crusader on the other) encountered in the second century of the Crusades; the events and difficulties which ensured not to aggress on or demolish any side .

After the reconciliation of al- Ramla, Richard asked Saladin not to allow all European pilgrims to visit the holy sites in Palestine without his permission, but the latter refused that, and respect pilgrims and treated them generously , regardless of his motives this shows the importance and seriousness of Saladin's attitude towards the pilgrims, and demonstrates the political wisdom, diplomacy and humanitarian outlook. It seems that he wanted to prove to the Christian world that there is no danger or problem with the Christian rituals and sanctities if they were under the control of Muslims. The reconciliation of al-Ramlah held between Saladin and Richard was a beginning ,a pretext ,and a reference to many other treaties and agreements that followed signed by leaders of the Ayyubid family-the followers of Sal din – and kings of the Second Latin Kingdom of Jerusalem ,but what characterized this peace that it was total and comprehensive for all parties on both sides ,whereas the later treaties were partial.

The Ayyubid abdication of Jerusalem to Frederick II was a great reason for the triumph of Frederick's policies on the papacy. His reputation among the European peoples was the liberator of the Holy Shrine. This was a great blow to the populist popular faith and acceptance of it. Due to that many European knights and nobles were aware of the exploitation of the papacy under the cover of religion, and therefore appeals ,objections and criticisms were launched against papacy and its calling for campaigns of the Crusades, and gradually the voices of opposition to the crusades were risen. and so the European started to reconsider their legitimacy Of those campaigns and justification.

As for the continuing European interest in the Crusades, the emergence of European studies at the beginning of the fourteenth century on the lessons of the Crusades and the need to continue them can be seen. In contrast, there are no studies by Arab and Muslim historians about the lessons of these wars .Here it is suitable to invite to restudy this controversial point in an independent special research.

As for the matter of disobeying the al- Adhaan ordered by al-Kamil during Frederick's visit to Jerusalem in March 1229, the Arab-Islamic sources did not mentioned that at that time, while the references exaggerated the issue, despite the research's recognition of the importance of this case, its sensitivity and complete misconduct. But what can be reported here is that the preamble of the adhaan (Tawheed) is only disobeyed not al-Adan itself , as some contemporary writings have promoted.

The fate of the seventh campaign is quite reminiscent of the fate of the fifth campaign. If both leaders of these campaigns followed the politics and diplomacy of Frederick II during the sixth campaign, they would have achieved a great achievement in both campaigns far beyond what Frederick had achieved. The great losses suffered by the Crusaders during the seventh campaign were conclusive evidence of the futility of the Crusader activity in the Islamic East and proved clearly that this activity is about to be finished. It was a reference that Second kingdom would end and its fate would be unknown and dark .In the end, it is possible to say that the course of Ayyubid-Ayyubid conflicts confirms that the conflict was confined to the political leaderships and the general public refused these abject political purposes, and they stayed pure and strong in performing their religious and moral roles and duties .They linked together by religious and social ethnics ties .That gives us a hope that Arab-Islamic countries would rise up and

stop their bad reality and become unified and strong .This course also demonstrated that loyalty of conflicting rulers was to the cities not to the rulers themselves.

Damascus University

Faculty of Literatures and Human Sciences

History Department

# AL Ayyubid and second Latin Kingdom of Jerusalem

587-658AH \ 1191-1260 AD

A thesis prepared for getting a Doctoral Degree in the history of Arabs and Islam

**Prepared by:**

**Firas Najib Abd AL-Rahman**

**Supervision by:**

**Prof: Suhail Zakkar**

Damascus 1440 AH / 2018 AD